ووجه عطف)ولا بكم(على)بي(بإقحام)لا(النافية مع أنهما متعلقان بفعل صلة)ما(الموصولة وليس في الصلة نفي، فلماذا لم يقل: ما يفعل بي وبكم لأن الموصول وصلته لما وقعا مفعولا للمنفي في قوله)وما أدري(تناول النفي ما هو في حيز ذلك الفعل المنفي فصار النفي شاملا للجميع فحسن إدخال حرف النفي على المعطوف، كما حسن دخول الباء التي شأنها أن تزاد فيجر بها الاسم المنفي المعطوف على اسم)إن(وهو مثبت في قوله تعالى)أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى(لوقوع)أن(العاملة فيه في خبر النفي وهو)أو لم يروا(، وكذلك زيادة)من(في قوله تعالى)ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير(فإن)خير(وقع معمولا لفعل)ينزل(وهو فعل مثبت ولكنه لما انتفت ودادتهم التنزيل صار التنزيل كالمنفي لديهم.

وعطف)وما أنا إلا نذير مبين(على جملة)ما كنت بدعا من الرسل(لأنه الغرض المسوق له الكلام بخلاف قوله)وما أدري ما يفعل بي ولا بكم(.

والمعنى: وما أنا نذير مبين لا مفتر، فالقصر قصر إضافي، وهو قصر قلب لرد قولهم)افتراه(.

)قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين[10](أعيد الأمر بأن يقول لهم حجة أخرى لعلها تردهم إلى الحق بعد ما تقدم من قوله)قل أرأيتم ما تدعون من دون الله(الآية وقوله)قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا(وقوله)قل ما كنت بدعا من الرسل(الآية.

وهذا استدراج لهم للوصول إلى الحق في درجات النظر فقد بادأهم بأن ما أحالوه من أن يكون رسولا من عند الله ليس بمحال إذ لم يكن أول الناس جاء برسالة من الله. ثم أعقبه بأن القرآن إذا فرضنا أنه من عند الله وقد كفرتم بذلك كيف يكون حالكم عند الله تعالى.

وأقحم في هذا أنه لو شهد شاهد من أهل الكتاب بوقوع الرسالات ونزول الكتب على الرسل، وآمن برسالتي كيف يكون انحطاطكم عن درجته، وقد جاءكم كتاب فأعرضتم عنه، فهذا كقوله)أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم(، وهذا تحريك

للهمم. ونظير هذه الآية آية سورة فصلت)قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد(سوى أن هذه أقحم فيها قوله)وشهد شاهد من بني إسرائيل(فإن المشركين كانت له مخالطة مع بعض اليهودي في مكة ولهم صلة بكثير منهم في التجارة بالمدينة وخيبر فلما ظهرت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسألون من لقوه من اليهود عن أمر الأديان والرسل فكان اليهود لا محالة يخبرون المشركين ببعض الأخبار عن رسالة موسى وكتابه وكيف أظهره الله على فرعون.

فاليهود وإن كانوا لا يقرون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهم يتحدثون عن رسالة موسى عليه السلام بما هو مماثل لحال النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه وفيه ما يكفي لدفع إنكارهم رسالته.

فالاستفهام في)أرأيتم(تقريري للتوبيخ ومفعولا)أرأيتم(محذوفان.

والتقدير: أرأيتم أنفسكم ظالمين: والضمير المستتر في)إن كان(عائد إلى القرآن المعلوم من السياق أو إلى ما يوحى إلي في قوله آنفا)إن أتبع إلا ما يوحى إلي(. وجملة)وكفرتم به(في موضع الحال من ضمير)أرأيتم(. ويجوز أن يكون عطفا على فعل الشرط. وكذلك جملة)وشهد شاهد من بني إسرائيل(. لأن مضمون كلتا الجملتين واقع فلا يدخل في حيز الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه سياق الجدل. والتقدير: أفترون أنفسكم في ضلال.

وجملة)إن الله لا يهدي القوم الظالمين(تذييل لجملة جواب الشرط المقدرة وهي تعليل أيضا. والمعنى: أتظنون إن تبين أن القرآن وحي من الله وقد كفرتم بذلك فشهد شاهد على حقية ذلك توقنوا أن الله لم يهدكم لأنكم ظالمون وأن الله لا يهدي الظالمين.

وضميرا)كان(و)مثله(عائدان إلى القرآن الذي سبق ذكره مرات من قوله)تنزيل الكتاب من الله(وقوله)ائتوني بكتاب من قبل هذا(.

وجملة)واستكبرتم(عطف على جملة)وشهد شاهد(الخ وجملة) وشهد شاهد(عطف على جملة)إن كان من عند الله(.

صفحة : 4001

والمثل: المماثل والمشابه في صفة أوفعل، وضمير)مثله(للقرآن فلفظ)مثله(هنا يجوز أن يحمل على صريح الوصف، أي على مماثل للقرآن فيما أنكروه مما تضمنه القرآن من نحو توحيد الله

وإثبات البعث وذلك المثل هو كتاب التوراة أو الزبور من كتب بني إسرائيل يومئذ.
ويجوز أن يحمل المثل على أنه كناية عما أضيف إليه لفظ)مثل(، فيكون لفظ)مثل(بمنزلة المقحم على طريقة قول العرب:)مثلك لا يبخل(، وكما هو أحد محملين في قوله تعالى)ليس كمثله شيء(. فالمعنى: وشهد شاهد على صدق القرآن فيما حواه.
ويجوز أن يكون ضمير)مثله(عائدا على الكلام المتقدم بتأويل المذكور، أي على مثل ما ذكر في أنه)من عند الله(وأنه ليس بدعا من كتب الرسل.
فالمراد ب)شاهد من بين إسرائيل(شاهد غير معين، أي أي شاهد، لأن الكلام إنباء لهم بما كانوا يتساءلون به مع اليهود. وبهذا فسر الشعبي ومسروق واختاره ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة عبد الله بن سلام فالخطاب في قوله)أرأيتم(وما بعده موجه إلى المشركين من أهل مكة، وقال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد وعكرمة: المراد ب)شاهد من بين إسرائيل(عبد الله بن سلام. وروى الترمذي عن عبد الله بن سلام أنه قال: في نزلت آيات من كتاب الله)وشهد شاهد من بين إسرائيل(الآية.
ومثل قول قتادة ومجاهد وعكرمة روي عن ابن زيد ومالك بن أنس وسفيان الثوري ووقع في صحيح البخاري في باب فضل عبد الله بن سلام حديث عبد الله ابن يوسف عن مالك عن سعد بن أبي وقاص قال: وفيه نزلت هذه الآية)وشهد شاهد من بين إسرائيل على مثله(الآية، قال عبد الله بن يوسف: لا أدري قال مالك: الآية أو في الحديث.
قال مسروق: ليس هو ابن سلام لأن أسلم بالمدينة والسورة مكية، وقال الشعبي مثله. ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وأمر بوضعها في سورة الأحقاف، وعلى هذا يكون الخطاب في قوله)أرأيتم(وما بعده لأهل الكتاب بالمدينة وما حولها. وعندي أنه يجوز أن يكون هذا إخبارا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بما سيقع من إيمان عبد الله بن سلام فيكون هو المراد ب)شاهد من بين إسرائيل(وإن كانت الآية مكية.
والظاهر أن مثل هذه الآية هو الذي جرأ المشركين على إنكار نزول الوحي على موسى وغيره من الرسل فقالوا)لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه(وقالوا)ما أنزل الله على بشر من شيء(حين علموا أن قد لزمتهم الحجة بنزول ما سلف من الكتب قبل القرآن.
وجملة)إن الله لا يهدي القوم الظالمين(تعليل للكلام المحذوف الدال عليه ما قبله كما علمته آنفا، أي ضللتم ضلالا لا يرجى له

زوال لأنكم ظالمون)والله لا يهدي القوم الظالمين(. وهذا تسجيل عليهم بظلمهم أنفسهم.
وجيء في الشرط بحرف)إن(الذي شأنه أن يكون في الشرط غير المجزوم بوقوعه مجاراة لحال المخاطبين استنزالا لطائر جماحهم لينزلوا للتأمل والمحاورة.
)وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه(هذا حكاية خطأ آخر من أخطاء حجج المشركين الباطلة وهو خطأ منشؤه الإعجاب بأنفسهم وغرورهم بدينهم فاستدلوا على أن لا خير في الإسلام بأن الذين ابتدروا الأخذ به ضعفاء القوم وهم يعدونهم منحطين عنهم، فهم الذين قالوا)أهؤلاء من الله عليهم من بيننا(كما تقدم في الأنعام، وهو نظير قول قوم نوح)وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي(، ومناسبته لما قبله أنه من آثار استكبارهم فناسب قوله)واستكبرتم(.
واللام في قوله)للذين آمنوا(لام التعليل متعلقة بمحذوف، هو حال من الذين كفروا تقديره: مخصصين أو مريدين كاللام في قوله تعالى)وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا(، وقوله في الآية السابقة)قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين(.
وليست هي لام تعدية فعل القول إلى المخاطب بالقول نحو)ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا(المسماة لام التبليغ.
والضمير المستتر في)كان(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)إن كان من عند الله(وهو القرآن المفهوم من السياق أو ما يوحى إلي.
والسبق أطلق على تحصيل شيء قبل أن يحصله آخر، شبه بأسرع الوصول بين المتجارين، والمراد: الأخذ بما جاء به القرآن من العقائد والأعمال.

صفحة : 4002

وضمير الغيبة في قوله)سبقونا(عائد إلى غير مذكور في الآية ولكنه مذكور في كلام الذين كفروا الذي حكته الآية أرادوا به المؤمنين الأولين من المستضعفين مثل بلال، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وسمية، وزنيرة بزاي معجمة مكسورة ونون مكسورة مشددة مشبعة وراء مهملة أمة رومية كانت من السابقات إلى الإسلام وممن عذبهن المشركون ومن أعتقهن أبو بكر الصديق.

وعن عروة بن الزبير قال: عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زنيرة، أي من جملة أقوالهم التي جمعها القرآن في ضمير سبقونا.

)وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم[11](عطف على جملة)وقال الذين كفروا للذين آمنوا(الآية، أي فقد استوفوا بمزاعمهم وجوه الطعن في القرآن فقالوا)سحر مبين(وقالوا)افتراه(، وقالوا)لو كان خيرا ما سبقونا إليه(، وبقي أن يقولوا هو)إفك قديم(.

وقد نبه الله على أن مزاعمهم كلها ناشئة عن كفرهم واستكبارهم بقوله)قال الذين كفروا(وقوله)وكفرتم به(وقوله)واستكبرتم(وقوله)وإذ لم يهتدوا به(الآية.

وإذ قد كانت مقالاتهم رامية إلى غرض واحد وهو تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم كان توزيع أسبابها على مختلف المقالات مشعرا بأن جميعها أسباب لجميعها.

وضمير)به(عائد إلى القرآن واسم الإشارة راجع إليه.

ومعنى الآية: وإذ لم تحصل هدايتهم بالقرآن فيما مضى فسيستمرون على أن يقولوا هو)إفك قديم(إذ لا مطمع في إقلاعهم عن ضلالهم في المستقبل. ولما كانت)إذ(ظرفا للزمن الماضي وأضيفت هنا إلى جملة واقعة في الزمن الماضي كما يقتضيه النفي بحرف)لم(تعين أن الإخبار عنه بأنهم سيقولون)هذا إفك(أنهم يقولونه في المستقبل، وهو مؤذن بأنهم كانوا يقولون ذلك فيما مضى أيضا لأن قولهم ذلك من تصاريف أقوالهم الضالة المحكية عنهم في سور أخرى نزلت قبل هذه السورة، فمعنى) فسيقولون(سيدومون على مقالتهم هذه في المستقبل.

فالاستقبال زمن للدوام على هذه المقالة وتكريرها مثله في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم)وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين(فإنه قد هداه من قبل وإنما أراد سيديم هدايته إياي.

فليس المقصود إخبار الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم) سيقولون هذا(ولم يقولوه في الماضي إذ ليس لهذا الإخبار طائل. وإذ قد حكي أنهم قالوا ما يرادف هذا في آيات كثيرة سابقة على هذه الآية وأنهم لا يقلعون عنه ولا حاجة إلى تقدير فعل محذوف تتعلق به)إذ(.

وحيث قدم الظرف في الكلام على عامله أشرب معنى الشرط وهو إشراب وارد في الكلام، وكثير في)إذ(، ولذلك دخلت الفاء في جوابه هنا في قوله)فسيقولون(. ويجوز أن تكون)إذ(للتعليل، وتتعلق)إذ(ب)يقولون(ولا تمنع الفاء من عمل ما بعدها فيما قبلها على التحقيق. وإنما انتظمت الجملة هكذا لإفادة هذه الخصوصيات البلاغية، فالواو للعطف والمعطوف في معنى شرط والفاء لجواب

الشرط. وأصل الكلام: وسيقولون هذا إفك قديم إذ لم يهتدوا به ??????? وهذا التفسير جار على ما اختاره ابن الحاجب في الأمالي دون ما ذهب إليه صاحب الكشاف، فإنه تكلف له تكلفا غير شاف.

)ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين[12](اتبع إبطال ترهاتهم الطاعنة في القرآن بهذا الكلام المفيد زيادة الإبطال لمزاعمهم بالتذكير بنظير القرآن ومثيل له من كتب الله تعالى هو مشهور عندهم وهو التوراة مع التنويه بالقرآن ومزيته والنعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بها، فعطفت هذه الآية على التي قبلها لارتباطها بها في إبطال مزاعمهم وفي أنها ناظرة إلى قوله)وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله(كما تقدم.

ففي قوله)ومن قبله كتاب موسى(إبطال لإحالتهم أن يوحي الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم بأن الوحي سنة إلهية سابقة معلومة أشهره كتاب موسى، أي التوراة وهم قد بلغتهم نبوءته من اليهود.

وضمير)من قبله(عائد إلى القرآن.

وتقديم)من قبله(للاهتمام بهذا الخبر لأنه محل المقصد من الجملة.

صفحة : 4003

وعبر عن التوراة ب)كتاب موسى(بطريق الإضافة دون الاسم العلم وهو التوراة لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى من التذكير بأنه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم تلميحا إلى مثار نتيجة قياس القرآن على كتاب موسى بالمشابهة في جميع الأحوال.

و)إماما ورحمة(حالان من)كتاب موسى(، ويجوز كونهما حالين من)موسى(والمعنيان متلازمان.

والإمام: حقيقته الشيء الذي يجعله العامل مقياسا لعمل شيء آخر ويطلق إطلاقا شائعا على القدوة قال تعالى)واجعلنا للمتقين إماما(. وأصل هذا الإطلاق استعارة صارت بمنزلة الحقيقة، واستعير الإمام لكتاب موسى لأنه يرشد إلى ما يجب عمله فهو كمن يرشد ويعظ، وموسى إمام أيضا بمعنى القدوة.

والرحمة: اسم مصدر لصفة الراحم وهي من صفات الإنسان فهي، رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه. ووصف

الكتاب بها استعارة لكونه سببا في نفع المتبعين لما تضمنه من أسباب الخير في الدنيا والآخرة.
ووصف الكتاب بالمصدر مبالغة في الاستعارة، وموسى أيضا رحمة لرسالته كما وصف محمد صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله) وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين(.
وقوله)وهذا كتاب مصدق(الخ هو المقيس على)كتاب موسى(.
والإشارة إلى القرآن لأنه حاضر بالذكر فهو كالحاضر بالذات.
والمصدق: المخبر بصدق غيره. وحذف مفعول المصدق ليشمل جميع الكتب السماوية، قال تعالى)مصدق لما بين يديه(، أي مخبر بأحقية كل المقاصد التي جاءت بها الكتب السماوية السالفة. وهذا ثناء عظيم على القرآن بأنه احتوى على كل ما في الكتب السماوية وجاء مغنيا عنها ومبينا لما فيها.
والتصديق يشعر بأنه حاكم على ما اختلف فيه منها. وما حرف فهمه بها قال تعالى)مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه(.
وزاده ثناء بكونه)لسانا عربيا(، أي لغة عربية فإنها أفصح اللغات وأنفذها في نفوس السامعين وأحب اللغات للناس، فإنها أشرف وأبلغ وأفصح من اللغة التي جاء بها كتاب موسى، ومن اللغة التي تكلم بها عيسى ودونها أتباعه أصحاب الأناجيل.
وأدمج لفظ)لسانا(للدلالة على أن المراد بعربيته عربية ألفاظه لا عربية أخلاقه وتعاليمه لأن أخلاق العرب يومئذ مختلطة من محاسن ومساو فلما جاء الإسلام نفى عنها المساوي، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .
وغلب إطلاق اللسان على اللغة لأن أشرف ما يستعمل فيه اللسان هو الكلام قال تعالى)وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه(، وقال)فإنما يسرناه بلسانك(.
وقوله)لتنذر الذين ظلموا(يجوز أن يتعلق ب)مصدقا لسانا عربيا(لأن ما سبقه مشتمل على الإنذار والبشارة والأحسن أن يتعلق بما في كتاب من معنى الإرشاد المشتمل على الإنذار والبشارة. وهذا أحسن ليكون)لتنذر(علة للكتاب باعتبار صفته وحاله.
)والذين ظلموا هم المشركون( )إن الشرك لظلم عظيم(ويلحق بهم الذين ظلموا أنفسهم من المؤمنين ولذلك قوبل بالمحسنين وهم المؤمنون الأتقياء لأن المراد ظلم النفس ويقابله الإحسان.
والنذارة مراتب والبشارة مثلها.
و)بشرى(عطف على)مصدق(، والتقدير: وهو بشرى للمحسنين، أي الكتاب، وهذا النظم يجعل الجملة بمنزلة الاحتراس والتتميم.
وقرأ نافع وابن عامر والبزي عن ابن كثير ويعقوب)لتنذر(بالمثناة الفوقية خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم فيحصل وصف

الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه منذر ووصف كتابه بأنه)بشرى(وفيه احتباك. وقرأه الجمهور بالمثناة التحتية على أنه خبر عن الكتاب فإسناد الإنذار إلى كتاب مجاز عقلي.
)إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون[13] أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون[14](استئناف بياني أوثر بصريحه جانب المؤمنين من المستمعين للقرآن لأنهم لما سمعوا البشرى تطلعوا إلى صفة البشرى وتعيين المحسنين ليضعوا أنفسهم في حق مواضعها، فأجيبوا بأن البشرى هي نفي الخوف والحزن عنهم، وأنهم أصحاب الجنة وأن المحسنين هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا في أعمالهم. وأشير بمفهومه إلى التعريض بالذين ظلموا فإن فيه مفهوم القصر من قوله)أولئك أصحاب الجنة(.

صفحة : 4004

وتعريفهم بطريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من تعليل كرامتهم عند الله لأنهم جمعوا حسن معاملتهم لربهم بتوحيده وخوفه وعبادته، وهو ما دل عليه)قالوا ربنا الله(إلى حسن معاملتهم أنفسهم وهو معنى)ثم استقاموا(.
وجيء في صلة الموصول بفعل)قالوا(لإيجاز المقول وغنيته عن أن يقال: اعترفوا بالله وحده وأطاعوه. والمراد: أنهم قالوا ذلك واعتقدوا معناه إذ الشأن في الكلام الصدق وعملوا به لأن الشأن مطابقة العمل للاعتقاد.
)ثم(للتراخي الرتبي: وهو الارتقاء والتدرج، فإن مراعاة الاستقامة أشق من حصول الإيمان لاحتياجها إلى تكرر مراقبة النفس، فأما الإيمان فالنظر يقتضيه واعتقاده يحصل دفعة لا يحتاج إلى تجديد ملاحظة. فهذا وجه التراخي الرتبي من جهة، وإن كان الإيمان أرقى درجة من العمل من حيث إنه شرط في الاعتداد بالعمل ولذلك عطف ب)ثم(التي للتراخي في قوله تعالى)وما أدراك ما العقبة فك رقبة(إلى قوله)ثم كان من الذين آمنوا(، فالاعتباران مختلفان باختلاف المقام المسوق فيه الكلام كما يظهر بالتأمل هنا وهناك، وتقدم نظيره في سورة فصلت.
ودخول الفاء على خبر الموصول وهو)فلا خوف عليهم(لمعاملة الموصول معاملة الشرط كأنه قيل: إن قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم، ومثله كثير في القرآن، فأفاد تسبب ذلك في أمنهم من الخوف والحزن.

و)عليهم(خبر عن خوف، أي لا خوف يتمكن منهم ويصيبهم ويلحقهم.
وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله)ولا هم يحزنون(لتخصيص المسند إليه بالخبر نحو: ما أنا قلت هذا، أي أن الحزن منتف عنهم لا عن غيرهم، والمراد بالغير: من لم يتصف بالإيمان والاستقامة في مراتب الكفر والعصيان، فجنس الخوف ثابت لمن عداهم على مراتب توقع العقاب حتى في حالة الوجل من عدم قبول الشفاعة فيهم ومن توقع حرمانهم من نفحات الله تعالى.
واستحضارهم بطريق اسم الإشارة في قوله)أولئك أصحاب الجنة(للتنبيه على أنهم أحرياء بما يرد من الإخبار عنهم بما بعد الإشارة لأجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة، كما تقدم في قوله)أولئك على هدى من ربهم(في أول سورة البقرة.
)وأصحاب الجنة(أدل على الاختصاص بالجنة من أن يقال: أولئك في الجنة وأولئك لهم الجنة لما في)أصحاب(من معنى الاختصاص وما في الإضافة أيضا.
وقوله)جزاء بما كانوا يعملون(تصريح بما استفيد من تعليل الصلة في الخبر ومن اقتضاء اسم الإشارة جدارتهم بما بعده وما أفاده وصف أصحاب وما أفادته الإضافة، وهذا من تمام العناية بالتنويه بهم.
)ووصينا الإنسان بوالديه حسنا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا(تطلب بعض المفسرين وجه مناسبة وقوع هذه الآية عقب التي قبلها، وذكر القرطبي عن القشيري أن وجه اتصال الكلام بعضه ببعض أن المقصود بيان أنه لا يبعد أن يستجيب بعض الناس للنبي صلى الله عليه وسلم ويكفر به بعضهم كما اختلف حال الناس مع الوالدين. وقال ابن عساكر: لما ذكر الله التوحيد والاستقامة عطف الوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما أية من القرآن. وكلا هذين القولين غير مقنع في وجه الاتصال.
ووجه الاتصال عندي أن هذا الانتقال إلى قول آخر من أقوال المشركين وهو كلامهم في إنكار البعث وجدالهم فيه فإن ذلك من أصول كفرهم بمحل القصد من هذه الآيات قوله)والذي قال لوالديه أف لكما(إلى قوله)خاسرين(.
وصيغ هذا في أسلوب قصة جدال بين والدين مؤمنين وولد كافر، وقصة جدال بين ولد مؤمن ووالدين كافرين لأن لذلك الأسلوب وقعا في أنفس السامعين مع ما روي إن ذلك إشارة إلى جدال جرى بين عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه وبين والديه كما

سيأتي. ولذلك تعين أن يكون ما قبله توطئة وتمهيدا لذكر هذا الجدال.
وقد روى الواحدي عن ابن عباس أن قوله)ووصينا الإنسان بوالديه حسنا(إلى قوله)يوعدون(نزل في أبي بكر الصديق. وقال ابن عطية وغير واحد: نزلت في أبي بكر وأبيه أبي قحافة وأمه أم الخير أسلم أبواه جميعا.

صفحة : 4005

وقد تكررت الوصاية ببر الوالدين في القرآن وحرض عليها النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عديدة فكان البر بالوالدين أجلى مظهرا في هذه الآمة منه في غيرها وكان من بركات أهلها بحيث لم يبلغ بر الوالدين مبلغا في أمة مبلغه في المسلمين.
وتقدم)ووصينا الإنسان بوالديه حسنا(في سورة العنكبوت.
والمراد بالإنسان الجنس، أي وصينا الناس وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب لقوله في آخرها)أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا(الآية.
وكذلك هو فيما ورد من الآيات في هذا الغرض كما في سورة العنكبوت وفي سورة لقمان بصيغة واحدة.
والحسن: مصدر حسن، أي وصيناه بحسن المعاملة. وقرأه الجمهور كذلك. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف)إحسانا(. والنصب على القراءتين إما بنزع الخافض وهو الباء وإما بتضمين)وصينا(معنى: ألزمنا.
والكره: بفتح الكاف وبضمها مصدر أكره، إذا امتعض من شيء، أي كان حمله مكروها له، أي حالة حمله وولادته لذلك.
وقرأ الجمهور)كرها(في الموضعين بفتح الكاف. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر ويعقوب بضم الكاف في الموضعين. وانتصب)كرها(على الحال، أي كارهة أو ذات كره.
والمعنى: أنها حملته في بطنها متعبة من حمله تعبا يجعلها كارهة لأحوال ذلك الحمل.
ووضعته بأوجاع وآلام جعلتها كارهة لوضعه. وفي ذلك الحمل والوضع فائدة له هي فائدة وجوده الذي هو كمال حال الممكن وما ترتب على وجوده من الإيمان والعمل الصالح الذي به حصول النعم الخالدة.

وأشير إلى ما بعد الحمل من إرضاعه الذي به علاج حياته ودفع ألم الجوع عنه وهو عمل شاق لأمه فذكرت مدة الحمل والإرضاع لأنها لطولها تستدعي صبر الأم على تحمل كلفة الجنين والرضيع.

والفصال: الفطام، وذكر الفصال لأنه انتهاء مدة الرضاع فذكر مبدأ مدة الحمل بقوله)وحمله(وانتهاء الرضاع بقوله)وفصاله(. والمعنى: وحمله وفصاله بينهما ثلاثون شهرا.

وقرأ يعقوب)وفصله(بسكون الصاد، أي فصله عن الرضاعة بقرينة المقام.

ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهرا لتطابق مختلف مدد الحمل إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة وهو الغالب، قيل: كانوا إذا كان حمل المرأة تسعة أشهر وهو الغالب أرضعت المولود أحد وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ثمانية أشهر أرضعت اثنين وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل سبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا، وذلك أقصى أمد الإرضاع فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهرا زائدا في الإرضاع لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالا.

ومن بديع هذا الطي في الآية أنها صالحة للدلالة على أن مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر ولولا أنها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر لأن الغرض إظهار حق الأم في البر بما تحملته من مشقة الحمل فإن مشقة مدة الحمل أشد من مشقة الإرضاع فلولا قصد الإيماء إلى هذه الدلالة لكان التحديد بتسعة أشهر أجدر بالمقام.

وقد جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية مع آية سورة البقرة)والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين(دليلا على أن الوضع قد يكون لستة أشهر، ونسب مثله إلى ابن عباس. ورووا عن معمر بن عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان ابن عفان فذكر له فبعث إليها عثمان، فلما أتي بها أمر برجمها فبلغ ذلك عليا فأتاه فقال: أما تقرأ القرآن قال: بلى. أما سمعت قوله)وحمله وفصاله ثلاثون شهرا(، وقال)حولين كاملين(فلم نجده بقي إلا ستة أشهر. فرجع عثمان إلى ذلك وهو استدلال بني على اعتبار أن شمول الصور النادرة التي يحتملها لفظ القرآن هو اللائق بكلام علام الغيوب الذي أنزله تبيانا لكل شيء من مثل هذا.

وتقدم الكلام على أحكام الحمل في سورة البقرة.

)حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى ولدي وأن أعمل صلحا ترضيه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين[15](

صفحة : 4006

)حتى(ابتدائية ومعناها معنى فاء التفريع على الكلام المتقدم، وإذ كانت)حتى(لا يفارقها معنى الغاية كانت مؤذنة هنا بأن الإنسان تدرج في أطواره من وقت فصاله إلى أن بلغ أشده، أي هو موصى بوالديه حسنا في الأطوار الموالية لفصاله، أي يوصيه وليه في أطوار طفولته ثم عليه مراعاة وصية الله في وقت تكليفه.

ووقوع)إذا(بعد)حتى(ليرتب عليها توقيت ما بعد الغاية من الخبر، أي كانت الغاية وقت بلوغه الأشد، وقد تقدمت نظائر قريبا وبعيدا منها قوله تعالى)حتى إذا فشلتم(في سورة آل عمران.

ولما كان)إذا(ظرفا لزمن مستقبل كان الفعل الماضي بعدها منقلبا إلى الاستقبال، وإنما صيغ بصيغة الماضي تشبيها للمؤكد تحصيله بالواقع، فهو استعارة.

و)إذا(تجريد للاستعارة، والمعنى: حتى يبلغ أشده، أي يستمر على الإحسان إليهما إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغه)قال رب أوزعني(، أي طلب العون من الله على زيادة الإحسان إليهما بأن يلهمه الشكر على نعمه عليه وعلى والديه.

ومن جملة النعم عليه أن ألهمه الإحسان لوالديه.

ومن جملة نعمه على والديه أن سخر لهما هذا الولد ليحسن إليهما، فهاتان النعمتان أول ما يتبادر عن عموم نعمة الله عليه وعلى والديه لأن المقام للحديث عنهما.

وهذا إشارة إلى أن الفعل المؤقت ببلوغ الأشد وهو فعل)قال رب أوزعني(من جملة ما وصي به الإنسان، أي أن يحسن إلى والديه في وقت بلوغه الأشد. فالمعنى: ووصينا الإنسان حسنا بوالديه حتى في زمن بلوغه الأشد، أي أن لا يفتر عن الإحسان إليهما بكل وجه حتى بالدعاء لهما.

وإنما خص زمان بلوغه الأشد لأنه زمن يكثر فيه الكلف بالسعي للرزق إذ يكون له فيه زوجة وأبناء وتكثر تكاليف المرأة فيكون لها فيه زوج وبيت وأبناء فيكونان مظنة أن تشغلهما التكاليف عن تعهد والديهما والإحسان إليهما فنبها بأن لا يفترا عن الإحسان إلى الوالدين.

ومعنى)قال رب أوزعني(أنه دعا ربه بذلك، ومعناه: أنه مأمور بالدعاء إليهما بأنه لا يشغله الدعاء لنفسه عن الدعاء لهما وبأنه

يحسن إليهما بظهر الغيب منهما حين مناجاته ربه، فلا جرم أن إحسانه إليهما في المواجهة حاصل بفحوى الخطاب كما في طريقة الفحوى في النهي عن أذاهما بقوله تعالى)فلا تقل لهما أف(.

وحاصل المعنى: أن الله أمر بالإحسان إلى الوالدين في المشاهدة والغيبة وبجميع وسائل الإحسان الذي غايته حصول النفع لهما، وهو معنى قوله تعالى)وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا(وأن الله لما أمر بالدعاء للأبوين وعد بإجابته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لقوله إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير .

وما شكر الولد ربه على النعمة التي أنعمها الله على والديه إلا من باب نيابته عنهما في هذا الشكر، وهو من جملة العمل الذي يؤديه الولد عن والديه.

وفي حديث الفضل بن عباس أن المرأة الخثعمية قالت: لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفيجزئ أن أحج عنه ، قال: نعم حجي عنه، وهو حج غير واجب على أبيها لعجزه.

والأشد: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية وهو جمع لم يسمع له بمفرد. وقيل مفرده: شدة بكسر الشين وها التأنيث مثل نعمة جمعها أنعم، وليس الأشد اسما لعدد من سني العمر وإنما سنو العمر مظنة للأشد. ووقته ما بعد الثلاثين سنة وتمامه عند الأربعين سنة ولذلك عطف على)بلغ أشده(قوله)وبلغ أربعين سنة(أي بلغ الأشد ووصل إلى أكمله فهو كقوله تعالى)ولما بلغ أشده واستوى(، وتقدم في سورة يوسف، وليس قوله)وبلغ أربعين سنة(تأكيدا لقوله)بلغ أشده(لأن إعادة فعل بلغ تبعد احتمال التأكيد وحرف العطف أيضا يبعد ذلك الاحتمال.

و)أوزعني(: ألهمني. وأصل فعل أوزع الدلالة على إزالة الوزع، أي الانكفاف عن عمل ما، فالهمزة فيه للإزالة، وتقدم في سورة النمل.

و)نعمتك(اسم مصدر مضاف يعم، أي ألهمني شكر النعم التي أنعمت بها علي وعلى والدي من جميع النعم الدينية كالإيمان والتوفيق ومن النعم الدنيوية كالصحة والجدة.

وما ذكر من الدعاء لذريته بقوله)وأصلح لي في ذريتي(استطراد في أثناء الوصاية بالدعاء للوالدين بأن لا يغفل الإنسان عن التفكر في مستقبله بأن يصرف عنايته إلى ذريته كما صرفها إلى أبويه ليكون له من إحسان ذريته إليه مثل ما كان منه لأبويه وإصلاح الذرية يشمل إلهامهم الدعاء إلى الوالد.

وفي إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريته مع أن سياق الكلام في الإحسان إلى الوالدين إيماء إلى أن المرء يلقى من إحسان أبنائه إليه مثل ما لقي أبواه من إحسانه إليهما، ولأن دعوة الأب لابنه مرجوة الإجابة. وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم ، وفي رواية لولده وهو حديث حسن متعددة طرقه.

واللام في)وأصلح لي(لام العلة، أي أصلح في ذريتي لأجلي ومنفعتي كقوله تعالى)ألم نشرح لك صدرك(. ونكتة زيادة هذا في الدعاء أنه بعد أن أشار إلى نعم الله عليه وعلى والديه تعرض إلى نفحات الله فسأله إصلاح ذريته وعرض بأن إصلاحهم لفائدته، وهذا تمهيد لبساط الإجابة كأنه يقول: كما ابتدأتني بنعمتك وابتدأت والدي بنعمتك ومتعتهما بتوفيقي إلى برهما، كمل إنعامك بإصلاح ذريتي فإن إصلاحهم لي. وهذه ترقيات بديعة في درجات القرب.

ومعنى ظرفية)في ذريتي(أن ذريته نزلت منزلة الظرف يستقر فيه ما هو به الإصلاح ويحتوي عليه، وهو يفيد تمكن الإصلاح من الذرية وتغلغله فيهم. ونظيره في الظرفية قوله تعالى)وجعلها كلمة باقية في عقبه(.

وجملة)إني تبت إليك(كالتعليل للمطلوب بالدعاء تعليل توسل بصلة الإيمان والإقرار بالنعمة والعبودية.

وحرف)إن(للاهتمام بالخبر كما هو ظاهر، وبذلك يستعمل حرف)إن(في مقام التعليل ويغني غناء الفاء.

والمراد بالتوبة: الإيمان لأنه توبة من الشرك، وبكونه من المسلمين أنه تبع شرائع الإسلام وهي الأعمال. وقال)من المسلمين(دون أن يقول: وأسلمت كما قال)تبت إليك(لما يؤذن به اسم الفاعل من التلبس بمعنى الفعل في الحال وهو التجدد لأن الأعمال متجددة متكررة، وأما الإيمان فإنما يحصل دفعة فيستقر لأنه اعتقاد، وفيه الرعي على الفاصلة. هذا وجه تفسير الآية بما تعطيه تراكيبها ونظمها دون تكلف ولا تحمل، وهي عامة لكل مسلم أهل لوصاية الله تعالى بوالديه والدعاء لهما إن كانا مؤمنين.

)أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون[16](جيء باسم

الإشارة للغرض الذي ذكرناه آنفا عند قوله)أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها(. وكونه إشارة جمع ومخبرة عنه بألفاظ الجمع ظاهر في أن المراد بالإنسان من قوله)ووصينا الإنسان(غير معين بل المراد الجنس المستعمل في الاستغراق كما قدمناه.
والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ما قبلها من الوصف والحث يحدث ترقب السامع لمعرفة فائدة ذلك فكان قوله)أولئك الذين يتقبل عنهم(إلى آخره جوابا لترقية.
وعموم)أحسن ما عملوا(يكسب الجملة فائدة التذييل، أي الإحسان بالوالدين والدعاء لهما وللذرية من أفضل الأعمال فهو من أحسن ما عملوا. وقد تقبل منهم كل ما هو أحسن ما عملوا. والتقبل: ترتب آثار العمل من ثواب على العمل واستجابة للدعاء. وفي هذا إيماء إلى أن هذا الدعاء مرجو الإجابة لأن الله تولى تلقينه مثل الدعاء الذي في سورة الفاتحة ودعاء آخر سورة البقرة.
وعدي فعل)يتقبل(بحرف)عن(، وحقه أن يعدى بحرف)من(تغليبا لجانب المدعو لهم وهم الوالدان والذرية، لأن دعاء الولد والوالد لأولئك بمنزلة النيابة عنهم في عبادة الدعاء وإذا كان العمل بالنيابة متقبلا علم أن عمل المرء لنفسه متقبل أيضا ففي الكلام اختصار كأنه قيل: أولئك يتقبل منهم ويتقبل عن والديهم وذريتهم أحسن ما عملوا.
وقرأ الجمهور)يتقبل(و)يتجاوز(بالياء التحتية مضمونة مبنيين للنائب و)أحسن(مرفوع على النيابة عن الفاعل ولم يذكر الفاعل لظهور أن المتقبل هو الله. وقرأهما حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بنونين مفتوحتين ونصب)أحسن(.

صفحة : 4008

وقوله)في أصحاب الجنة(في موضع الحال من اسم الإشارة، أي كائنين في أصحاب الجنة حين يتقبل أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم لأن أصحاب الجنة متقبل أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم، وذكر هذا للتنويه بهم بأنهم من الفريق المشرفين كما يقال: أكرمه في أهل العلم.
وانتصب)وعد الصدق(على الحال من التقبل والتجاوز المفهوم من معاني)يتقبل(و)يتجاوز(، فجاء الحال من المصدر المفهوم من الفعل كما أعيد عليه الضمير في قوله تعالى)اعدلوا هو أقرب للتقوى(، أي العدل أقرب للتقوى.

والوعد: مصدر بمعنى المفعول، أي ذلك موعدهم الذي كانوا يوعدونه.
وإضافة)وعد(إلى)الصدق(إضافة على معنى)من(، أي وعد من الصدق إذ لا يتخلف.
و)الذي كانوا يوعدون(صفة وعد الصدق، أي ذلك هو الذي كانوا يوعدونه في الدنيا بالقرآن في الآيات الحاثة على بر الوالدين وعلى الشكر وعلى إصلاح الذرية.
)والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين[17](هذا الفريق المقصود من هذه الآيات المبدوءة بقوله تعالى)ووصينا الإنسان(. وهذا الفريق الذي كفر بربه وأساء إلى والديه، وقد علم أن والديه كانا مؤمنين من قوله) أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي(الآية.
فجملة)والذي قال لوالديه(الأحسن أن تكون معطوفة على جملة)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات(الخ انتقال إلى مقالة أخرى من أصول شركهم وهي مقالة إنكار البعث.
وأما قوله)الذي قال لوالديه(فالوجه جعله مفعولا لفعل مقدر تقديره: واذكر الذي قال لوالديه، لأن هذا الوجه يلائم كل الوجوه.
ويجوز جعله مبتدأ وجملة)أولئك الذين حق عليهم القول في أمم(خبرا عنه على أحد الوجهين الاثنين في مرجع اسم الإشارة من قوله)أولئك الذين حق عليهم القول(.
و)الذي(هنا اسم صادق على الفريق المتصف بصلته. وهذا وصف لفئة من أبناء من المشركين أسلم آباؤهم ودعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم وأغلظوا لهم القول فضموا إلى الكفر بشنيع عقوق الوالدين وهو قبيح لمنافاته الفطرة التي فطر الله الناس عليها لأن حال الوالدين مع أبنائهما يقتضي معاملتها بالحسنى، ويدل لعدم اختصاص قوله في آخرها)أولئك الذين حق عليهم القول(إلى آخره.
والذي عليه جمهور المفسرين: أن الآية لا تعني شخصا معينا وأن المراد منها فريق أسلم آباؤهم ولم يسلموا حينئذ.
وعن ابن عباس ومروان بن الحكم ومجاهد والسدي وابن جريج أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق واسمه عبد الكعبة الذي سماء النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمان بعد أن أسلم عبد الرحمان قالوا: كان قبل الهجرة مشركا وكان يدعوه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ويذكر انه بالبعث، فيرد عليهما بكلام مثل ما ذكره في هذه الآية. ويقول: فأين عبد الله بن جدعان، وأين عثمان بن عمرو، وأين عامر بن كعب، ومشايخ قريش حتى أسألهم عما يقول محمد. لكن ليست الآية خاصة به حتى تكون نازلة فيه،

وبهذا يؤول قول عائشة رضي الله عنها لما قال مروان بن الحكم لعبد الرحمان هو الذي يقول الله فيه)والذي قال لوالديه أف لكما(. وذلك في قصة إشارة عبد الرحمان على مروان أخذه البيعة ليزيد بن معاوية بالعهد له بالخلافة.

ففي صحيح البخاري في كتاب التفسير عن يوسف بن ماهك أنه قال كان مروان بن الحكم على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد ابن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه أي بولاية العهد فقال له عبد الرحمان بن أبي بكر أهرقلية أي اجعلتموها وراثة مثل سلطنة هرقل فقال: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني ، فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري أي براءتي . وكيف يكون المراد ب)الذي قال لوالديه أف لكما(عبد الرحمان بن أبي بكر وآخر الآية يقول)أولئك الذين حق عليهم القول(إلى) خاسرين(فذكر اسم الإشارة للجمع، وقضى على المتحدث عنهم بالخسران، ولم أقف على من كان مشركا وكان أبواه مؤمنين. وأياما كان فقد أسلم عبد الرحمان قبل الفتح فلما أسلم جب إسلامه ما قبله وخرج من الوعيد الذي في قوله)أولئك الذين حق عليهم القول(الآية، لأن ذلك وعيد وكل وعيد فإنما هو مقيد تحققه بأن يموت المتوعد به غير مؤمن وهذا معلوم بالضرورة من الشريعة. وتلقب عند الأشاعرة بمسألة الموافاة، على أنه قيل إن الإشارة بقوله)أولئك(عائدة إلى)الأولين(من قوله)ما هذا إلا أساطير الأولين(كما سيأتي.

وأف: اسم فعل بمعنى: أتضجر، وتقدم الكلام عليه في سورة الإسراء وفي سورة الأنبياء، وهو هنا مستعمل كناية عن أقل الأذى فيكون الذين يؤذون والديهم بأكثر من هذا أوغل في العقوق الشنيع وأحرى بالحكم بدلالة فحوى الخطاب على ما تقرر في قوله تعالى)فلا تقل لهما أف(في سورة الإسراء.

وقرأ نافع وحفص عن عاصم)أف(بكسر الفاء منونا. وقرأه ابن كثير وابن عامر ويعقوب)أف(بفتح الفاء غير منون. وقرأه الباقون أف بكسر الفاء غير منون، وهي لغات ثلاث فيه.

واعلم في قوله)والذي قال لوالديه أف لكما(محسن الاتزان فإنه بوزن مصراع من الرمل عروضه محذوفة، وضربه محذوف، وفيه الخبن والقبض، ويزاد فيه الكف على قراءة غير نافع وحفص.

والاستفهام في)أتعدانني أن أخرج(إنكار وتعجب. والإخراج: البعث بعد الموت.

وجعلت جملة الحال وهي)وقد خلت القرون من قبلي(قيدا لمنتهى الإنكار، أي كيف يكون ذلك في حال مضي القرون.

والقرون: جمع قرن وهو الأمة التي تقارب زمان حياتها، وفي الحديث خير القرون قرني ثم الذين يلونهم الحديث، وقال تعالى)أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا(.

والمعنى: أنه أحال أن يخرج هو من الأرض بعد الموت، وقد مضت أمم كثيرة وطال عليها الزمن فلم يخرج منهم أحد. وهذا من سوء فهمه في معنى البعث أو من المغالطة في الاحتجاج لأن وعد البعث لم يوقت بزمن معين ولا أنه يقع في هذا العالم.

وقرأ الجمهور)أتعدانني(بنونين مفككين وقرأه هشام عن ابن عامر بإدغام النونين.

ومعنى)يستغيثان الله(يطلبان الغوث من الله، أي يطلبان من الله الغوث بأن يهديه، فالمعنى: يستغيثان الله له.

وليست جملة)ويلك آمن(بيانا لمعنى استغاثتهما ولكنها مقول قول محذوف يدل عليه معنى الجملة.

وكلمة)ويلك(كلمة تهديد وتخويف.

والويل: الشر. وأصل ويلك: ويل لك كما في قوله تعالى)فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم(، فلما كثر استعماله وأرادوا اختصاره حذفوا اللام ووصلوا كاف الخطاب بكلمة)ويل(ونصبوه على نزع الخافض.

وفعل)آمن(منزل منزلة اللازم، أي اتصف بالإيمان وهو دعوة الإسلام، وجملة)إن وعد الله حق(تعليل للأمر بالإيمان وتعريض له بالتهديد من أن يحق عليه وعد الله.

والأساطير: جمع أسطورة وهي القصة وغلب إطلاقها على القصة الباطلة أو المكذوبة كما يقال: خرافة، وتقدم في قوله تعالى)وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين(في سورة النحل وفي قوله)وقالوا أساطير الأولين اكتتبها(في سورة الفرقان.

)أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين[18](يجوز أن يكون اسم الإشارة مشيرا إلى الذي قال لديه هذه المقالة لما علمت أن المراد به فريق، فجاءت الإشارة إليه باسم إشارة الجماعة بتأويل الفريق.

ويجوز أن يكون)أولئك(إشارة إلى)الأولين(من قوله)فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين(، وهم الذين روي أن ابن أبي بكر ذكرهم حين قال: فأين عبد الله بن جدعان، وأين عثمان بن عمرو، ومشائخ قريش كما تقدم آنفا. واستحضار هذا الفريق بطريق اسم الإشارة لزيادة تمييز حالهم العجيبة.

وتعريف)القول(تعريف العهد وهو قول معهود عند المسلمين لما تكرر في القرآن من التعبير عنه بالقول في نحو آية)قال فالحق والحق أقول لأملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين(، ونحو قوله)أفمن حق عليه كلمة العذاب(، فإن الكلمة قول، ونحو قوله) لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون(الآية.

وإطلاقه في هذه الآية رشيق لصلوحية.

وإقحام)كانوا خاسرين(دون أن يقال: إنهم خاسرون، للإشارة إلى أن خسرانهم محقق فكني عن ذلك بجعلهم كائنين فيه.

وتأكيد الكلام بحرف)إن(لأنهم يظنون أن ما حصل لهم في الدنيا من التمتع بالطيبات فوزا ليس بعده نكد لأنهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء، فشبهت حالة ظنهم هذا بحال التاجر الذي قل ربحه من تجارته فكان أمره خسرا، وقد تقدم غير مرة منها قوله تعالى)فما ربحت تجارتهم(في البقرة.

وإيراد فعل الكون بقوله)كانوا خاسرين(دون الاقتصار على) خاسرين(لأن)كان(تدل على أن الخسارة متمكنة منهم.

)ولكل درجت مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون[19] (عطف على الكلام السابق من قوله)أولئك الذين يتقبل عنهم(ثم قوله)أولئك الذين حق عليهم القول(الخ.

وتنوين)كل(تنوين عوض عما تضاف إليه)كل(وهو مقدر يعلم من السياق، أي ولكل الفريقين المؤمن البار بوالديه والكافر الجامع بين الكفر والعقوق درجات، أي مراتب من التفاوت في الخبر بالنسبة لأهل جزاء الخير وهم المؤمنون، ودركات في الشر لأهل الكفر.

والتعبير عن تلك المراتب بالدرجات تغليب لأن الدرجة مرتبة في العلو وهو علو اعتباري إنما يناسب مراتب الخير وأما المرتبة السفلى فهي الدركة قال تعالى)إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار(.

ووجه التغليظ التنويه بشأن أهل الخير.

و)من(في قوله)مما عملوا(تبعيضية. والمراد ب)ما عملوا(جزاء ما عملوا فيقدر مضاف. والدرجات: مراتب الأعمال في الخير وضده التي يكون الجزاء على وفقها.

ويجوز كون)من(ابتدائية، وما عملوا نفس العمل فلا يقدر مضاف والدرجات هي مراتب الجزاء التي تكون على حسب الأعمال، ومقادير ذلك لا يعلمها إلا الله وهي تتفاوت بالكثرة وبالسبق وبالخصوص، فالذي قال لوالديه أف لكما وأنكر البعث ثم أسلم بعد ذلك قد يكون هو دون درجة الذي بادر بالإسلام وبر والديه وما يعقب إسلامه من العمل الصالح. وكل ذلك على حسب الدرجات.

وأشار إلى أن جزاء تلك الدرجات كلها بقدر يعلمه الله، وقوله بعده)ولنوفينهم أعمالهم(هو علة لمحذوف دل عليه الكلام، وتقديره: قدرنا جزاءهم على مقادير درجاتهم لنوفينهم جزاء أعمالهم، أي نجازيهم تاما وافيا لا غبن فيه.

وقرأ الجمهور)ولنوفينهم(بنون العظمة، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وهشام عن ابن عامر ويعقوب بالتحتية مرادا به العود الى الله تعالى لأنه معلوم من المقام.

وجملة)وهم لا يظلمون(احتراس منظور فيه إلى توفية أحد الفريقين وهو الفريق المستحق للعقوبة لئلا يحسب أن التوفية بالنسبة إليهم أن يكون الجزاء أشد مما تقتضيه أعمالهم.

)ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون[20](انتقال إلى وعيد الكافرين على الكفر بحذافره، وذلك زائد على الوعيد المتقدم المتعلق بإنكارهم البعث مع عقوقهم الوالدين المسلمين.

فالجملة معطوفة على جملة)والذي قال لوالديه أف لكما(الآيات.

والكلام مقول قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار)أذهبتهم طيباتكم(، ومناسبة ذكره هنا أنه تقرير لمعنى)لا يظلمون(، أي لا يظلمون في جزاء الآخرة مع أننا أنعمنا عليهم في الدنيا ولو شئنا لعجلنا لهم الجزاء على كفرهم من الحياة الدنيا، ولكن الله لم يحرمهم من النعمة في الحياة الدنيا فإن نعمة الكافر في الدنيا نعمة عند المحققين من المتكلمين. وعن الأشعري: أن الكافر غير منعم عليه في الدنيا، وتؤول بأنه خلاف لفظي، أي

باعتبار أن عاقبتها سيئة. ونعمة الله في الدنيا معاملة بفضل الربوبية وجزاؤهم على أعمالهم في الآخرة معاملة بعدل الإلهية والحكمة.
وانتصب)يوم يعرض(على الظرفية لفعل القول المحذوف.
والعرض تقدم في قوله)أولئك يعرضون على ربهم(في سورة هود وقوله)النار يعرضون عليها(في سورة غافر وفي قوله)وتراهم يعرضون عليها(في سورة الشورى.
وإذهاب الطيبات مستعار لمفارقتها كما أن إذهاب المرء إبعاد له عن مكانه له. والذهاب: المبارحة.
والمعنى: استوفيتم ما لكم من الطيبات بما حصل لكم من نعيم الدنيا ومتعتها فلم تبق لكم طيبات بعدها لأنكم لم تعملوا لنوال طيبات الآخرة، وهو إعذار لهم وتقرير لكونهم لا يظلمون فرتب عليه قوله)فاليوم تجزون عذاب الهون(.
فالفاء فصيحة. والتقدير: إن كان كذلك فاليوم لم يبق لكم إلا جزاء سيء أعمالكم، وليست الفاء للتفريع ولا للتسبب. وليس في الآية ما يقتضي منع المسلم من تناول الطيبات في الدنيا إذا توخى حلالها وعمل بواجبه الديني فيما عدا ذلك وإن كان الزهد في الاعتناء بذلك أرفع درجة وهي درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاصة من أصحابه.
وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: لأنا أعلم بخفض العيش ولو شئت لجعلت أكبادا، وصلائق، وصنابا، وكراكر، وأسنمة ولكني رأيت الله نعى على قوم فقال:)أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها(. وأنما أراد عمر بذلك الخشية من أن يشغله ذلك عن واجبه من تدبير أمور الأمة فيقع في التفريط ويؤاخذ عليه. وذكر ابن عطية: أن عمر حين دخل الشام قدم إليه خالد بن الوليد طعاما طيبا. فقال عمر: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير؟ فقال خالد: لهم الجنة، فبكى عمر. وقال: لئن كان حظنا في المقام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيدا.
والهون: الهوان وهو الذل وإضافة)عذاب(إلى)الهون(مع إضافة الموصوف إلى الصفة.
والباء في قوله)بما كنتم تستكبرون(للسببية وهي متعلقة بفعل)تجزون(.
والمراد بالاستكبار، الاستكبار على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى قبول التوحيد.
والفسوق: الخروج عن الدين وعن الحق، وقد يأخذ المسلم بحظ من هذين الجرمين فيكون له حظ من جزائهما الذي لقيه الكافرون، وذلك مبين في أحكام الدين.

والفسوق: هنا الشرك.
وقرأ الجمهور)أذهبتم(بهمزة واحدة على أنه خبر مستعمل في التوبيخ.
وقرأه ابن كثير)أأذهبتم(بهمزتين على الاستفهام التوبيخي.
)واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم[21](سيقت قصة هود وقومه مساق الموعظة للمشركين الذين كذبوا بالقرآن كما أخبر الله عنهم من أول هذه السورة في قوله)والذين كفروا عما أنذروا معرضون(مع ما أعقبت به من الحجج المتقدمة من قوله)قل أرأيتم ما تدعون من دون الله(الذي يقابله قول هود)أن لا تعبدوا إلا الله(ثم قوله)قل ما كنت بدعا من الرسل(الذي يقابله قوله)وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه(، ذلك كله بالموعظة بحال هود مع قومه. وسيقت أيضا مساق الحجة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى عناد قومه بذكر مثال لحالهم مع رسولهم بحال عاد مع رسولهم. ولها أيضا موقع التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم على ما تلقاه به قومه من العناد والبهتان لتكون موعظة وتسلية معا يأخذ كل منها ما يليق به.

صفحة : 4012

ولا تجد كلمة أجمع للمعنيين مع كلمة)اذكر(لأنها تصلح لمعنى الذكر اللساني بأن يراد أن يذكر ذلك لقومه، ولمعنى الذكر بالضم بأن يتذكر تلك الحالة في نفسه وإن كانت تقدمت له وأمثالها لأن في التذكر مسلاة وإسوة كقوله تعالى)اصبر على ما يقولون(و)اذكر عبدنا داود ذا الأيد(في سورة ص~.
وكلا المعنيين ناظر إلى قوله آنفا)قل ما كنت بدعا من الرسل(فإنه إذا قال لهم ذلك تذكروا ما يعرفون من قصص الرسل مما قصه عليهم القرآن من قبل وتذكر هو لا محالة أحوال رسل كثيرين ثم جاءت قصة هود مثالا لذلك.
ومشركو مكة إذا تذكروا في حالهم وحال عاد وجدوا الحالين متماثلين فيجدر بهم أن يخافوا من أن يصيبهم مثل ما أصابهم.
والاقتصار على ذكر عاد لأنهم أول الأمم العربية الذين جاءهم رسول بعد رسالة نوح العامة وقد كانت رسالة هود ورسالة صالح قبل رسالة إبراهيم عليهم السلام، وتأتي بعد ذكر قصتهم إشارة

إجمالية إلى أمم أخرى من العرب كذبوا الرسل في قوله تعالى)ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى(الآية.
وأخو عاد هو هود وتقدمت ترجمته في سورة الأعراف.
وعبر عنه هنا بوصفه دون اسمه العلم لأن المراد بالذكر هنا ذكر التمثيل والموعظة لقريش بأنهم أمثال عاد في الإعراض عن دعوة رسول من أمتهم.
والأخ يراد به المشارك في نسب القبيلة، يقولون: يا أخا بني فلان، ويا أخا العرب، وهو المراد هنا وقد يراد بها الملازم والمصاحب، يقال: أخو الحرب وأخو عزمات. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة أنت أخونا ومولانا وهو المراد في قوله تعالى)كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون(. ولم يكن لوط من نسب قومه أهل سدوم.
و)إذ أنذر(اسم للزمن الماضي، وهي هنا نصب على البدل من أخا عاد، أي اذكر زمن إنذاره قومه فهي بدل اشتمال.
وذكر الإنذار هنا دون الدعوة أو الإرسال لمناسبة تمثيل حال قوم هود بحال قوم محمد صلى الله عليه وسلم فهو ناظر إلى قوله تعالى في أول السورة)والذين كفروا عما أنذروا معرضون(.
والأحقاف: جمع حقف بكسر فسكون، وهو الرمل العظيم المستطيل وكانت هذه البلاد المسماة بالأحقاف منازل عاد وكانت مشرفة على البحر بين عمان وعدن. وفي منتهى الأحقاف أرض حضرموت، وتقدم ذكر عاد عند قوله تعالى)والى عاد أخاهم هودا(في سورة الأعراف.
وجملة)وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه(معترضة بين جملة)أنذر(وجملة)أن لا تعبدوا إلا الله(المفسرة بها.
وقد فسرت جملة)أنذر(بجملة)لا تعبدوا إلا الله(الخ.
و)أن(تفسيرية لأن)أنذر(فيه معنى القول دون حروفه.
ومعنى)خلت النذر(سبقت النذر أي نذر رسل آخرين. والنذر: جمع نذارة بكسر النون.
و)من بين يديه ومن خلفه(بمعنى قريبا من زمانه وبعيدا عنه، ف)من بين يديه(معناه القرب كما في قوله تعالى)إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد(، أي قبل العذاب قريبا منه قال تعالى)وقرونا بين ذلك كثيرا(، وقال)ورسلا لم نقصصهم عليك(. وأما الذي من خلفه فنوح فقد قال هود لقومه)واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح(، وهذا مراعاة للحالة المقصود تمثيلها فهو ناظر إلى قوله تعالى)قل ما كنت بدعا من الرسل(أي قد خلت من قبله رسل مثل ما خلت بتلك.

وجملة)إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم(تعليل للنهي في قوله)أن لا تعبدوا إلا الله(، أي إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم بسبب شرككم.
وعذاب اليوم العظيم يحتمل الوعيد بعذاب يوم القيامة وبعذاب يوم الاستئصال في الدنيا، وهو الذي عجل لهم. ووصف اليوم بالعظم باعتبار ما يحدث فيه من الأحداث العظيمة، فالوصف مجاز عقلي.
)قالوا أجئتنا لتأفكنا عن ألهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين[22](جواب عن قوله)أن لا تعبدوا إلا الله(، ولذلك جاء فعل)قالوا(مفصولا على طريق المحاورة.
والاستفهام إنكار. والمجيء مستعار للقصد بطلب أمر عظيم، شبه طرو الدعوة بعد أن لم يكن يدعو بها بمجيء جاء لم يكن في ذلك المكان.
والأفك بفتح الهمزة: الصرف، وأرادوا به معنى الترك، أي لنترك عبادة آلهتنا.
وهذا الإنكار تعريض بالتكذيب فلذلك فرع عليه)فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين(فصرحوا بتكذيبه بطريق المفهوم.

والمعنى: ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به، أي عذاب اليوم العظيم، وإنما صرفوا مراد هود بالعذاب إلى خصوص عذاب الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالبعث وبهذا يؤذن قوله بعده)فلما رأوه عارضا(وقوله)بل هو ما استعجلتم به(. وأرادوا: ائتنا به الآن لأن المقام مقام تكذيب بأن عبادة آلهتهم تجر لهم العذاب.
و)من الصادقين(أبلغ في الوصف بالصدق من أن يقال: إن كنت صادقا، كما تقرر في قوله تعالى)وكان من الكافرين(في سورة البقرة، أي إن كنت في قولك هذا من الذين صدقوا، أي فإن لم تأت به فما أنت بصادق فيه.
)قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أريكم قوما تجهلون[23](لما جعلوا قولهم)فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين(فصلا بينهم وبينه فيما أنذرهم من كون عبادة غير الله توجب عذاب يوم عظيم، كان الأمر في قولهم)فأتنا(مقتضيا الفور، أي طلب تعجيله ليدل على صدقه إذ الشأن أن لا يتأخر عن إظهار صدقه لهم.
وإسناد الإتيان بالعذاب إليه مجاز لأنه الواسطة في إتيان العذاب بأن يدعو الله أن يعجله، أو جعلوا العذاب في مكنته يأتي به متى

أراد، تهكما به إذ قال لهم إنه مرسل من الله فجعلوا ذلك مقتضيا أن بينه وبين الله تعاونا وتطاوعا، أي فلا تتأخر عن الإتيان به.

وقد دل على هذا الاقتضاء قوله لهم حين نزول العذاب)بل هو ما استعجلتم به(فلذلك كان جوابه أن قال)إنما العلم عند الله(أي علم وقت إتيان العذاب محفوظ عند الله لا يطلع عليه أحد، فالتعريف في)العلم(للاستغراق العرفي، أي علم المغيبات، أو التعريف عوض عن المضاف إليه، أي وقت العذاب. وهذا الجواب يجري على جميع الاحتمالات في معنى قولهم)فأتنا بما تعدنا(لأن جميعها يقتضي أنه عالم بوقته.

والحصر هنا حقيقي كقوله)لا يجليها لوقتها إلا هو(، والمقصود من هذا الحصر شموله نفي العلم بوقت العذاب عن المتكلم ردا على قولهم)فأتنا بما تعدنا(.

و)عند(هنا مجاز في الانفراد بالعلم، أي فالله هو العالم بالوقت الذي يرسل فيه العذاب لحكمة في تأخيره.

ومعنى)وأبلغكم ما أرسلت به(أنه بعث مبلغا أمر الله وإنذاره ولم يبعث للإعلام بوقت حلول العذاب كقوله تعالى)يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها(، فقوله)أبلغكم ما أرسلت به(جملة معترضة بين جملة)إنما العلم عند الله(وجملة)ولكني أراكم قوما تجهلون(.

وموقع الاستدراك بقوله)ولكني أراكم قوما تجهلون(أنه عن قوله)إنما العلم عند الله(، أي ولكنكم تجهلون صفات الله وحكمة إرساله الرسل، فتحسبون أن الرسل وسائط لإنهاء اقتراح الخلق على الله أن يريهم العجائب ويساجلهم في الرغائب، فمناط الاستدراك هو معمول خبر)لكن(وهو)قوما تجهلون(، والتقدير: ولكنكم قوم يجهلون، فإدخال حرف الاستدراك على ضمير المتكلم عدول عن الظاهر لئلا يبادرهم بالتجهيل استنزالا لطائرهم، فجعل جهلهم مظنونا له لينظروا في صحة ما ظنه من عدمها.

وإنما زيد)قوما(ولم يقتصر على)تجهلون(للدلالة على تمكن الجهالة منهم حتى صارت من مقومات قوميتهم وللدلالة على أنها عمت جميع القبيلة كما قال لوط لقومه)أليس منكم رجل رشيد(.

وقرأ الجمهور)وأبلغكم(بتشديد اللام. وقرأه أبو عمرو بتخفيف اللام. يقال: بلغ الخبر بالتضعيف وأبلغه بالهمز، إذا جعله بالغا.

)فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم[24] تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين[25](الفاء لتفريع بقية القصة على ما ذكر منها، أي فلما أراد الله إصابتهم بالعذاب ورأوه عارض قالوا)هذا عارض(إلى آخره، ففي

الكلام تقدير يدل عليه السياق، ويسمى التفريع فيه فصيحة، وقد طوي ذكر ما حدث بين تكذيبهم هودا وبين نزول العذاب بهم، وذكر في كتب تاريخ العرب أنهم أصابهم قحط شديد سنين، وأن هودا فارقهم فخرج إلى مكة ومات بها، وقد قيل إنه دفن في الحجر حول الكعبة، وتقدم في سورة الحجر.

وقولهم)هذا عارض ممطرنا(يشير إلى أنهم كانوا في حاجة إلى المطر. وورد في سورة هود قول هود لهم)ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا(وقصتهم مبسوطة في تفسيرنا لسورة هود.

وضمير)رأوه(عائد إلي)ما تعدنا(، وهو العذاب. وأطلق على المرئي ضمير العذاب لأن المرئي سبب العذاب وهو ما حملته الريح. و)عارضا(حال منه، والعارض: السحاب الذي يعترض جو السماء أي رأوه كالعارض. وليس المراد عارض المطر لأنه ليس كذلك وكيف قد أبطل قولهم)هذا عارض ممطرنا(بقوله)بل هو ما استعجلتم به ريح(.

و)مستقبل أوديتهم(نعت ل)عارضا(.

والاستقبال: التوجه قبالة الشيء، أي سائرا نحو أوديتهم.

وأودية: جمع واد جمعا نادرا مثل ناد وأندية. ويطلق الواد على محلة القوم ونزلهم إطلاقا أغلبيا لأن غالب منازلهم في السهول ومقار المياه. وفي حديث سعد بن معاذ بمكة بعد الهجرة وما جرى بينه وبين أبي جهل من تحاور ورفع صوته على أبي جهل فقال له أمية: لا ترفع صوتك على أبي الحكم سيد أهل الوادي. وجمع الأودية باعتبار كثرة منازلهم وانتشارها.

والعارض في قولهم)هذا عارض ممطرنا(: السحاب العظيم الذي يعرض في الأفق كالجبل، و)ممطرنا(نعت ل)عارض(.

وقوله)بل هو ما استعجلتم به(مقول لقول محذوف، يجوز أن يكون من قول هود إن كان هود بين ظهرانيهم ولم يكن خرج قبل ذلك الى مكة أو هو من قول بعض رجالهم رأى مخائل الشر في ذلك السحاب. قيل: القائل هو بكر بن معاوية بن قوم عاد. قال لما رآه إني لأرى سحابا مرمدا لا تدع من عاد أحدا لعله تبين له الحق من إنذار هود حين رأى عارضا غير مألوف ولم ينفعه ذلك بعد أن حل العذاب بهم، أو كان قد آمن من قبل فنجاه الله من العذاب بخارق عادة.

وإنما حذف فعل القول لتمثيل قائل القول كالحاضر وقت نزول هذه الآية، وقد سمع كلامهم وعلم غرورهم فنطق بهذا الكلام ترويعا لهم. وهذا من استحضار الحالة العجيبة كقول مالك بن الريب:

دعاني الهوى من أهل ودي وجيرتي

بذي الشيطين فـالـتـفـت ورائيا فتخيل داعيا يدعوه فالتفت، وهذا من التخيل في الكلام البليغ.

وجعل العذاب مظروفا في الريح مبالغة في التسبب لأن الظرفية أشد ملابسة بين الظرف والمظروف من ملابسة السبب والمسبب.

والتدمير: الإهلاك، وقد تقدم.

و)كل شيء(مستعمل في كثرة الأشياء فإن)كلا(تأتي كثيرا في كلامهم بمعنى الكثرة. وقد تقدم عند قوله تعالى)ولو جاءتهم كل آية(في سورة يونس.

والمعنى: تدمر ما من شأنه أن تدمره الريح من الإنسان والحيوان والديار.

وقوله)بأمر ربها(حال من ضمير)تدمر(. وفائدة هذه الحال تقريب كيفية تدميرها كل شيء، أي تدميرا عجيبا بسبب أمر ربها، أي تسخيره الأشياء لها فالباء للسببية.

وأضيف الرب إلى ضمير الريح لأنها مسخرة لأمر التكوين الإلهي فالأمر هنا هو أمر التكوين.

)فأصبحوا(أي صاروا، وأصبح هنا من أخوات صار. وليس المراد: أن تدميرهم كان ليلا فإنهم دمروا أياما وليالي، فبعضهم هلك في الصباح وبعضهم هلك مساء وليلا.

والخطاب في قوله)لا ترى(لمن تتأتى منه الرؤية حينئذ إتماما لاستحضار حالة دمارهم العجيبة حتى كأن الآية نازلة في وقت حدوث هذه الحادثة.

والمراد بالمساكن: آثارها وبقاياها وأنقاضها بعد قلع الريح معظمها.

والمعنى: أن الريح أتت على جميعهم ولم يبق منهم أحد من ساكني مساكنهم.

وقوله)كذلك نجزي القوم المجرمين(أي مثل جزاء عاد نجزي القوم المجرمين، وهو تهديد لمشركي قريش وإنذار لهم وتوطئة لقوله)ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه(.

وقرأ الجمهور)لا ترى(بالمثناة الفوقية مبنيا للفاعل وبنصب) مساكنهم(، وقرأه عاصم وحمزة وخلف بياء تحتية مبنيا للمجهول وبرفع)مساكنهم(وأجرى على الجمع صيغة الغائب المفرد لأن الجمع مستثنى ب)إلا(وهي فاصلة بينه وبين الفعل.

)ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون[26](

صفحة : 4015

هذا استخلاص لموعظة المشركين بمثل عاد، ليعلموا أن الذي قدر على إهلاك عاد قادر على إهلاك من هم دونهم في القوة والعدد، وليعلموا أن القوم كانوا مثلهم مستجمعين قوى العقل والحس وأنهم أهملوا الانتفاع بقواهم فجحدوا بآيات الله واستهزؤوا بها وبوعيده فحاق بهم ما كانوا يستهزئون به، وقريش يعلمون أن حالهم مثل الحال المحكية عن أولئك فليتهيأوا لما سيحل بهم.

ولإفادة هذا الاستخلاص غير أسلوب الكلام إلى خطاب المشركين من أهل مكة، فالجملة في موضع الحال من واو الجماعة في)قالوا أجئتنا(والخبر مستعمل في التعجيب من عدم انتفاعهم بمواهب عقولهم.

وتأكيد هذا الخبر بلام القسم مع أن مفاده لا شك فيه مصروف إلى المبالغة في التعجيب.

والتمكين: إعطاء المكنة بفتح الميم وكسر الكاف وهي القدرة والقوة. يقال: مكن من كذا وتمكن منه، إذا قدر عليه. ويقال: مكنه في كذا، إذا جعل له القدرة على مدخول حرف الظرفية فيفسر بما يليق بذلك الظرف قال تعالى)مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم(في سورة الأنعام.

فالمعنى: جعلنا لهم القدرة في الذي لم نمكنكم فيه،أي من كل ما يمكن فيه الأقوام والأمم، وتقدم عند قوله تعالى)ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض(في أول الأنعام فضم إليه ما هنا.

و)ما(من قوله)فيما(موصولة. و)إن(نافية، أي في الذي ما مكناكم فيه.

ومعنى مكناكم فيه: مكناكم في مثله أو في نوعه فإن الأجناس والأنواع من الذوات حقائق معنوية لا تتغير مواهبها وإنما تختلف بوجودها في الجزئيات، فلذلك حسن تعدية فعل)مكناكم(بحرف الظرفية إلى ضمير اسم الموصول الصادق على الأمور التي مكنت منها عاد.

ومن بديع النظم أن جاء النفي هنا بحرف)إن(النافية مع أن النفي بها أقل استعمالا من النفي ب)ما(النافية قصدا هنا لدفع الكراهة من توالي مثلين في النطق، وهما)ما(الموصولة

و)ما(النافية وإن كان معناهما مختلفا، ألا ترى أن العرب عوضوا الهاء عن الألف في)مهما(، فإن أصلها:)ما ما(مركبة من) ما(الظرفية و)ما(الزائدة لإفادة الشرط مثل)أينما(. قال في الكشاف: ولقد أغث أبو الطيب في قوله:

لعمرك ما ما بان منك لضارب وأقول ولم يتعقب ابن جني ولا غيره ممن شرح الديوان من قبل على المتنبي وقد وقع مثله في ضرورات شعر المتقدمين كقول خطام المجاشعي:

وصاليات ككما يؤثفين ولا يغتفر مثله للمولدين.

فأما إذا كانت)ما(نافية وأراد المتكلم تأكيدها تأكيدا لفظيا، فالإتيان بحرف)إن(بعد)ما(أحرى كما في قول النابغة:

رماد ككحل العين ما إن أبينـه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع وفائدة قوله)وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة(أنهم لم ينقصهم شيء من شأنه أن يخل بإدراكهم الحق لولا العناد، وهذا تعريض بمشركي قريش، أي أنكم حرمتم أنفسكم الانتفاع بسمعكم وأبصاركم وعقولكم كما حرموه، والحالة متحدة والسبب متحد فيوشك أن يكون الجزاء كذلك.

وإفراد السمع دون الأبصار والأفئدة للوجه الذي تقدم في قوله) قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم(في سورة الأنعام وقوله) أمن يملك السمع والأبصار(في سورة يونس.

و)من(في قوله)من شيء(زائدة للتنصيص على انتفاء الجنس فلذلك يكون)شيء(المجرور ب)من(الزائدة نائبا عن المفعول المطلق لأن المراد بشيء من الإغناء، وحق)شيء(النصب وإنما جر بدخول حرف الجر الزائد.

و)إذ(ظرف، أي مدة جحودهم وهو مستعمل في التعليل لاستواء مؤدى الظرف ومؤدى التعليل لأنه لما جعل الشيء من الإغناء معلقا نفيه بزمان جحدهم بآيات الله كما يستفاد من إضافة)إذ(إلى الجملة بعدها، علم أن لذلك الزمان تأثيرا في نفي الإغناء.

وآيات الله دلائل إرادته من معجزات رسولهم ومن البراهين الدالة على صدق ما دعاهم إليه.

وقد انطبق مثالهم على حال المشركين فإنهم جحدوا بآيات الله وهي آيات القرآن لأنها جمعت حقيقة الآيات بالمعنيين.

وحاق بهم: أحاط بهم و)ما كانوا به يستهزئون(العذاب، عدل عن اسمه الصريح إلى الموصول للتنبيه على ضلالهم وسوء نظرهم.

)ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون[27](

أتبع ضرب المثل بحال عاد مع رسولهم بأن ذلك المثل ليس وحيدا في بابه فقد أهلك الله أقواما آخرين من مجاوريهم تماثل أحوالهم أحوال المشركين، وذكرهم بأن قراهم قريبة منهم يعرفها من يعرفونها ويسمع عنها الذين لم يروها، وهي قرى ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وسبأ وقوم تبع، والجملة معطوفة على جملة) واذكر أخا عاد(الخ، وكني عن إهلاك الأقوام بإهلاك قراهم مبالغة في استئصالهم لأنه إذا أهلكت القرية لم يبق أحد من أهلها كما كنى عنترة بشك الثياب عن شك الجسد في قوله: فشككت بالرمح الأصم ثيابه ومنه قوله تعالى)وثيابك فطهر(.

وتصريف الآيات تنويعها باعتبار ما تدل عليه من الغرض المقصود منها وهو الإقلاع عن الشرك وتكذيب الرسل، وأصل معنى التصريف التغيير والتبديل لأنه مشتق من الصرف وهو الإبعاد. وكني به هنا عن التبيين والتوضيح لأن تعدد أنواع الأدلة يزيد المقصود وضوحا.

ومعنى تنويع الآيات أنها تارة تكون بالحجة والمجادلة النظرية، وتارة بالتهديد على الفعل، وأخرى بالوعيد، ومرة بالتذكير بالنعم وشكرها. وجملة)لعلهم يرجعون(مستأنفة لإنشاء الترجي وموقعها موقع المفعول لأجله، أي رجاء رجوعهم.

والرجوع هنا مجاز عن الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد، والرجاء من الله تعالى يستعمل مجازا في الطلب، أي توسعة لهم وإمهالا ليتدبروا ويتعظوا. وهذا تعريض بمشركي أهل مكة فهم سواء في تكوين ضروب تصريف الآيات زيادة على ما صرف لهم من آيات إعجاز القرآن والكلام على)لعل(في كلام الله تقدم في أوائل البقرة.

)فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون[28](تفريع على ما تقدم من الموعظة بعذاب عاد المفصل، وبعذاب أهل القرى المجمل، فرع عليه توبيخ موجه إلى آلهتهم إذ قعدوا عن نصرهم وتخليصهم قدرة الله عليهم، والمقصود توجيه التوبيخ إلى الأمم المهلكة على طريقة توجيه النهي ونحوه لغير المنهي ليجتنب المنهي أسباب المنهي عنه كقولهم لا أعرفنك تفعل كذا، ولا أرينك هنا.

والمقصود بهذا التوبيخ تخطئة الأمم الذين اتخذوا الأصنام للنصر والدفع وذلك مستعمل تعريضا بالسامعين المماثلين لهم في عبادة آلهة من دون الله استتماما للموعظة والتوبيخ بطريق التنظير وقياس التمثيل، ولذلك عقب بقوله)بل ضلوا عنهم(لأن التوبيخ آل الى معنى نفي النصر.

وحرف)لولا(إذا دخل على جملة فعلية كان أصله الدلالة على التحضيض، أي تحضيض فاعل الفعل الذي بعد)لولا(على تحصيل ذلك الفعل، فإذا كان الفاعل غير المخاطب بالكلام كانت)لولا(دالة على التوبيخ ونحو إذ لا طائل في تحضيض المخاطب على فعل غيره.

والإتيان بالموصول لما في الصلة من التنبيه على الخطأ والغلط في عبادتهم الأصنام فلم تغن عنهم شيئا، كقول عبدة بن الطبيب:

إن الذين ترونـهـم إخـوانـكـم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا وعوملت الأصنام معاملة العقلاء بإطلاق جميع العقلاء عليهم جريا على الغالب في استعمال العرب كما تقدم غير مرة.

و)قربانا(مصدر بوزن غفران، منصوب على المفعول لأجله حكاية لزعمهم المعروف المحكي في قوله تعالى)والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى(. وهذا المصدر معترض بين)اتخذوا(ومفعوله، و)من دون الله(يتعلق ب)اتخذوا(.

و)دون(بمعنى المباعدة، أي متجاوزين الله في اتخاذ الأصنام آلهة وهو حكاية لحالهم لزيادة تشويهها وتشنيعها.

و)بل(بمعنى لكن إضرابا واستدراكا بعد التوبيخ لأنه في معنى النفي، أي ما نصرهم الذين اتخذوهم آلهة ولا قربوهم إلى الله ليدفع عنهم العذاب، بل ضلوا عنهم، أي بل غابوا عنهم وقت حلول العذاب بهم.

والضلال أصله: عدم الاهتداء للطريق واستعير لعدم النفع بالحضور استعارة تهكمية، أي غابوا عنهم ولو حضروا لنصروهم، وهذا نظير التهكم في قوله تعالى)وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم(في سورة القصص.

وأما قوله)وذلك إفكهم(فهو فذلكة لجملة)فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله(الخ وقرينة على الاستعارة التهكمية في قوله) ضلوا عنهم(.

صفحة : 4017

والإشارة ب)ذلك(إلى ما تضمنه قوله)الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة(من زعم الأصنام آلهة وأنها تقربهم إلى الله، والإفك بكسر الهمزة.

والافتراء: نوع من الكذب وهو ابتكار الأخبار الكاذبة ويرادف الاختلاق لأنه مشتق من فري الجلد، فالافتراء الكذب الذي يقوله، فعطف)ما

كانوا يفترون(على)إفكهم(عطف الأخص على الأعم، فإن زعمهم الأصنام شركاء لله كذب مروي من قبل فهو إفك. وأما زعمهم أنها تقربهم إلى الله فذلك افتراء اخترعوه.
وإقحام فعل)كانوا(للدلالة على أن افتراءهم راسخ فيهم. ومجيء)يفترون(بصيغة المضارع للدلالة على أن افتراءهم متكرر.
)وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين[29] قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم[30] يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم[31] ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين[32](هذا تأييد للنبي صلى الله عليه وسلم بأن سخر الله الجن للإيمان به وبالقرآن فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقا عند الثقلين ومعظما في العالمين وذلك ما لم يحصل لرسول قبله.
والمقصود من نزول القرآن بخبر الجن توبيخ المشركين بأن الجن وهم من عالم آخر علموا القرآن وأيقنوا بأنه من عند الله والمشركون وهم من عالم الإنس ومن جنس الرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث بالقرآن وممن يتكلم بلغة القرآن لم يزالوا في ريب منه وتكذيب وإصرار، فهذا موعظة للمشركين بطريق المضادة لأحوالهم بعد أن جرت موعظتهم بحال مماثليهم في الكفر من جنسهم.
ومناسبة ذكر إيمان الجن ما تقدم من قوله تعالى)أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين(.
فالجملة معطوفة على جملة)واذكر أخا عاد(عطف القصة على القصة ويتعلق قوله هنا)إذ صرفنا(بفعل يدل عليق قوله)واذكر أخا عاد(والتقدير : واذكر إذ صرفنا إليك نفرا من الجن.
وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر هذا للمشركين وإن كانوا لا يصدقونه لتسجيل بلوغ ذلك إليهم لينتفع به من يهتدي ولتكتب تبعته على الذين لا يهتدون.
وليس في هذه الآية ما يقتضي أن الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الجن واختلف المفسرون لهذه الآية في أن الجن حضروا بعلم من النبي صلى الله عليه وسلم أو بدون علمه. ففي جامع الترمذي عن ابن عباس قال ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ فلما كانوا بنخلة اسم موضع

وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر وكان نفر من الجن فيه فلما سمعوا القرآن رجعوا إلى قومهم، فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا .
وفي الصحيح عن ابن مسعود افتقدنا النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو بمكة فقلنا ما فعل به اغتيل أو واستطير فبتنا بشر ليلة حتى إذا أصبحنا إذا نحن به من قبل حراء فقال أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن .
وأياما كان فهذا الحادث خارق عادة وهو معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم. وقد تقدم قوله تعالى)يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي(في سورة الأنعام.
والصرف: البعث.
والنفر: عدد من الناس دون العشرين. وإطلاقه على الجن لتنزيلهم منزلة الإنس وبيانه بقوله)من الجن(.
وجملة)يستمعون القرآن(في موضع الحال من الجن وحيث كانت الحال قيدا لعاملها وهو)صرفنا(كان التقدير: يستمعون منك إذا حضروا فصار ذلك مؤديا مؤدى المفعول لأجله. فالمعنى: صرفناهم إليك ليستمعوا القرآن.
وضمير)حضروه(عائد إلى القرآن، وتعدية فعل حضروا إلى ضمير القرآن تعدية مجازية لأنهم إنما حضروا قارئ القرآن وهو الرسول صلى الله عليه وسلم.

و)أنصتوا(أمر بتوجيه الأسماع إلى الكلام اهتماما به لئلا يفوت منه شيء. وفي حديث جابر بن عبد الله في حجة الوداع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له استنصت الناس ، أي قبل أن يبدأ في خطبته.
وفي الحديث إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت ، أي قالوا كلهم: أنصتوا، كل واحد يقولها للبقية حرصا على الوعي فنطق بها جميعهم.
وقضي مبني للنائب. والضمير للقرآن بتقدير مضاف، أي قضيت قراءته، أي انتهى النبي صلى الله عليه وسلم من القراءة حين حضروا وبانتهائه من القراءة تم مراد الله من صرف الجن ليستمعوا القرآن فولوا، أي انصرفوا من مكان الاستماع ورجعوا إلى حيث يكون جنسهم وهو المعبر عنه ب)قومهم(على طريقة المجاز، نزل منزلة الأنس لأجل هذه الحالة الشبيهة بحالة الناس، فإطلاق القوم

على أمة الجن نظير إطلاق النفر على الفريق من الجن المصروف إلى سماع القرآن.
والمنذر: المخبر بخبر مخيف.
ومعنى)ولوا إلى قومهم منذرين(رجعوا إلى بني جنسهم بعد أن كانوا في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم يتسمعون القرآن فأبلغوهم ما سمعوا من القرآن مما فيه التخويف من بأس الله تعالى لمن لا يؤمن بالقرآن.
والتبشير لمن عمل بما جاء به القرآن.
ولا شك أن الله يسر لهم حضورهم لقراءة سورة جامعة لما جاء به القرآن كفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص.
وجملة)قالوا يا قومنا(إلى آخرها مبينة لقوله)منذرين(.
وحكاية تخاطب الجن بهذا الكلام الذي هو من كلام عربي حكاية بالمعنى إذ لا يعرف أن للجن معرفة بكلام الإنس، وكذلك فعل) قالوا(مجاز عن الإفادة، أي أفادوا جنسهم بما فهموا منه بطرق الاستفادة عندهم معاني ما حكي بالقول في هذه الآية كما في قوله تعالى)قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم(.
وابتدأوا إفادتهم بأنهم سمعوا كتابا تمهيدا للغرض من الموعظة بذكر الكتاب ووصفه ليستشرف المخاطبون لما بعد ذلك.
ووصف الكتاب بأنه)أنزل من بعد موسى(دون: أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأن التوراة آخر كتاب من كتب الشرائع نزل قبل القرآن، وأما ما جاء بعده فكتب مكملة للتوراة ومبينة لها مثل زبور داود وإنجيل عيسى، فكأنه لم ينزل شيء جديد بعد التوراة فلما نزل القرآن جاء بهدي مستقل غير مقصود منه بيان التوراة ولكنه مصدق للتوراة وهاد إلى أزيد مما هدت إليه التوراة.
و)ما بين يديه(: ما سبقه من الأديان الحق.
ومعنى)يهدي إلى الحق(: يهدي إلى الاعتقاد الحق ضد الباطل من التوحيد وما يجب لله تعالى من الصفات وما يستحيل وصفه به.
والمراد بالطريق المستقيم: ما يسلك من الأعمال والمعاملة. وما يترتب على ذلك من الجزاء، شبه ذلك بالطريق المستقيم الذي لا يضل سالكه عن القصد من سيره.
ويجوز أن يراد ب)الحق(ما يشمل الاعتقاد والأعمال الصالحة. ويراد بالطريق المستقيم الدلائل الدالة على الحق وتزييف الباطل فإنها كالصراط المستقيم في إبلاغ متبعها إلى معرفة الحق.
وإعادتهم نداء قومهم للاهتمام بما بعد النداء وهو)أجيبوا داعي الله(الى آخره لأنه المقصود من توجيه الخطاب إلى قومهم وليس المقصود إعلام قومهم بما لقوا من عجيب الحوادث وإنما كان ذلك توطئة لهذا، ولأن اختلاف الأغراض وتجدد الغرض مما يقتضي إعادة

مثل هذا النداء كما يعيد الخطيب قوله)أيها الناس(كما وقع في خطبة حجة الوداع. واستعير)أجيبوا(لمعنى: اعملوا وتقلدوا تشبيها للعمل بما في كلام المتكلم بإجابة نداء المنادي كما في الآية)إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي(أي إلا أن أمرتكم فأطعتموني. لأن قومهم لم يدعهم داع إلى شيء، أي أطيعوا ما طلب منكم أن تعملوه.
وداعي الله يجوز أن يكون القرآن لأنه سبق في قولهم)إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى(. وأطلق على القرآن)داعي الله(مجازا لأنه يشتمل على طلب الاهتداء بهدي الله، فشبه ذلك بدعاء إلى الله واشتق منه وصف للقرآن بأنه)داعي الله(على طريقة التبعية وهي تابعة لاستعارة الإجابة لمعنى العمل.
ويجوز أن يكون)داعي الله(محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه يدعو إلى الله بالقرآن.
وعطف)وآمنوا به على( )أجيبوا داعي الله(عطف خاص على عام.

وضمير)به(عائد إلى الله، أي وآمنوا بالله، وهو المناسب لتناسق الضمائر مع)يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم(أو عائد إلى داعي الله، أي آمنوا بما فيه أو آمنوا بما جاء به، وعلى الاحتمالين الأخيرين يقتضي أن هؤلاء الجن مأمورون بالإسلام.
و)من(في قوله)من ذنوبكم(الأظهر أنها للتعليل فتتعلق بفعل) أجيبوا(باعتبار أنه مجاب بفعل)يغفر(، ويجوز أن تكون تبعيضية، أي يغفر لكم بعض ذنوبكم فيكون ذلك احترازا في الوعد لأنهم لم يتحققوا تفصيل ما يغفر من الذنوب وما لا يغفر إذ كانوا قد سمعوا بعض القرآن ولم يحيطوا بما فيه.
ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد على رأي جماعة ممن يرون زيادة) من(في الإثبات كما تزاد في النفي.
وأما)من(التي في قوله)ويجركم من عذاب أليم(فهي لتعدية فعل)يجركم(لأنه يقال: أجاره من ظلم فلان، بمعنى منعه وأبعده.
وحكاية الله هذا عن الجن تقرير لما قالوه فيدل على أن للجن إدراكا للمعاني وعلى أن ما تدل عليه أدلة العقل من الإلهيات واجب على الجن اعتقاده لأن مناط التكليف بالإلهيات العقلية هو الإدراك، وأنه يجب اعتقاد المدركات إذا توجهت مداركهم إليها أو إذا نبهوا إليها كما دلت عليه قصة إبليس. وهؤلاء قد نبهوا إليها بصرفهم إلى استماع القرآن وهم قد نبهوا قومهم إليها بإبلاغ ما سمعوه من القرآن وعلى حسب هذا المعنى يترتب الجزاء بالعقاب كما قال

تعالى)لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين(، وقال في خطاب الشيطان)لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين(، فأما فروع الشريعة فغير لائقة بجنس الجن. وظاهر الآية أن هؤلاء الذين بلغتهم دعوة القرآن مؤاخذون إذا لم يعملوا بها وأنهم يعذبون.

واختلفوا في جزاء الجن على الإحسان فقال أبو حنيفة: ليس للجن ثواب إلا أن يجاروا من عذاب النار ثم يقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم، وقال مالك والشافعي وابن أبي ليلى والضحاك: كما يجازون على الإساءة يجازون على الإحسان فيدخلون الجنة. وحكى الفخر أن مناظرة جرت في هذه المسألة بين أبي حنيفة ومالك ولم أره لغيره.

وهذه مسألة لا جدوى لها ولا يجب على المسلم اعتقاد شيء منها سوى أن العالم إذا مرت بها الآيات يتعين عليه فهمها.

ومعنى)فليس بمعجز في الأرض(أنه لا ينجو من عقاب الله على عدم إجابته داعيه، فمفعول)معجز(مقدر دل عليه المضاف إليه في قوله)داعي الله(أي فليس بمعجز الله، وقال في سورة الجن)أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا(وهو نفي لأن يكون يعجز طالبه، أي ناجيا من قدرة الله عليه. والكلام كناية عن المؤاخذة بالعقاب.

والمقصود من قوله)في الأرض(تعميم الجهات فجرى على أسلوب استعمال الكلام العربي وإلا فإن مكان الجن غير معين.

)وليس له من دونه أولياء(، أي لا نصير ينصره على الله ويحميه منه، فهو نفي أن يكون له سبيل إلى النجاة بالاستعصام بمكان لا تبلغ إليه قدرة الله، ولا بالاحتماء بمن يستطيع حمايته من عقاب الله. وذكر هذا تعريض للمشركين.

واسم الإشارة في)أولئك في ضلال مبين(للتنبيه على أن من هذه حالهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من الحكم لتسبب ما قبل اسم الإشارة فيه كما في قوله)أولئك على هدى من ربهم(.

والظرفية المستفادة من)في ضلال مبين(مجازية لإفادة قوة تلبسهم بالضلال حتى كأنهم في وعاء هو الضلال.

والمبين: الواضح، لأنه ضلال قامت الحجج والأدلة على أنه باطل.

)أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير[33](عود إلى الاستدلال على إمكان البعث فهو متصل بقوله)والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي(إلى قوله)أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين(فهو انتقال من الموعظة بمصير أمثالهم من الأمم إلى الاستدلال على إبطال

ضلالهم في شركهم وهو الضلال الذي جرأهم على إحالة البعث، بعد أن أطيل في إبطال تعدد الآلهة وفي إبطال تكذيبهم بالقرآن وتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم.

صفحة : 4020

وهذا عود على بدء فقد ابتدئت السورة بالاحتجاج على البعث بقوله تعالى)ما خلقنا السماوات والأرض وما بيننا إلا بالحق(الآية ويتصل بقوله)والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج(إلى قوله)أساطير الأولين(.

والواو عاطفة جملة الاستفهام، وهو استفهام إنكاري، والرؤية علمية. واختير هذا الفعل من بين أفعال العلم هنا لأن هذا العلم عليه حجة بينة مشاهدة، وهي دلالة خلق السماوات والأرض من عدم، وذلك من شأنه أن يفرض بالعقل إلى أن الله كامل القدرة على ما هو دون ذلك من إحياء الأموات.

ووقعت)أن(مع اسمها وخبرها سادة مسد مفعولي)يروا(.

ودخلت الباء الزائدة على خبر)أن(وهو مثبت وموكد، وشأن الباء الزائدة أن تدخل على الخبر المنفي، لأن)أن(وقعت في خبر المنفي وهو)ألم يروا(.

ووقع)بلى(جوابا عن الاستفهام الإنكاري. ولا يريبك في هذا ما شاع على ألسنة المعربين أن الاستفهام الإنكاري في تأويل النفي، وهو هنا اتصل بفعل منفي ب)لم(فيصير نفي النفي إثباتا، فكان الشأن أن يكون جوابه بحرف)نعم(دون)بلى(، لأن كلام المعربين أرادوا به أنه في قوة منفي عند المستفهم به، ولم يريدوا أنه يعامل معاملة النفي في الأحكام. وكون الشيء بمعنى شيء لا يقتضي أن يعطى جميع أحكامه.

ومحل التعجيب هو خبر)أن(وأما ما قبله فالمشركون لا ينكرونه فلا تعجيب في شأنه.

ووقوع الباء في خبر)أن(وهو)بقادر(باعتبار أنه في حيز النفي لأن العامل فيه وهو حرف)أن(وقع في موضع مفعولي فعل)يروا(الذي هو منفي فسرى النفي للعامل ومعموله، فقرن بالباء لأجل ذلك، وفي الكشاف قال الزجاج لو قلت: ما ظننت أن زيدا بقائم جاز، كأنه قيل: أليس الله بقادر(اه.

وقال أبو عبيدة والأخفش: الباء زائدة للتوكيد كالباء في قوله)وكفى بالله شهيدا(يريدان أنها زائدة في الإثبات على وجه الندور.

وأما موقع الجواب بحرف)بلى(فهو جواب لمحذوف دل عليه التعجيب من ظنهم أن الله غير قادر على أن يحيي الموتى، فإن ذلك يتضمن حكاية عنهم أن الله لا يحيي الموتى، فأجيب بقوله)بلى(تعليما للمسلمين وتلقينا لما يجيبونهم به.

وحرف)بلى(لما كان جوابا كان قائما مقام جملة تقديرها: هو قادر على أن يحيي الموتى.

وجملة)ولم يعي بخلقهن(عطف على جملة)الذي خلق السماوات والأرض(. وقوله)لم يعي(مضارع عيي من باب رضي، ومصدره العي بكسر العين وهو العجز عن العمل أو عن الكلام، ومنه العي في الكلام، أي عسر الإبانة.

وتعديته بالباء هنا بلاغة ليفيد انتفاء عجزه عن صنعها وانتفاء عجزه في تدبير مقاديرها ومناسباتها، فكانت باء الملابسة صالحة لتعليق الخلق بالعي بمعنييه.

وكثير من أئمة اللغو يرون أن العي يطلق على التعب وعن عجز الرأي وعجز الحيلة. وعن الكسائي والأصمعي: العي خاص بالعجز في الحيلة والرأي. وأما الإعياء فهو التعب من المشي ونحوه، وفعله أعيا، وهذا ما درج عليه الراغب وصاحب القاموس.

وظاهر الأساس: أن أعيا لا يكون إلا متعديا، أي همزته همزة تعدية فهذا قول ثالث.

وزعم أبو حيان أن مثله مقصور على السماع. قلت: وهو راجع إلى تنازع العاملين.

وعلى هذا الرأي يكون قوله تعالى هنا)ولم يعي(دالا على سعة علمه تعالى بدقائق ما يقتضيه نظام السماوات والأرض ليوجدهما وافيين به، وتكون دلالته على أنه قدير على إيجادهما بدلالة الفحوى أو يكون إيكال أمر قدرته على خلقهما إلى علم المخاطبين، لأنهم لم ينكروا ذلك، وإنما قصد تنبيههم إلى ما في نظام خلقهما من الدقائق والحكم ومن جملتها لزوم الجزاء على عمل الصالحات والسيئات.

وعليه أيضا تكون تعدية فعل)يعي(بالباء متعينة.

وقرأ الجمهور)بقادر(بالموحدة بصيغة اسم الفاعل. وقرأه يعقوب)يقدر(بتحتية في أوله على أنه مضارع من القدرة، وتكون جملة)يقدر(في محل خبر)أن(.

وجملة)إنه على كل شيء قدير(تذييل لجملة)بلى(لأن هذه تفيد القدرة على خلق السماوات والأرض وإحياء الموتى وغير ذلك من الموجودات الخارجة عن السماوات والأرض.

وتأكيد الكلام بحرف)أن(لرد إنكارهم أن يمكن إحياء الله الموتى، لأنهم لما أحالوا ذلك فقد أنكروا عموم قدرته تعالى على كل شيء.

صفحة : 4021

ولهذه النكتة جيء في القدرة على إحياء الموتى بوصف)قادر(، وفي القدرة على كل شيء بوصف)قدير(الذي هو أكثر دلالة على القدرة من وصف)قادر(.
)ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون[34](موقع هذا الكلام أن عرض المشركين على النار من آثار الجزاء الواقع بعد البعث، فلما ذكر في الآية التي قبلها الاستدلال على إمكان البعث أعقب بما يحصل لهم يوم البعث جمعا بين الاستدلال والإنذار، وذكر من ذلك ما يقال لهم مما لا ممندوحة لهم عن الاعتراف بخطئهم جمعا بين ما رد به في الدنيا من قوله)قالوا(وما يردون في علم أنفسهم يوم الجزاء بقولهم)بلى وربنا(.
والجملة عطف على جملة)أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض(الخ. وأول الجملة المعطوفة قوله)أليس هذا بالحق(لأنه مقول فعل قول محذوف تقديره: ويقال للذين كفروا يوم يعرضون على النار.

وتقديم الظرف على عامله للاهتمام بذكر ذلك اليوم لزيادة تقريره في الأذهان.
وذكر)الذين كفروا(إظهار في مقام الإضمار للإيماء بالموصول إلى علة بناء الخبر، أي يقال لهم ذلك لأنهم كفروا.
والإشارة إلى عذاب النار بدليل قوله بعد)قال فذوقوا العذاب(.
والحق: الثابت.
والاستفهام تقريري وتنديم على ما كانوا يزعمون أن الجزاء باطل وكذب، وقالوا)وما نحن بمعذبين(، وإنما أقسموا على كلامهم بقسم)وربنا(قسما مستعملا في الندامة والتغليط لأنفسهم وجعلوا المقسم به بعنوان الرب تحننا وتخضعا. وفرع على إقرارهم)فذوقوا العذاب(. والذوق مجاز في الإحساس. والأمر مستعمل في الإهانة.
)فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار(تفريع على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بجعلهم القرآن مفترى واستهزائهم به وبما جاء به من البعث ابتداء من قوله)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين(، وما اتصل به من ضرب

المثل لهم بعاد. فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، وضرب له المثل بالرسل أولي العزم.

ويجوز أن تكون الفاء فصيحة. والتقدير : فإذا علمت ما كان من الأمم السابقة وعلمت كيف انتقمنا منهم وانتصرنا برسلنا فاصبر كما صبروا.

وأولوا العزم: أصحاب العزم، أي المتصفون به.

والعزم: نية محققة على عمل أو قول دون تردد. قال تعالى)فإذا عزمت فتوكل على الله(وقال)ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله(. وقال سعد ابن ناشب من شعراء الحماسة يعني نفسه:

إذا هم ألقى بين عينيه عزمـه ونكب عن ذكر العواقب جانبا والعزم المحمود في الدين: العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمة، وقوامه الصبر على المكروه وباعث التقوى، وقوته شدة المراقبة بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبته نفسه قال تعالى)وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور(وقال)ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما(. وهذا قبل هبوط آدم إلى عالم التكليف، وعلى هذا تكون)من(في قوله)من الرسل(تبعيضية. وعن ابن عباس أنه قال: كل الرسل أولو عزم، وعليه تكون)من(بيانية.

وهذه الآية اقتضت أن محمدا صلى الله عليه وسلم من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنه مثلهم لأنه ممتثل أمر ربه، فصبره مثيل لصبرهم، ومن صبر صبرهم كان منهم لا محالة.

وأعقب أمره بالصبر بنهيه عن الاستعجال للمشركين، أي الاستعجال لهم بالعذاب، أي لا تطلب منا تعجيله لهم وذلك لأن الاستعجال ينافي العزم ولأن في تأخير العذاب تطويلا لمدة صبر الرسول صلى الله عليه وسلم بكسب عزمه قوة.

ومفعول)تستعجل(محذوف دل عليه المقام، تقديره: العذاب أو الهلاك.

واللام في)لهم(لام تعدية فعل الاستعجال إلى المفعول لأجله، أي لا تستعجل لأجلهم، والكلام على حذف مضاف إذ التقدير: لا تستعجل لهلاكهم.

وجملة)كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار(تعليل للنهي عن الاستعجال لهم بالعذاب بأن العذاب واقع بهم فلا يؤثر في وقوعه تطويل أجله ولا تعجيله، قال مرة بن عداء الفقعسي، ولعله أخذ قوله من هذه الآية:

كأنك لم تسبق من الدهـر لـيلة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب وهم عند حلوله منذ طول المدة يشبه حالهم حال عدم المهلة إلا ساعة قليلة.

و)من نهار(وصف الساعة، وتخصيصها بهذا الوصف لأن ساعة النهار تبدو للناس قصيرة لما للناس في النهار من الشواغل بخلاف ساعة الليل تطول إذ لا يجد الساهر شيئا يشغله.

فالتنكير للتقليل كما في حديث الجمعة قوله صلى الله عليه وسلم وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء ، وأشار بيده يقللها، والساعة جزء من الزمن.

)بلاغ(فذلكة لما تقدم بأنه بلاغ للناس مؤمنهم وكافرهم ليعلم كل حظه من ذلك، فقوله)بلاغ(خبر مبتدإ محذوف تقديره: هذا بلاغ، على طريقة العنوان والطالع نحو ما يكتب في أعلى الظهير ظهير من أمير المؤمنين ، أو ما يكتب في أعلى الصكوك نحو إيداع وصية ، أو ما يكتب في التأليف نحو ما في الموطأ وقوت الصلاة . ومنه ما يكتب في أعالي المنشورات القضائية والتجارية كلمة إعلان .

وقد يظهر اسم الإشارة كما في قوله تعالى)هذا بلاغ للناس(، وقول سيبويه هذا باب علم ما الكلم من العربية ، وقال تعالى)إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين(.

والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا علي طريقة الفذلكة والتحصيل مثل جملة)تلك عشرة كاملة(،)تلك أمة قد خلت(.

)فهل يهلك إلا القوم الفاسقون[35](فرع على جملة)كأنهم يوم يرون ما يوعدون(إلى)من نهار(، أي فلا يصيب العذاب إلا المشركين أمثالهم.

والاستفهام مستعمل في النفي، ولذلك صح الاستثناء منه كقوله تعالى)ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه(.

ومعنى التفريع أنه قد اتضح مما سمعت أنه لا يهلك إلا القوم الفاسقون، وذلك من قوله)قل ما كنت بدعا من الرسل(، وقوله)لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين(إلى قوله)ولا هم يحزنون(، وقوله)ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى(الآية.

والإهلاك مستعمل في معنييه الحقيقي والمجازي، فإن ما حكي فيما مضى بعضه إهلاك حقيقي مثل ما في قصة عاد، وما في

قوله)ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى(، وبعضه مجازي وهو سوء الحال، أي عذاب الآخرة: وذلك فيما حكي من عذاب الفاسقين.
وتعريف)القوم(تعريف الجنس، وهو مفيد العموم، أي كل القوم الفاسقين فيعم مشركي مكة الذين عناهم القرآن فكان لهذا التفريع معنى التذييل.
والتعبير بالمضارع في قوله)فهل يهلك(على هذا الوجه لتغليب إهلاك المشركين الذي لما يقع على أهلاك الأمم الذين قبلهم.
ولك أن تجعل تعريف العهد، أي القوم المتحدث عنهم في قوله) كأنهم يوم يرون ما يوعدون(الآية، فيكون إظهارا في مقام الإضمار للإيماء إلى سبب إهلاكهم أنه الإشراك.
والمراد بالفسق هنا الفسق عن الإيمان وهو فسق الإشراك.
وأفاد الاستثناء أن غيرهم لا يهلكون هذا الهلاك، أو هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة محمد

سميت هذه السورة في كتب السنة سورة محمد . وكذلك ترجمت في صحيح البخاري من رواية أبي ذر عن البخاري، وكذلك في التفاسير قالوا: وتسمى سورة القتال .
ووقع في أكثر روايات صحيح البخاري سورة الذين كفروا .
والأشهر الأول، ووجهه أنها ذكر فيها اسم النبي صلى الله عليه وسلم في الآية الثانية منها فعرفت به قبل سورة آل عمران التي فيها)وما محمد إلا رسول(.
وأما تسميتها سورة القتال فلأنها ذكرت فيها مشروعية القتال، ولأنها ذكر فيها لفظه في قوله تعالى)وذكر فيها القتال(، مع ما سيأتي أن قوله تعالى)ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة(إلى قوله)وذكر فيها القتال(أن المعني بها هذه السورة فتكون تسميتها سورة القتال تسمية قرآنية.

وهي مدنية بالاتفاق حكاه ابن عطية وصاحب الإتقان. وعن النسفي: أنها مكية. وحكى القرطبي عن الثعلبي وعن الضحاك وابن جبير: أنها مكية. ولعله وهم ناشئ عما روي عن ابن عباس أن قوله تعالى)وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك(الآية نزلت في طريق مكة قبل الوصول إلى حراء، أي في الهجرة.

قيل نزلت هذه السورة بعد يوم بدر وقيل نزلت في غزوة أحد.
وعدت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد.
وآيها عدت في أكثر الأمصار تسعا وثلاثين، وعدها أهل البصرة أربعين، وأهل الكوفة تسعا وثلاثين.

أغراضها

معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد.
افتتحت بما يثير حنق المؤمنين على المشركين لأنهم كفروا بالله وصدوا عن سبيله، أي دينه.
وأعلم الله المؤمنين بأنه لا يسدد المشركين في أعمالهم وأنه مصلح المؤمنين فكان ذلك كفالة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم.
وانتقل من ذلك الى الأمر بقتالهم وعدم الإبقاء عليهم.
وفيها وعد المجاهدين بالجنة، وأمر المسلمين بمجاهدة الكفار وأن لا يدعوهم إلى السلم، وإنذار المشركين بأن يصيبهم ما أصاب الأمم المكذبين من قبلهم.
ووصف الجنة ونعيمها، ووصف جهنم وعذابها.
ووصف المنافقين وحال اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحض على القتال، وقلة تدبرهم القرآن وموالاتهم المشركين.
وتهديد المنافقين بأن الله ينبي رسوله صلى الله عليه وسلم بسيماهم وتحذير المسلمين من أن يروج عليهم نفاق المنافقين.
وختمت بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان وحذرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة.
)الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم[1](صدر التحريض على القتال بتوطئة لبيان غضب الله على الكافرين لكفرهم وصدهم الناس عن دين الله وتحقير أمرهم عند الله ليكون ذلك مثيرا في نفوس المسلمين حنقا عليهم وكراهية فتثور فيهم همة الإقدام على قتال الكافرين، وعدم الاكتراث بما هم فيه من قوة، حين يعلمون أن الله يخذل المشركين وينصر المؤمنين، فهذا تمهيد لقوله)فإذا لقيتم الذين كفروا(.
وفي الابتداء بالموصول والصلة المتضمنة كفر الذين كفروا ومناواتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي لأجل كفرهم وصدهم، وبراعة استهلال للغرض المقصود.
والكفر: الإشراك بالله كما هو مصطلح القرآن حيثما أطلق الكفر مجردا عن قرينة إرادة غير المشركين.

وقد اشتملت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف للمشركين. وهي: الكفر، والصد عن سبيل الله، وضلال الأعمال الناشئ عن إضلال الله إياهم.
والصد عن سبيل: هو صرف الناس عن متابعة دين الإسلام، وصرفهم أنفسهم عن سماع دعوة الإسلام بطريق الأولى.
وأضيف السبيل إلى الله لأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده)إن الدين عند الله الإسلام(. واستعير اسم السبيل للدين لأن الدين يوصل إلى رضى الله كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته.
ومن الصد عن سبيل الله صدهم المسلمين عن المسجد الحرام قال تعالى)ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام(.
ومن الصد عن المسجد الحرام: إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة، وصدهم عن العمرة عام الحديبية.
ومن الصد عن سبيل الله: إطعامهم الناس يوم بدر ليثبتوا معهم ويكثروا حولهم، فلذلك قيل: إن الآية نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلا من سادة المشركين من قريش. وهم: أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبي ابن خلف، وأمية بن خلف، ونبيه بن الحجاج، ومنبه بن الحجاج، وأبو البختري ابن هشام، والحارث بن هشام، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، وحكيم بن حزام، وهذا الأخير أسلم من بعد وصار من خيرة الصحابة.
وعد منهم صفوان بن أمية، وسهل بن عمرو، ومقيس الجمحي، والعباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن حرب، وهذان أسلما وحسن إسلامهما وفي الثلاثة الآخرين خلاف.
ومن الصد عن سبيل الله صدهم الناس عن سماع القرآن)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(.

والإضلال: الإبطال والإضاعة، وهو يرجع إلى الضلال. وأصله الخطأ للطريق المسلوك للوصول إلى مكان يراد وهو يستلزم المعاني الأخر.
وهذا اللفظ رشيق الموقع هنا لأن الله أبطل أعمالهم التي تبدو حسنة، فلم يثبهم عليها من صلة رحم، وإطعام جائع، ونحوهما، ولأن من إضلال أعمالهم أن كان غالب أعمالهم عبثا وسيئا ولأن من إضلال أعمالهم أن الله خيب سعيهم فلم يحصلوا منه على طائل فانهزموا يوم بدر وذهب إطعامهم الجيش باطلا، وأفسد تدبيرهم

وكيدهم للرسول صلى الله عليه وسلم فلم يشفوا غليلهم يوم أحد، ثم توالت انهزاماتهم في المواقع كلها قال تعالى)إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقوها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون(.

)والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم[2](هذا مقابل فريق الذين كفروا وهو فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإيراد الموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلته، أي لأجل إيمانهم الخ كفر عنهم سيئاتهم.

وقد جاء في مقابلة الأوصاف الثلاثة التي أثبتت للذين كفروا بثلاثة أوصاف ضدها للمسلمين وهي: الإيمان مقابل الكفر، والإيمان بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم مقابل الصد عن سبيل الله، وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه)أضل أعمالهم(و)كفر عنهم سيئاتهم(مقابل بعض آخر مما تضمنه)أضل أعمالهم(،)وأصلح بالهم(مقابل بقية ما تضمنه)أضل أعمالهم(.

وزيد في جانب المؤمنين التنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة قوله)وهو الحق من ربهم(وهو نظير لوصفه بسبيل الله في قوله)وصدوا عن سبيل الله(.

وعبر عن الجلالة هنا بوصف الرب زيادة في التنويه بشأن المسلمين على نحو قوله)وأن الكافرين لا مولى لهم(فلذلك لم يقل: وصدوا عن سبيل ربهم.

وتكفير السيئات غفرانها لهم فإنهم لما عملوا الصالحات كفر الله عنهم سيئاتهم التي اقترفوها قبل الإيمان، وكفر لهم الصغائر، وكفر عنهم بعض الكبائر بمقدار يعلمه إذا كانت قليلة في جانب أعمالهم الصالحات كما قال تعالى)خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم(.

والبال: يطلق على القلب، أي العقل وما يخطر للمرء من التفكير وهو أكثر إطلاقه ولعله حقيقة فيه، قال امرؤ القيس:

فعادي عداء بين ثـور ونـعـجة وكان عداء الوحش مني على بال وقال:

عليه القتام سيء الظن والبال ومنه قولهم: ما بالك? أي ماذا ظننت حين فعلت كذا، وقولهم: لا يبالي، كأنه مشتق منه، أي لا يخطر بباله، ومنه بيت العقيلي في الحماسة:

ونبكي حين نقتلكم عليكم ونقتلكم كأنا لا نبالـي أي لا نفكر.

وحكى الأزهري عن جماعة من العلماء، أي معنى لا أبالي: لا أكره اه .

وأحسبهم أرادوا تفسير حاصل المعنى ولم يضبطوا تفسير معنى الكلمة.
ويطلق البال على الحال والقدر. وفي الحديث كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر . قال الوزير البطليوسي في شرح ديوان امرئ القيس: قال أبو سعيد: كنت أقول للمعري: كيف أصبحت? فيقول: بخير أصلح الله بالك. ولم يوفه صاحب الأساس حقه من البيان وأدمجه في مادة بلو .
وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك، وحكاها عنهم القرآن في مواضع كثيرة والمعنى: أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكرون إلا صالحا ولا يتدبرون إلا ناجحا.
)ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم(هذا تبيين للسبب الأصيل في إضلال أعمال الكافرين وإصلاح بال المؤمنين.
والإتيان باسم الإشارة لتمييز المشار إليه أكمل تمييز تنويها به. وقد ذكرت هذه الإشارة أربع مرات في هذه الآيات المتتابعة للغرض الذي ذكرناه.
والإشارة إلى ما تقدم من الخبرين المتقدمين، وهما)أضل أعمالهم( )وكفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم(، مع اعتبار علتي الخبرين المستفادتين من اسمي الموصول والصلتين وما عطف على كلتيهما.

صفحة : 4025

واسم الإشارة مبتدأ، وقوله)بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل(الخ خبره، والباء للسببية ومجرورها في موضع الخبر عن اسم الإشارة، أي ذلك كائن بسبب اتباع الكافرين الباطل واتباع المؤمنين الحق، ولما كان ذلك جامعا للخبرين المتقدمين كان الخبر عنه متعلقا بالخبرين وسببا لهما.
وفي هذا محسن الجمع بعد التفريق ويسمونه كعكسه التفسير لأن في الجمع تفسيرا للمعنى الذي تشترك فيه الأشياء المتفرقة تقدم أو تأخر. وشاهده قول حسان من أسلوب هذه الآية:
قوم إذا حاربوا ضروا عـدوهـم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

إن سجية تلك فيهم غير محدثة
الخلائق فاعلم شرها البدع قال في الكشاف: وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير، يريد أنه من المحسنات البديعية. ونقل عن الزمخشري أنه أنشد لنفسه لما فسر لطلبته هذه الآية.

فقيد عنه في الحواشي قوله:

كما به فجع الفرسان فوق خيولهم
فجعت تحت الستور العواتق

تساقط من أيديهم البيض حيرة
وزعزع عن أجيادهن المخانق وفي هذه الآية محسن الطباق مرتين بين الذين كفروا والذين آمنوا وبين الحق والباطل. وفي بيتي الزمخشري محسن الطباق مرة واحدة بين فوق وتحت.

واتباع الباطل واتباع الحق تمثيليان لهيئتي العمل بما يأمر به أيمة الشرك أولياءهم وما يدعو إليه القرآن، أي عملوا بالباطل وعمل الآخرون بالحق.

ووصف)الحق(بأنه)من ربهم(تنويه به وتشريف لهم.

)كذلك يضرب الله للناس أمثالهم[3](تذييل لما قبله، أي مثل ذلك التبيين للحالين يبين الله الأحوال للناس بيانا واضحا.

والمعنى: قد بينا لكل فريق من الكافرين والمؤمنين حاله تفصيلا وإجمالا، وما تفضي إليه من استحقاق المعاملة بحيث لم يبق خفاء في كنه الحالين، ومثل ذلك البيان يمثل الله للناس كيلا تلتبس عليهم الأسباب والمسببات.

ومعنى)يضرب(: يلقي. وهذا إلقاء تبيين بقرينة السياق، وتقدم عند قوله تعالى)أن يضرب مثلا ما(في سورة البقرة.

والأمثال: جمع مثل بالتحريك وهو الحال التي تمثل صاحبها، أي تشتهره للناس وتعرفهم به فلا يلتبس بنظائره.

واللام للأجل، والمراد بالناس جميع الناس. وضمير)أمثالهم(للناس.

والمعنى: كهذا التبيين يبين الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود لئلا يختلط الخبيث بالطيب، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم، وفي هذا إيماء إلى وجوب التوسم لتمييز المنافقين عن المسلمين حقا، فإن من مقاصد السورة التحذير من المنافقين.

)فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها(لا شك أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر لأن فيها قوله)حتى إذا أثخنتوهم فشدوا الوقاق(. وهو الحكم الذي نزل فيه العقاب على ما وقع يوم بدر من فداء الأسرى التي في قوله تعالى)ما كان لنبي أن يكون

له أسرى حتى يثخن في الأرض(الآية إذ لم يكن حكم ذلك مقررا يومئذ، وتقدم في سورة الأنفال.

والفاء لتفريع هذا الكلام على ما قبله من إثارة نفوس المسلمين بتشنيع حال المشركين وظهور خيبة أعمالهم وتنويه حال المسلمين وتوفيق آرائهم.

والمقصود: تهوين شأنهم في قلوب المسلمين وإغراؤهم بقطع دابرهم ليكون الدين كله لله، لأن ذلك أعظم من منافع فداء أسراهم بالمال ليعبد المسلمون ربهم آمنين. وذلك ناظر إلى آية سورة الأنفال وإلى ما يفيده التعليل من قوله)حتى تضع الحرب أوزارها(.

و)إذا(ظرف للمستقبل مضمنة معنى الشرط، وذلك غالب استعمالها وجواب الشرط قوله)فضرب الرقاب(.

واللقاء في قوله)فإذا لقيتم الذين كفروا(: المقابلة: وهو إطلاق شهير للقاء. يقال: يوم اللقاء، فلا يفهم منه إلا لقاء الحرب، ويقال: إن لقيت فلانا لقيت منه أسدا، وقال النابغة:

تجنب بني حن فإن لقاءهـم كريه

وإن لم تلق إلا بصائر فليس المعنى: إذا لقيتم الكافرين في الطريق، أو نحو ذلك وبذلك لا يحتاج لذكر مخصص لفعل)لقيتم(.

صفحة : 4026

والمعنى: فإذا قاتلتم المشركين في المستقبل فأمعنوا في قتلهم حتى إذا رأيتم أن قد خضدتم شوكتهم، فأسروا منهم أسرى.

وضرب الرقاب:كناية مشهورة يعبر بها عن القتل سواء كان بالضرب أم بالطعن في القلوب بالرماح أو بالرمي بالسهام، وأوثرت على كلمة القتل لأن في استعمال الكناية بلاغة ولأن في خصوص هذا اللفظ غلظة وشدة تناسبان مقام التحريض.

والضرب هنا بمعنى: القطع بالسيف، وهو أحد أحوال القتال عندهم لأنه أدل على شجاعة المحارب لكونه مواجه عدوه وجها لوجه.

والمعنى: فاقتلوهم سواء كان القتل بضرب السيف، أو طعن الرماح، أو رشق النبال، لأن الغاية من ذلك هو الإثخان.

والذين كفروا: هم المشركون لأن اصطلاح القرآن من تصاريف مادة الكفر، نحو: الكافرين، والكفار، والذين كفروا، هو الشرك.

و)حتى(ابتدائية. ومعنى الغاية معها يؤول إلى معنى التفريع.

والإثخان: الغلبة لأنها تترك المغلوب كالشيء المثخن وهو الثقيل الصلب الذي لا يخف للحركة ويوصف به المائع الذي جمد أو قارب

الجمود بحيث لا يسيل بسهولة، ووصف به الثوب والحبل إذا كثرت طاقاتهما بحيث يعسر تفككها.

وغلب إطلاقه على التوهين بالقتل، وكلا المعنيين في هذه الآية، فإذا فسر بالغلبة كان المعنى حتى إذا غلبتم منهم من وقعوا في قبضتكم أسرى فشدوا وثاقهم وعليه فجواز المن والفداء غير مقيد.

وإذا فسر الإثخان بكثرة القتل فيهم كان المعنى حتى إذا لم يبق من الجيش إلا القليل فاسروا حينئذ، أي أبقوا الأسرى، وكلا الاحتمالين لا يخلو من تأويل في نظم الآية إلا أن الاحتمال الأول أظهر. وتقدم بيانه في سورة الأنفال في قوله)حتى يثخن في الأرض(.

وانتصب)ضرب الرقاب(على المفعولية المطلقة على أنه بدل من فعله ثم أضيف إلى مفعوله، والتقدير: فاضربوا الرقاب ضربا، فلما حذف الفعل اختصارا قدم المفعول المطلق على المفعول به وناب مناب الفعل في العمل في ذلك المفعول وأضيف إلى المفعول إضافة الأسماء إلى الأسماء لأن المصدر راجح في الاسمية.

والشد: قوة الربط، وقوة الإمساك.

والوثاق بفتح الواو: الشيء الذي يوثق به، ويجوز فيه كسر الواو ولم يقرأ به. وهو هنا كناية عن الأسر لأن الأسر يستلزم الوضع في القيد يشد به الأسير.

والمعنى: فاقتلوهم، فإن أثخنتم منهم فأسروا منهم.

وتعريف)الرقاب(و)الوثاق(يجوز أن يكون للعهد الذهني، ويجوز أن يكون عوضا عن المضاف إليه، أي فضرب رقابهم وشدوا وثاقهم.

والمن: الإنعام. والمراد به: إطلاق الأسير واسترقاقه فإن الاسترقاق من عليه إذ لم يقتل، والفداء: بكسر الفاء ممدودا تخليص الأسير من الأسر بعوض من مال أو مبادلة بأسرى من المسلمين في يدي العدو. وقدم المن على الفداء ترجيحا له لأنه أعون على امتلاك ضمير الممنون عليه ليستعمل بذلك بغضه.

وانتصب)منا(و)فداء(على المفعولية المطلقة بدلا من عامليهما، والتقدير: إما تمنون وإما تفدون.

وقوله)بعد(أي بعد الإثخان، وهذا تقييد لإباحة المن والفداء. وذلك موكول إلى نظر أمير الجيش بحسب ما يراه من المصلحة في أحد الأمرين كما فعل النبيء صلى الله عليه وسلم بعد غزوة هوازن. وهذا هو ظاهر الآية والأصل عدم النسخ، وهذا رأي جمهور أئمة الفقه وأهل النظر.

فقوله)الذين كفروا(عام في كل كافر، أي مشرك يشمل الرجال وهم المعروف حربهم ويشمل من حارب معهم من النساء والصبيان والرهبان والأحبار. وهذه الآية لتحديد أحوال القتال وما بعده، لا لبيان

وقت القتال ولا لبيان من هم الكافرون، لأن أوقات القتال مبينة في سورة براءة. ومعرفة الكافرين معلومة من اصطلاح القرآن بقوله) فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم(.

صفحة : 4027

ثم يظهر أن هذه الآية نزلت بعد آية)ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض(في سورة الأنفال. واختلف العلماء في حكم هذه الآية في القتل والمن والفداء والذي ذهب إليه مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وهو أحد قولين عن أبي حنيفة رواه الطحاوي، ومن السلف عبد الله بن عمر، وعطاء، وسعيد بن جبير: أن هذه الآية غير منسوخة، وأنها تقتضي التخيير في أسرى المشركين بين القتل أو المن أو الفداء، وأمير الجيش مخير في ذلك. ويشبه أن يكون أصحاب هذل القول يرون أن مورد الآية الإذن في المن أو الفداء فهي ناسخة أو منهية لحكم قوله تعالى)ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض(إلى قوله)لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم(في سورة الأنفال.

وهذا أولى من جعلها ناسخة لقوله تعالى)فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم(لما علمت من أن مورد تلك هو تعيين أوقات المتاركة، وأوقات المحاربة، فلذلك لم يقل هؤلاء بحظر قتل الأسير في حين أن التخيير هنا وارد بين المن والفداء، ولم يذكر معهما القتل. وقد ثبت في الصحيح ثبوتا مستفيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل من أسرى بدر النضر بن الحارث وذلك قبل نزول هذه الآية، وعقبة بن أبي معيط وقتل أسرى قريظة الذين نزلوا على حكم سعد بن معاذ، وقتل هلال بن خطل ومقيس بن حبابة يوم فتح مكة، وقتل بعد أحد أبا عزة الجمعي الشاعر وذلك كله لا يعارض هذه الآية لأنها جعلت التخيير لولي الأمر.

وأيضا لم يذكر في هذه الآية جواز الاسترقاق، وهو الأصل في الأسرى، وهو يدخل في المن إذا اعتبر المن شاملا لترك القتل، ولأن مقابلة المن بالفداء تقتضي أن الاسترقاق مشروع. وقد روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك: أن المن من العتق.

وقال الحسن وعطاء: التخيير بين المن والفداء فقط دون قتل الأسير، فقتل الأسير يكون محظورا. وظاهر هذه الآية يعضد ما ذهب اليه الحسن وعطاء.

وذهب فريق من أهل العلم إلى أن هذه الآية منسوخة وأنه لا يجوز في الأسير المشرك إلا القتل بقوله تعالى)فاقتلوا المشركين

حيث وجدتموهم(. وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك والسدي وابن جريج، ورواه العوفي عن ابن عباس وهو المشهور عن أبي حنيفة، وقال أبو يوسف ومحمد من أصحاب أبي حنيفة: لا بأس أن يفادى أسرى المشركين الذين لم يسلموا بأسرى المسلمين الذين بيد المشركين. وروى الجصاص أن النبي صلى الله عليه وسلم فدى أسيرين من المسلمين بأسير من المشركين في ثقيف.

والغاية المستفادة من)حتى(في قوله)حتى تضع الحرب أوزارها(للتعليل لا للتقييد، أي لأجل أن تضع الحرب أوزارها، أي ليكف المشركون عنها فتأمنوا من الحرب عليكم وليست غاية لحكم القتال.

والمعنى يستمر هذا الحكم بهذا ليهن العدو فيتركوا حربكم، فلا مفهوم لهذه الغاية، فالتعليل متصل بقوله)فضرب الرقاب(وما بينهما اعتراض. والتقدير: فضرب الرقاب، أي لا تتركوا القتل لأجل أن تضع الحرب أوزارها، فيكون واردا مورد التعليم والموعظة، أي فلا تشتغلوا عند اللقاء لا بقتل الذين كفروا لتضع الحرب أوزارها فإذا غلبتموهم فاشتغلوا بالإبقاء على من تغلبونه بالأسر ليكون المن بعد ذلك أو الفداء.

والأوزار: الأثقال، ووضع الأوزار تمثيل لانتهاء العمل فشبهت حالة انتهاء القتال بحالة وضع الحمال أو المسافر أثقاله، وهذا من مبتكرات القرآن. وأخذ منه عبد ربه السلمى، أو سليم الحنفي قوله:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافـر فشبه حالة المنتهي من كلفة بحالة السائر يلقي عصاه التي استصحبها في سيره.

)ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض(أعيد اسم الإشارة بعد قوله آنفا)ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل(للنكتة التي تقدمت هنالك، وهو خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف. وتقدير المحذوف: الأمر ذلك، والمشار إليه ما تقدم من قوله)فضرب الرقاب(إلى هنا، ويفيد اسم الإشارة تقرير الحكم ورسوخه في النفوس.

صفحة : 4028

والجملة من اسم الإشارة والمحذوف معترضة)ولو يشاء الله لانتصر منهم(في موضع الحال من الضمير المرفوع المقدر في المصدر من قوله)فضرب الرقاب(، أي أمرتم بضرب رقابهم،

والحال أن الله لو يشاء لاستأصلهم ولم يكلفكم بقتالهم، ولكن الله ناط المسببات بأسبابها المعتادة وهي أن يبلو بعضكم ببعض.

وتعدية)انتصر(بحرف)من(مع أن حقه أن يعدى بحرف)على(لتضمينه معنى: انتقم.

والاستدراك راجع إلى ما في معنى المشيئة من احتمال أن يكون الله ترك الانتقام منهم لسبب غير ما بعد الاستدراك.

والبلو حقيقته: الاختبار والتجربة، وهو هنا مجاز في لازمه وهو ظهور ما أراده الله من رفع درجات المؤمنين ووقع بأسهم في قلوب أعدائهم ومن إهانة الكفار، وهو أن شأنهم بمرأى ومسمع من الناس.

)والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم[4] سيهديهم ويصلح بالهم[5] ويدخلهم الجنة عرفها لهم[6](هذا من مظاهر بلوى بعضهم ببعض وهو مقابل ما في قوله)فضرب الرقاب(إلى قوله)وإما فداء(فإن ذلك من مظاهر إهانة الذين كفروا فذكر هنا ما هو من رفعة الذين قاتلوا في سبيل الله من المؤمنين بعناية الله بهم.

وجملة)والذين قاتلوا في سبيل الله(الخ عطف على جملة)فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب(الآية فإنه لما أمرهم بقتال المشركين أعقب الأمر بوعد الجزاء على فعله.

وذكر)الذين قاتلوا في سبيل الله(إظهار في مقام الإضمار إذ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فلن يضل الله أعمالكم، وهكذا بأسلوب الخطاب، فعدل عن مقتضى الظاهر من الإضمار إلى الإظهار ليكون في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إفادة تقوي الخبر، وليكون ذريعة إلى الإتيان بالموصول للتنويه بصلته، وللإيماء إلى وجه بناء الخبر على الصلة بأن تلك الصلة هي علة ما ورد بعدها من الخبر.

فجملة)فلن يضل أعمالهم(خبر عن الموصول، وقرنت بالفاء لإفادة السببية في ترتب ما بعد الفاء على صلة الموصول لأن الموصول كثيرا ما يشرب معنى الشرط فيقرن خبره بالفاء، وبذلك تكون صيغة الماضي في فعل)قاتلوا(منصرفة إلى الاستقبال لأن ذلك مقتضى الشرط.

وجملة)سيهديهم(وما عطف عليها بيان لجملة)فلن يضل أعمالهم(.

وتقدم الكلام آنفا على معنى إضلال الأعمال وإصلاح البال.

ومعنى)عرفها لهم(أنه وصفها لهم في الدنيا فهم يعرفونها بصفاتها، فالجملة حال من الجنة، أو المعنى هداهم إلى طريقها في الآخرة فلا يترددون في أنهم داخلونها، وذلك من تعجيل الفرح بها. وقيل)عرفها(جعل فيها عرفا، أي ريحا طيبا، والتطييب من تمام حسن الضيافة.

وقرأ الجمهور)قاتلوا(بصيغة المفاعلة، فهو وعد للمجاهدين أحيائهم وأمواتهم. وقرأه أبو عمرو وحفص عن عاصم)قتلوا(بالبناء للنائب، فعلى هذه القراءة يكون مضمون الآية جزاء الشهداء فهدايتهم وإصلاح بالهم كائنان في الآخرة.

)يا أيها الذين أمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم[7](لما ذكر أنه لو شاء الله لانتصر منهم علم منه أن ما أمر به المسلمين من قتال الكفار إنما أراد منه نصر الدين بخضد شوكة أعدائه الذين يصدون الناس عنه، أتبعه بالترغيب في نصر الله والوعد بتكفل الله لهم بالنصر إن نصروه، وبأنه خاذل الذين كفروا بسبب كراهيتهم ما شرعه من الدين.

فالجملة استئناف ابتدائي لهاته المناسبة. وافتتح الترغيب بندائهم بصلة الإيمان اهتماما بالكلام وإيماء إلى أن الإيماء يقتضي منهم ذلك، والمقصود تحريضهم على الجهاد في المستقبل بعد أن اجتنوا فائدته مشاهدة يوم بدر.

ومعنى نصرهم الله: نصر دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم لأن الله غني عن النصر في تنفيذ إرادته كما قال)ولو يشاء الله لانتصر منهم(.

ولا حاجة إلى تقدير مضاف بين)تنصروا(واسم الجلالة تقديره: دين الله، لأنه يقال: نصر فلان فلانا، إذا نصر ذويه وهو غير حاضر.

وجيء في الشرط بحرف)إن(الذي الأصل فيه عدم الجزم بوقوع الشرط للإشارة إلى مشقة الشرط وشدته ليجعل المطلوب به كالذي يشك في وفائه به.

وتثبيت الأقدام: تمثيل لليقين وعدم الوهن بحالة من ثبتت قدمه في الأرض فلم يزل، فإن الزلل وهن يسقط صاحبه، ولذلك يمثل الانهزام والخيبة والخطأ بزلل القدم قال تعالى)فتزل قدم بعد ثبوتها(.

)والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم[8] ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم[9](هذا مقابل قوله)والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم(فإن المقاتلين في سبيل الله هم المؤمنون، فهذا عطف على جملة)والذين قاتلوا في سبيل الله(الآية.

والتعس: الشقاء ويطلق على عدة معان: الهلاك، والخيبة، والانحطاط، والسقوط، وهي معان تحوم حول الشقاء، وقد كثر أن

يقال: تعسا له، للعاثر البغيض، أي سقوطا وخرورا لا نهوض منه. ويقابله قولهم للعاثر: لعا له، أي ارتفاعا، قال الأعشى:

بذات لوث عفرناة إذا عـثـرت

فالتعس أولى لها من أن أقول لعا وفي حديث الإفك فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح لأن العثار تعس.

ومن بدائع القرآن وقوع)فتعسا لهم(في جانب الكفار في مقابلة قوله للمؤمنين)ويثبت أقدامكم(.

والفعل من التعس يجيء من باب منع وباب سمع، وفي القاموس إذا خاطبت قلت: تعست كمنع، وإذا حكيت قلت: تعس كسمع.

وانتصب)تعسا(على المفعول المطلق بدلا من فعله. والتقدير: فتعسوا تعسهم، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله مثل تبا له، وويحا له. وقصد من الإضافة اختصاص التعس بهم، ثم أدخلت على الفاعل لام التبيين فصار)تعسا لهم(. والمجرور متعلق بالمصدر، أو بعامله المحذوف على التحقيق وهو مختار ابن مالك وإن أباه ابن هشام.

ويجوز أن يكون)تعسا لهم(مستعملا في الدعاء عليهم لقصد التحقير والتفظيع، وذلك من استعمالات هذا المركب مثل سقيا له، ورعيا له، وتبا له، وويحا له، وحينئذ يتعين في الآية فعل قول محذوف تقديره: فقال الله: تعسا لهم، أو فيقال: تعسا لهم.

ودخلت الفاء على)تعسا(وهو خبر الموصول لمعاملة الموصول معاملة الشرط.

وقوله)وأضل أعمالهم(إشارة إلى ما تقدم في أول السورة من قوله)الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم(، وتقدم القول على)أضل أعمالهم(هنالك.

والقول في قوله)ذلك بأنهم كرهوا(الخ في معناه، وفي موقعه من الجملة التي قبله وفي نكتة تكريره كما تقدم في قوله)ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل(.

والإشارة إلى التعس وإضلال الأعمال المتقدم ذكرهما. والكراهية: البغض والعداوة.

و)ما أنزل الله(هو القرآن وما فيه من التوحيد والرسالة والبعث، قال تعالى)كبر على المشركين ما تدعوهم إليه(.

والباء في)بأنهم كرهوا(للسببية.

وإحباط الأعمال إبطالها: أي جعلها بطلا، أي ضائعة لا نفع لهم منها، والمراد بأعمالهم: الأعمال التي يرجون منها النفع في الدنيا لأنهم لم يكونوا يرجون نفعها في الآخرة إذ هم لا يؤمنون بالبعث وإنما كانوا يرجون من الأعمال الصالحة رضى الله ورضى الأصنام ليعيشوا في سعة رزق وسلامة وعافية وتسلم أولادهم وأنعامهم، فالأعمال

المحبطة بعض الأعمال المضللة، وإحباطها هو عدم تحقق ما رجوه منها فهو أخص من إضلال أعمالهم كما علمته عند قوله تعالى) الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم(أول السورة.
والمقصود من ذكر هذا الخاص بعد العام التنبيه على أنهم لم ينتفعوا بها لئلا يظن المؤمنون أنها قد تخفف عنهم من العذاب فقد كانوا يتساءلون عن ذلك، كما في حديث عدي بن حاتم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعمال كان يتحنث بها في الجاهلية من عتاقة ونحوها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمت على ما سلف من خير أي ولو لم يسلم لما كان له فيها خير.
والمعنى: أنهم لو آمنوا بما أنزل الله لانتفعوا بأعمالهم الصالحة في الآخرة وهي المقصود الأهم وفي الدنيا على الجملة.
وقد حصل من ذكر هذا الخاص بعد العام تأكيد الخير المذكور.
)أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكفرين أمثالها[10](

تفريع على جملة)والذين كفروا فتعسا لهم(الآية، وتقدم القول في نظائر)أفلم يسيروا في الأرض(في سورة الروم وفي سورة غافر.
والاستفهام تقريري، والمعنى: أليس تعس الذين كفروا مشهودا عليه بآثاره من سوء عاقبة أمثالهم الذين كانوا قبلهم يدينون بمثل دينهم.
وجملة)دمر الله عليهم(استئناف بياني، وهذا تعريض بالتهديد.
والتدمير: الإهلاك والدمار وهو الهلك.
وفعل)دمر(متعد إلى المدمر بنفسه، فيقال: دمرهم الله، وإنما عدي في الآية بحرف الاستعلاء للمبالغة في قوة التدمير، فحذف مفعول)دمر(لقصد العموم، ثم جعل التدمير واقعا عليهم فأفاد معنى)دمر(كل ما يختص بهم، وهو المفعول المحذوف، وأن التدمير واقع عليهم فهم من مشموله.
وجملة)وللكافرين أمثالها(اعتراض بين جملة)أفلم يسيروا في الأرض(وبين جملة)ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا(. والمراد بالكافرين: كفار مكة والمعنى: ولكفاركم أمثال عاقبة الذين من قبلهم من الدمار وهذا تصريح بما وقع به التعريض للتأكيد بالتعميم ثم الخصوص.
وأمثال: جمع مثل بكسر الميم وسكون الثاء، وجمع الأمثال لأن الله استأصل الكافرين مرات حتى استقر الإسلام فاستأصل صناديدهم

يوم بدر بالسيف، ويوم حنين بالسيف أيضا، وسلط عليهم الريح يوم الخندق فهزمهم وسلط عليهم الرعب والمذلة يوم فتح مكة، وكل ذلك مماثل لما سلطه على الأمم في الغاية منه وهو نصر الرسول صلى الله عليه وسلم ودينه، وقد جعل الله ما نصر به رسوله صلى الله عليه وسلم أعلى قيمة بكونه بيده وأيدي المؤمنين مباشرة بسيوفهم وذلك أنكى للعدو.

وضمير)أمثالها(عائد إلى)عاقبة الذين من قبلهم(باعتبار أنها حالة سوء.

)ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم[11] (أعيد اسم الإشارة للوجه الذي تقدم في قوله)ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل(وقوله)ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم(.

واسم الإشارة منصرف إلى مضمون قوله)وللكافرين أمثالها(بتأويل: ذلك المذكور، لأنه يتضمن وعيدا للمشركين بالتدمير، وفي تدميرهم انتصار للمؤمنين على ما لقوا منهم من الأضرار، فأفيد أن ما توعدهم الله به مسبب على أن الله نصير الذين آمنوا وهو المقصود من التعليل وما بعده تتميم.

والمولى، هنا: الولي والناصر. والمعنى: أن الله ينصر الذين ينصرون دينه وهم الذين آمنوا ولا ينصر الذين كفروا به، فأشركوا معه في إلهيته وإذا كان لا ينصرهم فلا يجدون نصيرا لأنه لا يستطيع أحد أن ينصرهم على الله، فنفي جنس المولى لهم بهذا المعنى من معاني المولى.

فقوله)وأن الكافرين لا مولى لهم(أفاد شيئين: أن الله لا ينصرهم، وأنه إذا لم ينصرهم فلا ناصر لهم، وأما إثبات المولى للمشركين في قوله تعالى)ثم نقول للذين أشركوا مكانكم(إلى قوله)وردوا إلى الله مولاهم الحق(فذلك المولى بمعنى آخر، وهو معنى: المالك والرب، فلا تعارض بينهم.

)إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم[12](استئناف بياني جواب سؤال يخطر ببال سامع قوله)بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم(عن حال المؤمنين في الآخرة وعن رزق الكافرين في الدنيا، فبين الله أن من ولايته المؤمنين أن يعطيهم النعيم الخالد بعد النصر في الدنيا، وأن ما أعطاه الكافرين في الدنيا لا عبرة به لأنهم مسلوبون من فهم الإيمان فحظهم من الدنيا أكل وتمتع كحظ الأنعام، وعاقبتهم في عالم الخلود العذاب، فقوله)والنار مثوى لهم(في معنى قوله في سورة آل عمران)لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد(.

وهذا الاستئناف وقع اعتراضا بين جملة)أفلم يسيروا في الأرض(وجملة)وكائن من قرية(الآية.
والمجرور من قوله)كما تأكل الأنعام(في محل الحال من ضمير)يأكلون(، أو في محل الصفة لمصدر محذوف هو مفعول مطلق ل)يأكلون(لبيان نوعه.
والتمتع: الانتفاع القليل بالمتاع، وتقدم في قوله)متاع قليل(في سورة آل عمران، وقوله)ومتاع إلى حين(في سورة الأعراف.

صفحة : 4031

والمثوى: مكان الثواء، والثواء: الاستقرار، وتقدم في قوله)قال النار مثواكم(في الأنعام.
وعدل عن الإضافة فقيل)مثوى لهم(بالتعليق باللام التي شأنها أن تنوى في الإضافة ليفاد بالتنوين معنى التمكن من القرار في النار مثوى، أي مثوى قويا لهم لأن الإخبار عن النار في هذه الآية حصل قبل مشاهدتها، فلذلك أضيفت في قوله)قال النار مثواكم(لأنه إخبار عنها وهم يشاهدونها في المحشر.
)وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم[13](عطف على جملة)أفلم يسيروا في الأرض(، وما بينهما استطراد اتصل بعضه ببعض.
وكلمة)كأين(تدل على كثرة العدد، وتقدم في سورة آل عمران وفي سورة الحج.
والمراد بالقرية: أهلها، بقرينة قوله)أهلكناهم(، وإنما أجري الإخبار على القرية وضميرها لإفادة الإحاطة بجميع أهلها وجميع أحوالهم وليكون لإسناد إخراج الرسول إلى القرية كلها وقع من التبعة على جميع أهلها سواء منهم من تولى أسباب الخروج، ومن كان ينظر ولا ينهى قال تعالى)وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم(.
وهذا إطناب في الوعيد لأن مقام التهديد والتوبيخ يقتضي الإطناب، فمفاد هذه الآية مؤكد لمفاد قوله)فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها(، فحصل توكيد ذلك بما هو مقارب له من إهلاك الأمم ذوات القرى والمدن بعد أن شمل قوله)الذين من قبلهم(من كان من أهل القرى، وزاد هنا التصريح بأن الذين من قبلهم كانوا أشد قوة منهم ليفهموا أن إهلاك هؤلاء هين على الله، فإنه لما كان التهديد السابق تهديدا بعذاب السيف من قوله)فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب(الآيات، قد يلقى

في نفوسهم غرورا فتعذر استئصالهم بالسيف وهم ما هم من المنعة وأنهم تمنعهم قريتهم مكة يستكينوا لهذا التهديد، فأعلمهم الله أن قرى كثيرة كانت أشد قوة من قريتهم أهلكهم الله فلم يجدوا نصيرا.

وبهذا يظهر الموقع البديع للتفريع في قوله)فلا ناصر لهم(وزاد أيضا إجراء الإضافة في قوله)قريتك(، ووصفها ب)التي أخرجتك(لما تفيده إضافة القرية إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم من تعبير أهلها بمذمة القطيعة ولما تؤذن به الصلة من تعليل إهلاكهم بسبب إخراجهم الرسول صلى الله عليه وسلم من قريته قال تعالى)وأخرجوهم من حيث أخرجوكم(.

وإطلاق الإخراج على ما عامل به المشركون النبي صلى الله عليه وسلم من الجفاء والأذى ومقاومة نشر الدين إطلاق من قبيل الاستعارة لأن سوء معاملتهم إياه كان سببا في خروجه من مكة وهي قريته، فشبه سبب الخروج بالإخراج ثم أطلق عليه فعل) أخرجتك(، وليس ذلك بإخراج وإنما هو خروج فإن المشركين لم يلجئوا النبي صلى الله عليه وسلم بالإخراج بل كانوا على العكس يرصدون أن يمنعوه من الخروج خشية اعتصامه بقبائل تنصره فلذلك أخفى على الناس أمر هجرته إلا عن أبي بكر رضي الله عنه، فقوله)أخرجتك(من باب قولك: أقدمني بلدك حق لي على فلان، وهو استعارة على التحقيق، وليس مجازا عقليا إذ ليس ثمة إخراج حتى يدعى أن سببه بمنزلة فاعل الإخراج، ولا هو من الكناية وإن كان قد مثل به الشيخ في دلائل الإعجاز للمجاز العقلي، والمثال يكفي فيه الفرض والاحتمال.

وفرع على الإخبار بإهلاك الله إياهم الإخبار بانتفاء جنس الناصر لهم، أي المنقذ لهم من الإهلاك.

والمقصود: التذكير بأن أمثال هؤلاء المشركين لم يجدوا دافعا يدفع عنهم الإهلاك، وذلك تعريض بتأييس المشركين من إلفاء ناصر ينصرهم في حربهم للمسلمين قطعا لما قد يخالج نفوس المشركين أنهم لا يغلبون لتظاهر قبائل العرب معهم، ولذلك حزبوا الأحزاب في وقعة الخندق.

وضمير)لهم(عائد إلى)من قرية(لأن المراد بالقرى أهلها. والمعنى: أهلكناهم إهلاكا لا بقاء معه لشيء منهم لأن بقاء شيء منهم نصر لذلك الباقي بنجاته من الإهلاك.

واسم الفاعل في قوله)فلا ناصر(مراد به الجنس لوقوعه بعد)لا(النافية للجنس فلذلك لا يقصد تضمنه لزمن ما لأنه غير مراد به معنى الفعل بل مجرد الاتصاف بالمصدر فتمحض للاسمية، ولا التفات فيه إلى زمن من الأزمنة الثلاثة، ولذا فمعنى)فلا ناصر لهم(: فلم ينصرهم أحد فيما مضى. ولا حاجة إلى إجراء ما حصل في الزمن الماضي مجرى زمن الحال، وقولهم اسم الفاعل حقيقة في الحال جرى على الغالب فيما إذا أريد به معنى الفعل.

وقرأ الجمهور)وكأين(بهمزة بعد الكافر وبتشديد الياء. وقرأه ابن كثير بألف بعد الكاف وتخفيف الياء مكسورة وهي لغة.

)أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم[14](تفريع على جملة)أهلكناهم فلا ناصر لهم(لتحقيق أنهم لا ناصر لهم تحقيقا يرجع إلى ما في الكلام من المعنى التعريضي فهو شبيه بالاستئناف البياني جاء بأسلوب التفريع.

ويجوز مع ذلك أن يكون مفرعا على ما سبق من قوله)إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات(الآية، فيكون له حكم الاعتراض لأنه تفريع على اعتراض.

وهذا تفنن في تلوين الكلام لتجديد نشاط السامعين وهو من الأساليب التي ابتكرها القرآن في كلام العرب.

والاستفهام مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه.

والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين كما ظهر ذلك عليهم في مواطن كثيرة كقولهم)لو كان خيرا ما سبقونا إليه( )وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون( )فاتخذتموه سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون(.

والمراد بالموصولين فريقان كما دل عليه قوله في أحدهما)واتبعوا أهواءهم(.

والبينة: البرهان والحجة، أي حجة على أنه محق.

و)من(ابتدائية، وفي التعبير بوصف الرب وإضافته إلى ضمير الفريق تنبيه على زلفى الفريق الذي تمسك بحجة الله.

ومعنى وصف البينة بأنها من الله: أن الله أرشدهم إليها وحرك أذهانهم فامتثلوا وأدركوا الحق، فالحجة حجة في نفسها وكونها من عند الله تزكية لها وكشف للتردد فيها وإتمام لدلالتها، كما يظهر الفرق بين أخذ العلم عن متضلع فيه وأخذه عن مستضعف فيه وإن كان مصيبا.

و)على(للاستعلاء المجازي الذي هو بمعنى التمكن كما في قوله تعالى)أولئك على هدى من ربهم(في سورة البقرة.

وهذا الفريق هم المؤمنون وهم ثابتون على الدين واثقون بأنهم على الحق. فلا جرم يكون لهم الفوز في الدنيا لأن الله يسر لهم أسبابه فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنهم على الحق وأنهم صائرون إلى إحدى الحسنيين فقويت شجاعتهم، وإن سالموا عنوا بتدبير شأنه وما فيه نفع الآمة والدين فلم يألوا جهدا في حسن أعمالهم،وذلك من آثار أن الله أصلح بالهم وهداهم.

والفريق الذي زين له سوء عمله هم المشركون، فإنهم كانوا في أحوال السوأى من عبادة الأصنام والظلم والعدوان وارتكاب الفواحش، فلما نبههم الله لفساد أعمالهم بأن أرسل إليهم رسولا بين لهم صالح الأعمال وسيئاتها لم يدركوا ذلك ورأوا فسادهم صلاحا فتزينت أعمالهم في أنظارهم ولم يستطيعوا الإقلاع عنها وغلب الفهم وهواهم على رأيهم فلم يعبأوا باتباع ما هو صلاح لهم في العاجل والآجل، فلذلك معنى قوله)كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم(بإيجاز.

وبني فعل)زين(للمجهول ليشمل المزينين لهم من أئمة كفرهم، وما سولته لهم أيضا عقولهم الآفنة من أفعالهم السيئة اغترارا بالإلف أو اتباعا للذات العاجلة أو لجلب الرئاسة، أي زين له مزين سوء عمله، وفي هذا البناء إلى المجهول تنبيه لهم أيضا ليرجعوا إلى أنفسهم فيتأملوا فيمن زين لهم سوء أعمالهم.

ولما كان تزيين أعمالهم لهم يبعثهم على الدأب عليها كان يتولد من ذلك إلفهم بها وولعهم بها فتصير لهم أهواء لا يستطيعون مفارقتها أعقب بقوله)واتبعوا أهواءهم(.

والفرق بين الفريقين بين للعاقل المتأمل بحيث يحق أن يسأل عن مماثلة الفريقين سؤال من يعلم انتفاء المماثلة وينكر على من عسى أن يزعمها.

والمراد بانتفاء المماثلة الكناية عن التفاضل، والمقصود بالفضل ظاهر وهو الفريق الذي وقع الثناء عليه.

)مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم[15](استئناف بياني لأن ما جرى من ذكر الجنة في قوله)إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار(مما يستشرف

السامع إلى تفصيل بعض صفاتها، وإذ قد ذكر أنها تجري من تحتها الأنهار موهم السامع أنها أنهار المياه لأن جري الأنهار أكمل محاسن الجنات المرغوب فيها، فلما فرغ من توصيف حال فريقي الإيمان والكفر، ومما أعد لكليهما، ومن إعلان تباين حاليهما ثني العنان إلى بيان ما في الجنة التي وعد المتقون، وخص من ذلك بيان أنواع الأنهار، ولما كان ذلك موقع الجملة كان قوله)مثل الجنة(مبتدأ محذوف الخبر. والتقدير: ما سيوصف أو ما سيتلى عليكم، أو مما يتلى عليكم.

وقوله)كمن هو خالد في النار(كلام مستأنف مقدر فيه استفهام إنكاري دل عليه ما سبق من قوله)أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله(. والتقدير: أكمن هو خالد في النار. والإنكار متسلط على التشبيه الذي هو بمعنى التسوية.

ويجوز أن تكون جملة)مثل الجنة(بدلا من جملة)أفمن كان على بينة من ربه(فهي داخلة في حيز الاستفهام الإنكاري. والخبر قوله)كمن هو خالد في النار(، أي كحال من هو خالد في النار وذلك يستلزم اختلاف حال النار عن حال الجنة، فحصل نحو الاحتباك إذ دل)مثل الجنة(على مثل أصحابها ودل مثل من هو خالد في النار على مثل النار.

والمقصود: بيان البون بين حالي المسلمين والمشركين بذكر التفاوت بين حالي مصيرهما المقرر في قوله)إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات(إلى آخره، ولذلك لم يترك ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار في خلال ذكر الجنة والنار فقال)مثل الجنة التي وعد المتقون(وقال بعده)كمن هو خالد في النار(.

ولقصد زيادة تصوير مكابرة من يسوي بين المتمسك ببينة ربه وبين التابع لهواه، أي هو أيضا كالذي يسوي بين الجنة ذات تلك الصفات وبين النار ذات صفات ضدها.

وفيه اطراد أساليب السورة إذ افتتحت بالمقابلة بين الذين كفروا والذين آمنوا، وأعقب باتباع الكافرين الباطل واتباع المؤمنين الحق، وثلث بقوله)أفمن كان على بينة من ربه(إلخ.

والمثل: الحال العجيب.

وجملة)فيها أنهار(وما عطف عليها تفصيل للإجمال الذي في جملة)مثل الجنة(، فهو استئناف، أو بدل مفصل من مجمل على رأي من يثبته في أنواع البدل.

والأنهار: جمع نهر، وهو الماء المستبحر الجاري في أخدود عظيم من الأرض، وتقدم في قوله تعالى)قال إن الله مبتليكم بنهر(في سورة البقرة.

فأما إطلاق الأنهار على أنهار الماء فهو حقيقة، وأما إطلاق الأنهار على ما هو من لبن وخمر وعسل فذلك على طريقة التشبيه البليغ، أي مماثلة للأنهار، فيجوز أن تكون المماثلة تامة في أنها كالأنهار مستبحرة في أخاديد من أرض الجنة فإن أحوال الآخرة خارقة للعادة المعروفة في الدنيا، فإن مرأى أنهار من هذه الأصناف مرأى مبهج. ويجوز أن تكون مماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار.

وهذه الأصناف الخمسة المذكورة في الآية كانت من أفضل ما يتنافسون فيه ومن أعز ما يتيسر الحصول عليه، فكيف الكثير منها، فكيف إذا كان منها أنهار في الجنة. وتناول هذه الأصناف من التفكه الذي هو تنعم أهل اليسار والرفاهية.

وقد ذكر هنا أربعة أشربة هي أجناس أشربتهم، فكانوا يستجيدون الماء الصافي لأن غالب مياههم من الغدران والأحواض بالبادية تمتلئ من ماء المطر أو من مرور السيول فإذا استقرت أياما أخذت تتغير بالطحلب وبما يدخل فيها من الأيدي والدلاء، وشرب الوحوش وقليل البلاد التي تكون مجاورة الأنهار الجارية.

وكذلك اللبن كانوا إذا حلبوا وشربوا أبقوا ما استفضلوه إلى وقت آخر لأنهم لا يحلبون إلا حلبة واحدة أو حلبتين في اليوم فيقع في طعم اللبن تغيير.

صفحة : 4034

فأما الخمر فكانت قليلة عزيزة عندهم لقلة الأعناب في الحجاز إلا قليلا في الطائف، فكانت الخمر تجتلب من بلاد الشام ومن بلاد اليمن، وكانت غالية الثمن وقد ينقطع جلبها زمانا في فصل الشتاء لعسر السير بها في الطرق وفي أوقات الحروب أيضا خوف انتهابها.

والعسل هو أيضا من أشربتهم، قال تعالى في النحل)يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه(والعرب يقولون: سقاه عسلا، ويقولون: أطعمه عسلا. وكان العسل مرغوبا فيه يجتلب من بلاد الجبال ذات النبات المستمر.

فأما الثمرات فبعضها كثير عندهم كالتمر وبعضها قليل كالرمان.

والآسن: وصف من أسن الماء من باب ضرب ونصر وفرح، إذا تغير لونه. وقرأه ابن كثير)أسن(بدون ألف بعد الهمزة على وزن فعل للمبالغة.

والخمر: عصير العنب الذي يترك حتى يصيبه التخمر وهو الحموضة مثل خمير العجين.
و)لذة(وصف وليس باسم، وهو تأنيث اللذ، أي اللذيذ قال بشار:
ذكرت شبابي اللذ غير قـريب
ومجلس لهو طاب بين شروب واللذاذة: انفعال نفساني فيه مسرة، وهي ضد الألم وأكثر حصوله من الطعوم والأشربة والملامس البدنية، فوصف خمر هنا بأنها)لذة(معناه يجد شاربها لذاذة في طعمها، أي بخلاف خمر الدنيا فإنها حريقة الطعم فلولا ترقب ما تفعله في الشارب من نشوة وطرب لما شربها لحموضة طعمها.
والعسل المصفى: الذي خلص مما يخالط العسل من بقايا الشمع وبقايا أعضاء النحل التي قد تموت فيه، وتقدم الكلام على العسل وتربيته في سورة النحل.
ومعنى)من كل الثمرات(أصناف من جميع أجناس الثمرات، فالتعريف في)الثمرات(للجنس، و)كل(مستعملة في حقيقتها وهو الإحاطة، أي جميع ما خلق الله من الثمرات مما علموه في الدنيا وما لم يعلموه مما خلقه الله للجنة. و)من(تبعيضية، وهذا كقوله تعالى)فيهما من كل فاكهة زوجان(.
و)مغفرة(عطف على)أنهار(وما بعده، أي وفيها مغفرة لهم، أي تجاوز عنهم، أي إطلاق في أعمالهم لا تكليف عليهم كمغفرته لأهل بدر إذ بينت بأن يعملوا ما شاؤوا في الحديث لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وقد تكون المغفرة كناية عن الرضوان عليهم كما قال تعالى)ورضوان من الله أكبر(.
وتقدير المضاف في مثله ظاهر للقرينة.
وقوله)وسقوا ماء حميما(جيء به لمقابلة ما وصف من حال أهل الجنة الذي في قوله)فيها أنهار من ماء غير آسن(إلى قوله)من كل الثمرات(، أي أن أهل النار محرومون من جميع ما ذكر من المشروبات. وليسوا بذائقين إلا الماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم بفور سقيه. ولذلك لم يعرج هنا على طعام أهل النار إلى ذكر في قوله تعالى)لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم(وقوله)أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم(إلى قوله)فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم(.
وضمير)سقوا(راجع إلى)من هو خالد في النار(باعتبار معنى)من(وهو الفريق من الكافرين بعد أن أعيد عليه ضمير المفرد في قوله)هو خالد(.
والأمعاء: جمع معى مقصورا وبفتح الميم وكسرها، وهو ما ينتقل الطعام إليه بعد نزوله من المعدة. ويسمى عفج بوزن كتف.

)ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا(ضمير)ومنهم(عائد إلى)الذين كفروا(الذين جرى ذكرهم غير مرة من أول السورة، أي ومن الكافرين قوم يستمعون إليك، وأراد بمن يستمع معهم المنافقين بقرينة قوله)قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال(وقوله)خرجوا من عندك(.
وليس المراد مجرد المستمعين مثل ما في قوله)ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم(وقوله)ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة(للفرق الواضح بين الأسلوبين، وهذا صنف آخر من الكافرين الذين أسروا الكفر وتظاهروا بالإيمان، وقد كان المنافقون بعد الهجرة مقصودين من لفظ الكفار. وهذه السورة نازلة بقرب عهد من الهجرة فلذلك ذكر فيها الفريقان من الكفار.

صفحة : 4035

ومعنى)يستمع إليك(: يحضرون مجلسك ويسمعون كلامك وما تقرأ عليهم من القرآن. وهذه صفة من يتظاهر بالإسلام فلا يعرضون عن سماع القرآن إعراض المشركين بمكة. روي عن الكلبي ومقاتل: أنها نزلت في عبد الله ابن أبي بن سلول ورفاعة بن الثابوت، والحارث بن عمرو، وزيد بن الصلت، ومالك بن الدخشم.
والاستماع: أشد السمع وأقواه، أي يستمعون باهتمام يظهرون أنهم حريصون علي وعي ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم وأنهم يلقون إليه بالهم، وهذا من استعمال الفعل في معنى إظهاره لا في معنى حصوله. وحق فعل استمع أن يعدى إلى المفعول بنفسه كما في قوله)يستمعون القرآن(فإذا أريد تعلقه بالشخص المسموع منه يقال: استمع إلى فلان كما قال هنا)ومنهم من يستمع إليك(، وكذا جاء في مواقعه كلها من القرآن.
و)حتى(في قوله)حتى إذا خرجوا من عندك(ابتدائية و)إذا(اسم زمان متعلق ب)قالوا(.
والمعنى: فإذا خرجوا من عندك قالوا الخ.
والخروج: مغادرة مكان معين محصورا وغير محصور، فمنه)إذ أخرجني من السجن(، ومنه)يريد أن يخرجكم من أرضكم(.
والخروج من عند النبي صلى الله عليه وسلم مغادرة مجلسه الذي في المسجد وهو الذي عبر عنه هنا بلفظ)عندك(.
و)من(لتعدية فعل)خرجوا(وليست التي تزاد مع الظروف في نحو قوله تعالى)من عند الله(.

والذين أوتوا العلم: هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الملازمون لمجلسه. وسمي منهم عبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وابن عباس. وروي عنه أنه قال: أنا منهم وسئلت فيمن سئل.

والمعنى: أنهم يستمعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن وما يقوله من الإرشاد وحذف مفعول)يستمع(ليشمل ذلك.

ومعنى)آنفا(: وقتا قريبا من زمن التكلم ، ولم ترد هذه الكلمة إلا منصوبة على الظرفية. قال الزجاج: هو من استأنف الشيء إذا ابتدأه ا ه يريد أنه مشتق من فعل مزيد ولم يسمع له فعل مجرد، وظاهر كلامهم أن اشتقاقه من الاسم الجامد وهو الأنف، أي جارحة الشم وكأنهم عنوا به أنف البعير لأن الأنف أول ما يبدو لراكبه فيأخذ بخطامه، فلوحظ في اسم الأنف معنى الوصف بالظهور، وكني بذلك عن القرب، وقال غيره: هو مشتق من أنف بضم الهمزة وضم النون يوصف به الكأس التي لم يشرب منها من قبل، وتوصف به الروضة التي لم ترع قبل، كأنهم لاحظوا فيها لازم وصف عدم الاستعمال وهو أنه جديد، أي زمن قريب، ف)آنفا(زمانا لم يبعد العهد به. قال ابن عطية: والمفسرون يقولون: آنفا معناه: الساعة القريبة منا وهذا تفسير المعنى اه. وفي كلامه نظر لأن أهل اللغة فسروه بوقت يقرب منا.

وصيغ على زنة اسم الفاعل وليس فيه معنى اسم الفاعل، فهذا اسم غريب التصريف ولا يحفظ شيء من شعر العرب وقع فيه هذا اللفظ.

واتفق القراء على قراءته بصيغة فاعل وشذت رواية عن البزي عن ابن كثير أنه قرأ)أنفا(بوزن كتف. وقد أنكر بعض علماء القراءات نسبتها إلى ابن كثير ولكن الشاطبي أثبتها في حرز الأماني وقد ذكرها أبو علي في الحجة.

فإذا صحت هذه الرواية عن البزي عنه كان)أنفا(حالا من ضمير) من يستمع(أجري على الإفراد رعيا للفظ)من(. ومعناه: أنه يقول ذلك في حال أنه شديد الأنفة، أي التكبر إظهارا لترفعه عن وعي ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم وينتهي الكلام عند ماذا. وزعم أبو علي في الحجة: أن البزي توهمه مثل: حاذر وحذر. ولا يظن مثل هذا بالبزي لو صحت الرواية عنه عن ابن كثير.

وسياق الكلام يدل على ذم هذا السؤال لقوله عقبه)أولئك الذين طبع الله على قلوبهم(فهو سؤال ينبئ عن مذمة سائليه، فإن كان سؤالهم حقيقة أنبأ عن قلة وعيهم لما يسمعونه من النبي صلى الله عليه وسلم فهم يستعيدونه من الذين علموه فلعل استعادتهم إياه لقصد أن يتدارسوه إذا خلوا مع إخوانهم ليختلقوا مغامر يهيئونها

بينهم، أو أن يجيبوا من يسألهم من إخوانهم عما سمعوه في المجلس الذي كانوا فيه.
ويجوز أن يكون السؤال على غير حقيقته ناوين به الاستهزاء يظهرون للمؤمنين اهتمامهم باستعادة ما سمعوه ويقولون لإخوانهم: إنما نحن مستهزؤون، أو أن يكون سؤالهم تعريضا بأنهم سمعوا كلاما لا يستبين المراد منه لإدخال الشك في نفوس من يحسون منهم الرغبة في حضور مجالس النبي صلى الله عليه وسلم تعريضا لقلة جدوى حضورها.

ويجوز أن تكون الآية أشارت إلى حادثة خاصة ذكر فيها النبي صلى الله عليه وسلم المنافقين وأحوالهم وعلم الذين كانوا حاضرين منهم أنهم المعنيون بذلك، فأرادوا أن يسألوا سؤال استطلاع هل شعر أهل العلم بأن أولئك هم المعنيون، فيكون مفعول) يستمعون(محذوفا للعلم به عند النبي صلى الله عليه وسلم.
)أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم[16](استئناف بياني لأن قولهم)ماذا قال آنفا(سؤال غريب من شأنه إثارة سؤال من يسأل عن سبب حصوله على جميع التقادير السابقة في مرادهم منه.
وجيء باسم الإشارة بعد ذكر صفاتهم تشهيرا بهم، وجيء بالموصول وصلته خبرا عن اسم الإشارة لإفادة أن هؤلاء المتميزين بهذه الصفات هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس أنهم فريق مطبوع على قلوبهم لأنه قد تقرر عند المسلمين أن الذين صمموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم وأنهم متبعون لأهوائهم، فأفادت أن هؤلاء المستمعين زمرة من ذلك الفريق، فهذا التركيب على أسلوب قوله تعالى)أولئك هم المفلحون(في سورة البقرة.
والطبع على القلب: تمثيل لعدم مخالطة الهدى والرشد لعقولهم بحال الكتاب المطبوع عليه، أو الإناء المختوم بحيث لا يصل إليه من يحاول الوصول إلى داخله، فمعناه أن الله خلق قلوبهم، أي عقولهم غير مدركة ومصدقة للحقائق والهدى. وهذا الطبع متفاوت يزول بعضه عن بعض أهله في مدد متفاوتة ويدوم مع بعض إلى الموت كما وقع، وزواله بانتهاء ما في العقل من غشاوة الضلالة وبتوجه لطف الله بمن شاء بحكمته اللطف به المسمى بالتوفيق الذي فسره الأشعرية بخلق القدرة والداعية إلى الطاعة، وبأنه ما

يقع عنده صلاح العبد آخرة. وفسر المعتزلة اللطف بإيصال المنافع إلى العبد من وجه يدق إدراكه وتمكينه بالقدرة والآلات.

)والذين اهتدوا زادهم هدى وأتيهم تقواهم[17](جملة معترضة بين جملة)ومنهم من يستمع إليك(وما فيهم عنها من قوله)فهل ينظرون إلا الساعة(والواو اعتراضية. والمقصود من هذا الاعتراض: مقابلة فريق الضلالة بفريق الهداية على الأسلوب الذي أقيمت عليه هذه السورة كما تقدم في أولها. فهذا أسلوب مستمر وإن اختلفت مواقع جمله.

والمعنى: والذين شرح الله صدرهم للإيمان فاهتدوا لطف الله بهم فزادهم هدى وأرسخ الإيمان في قلوبهم ووفقهم للتقوى، فاتقوا وغالبوا أهواءهم.

وإيتاء التقوى مستعار لتيسير أسبابها إذ التقوى معنى نفساني، والإيتاء يتعدى حقيقة للذوات.

وإضافة التقوى إلى ضمير)الذين اهتدوا(إيماء إلى أنهم عرفوا بها واختصت بهم.

)فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها(تفريع على ما مضى من وصف أحوال الكافرين من قوله)أفلم يسيروا في الأرض(إلى قوله)واتبعوا أهواءهم(الشاملة لأحوال الفريقين ففرع عليها أن كلا الفريقين ينتظرون حلول الساعة لينالوا جزاءهم على سوء كفرهم فضمير ينظرون مراد به الكافرون لأن الكلام تهديد ووعيد، ولأن المؤمنين ينتظرون أمورا أخر مثل النصر والشهادة، قال تعالى)قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين(الآية. والنظر هنا بمعنى الانتظار كما في قوله تعالى)هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك(الآية.

والاستفهام إنكار مشوب بتهكم، وهو إنكار وتهكم على غائبين، موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أي لا تحسب تأخير مؤاخذتهم إفلاتا من العقاب، فإنهم مرجون إلى الساعة.

وهذا الاستفهام الإنكاري ناظر إلى قوله آنفا)والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم(.

والقصر الذي أفاده الاستثناء قصر ادعائي، نزل انتظارهم ما يأملونه من المرغوبات في الدنيا منزلة العدم لضآلة أمره بعد أن نزلوا منزلة من ينتظرون فيما ينتظرون الساعة لأنهم لتحقق حلوله عليهم جديرون بأن يكونوا من منتظريها.

و)أن تأتيهم(بدل اشتمال من الساعة.

و)بغتة(حال من الساعة قال تعالى)لا تأتيكم إلا بغتة(. والبغتة: الفجأة، وهو مصدر بمعنى: المرة، والمراد به هنا الوصف، أي مباغتة لهم.

ومعنى الكلام: أن الساعة موعدهم وأن الساعة قريبة منهم، فحالهم كحال من ينتظر شيئا فإنما يكون الانتظار إذا اقترب موعد الشيء، هذه الاستعارة تهكمية.

والفاء من قوله)فقد جاء أشراطها(فاء الفصيحة كالتي في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسـانـا وهذه الفصيحة تفيد معنى تعليل قرب مؤاخذتهم.

والأشراط: جمع شرط بفتحتين، وهو: العلامة والأمارة على وجود شيء أو على وصفه.

وعلامات الساعة هي علامات كونها قريبة. وهذا القرب يتصور بصورتين: إحداهما أن وقت الساعة قريب قربا نسبيا بالنسبة إلى طول مدة هذا العالم ومن عليه من الخلق.

والثانية: أن ابتداء مشاهدة أحوال الساعة يحصل لكل أحد بموته فإن روحه إذا خلصت عن جسده شاهدت مصيرها مشاهدة إجمالية. وبه فسر حديث أبي هريرة مرفوعا القبر روضة من رياض الجنة أو حفر من حفر النار رواه الترمذي. وهو ضعيف ويفسره حديث ابن عمر مرفوعا إذا مات الميت عرض عليه مقعده بالغداة والعشي فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ثم يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة ونهاية حياء المرء قريبة وإن طال العمر.

والأشراط بالنسبة للصورة الأولى: الحوادث التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها تقع بين يدي الساعة، وأولها بعثته لأنه آخر الرسل وشريعته آخر الشرائع ثم ما يكون بعد ذلك، وبالنسبة للصورة الثانية أشراطها الأمراض والشيخوخة.

)فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم[18](تفريع على)فقد جاء أشراطها(. و)أنى(اسم يدل على الحالة، ويضمن معنى الاستفهام كثيرا وهو هنا استفهام إنكاري، أي كيف يحصل لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة، والمقصود: إنكار الانتفاع بالذكرى حينئذ.

و)أنى(مبتدأ ثان مقدم لأن الاستفهام له الصدارة. و)ذكراهم(مبتدأ أول و)لهم(خبر عن)أنى(، وهذا التركيب مثل قوله تعالى)أنى لهم الذكرى(في سورة الدخان، وضمير)جاءتهم(عائد إلى)الساعة(.

)فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم[19](فرع على جميع ما ذكر من حال المؤمنين وحال الكافرين ومن عواقب ذلك ووعده أو وعيده أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما له من العلم بوحدانية الله وعلى ما هو دأبه من التواضع لله بالاستغفار لذنبه ومن الحرص على نجاة المؤمنين بالاستغفار لهم لأن في ذلك العلم وذلك الدأب استمطار الخيرات له ولأمته والتفريع هذا مزيد مناسبة لقوله آنفا)ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم(الآية.

فالأمر في قوله)فاعلم(كناية عن طلب العلم وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد علم ذلك وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرة واحدة تقرر في النفس لأن العلم لا يحتمل النقيض فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله بل لطلب الثبات فهو على نحو قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله(.

وأما الأمر في قوله)واستغفر لذنبك(فهو لطلب تجديد ذلك إن كان قد علمه النبي صلى الله عليه وسلم من قبل وعمله أو هو لطلب تحصيله أن لم يكن فعله من قبل.

وذكر)المؤمنات(بعد)المؤمنين(اهتمام بهن في هذا المقام وإلا فإن الغالب اكتفاء القرآن بذكر المؤمنين وشموله للمؤمنات على طريقة التغليب للعلم بعموم تكاليف الشريعة للرجال والنساء إلا ما استثني من التكاليف.

ومن اللطائف القرآنية أن أمر هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله)واستغفر لذنبك(. قال ابن عيينة لما سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله حين بدأ به)فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك(. وترجم البخاري في كتاب العلم من صحيحه باب العلم قبل القول والعمل لقول الله تعالى)فاعلم أنه لا إله إلا الله(فبدأ بالعلم.

صفحة : 4038

وما يستغفر منه النبي صلى الله عليه وسلم ليس من السيئات لعصمته منها، وإنما هو استغفار من الغفلات ونحوها، وتسميته بالذنب في الآية إما محاكاة لما كان يكثر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله اللهم اغفر لي خطيئتي وإنما كان يقوله في مقام التواضع، وإما إطلاق لاسم الذنب على ما يفوت من الازدياد في العبادة مثل أوقات النوم والأكل، وإطلاقه على ما عناه النبي

صلى الله عليه وسلم في قوله أنه ليغان على قلبي وإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة .
والللام في قوله)لذنبك(لام التعيين بينت مفعولا ثانيا لفعل) استغفر(، واللام في قوله)وللمؤمنين(لام العلة، أو بمعنى) عن(والمفعول محذوف، أي استغفر الذنوب لأجل المؤمنين، وفي الكلام حذف، تقديره: وللمؤمنين لذنوبهم.
وجملة)والله يعلم متقلبكم ومثواكم(تذييل جامع لأحوال ما تقدم. فالمتقلب: مصدر بمعنى التقلب، أوثر جلبه هنا لمزاوجة قوله) ومثواكم(. والتقلب: العمل المختلف ظاهرا كان كالصلاة، أو باطنا كالإيمان والنصح.
والمثوى: المرجع والمئال، أي يعلم الله أحوالكم جميعا من مؤمنين وكافرين، وقدر لها جزاءها على حسب علمه بمراتبها ويعلم مصائركم وإنما أمركم ونهاكم وأمركم بالاستغفار خاصة لإجراء أحكام الأسباب على مسبباتها فلا تيأسوا ولا تهملوا.
)ويقول الذين أمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم[20] طاعة وقول معروف(قد ذكرنا أن هذه السورة أنزلت بالمدينة وقد بدت قرون نفاق المنافقين، فلما جرى في هذه السورة وصف حال المنافقين أعقب ذلك بوصف أجلى مظاهر نفاقهم، وذلك حين يدعى المسلمون إلى الجهاد فقد يضيق الأمر بالمنافقين إذ كان تظاهرهم بالإسلام سيلجئهم إلى الخروج للقتال مع المسلمين، وذلك أمر ليس بالهين لأنه تعرض لإتلافهم النفوس دون أن يرجوا منه نفعا في الحياة الأبدية إذ هم لا يصدقون بها فيصبحوا في حيرة. وكان حالهم هذا مخالفا لحال الذين آمنوا الذي تمنوا أن ينزل القرآن بالدعوة إلى القتال ليلاقوا المشركين فيشفوا منهم غليلهم، فبهذه المناسبة حكي تمني المؤمنين نزول حكم القتال لأنه يلوح به تمييز حال المنافقين، ويبدو منه الفرق بين حال الفريقين وقد بين كره القتال لديهم في سورة براءة.
فالمقصود من هذه الآية هو قوله)فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض(الآية، وما قبله توطئة له بذكر سببه، وأفاد تقديمه أيضا تنويها بشأن الذين آمنوا، وأفاد ذكره مقابلة بين حالي الفريقين جريا على سنن هذه السورة. ومقال الذين آمنوا هذا كان سببا في نزول قوله تعالى)فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب(، ولذلك فالمقصود من السورة التي ذكر فيها القتال هذه السورة التي نحن بصددها.

ومعلوم أن قول المؤمنين هذا واقع قبل نزول هذه الآية فالتعبير عنه بالفعل المضارع: إما لقصد استحضار الحالة مثل)ويصنع الفلك(، وإما للدلالة على أنهم مستمرون على هذا القول.

وتبعا لذلك تكون)إذا(في قوله)فإذا أنزلت سورة(ظرفا مستعملا في الزمن الماضي لأن نزول السورة قد وقع، ونظر المنافقين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النظر قد وقع إذ لا يكون ذمهم وزجرهم قبل حصول ما يوجبه فالمقام دال والقرينة واضحة.

و)لولا(حرف مستعمل هنا في التمني، وأصل معناه التخصيص فأطلق وأريد به التمني لأن التمني يستلزم الحرص والحرص يدعو إلى التحضيض.

وحذف وصف)سورة(في حكاية قولهم)لولا نزلت سورة(لدلالة ما بعده عليه من قوله)وذكر فيها القتال(لأن)قوله فإذا أنزلت سورة(، أي كما تمنوا اقتضى أن المسؤول سورة يشرع فيها قتال المشركين. فالمعنى: لولا نزلت سورة يذكر فيها القتال وفرضه، فحذف الوصف إيجازا.

ووصف السورة ب)محكمة(باعتبار وصف آياتها بالإحكام، أي عدم التشابه وانتفاء الاحتمال كما دلت عليه مقابلة المحكمات بالمتشابهات في قوله)منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات(في سورة آل عمران، أي لا تحتمل آيات تلك السورة المتعلقة بالقتال إلا وجوب القتال وعدم الهوادة فيه مثل قوله)فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب(الآيات، فلا جرم أن هذه السورة هي التي نزلت إجابة عن تمني الذين آمنوا.

وإنما قال)وذكر فيها القتال(لأن السورة ليست كلها متمحضة لذكر القتال فإن سور القرآن ذوات أغراض شتى.

والخطاب في)رأيت(للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه لاحق لقوله تعالى)ومنهم من يستمع إليك(.

و)الذين في قلوبهم مرض(هم المبطنون للكفر فجعل الكفر الخفي كالمرض الذي مقره القلب لا يبدو منه شيء على ظاهر الجسد، أي رأيت المنافقين على طريق الاستعارة. وقد غلب إطلاق هذه الصلة على المنافقين، وأن النفاق مرض نفساني معضل لأنه

تتفرع منه فروع بيناها في قوله تعالى)في قلوبهم مرض(في سورة البقرة.
وانتصب)نظر المغشي عليه من الموت(على المفعولية المطلقة لبيان صفة النظر من قوله)ينظرون إليك(فهو على معنى التشبيه البليغ.
ووجه الشبه ثبات الحدقة وعدم التحريك، أي ينظرون إليك نظر المتحير بحيث يتجه إلى صوب واحد ولا يشتغل بالمرئيات لأنه في شاغل عن النظر، وإنما يوجهون أنظارهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم إذ كانوا بمجلسه حين نزول السورة، وكانوا يتظاهرون بالإقبال على تلقي ما ينطق به من الوحي فلما سمعوا ذكر القتال بهتوا، فالمقصود المشابهة في هذه الصورة. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى)فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت(في سورة الأحزاب.
و)من(هنا تعليلية، أي المغشي عليه لأجل الموت، أي حضور الموت.
وفرع على هذا قوله)فأولى لهم طاعة وقول معروف(.
وهذا التفريع اعتراض بين جملة)ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت(وبين جملة)فإذا عزم الأمر(.
ولفظ)أولى(هنا يجوز أن يكون مستعملا في ظاهره استعمال التفضيل على شيء غير مذكور يدل عليه ما قبله، أي أولى لهم من ذلك الخوف الذي دل عليه نظرهم كالمغشي عليه من الموت، أن يطيعوا أمر الله ويقولوا قولا معروفا وهو قول)سمعنا وأطعنا(، فذلك القول المعروف بين المؤمنين إذا دعوا أو أمروا كما قال تعالى)إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا(في سورة النور.
وعلى هذا الوجه فتعدية)أولى(باللام دون الباء للدلالة على أن ذلك أولى وأنفع، فكان اجتلاب اللام للدلالة على معنى النفع. فهو مثل قوله تعالى)ذلك أزكى لكم(وقوله)هن أطهر لكم(.
وهو يرتبط بقوله بعده)فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم(.
ويجوز أن يكون)فأولى لهم(مستعملا في التهديد والوعيد كما في قوله تعالى)أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى(في سورة القيامة، وهو الذي اقتصر الزمخشري عليه. ومعناه: أن الله أخبر عن توعده إياهم.
ثم قيل على هذا الوجه إن)أولى(مرتبة حروفه على حالها من الولي وهو القرب، وأن وزنه أفعل. وقال الجرجاني: هو في هذا الاستعمال مشتق من الويل. فأصل أولى: أويل، أي أشد ويلا، فوقع فيه قلب، ووزنه أفلع. وفي الصحاح عن الأصمعي ما يقتضي: أنه

يجعل)أولى له(مبتدأ محذوف الخبر. والتقدير: أقرب ما يهلكه، قال ثعلب: ولم يقل أحد في)أولى له(أحسن مما قال الأصمعي.
واللام على هذا الوجه إما مزيدة، أي أولاهم الله ما يكرهون فيكون مثل اللام في قول النابغة:
سقيا ورعيا لذاك العاتب الزاري وإما متعلقة ب)أولى(على أنه فعل مضي، وعلى هذا الاستعمال يكون قوله)طاعة وقول معروف(كلاما مستأنفا وهو مبتدأ خبره محذوف، أي طاعة وقول معروف خير لهم، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر طاعة، وقول معروف، أي أمر الله أن يطيعوا.
)فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم[21](

صفحة : 4040

تفريع على وصف حال المنافقين من الهلع عند سماع ذكر القتال فإنه إذا جد أمر القتال، أي حان أن يندب المسلمون إلى القتال سيضطرب أمر المنافقين ويتسللون لواذا من حضور الجهاد، وأن الأولى لهم حينئذ أن يخلصوا الإيمان ويجاهدوا كما يجاهد المسلمون الخلص وإلا فإنهم لا محيص لهم من أحد أمرين: إما حضور القتال بدون نية فتكون عليهم الهزيمة ويخسروا أنفسهم باطلا، وإما أن ينخزلوا عن القتال كما فعل ابن أبي وأتباعه يوم أحد.
و)إذا(ظرف للزمان المستقبل وهو الغالب فيها فيكون ما بعدها مقدرا وجوده، أي فإذا جد أمر القتال وحدث.
وجملة)فلو صدقوا الله(دليل جواب)إذا(لأن)إذا(ضمنت هنا معنى الشرط، أي كذبوا الله وأخلفوا فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم، واقتران جملة الجواب بالفاء للدلالة على تضمين)إذا(معنى الشرط، وذلك أحسن من تجريده عن الفاء إذا كانت جملة الجواب شرطية أيضا.
والتعريف في)الأمر(تعريف العهد، أو اللام عن المضاف إليه، أي أمر القتال المتقدم آنفا في قوله)وذكر فيها القتال(.
والعزم: القطع وتحقق الأمر، أي كونه لا محيص منه.
واستعير العزم للتعيين واللزوم على طريقة المكنية بتشبيه ما عبر عنه بالأمر، أي القتال برجل عزم على عمل ما وإثبات العزم له تخييله كإثبات الأظفار للمنية، وهذه طريقة السكاكي في جميع أمثلة المجاز العقلي، وهي طريقة دقيقة لكن بدون اطراد ولكن عندما يسمح بها المقام.
وجعل في الكشاف إسناد العزم إلى الأمر مجازا عقليا، وحقيقته أن يسند لأصحاب العزم على طريق الجمهور في مثله وهو هنا بعيد

إذ ليس المعنى على حصول الجد من أصحاب الأمر، ونظيره قوله تعالى)إن ذلك من عزم الأمور(فالكلام فيها سواء.
ومعنى)صدقوا الله(قالوا له الصدق، وهو مطابقة الكلام لما في نفس الأمر، أي لو صدقوا في قولهم: نحن مؤمنون، وهم إنما كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أظهروا له خلاف ما في نفوسهم، فجعل الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبا على الله تفظيعا له وتهويلا لمغبته، أي لو أخلصوا الإيمان وقاتلوا بنية الجهاد لكان خيرا لهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا خير العزة والحرمة وفي الآخرة خير الجنة.
فهذه الآية إنباء مما سيكون منهم حين يجد الجد ويجيء أوان القتال وهي من معجزات القرآن في الإخبار بالغيب فقد عزم أمر القتال يوم أحد وخرج المنافقون مع جيش المسلمين في صورة المجاهدين فلما بلغ الجيش إلى الشوط بين المدينة وأحد قال عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين: ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟ ورجع هو وأتباعه وكانوا ثلث الجيش وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين.
وقوله)فلو صدقوا الله(جواب كما تقدم، وفي الكلام إيجاز لأن قوله)لكان خيرا(يؤذن بأنه إذا عزم الأمر حصل لهم ما لا خير فيه.
ولفظ)خيرا(ضد الشر بوزن فعل، وليس هو هنا بوزن أفعل.
)فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم[22](مقتضى تناسق النظم أن هذا مفرع على قوله)فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم(لأنه يفهم منه أنه إذا عزم الأمر تولوا عن القتال وانكشف نفاقهم فتكون إتماما لما في الآية السابقة من الإنباء بما سيكون من المنافقين يوم أحد. وقد قال عبد الله بن أبي: علام نقتل أنفسنا هاهنا؟ وربما قال في كلامه: وكيف نقاتل قريشا وهم من قومنا، وكان لا يرى على أهل يثرب أن يقاتلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ويرى الاقتصار على أنهم آووه. والخطاب موجه إلى الذين في قلوبهم مرض على الالتفات.

صفحة : 4041

والاستفهام مستعمل في التكذيب لما سيعتذرون به لانخزالهم ولذلك جيء فيه ب)هل(الدالة على التحقيق لأنها في الاستفهام بمنزلة)قد(في الخبر، فالمعنى: أفيتحقق إن توليتم أنكم تفسدون في الأرض وتقطعون أرحامكم وأنتم تزعمون أنكم توليتم إبقاء على

أنفسكم وعلى ذوي قرابة أنسابكم على نحو قوله تعالى)قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا(وهذا توبيخ كقوله تعالى)ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم(. والمعنى: أنكم تقعون فيما زعمتم التفادي منه وذلك بتأييد الكفر وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار.

فالتولي هنا هو الرجوع عن الوجهة التي خرجوا لها كما في قوله تعالى)فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم(وقوله)أفرأيت الذي تولى(وقوله)فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى(. وبمثله فسر ابن جريج وقتادة على تفاوت بين التفاسير. ومن المفسرين من حمل التولي على أنه مطاوع ولاه إذا أعطاه ولاية، أي ولاية الحكم والإمارة على الناس وبه فسر أبو العالية والكلبي وكعب الأحبار. وهذا بعيد من اللفظ ومن النظم وفيه تفكيك لاتصال نظم الكلام وانتقال بدون مناسبة، وتجاوز بعضهم ذلك فأخذ يدعي أنها نزلت في الحرورية ومنهم من جعلها فيما يحدث بين بني أمية وبني هاشم على عادة أهل الشيع والأهواء من تحميل كتاب الله ما لا يتحمله ومن قصر عموماته على بعض ما يراد منها.

وقرأ نافع وحده)عسيتم(بكسر السين. وقرأه بقية العشرة بفتح السين وهما لغتان في فعل عسى إذا اتصل به ضمير. قال أبو علي الفارسي: وجه الكسر أن فعله: عسي مثل رضي، ولم ينطقوا به إلا إذا أسند هذا الفعل إلى ضمير، وإسناده إلى الضمير لغة أهل الحجاز، أما بنو تميم فلا يسندونه إلى الضمير البتة، يقولون: عسى أن تفعلوا.

)أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم[23](الإشارة إلى الذين في قلوبهم مرض على أسلوب قوله آنفا)أولئك الذين طبع الله على قلوبهم(ولا يصح أن تكون الإشارة إلى ما يؤخذ من قوله)أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم(لأن ذلك لا يستوجب اللعنة ولا أن مرتكبيه بمنزلة الصم، على أن في صيغة المضي في أفعال: لعنهم، وأصمهم، وأعمى، ما لا يلاقي قوله)فهل عسيتم(ولا ما في حرف)إن(من زمان الاستقبال.

واستعير الصمم لعدم الانتفاع بالمسموعات من آيات القرآن ومواعظ النبي صلى الله عليه وسلم، كما استعير العمى هنا لعدم الفهم على طريقة التمثيل لأن حال الأعمى أن يكون مضطربا فيما يحيط به لا يدري نافعه من ضاره إلا بمعونة من يرشده، وكثر أن يقال: أعمى الله بصره، مرادا به أنه لم يهده، وهذه هي النكتة في مجيء تركيب)وأعمى أبصارهم(مخالفا لتركيب)فأصمهم(إذ لم يقل: وأعمالهم.

وفي الآية إشعار بأن الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر، فهما جرمان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما.

)أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها[24](تفريع على قوله)فأصمهم وأعمى أبصارهم(، أي هلا تدبروا القرآن عوض شغل بالهم في مجلسك بتتبع أحوال المؤمنين، أو تفريع على قوله)فأصمهم وأعمى أبصارهم(.

والمعنى: أن الله خلقهم بعقول غير منفعلة بمعاني الخير والصلاح فلا يتدبرون القرآن مع فهمه أو لا يفهمونه عند تلقيه وكلا الأمرين عجيب.

والاستفهام تعجيب من سوء علمهم بالقرآن ومن إعراضهم عن سماعه.

وحرف)أم(للإضراب الانتقالي. والمعنى: بل على قلوبهم أقفال وهذا الذي سلكه جمهور المفسرين وهو الجاري على كلام سيبويه في قوله تعالى)أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين(في سورة الزخرف، خلافا لما يوهمه أو توهمه ابن هشام في مغني اللبيب.

والتدبر: التفهم في دبر الأمر، أي ما يخفى منه وهو مشتق من دبر الشيء، أي خلفه.

والأقفال: جمع قفل، وهو استعارة مكنية إذ شبهت القلوب، أي العقول في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة، والأقفال تخييل كالأظفار للمنية في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفـع وتنكير)قلوب(للتنويع أو التبعيض، أي على نوع من القلوب أقفال.

صفحة : 4042

والمعنى: بل بعض القلوب عليها أقفال. وهذا من التعريض بأن قلوبهم من هذا النوع لأن إثبات هذا النوع من القلوب في أثناء التعجيب من عدم تدبر هؤلاء القرآن يدل بدلالة الالتزام أن قلوب هؤلاء من هذا النوع من القلوب ذوات الأقفال. فكون قلوبهم من هذا النوع مستفاد من الإضراب الانتقالي في حكاية أحوالهم.

ويدنو من هذا قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لـم أرضـهـا أو يعتلق بعض النفوس حمامها يريد نفسه لأنه وقع بعد قوله: تراك أمكنة البيت، أي أنا تراك أمكنة.

وإضافة)أقفال(إلى ضمير)قلوب(نظم بديع أشار إلى اختصاص الأقفال بتلك القلوب، أي ملازمتها لها فدل على أنها قاسية.

)إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم[25](لم يزل الكلام على المنافقين فالذين ارتدوا على أدبارهم منافقون، فيجوز أن يكون مرادا به قوم من أهل النفاق كانوا قد آمنوا حقا ثم رجعوا إلى الكفر لأنهم كانوا ضعفاء الإيمان قليلي الاطمئنان وهم الذين مثلهم الله في سورة البقرة بقوله)مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم(الآية.

والارتداد على الأدبار على هذا الوجه: تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان بحال من سار ليصل إلى مكان ثم ارتد في طريقه. ولما كان الارتداد سيرا إلى الجهة التي كانت وراء السائر جعل الارتداد إلى الأدبار، أي إلى جهة الأدبار. وجيء بحرف)على(للدلالة على أن الارتداد متمكن من جهة الأدبار كما يقال: على صراط مستقيم.

والهدى: الإيمان، وتبين الهدى لهم على هذا الوجه تبين حقيقي لأنهم ما آمنوا إلا بعد أن تبين لهم هدى الإيمان.

وعلى هذا الوجه فالإتيان بالموصول والصلة ليس إظهارا في مقام الإضمار لأن أصحاب هذه الصلة بعض الذين كان الحديث عنهم فيما تقدم.

ويجوز أن يكون مرادا به جميع المنافقين، عبر عن تصميمهم على الكفر بعد مشاركتهم المسلمين في أحوالهم في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم والصلاة معه وسماع القرآن والمواعظ بالارتداد لأنه مفارقة لتلك الأحوال الطيبة، أي رجعوا إلى أقوال الكفر وأعماله وذلك إذا خلوا إلى شياطينهم، وتبين الهدى على هذا الوجه كونه بينا في نفسه، وهو بين لهم لوضوح أدلته ولا غبار عليه، فهذا التبين من قبيل قوله تعالى)ذلك الكتاب لا ريب فيه(، أي ليس معه ما يوجب ريب المرتابين.

ويجوز أن يكون المراد به قوما من المنافقين لم يقاتلوا مع المسلمين بعد أن علموا أن القتال حق. وهذا قول ابن عباس والضحاك والسدي، وعليه فلعل المراد: الجماعة الذين انخزلوا يوم أحد مع عبد الله بن أبي بن سلول، والارتداد على الأدبار على هذا الوجه حقيقة لأنهم رجعوا عن موقع القتال بعد أن نزلوا به فرجعوا إلى المدينة وكانت المدينة خلفهم. وهذا عندي أظهر الوجهين وأليق بقوله بعد)ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر(إلى قوله)وأدبارهم(. والهدى على هذا الوجه هو الحق، أي من بعد ما علموا أن الحق قتال المشركين.

وأوثر أن يكون خبر)إن(جملة ليتأتى بالجملة اشتمالها على خصائص الابتداء باسم الشيطان للاهتمام به في غرض ذمهم، وأن يسند إلى اسمه مسند فعلي ليفيد تقوي الحكم نحو: هو يعطي الجزيل.

والتسويل: تسهيل الأمر الذي يستشعر منه صعوبة أو ضر وتزيين ما ليس بحسن.

والإملاء: المد والتمديد في الزمان، ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيرا، أي أراهم الارتداد حسنا دائما كما حكى عنه في قوله تعالى)قال هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى(، أي أن ارتدادهم من عمل الشيطان.

وقرأ الجمهور)وأملى لهم(بفتح الهمزة على صيغة المبني للفاعل. وقرأه أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح التحتية على صيغة المبني إلى المجهول. وقرأه يعقوب بضم الهمزة وكسر اللام وسكون التحتية على أنه مسند إلى المتكلم فالضمير عائد إلى الله تعالى، أي الشيطان سول لهم وأنا أملي لهم فيكون الكلام وعيدا، أي أنا أؤخرهم قليلا ثم أعاقبهم.

)ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم أسرارهم[26](

صفحة : 4043

استئناف بياني إذ التقدير أن يسأل سائل عن مظهر تسويل الشيطان لهم الارتداد بعد أن تبين لهم الهدى، فأجيب بأن الشيطان استدرجهم إلى الضلال عندما تبين لهم الهدى فسول لهم أن يوافقوا أهل الشرك والكفر في بعض الأمور مسولا إن تلك الموافقة في بعض الأمر لا تنقض اهتداءهم فلما وافقوهم وجدوا حلاوة ما ألفوه من الكفر فيما وافقوا فيه أهل الكفر فأخذوا يعودون إلى الكفر المألوف حتى ارتدوا على أدبارهم. وهذا شأن النفس في معاودة ما تحبه بعد الانقطاع عنه إن كان الانقطاع قريب العهد.

فمعنى)قالوا(: قالوا قولا عن اعتقاد ورأي، وإنما قالوا)في بعض الأمر(احترازا لأنفسهم إذا لم يطيعوا في بعض.

و)الذين كرهوا ما نزل الله(هم الذين كرهوا القرآن وكفروا، وهم: إما المشركون من أهل مكة قال تعالى فيهم)ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم(وقد كانت لهم صلة بأهل يثرب فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة اشتد تعهد أهل مكة لأصحابهم من أهل يثرب ليتطلعوا أحوال المسلمين، ولعلهم بعد يوم

بدر كانوا يكيدون للمسلمين ويتأهبون للثأر منهم الذي أنجزوه يوم أحد.
وإما اليهود من قريظة والنضير فقد حكى الله عنهم في قوله)ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب(.
فالمراد ب)بعض الأمر(على الوجه الأول في محمل قوله)إن الذين ارتدوا على أدبارهم(إفشاء بعض أحوال المسلمين إليهم وإشعارهم بوفرة عدد المنافقين وإن كانوا لا يقاتلون لكراهتهم القتال.
والمراد ب)بعض الأمر(على الوجه الثاني بعض أمر القتال، يعنون تلك المكيدة التي دبروها للانخزال عن جيش المسلمين.
والأمر هو: شأن الشرك وما يلائم أهله، أي نطيعكم في بعض الكفر ولا نطيعكم في جميع الشؤون لأن ذلك يفضح نفاقهم، أو المراد في بعض ما تأمروننا به من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول كالخلق على المخلوق.
وأيا ما كان فهم قالوا ذلك للمشركين سرا فأطلع الله عليه نبيه صلى الله عليه وسلم ولذلك قال تعالى)والله يعلم أسرارهم(.
وقرأ الجمهور)أسرارهم(بفتح الهمزة جمع سر. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بكسر الهمزة مصدر أسر.
)فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم[27](الفاء يجوز أن تكون للتفريع على جملة)إن الذين ارتدوا على أدبارهم(الآية وما بينهما متصل بقوله)الشيطان سول لهم(بناء على المحمل الأول للارتداد فيكون التفريع لبيان ما سيلحقهم من العذاب عند الموت وهو استهلال لما يتواصل من عذابهم عن مبدأ الموت إلى استقرارهم في العذاب الخالد.
ويجوز على المحمل الثاني وهو أن المراد الارتداد عن القتال وتكون الفاء فصيحة فيفيد: إذا كانوا فروا من القتال هلعا وخوفا فكيف إذا توفتهم الملائكة، أي كيف هلعهم ووجلهم الذي ارتدوا بهما عن القتال. وهذا يقتضي شيئين: أولهما أنهم ميتون لا محالة، وثانيهما أن موتتهم يصحبها تعذيب.
فالأول مأخوذ بدلالة الالتزام وهو في معنى قوله تعالى)الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين(وقوله)وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون(.
والثاني هو صريح الكلام وهو وعيد لتعذيب في الدنيا عند الموت.
والمقصود: وعيدهم بأنهم سيعجل لهم العذاب من أول منازل الآخرة وهو حالة الموت.

ولما جعل هذا العذاب محققا وقوعه رتب عليه الاستفهام عن حالهم استفهاما مستعملا في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجيب مؤذن بأنها حالة فظيعة غير معتادة إذ لا يتعجب إلا من أمر غير معهود، والسياق يدل على الفظاعة.

و)إذا(متعلق بمحذوف دل عليه اسم الاستفهام، تقديره: كيف حالهم أو عملهم حين تتوفاهم الملائكة.

وكثر حذف متعلق)كيف(في أمثال هذا مقدرا مؤخرا عن)كيف(وعن)إذا(كقوله تعالى)فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد(. والتقدير: كيف يصنعون ويحتالون.

وجعل سيبوية)كيف(في مثله ظرفا وتبعه ابن الحاجب في الكافية. ولعله أراد الفرار من الحذف.

صفحة : 4044

وجملة)يضربون وجوههم وأدبارهم(حال من)الملائكة(. والمقصود من هذه الحال: وعيدهم بهذه الميتة الفظيعة التي قدرها الله لهم وجعل الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم، أي يضربون وجوههم التي وقوها من ضرب السيف حين فروا من الجهاد فإن الوجوه مما يقصد بالضرب بالسيوف عند القتال قال الحريش القريعي، أو العباس بن مرداس:

نعرض للسيوف إذا التقينا وجوها لا تعرض للنظام ويضربون أدبارهم التي كانت محل الضرب لو قاتلوا، وهذا تعريض بأنهم لو قاتلوا لفروا فلا يقع الضرب إلا في أدبارهم.

)ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم[28](الإشارة بذلك إلى الموت الفظيع الذي دل عليه قوله)فكيف إذا توفتهم الملائكة(كما تقدم آنفا.

واتباعهم ما أسخط الله: هو اتباعهم الشرك.

والسخط مستعار لعدم الرضى بالفعل.

وكراهتهم رضوان الله: كراهتهم أسباب رضوانه وهو الإسلام.

وفي ذكر اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه محسن الطباق مرتين للمضادة بين السخط والرضوان، والاتباع والكراهية.

والجمع بين الإخبار عنهم باتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه مع إمكان الاجتزاء بأحدهما عن الآخر للإيماء إلى أن ضرب الملائكة وجوه هؤلاء مناسب لإقبالهم على ما أسخط الله، وأن ضربهم أدبارهم مناسب لكراهتهم رضوانه لأن الكراهة تستلزم الإعراض والإدبار، ففي الكلام أيضا محسن اللف والنشر المرتب.

فكان ذلك التعذيب مناسبا لحالي توقيهم في الفرار من القتال وللسببين الباعثين على ذلك التوقي.
وفرع على اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه قال)فأحبط أعمالهم(فكان اتباعهم ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه سببا في الأمرين: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة، وإحباط أعمالهم.
والإحباط: إبطال العمل، أي أبطل انتفاعهم بأعمالهم التي عملوها مع المؤمنين من قول كلمة التوحيد ومن الصلاة والزكاة وغير ذلك. وتقدم ما هو بمعناه في أول السورة.
)أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم[29] (انتقال من التهديد والوعيد إلى الإنذار بأن الله مطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يضمره المنافقون من الكفر والمكر والكيد ليعلموا أن أسرارهم غير خافية فيوقنوا أنهم يكدون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل وذلك خيبة لآمالهم.
و)أم(منقطعة في معنى)بل(للإضراب الانتقالي، والاستفهام المقدر بعد)أم(للإنكار.
وحرف)لن(لتأييد النفي، أي لا يحسبون انتفاء إظهار أضغانهم في المستقبل، كما انتفى ذلك فيما مضى، فلعل الله أن يفضح نفاقهم.
واستعير المرض إلى الكفر بجامع الإضرار بصاحبه، ولكون الكفر مقره العقل المعبر عنه بالقلب كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحا للاستعارة لأن القلب مما يناسب المرض الخفي إذ هو عضو باطن فناسب المرض الخفي.
والإخراج أطلق على الإظهار والإبراز على وجه الاستعارة لأن الإخراج استلال شيء من مكمنه، فاستعير بخبر خفي.
والأضغان: جمع ضغن بكسر الضاد المعجمة وسكون الغين المعجمة وهو الحقد والعداوة.
والمعنى أنه يخرجها من قلوبهم وكان العرب يجعلون القلوب مقر الأضغان قال الشاعر، وهو من شواهد المفتاح للسكاكي ولا يعرف قائله:
الضاربين بكل أبيض مخذم   والطاعنين مجامع الأضغان)ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم(كان مرض قلوبهم خفيا لأنهم يبالغون في كتمانه وتمويهه بالتظاهر بالإيمان، فذكر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه لو شاء لأطلعه عليهم واحدا واحدا فيعرف ذواتهم بعلاماتهم.
والسيمى بالقصر: العلامة الملازمة، أصله: وسمى بوزن فعلى من الوسم وهو جعل سمة للشيء، وهو بكسر أوله. فهو من المثال الواوي الفاء حولت الواو من موضع فاء الكلمة فوضعت في مكان

عين الكلمة وحولت عين الكلمة إلى موضع الفاء فصارت سومى فانقلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، وتقدم عند قوله تعالى)تعرفهم بسيماهم(في سورة البقرة.

صفحة : 4045

والمعنى: لأريناك أشخاصهم فعرفتهم، أو لذكرنا لك أوصافهم فعرفتهم بها ثم يحتمل أن الله شاء ذلك وأراهم للرسول صلى الله عليه وسلم. فعن أنس ما خفي على النبي بعد هذه الآية سيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ذكره البغوي والثعلبي بدون سند.
ومما يروى عن حذيفة ما يقتضي أن النبي صلى الله عليه وسلم عرفه بالمنافقين أو ببعضهم، ولكن إذا صح هذا فإن الله لم يأمر بإجرائهم على غير حالة الإسلام، ويحتمل أن الله قال هذا إكراما لرسوله صلى الله عليه وسلم ولم يطلعه عليهم.
واللام في)لأريناكهم(لام جواب)لو(التي تزاد فيه غالبا.
واللام في)فلعرفتهم(تأكيد للام)لأريناكهم(لزيادة تحقيق تفرع المعرفة على الإرادة.
)ولتعرفنهم في لحن القول(هذا في معنى الاحتراس مما يقتضيه مفهوم)لو نشاء لأريناكهم(من عدم وقوع المشيئة لإرادته إياهم بنعوتهم.
والمعنى: فان لم نرك إياهم بسيماهم فلتقعن معرفتك بهم من لحن كلامهم بإلهام يجعله الله في علم رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يخفى عليه شيء من لحن كلامهم فيحصل له العلم بكل واحد منهم إذا لحن في قوله، وهم لا يخلو واحد منهم من اللحن في قوله، فمعرفة الرسول بكل واحد منهم حاصلة وإنما ترك الله تعريفه إياهم بسيماهم ووكله إلى معرفتهم بلحن قولهم إبقاء على سنة الله تعالى في نظام الخلق بقدر الإمكان لأنها سنة ناشئة عن الحكمة فلما أريد تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم بإطلاعه على دخائل المنافقين سلك الله في ذلك مسلك الرمز.
واللام في)ولتعرفنهم(لام القسم المحذوف.
ولحن القول: الكلام المحال به إلى غير ظاهره ليفطن له من يراد أن يفهمه دون أن يفهمه غيره بأن يكون في الكلام تعريض أو تورية أو ألفاظ مصطلح عليها بين شخصين أو فرقة كالألفاظ العلمية قال القتال الكلائي:

ولقد وحيت لكم لكيما تفهموا ولحنت لحنا ليس بالمرتاب كان المنافقون يخاطبون النبي صلى الله عليه وسلم بكلام تواضعوه فيما بينهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذهم بظاهر كلامهم فنبهه الله إليه فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم.

)والله يعلم أعمالكم[30](تذييل، فهو لعمومه خطاب لجميع الأمة المقصود منه التعليم وهو مع ذلك كناية عن لازمه وهو الوعيد لأهل الأعمال السيئة على أعمالهم، والوعد لأهل الأعمال الصالحة على أعمالهم، وتنبيه لأهل النفاق بأن الله يوشك أن يفضح نفاقهم كما قال آنفا)أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم(.

واجتلاب المضارع في قوله)يعلم(للدلالة على أن علمه بذلك مستمر.

)ولنبلونكم حتى نعلم المجهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم[31](عطف على قوله)والله يعلم أعمالكم(. ومعناه معنى الاحتراس مما قد يتوهم السامعون من قوله)والله يعلم أعمالكم(من الاستغناء عن التكليف.

ووجه هذا الاحتراس أن علم الله يتعلق بأعمال الناس بعد أن تقع ويتعلق بها قبل وقوعها فإنها ستقع ويتعلق بعزم الناس على الاستجابة لدعوة التكاليف قوة وضعفا، ومن عدم الاستجابة كفرا وعنادا، فبين بهذه الآية أن من حكمة التكاليف أن يظهر أثر علم الله بأحوال الناس وتقدم الحجة عليهم.

ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله كتب لكل عبد مقعده من الجنة أو من النار. فقالوا: أفلا نتكل على ما كتب لنا؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وقرأ)فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى(.

والبلو: الاختبار وتعرف حال الشيء. والمراد بالابتلاء الأمر والنهي في التكليف، فإنه يظهر به المطيع والعاصي والكافر، وسمي ذلك ابتلاء على وجه المجاز المرسل لأنه يلزمه الابتلاء وإن كان المقصود منه إقامة مصالح الناس ودفع الفساد عنهم لتنظيم أحوال حياتهم ثم ليترتب عليه مئال الحياة الأبدية في الآخرة. ولكن لما كان التكليف مبينا لأحوال نفوس الناس في الامتثال وممحصا لدعاويهم وكاشفا

عن دخائلهم كان مشتملا على ما يشبه الابتلاء، وإلا فإن الله تعالى يعلم تفاصيل أحوالهم، ولكنها لا تظهر للعيان للناس إلا عند تلقي التكاليف فأشبهت الاختبار، فإطلاق اسم الابتلاء على التكليف مجاز مرسل وتسمية ما يلزم التكليف من إظهار أحوال النفوس ابتلاء استعارة، ففي قوله)ولنبلوكم(مجاز مرسل واستعارة.

و)حتى(حرف انتهاء فما بعدها غاية للفعل الذي قبلها وهي هنا مستعملة في معنى لام التعليل تشبيها لعلة الفعل بغايته فإن غاية الفعل باعث لفاعل الفعل في الغالب، فلذلك كثر استعمال) حتى(بمعنى لام التعليل كقوله تعالى)هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا(.

فالمعنى: ولنبلوكم لنعلم المجاهدين منكم والصابرين، وليس المراد انتهاء البلوى عند ظهور المجاهدين منهم والصابرين.

وعلة الفعل لا يلزم انعكاسها، أي لا يلزم أن لا يكون للفعل علة غيرها فللتكليف علل وأغراض عديدة منها أن تظهر حال الناس في قبول التكليف ظهورا في الدنيا تترتب عليه معاملات دنيوية.

وعلم الله الذي جعل علة للبلو هو العلم بالأشياء بعد وقوعها المسمى علم الشهادة لأن الله يعلم من سيجاهد ومن يصبر من قبل أن يبلوهم ولكن ذلك علم غيب لأنه قبل حصول المعلوم في عالم الشهادة.

والأحسن أن يكون)حتى نعلم(مستعملا في معنى حتى نظهر للناس الدعاوي الحق من الباطلة، فالعلم كناية عن إظهار الشيء المعلوم بقطع النظر عن كون إظهاره للغير كما هنا أو للمتكلم كقول اياس بن قبيصة الطائي:

وأقبلت والخطي يخطر بيننـا لا علم من جبانها من شجاعها أراد ليظهر للناس أنه شجاع ويظهر من هو من القوم جبان، فالله شرع الجهاد لنصر الدين ومن شرعه يتبين من يجاهد ومن يقعد عن الجهاد، ويتبين من يصبر على لأواء الحرب ومن ينخزل ويفر، فلا تروج على الناس دعوى المنافقين صدق الإيمان ويعلم الناس المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وبلو الإخبار: ظهور الأحدوثة من حسن السمعة وضده. وهذا في معنى قول الأصوليين ترتب المدح والذم عاجلا، وهو كناية أيضا عن أحوال أعمالهم من خير وشر لأن الأخبار إنما هي أخبار عن أعمالهم، وهذه علة ثانية عطفت على قوله)حتى نعلم المجاهدين منكم(. وإنما أعيد عطف فعل)نبلو(على فعل)نعلم(وكان مقتضى الظاهر أن يعطف)أخباركم(بالواو على ضمير المخاطبين في) لنبلونكم(ولا يعاد)نبلو(، فالعدول عن مقتضى ظاهر النظم إلى هذا

التركيب للمبالغة في بلو الأخبار لأنه كناية عن بلو أعمالهم وهي المقصود من بلو ذواتهم، فذكره كذكر العام بعد الخاص إذ تعلق البلو الأول بالجهاد والصبر، وتعلق البلو الثاني بالأعمال كلها، وحصل مع ذلك تأكيد البلو تأكيدا لفظيا.

وقرأ الجمهور)ولنبلونكم حتى نعلم( )ونبلو(بالنون في الأفعال الثلاثة. وقرأ أبو بكر عن عاصم تلك الأفعال الثلاثة بياء الغيبة والضمائر عائدة إلى اسم الجلالة في قوله)والله يعلم أعمالكم(.

وقرأ الجمهور)ونبلو(بفتح الواو عطفا على)نعلم(. وقرأه رويس عن يعقوب بسكون الواو عطفا على)ولنبلونكم(.

)إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم[32](

صفحة : 4047

الظاهر أن المعني بالذين كفروا هنا الذين كفروا المذكورون في أول هذه السورة وفيما بعد من الآيات التي جرى فيها ذكر الكافرين، أي الكفار الصرحاء عاد الكلام إليهم بعد الفراغ من ذكر المنافقين الذين يخفون الكفر، عودا على بدء لتهوين حالهم في نفوس المسلمين، فبعد أن أخبر الله أنه أضل أعمالهم وأنهم اتبعوا الباطل وأمر بضرب رقابهم وأن التعس لهم وحقرهم بأنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وأن الله أهلك قرى هي أشد منهم قوة، ثم جرى ذكر المنافقين، بعد ذلك ثني عنان الكلام إلى الذين كفروا أيضا ليعرف الله المسلمين بأنهم في هذه المآزق التي بينهم وبين المشركين لا يلحقهم منهم أدنى ضر، وليزيد وصف الذين كفروا بأنهم شاقوا الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالجملة استئناف ابتدائي وهي توطئة لقوله)فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم(. وفعل)شاقوا(مشتق من كلمة شق بكسر الشين وهو الجانب، والمشاقة المخالفة، كني بالمشاقة عن المخالفة لأن المستقر بشق مخالف للمستقر بشق آخر فكلاهما مخالف، فلذلك صيغت منه صيغة المفاعلة.

وتبين الهدى لهم: ظهور ما في دعوة الإسلام من الحق الذي تدركه العقول إذا نبهت إليه، وظهور أن أمر الإسلام في ازدياد ونماء، وأن أمور الآخرين في إدبار، فلم يردعهم ذلك عن محاولة الإضرار بالرسول صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى)أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها(.

فحصل من مجموع ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم رسول الله، وأن الإسلام دين الله.

وقيل المراد بالذين كفروا في هذه الآية يهود قريظة والنضير، وعليه فمشاقتهم الرسول صلى الله عليه وسلم مشاقة خفية مشاقة كيد ومكر، وتبين الهدى لهم ظهور أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الموعود به في التوراة وكتب الأنبياء، فتكون الآية تمهيدا لغزو قريظة والنضير.

وانتصب)شيئا(على المفعول المطلق ل)يضروا(والتنوين للتقليل، أي لا يضرون في المستقبل الله أقل ضر.

وإضرار الله أريد به إضرار دينه لقصد التنويه والتشريف لهذا الدين بقرينة قوله)وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى(.

والإحباط: الإبطال كما تقدم آنفا.

ومعنى إبطال أعمالهم بالنسبة لأعمالهم في معاملة المسلمين أن الله يلطف برسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين بتيسير أسباب نصرهم وانتشار دينه، فلا يحصل الذين كفروا من أعمالهم للصد والمشاقة على طائل. وهذا كما تقدم في تفسير قوله)أضل أعمالهم(.

وحرف الاستقبال هنا لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل وهو يدل على أن الله محبط أعمالهم من الآن إذ لا يعجزه ذلك حتى يترصد به المستقبل، وهذا التحقيق مثل ما في قوله في سورة يوسف)قال سوف أستغفر لكم ربي(.

)يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم[33](اعتراض بين جملة)إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول(، وبين جملة)إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار(وجه به الخطاب إلى المؤمنين بالأمر بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتجنب ما يبطل الأعمال الصالحة اعتبارا بما حكي من حال المشركين في الصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم.

فوصف الإيمان في قوله)يا أيها الذين آمنوا(مقابل وصف الكفر في قوله)إن الذين كفروا(، وطاعة الله مقابل الصد عن سبيل الله، وطاعة الرسول ضد مشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم، والنهي عن إبطال الأعمال ضد بطلان أعمال الذين كفروا.

فطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم التي أمروا بها هي امتثال ما أمر به ونهى عنه من أحكام الدين. وأما ما ليس داخلا تحت التشريع فطاعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه طاعة انتصاح وأدب، ألا ترى أن بريرة لم تطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مراجعة زوجها مغيث لما علمت أن أمره إياها ليس بعزم.

والإبطال: جعل الشيء باطلا، أي لا فائدة منه، فالإبطال تتصف به الأشياء الموجودة.

صفحة : 4048

ومعنى النهي عن إبطالهم الأعمال: النهي عن أسباب إبطالها، فهذا مهيع قوله)ولا تبطلوا أعمالكم(. وتسمح محامله بأن يشمل النهي والتحذير عن كل ما بين الدين أنه مبطل للعمل كلا أو بعضا مثل الردة ومثل الرياء في العمل الصالح فإنه يبطل ثوابه. وهو عن ابن عباس قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى(. وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلا لثواب الأعمال الصالحة ويحمل هذه الآية على ذلك، وقد قالت عائشة لما بلغها أن زيد بن أرقم عقد عقدا تراه عائشة حراما أخبروا زيدا أنه أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يترك فعله هذا ولعلها أرادت بذلك التحذير وإلا فما وجه تخصيص الإحباط بجهاده وإنما علمت أنه كان أنفس عمل عنده.

وعن الحسن البصري والزهري)لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي الكبائر(.

ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب: أن زيد بن أرقم قال غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة وغزوت منها معه سبع عشرة غزوة.

وهذه كلها من مختلف الأفهام في المعني بإبطال الأعمال وما يبطلها وأحسن أقوال السلف في ذلك ما روي عن ابن عمر قال كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا حتى نزل)ولا تبطلوا أعمالكم(، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا? فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل)إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء(فكففنا عن القول في ذلك وكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها ا ه. فأبان أن ذلك محامل محتملة لا جزم فيها.

وعن مقاتل)لا تبطلوا أعمالكم(بالمن وقال: هذا خطاب لقوم من بني أسد أسلموا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا، يمنون عليه بذلك فنزلت فيهم هذه الآية ونزل فيهم أيضا قوله تعالى)يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم(.

وهذه محامل ناشئة عن الرأي والتوقع، والذي جاء به القرآن وبينته السنة الصحيحة أن الحسنات يذهبن السيئات ولم يجيء: أن السيئات

يذهبن الحسنات، وقال)إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما(.

وتمسك المعتزلة بهاته الآية فزعموا أن الكبائر تحبط الطاعات.

ومن العجب أنهم ينفون عن الله الظلم ولا يسلمون ظاهر قوله) لا يسأل عما يفعل(، ومع ذلك يجعلون الله يبطل الحسنات إذا ارتكب صاحبها سيئة.

ونحن نرى أن كل ذلك مسطور في صحف الحسنات والسيئات وأن الحسنة مضاعفة والسيئة بمقدارها. وهذا أصل تواتر معناه في الكتاب وصحيح الآثار، فكيف ينبذ بالقيل والقال من أهل الأخبار.

وحمل بعض علمائنا قوله تعالى)ولا تبطلوا أعمالكم(على معنى النهي عن قطع العمل المتقرب به إلى الله تعالى. وإطلاق الإبطال على القطع وعدم الإتمام يشبه أنه مجاز، أي لا تتركوا العمل الصالح بعد الشروع فيه، فأخذوا منه أن النفل يجب بالشروع لأنه من الأعمال، وهو قول أبي حنيفة في النوافل مطلقا. ونسب ابن العربي في الأحكام مثله إلى مالك. ومثله القرطبي وابن الفرس. ونقل الشيخ الجد في حاشيته على المحلي عن القرافي في شرح المحصول ونقل حلولو في شرح جمع الجوامع عن القرافي في الذخيرة: أن مالكا قال بوجوب سبع نوافل بالشروع، وهي: الصلاة والصيام والحج والعمرة والاعتكاف والائتمام وطواف التطوع دون غيرها نحو الوضوء والصدقة والوقف والسفر للجهاد، وزاد حلولو إلحاق الضحية بالنوافل التي تجب بالشروع ولم أقف على مأخذ القرافي ذلك ولا على مأخذ حلولو في الأخير.

ولم ير الشافعي وجوبا بالشروع في شيء من النوافل وهو الظاهر.

)إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم[34](هذه الآية تكملة لآية)إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول(الخ لأن تلك مسوقة لعدم الاكتراث بمشاقهم ولبيان أن الله مبطل صنائعهم وهذه مسوقة لبيان عدم انتفاعهم لمغفرة الله إذ ماتوا على ما هم عليه من الكفر فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

واقتران خبر الموصول بالفاء إيماء إلى أنه أشرف معنى الشرط فلا يراد به ذو صلة معين بل المراد كل من تحققت فيه ماهية الصلة وهي الكفر والموت على الكفر.

)فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم[35](الفاء للتفريع على ما تقرر في نفوس المؤمنين من خذل الله تعالى المشركين بما أخبر به من أنه أضل أعمالهم وقدر لهم التعس، وبما ضرب لهم من مصائر أمثالهم من الذين من قبلهم دمرهم الله وأهلكم ولم يجدوا ناصرا، وما وعد به المؤمنين من النصر عليهم وما أمرهم به من قتالهم وبتكلفه للمؤمنين بالولاية وما وعدهم من الجزاء في دار الخلد وبما أتبع ذلك من وصف كيد فريق المنافقين للمؤمنين وتعهدهم بإعانة المشركين، وذلك مما يوجس منه المؤمنون خيفة إذ يعلمون أن أعداء لهم منبثون بين ظهرانيهم.

فعلى ذلك كله فرع نهيهم عن الوهن وعن الميل الى الدعة ووعدهم بأنهم المنتصرون وأن الله مؤيدهم.

ويجوز أن يجعل التفريع على أقرب الأخبار المتقدمة وهو قوله) ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين(.

وهذا النهي عن الوهن وعن الدعاء إلى السلم تحذير من أمر توفرت أسباب حصوله متهيئة للإقدام على الحرب عند الأمر بها وليس نهيا عن وهن حصل لهم ولا عن دعائهم إلى السلم لأن هذه السورة نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد في مدة لم يكن فيها قتال بين المسلمين والمشركين ولكن التحذير من أن يستوهنهم المنافقون عند توجه أمر القتال فيقولوا: لو سالمنا القوم مدة حتى نستعيد عدتنا ونسترجع قوتنا بعد يوم بدر، وقد كان أبو سفيان ومن معه من المشركين لما رجعوا إلى مكة مفلولين بعد وقعة بدر، يتربصون بالمسلمين فرصة يقاتلونهم فيها لما ضايقهم من تعرض المسلمين لهم في طريق تجارتهم إلى الشام مثل ما وقع في غزوة السويق، وغزوة ذي قرد، فلما كان في المدينة منافقون وكان عند أهل مكة رجال من أهل يثرب خرجوا منها مع أبي عامر الضبغي الملقب في الجاهلية بالراهب والذي غير النبي صلى الله عليه وسلم لقبه فلقبه الفاسق.

كان من المتوقع أن يكيد للمسلمين أعداؤهم من أهل يثرب فيظاهروا عليهم المشركين متسترين بعلة طلب السلم فحذرهم الله من أن يقعوا في هذه الحبالة.

والوهن: الضعف والعجز، وهو هنا مجاز في طلب الدعة. ومعناه: النهي عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف، والعمل بهذا النهي يكون باستحضار مساوي تلك الخواطر فإن الخواطر الشريرة إذا لم تقاومها همة الإنسان دبت في نفسه رويدا رويدا حتى تتمكن منها فتصبح ملكة وسجية. فالمعنى: ادفعوا عن أنفسكم خواطر الوهن واجتنبوا مظاهره، وأولها الدعاء إلى السلم وهو المقصود بالنهي.

والنهي عن الوهن يقتضي أنهم لم يكونوا يومئذ في حال وهن.
وعطف)وتدعوا(على)تهنوا(فهو معمول لحرف النهي، والمعنى: ولا تدعوا إلى السلم وهو عطف خاص على عام من وجه لأن الدعاء إلى المسلم مع المقدرة من طلب الدعة لغير مصلحة. وإنما خص بالذكر لئلا يظن أن فيه مصلحة استبقاء النفوس والعدة بالاستراحة من عدول العدو على المسلمين، فإن المشركين يومئذ كانوا متكالبين على المسلمين، فربما ظن المسلمون أنهم إن تداعوا معهم للسلم أمنوا منهم، وجعلوا ذلك فرصة لينشوا الدعوة فعرفهم الله أن ذلك يعود عليهم بالمضرة لأنه يحط من شوكتهم في نظر المشركين فيحسبونهم طلبوا السلم عن ضعف فيزيدهم ذلك ضراوة عليهم وتستخف بهم قبائل العرب بعد أن أخذوا من قلوبهم مكان الحرمة وتوقع البأس.
ولهذا المقصد الدقيق جمع بين النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم وأتبع بقوله)وأنتم الأعلون(.
فتحصل مما تقرر أن الدعاء إلى السلم المنهي عنه هو طلب المسألة من العدو في حال قدرة المسلمين وخوف العدو منهم، فهو سلم مقيد بكون المسلمين داعين له وبكونه عن وهن في حال قوة. قال قتادة: أي لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها. فهذا لا ينافي السلم المأذون فيه بقوله)وإن جنحوا للسلم فاجنح لها(في سورة الأنفال، فأنه سلم طلبه العدو، فليست هذه الآية ناسخة لآية الأنفال ولا العكس ولكل حالة خاصة، ومقيد بكون المسلمين في حالة قوة ومنعة وعدة بحيث يدعون إلى السلم رغبة في الدعة.
فإذا كان للمسلمين مصلحة في السلم أو كان أخف ضرا عليهم فلهم أن يبتدئوا إذا احتاجوا إليه وأن يجيبوا إليه إذا دعوا إليه.

وقد صالح النبي صلى الله عليه وسلم المشركين يوم الحديبية لمصلحة ظهرت فيما بعد، وصالح المسلمون في غزوهم أفريقية أهلها وانكفأوا راجعين إلى مصر. وقال عمر ابن الخطاب في كلام له مع بعض أمراء الجيش فقد آثرت سلامة المسلمين . وأما الصلح على بعض الأرض مع فتحها فذلك لا ينافي قوة الفاتحين كما صالح أمراء أبي بكر نصف أهل دمشق وكما صالح أمراء عمر أهل سود العراق وكانوا أعلم بما فيه صلاحهم.

وقرأ الجمهور)لى السلم(بفتح السين. وقرأه أبو بكر عن عاصم وحمزة بكسر السين وهما لغتان.
وجملة)وأنتم الأعلون(عطف على النهي عطف الخبر على الإنشاء، والخبر مستعمل في الوعد.
والأعلون: مبالغة في العلو. وهو هنا بمعنى الغلبة والنصر كقوله تعالى لموسى)إنك أنت الأعلى(، أي والله جاعلكم غالبين.
)والله معكم(عطف على الوعد. والمعية معية الرعاية والكلاءة، أي والله حافظكم وراعيكم فلا يجعل الكافرين عليكم سبيلا. والمعنى: وأنتم الغالبون بعناية الله ونصره.
وصيغ كل من جملتي)أنتم الأعلون والله معكم(جملة اسمية للدلالة على ثبات الغلب لهم وثبات عناية الله بهم.
وقوله)ولن يتركم أعمالكم(وعد بتسديد الأعمال ونجاحها عكس قوله في أول السورة)الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم(فكني عن توفيق الأعمال ونجاحها بعدم وترها، أي نقصها للعلم بأنه إذا كان لا ينقصها فبالحري أن لا يبطلها، أي لا يخيبها، وهو ما تقدم من قوله)والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم(.
يقال: وتره يتره وترا وترة كوعد، إذا نقصه، وفي حديث الموطأ من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله .
ويجوز أيضا أن يراد منه صريحه، أي ينقصكم ثوابكم على أعمالكم، أي الجهاد المستفاد من قوله)فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم(فيفيد التحريض على الجهاد بالوعد بأجره كاملا.
)إنما الحياة الدنيا لعب ولهو(تعليل لمضمون قوله)فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم(الآية، وافتتاحها ب)إن(مغن عن افتتاحها بفاء التسبب على ما بينه في دلائل الإعجاز، وليس اتصال)إن(ب)ما(الزائدة الكافة بمغير موقعها بدون)ما(لأن اتصالها بها زادها معنى الحصر.
والمراد ب)الحياة(أحوال مدة الحياة فهو على حذف مضافين.
واللعب: الفعل الذي يريد به فاعله الهزل دون اجتناء فائدة كأفعال الصبيان في مرحهم.
واللهو: العمل الذي يعمل لصرف العقل عن تعب الجد في الأمور فيلهو عن ما يهتم له ويكد عقله.
والإخبار عن الحياة بأنها لعب ولهو على معنى التشبيه البليغ، شبهت أحوال الحياة الدنيا باللعب واللهو في عدم ترتب الفائدة عليها لأنها فانية منقضية والآخرة هي دار القرار.
وهذا تحذير من أن يحملهم حب لذائذ العيش على الزهادة في مقابلة العدو ويتلو إلى مسالمته فإن ذلك يغري العدو بهم.

وحب الفتى طول الحياة يذله   وإن كان فيه نخوة وعـزام)وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم[36] إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم[37]
(الأشبه أن هذا عطف على قوله)فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم(تذكيرا بأن امتثال هذا النهي هو التقوى المحمودة، ولأن الدعاء إلى السلم قد يكون الباعث عليه حب إبقاء المال الذي ينفق في الغزو، فذكروا هنا بالإيمان والتقوى ليخلعوا عن أنفسهم الوهن لأنهم نهوا عنه وعن الدعاء إلى السلم فكان الكف عن ذلك من التقوى، وعطف عليه أن الله لا يسألهم أموالهم إلا لفائدتهم وإصلاح أمورهم، ولذلك وقع بعده قوله)ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله(إلى قوله)عن نفسه(، على أن موقع هذه الجملة تعليل النهي المتقدم بقوله)إنما الحياة الدنيا لعب ولهو(مشيرا إلى أن الحياة الدنيا إذا عمرت بالإيمان والتقوى كانت سببا في الخير الدائم.

والأجور هنا: أجور الآخرة وهي ثواب الإيمان والتقوى.

فالخطاب للمسلمين المخاطبين بقوله)فلا تهنو(الآية.

والمقصود من الجملة قوله)وتتقوا(وأما ذكر)تؤمنوا(فللاهتمام بأمر الإيمان. ووقوع)تؤمنوا(في حيز الشرط مع كون إيمانهم حاصلا يعين صرف معنى التعليق بالشرط فيه إلى إرادة الدوام على الإيمان إذ لا تتقوم حقيقة التقوى إلا مع سبق الإيمان كما قال تعالى)فك رقبة أو إطعام(إلى قوله)ثم كان من الذين آمنوا(الآية.

والظاهر أن جملة)يؤتكم أجوركم(إدماج، وأن المقصود من جواب الشرط هو جملة)ولا يسألكم أموالكم(.

وعطف)ولا يسألكم أموالكم(لمناسبة قوله)يؤتكم أجوركم(، أي أن الله يتفضل عليكم بالخيرات ولا يحتاج إلى أموالكم، وكانت هذه المناسبات أحسن روابط لنظم المقصود من هذه المواعظ لأن البخل بالمال من بواعث الدعاء إلى السلم كما علمت آنفا.

ومعنى الآية: وإن تؤمنوا وتتقوا باتباع ما نهيتهم عنه يرض الله منكم بذلك ويكتف به ولا يسألكم زيادة عليه من أموالكم. فيعلم أن ما يعنيه النبي صلى الله عليه وسلم عليهم من الإنفاق في سبيل الله إنما هو بقدر طاقتهم.

وهذه الآية في الإنفاق نظيرها قوله تعالى لجماعة من المسلمين في شأن الخروج إلى الجهاد)يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل

لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل(في سورة براءة.

فقوله)ولا يسألكم أموالكم(يفيد بعمومه وسياقه معنى لا يسألكم جميع أموالكم، أي إنما يسألكم ما لا يجحف بكم، فإضافة أموال وهو جمع إلى ضمير المخاطبين تفيد العموم، فالمنفي سؤال إنفاق جميع الأموال، فالكلام من نفي العموم لا من عموم النفي بقرينة السياق، وما يأتي بعده من قوله)ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله(الآية.

ويجوز أن يفيد أيضا معنى: أنه لا يطالبكم بإعطاء مال لذاته فإنه غني عنكم وإنما يأمركم بإنفاق المال لصالحكم كما قال)ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء(.

وهذا توطئة لقوله بعده)ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله(إلى قوله)فإنما يبخل عن نفسه(أي ما يكون طلب بذل المال إلا لمصلحة الأمة، وأية مصلحة أعظم من دمغها العدو عن نفسها لئلا يفسد فيها ويستعبدها.

وأما تفسير سؤال الأموال المنفي بطلب زكاة الأموال فصرف للآية عن مهيعها فإن الزكاة مفروضة قبل نزول هذه السورة لأن الزكاة فرضت سنة اثنتين من الهجرة على الأصح.

وجملة)إن يسألكموها(الخ تعليل لنفي سؤاله إياهم أموالهم، أي لأنه إن سألكم إعطاء جميع أموالكم وقد علم أن فيكم من يسمح بالمال لا تبخلوا بالبذل وتجعلوا تكليفكم بذلك سببا لإظهار ضغنكم على الذين لا يعطون فيكثر الارتداد والنفاق وذلك يخالف مراد الله من تزكية نفوس الداخلين في الإيمان.

وهذا مراعاة لحال كثير يومئذ بالمدينة كانوا حديثي عهد بالإسلام وكانوا قد بذلوا من أموالهم للمهاجرين فيسر الله عليهم بأن لم يسألهم زيادة على ذلك، وكان بينهم كثير من أهل النفاق يترصدون الفرص لفتنتهم، قال تعالى)هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا(. وهذا يشير إليه عطف قوله)ويخرج أضغانكم(أي تحدث فيكم أضغان فيكون سؤاله أموالكم سببا في ظهورها فكأنه أظهرها. وهذه الآية أصل في سد ذريعة الفساد.

والإحفاء: الإكثار وبلوغ النهاية في الفعل، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح. وعن عبد الرحمان بن زيد: الإحفاء أن تأخذ كل شيء بيديك، وهو تفسير غريب. وعبر به هنا عن الجزم في الطلب وهو الإيجاب، أي فيوجب عليكم بذل المال ويجعل على منعه عقوبة.

والبخل: منع بذل المال.

والضغن: العداوة، وتقدم آنفا عند قوله)أن لن يخرج الله أضغانهم(.
والمعنى: يمنعوا المال ويظهروا العصيان والكراهية، فلطف الله بالكثير منهم اقتضى أن لا يسألهم مالا على وجه الإلزام ثم زال ذلك شيئا فشيئا لما تمكن الإيمان من قلوبهم فأوجب الله عليهم الإنفاق في الجهاد.
والضمير المستتر في)ويخرج(عائد إلى اسم الجلالة، وجوز أن يعود الى البخل المأخوذ من قوله)تبخلوا(أي من قبيل)اعدلوا هو أقرب للتقوى(.
وقرأ الجمهور)يخرج(بياء تحتية في أوله. وقرأه يعقوب بنون في أوله.

صفحة : 4052

)ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء(كلام المفسرين من قوله)ولا يسألكم أموالكم(إلى قوله)عن نفسه(يعرب عن حيرة في مراد الله بهذا الكلام. وقد فسرناه آنفا بما يشفي وبقي علينا قوله)ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا(الخ كيف موقعه بعد قوله)ولا يسألكم أموالكم(فإن الدعوة للإنفاق عين سؤال الأموال فكيف يجمع بين ما هنا وبين قوله آنفا)ولا يسألكم أموالكم(.
فيجوز أن يكون المعنى: تدعون لتنفقوا في سبيل الله لتدفعوا أعداءكم عنكم وليس ذلك لينتفع به الله كما قال)والله الغني وأنتم الفقراء(.
ونظم الكلام يقتضي: أن هذه دعوة للإنفاق في الحال وليس إعلاما لهم بأنهم سيدعون للإنفاق فهو طلب حاصل. ويحمل)تدعون(على معنى تؤمرون أي أمر إيجاب.
ويجوز أن يحمل)تدعون(على دعوة الترغيب، فتكون الآية تمهيدا للآيات المقتضية إيجاب الإنفاق في المستقبل مثل آية)وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله(ونحوها، ويجوز أن يكون إعلاما بأنهم سيدعون الى الإنفاق في سبيل الله فيما بعد هذا الوقت فيكون المضارع مستعملا في زمن الاستقبال والمضارع يحتمله في أصل وضعه.
وعلى الاحتمالين فقوله)فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه(إما مسوق مساق التوبيخ أو مساق التنبيه على الخطإ

في الشح ببذل المال في الجهاد الذي هو محل السياق لأن المرء قد يبخل بخلا ليس عائدا بخله عن نفسه.

ومعنى قوله)فإنما يبخل عن نفسه(على الاحتمال الأول فإنما يبخل عن نفسه إذ يتمكن عدوه من التسلط عليه فعاد بخله بالضر عليه، وعلى الاحتمال الثاني فإنما يبخل عن نفسه بحرمانها من ثواب الإنفاق.

والقصر المستفاد من)إنما(قصر قلب باعتبار لازم بخله لأن الباخل اعتقد أنه منع من دعاه إلى الإنفاق ولكن لازم بخله عاد عليه بحرمان نفسه من منافع ذلك الإنفاق، فالقصر مجاز مرسل مركب. وفعل)بخل(يتعدى ب)عن(لما فيه من معنى الإمساك ويتعدى ب)على(لما فيه من معنى التضييق على المبخول عليه. وقد عدي هنا بحرف)عن(.

)وها أنتم هؤلاء(مركب من كلمة)ها(تنبيه في ابتداء الجملة، ومن ضمير الخطاب ثم من)ها(التنبيه الداخلة على اسم الإشارة المفيدة تأكيد مدلول الضمير. ونظيره قوله)ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا(في سورة النساء. والأكثر أن يكون اسم الإشارة في مثله مجردا عن)ها(اكتفاء ب هاء التنبيه التي في أول التركيب كقوله تعالى)ها أنتم أولاء تحبونهم(في سورة آل عمران.

وجملة)تدعون(في موضع الحال من اسم الإشارة، ومجموع ذلك يفيد حصول مدلول جملة الحال لصاحبها حصولا واضحا.

وزعم كثير من النحاة أن عدم ذكر اسم الإشارة بعد ها أنا ونحوه لحن، لأنه لم يسمع دخول)ها(التنبيه على اسم غير اسم الإشارة كما ذكره صاحب مغني اللبيب، بناء على أن)ها(التنبيه المذكورة في أول الكلام هي التي تدخل على أسماء الإشارة في نحو: هذا وهؤلاء، وأن الضمير الذي يذكر بعدها فصل بينها وبين اسم الإشارة. ولكن قد وقع ذلك في كلام صاحب المغني في ديباجة كتابه إذ قال: وها أنا بائح بما أسررته ، وفي موضعين آخرين منه نبه عليهما بدر الدين الدماميني في شرحه المزج على المغني، وذكر في شرحه الذي بالقول المشتهر ب الحواشي الهندية أن تمثيل الزمخشري في المفصل بقوله ها إن زيدا منطلق يقتضي جواز: ها أنا أفعل، لكن الرضي قال: لم أعثر بشاهد على وقوع ذلك.

وجملة)والله الغني وأنتم الفقراء(تذييل للشيء قبلها فالله الغني المطلق، والغني المطلق لا يسأل الناس مالا في شيء، والمخاطبون فقراء فلا يطمع منهم البذل فتعين أن دعاءهم لينفقوا في سبيل الله دعاء بصرف أموالهم في منافعهم كما أشار إلى ذلك قوله)ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه(.

والتعريف باللام في)الغني(وفي)الفقراء(تعريف الجنس، وهو فيهما مؤذن بكمال الجنس في المخبر عنه، ولما وقعا خبرين وهما معرفتان أفادا الحصر، أي قصر الصفة على الموصوف، أي قصر جنس الغني على الله وقصر جنس الفقراء على المخاطبين ب)أنتم(وهو قصر ادعائي فيهما مرتب على دلالة ال على معنى كمال الجنس، فإن كمال الغنى لله لا محالة لعمومه ودوامه، وإن كان يثبت بعض جنس الغنى لغيره. وأما كمال الفقر للناس فبالنسبة إلى غنى الله تعالى وإن كانوا قد يغنون في بعض الأحوال لكن ذلك غنى قليل وغير دائم.

)وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم[38](عطف على قوله)وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم(.

والتولي: الرجوع، واستعير هنا لاستبدال الإيمان بالكفر، ولذلك جعل جزاؤه استبدال قوم غيرهم كما استبدلوا دين الله بدين الشرك.

والاستبدال: التبديل، فالسين والتاء للمبالغة، ومفعوله)قوما(. والمستبدل به محذوف دل على تقديره قوله)غيركم(، فعلم أن المستبدل به هو ما أضيف إليه)غير(لتعين انحصار الاستبدال في شيئين، فإذا ذكر أحدهما علم الآخر.

والتقدير: يستبدل قوما بكم لأن المستعمل في فعل الاستبدال والتبديل أن يكون المفعول هو المعوض ومجرور الباء هو العوض كقوله)أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير(تقدم في سورة البقرة. وإن كان كلا المتعلقين هو في المعنى معوض وعوض باختلاف الاعتبار، ولذلك عدل في هذه الآية عن ذكر المجرور بالباء مع المفعول للإيجاز.

والمعنى: يتخذ قوما غيركم للإيمان والتقوى، وهذا لا يقتضي أن الله لا يوجد قوما آخرين إلا عند ارتداد المخاطبين، بل المراد: أنكم إن ارتددتم عن الدين كان لله قوم من المؤمنين لا يرتدون وكان لله قوم يدخلون في الإيمان ولا يرتدون.

روى الترمذي عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله هذه الآية)وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم(. قالوا: ومن يستبدل بنا? قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان الفارسي ثم قال: هذا وقومه، هذا وقومه قال الترمذي حديث غريب. وفي إسناده مقال.

وروى الطبراني في الأوسط: هذا الحديث على شرط مسلم وزاد فيه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس .

وأقول هو يدل على أن فارس إذا آمنوا لا يرتدون وهو من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم فإن العرب ارتد منهم بعض القبائل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وارتد البربر بعد فتح بلادهم وإيمانهم اثنتي عشرة مرة فيما حكاه الشيخ أبو محمد ابن أبي زيد، ولم يرتد أهل فارس بعد إيمانهم.

و)ثم(للترتيب الرتبي لإفادة الاهتمام بصفة الثبات على الإيمان وعلوها على مجرد الإيمان، أي ولا يكونوا أمثالكم في التولي.

والجملة معطوفة ب)ثم(على جملة)يستبدل قوما غيركم(فهي في حيز جواب الشرط والمعطوف على جواب الشرط بحرف من حروف التشريك يجوز جزمه على العطف، ويجوز رفعه على الاستئناف. وقد جاء في هذه الآية على الجزم وجاء في قوله تعالى)وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون(على الرفع. وأبدى الفخر وجها لإيثار الجزم هنا وإيثار الاستئناف هنالك فقال: وهو مع الجواز فيه تدقيق وهو أن هاهنا لا يكون متعلقا بالتولي لأنهم إن لم يتولوا يكونون ممن يأتي الله بهم على الطاعة، وإن تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين وكون من يأتي الله بهم مطيعين، وأما هنالك فسواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون فلم يكن للتعليق أي بالشرط هنالك وجه فرفع بالابتداء وهاهنا جزم للتعليق اه. وهو دقيق ويزاد أن الفعل المعطوف على الجزاء في آية آل عمران وقع في آخر الفاصلة التي جرت أخواتها على حرف الواو والنون فلو أوثر جزم الفعل لأزيلت النون فاختلت الفاصلة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح

سورة)إنا فتحنا لك فتحا مبينا(سميت في كلام الصحابة)سورة الفتح(. ووقع في صحيح البخاري عن عبد الله بن مغفل بغين معجمة مفتوحة وفاء مشددة مفتوحة قال: قرأ النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة)سورة الفتح(فرجع فيها. وفيها حديث سهل بن حنيف لقد رأيتنا يوم الحديبية ولو نرى قتالا لقاتلنا . ثم حكى مقاله عمر إلى أن قال فنزلت سورة الفتح ولا يعرف لها اسم آخر .

ووجه التسمية أنها تضمنت حكاية فتح متجه الله للنبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي.

وهي مدنية على المصطلح المشهور في أن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة من أرضها أو من غيرها. وهذه السورة نزلت بموضع يقال له كراع الغميم بضم الكاف من كراع وبفتح الغين المعجمة وكسر الميم من الغميم موضع بين مكة والمدينة وهو واد على مرحلتين من مكة وعلى ثلاثة أميال من عسفان وهو من أرض مكة. وقيل نزلت بضجنان بوزن سكران وهو جبل قرب مكة ونزلت ليلا فهي من القرآن الليلي.

ونزولها سنة ست بعد الهجرة منصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية وقبل غزوة خيبر. وفي الموطإ عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره أي منصرفه من الحديبية ليلا وعمر بن الخطاب يسير معه فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه فقال: عمر ثكلت أم عمر نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحركت بعيري وتقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في القرآن فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، فجئت رسول الله فسلمت عليه فقال: لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب الي مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ)إنا فتحنا لك فتحا مبينا(. ومعنى قوله لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس لما اشتملت عليه من قوله)ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك(.

وأخرج مسلم والترمذي عن أنس قال أنزل على النبي)ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك(إلى قوله)فوزا عظيما(مرجعه من الحديبية فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على وجه الأرض ثم قرأها.

وهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول السور في قول جابر بن زيد. نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة.

وعدة آيها تسع وعشرون.

وسبب نزولها ما رواه الواحدي وابن إسحاق عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله تعالى)إنا فتحنا لك فتحا مبينا(فقال رسول الله: لقد أنزلت علي آية أحب إلي من الدنيا وما فيها وفي رواية من أولها إلى آخرها .

أغراضها
تضمنت هذه السورة بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية وأنه نصر وفتح فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين وأزال حزنهم من صدهم عن الاعتمار بالبيت وكان المسلمون عدة لا تغلب من قلة فرأوا أنهم عادوا كالخائبين فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأن دائرة السوء على المشركين والمنافقين.
والتنويه بكرامة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه ووعده بنصر متعاقب.
والثناء على المؤمنين الذين عزروه وبايعوه، وأن الله قدم مثلهم في التوراة وفي الإنجيل.
ثم ذكر بيعة الحديبية والتنويه بشأن من حضرها.
وفضح الذين تخلفوا عنها من الأعراب ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن بالله وبالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر، وإنبائهم بأنهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غفر لهم تخلفهم عن الحديبية.
ووعد النبي صلى الله عليه وسلم بفتح آخر يعقبه فتح أعظم منه وبفتح مكة. وفيها ذكر بفتح من خيبر كما سيأتي في قوله تعالى) فعجل لكم هذه(.
)إنا فتحنا لك فتحا مبينا[1] ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما[2] وينصرك الله نصرا عزيزا[3](

صفحة : 4055

افتتاح الكلام بحرف)إن(ناشئ على ما أحل للمسلمين من الكآبة على أن أجيب المشركون إلى سؤالهم الهدنة كما سيأتي من حديث عمر بن الخطاب وما تقدم من حديث عبد الله بن مغفل فالتأكيد مصروف للسامعين على طريقة التعريض، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان واثقا بذلك، وسيأتي تبيين هذا التأكيد قريبا.
والفتح: إزالة غلق الباب أو الخزانة قال تعالى)لا تفتح لهم أبواب السماء(ويطلق على النصر وعلى دخول الغازي بلاد عدوه لأن أرض كل قوم وبلادهم مواقع عنها فاقتحام الغازي إياها بعد الحرب يشبه إزالة الغلق عن البيت أو الخزانة، ولذلك كثر إطلاق الفتح على النصر المقترن بدخول أرض المغلوب أو بلده ولم يطلق على انتصار كانت نهايته غنيمة وأسر دون اقتحام أرض فيقال: فتح خيبر

وفتح مكة ولا يقال: فتح بدر. وفتح أحد. فمن أطلق الفتح على مطلق النصر فقد تسامح، وكيف وقد عطف النصر على الفتح في قوله)نصر من الله وفتح قريب(في سورة الصف.

ولعل الذي حداهم على عد النصر من معاني مادة الفتح أن فتح البلاد هو أعظم النصر لأن النصر يتحقق بالغلبة وبالغنيمة فإذا كان مع اقتحام أرض العدو فذلك نصر عظيم لأنه لا يتم إلا مع انهزام العدو أشنع هزيمة وعجزه عن الدفاع عن أرضه. وأطلق الفتح على الحكم قال تعالى)ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين(الآية سورة ألم السجدة.

ولمراعاة هذا المعنى قال جمع من المفسرين: المراد بالفتح هنا فتح مكة وأن محمله على الوعد بالفتح. والمعنى: سنفتح. وإنما جيء في الأخبار بلفظ الماضي لتحققه وتيقنه، شبه الزمن المستقبل بالزمن الماضي فاستعملت له الصيغة الموضوعة للمضي.

أو نقول استعمل)فتحنا(بمعنى: قدرنا لك الفتح، ويكون هذا الاستعمال من مصطلحات القرآن لأنه كلام من له التصرف في الأشياء لا يحجزه عن التصرف فيها مانع. وقد جرى على عادة إخبار الله تعالى لأنه لا خلاف في إخباره، وذلك أيضا كناية عن علو شأن المخبر مثل أتى أمر الله فلا تستعجلوه .

وما يندرج في هذا التفسير أن يكون المراد بالفتح صلح الحديبية تشبيها له بفتح مكة لأنه توطئة له فعن جابر بن عبدالله ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية ، يريد أنهم أيقنوا بوقوع فتح مكة بهذا الوعد، وعن البراء بن عازب تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ،يريد أنكم تحملون الفتح في قوله)إنا فتحنا لك فتحا مبينا(على فتح بيعة الرضوان وإن كان فتح مكة هو الغالب عليه اسم الفتح.

ويؤيد هذا المحمل حديث عبد الله بن مغفل قرأ رسول الله يوم فتح مكة سورة الفتح ، وفي رواية دخل مكة وهو يقرأ سورة الفتح على راحلته .

على أن قرائن كثيرة ترجح أن يكون المراد بالفتح المذكور في سورة الفتح: أولاها أنه جعله مبينا.

الثانية: أنه جعل علته النصر العزيز الثانية ، ولا يكون الشيء علة لنفسه.

الثالثة: قوله)وأثابهم فتحا مبينا(.

الرابعة: قوله)ومغانم كثيرة تأخذونها(.

الخامسة: قوله)فجعل من دون ذلك فتحا قريبا(.

والجمهور على أن المراد في سورة الفتح هو صلح الحديبية، وجعلوا إطلاق اسم الفتح عليه مجازا مرسلا باعتبار أنه آل إلى فتح

خيبر وفتح مكة، أو كان سببا فيهما فعن الزهري لقد كان يوم الحديبية أعظم الفتوح ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليها في ألف وأربعمائة فلما وقع صلح مشي الناس بعضهم في بعض، أي تفرقوا في البلاد فدخل بعضهم أرض بعض من أجل الأمن بينهم، وعلموا وسمعوا عن الله فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه، فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف اه، وفي رواية فلما كانت الهدنة أمن الناس بعضهم بعضا فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة فلم يكلم أحد يعقل بالإسلام إلا دخل فيه . وعلى هذا فالمجاز في إطلاق مادة الفتح على سببه ومآله لا في صورة الفعل، أي التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي لأنه بهذا الاعتبار المجازي قد وقع فيما مضي فيكون اسم الفتح استعمل استعمال المشترك في معنييه، وصيغة الماضي استعملت في معنييها فيظهر وجه الإعجاز في إيثار هذا التركيب.

وقيل: هو فتح خيبر الواقع عند الرجوع من الحديبية كما يجيء في قوله)إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها(.

صفحة : 4056

وعلى هذه المحامل فتأكيد الكلام ب إن لما في حصول ذلك من تردد بعض المسلمين أو تساؤلهم، فعن عمر أنه لما نزلت)إنا فتحنا لك فتحا مبينا(قال: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح . وروى البهقي عن عروة بن الزبير قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعا فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله ما هذا بفتح صددنا عن البيت وصد هدينا. فبلغ رسول الله فقال: بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم الأمان وقد كرهوا منكم ما كرهوا ولقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين،فهذا أعظم الفتح أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون. فقال المسلمون: صدق الله ورسوله وهو أعظم الفتوح والله يا رسول الله ما فكرنا فيما ذكرت، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا.

وحذف مفعول)فتحنا(لأن المقصود الإعلام بجنس الفتح لا بالمفتوح الخاص.

واللام في قوله)فتحنا لك(لام العلة، أي فتحنا لأجلك فتحا عظيما مثل التي في قوله تعالى)ألم نشرح لك صدرك(.
وتقديم المجرور قبل المفعول المطلق خلافا للأصل في ترتيب متعلقات الفعل لقصد الاهتمام والاعتناء بهذه العلة.
وقوله)ليغفر لك الله(بدل اشتمال من ضمير)لك(. والتقدير: إنا فتحنا فتحا مبينا لأجلك لغفران الله لك وإتمام نعمته عليك، وهدايتك صراطا مستقيما ونصرك نصرا عزيزا.. وجعلت مغفرة الله للنبي صلى الله عليه وسلم علة للفتح لأنها من جملة ما أراد الله حصوله بسبب الفتح، وليست لام التعليل مقتضية حصر الغرض من الفعل المعلل في تلك العلة، فإن كثيرا من الأشياء تكون لها أسباب كثيرة فيذكر بعضها مما يقتضيه المقام وإذ قد كان الفتح لكرامة النبي صلى الله عليه وسلم على ربه تعالى كان من علته أن يغفر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم مغفرة عامة إتماما للكرامة فهذه مغفرة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم هي غير المغفرة الحاصلة للمجاهدين بسبب الجهاد والفتح.
فالمعنى: أن الله جعل عند حصول هذا الفتح غفران جميع ما قد يؤاخذ الله على مثله رسله حتى لا يبقى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يقصر به عن بلوغ نهاية الفضل بين المخلوقات. فجعل هذه المغفرة جزاء له على إتمام أعماله التي أرسل لأجلها من التبليغ والجهاد والنصب والرغبة إلى الله.
فلما كان الفتح حاصلا بسعيه وتسببه بتيسير الله له ذلك جعل الله جزاءه غفران ذنوبه بعظم أثر ذلك الفتح بإزاحة الشرك وعلو كلمة الله تعالى وتكميل النفوس وتزكيتها بالإيمان وصالح الأعمال حتى ينتشر الخير بانتشار الدين ويصير الصلاح خلقا للناس يقتدي فيه بعضهم ببعض وكل هذا إنما يناسب فتح مكة. وهذا هو ما تضمنته سورة إذا جاء نصر الله من قوله)إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا(أي إنه حينئذ قد غفر لك أعظم مغفرة وهي المغفرة التي تليق بأعظم من تاب على تائب، وليست إلا مغفرة جميع الذنوب سابقها وما عسى أن يأتي منها مما بعده النبي صلى الله عليه وسلم ذنبا لشدة الخشية من أقل التقصير كما يقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم معصوما من أن يأتي بعدها بما يؤاخذ عليه. وقال ابن عطية: وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب، ولهذا المعنى اللطيف الجليل كانت سورة إذا جاء نصر الله مؤذنة باقتراب أجل النبي صلى الله عليه وسلم فيما فهم عمر بن

الخطاب وابن عباس، وقد روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم.

صفحة : 4057

والتقدم والتأخر من الأحوال النسبية للموجودات الحقيقية أو الاعتبارية يقال: تقدم السائر في سيره على الركب، ويقال: نزول سورة كذا على سورة كذا ولذلك يكثر الاحتياج إلى بيان ما كان بينهما تقدم وتأخر بذكر متعلق بفعل)تقدم(و)تأخر(. وقد يترك ذلك اعتمادا على القرينة، وقد يقطع النظر على اعتبار متعلق فينزل الفعل منزلة الأفعال غير النسبية لقصد التعميم في المتعلقات واكثر ذلك إذا جمع بين الفعلين كقوله هنا)ما تقدم من ذنبك وما تأخر(.
والمراد ب)ما تقدم(: تعميم المغفرة للذنب كقوله)يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم(، فلا يقتضي ذلك أنه فرط منه ذنب أو أنه سيقع منه ذنب وإنما المقصود أنه تعالى رفع قدره رفعة عدم المؤاخذة بذنب لو قدر صدوره منه وقد مضى شيء من بيان معنى الذنب عند قوله تعالى)واستغفر لذنبك(في سورة القتال.
وإنما أسند فعل)ليغفر(إلى اسم الجلالة العلم وكان مقتضى الظاهر أن يسند إلى الضمير المستتر قصدا للتنويه بهذه المغفرة لأن الاسم الظاهر أنفذ في السمع وأجلب للتنبيه وذلك للاهتمام بالمسند وبمتعلقه لأن هذا الخبر أنف لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم علم به ولذلك لم يبرز الفاعل في)ويتم نعمته عليك ويهديك(لأن إنعام الله عليه معلوم وهدايته معلومة وإنما أخبر بازديادهما.
وإتمام النعمة: إعطاء ما لم يكن أعطاه إياه من أنواع النعمة مثل إسلام قريش وخلاص بلاد الحجاز كلها للدخول تحت حكمه، وخضوع من عانده وحاربه، وهذا ينظر إلى قوله تعالى)اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي(فذلك ما وعد به الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية وحصل بعد سنين.
ومعنى)ويهديك صراطا مستقيما(: يزيدك هديا لم يسبق وذلك بالتوسيع في بيان الشريعة والتعريف بما لم يسبق تعريفه به منها، فالهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم من وقت بعثته ولكنها تزداد بزيادة بيان الشريعة وبسعة بلاد الإسلام وكثرة المسلمين مما يدعو إلى سلوك طرائق كثيرة في إرشادهم وسياستهم وحماية أوطانهم ودفع أعدائهم، فهذه الهداية متجمعة من

الثبات على ما سبق هديه إليه، ومن الهداية إلى ما لم يسبق إليه وكل ذلك من الهداية.

والصراط المستقيم: مستعار للدين الحق كما تقدم في سورة الفاتحة.

وتنوين)صراطا(للتعظيم. وانتصب)صراطا(على أنه مفعول ثان ل)يهدي(بتضمين معنى الإعطاء، أو بنزع الخافض كما تقدم في الفاتحة.

والنصر العزيز: غير نصر الفتح المذكور لأنه جعل علة الفتح فهو ما كان من فتح مكة وما عقبه من دخول قبائل العرب في الإسلام بدون قتال. وبعثهم الوفود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليتلقوا أحكام الإسلام ويعلموا أقوامهم إذا رجعوا إليهم.

ووصف النصر بالعزيز مجاز عقلي وإنما العزيز هو النبي صلى الله عليه وسلم المنصور، أو أريد بالعزيز المعز كالسميع في قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع أي المسمع، وكالحكيم على أحد تأويلين.

والعزة: المنعة.

وإنما أظهر اسم الجلالة في قوله)وينصرك الله(ولم يكتف بالضمير اهتماما بهذا النصر وتشريعا له بإسناده إلى الاسم الظاهر لصراحة الظاهر والصراحة أدعى إلى السمع، والكلام مع الإظهار أعلق بالذهن كما تقدم في)ليغفر لك الله(.

)هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم(

صفحة : 4058

هذه الجملة بدل اشتمال من مضمون جملة)وينصرك الله نصرا عزيزا(. وحصل منها الانتقال إلى ذكر حظ المسلمين من هذا الفتح فإن المؤمنين هم جنود الله الذين قد نصر النبي صلى الله عليه وسلم بهم كما قال تعالى)هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين(فكان في ذكر عناية الله بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم وإلهامهم إلى الحق في ثبات عزمهم، وقرارة إيمانهم تكوين لأسباب نصر النبي صلى الله عليه وسلم والفتح الموعود به ليندفعوا حين يستنفرهم إلى العدو بقلوب ثابتة، ألا ترى أن المؤمنين تبلبلت نفوسهم من صلح الحديبية إذ انصرفوا عقبه عن دخول مكة بعد أن جاؤوا للعمرة بعدد عديد حسبوه لا يغلب، وأنهم إن أرادهم العدو بسوء أو صدهم عن قصدهم قابلوه فانتصروا عليه وأنهم يدخلون

مكة قسرا. وقد تكلموا في تسمية ما حل بهم يومئذ فتحا كما علمت مما تقدم فلما بين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقوا كاسفي البال شديدي البلبال، فذلك الاطمئنان هو الذي سماه الله بالسكينة، وسمي إحداثه في نفوسهم إنزالا للسكينة في قلوبهم فكان النصر مشتملا على أشياء من أهمها إنزال السكينة، وكان إنزال السكينة بالنسبة إلى هذا النصر نظير التأليف بين قلوب المؤمنين مع اختلاف قبائلهم وما كان بينهما من الأمن في الجاهلية بالنسبة للنصر الذي في قوله تعالى)هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم(.

وإنزالها: إيقاعها في العقل والنفس وخلق أسبابها الجوهرية والعارضة، وأطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال تشريفا لذلك الوجدان بأنه كالشيء الذي هو مكان مرتفع فوق الناس فألقي إلى قلوب الناس، وتلك رفعة تخييلية مراد بها شرف ما أثبتت له على طريقة التخييلية. ولما كان من عواقب تلك السكينة أنها كانت سببا لزوال ما يلقيه الشيطان في نفوسهم من التأويل لوعد الله إياهم بالنصر على غير ظاهره، وحمله على النصر المعنوي لاستبعادهم أن يكون ذلك فتحا، فلما أنزل الله عليهم السكينة اطمأنت نفوسهم، فزال ما خامرها وأيقنوا أنه وعد الله وأنه واقع فانقشع عنهم ما يوشك أن يشكك بعضهم فيلتحق بالمنافقين الظانين بالله ظن السوء فإن زيادة الأدلة تؤثر رسوخ المستدل عليه في العقل وقوة التصديق.

وهذا اصطلاح شائع في القرآن وجعل ذلك الازدياد كالعلة لإنزال السكينة في قلوبهم لأن الله علم أن السكينة إذا حصلت في قلوبهم رسخ إيمانهم، فعومل المعلوم حصوله من الفعل معاملة العلة وأدخل عليه حرف التعليل وهو لام كي وجعلت قوة الإيمان بمنزلة إيمان آخر دخل على الإيمان الأسبق لأن الواحد من أفراد الجنس إذا انضم إلى أفراد أخر زادها قوة فلذلك علق بالإيمان ظرف)مع(في قوله)مع إيمانهم(فكان في ذلك الحادث خير عظيم لهم كما كان فيه خير للنبي صلى الله عليه وسلم بأن كان سببا لتشريفه بالمغفرة العامة ولإتمام النعمة عليه ولهدايته صراطا مستقيما ولنصره نصرا عزيزا، فأعظم به حدثا أعقب هذا الخير للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه.

)ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما[4](تذييل للكلام السابق لأنه أفاد أن لا عجب في أن يفتح الله لك فتحا عظيما وينصرك على أقوام كثيرين أشداء نصرا صحبه إنزال السكينة

في قلوب المؤمنين بعد أن خامرهم الفشل وانكسار الخواطر، فالله من يملك جميع وسائل النصر وله القوة القاهرة في السماوات والأرض وما هذا نصر إلا بعض مما لله من القوة والقهر.
والواو اعتراضية وجملة التذييل معترضة بين جملة)ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم(وبين متعلقها وهو)ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات(الآية.
وأطلق على أسباب النصر الجنود تشبيها لأسباب النصر بالجنود التي تقاتل وتنتصر.
وفي تعقيب جملة)هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين(بجملة التذييل إشارة إلى أن المؤمنين من جنود الله وأن إنزال السكينة في قلوبهم تشديد لعزائمهم فتخصيصهم بالذكر قبل هذا العموم وبعده تنويه بشأنهم، ويومئ إلى ذلك قوله بعد)ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات(الآية.

صفحة : 4059

فمن جنود السماوات: الملائكة الذين أنزلوا يوم بدر، والريح التي أرسلت على العدو يوم الأحزاب، والمطر الذي أنزل يوم بدر فثبت الله به أقدام المسلمين.
ومن جنود الأرض جيوش المؤمنين وعديد القبائل الذين جاءوا مؤمنين مقاتلين مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة مثل بني سليم، ووفود القبائل الذين جاءوا مؤمنين طائعين دون قتال في سنة الوفود.
والجنود: جمع جند، والجند اسم لجماعة المقاتلين لا واحد له من لفظه وجمعه باعتبار تعدد الجماعات لأن الجيش يتألف من جنود: مقدمة، وميمنة، وميسرة، وقلب، وساقة.
وتقديم المسند على المسند إليه في)ولله جنود السماوات والأرض(لإفادة الحصر، وهو حصر ادعائي إذ لا اعتداد بما يجمعه الملوك والفاتحون من الجنود لغلبة العدو بالنسبة لما لله من الغلبة لأعدائه والنصر لأوليائه.
وجملة)وكان الله عليما حكيما(تذييل لما قبله من الفتح والنصر وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين.
والمعنى: أنه عليم بأسباب الفتح والنصر وعليم بما تطمئن به قلوب المؤمنين بعد البلبلة وأنه حكيم يضع مقتضيات علمه في مواضعها المناسبة وأوقاتها الملائمة.

)ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنت تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما[5](اللام للتعليل متعلقة بفعل)ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم(فما بعد اللام علة لعلة إنزال السكينة فتكون علة لإنزال السكينة أيضا بواسطة أنه علة العلة.

وذكر المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع توهم أن يكون الوعد بهذا الإدخال مختصا بالرجال.

وإذ كانت صيغة الجمع صيغة المذكر مع ما قد يؤكد هذا التوهم من وقوعه علة أو علة علة للفتح وللنصر وللجنود وكلها من ملابسات الذكور، وإنما كان للمؤمنات حظ في ذلك لأنهن لا يخلون من مشاركة في تلك الشدائد ممن يقمن منهن على المرضى والجرحى وسقي الجيش وقت القتال ومن صبر بعضهن على الثكل أو التأيم، ومن صبرهن على غيبة الأزواج والأبناء وذوي القرابة.

والإشارة في قوله)وكان ذلك(إلى المذكور من إدخال الله إياهم الجنة.

والمراد بإدخالهم الجنة إدخال خاص وهو إدخالهم منازل المجاهدين وليس هو الإدخال الذي استحقوه بالإيمان وصالح الأعمال الأخرى.

ولذلك عطف عليه)ويكفر عنهم سيئاتهم(.

والفوز: مصدر، وهو الظفر بالخير والنجاح. و)عند الله(متعلق ب)فوزا(، أي فازوا عند الله بمعنى: لقوا النجاح والظفر في معاملة الله لهم بالكرامة وتقديمه على متعلقه للاهتمام بهذه المعاملة ذات الكرامة.

)ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا[6](الحديث عن جنود الله في معرض ذكر نصر الله يقتضي لا محالة فريقا مهزوما بتلك الجنود وهم العدو، فإذا كان النصر الذي قدره الله معلولا بما بشر به المؤمنين فلا جرم اقتضى أنه معلول بما يسوء العدو وحزبه، فذكر الله من علة ذلك النصر أنه يعذب بسببه المنافقين حزب العدو، والمشركين صميم العدو، فكان قوله)ويعذب المنافقين(معطوفا على)ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات(.

والمراد: تعذيب خاص زائد على تعذيبهم الذي استحقوه بسبب الكفر والنفاق وقد أومأ إلى ذلك قوله بعده)عليهم دائرة السوء(.

والابتداء بذكر المنافقين في التعذيب قبل المشركين لتنبيه المسلمين بأن كفر المنافقين خفي فربما غفل المسلمون عن هذا الفريق أو نسوه.

كان المنافقون لم يخرج منهم أحد إلى فتح مكة ولا إلى عمرة القضية لأنهم لا يحبون أن يراهم المشركون متلبسين بأعمال المسلمين مظاهرين لهم ولأنهم كانوا يحسبون أن المشركين يدافعون المسلمين عن مكة وأنه يكون النصر للمشركين.

صفحة : 4060

والتعذيب: إيصال العذاب إليهم وذلك صادق بعذاب الدنيا بالسيف كما قال تعالى)يعذبهم الله بأيديكم(وقال)يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين(، وبالوجل، وحذر الافتضاح، وبالكمد من رؤية المؤمنين منصورين سالمين قال تعالى)قل موتوا بغيظكم(وقال)إن تصبك حسنة تسوءهم(وصادق بعذاب الآخرة وهو ما خص بالذكر في آخر الآية بقوله)وأعد لهم جهنم(.

وعطف)المنافقات(نظير عطف)المؤمنات(المتقدم لأن نساء المنافقين يشاركونهم في أسرارهم ويحضون ما يبيتونه من الكيد ويهيئون لهم إيواء المشركين إذا زاروهم.

وقوله)الظانين(صفة للمذكورين من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات فإن حق الصفة الواردة بعد متعدد أن تعود إلى جميعه ما لم يكن مانع لفظي أو معنوي.

والسوء بفتح السين في قوله)ظن السوء(في قراءة جميع العشرة، وأما في قولهم)عليهم دائرة السوء(فهو في قراءة الجمهور بالفتح أيضا. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحده بضم السين. والمفتوح والمضموم مترادفان في أصل اللغة ومعناهما المكروه ضد السرور، فهما لغتان مثل: الكره والكره، والضعف والضعف، والضر والضر، والبأس والبؤس. هذا عن الكسائي وتبعه الزمخشري وبينه الجوهري بأن المفتوح مصدر والمضموم اسم مصدر، إلا أن الاستعمال غلب المفتوح في أن يقع وصفا لمذموم مضافا إليه موصوفه كما وقع في هذه الآية وفي قوله)ويتربصون بكم الدوائر عليهم دائرة السوء(في سورة براءة، وغلب المضموم في معنى الشيء الذي هو بذاته شر.

فإضافة الظن إلى السوء من إضافة الموصوف إلى الصفة.

والمراد: ظنهم بالله أنهم لم يعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالفتح ولا أمره بالخروج إلى العمرة ولا يقدر للرسول صلى الله عليه وسلم النصر لقلة أتباعه وعزة أعدائه، فهذا ظن سوء بالرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا المناسب لقراءته بالفتح.

وأما)دائرة السوء(في قراءة الجمهور فهي الدائرة التي تسوء أولئك الظانين بقرينة قوله)عليهم(، ولا التفات إلى كونها محمودة عند المؤمنين إذ ليس المقام لبيان ذلك والإضافة مثل إضافة)ظن السوء(، وأما في قراءة ابن كثير وأبي عمرو فإضافة)
دائرة(المضموم من إضافة الأسماء، أي الدائرة المختصة بالسوء والملازمة له لا من إضافة الموصوف.

وليس في قراءتهما خصوصية زائدة على قراءة الجمهور ولكنها جمعت بين الاستعمالين ففتح السوء الأول متعين وضم الثاني جائز وليس براجح والاختلاف اختلاف في الرواية.

وجملة)عليهم دائرة السوء(دعاء أو وعيد، ولذلك جاءت بالاسمية لصلوحيتها لذلك بخلاف جملة)وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم(فإنها إخبار عما جنوه من سوء فعلهم فالتعبير بالماضي منه أظهر.

)ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما(هذا نظير ما تقدم آنفا إلا أن هذا أوثر بصفة عزيز دون عليم لأن المقصود من ذكر الجنود هنا الإنذار والوعيد بهزائم تحل بالمنافقين والمشركين فكما ذكر)ولله جنود السماوات والأرض(فيما تقدم للإشارة إلى أن نصر النبي صلى الله عليه وسلم يكون بجنود المؤمنين وغيرهما ذكر ما هنا للوعيد بالهزيمة فمناسبة صفة عزيز، أي لا يغلبه غالب.

)إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا[8] لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا[9](لما أريد الانتقال من الوعد بالفتح والنصر وما اقتضاه ذلك مما اتصل به ذكره، إلى تبيين ما جرى في حادثة الحديبية وإبلاغ كل ذي حظ من تلك القضية نصيبه المستحق ثناء أو غيره صدر ذلك بذكر مراد الله من إرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك كالمقدمة للقصة وذكرت حكمة الله تعالى في إرساله ما له مزيد اختصاص بالواقعة المتحدث عنها، فذكرت أوصاف ثلاثة هي: شاهد، ومبشر، ونذير. وقدم منها وصف الشاهد لأنه يتفرع عنه الوصفان بعده.

فالشاهد: المخبر بتصديق أحد أو تكذيبه فيما ادعاه أو أدعي به عليه وتقدم في قوله)فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا(في سورة النساء وقوله)ويكون الرسول عليكم شهيدا(في سورة البقرة.

فالمعنى: أرسلناك في حال أنك تشهد على الأمة بالتبليغ بحيث لا يعذر المخالفون عن شريعتك فيما خالفوا فيه، وتشهد على الأمم وهذه الشهادة حاصلة في الدنيا وفي يوم القيامة، فانتصب) شاهدا(على أنه حال، وهو حال مقارنة ويترتب على التبليغ الذي سيشهد به أنه مبشر للمطيعين ونذير للعاصين على مراتب العصيان.

والكلام استئناف ابتدائي وتأكيده بحرف التأكيد للاهتمام.

وقوله)لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا(. قرأ الجمهور الأفعال الأربعة)لتؤمنوا، وتعزروه، وتوقروه، وتسبحوه(بالمثناة الفوقية في الأفعال الأربعة فيجوز أن تكون اللام في)لتؤمنوا(لام كي مفيدة للتعليل ومتعلقة بفعل)أرسلناك(.

والخطاب يجوز أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم مع أمة الدعوة، أي لتؤمن أنت والذين أرسلت إليهم شاهدا ومبشرا ونذيرا، والمقصود الإيمان بالله. وأقحم)ورسوله(لأن الخطاب شامل للأمة وهم مأمورون بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يؤمن بأنه رسول الله ولذلك كان يقول في تشهده: وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وقال يوم حنين: أشهد أني عبد الله ورسوله . وصح أنه كان يتابع قول المؤذن أشهد أن محمدا رسول الله .

ويجوز أن يكون الخطاب للناس خاصة ولا إشكال في عطف) ورسوله(.

ويجوز أن يكون الكلام قد انتهى عند قوله)ونذيرا(وتكون جملة) لتؤمنوا بالله(الخ جملة معترضة، ويكون اللام في قوله)لتؤمنوا(لام الأمر وتكون الجملة استئنافا للأمر كما في قوله تعالى)آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه(في سورة الحديد.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة فيها، والضمائر عائدة إلى معلوم من السياق لأن الشهادة والتبشير والنذارة متعينة للتعلق بمقدر، أي شاهدا على الناس ومبشرا ونذيرا لهم ليؤمنوا بالله الخ.

والتعزيز: النصر والتأييد، وتعزيزهم الله كقوله)إن تنصروا الله(. والتوقير: التعظيم.

والتسبيح: الكلام الذي يدل على تنزيه الله تعالى عن كل النقائص.

وضمائر الغيبة المنصوبة الثلاثة عائدة إلى اسم الجلالة لأن إفراد الضمائر مع كون المذكور قبلها اسمين دليل على أن المراد أحدهما. والقرينة على تعيين المراد ذكر)وتسبحوه(، ولأن عطف) ورسوله(على لفظ الجلالة اعتداد بأن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم إيمان بالله فالمقصود هو الإيمان بالله. ومن أجل ذلك قال ابن عباس في بعض الروايات عنه: إن ضمير)تعزروه وتوقروه(عائد إلى)رسوله(.

والبكرة: أول النهار. والأصيل: آخره، وهما كناية عن استيعاب الأوقات بالتسبيح والإكثار منه، كما يقال: شرقا وغربا لاستيعاب الجهات.
وقيل التسبيح هنا: كناية عن الصلوات الواجبة والقول في)بكرة وأصيلا(هو هو.
وقد وقع في سورة الأحزاب نظير هذه الآية وهو قوله)يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا(، فزيد في صفات النبي صلى الله عليه وسلم هنالك)وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا(ولم يذكر مثله في الآية هذه التي في سورة الفتح. ووجه ذلك أن هذه الآية التي في سورة الفتح وردت في سياق إبطال شك الذين شكوا في أمر الصلح والذين كذبوا بوعد الفتح والنصر، والثناء على الذين اطمأنوا لذلك فاقتصر من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم على الوصف الأصلي وهو أنه شاهد على الفريقين وكونه مبشرا لأحد الفريقين ونذيرا للآخر، بخلاف آية الأحزاب فإنها وردت في سياق تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن مطاعن المنافقين والكافرين في تزوجه زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة بزعمهم أنها زوجة ابنه، فناسب أن يزاد في صفاته ما فيه إشارة إلى التمحيص بين ما هو من صفات الكمال وما هو من الأوهام الناشئة عن مزاعم كاذبة مثل التبني، فزيد كونه)داعيا إلى الله بإذنه(، أي لا يتبع مزاعم الناس ورغباتهم وأنه سراج منير يهتدي به من همته في الاهتداء دون التقعير.
وقد تقدم في تفسير سورة الأحزاب حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فارجه إليه.

صفحة : 4062

)إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما[10](شروع في الغرض الأصلي من هذه السورة، وهذه الجملة مستأنفة، وأكد بحرف التأكيد للاهتمام، وصيغة المضارع في قوله)يبايعونك(لاستحضار حالة المبايعة الجليلة لتكون كأنها حاصلة في زمن نزول هذه الآية مع أنها قد انقضت وذلك كقوله تعالى) ويصنع الفلك(.
والحصر المفاد من)إنما(حصر الفعل في مفعوله، أي لا يبايعون إلا الله وهو قصر ادعائي بادعاء أن غاية البيعة وغرضها هو النصر

لدين الله ورسوله فنزل الغرض منزلة الوسيلة فادعى أنهم بايعوا الله لا الرسول.

وحيث كان الحصر تأكيدا على تأكيد، كما قال صاحب المفتاح،: لم أجعل)إن(التي في مفتتح الجملة للتأكيد لحصول التأكيد بغيرها فجعلتها للاهتمام بهذا الخبر ليحصل بذلك غرضان .

وانتقل من هذا الادعاء إلى تخيل أن الله تعالى يبايعه المبايعون فأثبتت له اليد التي هي من روادف المبايع بالفتح على وجه التخييلة مثل إثبات الأظفار للمنية.

وقد هيأت صيغة المبايعة لأن تذكر بعدها الأيدي لأن المبايعة يقارنها وضع المبايع يده في يد المبايع بالفتح كما قال كعب بن زهير:

حتى وضعت يميني لا أنازعه في كف ذي يسرات قيله القيل ومما زاد هذا التخييل حسنا ما فيه من المشاكلة بين يد الله وأيديهم كما قال في المفتاح: والمشاكلة من المحسنات البديعية والله منزه عن اليد وسمات المحدثات.

فجملة)يد الله فوق أيديهم(مقررة لمضمون جملة)إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله(المفيدة أن بيعتهم النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر، هي بيعة منهم لله في الواقع فقررته جملة)يد الله فوق أيديهم(وأكدته ولذلك جردت عن حرف العطف.

وجعلت اليد المتخيلة فوق أيديهم: إما لأن إضافتها إلى الله تقتضي تشريفها بالرفعة على أيدي الناس كما وصفت في المعطي بالعليا في قول النبي صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا هي المعطية واليد السفلى هي الآخذة ، وإما لأن المبايعة كانت بأن يمد المبايع كفه أمام المبايع بالفتح ويضع هذا المبايع يده على يد المبايع، فالوصف بالفوقية من تمام التخييلية. ويشهد لهذا ما في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بايعه الناس كان عمر آخذا بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي كان عمر يضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيدي الناس كيلا يتعب بتحريكها لكثرة المبايعين فدل على أن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت توضع على يد المبايعين.

وأياما كان فذكر الفوقية هنا ترشيح للاستعارة وإغراق في التخيل.

والمبايعة أصلها مشتقة من البيع فهي مفاعلة لأن كلا المتعاقدين بائع، ونقلت إلى معنى العهد على الطاعة والنصرة قال تعالى)يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا(الآية وهي هنا بمعنى العهد على النصرة والطاعة.

وهي البيعة التي بايعها المسلمون النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية تحت شجرة من السمر وكانوا ألفا وأربعمائة على أكثر الروايات. وقال جابر بن عبد الله: أو أكثر، وعنه: أنهم خمس عشرة مائة. وعن عبد الله بن أبي أوفى كانوا ثلاث عشرة مائة. وأول من بايع النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة أبو سنان الأسدي.
وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى)لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة(.
وكان سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل عثمان بن عفان من الحديبية إلى أهل مكة ليفاوضهم في شأن التخلية بين المسلمين وبين الاعتمار بالبيت فأرجف بأن عثمان قتل فعزم النبي صلى الله عليه وسلم على قتالهم لذلك ودعا من معه إلى البيعة على أن لا يرجعوا حتى يناجزوا القوم، فكان جابر بن عبد الله يقول: بايعوه على أن لا يفروا، وقال سلمة بن الأكوع وعبد الله بن زيد: بايعناه على الموت، ولا خلاف بين هذين لأن عدم الفرار يقتضي الثبات إلى الموت.

ولم يتخلف أحد ممن خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية عن البيعة إلا عثمان إذ كان غائبا بمكة للتفاوض في شأن العمرة، ووضع النبي صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على يده اليسرى وقال: هذه يد عثمان ثم جاء عثمان، وإلا الجد بن قيس السلمى اختفى وراء جملة حتى بايع الناس ولم يكن منافقا ولكنه كان ضعيف العزم . وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم)أنتم خير أهل الأرض(.
وفرع قوله)فمن نكث فإنما ينكث على نفسه(على جملة)إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله(، فإنه لما كشف كنه هذه البيعة بأنها مبايعة لله ضرورة أنها مبايعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم باعتبار رسالته عن الله صار أمر هذه البيعة عظيما خطيرا في الوفاء بما وقع عليه التبايع وفي نكث ذلك.
والنكث: كالنقض للحبل. قال تعالى)ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا(. وغلب النكث في معنى النقض المعنوي كإبطال العهد.
والكلام تحذير من نكث هذه البيعة وتفظيع له لأن الشرط يتعلق بالمستقبل. ومضارع)ينكث(بضم الكاف في المشهور واتفق عليه

القراء. ومعنى)فإنما ينكث على نفسه(. أن نكثه عائد عليه بالضر كما دل عليه حرف)على(.
و)إنما(للقصر وهو لقصر النكث على مدلول)على نفسه(ليراد لا يضر بنكثه إلا نفسه ولا يضر الله شيئا فإن نكث العهد لا يخلو من قصد إضرار بالمنكوث، فجيء بقصر القلب لقلب قصد الناكث على نفسه دون على النبي صلى الله عليه وسلم.
ويقال: أوفى بالعهد وهي لغة تهامة، ويقال: وفي بدون همز وهي لغة عامة العرب، ولم تجيء في القرآن إلا الأولى.
قالوا: ولم ينكث أحد ممن بايع.
والظاهر عندي: أن سبب المبايعة قد انعدم بالصلح الواقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة وأن هذه الآية نزلت فيما بين ساعة البيعة وبين انعقاد الهدنة وحصل أجر الإيفاء بالنية عدمه لو نزل ما عاهدوا الله عليه.
وقرأ نافع وابن كثير وأن عامر ورويس عن يعقوب)فسنؤتيه(بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى المتكلم. وقرأه الباقون بياء الغيبة عائدا ضميره على اسم الجلالة.
)سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم(لما حذر من النكث ورغب في الوفاء أتبع ذلك بذكر التخلف عن الانضمام إلى جيش النبي صلى الله عليه وسلم حين الخروج إلى عمرة الحديبية وهو ما فعله الأعراب الذين كانوا نازلين حول المدينة وهم ست قبائل: غفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، وأسلم، والديل، بعد أن بايعوه على الخروج معه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد المسير إلى العمرة استنفر من حول المدينة منهم ليخرجوا معه فيرهبه أهل مكة فلا يصدوه عن عمرته فتثاقل أكثرهم عن الخروج معه. وكان من أهل البيعة زيد بن خالد الجهني من جهينة وخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم من أسلم مائة رجل منهم مرداس بن مالك الأسلمي، والد عباس الشاعر، وعبد الله بن أبي أوفى، وزاهر ابن الأسود، وأهبان بضم الهمزة بن أوس، وسلمة بن الأكوع الأسلمي، ومن غفار خفاف بضم الخاء المعجمة بن أيماء بفتح الهمزة بعدها تحتية ساكنة، ومن مزينة عائذ بن عمرو.
وتخلف عن الخروج معه معظمهم وكانوا يومئذ لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ولكنهم لم يكونوا منافقين، وأعدوا للمعذرة بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، فأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بما بيتوه في قلوبهم وفضح أمرهم من قبل أن يعتذروا. وهذه من معجزات القرآن بالأخبار التي قبل وقوعه.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لمناسبة ذكر الإيفاء والنكث، فكمل بذكر من تخلفوا عن الداعي للعهد.
والمعنى: أنهم يقولون ذلك عند مرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة معتذرين كاذبين في اعتذارهم.
و)المخلفون(بفتح اللام هم الذين تخلفوا.
وأطلق عليهم المخلفون أي غيرهم خلفهم وراءه، أي تركهم خلفه، وليس ذلك بمقتض أنهم مأذون لهم بل المخلف هو المتروك مطلقا. يقال: خلفنا فلانا، إذا مروا به وتركوه لأنهم اعتذروا من قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم فعذرهم بخلاف الأعراب فإنهم تخلف أكثرهم بعد أن استنفروا ولم يعتذروا حينئذ.

والأموال: الإبل.
وأهلون: جمع أهل على غير قياس لأنه غير مستوفي لشروط الجمع بالواو والنون أو الياء والنون، فعد مما ألحق بجمع المذكر السالم.
ومعنى فاستغفر لنا: اسأل لنا المغفرة من الله إذ كانوا مؤمنين فهو طلب حقيقي لأنهم كانوا مؤمنين ولكنهم ظنوا أن استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لهم يمحو ما أضمروه من النكث وذهلوا عن علم الله بما أضمروه كدأب أهل الجهالة فقد قتل اليهود زكريا مخافة أن تصدر منه دعوة عليهم حين قتلوا ابنه يحيى ولذلك عقب قولهم هنا بقوله تعالى)بل كان الله بما تعملون خبيرا(الآية.
وجملة)يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم(في موضع الحال.
ويجوز أن تكون بدل اشتمال من جملة)سيقول لك المخلفون(.
والمعنى: أنهم كاذبون فيما زعموه من الاعتذار، وإنما كان تخلفهم لظنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يقصد قتال أهل مكة أو أن أهل مكة مقاتلوه لا محالة وأن الجيش الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم لا يستطيعون أن يغلبوا أهل مكة، فقد روي أنهم قالوا: يذهب إلى قوم غزوه في عقر داره بالمدينة يعنون غزوة الأحزاب وقتلوا أصحابه فيقاتلهم وظنوا أنه لا ينقلب إلى المدينة وذلك من ضعف يقينهم.
)قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا[11](أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما فيه رد أمرهم إلى الله ليعلمهم أن استغفاره الله لهم لا يكره الله على المغفرة بل الله يفعل ما

يشاء إذا أراده فإن كان أراد بهم نفعا نفعهم وإن كان أراد بهم ضرا ضرهم فما كان من النصح لأنفسهم أن يتورطوا فيما لا يرضي الله ثم يستغفرونه. فلعله لا يغفر لهم، فالغرض من هذا تخويفهم من عقاب ذنبهم إذ تخلفوا عن نفير النبي صلى الله عليه وسلم وكذبوا في الاعتذار ليكثروا من التوبة وتدارك الممكن كما دل عليه قوله تعالى بعده)قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم(الآية.

فمعنى)إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا(هنا الإرادة التي جرت على وفق علمه تعالى من إعطائه النفع إياهم أو إصابته بضر وفي الكلام توجيه بأن تخلفهم سبب في حرمانهم من فضيلة شهود بيعة الرضوان وفي حرمانهم من شهود غزوة خيبر بنهيه عن حضورهم فيها.

ومعنى الملك هنا: القدرة والاستطاعة، أي لا يقدر أحد أن يغير ما أراده الله وتقدم نظير هذا التركيب في قوله تعالى)قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم(في سورة العقود.

والغالب في مثل هذا أن يكون لنفي القدرة على تحويل الشر خيرا كقوله)ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا(. فكان الجري على ظاهر الاستعمال مقتضيا الاقتصار على نفي أن يملك أحد لهم شيئا إذا أراد الله ضرهم دون زيادة أو أراد بكم نفعا، فتوجه هذه الزيادة أنها لقصد التتميم والاستيعاب، ونظيره)قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة(في سورة الأحزاب. وقد مضى قريب من هذا في قوله تعالى)قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله(في سورة الأعراف فراجعه.

وقرأ الجمهور)ضرا(بفتح الضاد، وقرأه حمزة والكسائي بضمها وهما بمعنى، وهو مصدر فيجوز أن يكون هنا مرادا به معنى المصدر، أي إن أراد أن يضركم أو ينفعكم. ويجوز أن يكون بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، أي إن أراد بكم ما يضركم وما ينفعكم.

ومعنى تعلق)أراد(به أنه بمعنى أراد إيصال ما يضركم أو ما ينفعكم.

وهذا الجواب لا عدة فيه من الله بأن يغفر لهم إذ المقصود تركهم في حالة وجل ليستكثروا من فعل الحسنات.وقصدت مفاتحتهم بهذا الإبهام لإلقاء الوجل في قلوبهم أن لا يغفر لهم ثم سيتبعه بقوله)ولله ملك السماوات والأرض(الآية الذي هو أقرب إلى الإطماع.

و)بل(في قوله)بل كان الله بما تعملون خبيرا(إضراب لإبطال قولهم)شغلتنا أموالنا وأهلونا(. وبه يزداد مضمون قوله)يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم(تقريرا لأنه يتضمن إبطالا لعذرهم، ومن معنى الإبطال يحصل بيان الإجمال الذي في قوله)كان الله بما تعلمون خبيرا(إذ يفيد أنه خبير بكذبهم في الاعتذار فلذلك أبطل اعتذارهم بحرف الإبطال.

صفحة : 4065

وتقديم)بما تعملون(على متعلقه لقصد الاهتمام بذكر عملهم هذا. وما صدق)ما تعملون(ما اعتقدوه وما ماهوا به من أسباب تخلفهم عن نفير الرسول وكثيرا ما سمى القرآن الاعتقاد عملا. وفي قوله) وكان الله بما تعملون خبيرا(تهديد ووعيد.
)بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا[12](هذه الجملة بدل اشتمال من جملة)بل كان الله بما تعلمون خبيرا(، أي خبيرا بما علمتم، ومنه ظنكم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون.
وأعيد حرف الإبطال زيادة لتحقيق معنى البدلية. كما يكرر العامل في المبدل منه والانقلاب: الرجوع إلى المأوى.
و)أن(وى.
أوى.أأأأأ مخففة من)أن(المشددة واسمها ضمير الشأن وسد المصدر مسد مفعولي)ظننتم(، وجيء بحرف)لن(المفيد استمرار النفي، وأكد بقوله)أبدا(لأن ظنهم كان قويا.
والتزيين: التحسين، وهو كناية عن قبول ذلك وإنما جعل ذلك الظن مزينا في اعتقادهم لأنهم لم يفرضوا غيره من الاحتمال، وهو أن يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم سالما. وهكذا شأن العقول الواهية والنفوس الهاوية أن لا تأخذ من الصور التي تتصور بها الحوادث إلا الصورة التي تلوح لها في بادئ الرأي. وإنما تلوح لها أول شيء لأنها الصورة المحبوبة ثم يعتريها التزيين في العقل فتلهو عن فرض غيرها فلا تستعد لحدثانه، ولذلك قيل)حبك الشيء يعمي ويصم(.
كانوا يقولون بين أقوالهم: إن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكلة بفتحات ثلاث رأس كناية عن القلة، أي يشبعهم رأس بعير لا يرجعون، أي هم قليل بالنسبة لقريش والأحابيش وكنانة، ومن في خلفهم.

و)ظن السوء(أعم من ظنهم أن لا يرجع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، أي ظننتم ظن السوء بالدين وبمن بقي من الموقنين لأنهم جزموا باستئصال أهل الحديبية وأن المشركين ينتصرون ثم يغزون المدينة بمن ينضم إليهم من القبائل فيسقط في أيدي المؤمنين ويرتدون عن الدين فذلك ظن السوء.

والسوء بفتح السين تقدم آنفا في قوله)الظانين بالله ظن السوء(.

والبور: مصدر كالهلك بناء ومعنى، ومثله البوار بالفتح كالهلاك ولذلك وقع وصفا بالإفراد وموصوفه في معنى الجمع.

والمراد الهلاك المعنوي، وهو عدم الخير والنفع في الدين والآخرة نظير قوله تعالى)يهلكون أنفسهم(في سورة براءة.

وإقحام كلمة)قوما(بين)كنتم(و)بورا(لإفادة أن البوار صار من مقومات قوميتهم لشدة تلبسه بجميع أفرادهم كما تقدم عند قوله تعالى)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة. وقوله)وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون(في سورة يونس.

)ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا[13] (جملة معترضة بين أجزاء القول المأمور به في قوله)قل فمن يملك لكم من الله شيئا(الآيات وقوله)ولله ملك السماوات والأرض(وهذا الاعتراض للتحذير من استدراجهم أنفسهم في مدارج الشك في إصابة أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفضي بهم إلى دركات الكفر بعد الإيمان إذ كان تخلفهم عن الخروج معه وما عللوا به تثاقلهم في نفوسهم وإظهار عذر مكذوب أضمروا خلافه، كل ذلك حوما حول حمى الشك يوشكون أن يقعوا فيه.

و)من(شرطية. وإظهار لفظ الكافرين في مقام أن يقال: أعتدنا لهم سعيرا، لزيادة تقرير معنى)من لم يؤمن بالله ورسوله(.

والسعير: النار المسعرة وهو من أسماء جهنم.

)ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما[14](عطف على جملة)فمن يملك لكم من الله شيئا(فهو من أجزاء القول، وهذا انتقال من التخويف الذي أوهمه)فمن يملك لكم من الله شيئا(إلى إطماعهم بالمغفرة التي سألوها، ولذلك قدم الضر على النفع في الآية الأولى فقيل)إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا(ليكون احتمال إرادة الضر بهم أسبق في نفوسهم.

وقدمت المغفرة هنا بقوله)يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء(ليتقرر معنى الإطماع في نفوسهم فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم.

وهذا تمهيد لوعدهم الآتي في قوله)قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد(إلى قوله)فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا(.

وزاد رجاء المغفرة تأكيدا بقوله)وكان الله غفورا رحيما(أي الرحمة والمغفرة أقرب من العقاب، وللأمرين مواضع ومراتب في القرب والبعد، والنوايا والعوارض، وقيمة الحسنات والسيئات، قد أحاط الله بها وقدرها تقديرا.

ولفظ)من يشاء(في الموضعين إجمال للمشيئة وأسبابها وقد بينت غير مرة في تضاعيف القرآن والسنة ومن ذلك قوله)إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء(.

)سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا[15](هذا استئناف ثان بعد قوله)سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا(.

وهو أيضا إعلام للنبي صلى الله عليه وسلم بما سيقوله المخلفون عن الحديبية يتعلق بتخلفهم عن الحديبية وعذرهم الكاذب، وأنهم سيندمون على تخلفهم حين يرون اجتناء أهل الحديبية ثمرة غزوهم، ويتضمن تأكيد تكذيبهم في اعتذارهم عن التخلف بأنهم حين يعلمون أن هنالك مغانم من قتال غير شديد يحرصون على الخروج ولا تشغلهم أموالهم ولا أهاليهم، فلو كان عذرهم حقا لما حرصوا على الخروج إذا توقعوا المغانم ولأقبلوا على الاشتغال بأموالهم وأهليهم.

ولكون هذه المقالة صدرت منهم عن قريحة ورغبة لم يؤت معها بمجرور)لك(كما أتي به في قوله)سيقول لك المخلفون(آنفا لأن قول راغب صادق غير مزور لأجل الترويج على النبي صلى الله عليه وسلم كما علمت ذلك فيما تقدم.

واستغني عن وصفهم بأنهم من الأعراب لأن تعريف)المخلفون(تعريف العهد، أي المخلفون المذكورون.

وقوله)إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها(متعلق ب)سيقول المخلفون(وليس هو مقول القول.

و)إذا(ظرف للمستقبل، ووقوع فعل المضي بعده دون المضارع مستعار لمعنى التحقيق، و)إذا(قرينة على ذلك لأنها خاصة بالزمن المستقبل.

والمراد بالمغانم في قوله)إذا انطلقتم إلى مغانم(: الخروج إلى غزوة خيبر فأطلق عليها اسم مغانم مجازا لعلاقة الأول مثال إطلاق خمرا في قوله)إني أراني أعصر خمرا(. وفي هذا المجاز إيماء إلى أنهم منصورون في غزوتهم.

وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية إلى المدينة أقام شهر ذي الحجة سنة وست وأياما من محرم سنة سبع ثم خرج إلى غزوة خيبر ورام المخلفون عن الحديبية أن يخرجوا معه فمنعهم لأن الله جعل غزوة خيبر غنيمة لأهل بيعة الرضوان خاصة إذ وعدهم بفتح قريب.

وقوله)لتأخذوها(ترشيح للمجاز وهو إيماء إلى أن المغانم حاصلة لهم لا محالة.

وذلك أن الله أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه وعد أهل الحديبية أن يعوضهم عن عدم دخول مكة مغانم خيبر.

و)مغانم(: جمع مغنم وهو اسم مشتق من غنم إذا أصاب ما فيه نفع له كأنهم سموه مغنما باعتبار تشبيه الشيء المغنوم بمكان فيه غنم فصيغ له وزن المفعل.

وأشعر قوله)ذرونا(بأن النبي صلى الله عليه وسلم سيمنعهم من الخروج معه إلى غزو خيبر لأن الله أمره أن لا يخرج معه إلى خيبر إلا من حضر الحديبية، وتقدم في قوله تعالى)وقال فرعون ذروني أقتل موسى(في سورة غافر.

وقوله)نتبعكم(حكاية لمقالتهم وهو يقتضي أنهم قالوا هذه الكلمة استنزالا لإجابة طلبهم بأن أظهروا أنهم يخرجون إلى غزو خيبر كالأتباع، أي أنهم راضون بأن يكونوا في مؤخرة الجيش فيكون حظهم في مغانمه ضعيفا.

وتبديل كلام الله: مخالفة وحيه من الأمر والنهي والوعد كرامة للمجاهدين وتأديبا للمخلفين عن الخروج إلى الحديبية. فالمراد بكلام الله ما أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر خاصة لهم، وليس المراد بكلام الله هنا القرآن إذ لم ينزل في ذلك قرآن يومئذ. وقد أشرك مع أهل الحديبية من الحق بهم من أهل هجرة الحبشة الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم بوحي.

وأما ما روي عن عبد الله بن زيد بن أسلم أن المراد بكلام الله قوله تعالى)فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا(فقد

رده ابن عطية بأنها نزلت بعد هذه السورة وهؤلاء المخلفون لم يمنعوا منعا مؤبدا بل منعوا من المشاركة في غزوة خيبر لئلا يشاركوا في مغانمها فلا يلاقي قوله فيها)لن تخرجوا معي أبدا(وينافي قوله في هذه السورة)قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم(الآية، فإنها نزلت في غزوة تبوك وهي بعد الحديبية بثلاث سنين.

وجملة)يريدون أن يبدلوا كلام الله(في موضع الحال.

والإرادة في قوله)يريدون أن يبدلوا كلام الله(على حقيقتها لأنهم سيعلمون حينئذ يقولون:)ذرونا نتبعكم(أن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بمنعهم من المشاركة في فتح خيبر كما دل عليه تنازلهم في قولهم)ذرونا نتبعكم(فهم يريدون حينئذ أن يغيروا ما أمر الله به رسوله حين يقولون)ذرونا نتبعكم(إذ اتباع الجيش والخروج في أوله سواء في المقصود من الخروج.

وقرأ الجمهور)كلام الله(. وقرأه حمزة والكسائي وخلف)كلم الله(اسم جمع كلمة.

وجيء ب)لن(المفيدة تأكيد النفي لقطع أطماعهم في الإذن لهم باتباع الجيش الخارج إلى خيبر ولذلك حذف متعلق)تتبعونا(للعلم به. و)من قبل(تقديره: من قبل طلبكم الذي تطلبونه وقد أخبر الله عنهم بما سيقولونه إذ قال)فسيقولون بل تحسدوننا(، وقد قالوا ذلك بعد نحو شهر ونصف فلما سمع المسلمون المتأهبون للخروج إلى خيبر مقالتهم قالوا: قد أخبرنا الله في الحديبية بأنهم سيقولون هذا.

و)بل(هنا للإضراب عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم)لن تتبعونا(وهو إضراب إبطال نشأ عن فورة الغضب المخلوط بالجهالة وسوء النظر، أي ليس بكم الحفاظ على أمر الله، بل بكم أن لا نقاسمكم في المغانم حسدا لنا على ما نصيب من المغانم.

والحسد: كراهية أن ينال غيرك خيرا معينا أو مطلقا سواء كان مع تمني انتقاله إليك أو بدون ذلك، فالحسد هنا أريد به الحرص على الانفراد بالمغانم وكراهية المشاركة فيها لئلا ينقص سهام الكارهين.

وتقدم الحسد عند قوله تعالى)بغيا أن ينزل الله من فضله(وعند قوله)حسدا من عند أنفسهم(كلاهما في سورة البقرة.

وضمير الرفع مراد به أهل الحديبية، نسبوهم إلى الحسد لأنهم ظنوا أن الجواب بمنعهم لعدم رضى أهل الحديبية بمشاركتهم في المغانم. ولا يظن بهم أن يريدوا بذلك الضمير شمول النبي صلى الله عليه وسلم لأن المخلفين كانوا مؤمنين لا يتهمون النبي صلى الله عليه وسلم بالحسد ولذلك أبطل الله كلامهم بالإضراب الإبطالي فقال)بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا(، أي ليس قولك لهم ذلك لقصد

الاستبشار بالمغانم لأهل الحديبية ولكنه أمر الله وحقه لأهل الحديبية وتأديب للمخلفين ليكونوا عبرة لغيرهم فيما يأتي وهم ظنوه تمالؤا من جيش الحديبية لأنهم لم يفهموا حكمته وسببهم.
وإنما نفى الله عنهم الفهم دون الإيمان لأنهم كانوا مؤمنين ولكنهم كانوا جاهلين بشرائع الإسلام ونظمه.
وأفاد قوله)لا يفقهون(انتفاء الفهم عنهم لأن الفعل في سياق النفي كالنكرة في سياق النفي يعم، فلذلك استثنى منه بقوله)إلا قليلا(أي إلا فهما قليلا وإنما قلله لكون فهمهم مقتصرا على الأمور الواضحة من العاديات لا ينفذ إلى المهمات ودقائق المعاني، ومن ذلك ظنهم حرمانهم من الالتحاق بجيش غزوة خيبر منبعثا على الحسد.
وقد جروا في ظنهم هذا على المعروف من أهل الأنظار القاصرة والنفوس الضئيلة من التوسم في أعمال أهل الكمال بمنظار ما يجدون من دواعي أعمالهم وأعمال خلطائهم.
و)قليلا(وصف للمستثنى المحذوف، والتقدير: إلا فقها قليلا.
)قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما[16](

صفحة : 4068

انتقال إلى طمأنة المخلفين بأنهم سينالون مغانم في غزوات آتية ليعلموا أن حرمانهم من الخروج إلى خيبر مع جيش الإسلام ليس لانسلاخ الإسلام عنهم ولكنه لحكمة نوط المسببات بأسبابها على طريقة حكمة الشريعة فهو حرمان خاص بوقعة معينة كما تقدم آنفا، وأنهم سيدعون بعد ذلك إلى قتال قوم كافرين كما تدعى طوائف المسلمين، فذكر هذا في هذا المقام إدخال للمسرة بعد الحزن ليزيل عنهم انكسار خواطرهم من جراء الحرمان. وفي هذه البشارة فرصة لهم ليستدركوا ما جنوه من التخلف عن الحديبية وكل ذلك دال على أنهم لم ينسلخوا عن الإيمان، ألا ترى أن الله لم يعامل المنافقين المبطنين للكفر بمثل هذه المعاملة في قوله) فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين(.
وكرر وصف من)الأعراب(هنا ليظهر أن هذه المقالة قصد بها الذين نزل فيهم قوله)سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا

أموالنا وأهلونا(فلا يتوهم السامعون أن المعنى بالمخلفين كل من يقع منه التخلف.
وأسند)تدعون(إلى المجهول لأن الغرض الأمر بامتثال الداعي وهو ولي أمر المسلمين بقرينة قوله بعد في تذييله)ومن يطع الله ورسوله(ودعوة خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم من بعده ترجع إلى دعوة الله ورسوله لقوله)ومن أطاع أمري فقد أطاعني(.
وعدي فعل)ستدعون(بحرف)إلى(لإفادة أنها مضمنة معنى المشي، وهذا فرق دقيق بين تعدية فعل الدعوة بحرف)إلى(وبين تعديته باللام نحو قولك: دعوت فلانا لما نابني، قال طرفة:
وإن أدع للجلى أكن من حماتها وقد يتعاقب الاستعمالان بضرب من المجاز والتسامح.
والقوم أولو البأس الشديد يتعين أنهم قوم من العرب لأن قوله تعالى)تقاتلونهم أو يسلمون(يشعر بأن القتال لا يرفع عنهم إلا إذا أسلموا، وإنما يكون هذا حكما في قتال مشركي العرب إذ لا تقبل منهم الجزية.
فيجوز أن يكون المراد هوازن وثقيف. وهذا مروي عن سعيد بن جبير، وعكرمة وقتادة، وذلك غزوة حنين وهي بعد غزوة خيبر، وأما فتح مكة فلم يكن فيه قتال. وعن الزهري ومقاتل: أنهم أهل الردة لأنهم من قبائل العرب المعروفة بالبأس، وكان ذلك صدر خلافة أبي بكر الصديق. وعن رافع بن خديج أنه قال: والله لقد كنا نقرأ هذه الآية)ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد(فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم، وعن ابن عباس وعطاء بن أبي رباح، وعطاء الخراساني، والحسن هم فارس والروم.
وجملة)تقاتلونهم أو يسلمون(إما حال من ضمير)تدعون(، وإما بدل اشتمال من مضمون)تدعون(.
و)أو(للترديد بين الأمرين والتنويع في حالة تدعون، أي تدعون إلى قتالهم وإسلامهم، وذلك يستلزم الإمعان في مقاتلتهم والاستمرار فيها ما لم يسلموا، فبذلك كان)أو يسلمون(حالا معطوفا على جملة)تقاتلونهم(وهو حال من ضمير)تدعون(.
وقوله)وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما(تعبير بالتوالي الذي مضى، وتحذير من ارتكاب مثله في مثل هذه الدعوة بأنه تول يوقع في الإثم لأنه تول عن دعوة إلى واجب وهو القتال للجهاد.
فالتشبيه في قوله)كما توليتم من قبل(تشبيه في مطلق التولي لقصد التشويه وليس تشبيها فيما يترتب على ذلك التولي.
)ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله ندخله جنت تجري من تحتها الأنهر

ومن يتول نعذبه عذابا أليما[17](جملة معترضة بين جملة)وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما(وبين جملة)ومن يطع الله ورسوله(الآية قصد منها نفي الوعيد عن أصحاب الضرارة تنصيصا على العذر للعناية بحكم التولي والتحذير منه.
وجملة)من يطع الله(الخ تذييل لجملة)فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا(الآية لما تضمنته من إيتاء الأجر لكل مطيع من المخاطبين وغيرهم، والتعذيب لكل متول كذلك، مع ما في جملة) ومن يطع الله(من بيان أن الأجر هو إدخال الجنات، وهو يفيد بطريق المقابلة أن التعذيب الأليم بإدخالهم جهنم.

صفحة : 4069

وقرأ نافع وابن عامر)ندخله( )ونعذبه(بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلم. وقرأ الجمهور)يدخله(بالياء التحتية جريا على أسلوب الغيبة بعود الضمير إلى اسم الجلالة.
)لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثبهم فتحا قريبا[18] ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما[19](عود إلى تفصيل ما جازى الله به أصحاب بيعة الرضوان المتقدم إجماله في قوله)إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله(، فإن كون بيعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم تعتبر بيعة لله تعالى أومأ إلى أن لهم بتلك المبايعة مكانة رفيعة من خير الدنيا والآخرة، فلما قطع الاسترسال في ذلك بما كان تحذيرا من النكث وترغيبا في الوفاء، بمناسبة التضاد وذكر ما هو وسط بين الحالين وهو حال المخلفين، وإبطال اعتذارهم وكشف طويتهم، وإقصائهم عن الخير الذي أعده الله للمبايعين وأرجائهم إلى خير يسنح من بعد إن هم صدقوا التوبة وأخلصوا النية.
فقد أنال الله المبايعين رضوانه وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة قال تعالى)ورضوان من الله أكبر(والشهادة لهم بإخلاص النية، وإنزاله السكينة قلوبهم ووعدهم بثواب فتح قريب ومغانم كثيرة.
وفي قوله)عن المؤمنين إذ يبايعونك(إيذان بأن من لم يبايع ممن خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس حينئذ بمؤمن وهو تعريض بالجد بن قيس إذ كان يومئذ منافقا ثم حسن إسلامه.
وقد دعيت هذه البيعة بيعة الرضوان من قوله تعالى)لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة(.

و)إذ يبايعونك(ظرف متعلق ب)رضي(، وفي تعليق هذا الظرف بفعل الرضى ما يفهم أن الرضى مسبب عن مفاد ذلك الظرف الخاص بما أضيف هو إليه، مع ما يعطيه توقيت الرضى بالظرف المذكور من تعجيل حصول الرضى بحدثان ذلك الوقت، ومع ما في جعل الجملة المضاف إليها الظرف فعلية مضارعية من حصول الرضى قبل انقضاء الفعل بل في حال تجدده.

فالمضارع في قوله)يبايعونك(مستعمل في الزمان الماضي لاستحضار حالة المبايعة الجليلة، وكون الرضى حصل عند تجديد المبايعة ولم ينتظر به تمامها، فقد علمت أن السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية.

والتعريف في)الشجرة(تعريف العهد وهي: الشجرة التي عهدها أهل البيعة حين كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا في ظلها، وهي شجرة من شجر السمر بفتح السين المهملة وضم الميم وهو شجر الطلح. وقد تقدم أن البيعة كانت لما أرجف بقتل عثمان بن عفان بمكة. فعن سلمة بن الأكوع وعبد الله بن عمر، يزيد أحدهما على الآخر بينما نحن قائلون يوم الحديبية وقد تفرق الناس في ضلال الشجر إذ نادى عمر بن الخطاب: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي دعا الناس إلى البيعة فثار الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه كلهم إلا الجد بن قيس .

وعن جابر بن عبد الله بعد أن عمي لو كنت أبصر لأريتكم مكان الشجرة .

وتواتر بيم المسلمين علم مكان الشجرة بصلاة الناس عند مكانها. وعن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة قال: فلما خرجنا من العام المقبل أي في عمرة القضية نسيناها فلم نقدر عليها. وعن طارق بن عبد الرحمان قال: انطلقت حاجا فمررت بقوم يصلون قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله بيعة الرضوان. فاتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال: سعيد: إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلموها وعلمتموها أنتم أفأنتم أعلم .

والمراد بقول طارق: ما هذا المسجد: مكان السجود، أي الصلاة، وليس المراد البيت الذي يبني للصلاة لأن البناء على موضع الشجرة وقع بعد ذلك الزمن فهذه الشجرة كانت معروفة للمسلمين وكانوا إذا مروا بها يصلون عندها تيمنا بها إلى أن كانت خلافة عمر فأمر بقطعها خشية أن تكون كذات أنواط التي كانت في الجاهلية، ولا

معارضة بين ما فعله المسلمون وبين ما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه أنه وبعض أصحابه نسوا مكانها أن الناس متفاوتون في توسم الأمكنة واقتفاء الآثار.

صفحة : 4069

وقرأ نافع وابن عامر)ندخله( )ونعذبه(بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلم. وقرأ الجمهور)يدخله(بالياء التحتية جريا على أسلوب الغيبة بعود الضمير إلى اسم الجلالة.
)لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثبهم فتحا قريبا[18] ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما[19](عود إلى تفصيل ما جازى الله به أصحاب بيعة الرضوان المتقدم إجماله في قوله)إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله(، فإن كون بيعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم تعتبر بيعة لله تعالى أومأ إلى أن لهم بتلك المبايعة مكانة رفيعة من خير الدنيا والآخرة، فلما قطع الاسترسال في ذلك بما كان تحذيرا من النكث وترغيبا في الوفاء، بمناسبة التضاد وذكر ما هو وسط بين الحالين وهو حال المخلفين، وإبطال اعتذارهم وكشف طويتهم، وإقصائهم عن الخير الذي أعده الله للمبايعين وأرجائهم إلى خير يسنح من بعد إن هم صدقوا التوبة وأخلصوا النية.
فقد أنال الله المبايعين رضوانه وهو أعظم خير في الدنيا والآخرة قال تعالى)ورضوان من الله أكبر(والشهادة لهم بإخلاص النية، وإنزاله السكينة قلوبهم ووعدهم بثواب فتح قريب ومغانم كثيرة.
وفي قوله)عن المؤمنين إذ يبايعونك(إيذان بأن من لم يبايع ممن خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم ليس حينئذ بمؤمن وهو تعريض بالجد بن قيس إذ كان يومئذ منافقا ثم حسن إسلامه.
وقد دعيت هذه البيعة بيعة الرضوان من قوله تعالى)لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة(.
و)إذ يبايعونك(ظرف متعلق ب)رضي(، وفي تعليق هذا الظرف بفعل الرضى ما يفهم أن الرضى مسبب عن مفاد ذلك الظرف الخاص بما أضيف هو إليه، مع ما يعطيه توقيت الرضى بالظرف المذكور من تعجيل حصول الرضى بحدثان ذلك الوقت، ومع ما في جعل الجملة المضاف إليها الظرف فعلية مضارعية من حصول الرضى قبل انقضاء الفعل بل في حال تجدده.

فالمضارع في قوله)يبايعونك(مستعمل في الزمان الماضي لاستحضار حالة المبايعة الجليلة، وكون الرضى حصل عند تجديد المبايعة ولم ينتظر به تمامها، فقد علمت أن السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية.

والتعريف في)الشجرة(تعريف العهد وهي: الشجرة التي عهدها أهل البيعة حين كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا في ظلها، وهي شجرة من شجر السمر بفتح السين المهملة وضم الميم وهو شجر الطلح. وقد تقدم أن البيعة كانت لما أرجف بقتل عثمان بن عفان بمكة. فعن سلمة بن الأكوع وعبد الله بن عمر، يزيد أحدهما على الآخر بينما نحن قائلون يوم الحديبية وقد تفرق الناس في ضلال الشجر إذ نادى عمر بن الخطاب: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي دعا الناس إلى البيعة فثار الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه كلهم إلا الجد بن قيس .

وعن جابر بن عبد الله بعد أن عمي لو كنت أبصر لأريتكم مكان الشجرة .

وتواتر بيم المسلمين علم مكان الشجرة بصلاة الناس عند مكانها. وعن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب أنه كان فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة قال: فلما خرجنا من العام المقبل أي في عمرة القضية نسيناها فلم نقدر عليها. وعن طارق بن عبد الرحمان قال: انطلقت حاجا فمررت بقوم يصلون قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله بيعة الرضوان. فاتيت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال: سعيد: إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلموها وعلمتموها أنتم أفأنتم أعلم .

والمراد بقول طارق: ما هذا المسجد: مكان السجود، أي الصلاة، وليس المراد البيت الذي يبني للصلاة لأن البناء على موضع الشجرة وقع بعد ذلك الزمن فهذه الشجرة كانت معروفة للمسلمين وكانوا إذا مروا بها يصلون عندها تيمنا بها إلى أن كانت خلافة عمر فأمر بقطعها خشية أن تكون كذات أنواط التي كانت في الجاهلية، ولا معارضة بين ما فعله المسلمون وبين ما رواه سعيد بن المسيب عن أبيه أنه وبعض أصحابه نسوا مكانها أن الناس متفاوتون في توسم الأمكنة واقتفاء الآثار.

والمروي أن الذي بنى مسجدا على مكان الشجرة أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي ولكن في المسجد المذكور حجر مكتوب فيه أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله ببناء هذا المسجد مسجد البيعة وأنه بنى سنة أربع وأربعين ومائتين، وهي توافق مدة المتوكل جعفر بن المعتصم وقد تخرب فجدده المستنصر العباسي سنة 629 ثم جدده السلطان محمود خان العثماني سنة 1254 وهو قائم إلى اليوم.

وذكر تحت الشجرة لاستحضار تلك الصورة تنويها بالمكان فإن لذكر مواضع الحوادث وأزمانها معاني تزيد السامع تصورا ولما في تلك الحوادث من ذكرى مثل مواقع الحروب والحوادث كقول عبد الله بن عباس ويوم الخميس وما يوم الخميس اشتد برسول الله صلى الله علي وسلم وجعه الحديث. ومواقع المصائب وأيامها.

و)إذ(ظرف يتعلق بفعل)رضي(، أي رضي الله عنهم في ذلك الحين. وهذر رضى خاص، أي تعلق رضى الله تعالى عنهم بتلك الحالة.

والفاء من قوله)فعلم ما في قلوبهم(ليست للتعقيب لأن علم الله بما في قلوبهم ليس عقب رضاه عنهم ولا عقب وقوع بيعتهم فتعين أن تكون فاء فصيحة تفصح عن كلام مقدر بعدها. والتقدير: فلما بايعوك علم ما في قلوبهم من الكآبة، ويجوز أن تكون الفاء لتفريع الأخبار بأن الله علم ما في قلوبهم بعد الإخبار برضى الله عنهم لما في الإخبار بعلمه ما في قلوبهم من إظهار عنايته بهم. ويجوز أن يكون المقصود من التفريع قوله)فأنزل السكينة عليهم(ويكون قوله)فعلم ما في قلوبهم(توطئة له على وجه الاعتراض.

والمعنى: لقد رضي الله عن المؤمنين من أجل مبايعتهم على نصرك فلما بايعوا وتحفزوا لقتال المشركين ووقع الصلح حصلت لهم كآبة في نفوسهم فأعلمهم الله أنه اطلع على ما في قلوبهم من تلك الكآبة، وهذا من علمه الأشياء بعد وقوعها وهو من تعلق علم الله بالحوادث بعد حدوثها، أي علمه بأنها وقعت وهو تعلق حادث مثل التعلقات التنجيزية.

والمقصود بإخبارهم بأن الله علم ما حصل في قلوبهم الكآبة عن أنه قدر ذلك لهم وشكرهم على حبهم نصر النبي صلى الله علي وسلم بالفعل ولذلك رتب عليه قوله)فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا(.

والسكينة هنا هي: الطمأنينة والثقة بتحقق ما وعدهم الله من الفتح والارتياض على ترقبه دون حسرة فترتب على علمه ما في قلوبهم

إنزاله السكينة عليهم، أي على قلوبهم فعبر بضميرهم عوضا عن ضمير)قلوبهم(لأن قلوبهم هي نفوسهم.
وعطف)أثابهم(على فعل)رضي الله(.
ومعنى أثابهم: أعطاهم ثوابا، أي عوضا، كما يقال في هبة الثواب، أي عوضهم عن المبايعة بفتح قريب. والمراد: أنه وعدهم بثواب هو فتح قريب ومغانم كثيرة، ففعل)أثابهم(مستعمل في المستقبل.
وهذا الفتح هو فتح خيبر فإنه كان خاصا بأهل الحديبية وكان قريبا من يوم البيعة بنحو شهر ونصف.
والمغانم الكثيرة المذكورة هنا هي: مغانم أرض خيبر والأنعام والمتاع والحوائط فوصفت ب)كثيرة(لتعدد أنواعها وهي أول المغانم التي كانت فيها الحوائط.
وفائدة وصف المغانم بجملة)يأخذونها(تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريبا وبشارة لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح.
وجملة)وكان الله عزيزا حكيما(معترضة، وهي مفيدة تذييل لجملة)وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها(لأن تيسير الفتح لهم وما حصل لهم فيه من المغانم الكثيرة من أثر عزة الله التي لا يتعاصى عليها شيء صعب، ومن أثر حكمته في ترتيب المسببات على أسبابها في حالة ليظن الرائي أنها لا تيسر فيها أمثالها.
)وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه(هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن قوله)وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها(إذ علم أنه فتح خيبر، فحق لهم ولغيرهم أن يخطر ببالهم أن يترقبوا مغانم أخرى فكان هذا الكلام جوابا لهم، أي لكم مغانم أخرى لا يحرم منها من تخلفوا عن الحديبية وهي المغانم التي حصلت في الفتوح المستقبلة.
فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين تبعا للخطاب الذي في قوله)إذ يبايعونك تحت الشجرة(وليس خاصا بالذين بايعوا.

والوعد بالمغانم الكثيرة واقع في ما سبق نزوله من القرآن وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وسلم مما بلغه إلى المسلمين في مقامات دعوته للجهاد.
ووصف)مغانم(بجملة)تأخذونها(لتحقيق الوعد.

وبناء على ما اخترناه من أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة يكون فعل)فعجل(مستعملا في الزمن المستقبل مجازا تنبيها على تحقيق وقوعه، أي سيعجل لكم هذه. وإنما جعل نوالهم غنائم خيبر تعجيلا، لقرب حصوله من وقت والوعد به. ويحتمل أن يكون تأخر نزول هذه الآية إلى ما بعد فتح خيبر على أنها تكملة لآية الوعد التي قبلها، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها عقبها وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام على أول هذه السورة ولكن هذا غير مروي.

والإشارة في قوله)هذه(إلى المغانم في قوله)ومغانم كثيرة يأخذونها(وأشير إليها على اختلاف الاعتبارين في استعمال فعل) فعجل لكم هذه(.

)وكف أيدي الناس عنكم(امتنان عليهم بنعمة غفلوا عنها حين حزنوا لوقوع صلح الحديبية وهي نعمة السلم، أي كف أيدي المشركين عنهم فإنهم لو واجهوهم يوم الحديبية بالقتال دون المراجعة في سبب قدومهم لرجع المسلمون بعد القتال متعبين. ولما تهيأ لهم فتح خيبر، وأنهم لو اقتتلوا مع أهل مكة لدحض في ذلك مؤمنون ومؤمنات كانوا في مكة كما أشار إليه قوله تعالى)ولولا رجال مؤمنون(الآية.

فالمراد ب)الناس(: أهل مكة جريا على مصطلح القرآن في إطلاق هذا اللفظ غالبا.

وقيل: المراد كف أيدي الإعراب المشركين من بني أسد وغطفان وكانوا أحلافا ليهود خيبر وجاءوا لنصرتهم لما حاصر المسلمون خيبر فألقى الله في قلوبهم الرعب فنكصوا.

وقيل: إن المشركين بعثوا أربعين رجلا ليصيبوا من المسلمين في الحديبية فأسرهم المسلمون، وهو ما سيجيء في قوله)وأيديكم عنهم(.

وقيل: كف أيدي اليهود عنكم، أي عن أهلكم وذراريكم إذ كانوا يستطيعون أن يهجموا على المدينة في مدة غيبة معظم أهلها في الحديبية، وهذا القول لا يناسبه إطلاق لفظ)الناس(في غالب مصطلح القرآن, والكف: منع الفاعل من فعل إرادة أو شرع فيه، وهو مشتق من اسم الكف التي هي اليد لأن أصل المنع أن يكون دفعا باليد، ويقال: كف يده عن كذا، إذا منعه من تناوله بيده.

وأطلق الكف هنا مجازا على الصرف، أي قدر الله كف أيدي الناس عنكم بأن أوجد أسباب صرفهم عن أن يتناولوكم بضر سواء نووه أو لم ينووه، وإطلاق الفعل على تقديره كثير في القرآن حين لا يكون للتعبير عن المعاني الإلهية فعل مناسب له في كلام العرب، فإن اللغة بينت على متعارف الناس مخاطباتهم وطرأت

معظم المعاني الإلهية بمجيء القرآن فتغير عن الشأن الإلهي بأقرب الأفعال إلى معناه.

)ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما[20](الظاهر أن الواو عاطفة وأن ما بعد الواو علة كما تقتضي لام كي فتعين أنه تعليل لشيء مما ذكر قبله في اللفظ أو عطف على تعليل سبقه.

فيجوز أن يكون معطوفا على بعض التعليلات المتقدمة من قوله) ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم(أو من قوله)ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات(وما بينهما اعتراضا وهو وإن طال فقد اقتضته التنقلات المتناسبات. والمعنى أن الله أنزل السكينة في قلوب المؤمنين لمصالح لهم منها ازدياد إيمانهم واستحقاقهم الجنة وتكفير سيئاتهم واستحقاق المنافقين والمشركين العذاب، ولتكون السكينة آية للمؤمنين، أي عبرة لهم واستدلالا على لطف الله بهم وعلى أن وعده لا تأويل فيه.

ومضى كون السكينة آية أنها سبب لأنهم لما نزلت السكينة في قلوبهم اطمأنت نفوسهم فخلصت إلى التدبر والاستدلال فبانت لها آيات الله فتأنيث ضمير الفعل لأن معاده السكينة.

ويجوز أن يكون معطوفا على تعليل محذوف يثار من الكلام السابق، حذف لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن في تقديره توفيرا للمعنى. والتقدير: فعجل لكم هذه لغايات وحكم لتكون آية. فهو من ذكر الخاص بعد العام المقدر.

فالتقدير مثلا: ليحصل التعجيل لكم بنفع عوضا عما ترقبتموه من منافع قتال المشركين، ولتكون هذه المغانم آية للمؤمنين منكم ومن يعرفون بها أنهم من الله بمكان عنايته وأنه موف لهم ما وعدهم وضامن لهم نصرهم الموعود كما ضمن لهم المغانم القريبة والنصر القريب. وتلك الآية تزيد المؤمنين قوة إيمان. وضمير)لتكون(على هذه راجع إلى قوله)هذه(على أنها المعللة. ويجوز أن يكون الضمير للخصال التي دل عليها مجموع قوله)فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم(فيكون معنى قوله)ولتكون آية للمؤمنين(لغايات جمة منها ما ذكر آنفا ومنها سلامة المسلمين في وقت هم أحوج فيه إلى استبقاء قوتهم منهم إلى قتال المشركين ادخارا للمستقبل.

وجعل صاحب الكشاف جملة)ولتكون آية للمؤمنين(معترضة، وعليه فالواو اعتراضية غير عاطفة وأن ضمير)لتكون(عائدا إلى المرة من فعل كف: أي الكفة.

وعطف عليه)ويهديكم صراطا مستقيما(وهو حكمة أخرى، أي ليزول بذلك ما خامركم من الكآبة والحزن فتتجرد نفوسكم لإدراك الخير المحض الذي في أمر الصلح وإحالتكم على الوعد فتوقنوا أن ذلك هو الحق فتزدادوا يقينا. ويجوز أن يكون فعل) ويهديكم(مستعملا في معنى الإدامة على الهدى وهو: الإيمان الحاصل لهم من قبل على حد قوله)يا أيها الذين آمنوا آمنوا(على أحد تأويلين.

)وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا(هذا من عطف الجملة على الجملة فقوله)أخرى(مبتدأ موصوف بجملة)لم تقدروا عليها(والخبر قوله)قد أحاط الله بها(.

ومجموع الجملة عطف على جملة)وعدكم الله مغانم كثيرة(فلفظ)أخرى(صفة لموصوف محذوف دل عليه)مغانم(الذي في الجملة قبلها، أي هي نوع آخر من المغانم صعبة المنال، ومعنى المغانم يقتضي غانمين فعلم أنها لهم، أي غير التي وعدهم الله بها، أي هذه لم يعدهم الله بها، ولم نجعل)وأخرى(عطفا على قوله) هذه(عطف المفرد على المفرد إذ ليس المراد غنيمة واحدة بل غنائم كثيرة.

ومعنى)لم تقدروا عليها(: أنها موصوفة بعدم قدرتكم عليها، فلما كانت جملة)لم تقدروا عليها(صفة ل)أخرى(لم يقتض مدلول الجملة أنهم حاولوا الحصول عليها فلم يقدروا، وإنما المعنى: أن صفتها عدم قدرتكم عليها فلم تتعلق أطماعكم بأخذها.

والإحاطة بالهمز: جعل الشيء حائطا أي حافظا، فأصل همزته للجعل وصار بالاستعمال قاصرا، ومعناه: احتوى عليه ولم يترك له منصرفا فول على شدة القدرة عليه قال تعالى)لتأتنني به إلا أن يحاط بكم(أي إلا أن تغلبوا غلبا لا تستطيعون معه الإتيان به.

فالمعنى: أن الله قدر عليها، أي قدر عليها فجعلها لكم بقرينة قوله قبله)لم تقدروا عليها(. والمعنى: ومغانم أخرى لم تقدروا على نيلها قد قدر الله عليها، أي فأنالكم إياها.

وإلا لم يكن لإعلامهم بأن الله قدر على ما لم يقدروا عليه جدوى لأنهم لا يجهلون ذلك، أي أحاط الله بها لأجلكم، وفي معنى الإحاطة إيماء إلى أنها كالشيء المحاط به من جوانبه فلا يفوتهم مكانه، جعلت كالمخبوء لهم.

ولذلك ذيل بقوله)وكان الله على كل شيء قديرا(إذ هو أمر مقرر في علمهم.

فعلم أن الآية أشارت إلى ثلاثة أنواع من المغانم: نوع من مغانم موعودة لهم قريبة الحصول وهي مغانم خيبر، ونوع هو مغانم مرجوة كثيرة غير معين وقت حصولها، ومنها مغانم يوم حنين وما بعده من الغزوات، ونوع هو مغانم عظيمة لا يخطر ببالهم نوالها قد أعدها الله للمسلمين ولعلها مغانم بلاد الروم وبلاد الفرس وبلاد البربر.

وفي الآية إيماء إلى أن هذا النوع الأخير لا يناله جميع المخاطبين لأنه لم يأت في ذكره بضميرهم، وهو الذي تأوله عمر في عدم قسمة سواد العراق وقرأ قوله تعالى)والذين جاءوا من بعدهم(.

)ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا[22] سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا[23](هذا عطف على قوله)وكف أيدي الناس عنكم(على أن بعضه متعلق بالمعطوف عليه، وبعضه معطوف على المعطوف عليه فما بينهما ليس من الاعتراض.

صفحة : 4073

والمقصود من هذا العطف التنبيه على أن كف أيدي الناس عنهم نعمة على المسلمين باستبقاء قوتهم وعدتهم ونشاطهم.

وليس الكف لدفع غلبة المشركين إياهم لأن الله قدر للمسلمين عاقبة النصر فلو قاتلهم الذين كفروا لهزمهم المسلمون ولم يجدوا نصيرا، أي لم ينتصروا بجمعهم ولا بمن يعينهم.

والمراد بالذين كفروا ما أريد بالناس في قوله)وكف أيدي الناس عنكم(. وكان مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الناس بأن يقال: ولو قاتلوكم، فعدل عنه إلى الاسم الظاهر لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو أن الكفر هو سبب توليه الإدبار في قتالهم للمسلمين تمهيدا لقوله)سنة الله التي قد خلت من قبل(.

و)الأدبار(منصوب على أنه مفعول ثان ل)ولوا(ومفعوله الأول محذوف لدلالة ضمير)قاتلكم الذين كفروا(عليه. والتقدير: لولوكم الأدبار.

و)ال(للعهد، أي أدبارهم، ولذلك يقول كثير من النحاة إن)ال(في مثله عوض عن المضاف إليه وهو تعويض معنوي.

والتولية: جعل الشيء واليا، أي لجعلوا ظهورهم تليكم، أي ارتدوا إلى ورائهم فصرتم وراءهم.

و)ثم(للتراخي الرتبي فإن عدم وجدان الولي والنصير أشد على المنهزم من انهزامه لأنه حين ينهزم قد يكون له أمل بأن يستنصر

من ينجده فيكر به على الذين هزموه فإذا لم يجد وليا ولا نصيرا تحقق أنه غير منتصر وأصل الكلام لولوا الأدبار وما وجدوا وليا ولا نصيرا.

والولي: الموالي والصديق، وهو أعم من النصير إذ قد يكون الولي غير قادر على إيواء وليه وإسعافه.

والسنة: الطريقة والعادة.

وانتصب)سنة الله(نيابة عن المفعول المطلق الأتي بدلا من فعله لإفادة معنى تأكيد الفعل المحذوف. والمعنى: سن الله ذلك سنة، أي جعله عادة له ينصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نية المؤمنين نصر دين الله كما قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم(وقال)ولينصرن الله من ينصره(، أي أن الله ضمن النصر للمؤمنين بأن تكون عاقبة حروبهم نصرا وإن كانوا قد يغلبون في بعض المواقع كما وقع يوم أحد وقد قال تعالى) والعاقبة للمتقين(وقال)والعاقبة للتقوى(.

وإنما يكون كمال النصر على حسب ضرورة المؤمنين وعلى حسب الإيمان والتقوى، ولذلك كان هذا الوعد غالبا للرسول ومن معه فيكون النصر تاما في حالة الخطر كما كان يوم بدر، ويكون سجالا في حالة السعة كما في وقعة أحد وقد دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض وقال الله تعالى)قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين(، ويكون لمن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم من جيوش المسلمين على حسب تمسكهم بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم.

ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم يأتي زمان يغزو فآم من الناس فقال: فيكم من صحب النبي? فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي? فيقال: نعم فيفتح ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب من صاحب النبي? فيقال: نعم فيفتح .

ومعنى)خلت(مضت وسبقت من أقدم عصور اجتلاد الحق والباطل، والمضاف إليه)قبل(محذوف نوي معناه دون لفظه، أي ليس في الكلام دال على لفظه ولكن يدل عليه معنى الكلام، فلذلك بني)قبل(على الضم.

وفائدة هذا الوصف الدلالة على اطرادها وثباتها.

والمعنى: أن ذلك سنة الله مع الرسل قال تعالى)كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز(.

ولما وصف تلك السنة بأنها راسخة فيما مضى أعقب ذلك بوصفها بالتحقق في المستقبل تعميما للأزمنة بقوله)ولن تجد لسنة الله تبديلا(لأن اطراد ذلك النصر في مختلف الأمم والعصور وإخبار الله تعالى به على لسان رسله وأنبيائه يدل على أن الله أراد تأييد أحزابه فيعلم أنه لا يستطيع كائن أن يحول دون إرادة الله تعالى.

)وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم وكان الله بما تعملون بصيرا[24](عطف على جملة)وكف أيدي الناس عنكم(وهذا كف غير الكف المراد من قوله)وكف أيدي الناس عنكم(.

صفحة : 4074

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة التخصيص، أي القصر، أي لم يكفهم عنكم ولا كفكم عنهم إلا الله تعالى، لا أنتم ولا هم فإنهم كانوا يريدون الشر بكم وأنتم حين أحطتم بهم كنتم تريدون قتلهم أو أسرهم فإن دواعي امتداد أيديهم إليكم وامتداد أيديكم إليهم متوفرة فلولا أن الله قدر موانع لهم ولكم لاشتبكتم في القتال، فكف أيديهم عنكم بأن نبهكم إليهم قبل أن يفاجئوكم وكف أيديكم عنهم حين أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعفو عنهم ويطلقهم.

وتقدم الكلام على معنى)كف(في قوله آنفا)وكف أيدي الناس عنكم(.

والمعنى: أنه لم يترك أحد من الفريقين الاعتداء على الفريق الآخر من تلقاء نفسه ولكن ذلك كان بأسباب أوجدها الله تعالى لإرادته عدم القتال بينهم، وهي منة ثانية مثل المنة المذكورة في قوله) وكف أيدي الناس عنكم(.

وهذه الآية أشارت إلى كف عن القتال يسره الله رفقا بالمسلمين وإبقاء على قوتهم في وقت حاجتهم إلى ذلك بعد وقعة بدر ووقعة أحد، واتفق المفسرون الأولون على أن هذا الكف وقع في الحديبية. وهذا يشير إلى ما روي من طرق مختلفة وبعضها في سنن الترمذي وقال: هو حديث صحيح، وفي بعضها زيادة على بعض أن جمعا من المشركين يقدر بستة أو باثني عشر أو بثلاثين أو سبعين أو ثمانين مسلحين نزلوا إلى الحديبية يريدون أن يأخذوا المسلمين على غرة ففطن لهم المسلمون فأخذوهم دون حرب النبي صلى الله عليه وسلم بإطلاقهم وكان ذلك أيام كان السفراء يمشون بين

النبي صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أطلقهم تجنبا لما يعكر صفو الصلح.

وضمائر الغيبة راجعة للذين كفروا في قوله)ولو قاتلكم الذين كفروا(ووجه عوده إليه مع أن الذين كف الله أيديهم فريق غير الفريق الذي في قوله)ولو قاتلكم الذين كفروا(هو أن عرف كلام العرب جار على أن ما يصدر من بعض القوم ينسب إلى القوم بدون تمييز كما تقدم في سورة البقرة في قوله)وإذ أخذنا ميثاقكم(.

وقوله)ببطن مكة(ظاهر كلام الأساس: أن حقيقة البطن جوف الإنسان والحيوان وأن استعماله في معاني المنخفض من الشيء أو المتوسط مجاز، قال الراغب: ويقال للجهة السفلى بطن، وللعليا ظهر. ويقال: بطن الوادي لوسطه. والمعروف من إطلاق لفظ البطن إذا أضيف إلى المكان أن يراد به وسط المكان كما في قول كعب بن زهير:

في فتية من قريش قال قائلهم

ببطن مكة لما أسلموا زولوا أي في وسط البلد الحرام فان قائل: زولوا، هو عمر بن الخطاب أو حمزة بن عبد المطلب، غير أن محمل ذلك في هذه الآية غير بين لأنه لا يعرف وقوع اختلاط بين المسلمين والمشركين في وسط مكة يفضي إلى القتال حتى يمتن عليهم بكف أيدي بعضهم عن بعض وكل ما وقع مما يفضي إلى القتال فإنما وقع في الحديبية.

فجمهور المفسرين حملوا بطن مكة في الآية على الحديبية من إطلاق البطن على أسفل المكان، والحديبية قريبة من مكة وهي من الحل وبعض أرضها من الحرم وهي على الطريق بين مكة وجدة وهي إلى مكة أقرب وتعرف اليوم باسم الشميسي، وجعلوا الآية تشير إلى القصة المذكورة في جامع الترمذي وغيره بروايات مختلفة وهي ما قدمناه آنفا. ومنهم من زاد في تلك القصة: أن جيش المسلمين اتبعوا العدو إلى أن دخلوا بيوت مكة وقتلوا منهم وأسروا فيكون بطن مكة محمولا على مشهور استعماله، وهذا خبر مضطرب ومناف لظاهر قوله)كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم(. ومنهم من أبعد المحمل فجعل الآية نازلة في فتح مكة وهذا لا يناسب سياق السورة ويخالف كلام السلف من المفسرين وهم أعلم بالمقصود، هذا كله بناء على أن الباء في قوله)ببطن مكة(متعلقة بفعل) كف(، أي كان الكف في بطن مكة.

ويجوز عندي أن يكون)ببطن مكة(ظرفا مستقرا هو حال من ضميري)عنكم(و)عنهم(وهو حال مقدرة، أي لو كنتم ببطن مكة، أي لو لم يقع الصلح فدخلتم محاربين كما رغب المسلمون الذين

كرهوا الصلح كما تقدم فيكون إطلاق)بطن مكة(جاريا على الاستعمال الشائع، أي في وسط مدينة مكة.

صفحة : 4075

ولهذا أوثرت مادة الظفر في قوله)من بعد أن أظفركم عليهم(دون أن يقال: من بعد أن نصركم عليهم، لأن الظفر هو الفوز بالمطلوب فلا يقتضي وجود قتال فالظفر أعم من النصر، أي من بعد أن أنالكم ما فيه نفعكم وهو هدنة الصلح وأن تعودوا إلى العمرة في العام القابل.
ومناسبة تعريف ذلك المكان بهذه الإضافة الإشارة إلى أن جمع المشركين نزلوا من أرض الحرم المكي إذ نزلوا من جبل التنعيم وهو من الحرم وكانوا أنصارا لأهل مكة.
ويتعلق قوله)من بعد أن أظفركم عليهم(بفعل)كف(باعتبار تعديته إلى المعطوف على مفعوله، أعني:)وأيديكم عنهم(لأنه هو الكف الذي حصل بعد ظفر المسلمين بفئة المشركين على حسب تلك الرواية والقرينة ظاهرة من قوله)من بعد أن أظفركم عليهم(. وهذا إشارة إلى أن كف أيدي بعضهم عن بعض كان للمسلمين إذ منوا على العدو بعد التمكن منه.
فعدي)أظفركم(ب)على(لتضمينه معنى أيدكم وإلا فحقه أن يعدى بالباء.
وجملة)وكان الله بما تعملون بصيرا(تذييل للتي قبلها، والبصير بمعنى العليم بالمرئيات، أي عليما بعملكم حين أحطتم بهم وسقتموهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم تظنون أنكم قاتلوهم أو آسروهم.
وقرأ الجمهور)تعملون(بتاء الخطاب، وقرأه أبو عمرو وحده بياء الغيبة، أي عليما بما يعملون من انحدارهم على غرة منكم طامعين أن يتمكنوا من أن يغلبوكم وفي كلتا القراءتين اكتفاء، أي كان الله بما تعملون ويعملون بصيرا، أو بما يعملون وتعملون بصيرا، لأن قوله)كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم(يفيد عملا لكل فريق، أي علم نواياكم فكفها لحكمة استبقاء قوتكم وحسن سمعتكم بين قبائل العرب وأن لا يجد المشركون ذريعة إلى التظلم منكم بالباطل.
)هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله(استئناف انتقل به من مقام الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اكتسبوا بتلك البيعة من رضى الله تعالى وجزائه ثواب الآخرة. وخير الدنيا عاجله وآجله،

وضمان النصر لهم في قتال المشركين، وما هيأ لهم من أسباب النصر إلى تعيير المشركين بالمذمة التي أتوا بها وهي المسلمين عن المسجد الحرام وصد الهدي عن أن يبلغ به إلى أهله، فإنها سبة لهم بين العرب وهم أولى الناس بالحفاوة بمن يعتمرون، وهم يزعمون أنهم أهل حرم الله زواره ومعظميه، وقد كان من عادتهم قبول كل زائر للكعبة من جميع أهل الأديان، فلا عذر لهم في منع المسلمين ولكنهم حملتهم عليه الحمية.

وضمير الغيبة المفتتح به عائد إلى)الذين كفروا(من قوله)ولو قاتلوكم الذين كفروا لولوا الأدبار(الآية.

والمقصود بالافتتاح بضميرهم هنا لاسترعاء السمع لما يرد بعده من الخبر كما إذا جره حديث عن بطل في يوم من أيام العرب ثم قال قائل عثرة هو البطن المحامي.

والمقصود من الصلة هو جملة)صدوكم عن المسجد الحرام(وذكر)الذين كفروا(إدماج للنداء عليهم بوصف الكفر. ولهذا الإدماج نكتة أيضا، وهي أن وصف الذين كفروا بمنزلة الجنس صار الموصول في قوة المعرف بلام الجنس فتفيد جملة)هم الذين كفروا(قصر جنس الكفر على هذا الضمير لقصد المبالغة لكمالهم في الكفر بصدهم المعتمرين عن المسجد الحرام وصد الهدي عن أن يبلغ محله.

والهدي: ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، وهو من التسمية باسم المصدر ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع كحكم المصدر قال تعالى)والهدي والقلائد(أي الأنعام المهدية وقلائدها وهو هنا الجمع.

والمعكوف: اسم مفعول عكفه، إذ ألزمه المكت في مكان، يقال: عكفه فعكف فيستعمل قاصرا ومتعديا عن ابن سيده وغيره كما يقال: رجعه فرجع وجبره فجبر. وقال أبو علي الفارسي: لا أعرف عكف متعديا، وتأول صيغة المفعول في قوله تعالى)معكوفا(على أنها لتضمين عكف معنى حبس.

وفائدة ذكر هذا الحال التشنيع على الذين كفروا في صدهم المسلمين عن البيت بأنهم صدوا الهدايا أن تبلغ محلها حيث اضطر المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية فقد عطلوا بفعلهم ذلك شعيرة من شعائر الله، ففي ذكر الحال تصوير لهيئة الهدايا وهي محبوسة.

ولهذا أوثرت مادة الظفر في قوله)من بعد أن أظفركم عليهم(دون أن يقال: من بعد أن نصركم عليهم، لأن الظفر هو

الفوز بالمطلوب فلا يقتضي وجود قتال فالظفر أعم من النصر، أي من بعد أن أنالكم ما فيه نفعكم وهو هدنة الصلح وأن تعودوا إلى العمرة في العام القابل.

ومناسبة تعريف ذلك المكان بهذه الإضافة الإشارة إلى أن جمع المشركين نزلوا من أرض الحرم المكي إذ نزلوا من جبل التنعيم وهو من الحرم وكانوا أنصارا لأهل مكة.

ويتعلق قوله)من بعد أن أظفركم عليهم(بفعل)كف(باعتبار تعديته إلى المعطوف على مفعوله، أعني:)وأيديكم عنهم(لأنه هو الكف الذي حصل بعد ظفر المسلمين بفئة المشركين على حسب تلك الرواية والقرينة ظاهرة من قوله)من بعد أن أظفركم عليهم(. وهذا إشارة إلى أن كف أيدي بعضهم عن بعض كان للمسلمين إذ منوا على العدو بعد التمكن منه.

فعدي)أظفركم(ب)على(لتضمينه معنى أيدكم وإلا فحقه أن يعدى بالباء.

وجملة)وكان الله بما تعملون بصيرا(تذييل للتي قبلها، والبصير بمعنى العليم بالمرئيات، أي عليما بعملكم حين أحطتم بهم وسقتموهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم تظنون أنكم قاتلوهم أو آسروهم.

وقرأ الجمهور)تعملون(بتاء الخطاب، وقرأه أبو عمرو وحده بياء الغيبة، أي عليما بما يعملون من انحدارهم على غرة منكم طامعين أن يتمكنوا من أن يغلبوكم وفي كلتا القراءتين اكتفاء، أي كان الله بما تعملون ويعملون بصيرا، أو بما يعملون وتعملون بصيرا، لأن قوله)كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم(يفيد عملا لكل فريق، أي علم نواياكم فكفها لحكمة استبقاء قوتكم وحسن سمعتكم بين قبائل العرب وأن لا يجد المشركون ذريعة إلى التظلم منكم بالباطل.

)هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله(استئناف انتقل به من مقام الثناء على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اكتسبوا بتلك البيعة من رضى الله تعالى وجزائه ثواب الآخرة. وخير الدنيا عاجله وآجله، وضمان النصر لهم في قتال المشركين، وما هيأ لهم من أسباب النصر إلى تعيير المشركين بالمذمة التي أتوا بها وهي المسلمين عن المسجد الحرام وصد الهدي عن أن يبلغ به إلى أهله، فإنها سبة لهم بين العرب وهم أولى الناس بالحفاوة بمن يعتمرون، وهم يزعمون أنهم أهل حرم الله زواره ومعظميه، وقد كان من عادتهم قبول كل زائر للكعبة من جميع أهل الأديان، فلا عذر لهم في منع المسلمين ولكنهم حملتهم عليه الحمية.

وضمير الغيبة المفتتح به عائد إلى)الذين كفروا(من قوله)ولو قاتلوكم الذين كفروا لولوا الأدبار(الآية.
والمقصود بالافتتاح بضميرهم هنا لاسترعاء السمع لما يرد بعده من الخبر كما إذا جره حديث عن بطل في يوم من أيام العرب ثم قال قائل عثرة هو البطن المحامي.
والمقصود من الصلة هو جملة)صدوكم عن المسجد الحرام(وذكر)الذين كفروا(إدماج للنداء عليهم بوصف الكفر. ولهذا الإدماج نكتة أيضا، وهي أن وصف الذين كفروا بمنزلة الجنس صار الموصول في قوة المعرف بلام الجنس فتفيد جملة)هم الذين كفروا(قصر جنس الكفر على هذا الضمير لقصد المبالغة لكمالهم في الكفر بصدهم المعتمرين عن المسجد الحرام وصد الهدي عن أن يبلغ محله.
والهدي: ما يهدى إلى الكعبة من الأنعام، وهو من التسمية باسم المصدر ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع كحكم المصدر قال تعالى)والهدي والقلائد(أي الأنعام المهدية وقلائدها وهو هنا الجمع.
والمعكوف: اسم مفعول عكفه، إذ ألزمه المكث في مكان، يقال: عكفه فعكف فيستعمل قاصرا ومتعديا عن ابن سيده وغيره كما يقال: رجعه فرجع وجبره فجبر. وقال أبو علي الفارسي: لا أعرف عكف متعديا، وتأول صيغة المفعول في قوله تعالى)معكوفا(على أنها لتضمين عكف معنى حبس.
وفائدة ذكر هذا الحال التشنيع على الذين كفروا في صدهم المسلمين عن البيت بأنهم صدوا الهدايا أن تبلغ محلها حيث اضطر المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية فقد عطلوا بفعلهم ذلك شعيرة من شعائر الله، ففي ذكر الحال تصوير لهيئة الهدايا وهي محبوسة.

ومعنى صدهم الهدي: أنهم صدوا أهل الهدي عن الوصول إلى المنحر من منى. وليس المراد: أنهم صدوا الهدايا مباشرة لأنه لم ينقل أن المسلمين عرضوا على المشركين تخلية من يذهب بهداياهم إلى مكة لتنحر بها.
وقوله)أن يبلغ محله(أن يكون بدل اشتمال من)الهدي(ويجوز أن يكون معمولا لحرف جر محذوف وهو)عن(، أي عن أن يبلغ محله.
والمحل بكسر الحاء: محل الحل مشتق من فعل حل ضد حرم، أي المكان الذي يحل فيه نحر الهدي، وهو الذي لا يجزئ غيره، وذلك بمكة بالمروة بالنسبة للمعتمر، ولذلك لما أحصروا أمرهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحروا هديهم في مكانهم إذ تعذر إبلاغه إلى مكة لأن المشركين منعوهم من ذلك. ولم يثبت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بتوخي جهة معينة للنحر من أرض الحديبية، وذلك من سماحة الدين فلا طائل من وراء الخوض في اشتراط النحر في أرض الحرم للمحصر.

)ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما[25](أتبع النعي على المشركين سوء فعلهم من الكفر والصد عن المسجد الحرام وتعطيل شعائر الله وعده المسلمين بفتح قريب ومغانم كثيرة، بما يدفع غرور المشركين بقوتهم، ويسكن تطلع المسلمين لتعجيل الفتح، فبين أن الله كف أيدي المسلمين عن المشركين مع ما قرره آنفا من قوله)ولو قاتلوكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا(أنه إنما لم يأمر المسلمين بقتال عدوهم لما صدوهم عن البيت لأنه أراد رحمة جمع من المؤمنين والمؤمنات كانوا في خلال أهل الشرك لا يعلمونهم، وعصم المسلمين من الوقوع في مصائب من جراء إتلاف إخوانهم، فالجملة معطوفة على جملة)ولو قاتلوكم الذين كفروا لولوا الأدبار(أو على جملة)وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم(الخ. وأياما كان فهي كلام معترض بين جملة)هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام(الخ وبين جملة)إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية(.

ونظم هذه الآية بديع في أسلوبي الإطناب والإيجاز والتفنن في الانتقال ورشاقة كلماته.

و)لولا(دالة على امتناع لوجود، أي امتنع تعذيبنا الكافرين لأجل وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات بينهم. وما بعد)لولا(مبتدأ وخبره محذوف على الطريقة المستعملة في حذفه مع)لولا(إذا كان تعليق امتناع جوابها على وجود شرطها وجودا مطلقا غير مقيد بحال، فالتقدير: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات موجودون، كما يدل عليه قوله بعده)لو تزيلوا(، أي لو لم يكونوا موجودين بينهم، أي أن وجود هؤلاء هو الذي لأجله امتنع حصول مضمون جواب)لولا(.

وإجراء الوصف على رجال ونساء بالإيمان مشير إلى أن وجودهم المانع من حصول مضمون الجواب هو الوجود الموصوف بإيمان أصحابه، ولكن الامتناع ليس معلقا على وجود الإيمان بل على وجود ذوات المؤمنين والمؤمنات بينهم.

وكذلك قوله)لم تعلموهم(ليس هو خبرا بل وصفا ثانيا إذ ليس محط الفائدة.

ووجه عطف)نساء مؤمنات(مع أن وجود)رجال مؤمنون(كاف في ربط امتناع الجواب بالشرط ومع التمكن من أن يقول: ولولا المؤمنون، فإن جمع المذكر في اصطلاح القرآن يتناول النساء غالبا، أن تخصيص النساء بالذكر أنسب بمعنى انتفاع المعرة بقتلهن وبمعنى تعلق رحمة الله بهن.
ومعنى)لم تعلموهم(لم تعملوا إيمانهم إذ كانوا قد آمنوا بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم مهاجرا.

صفحة : 4077

فعن جنبذ بجيم مضمومة ونون ساكنة وموحدة مضمومة وذال معجمة بن سبع بسين مهملة مفتوحة وموحدة مضمومة ، ويقال: سباع بكسر السين يقال: إنه أنصاري، ويقال: قاري صحابي قال: هم سبعة رجال سمي منهم الوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وأبو جندل ابن سهيل، وأبو بصير القرشي ولم أقف على اسم السابع وعدت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، وأحسب أن ثانيتهما أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط التي لحقت بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع إلى المدينة. وعن حجر بن خلف: ثلاثة رجال وتسع نسوة، ولفظ الآية يقتضي أن النساء أكثر من اثنتين. والظاهر أن المراد بقوله)لم تعلموهم(ما يشمل معنى نفي معرفة أشخاصهم ومعنى نفي العلم بما في قلوبهم، فيفيد الأول أنهم لا يعلمهم كثير منكم ممن كان في الحديبية من أهل المدينة ومن معهم من الأعراب فهم لا يعرفون أشخاصهم فلا يعرفون من كان منهم مؤمنا وإن كان يعرفهم المهاجرون، ويفيد الثاني أنهم لا يعلمون ما في قلوبهم من الإيمان أو ما أحدثوه بعد مفارقتهم من الإيمان، أي لا يعلم ذلك كله الجيش من المهاجرين والأنصار.
و)أن تطئوهم(بدل اشتمال من)رجال(ومطوفه، أو من الضمير المنصوب في)لم تعلموهم(أي لولا أن تطئوهم.
والوطء: الدوس بالرجل، ويستعار للإبادة والإهلاك، وقد جمعهما الحارث بن وعلة الذهلي في قوله:
ووطئتنا وطأ على حنق وطء المقيد نابت الهرم والإصابة: لحاق ما يصيب.
و)من(في قوله)منهم(للابتداء المجازي الراجع إلى معنى التسبب، أي فتلحقكم من جرائهم ومن أجلهم معرة كنتم تتقون لحاقها لو كنتم تعلمونهم.

والمعرة: مصدر ميمي من عره، إذا دهاه، أي أصابه بما يكرهه ويشق عليه من ضر أو غرم أو سوء قالة، فهي هنا تجمع ما يلحقهم إذا ألحقوا أضرارا بالمسلمين من ديات قتلى، وغرم أضرار، ومن إثم يلحق القاتلين إذا لم يتثبتوا فيمن يقتلونه، ومن سوء قالة يقولها المشركون ويشيعونها في القبائل أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم ينج أهل دينهم من ضرهم ليكرهوا العرب في الإسلام وأهله.

والباء في)بغير علم(للملابسة، أي ملابسين لانتفاء العلم. والمجرور بها متعلق ب)تصيبكم(، أي فتلحقكم من جرائهم مكارة لا تعلمونها حتى تقعوا فيها.

وهذا نفي علم آخر غير العلم المنفي في قوله)لم تعلموهم(لأن العلم المنفي في قوله)لم تعلموهم(هو العلم بأنهم مؤمنون بالذي انتفاؤه سبب إهلاك غير المعلومين الذي تسبب عليه لحاق المعرة. والعلم المنفي ثانيا في قوله)بغير علم(هو العلم بلحاق المعرة من وطأتهم التابع لعدم العلم بإيمان القوم المهلكين وهو العلم الذي انتفاؤه يكون سببا في الإقدام على إهلاكهم.

واللام في قوله)ليدخل الله في رحمته من يشاء(للتعليل والمعلل واقع لا مفروض، فهو وجود شرط)لولا(الذي تسبب عليه امتناع جوابها فالمعلل هو ربط الجواب بالشرط، أي لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لعذبنا الذين كفروا وأن هذا الربط لأجل رحمة الله من يشاء من عباده إذ رحم بهذا الامتناع جيش المسلمين بأن سلمهم من معرة تلحقهم وأن أبقى لهم قوتهم في النفوس والعدة إلى أمد معلوم، ورحم المؤمنين والمؤمنات بنجاتهم من الإهلاك، ورحم المشركين بأن استبقاهم لعلهم يسلمون أو يسلم أكثرهم كما حصل بعد فتح مكة، ورحم من أسلموا منهم بعد ذلك بثواب الآخرة، فالرحمة هنا شاملة لرحمة الدنيا ورحمة الآخرة.

و)من يشاء(يعم كل من أراد الله من هذه الحالة رحمته في الدنيا والآخرة أو فيهما معا.

وعبر ب)من يشاء(لما فيه من شمول أصناف كثيرة ولما فيه من الإيجاز ولما فيه من الإشارة إلى الحكمة التي اقتضت مشيئة الله رحمة أولئك.

وجواب)لولا(يجوز اعتباره محذوفا دل عليه جواب)لو(المعطوفة على)لولا(في قوله)لو تزيلوا(، ويجوز اعتبار جواب)لو(مرتبطا على وجه تشبيه التنازع بين شرطي)لولا(و)لو(لمرجع الشرطين إلى معنى واحد وهو الامتناع فإن)لولا(حرف امتناع لوجود أي تدل على امتناع جوابها لوجود شرطها.

و)لو(حرف امتناع لامتناع، أي تدل على امتناع جوابها لامتناع شرطها فحكم جوابيهما واحد، وهو الامتناع، وإنما يختلف شرطاهما فشرط)لو(منتف وشرط)لولا(مثبت.

صفحة : 4078

وضمير)تزيلوا(عائد إلى ما دل عليه قوله)ولولا رجال مؤمنون(الخ من جمع مختلط فيه المؤمنون والمؤمنات مع المشركين كما دل عليه قوله)لم تعلموهم(.
والتزيل: مطاوع زيله إذا أبعده عن مكان، وزيلهم، أي أبعد بعضهم عن بعض، أي فرقهم قال تعالى)فزيلنا بينهم(وهو هنا بمعنى التفرق والتميز من غير مراعاة مطاوعة لفعل فاعل لأن أفعال المطاوعة كثيرا ما تطلق لإرادة المبالغة لدلالة زيادة المبنى على زيادة المعنى وذلك أصل من أصول اللغة.
والمعنى: لو تفرق المؤمنون والمؤمنات عن أهل الشرك لسلطنا المسلمين على المشركين فعذبوا الذين كفروا عذاب السيف.
فإسناد التعذيب إلى الله تعالى لأنه يأمر به ويقدر النصر للمسلمين كما قال تعالى)قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم(في سورة براءة.
و)من(في قوله)منهم(للتبعيض، أي لعذبنا الذين كفروا من ذلك الجمع المتفرق المتميز مؤمنهم عن كافرهم، أي حين يصير الجمع مشركين خلصا وحدهم.
وجملة)لو تزيلوا(إلى آخرها بيان لجملة)ولولا رجال مؤمنون(إلى آخرها، أي لولا وجود رجال مؤمنين الخ مندمجين في جماعة المشركين غير مفترقين لو افترقوا لعذبنا الكافرين منهم.
وعدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله)لعذبنا الذين كفروا(على طريقة الالتفات.
)إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما[26](ظرف متعلق بفعل)صدوكم(أي صدوكم صدا لا عذر لهم فيه ولا داعي إليه إلا حمية الجاهلية، وإلا فإن المؤمنين جاءوا مسالمين معظمين حرمة الكعبة سائقين الهدايا لنفع أهل الحرم فليس من الرشد أن يمنعوا عن العمرة ولكن حمية الجاهلية غطت على عقولهم فصمموا على منع المسلمين، ثم آل النزاع بين الطائفتين إلى المصالحة على أن يرجع المسلمون هذا العام وعلى أن المشركين يمكنوهم من العمرة في

القابل وأن العامين سواء عندهم ولكنهم أرادوا التشفي لما في قلوبهم من الإحن على المسلمين.
فكان تعليق هذا الظرف بفعل)وصدوكم(مشعرا بتعليل الصد بكونه حمية الجاهلية ليفيد أن الحمية متمكنة منهم تظهر منها آثارها فمنها الصد عن المسجد الحرام.
والحمية: الأنفة، أي الاستنكاف من أمر لأنه يراه غضاضة عليه وأكثر إطلاق ذلك على استكبار لا موجب له فإن كان لموجب فهو إباء الضيم.
ولما كان صدهم الناس عن زيارة البيت بلا حق لأن البيت بيت الله لا بيتهم كان داعي المنع مجرد الحمية قال تعالى)وما كانوا أولياءه(. و)جعل(بمعنى وضع، كقول الحريري في المقامة الأخيرة اجعل الموت نصب عينيك ، وقول الشاعر:
وإثمد يجعل في العين وضمير)جعل(يجوز أن يكون عائدا إلى اسم الجلالة في قوله)ليدخل الله في رحمته(من قوله)لعذبنا الذين كفروا(والعدول عن ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة التفات.
و)الذين كفروا(مفعول أول ل)جعل(. و)الحمية(بدل اشتمال من)الذين كفروا(، و)في قلوبهم(في محل المفعول الثاني ل)جعل(، أي تخلقوا بالحمية فهي دافعة بهم إلى أفعالهم لا يراعون مصلحة ولا مفسدة فكذلك حين صدوكم عن المسجد الحرام.
و)في قلوبهم(متعلق ب)جعل(، أي وضع الحمية في قلوبهم.
وقوله)حمية الجاهلية(عطف بيان للحمية قصد من إجماله ثم تفصيله تقرير مدلوله وتأكيده ما يحصل لو قال)إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم حمية الجاهلية(.
وإضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها فإنها من خلق أهل الجاهلية فإن ذلك انتساب ذم في اصطلاح القرآن كقوله) يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية(وقوله)أفحكم الجاهلية يبغون(.
ويعكس ذلك إضافة السكينة إلى ضمير الله تعالى إضافة تشريف لأن السكينة من الأخلاق الفاضلة فهي موهبة إلهية.
وتفريع)فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين(، على)إذ جعل الذين كفروا(، يؤذن بأن المؤمنين ودوا أن يقاتلوا المشركين وأن يدخلوا مكة للعمرة عنوة غضبا من صدهم عنها ولكن الله أنزل عليهم السكينة.

والمرد بالسكينة: الثبات والأناة، أي جعل في قلوبهم التأني وصرف عنهم العجلة، فعصمهم من مقابلة الحمية بالغضب والانتقام فقابلوا الحمية بالتعقل والتثبت فكان في ذلك خير كثير.

وفي هذه الآية من النكت المعنوية مقابلة)جعل(ب)أنزل(في قوله)إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية(وقوله)فأنزل الله سكينته(فدل على شرف السكينة على الحمية لأن الإنزال تخييل للرفعة وإضافة الحمية إلى الجاهلية، وإضافة السكينة إلى اسم ذاته.

وعطف على إنزال الله سكينته)ألزمهم كلمة التقوى(، أي جعل كلمة التقوى لازمة لهم لا يفارقونها، أي قرن بينهم وبين كلمة التقوى ليكون ذلك مقابل قوله)وصدوكم عن المسجد الحرام(فإنه لما ربط صدهم المسلمين عن المسجد الحرام بالظرف في قوله)إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية(ربطا يفيد التعليل كما قدمناه آنفا ربط ملازمة المسلمين كلمة التقوى بإنزال السكينة في قلوبهم، ليكون إنزال السكينة في قلوبهم، وهو ظامر باطني، مؤثرا فيهم عملا ظاهريا وهو ملازمتهم كلمة التقوى كما كانت حمية الجاهلية هي التي دفعت الذين كفروا إلى صد المسلمين عن المسجد الحرام.

وضمير النصب في)وألزمهم(عائد إلى)المؤمنين(لأنهم هم الذين عوض الله غضبهم بالسكينة ولم يكن رسول الله مفارقا السكينة من قبل.

و)كلمة التقوى(إن حملت على ظاهر معنى)كلمة(كانت من قبيل الألفاظ وإطلاق الكلمة على الكلام شائع، قال تعالى)إنها كلمة هو قائلها(ففسرت الكلمة هنا بأنها قول: لا إله إلا الله. وروي هذا عن أبي كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي، وقال: هو حديث غريب. قلت: في سنده: ثوير، ويقال: ثور بن أبي فاختة قال فيه الدارقطني: هو متروك، وقال أبو حاتم: هو ضعيف. وروى ابن مردوية عن أبي هريرة وسلمة بن الأكوع مثله مرفوعا وكلها ضعيفة الأسانيد. وروي تفسيرها بذلك عند عدد كثير من الصحابة. ومعنى إلزامه إياهم كلمة التقوى: أنه قدر لهم الثبات عليها قولا بلفظها وعملا بمدلولها إذ فائدة الكلام حصول معناه، فإطلاق)الكلمة(هنا كإطلاقة في قوله تعالى)وجعلها كلمة باقية في عقبه(يعني بها قول إبراهيم لأبيه وقومه)إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين(.

وإضافة)كلمة(إلى)التقوى(على هذا التفسير إضافة حقيقية. ومعنى إضافتها: أن كلمة الشهادة أصل التقوى فان أساس التقوى اجتناب عبادة الأصنام، ثم تتفرع على ذلك شعب التقوى كلها.

ورويت أقوال أخرى في تفسير)كلمة التقوى(بمعنى كلام آخر من الكلم الطيب وهي تفاسير لا تلائم سياق الكلام ولا نظمه. ويجوز أن تحتمل)كلمة(على غير ظاهر معناها فتكون مقحمة وتكون إضافتها إلى التقوى إضافة بيانية، أي كلمة هي التقوى، ويكون المعنى: وألزمهم التقوى على حد إقحام لفظ اسم في قول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومنه قوله تعالى)تبارك اسم ربك(على أحد التفسيرين فيه. ويدخل في التقوى ابتداء توحيد الله تعالى.

ويجوز أن يكون لفظ)كلمة(مطلقا على حقيقة الشيء. وجماع معناه كإطلاق الاسم في قول النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي إلى غرائب الأشعـار ويؤيد هذا الوجه ما نقل عن مجاهد أنه قال: كلمة التقوى: الإخلاص. فجعل)الكلمة(معنى من التقوى. فالمعنى على هذين الوجهين الأخيرين: أنهم تخلقوا بالتقوى لا يفارقونها فاستعير الإلزام لدوام المقارنة. وهذان الوجهان لا يعارضان تفسير كلمة)التقوى(بكلمة)الشهادة(المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يكون ذلك تفسيرا بجزئي من التقوى هو أهم جزئياتها، أي تفسير مثال.

وعن الحسن: أن كلمة)التقوى(الوفاء بالعهد، فيكون الإلزام على هذا بمعنى الإيجاب، أي أمرهم بأن يفوا بما عاهدوا عليه للمشركين ولا ينقضوا عهدهم، فلذلك لم ينقض المسلمون العهد حتى كان المشركون هم الذين ابتدأوا بنقضه.

والواو في)وكانوا أحق بها(واو الحال، والجملة حال من الضمير المنصوب، أي ألزمهم تلك الكلمة في حال كانوا فيه أحق بها وأهلها ممن لم يلزموها وهم الذين لم يقبلوا التوحيد على نحو قوله تعالى)وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله(.

صفحة : 4080

وجيء بفعل كانوا لدلالتها على أن هذه الأحقية راسخة فيهم حاصلة في الزمن الماضي، أي في قدر الله تعالى.

والمعنى: أن نفوس المؤمنين كانت متهيئة لقبول كلمة التقوى والتزامها بما أرشدها الله إليه.

والمفضل عليه مقدر دل عليه ما تقدم، أي أحق بها من الذين كفروا والذين جعل الله في قلوبهم الحمية لأن الله قدر لهم الاستعداد للإيمان دون الذين أصروا على الكفر.

وأهل الشيء مستحقه، والمعنى أنهم كانوا أهل كلمة التقوى لأنها تناسب ضمائرهم وما انطوت عليه قلوبهم.

وهذه الأهلية مثل الأحقية متفاوتة في الناس وكلما اهتدى أحد من المشركين إلى الإسلام دل اهتداؤه على أنه حصلت له هذه الأهلية للأسلام.

وجملة)وكان الله بكل شيء عليما(تذييل، أي وسبق في علم الله ذلك في عموم ما أحاط به علم الله من الأشياء مجرى تكوينه على نحو علمه.

)لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا[27](استئناف بياني ناشئ عن قوله)فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين(ودحض ما خامر نفوس فريق من الفشل أو الشك أو التحير وتبيين ما أنعم الله به على أهل بيعة الرضوان من ثواب الدنيا والآخرة إلى كشف شبهة عرضت للقوم في رؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا قبل خروجه إلى الحديبية، أو وهو في الحديبية: كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وحلقوا وقصروا. هكذا كانت الرؤيا مجملة ليس فيها وقوع حج ولا عمرة، والحلاق والتقصير مناسب لكليهما.

وقص رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤياه على أصحابه فاستبشروا بها وعبروها أنهم داخلون إلى مكة بعمرتهم التي خرجوا لأجلها، فلما جرى الصلح وتأهب الناس إلى القفول أثار بعض المنافقين ذكر الرؤيا فقالوا: فأين الرؤيا فوالله ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا وقصرنا؟ فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: إن المنام لم يكن موقتا بوقت وأنه سيدخل وأنزل الله تعالى هذه الآية.

والمعنى أن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق وأن الله أوحى إليه بها وأنها وإن لم تقع في تلك القضية فستحقق بعد ذلك وكأن الحكمة في إراءة الله رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الرؤيا أيامئذ وفي إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بها: أن الله أدخل بذلك على قلوبهم الثقة بقوتهم وتربية الجراءة على المشركين في ديارهم فتسلم قلوبهم من ماء الجبن فإن الأمراض النفسية إذا اعترت النفوس لا تلبث أن تترك فيها بقايا الداء زمانا كما تبقى آثار المرض في العضو المريض بعد النقاهة زمانا حتى ترجع إلى العضو قوته الأولى بعد مدة مناسبة.

وتوكيد الخبر بحرف)قد(لإبطال شبهة المنافقين الذين قالوا: فأين الرؤيا? ومعنى)صدق الله رسوله الرؤيا(أنه أراه رؤيا صادقة لأن رؤيا الأنبياء وحي فآلت إلى معنى الخبر فوصفت بالصدق لذلك.

وهذا تطمين لهم بأن ذلك سيكون لا محالة وهو في حين نزول الآية لما يحصل بقرينة قوله)إن شاء الله(.

وتعدية)صدق(إلى منصوب ثان بعد مفعوله من النصب على نزع الخافض المسمى بالحذف والإيصال، أي حذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور بالعمل فيه النصب. وأصل الكلام: صدق الله رسوله في الرؤيا كقوله تعالى)صدقوا ما عاهدوا الله عليه(.

والباء في)بالحق(للملابسة وهو ظرف مستقر وقع صفة لمصدر محذوف، أي صدقا ملابسا الحق، أو وقوع حالا صفة لمصدر محذوف، أي صدقا ملابسا وقع حالا من الرؤيا.

والحق: الغرض الصحيح والحكمة، أي كانت رؤيا صادقة وكانت مجعولة محكمة وهي ما قدمناه آنفا.

وجملة)لتدخلن المسجد الحرام(إلى آخرها يجوز أن يكون بيانا لجملة)صدق الله(لأن معنى)لتدخلن(تحقيق دخول المسجد الحرام في المستقبل فيعلم منه أن الرؤيا إخبار بدخول لم يعين زمنه فهي صادقة فيما يتحقق في المستقبل. وهذا تنبيه للذين لم يتفطنوا لذلك فجزموا بأن رؤيا دخول المسجد تقتضي دخولهم إليه أيامئذ وما ذلك بمفهوم من الرؤيا وكان حقهم أن يعلموا أنها وعد لم يعين إبان موعوده وقد فهم ذلك أبو بكر إذ قال لهم: إن المنام لم يكن موقتا بوقت وأنه سيدخل. وقد جاء في سورة يوسف)وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل(.

وليست هذه الجملة بيانا للرؤيا لأن صيغة القسم لا تلائم ذلك.

والأحسن أن تكون جملة)لتدخلن المسجد الحرام(استئنافا بيانيا عن جملة)صدق الله رسوله(أي سيكون ذلك في المستقبل لا محالة فينبغي الوقف عند قوله)بالحق(ليظهر معنى الاستئناف.

وقوله)إن شاء الله(من شأنه أن يذيل به الخبر المستقبل إذا كان حصوله متراخيا، ألا ترى أن الذي يقال له: افعل كذا، فيقول: أفعل إن شاء الله، لا يفهم من كلامه أنه يفعل في الحال أو في المستقبل القريب بل يفعله بعد زمن ولكن مع تحقيق أنه يفعله.

ولذلك تأولوا قوله تعالى في سورة يوسف)وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين(أن)إن شاء الله(للدخول مع تقدير الأمن لأنه قال

ذلك حين قد دخلوا مصر. أما ما في هذه الآية فهو من كلام الله فلا يناسبه هذا المحمل. وليس المقصود منه التنصل من التزام الوعد، وهذا من استعمالات كلمة)إن شاء الله(. فليس هو مثل استعمالها في اليمين فإنها حينئذ للثنيا لأنها في موضع قولهم: إلا أن يشاء الله، لأن معنى: إلا أن يشاء الله: عدم الفعل، وأما إن شاء الله، التي تقع موقع: إلا أن يشاء الله، فمعناه إن شاء الله الفعل.والموعود به صادق بدخولهم مكة بالعمرة سنة سبع وهي عمرة القضية، فإنهم دخلوا المسجد الحرام آمنين وحلق بعضهم وقصر بعضهم غير خائفين إذ كان بينهم وبين المشركين عهد، وذلك أقرب دخول بعد هذا الوعد، وصادق بدخولهم المسجد الحرام عام حجة الوداع، وعدم الخوف فيه أظهر. وأما دخولهم مكة يوم الفتح فلم يكونوا فيه محرمين. قال مالك في الموطأ بعد أن ساق حديث قتل ابن خطل يوم الفتح ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ محرما والله أعلم .

و)محلقين رءوسكم(حال من ضمير)آمنين(وعطف عليه)ومقصرين(والتحليق والتقصير كناية عن التمكن من إتمام الحج والعمرة وذلك من استمرار الأمن على أن هذه الحالة حكت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤياه، أي يحلق من رام الحلق ويقصر من رام التقصير، أي لا يعجلهم الخوف عن الحلق فيقتصروا على التقصير.

وجملة)لا تخافون(في موضع الحال فيجوز أن تكون مؤكدة ل)آمنين(تأكيدا بالمرادف للدلالة على أن الأمن كامل محقق، ويجوز أن تكون حالا مؤسسة على أن)آمنين(معمول لفعل)تدخلن(وأن)لا تخافون(معمول ل)آمنين(، أي آمنين أمن من لا يخاف، أي لا تخافون غدرا. وذلك إيماء إلى أنهم يكونون أشد قوة من عدوهم الذي أمنهم، وهذا يومئ إلى حكمة تأخير دخولهم مكة إلى عام قابل حيث يزدادون قوة واستعدادا وهو أظهر في دخولهم عام حجة الوداع.

والفاء في قوله)فعلم ما لم تعلموا(لتفريع الأخبار لا لتفريع المخبر به لأن علم الله سابق على دخولهم وعلى الرؤيا المؤذنة بدخولهم كما تقدم في قوله تعالى)فعلم ما في قلوبهم(.

وفي إيثار فعل)جعل(في هذا التركيب دون أن يقول: فتح لكم من دون ذلك فتحا قريبا أو نحوه إفادة أن هذا الفتح أمره عجيب ما كان ليحصل مثله لولا أن الله كونه، وصيغة الماضي في)جعل(لتنزيل المستقبل المحقق منزلة الماضي، أو لأن)جعل(بمعنى)قدر(. و)دون(هنا بمعنى)غير(، و)من(ابتدائية أو بيانية. والمعنى: فجعل فتحا قريبا لكم زيادة على ما وعدكم من دخول مكة آمنين.

وهذا الفتح أوله هو فتح خيبر الذي وقع قبل عمرة القضية وهذا القريب من وقت الصلح.
)هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا[28](

صفحة : 4082

زيادة تحقيق لصدق الرؤيا بأن الذي أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الدين ما كان ليريه رؤيا صادقة. فهذه الجملة تأكيد للتحقيق المستفاد من حرف)قد(ولام القسم في قوله)لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق(. وبهذا يظهر لك حسن موقع الضمير والموصول في قوله)هو الذي أرسل رسوله(لأن الموصول يفيد العلم بمضمون الصلة غالبا.
والضمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله)لقد صدق الله رسوله الرؤيا(، وهم يعلمون أن رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم وحي من الله فهو يذكرهم بهاتين الحقيقتين المعلومتين عندهم حين لم يجروا على موجب العلم بهما فخامرتهم ظنون لا تليق بمن يعلم أن رؤيا الرسول وحي وأن الموحي له هو الذي أرسله فكيف يريه رؤيا غير صادقة. وفي هذا تذكير ولوم للمؤمنين الذين غفلوا عن هذا وتعريض بالمنافقين الذين أدخلوا التردد في قلوب المؤمنين.
والباء في)بالهدى(للمصاحبة وهو متعلق ب)أرسل(. والهدى أطلق على ما به الهدى، أي كقوله تعالى)ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين(، وقوله)شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس(.
وعطف)دين الحق(على الهدى ليشمل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحكام أصولها وفروعها مما أوحي به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم سوى القرآن من كل وحي بكلام لم يقصد به الإعجاز أو كان من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.
ويجوز أن يكون المراد)بالهدى(أصول الدين من اعتقاد الإيمان وفضائل الأخلاق التي بها تزكية النفس، و)بدين الحق(: شرائع الإسلام وفروعه.
واللام في)ليظهره(لتعليل فعل)أرسل(ومتعلقاته، أي أرسله بذلك ليظهر هذا الدين على جميع الأديان الإلهية السالفة ولذلك أكد ب)كله(لأنه في معنى الجمع.
ومعنى)يظهره(يعليه. والإظهار: أصله مشتق من ظهر بمعنى بدا، فاستعمل كناية عن الارتفاع الحقيقي ثم أطلق مجازا عن الشرف فصار أظهره بمعنى أعلاه، أي ليشرفه على الأديان كلها، وهذا

كقوله في حق القرآن)مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه(.
ولما كان المقصود من قوله)هو الذي أرسل رسوله بالهدى(الخ الشهادة بأن الرؤيا صدق ذيل الجملة بقوله)وكفى بالله شهيدا(أي أجزأتكم شهادة الله بصدق الرؤيا إلى أن تروا ما صدقها في الإبان.
وتقدم الكلام على نظير)وكفى بالله شهيدا(في آخر سورة النساء.
)محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تريهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود(لما بين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في رؤياه واطمأنت نفوس المؤمنين أعقب ذلك بتنويه شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والثناء على المؤمنين الذين معه.
و)محمد(خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو محمد يعود هذا الضمير المحذوف على قوله)رسوله(في الآية قبلها. وهذا من حذف المسند الذي وصفه السكاكي بالحذف الذي الاستعمال وارد على ترك المسند إليه وترك نظائره . قال التفتزاني في المطول ومنه قولهم بعد أن يذكروا رجلا: فتى من شأنه كذا وكذا، وهو أن يذكروا الديار أو المنازل ربع كذا وكذا . ومن أمثلة المفتاح)فراجعهما(أي العقل السليم والطبع المستقيم في مثل قوله:

سأشكر عمرا إن تراخت منـيتـي
أيادي لم تمنن وإن هـي جـلـت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه
ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت إذ لم يقل: هو فتى.

وهذا المعنى هو الأظهر هنا إذ ليس المقصود إفادة أن محمدا رسول الله وإنما المقصود بيان رسول الله من هو بعد أن أجرى عليه من الأخبار من قوله)لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق(إلى قوله)ليظهره على الدين كله(فيعتبر السامع كالمشتاق إلى بيان: من هذا المتحدث عنه بهذه الأخبار? فيقال له: محمد رسول الله، أي هو محمد رسول الله. وهذا من العناية والاهتمام بذكر مناقبه صلى الله عليه وسلم.
فتعتبر الجملة المحذوف مبتدؤها مستأنفة استئنافا بيانيا.
وفيه وجوه أخر لا تخفى، والأحسن منها هذا.

وفي هذا نداء على إبطال جحود المشركين رسالته حين امتنعوا من أن يكتب في صحيفة الصلح هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. وقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت .

وقوله)والذين معه(يجوز أن يكون مبتدأ و)أشداء(خبرا عنه وما بعده إخبار، والمقصود الثناء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومعنى)معه(: المصاحبة الكاملة بالطاعة والتأييد كقوله تعالى)وقال الله إني معكم(. والمراد: أصحابه كلهم لا خصوص أهل الحديبية.

وإن كانوا هم المقصود ابتداء فقد عرفوا بصدق ما عاهدوا عليه الله، ولذلك لما انهزم المسلمون يوم حنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس بن عبد المطلب ناد يا أصل المرة.

ويجوز أن يكون)والذين معه(عطفا على)رسوله(من قوله)هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق(. والتقدير: وأرسل الذين معه، أي أصحابه على أن المراد بالإرسال ما يشمل الإذن لهم بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى)إذ أرسلنا إليهم اثنين(الآية فإن المرسلين إلى أهل أنطاكية كانوا من الحواريين، أمرهم عيسى بنشر الهدى والتوحيد. فيكون الإرسال البعث له في قوله تعالى)بعثنا عليكم عبادا لنا(وعلى هذا يكون)أرسلنا(في هذه الآية مستعملا في حقيقته ومجازه.

و)أشداء(: جمع شديد، وهو الموصوف بالشدة المعنوية وهي صلابة المعاملة وقساوتها، قال تعالى في وصف النار)عليها ملائكة غلاظ شداد(.

والشدة على الكفار: هي الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح لأن المؤمنين الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام فلا يليق بهم إلا إظهار الغضب لله والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أقوى المؤمنين إيمانا من أجل إشراق أنوار النبوة على قلوبهم فلا جرم أن يكونوا أشد على الكفار فإن بين نفوس الفريقين تمام المضادة وما كانت كراهيتهم للصلح مع الكفار يوم الحديبية ورغبتهم في قتل أسراهم الذين ثقفوهم يوم الحديبية وعفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم إلا من آثار شدتهم على الكفار ولم تكن لاحت لهم المصلحة الراجحة على القتال وعلى القتل التي آثرها النبي صلى الله عليه وسلم.

ولذلك كان أكثرهم محاورة في إباء الصلح يومئذ أشد أشدائهم على الكفار وهو عمر بن الخطاب وكان أفهمهم للمصلحة التي توخاها النبي صلى الله عليه وسلم في إبرام الصلح أبا بكر. وقد قال سهل بن حنيف يوم صفين: أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتنا

يوم أبي جندل، ولو نستطيع أن نرد على رسول الله فعله لرددناه. والله ورسوله أعلم.

ثم تكون أحكام الشدة على الكفار من وجوب وندب وإباحة وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال ولعلماء الإسلام فيها مقال، وقد تقدم كثير من ذلك في سورة آل عمران وفي سورة براءة.

والشدة على الكفار اقتبسوها من شدة النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين قال تعالى)بالمؤمنين رؤوف رحيم(.

وأما كونهم رحماء بينهم فذلك من رسوخ أخوة الإيمان بينهم في نفوسهم.

وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدة والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى)فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين(في سورة العقود.

وفي تعليق)رحماء(مع ظرف)بين(المفيد للمكان الداخل وسط ما يضاف هو إليه تنبيه على انبثاث التراحم فيهم جميعا قال النبي صلى الله عليه وسلم تجد المسلمين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى له جميع الجسد بالسهر والحمى .

والخطاب في)تراهم(لغير معين بل لكل من تتأتى رؤيته إياهم، أي يراهم الرائي.

صفحة : 4084

وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك، أي تراهم كلما شئت أن تراهم ركعا سجدا. وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها وأنهم يتطلبون بذلك رضى الله ورضوانه. وفي سوق هذا في مساق الثناء إيماء إلى أن الله حقق لهم ما يبتغونه.

والسيما: العلامة، وتقدم عند قوله تعالى)تعرفهم بسيماهم(في البقرة وهذه سيما خاصة هي من أثر السجود.

واختلف في المراد من السيما التي وصفت بأنها من أثر السجود على ثلاثة أنحاء الأول: أنها أثر محسوس للسجود، الثاني أنها من الأثر النفسي للسجود، الثالث أنها أثر يظهر في وجوههم يوم القيامة.

فبالأول فسر مالك بن أنس وعكرمة وأبو العالية قال مالك: السيما هي ما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود مثل ما تعلق بجبهة النبي صلى الله عليه وسلم من أثر الطين والماء لما وكف المسجد صبيحة إحدى وعشرين من رمضان. وقال السعيد وعكرمة: الأثر كالغدة يكون في جبهة الرجل.

وليس المراد أنهم يتكلفون حدوث ذلك في وجوههم ولكنه يحصل من غير قصد بسبب تكرر مباشرة الجبهة للأرض وبشرات الناس مختلفة في التأثر بذلك فلا حرج على من حصل له ذلك إذا لم يتكلفه ولم يقصد به رياء.

وقال أبو العالية: يسجدون على التراب لا على الأثواب.

والى النحو الثاني فسر الأعمش والحسن وعطاء والربيع ومجاهد عن ابن عباس وابن جزء والضحاك. فقال الأعمش: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وقريب منه عن عطاء والربيع بن سليمان. وقال ابن عباس: هو حسن السمت.

وقال مجاهد: هو نور من الخشوع والتواضع. وقال الحسن والضحاك: بياض وصفرة وتهيج يعتري الوجوه من السهر.

والى النحو الثالث فسر سعيد بن جبير أيضا والزهري وابن عباس في رواية العوفي والحسن أيضا وخالد الحنفي وعطية وشهر بن حوشب: أنها سيما تكون لهم يوم القيامة، وقالوا: هي بياض يكون في الوجه يوم القيامة كالقمر ليلة البدر يجعله الله كرامة لهم.

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله في قوله تعالى)سيماهم في وجوههم من أثر السجود(: النور يوم القيامة، قيل وسنده حسن. وهو لا يقتضي تعطيل بقية الاحتمالات إذ كل ذلك من السيما المحمودة ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أعلاها.

وضمائر الغيبة في قوله)تراهم، ويبتغون، وسيماهم في وجوههم(عائدة إلى)الذين معه(على الوجه الأول، والى كل من) محمد رسول الله والذين معه (على الوجه الثاني.

)ذلك مثلهم في التوراة(الإشارة بذلك إلى المذكور من صفات الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم لأن السابق في الذكر بمنزلة الحاضر فيشار إليه بهذا الاعتبار فاسم الإشارة مبتدأ و)مثلهم(خبره.

والمثل يطلق على الحالة العجيبة، ويطلق على النظير، أي المشابه فإن كان هنا محمولا على الحالة العجيبة فالمعنى: أن الصفات

المذكورة هي حالهم الموصوف في التوراة. وقوله)في التوراة(متعلق ب)مثلهم(أو حال منه. فيحتمل أن في التوراة وصف قوم سيأتون ووصفوا بهذه الصفات، فبين الله بهذه الآية أن الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم هم المقصود بتلك الصفة العجيبة التي في التوراة، أي أن التوراة قد جاءت فيها بشارة بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ووصف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.
والذي وقفنا عليه في التوراة مما يصلح لتطبيق هذه الآية هو البشارة الرمزية التي في الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية من قول موسى عليه السلام جاء الرب من سينا وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم فأحب الشعب جميع قديسيه وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك فإن جبل فاران هو حيال الحجاز.
وقوله فأحب الشعب جميع قديسيه يشير إليه قوله)رحماء بينهم(، وقد تقدم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ما ينطبق على هذا من سورة الفتح. وقوله قديسيه يفيد معنى) تراهم ركعا سجدا(ومعنى)سيماهم في وجوههم من أثر السجود(. وقوله في التوراة جالسون عند قدمك يفيد معنى قوله تعالى) يبتغون فضلا من الله ورضوانا(.
ويكون قوله تعالى)ذلك(إشارة إلى ما ذكر من الوصف.

صفحة : 4085

)ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع(ابتداء كلام مبتدأ. ويكون الوقف على قوله)في التوراة(والتشبيه في قوله)كزرع(خبره، وهو المثل. وهذا هو الظاهر من سياق الآية فيكون مشيرا إلى نحو قوله في إنجيل متى الإصحاح 13 فقرة 3 هو ذا الزارع قد خرج ليزرع يعني عيسى عليه السلام وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت الطيور وأكلته إلى أن قال وسقط الآخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمرة بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين . قال فقرة، ثم قال وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم، وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعض مائة وبعض ستين وآخر ثلاثين .
وهذا يتضمن نماء الإيمان في قلوبهم وبأنهم يدعون الناس الى الدين حتى يكثر المؤمنون كما تنبت الحبة مائة سنبلة وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة.

وفي قوله)أخرج شطأه(استعارة الإخراج إلى تفرع الفراخ من الحبة لمشابهة التفرع بالخروج ومشابهة الأصل المتفرع عنه بالذي يخرج شيئا من مكان.
والشطء بهمزة في آخره وسكون الطاء: فراخ الزرع وفروع الحبة. ويقال: أشطأ الزرع، إذا أخرج فروعا.
وقرأه الجمهور بسكون الطاء وبالهمز. وقرأه ابن كثير)شطأه(بفتح الطاء بعدها ألف على تخفيف الهمزة ألفا.
و)آزره(قواه، وهو من المؤازرة بالهمز وهي المعاونة وهو مشتق من اسم الإزار لأنه يشد ظهر المتزر به ويعينه شده على العمل والحمل كذا قيل. والأظهر عندي عكس ذلك وهو أن يكون الإزار مشتقا اسمه من: أزر، لأن الاشتقاق من الأسماء الجامدة نادر لا يصار إلى دعائه إلا إذا تعين. وصيغة المفاعلة في)آزره(مستعارة لقوة الفعل مثل قولهم: عافاك الله، وقوله تعالى)وبارك فيها(.
والضمير المرفوع في)آزره(للشطء، والضمير المنصوب للزرع، أي قوى الشطء أصله.
وقرأ الجمهور)فآزره(. وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر) فأزره(بدون ألف بعد الهمزة والمعنى واحد.
ومعنى)استغلظ(غلظ غلظا شديدا في نوعه، فالسين والتاء للمبالغة مثل: استجاب.
والضميران المرفوعان في)استغلظ(و)استوى(عائدان الى الزرع.
والسوق: جمع ساق على غير قياس لأن ساقا ليس بوصف وهو اسم على زنة فعل بفتحتين.
وقراءة الجميع)على سوقه(بالواو بعد الضمة. وقال ابن عطية: قرأ ابن كثير)سؤقه(بالهمزة أي همزة ساكنة بعد السين المضمومة وهي لغة ضعيفة يهمزون الواو التي قبلها ضمة ومنه قول الشاعر:
لحب المؤقدان إلي مؤسى وتنسب لقنبل عن ابن كثير ولم يذكرها المفسرون ولم يذكرها في حرز الأماني وذكرها النوري في كتاب غيث النفع وكلامه غير واضح في صحة نسبة هذه القراءة إلى قنبل.
وساق الزرع والشجرة: الأصل الذي تخرج فيه السنبل والأغصان.
ومعنى هذا التمثيل تشبيه حال بدء المسلمين ونمائهم حتى كثروا وذلك يتضمن تشبيه بدء دين الإسلام ضعيفا وتقويه يوما فيوما حتى استحكم أمره وتغلب على أعدائه.
وهذا التمثيل قابل لاعتبار تجزئة التشبيه في أجزائه بأن يشبه محمد صلى الله عليه وسلم بالزارع كما مثل عيسى غلب الإسلام في الإنجيل، ويشبه المؤمنون بحبات الزرع التي يبذرها في الأرض مثل: أبي بكر وخديجة وعلي وبلال وعمار، والشطء: من أيدوا

المسلمين فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى الله وحده وانضم إليه نفر قليل ثم قواه الله بمن ضامن معه كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع.

وقوله)يعجب الزراع(تحسين للمشبه به ليفيد تحسين المشبه.

)ليغيظ بهم الكفار(تعليل لما تضمنه تمثيلهم بالزرع الموصوف من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة لأن كونهم بتلك الحالة من تقدير الله لهم أن يكونوا عليها فمثل بأنه فعل ذلك ليغيظ بهم الكفار.

قال القرطبي: قال أبو عروة الزبيري: كنا عند مالك بن أنس فذكروا عنده رجلا ينتقص أصحاب رسول الله فقرأ مالك هذه الآية)محمد رسول الله(إلى أن بلغ قوله)ليغيظ بهم الكفار(فقال مالك من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية . وقلت: رحم الله مالك بن أنس ورضي عنه ما أدق استنباطه.

صفحة : 4086

)وعد الله الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما[28](أعقب تنويه شأنهم والثناء عليهم بوعدهم بالجزاء على ما اتصفوا به من الصفات التي لها الأثر المتين في نشر ونصر هذا الدين.

وقوله)منهم(يجوز أن تكون)من(للبيان كقوله)فاجتنبوا الرجس من الأوثان(وهو استعمال كثير، ويجوز إبقاؤه على ظاهر المعنى من التبعيض لأنه وعد لكل من يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم في الحاضر والمستقبل فيكون ذكر)من(تحذيرا وهو لا ينافي المغفرة لجميعهم لأن جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم هم خيرة المؤمنين. انتهت سورة الفتح.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجرات

سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير سورة الحجرات وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ الحجرات . ونزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته، فعرفت بهذه الإضافة.

وهي مدنية باتفاق أهل التأويل، أي مما نزل بعد الهجرة، وحكى السيوطي في الإتقان قولا شاذا أنها مكية ولا يعرف قائل هذا القول.

وفي أسباب النزول للواحدي أن قوله تعالى)يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى(الآية نزلت بمكة في يوم فتح مكة كما سيأتي، ولم يثبت أن تلك الآية نزلت بمكة كما سيأتي. ولم يعدها في الإتقان في عداد السور المستثنى بعض آياتها.

وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم وكان نزول هذه السورة سنة تسع، وأول آيها في شأن وفد بني تميم كما سيأتي عند قوله تعالى)يا أيها الذين أمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله(وقوله)إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون(.

وعد جميع العادين آيها ثمان عشرة آية.

أغراض هاته السورة

تتعلق أغراضها بحوادث جدت متقاربة كانت سببا لنزول ما فيها من أحكام وآداب.

وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم في معاملته وخطابه ونداءه، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسول صلى الله عليه وسلم من بيوته كما سيأتي عند قوله تعالى)إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون(.

ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبت في نقل الخبر مطلقا وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين، وتطرق إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب تقويما لأود نفوسهم.

وقال فخر الدين عند تفسير قوله تعالى)يا أيها الذين أمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا(: هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله أو مع رسوله صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين: إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجين عنها وهو الفسوق، والداخل في طائفتهم: إما أن يكون حاضرا عندهم أو غائبا عنهم فهذه خمسة أقسام، قال: فذكر الله في هذه السورة خمس مرات)يا أيها الذين آمنوا(وأرشد بعد كل مرة إلى

مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة، وسنأتي على بقية كلامه عند تفسير الآية الأولى من هذه السورة.
وهذه السورة هي أول سور المفصل بتشديد الصاد ويسمى المحكم على أحد أقوال في المذهب، وهو الذي ارتضاه المتأخرون من الفقهاء وفي مبدأ المفصل عندنا أقوال عشرة أشهرها قولان قيل: إن مبدأه سورة ق وقيل سورة الحجرات، وفي مبدأ وسط المفصل قولان أصحهما أنه سورة عبس، وفي قصاره قولان أصحهما أنها من سورة والضحى.
واختلف الحنفية في مبدأ المفصل على أقوال اثني عشر، والمصحح أن أوله من الحجرات، وأول وسط المفصل سورة الطارق، وأول القصار سورة إذا زلزلت الأرض.
وعند الشافعية قيل: أول المفصل سورة الحجرات، وقيل سورة ق، ورجحه ابن كثير في التفسير كما سيأتي.
وعند الحنابلة أول المفصل سورة ق.

والمفصل هو السور التي تستحب القراءة ببعضها في بعض الصلوات الخمس على ما هو مبين في كتب الفقه.
)يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم[1](الافتتاح بنداء المؤمنين للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لتترقبه أسماعهم بشوق.
ووصفهم ب)الذين آمنوا(جار مجرى اللقب لهم مع ما يؤذن به أصله من أهليتهم لتلقي هذا النهي بالامتثال.
وقد تقدم عند الكلام على أغراض السورة أن الفخر ذكر أن الله أرشد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما في جانب الله أو جانب رسوله صلى الله عليه وسلم، أو بجانب الفساق أو بجانب المؤمن الحاضر أو بجانب المؤمن الغائب، فهذه خمسة أقسام، فذكر الله في هذه السورة خمس مرات)يا أيها الذين آمنوا(فأرشد في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة إلخ، فهذا النداء الأول اندرج فيه واجب الأدب مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم تعرض الغفلة عنها.
والتقدم حقيقته: المشي قبل الغير، وفعله المجرد: قدم من باب نصر قال تعالى)يقدم قومه يوم القيامة(. وحق قدم بالتضعيف أن يصير متعديا إلى مفعولين لكن ذلك لم يرد وإنما يعدى إلى المفعول الثاني بحرف)على(.

ويقال: قدم بمعنى تقدم كأنه قدم نفسه، فهو مضاعف صار غير متعد. فمعنى)لا تقدموا(لا تتقدموا.
ففعل)لا تقدموا(مضارع قدم القاصر بمعنى تقدم على غيره وليس لهذا الفعل مفعول، منه اشتقت مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة منه وهي ضد الساقة. ومنه سميت مقدمة الكتاب الطائفة منه المتقدمة على الكتاب. ومادة فعل تجيء بمعنى تفعل مثل وجه بمعنى توجه وبين بمعنى تبين، ومن أمثالهم بين الصبح لذي عينين.
والتركيب تمثيل بتشبيه حال من يفعل فعلا دون إذن من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بحال من يتقدم مماشيه في مشيه ويتركه خلفه. ووجه الشبه الانفراد عنه في الطريق.
والنهي هنا للتحذير إذ لم يسبق صدور فعل من أحد افتيانا على الشرع. ويستروح من هذا أن هذا التقدم المنهي عنه هو ما كان في حالة إمكان الترقب والتمكن من انتظار ما يبرمه الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر الله فيومئ إلى أن إبرام الأمر في غيبة الرسول صلى الله عليه وسلم لا حرج فيه.
وهذه الآية تؤيد قول الفقهاء: إن المكلف لا يقدم على فعل حتى يعلم حكم الله فيه. وعد الغزالي العلم بحكم ما يقدم عليه المكلف من قسم العلوم التي هي فرض على الأعيان الذين تعرض لهم.
والمقصود من الآية النهي عن إبرام شيء دون إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر قبله اسم الله للتنبيه على أن مراد الله إنما يعرف من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم.
وقد حصل من قوله)لا تقدموا(الخ معنى اتبعوا الله ورسوله.
وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري في صحيحه في قصة وفد بني تميم بسنده إلى ابن الزبير قال قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: أمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس. قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي أو إلى خلافي قال عمر: ما أردت خلافك أو إلى خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما في ذلك فنزل)يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون(.
فهذه الآية توطئة للنهي عن رفع الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهر له بالقول وندائه من وراء الحجرات.

وعن الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت بسبب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فقتلت بنو عامر رجال السرية إلا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بين سليم فسألوهما عن نسبتهما فاعتزيا إلى بني عامر ظنا منهما أن هذا الاعتزاء أنجى لهما من شر توقعاه لأن بني عامر أعز من بني سليم، فقتلوا النفر الثلاثة وسلبوهما ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال بئسما صنعتم كانا من بني سليم، والسلب ما كسوتهما أي عرف ذلك لما رأى السلب فعرفه بأنه كساهما إياه وكانت تلك الكسوة علامة على الإسلام لئلا يتعرض لهم المسلمون فوادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزلت)يا أيها الذين أمنوا لا تقدموا(الآية، أي لا تعملوا شيئا من تلقاء أنفسكم في التصرف من الأمة إلا بعد أن تستأمروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى هذه الرواية تكون القصة جرت قبيل قصة بني تميم فقرنت آيتاهما في النزول.

وهنالك روايات أخرى في سبب نزولها لا تناسب موقع الآية مع الآيات المتصلة بها. وأياما كان سبب نزولها فهي عامة في النهي عن جميع أحوال التقدم المراد.

وجعلت هذه الآية في صدر السورة مقدمة على توبيخ وفد بني تميم حين نادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات لأن ما صدر من بني تميم هو من قبيل رفع الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم ولأن مماراة أبي بكر وعمر وارتفاع أصواتهما كانت في قضية بني تميم فكانت هذه الآية تمهيدا لقوله)يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي(الآية، لأن من خصه الله بهذه الحظوة، أي جعل إبرام العمل بدون أمره كإبرامه بدون أمر الله حقيق بالتهيب والإجلال أن يخفض الصوت لديه.

وإنما قدم هذا على توبيخ الذين نادوا النبي صلى الله عليه وسلم لأن هذا أولى بالاعتناء إذ هو تأديب من هو أولى بالتهذيب.

وقرأه الجمهور)تقدموا(بضم الفوقية وكسر الدال مشددة. وقرأه يعقوب بفتحمهما على ان أصله: لا تتقدموا.

وقال فخر الدين عند الكلام على قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا(في هذه السورة: إن فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وهي: إما مع الله أو مع رسوله صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من أبناء الجنس وهم على صنفين لأنهم: إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين من الطاعة، وإما أن يكونوا خارجين عنها بالفسق؛ والداخل في طريقتهم: إما حاضر عندهم، أو غائب عنهم، فذكر الله في هذه السورة خمس مرات)يا أيها الذين آمنوا(وأرشد بعد كل مرة الى مكرمة من قسم من

الأقسام الخمسة: فقال أولا:)يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله(وهي تشمل طاعة الله تعالى، وذكر الرسول معه للإشارة إلى أن طاعة الله لا تعلم إلا بقول الرسول فهذه طاعة للرسول تابعة لطاعة الله.
وقال ثانيا:)يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي(لبيان الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم لذاته في باب حسن المعاملة.
وقال ثالثا:)يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ(الآية للتنبيه على طريقة سلوك المؤمنين في معاملة من يعرف بالخروج عن طريقتهم وهي طريقة الاحتراز منه لأن عمله إفساد في جماعتهم، وأعقبه بآية)وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا(.
وقال رابعا:)يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم(إلى قوله)فأولئك هم الظالمون(فنهى عما يكثر عدم الاحتفاظ فيه من المعاملات اللسانية التي قلما يقام لها وزن.
وقال خامسا:)يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن(إلى قوله)تواب رحيم(اه.
ويريد: أن الله ذكر مثالا من كل صنف من أصناف مكارم الأخلاق بحسب ما اقتضته المناسبات في هذه السورة بعد الابتداء بما نزلت السورة لأجله ابتداء ليكون كل مثال منها دالا على بقية نوعه ومرشدا إلى حكم أمثاله دون كلفة ولا سآمة.
وقد سلك القرآن لإقامة أهم حسن المعاملة طريق النهي عن أضدادها من سوء المعاملة لأن درء المفسدة مقدم في النظر العقلي على جلب المصلحة.
وعطف)واتقوا الله(تكملة للنهي عن التقدم بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ليدل على أن ترك إبرام شيء دون إذن الرسول صلى الله عليه وسلم من تقوى الله وحده، أي ضده ليس من التقوى.

صفحة : 4089

وجملة)إن الله سميع عليم(في موضع العلة للنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله وللأمر بتقوى الله.
والسميع: العليم بالمسموعات، والعليم أعم وذكرها بين الصفتين كناية عن التحذير من المخالفة ففي ذلك تأكيد للنهي والأمر.
)يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون[

2](إعادة النداء ثانيا للاهتمام بهذا الغرض والإشعار بأنه غرض جدير بالتنبيه عليه بخصوصه حتى لا ينغمر في الغرض الأول فإن هذا من آداب سلوك المؤمنين في معاملة النبي صلى الله عليه وسلم ومقتضي التأدب بما هو آكد من المعاملات بدلالة الفحوى.
وهذا أيضا توطئة لقوله)إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون(وإلقاء لتربية ألقيت إليهم لمناسبة طرف من أطراف خبر وفد بني تميم.
والرفع: مستعار لجهر الصوت جهرا متجاوزا لمعتاد الكلام، شبه جهر الصوت بإعلاء الجسم في أنه أشد بلوغا إلى الأسماع كما أن إعلاء الجسم أوضح له في الإبصار، على طريقة الاستعارة المكنية، أو شبه إلقاء الكلام بجهر قوي بإلقائه من مكان مرتفع كالمئذنة على طريقة الاستعارة التبعية.
و)فوق صوت النبي(ترشيح لاستعارة)لا ترفعوا(وهو فوق مجازي أيضا.
وموقع قوله)فوق صوت النبي(موقع الحال من)أصواتكم(، أي متجاوزة صوت النبي صلى الله عليه وسلم، أي متجاوزة المعتاد في جهر الأصوات فإن النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بجهر معتاد.
ولا مفهوم لهذا الظرف لأنه خارج مخرج الغالب، إذ ليس المراد أنه إذا رفع النبي صلى الله عليه وسلم صوته فارفعوا أصواتكم بمقدار رفعه.
والمعنى: لا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وبحضرته إذا كلم بعضكم بعضا كما وقع في صورة سبب النزول.
ولقد تحصل من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتا عنده.
وفي صحيح البخاري: قال ابن الزبير فما كان عمر يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر أي ابن الزبير ذلك عن أبيه يعني أبا بكر، ولكن أخرج الحاكم وعبد بن حميد عن أبي هريرة: أن أبا بكر قال بعد نزول هذه الآية والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله   .
وفي صحيح البخاري قال ابن أبي مليكة كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم   .
وهذا النهي مخصوص بغير المواضع التي يؤمر بالجهر فيها كالأذان وتكبير يوم العيد، وبغير ما أذن فيه النبي صلى الله عليه وسلم إذنا خاصا كقوله للعباس حين انهزم المسلمون يوم حنين ناد يا أصحاب السمرة وكان العباس جهير الصوت.

وقوله)ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض(نهي عن جهر آخر وهو الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صلى الله عليه وسلم لوجوب التغاير بين مقتضى قوله)لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي(ومقتضى)ولا تجهروا له بالقول(.

واللام في)له(لتعدية)تجهروا(لأن)تجهروا(في معنى: تقولوا، فدلت اللام على أن هذا الجهر يتعلق بمخاطبته، وزاده وضوحا التشبيه في قوله)كجهر بعضكم لبعض(.

وفي هذا النهي ما يشمل صنيع الذين نادوا النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات فيكون تخلصا من المقدمة إلى الغرض المقصود، ويظهر حسن موقع قوله بعده)إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون(.

و)أن تحبط أعمالكم(في محل نصب على نزع الخافض وهو لام التعليل وهذا تعليل للمنهي عنه لا للنهي، أي أن الجهر له بالقول يفضي بكم إن لم تكفوا عنه أن تحبط أعمالكم، فحبط الأعمال بذلك مما يحذر منه فجعله مدخولا للام التعليل مصروف عن ظاهر. فالتقدير: خشية أن تحبط أعمالكم، كذا يقدر نحاة البصرة في هذا وأمثاله. والكوفيون يجعلونه بتقدير)لا(النافية فيكون التقدير: أن لا تحبط أعمالكم فيكون تعليلا للنهي على حسب الظاهر.

صفحة : 4090

والحبط: تمثيل لعدم الانتفاع بالأعمال الصالحة بسبب ما يطرأ عليها من الكفر مأخوذ من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وتعتل وربما هلكت وفي الحديث وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يلم . وتقدم في سورة المائدة قوله تعالى)ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله(.

وظاهر الآية التحذير من حبط جميع الأعمال لأن الجمع المضاف من صيغ العموم ولا يكون حبط جميع الأعمال إلا في حالة الكفر لأن من الأعمال الإيمان فمعنى الآية: أن عدم الاحتراز من سوء الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا النهي قد يفضي بفاعله إلى إثم عظيم يأتي على عظيم من صالحاته أو يفضي به إلى الكفر. قال ابن عطية: أي يكون ذلك سببا إلى الوحشة في نفوسكم فلا تزال معتقداتكم تتدرج القهقرى حتى يؤول ذلك إلى الكفر فحبط الأعمال. وأقول: لأن عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم يعود النفس بالاسترسال فيه فلا تزال تزداد منه وينقص توفير الرسول صلى الله عليه وسلم من

النفس وتتولى من سيء إلى أشد منه حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه وذلك كفر. وهذا معنى)وأنتم لا تشعرون(لآن المنتقل من سيء إلى أسوأ لا يشعر بأنه آخذ في التملي من السوء بحكم التعود بالشيء قليلا حتى تغمره المعاصي وربما كان آخرها الكفر حين تضرى النفس بالإقدام على ذلك.

ويجوز أن يراد حبط بعض الأعمال على أنه عام مراد به الخصوص فيكون المعنى حصول حطيطة في أعمالهم بغلبة عظم ذنب جهرهم له بالقول، وهذا مجمل لا يعلم مقدار الحبط إلا الله تعالى.

ففي قوله)وأنتم لا تشعرون(تنبيه إلى مزيد الحذر من هذه المهلكات حتى يصير ذلك دربة حتى يصل إلى ما يحبط الأعمال، وليس عدم الشعور كائنا في إتيان الفعل المنهي عنه لأنه لو كان كذلك لكان صاحبه غير مكلف لامتناع تكليف الغافل ونحوه.

)إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم[3](عن ابن عباس لما نزل قوله تعالى)لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي(كان أبو بكر لا يكلم رسول الله إلا كأخي السرار، أي مصاحب السر من الكلام، فأنزل الله تعالى)إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله(الآية. فهذه الجملة استئناف بياني لأن التحذير الذي في قوله)أن تحبط أعمالكم(الخ يثير في النفس أن يسأل سائل عن ضد حال الذي يرفع صوته.

وافتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بمضمونه من الثناء عليهم وجزاء عملهم، وتفيد الجملة تعليل النهيين بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنهما وأكد هذا الاهتمام باسم الإشارة في قوله)أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى(مع ما في اسم الإشارة من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون بالخبر المذكور بعده لأجل ما ذكر من الوصف قبل اسم الإشارة.

وإذ قد علمت آنفا أن محصل معنى قوله)لا ترفعوا أصواتكم(وقوله)ولا تجهروا(الأمر بخفض الصوت عند النبي صلى الله عليه وسلم يتضح لك وجه العدول عن نوط الثناء هنا بعدم رفع الصوت وعدم الجهر عند الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نوطه بغض الصوت عنده.

والغض حقيقته: خفض العين، أي أن لا يحدق بها إلى الشخص وهو هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار.

والامتحان: الاختبار والتجربة، وهو افتعال من محنه، إذا اختبره، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة كقولهم: اضطره إلى كذا.

واللام في قوله)للتقوى(لام العلة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أي لتكون فيها التقوى، أي ليكونوا أتقياء، يقال: امتحن فلان

للشيء الفلاني كما يقال: جرب للشيء ودرب للنهوض بالأمر، أي فهو مضطلع به ليس بوان عنه، فيجوز أن يجعل الامتحان كناية على تمكن التقوى من قلوبهم وثباتهم عليها بحيث لا يوجدون في حال ما غير متقين وهي كناية تلويحية لكون الانتقال بعدة لوازم، ويجوز أن يجعل فعل)امتحن(مجازا مرسلا عن العلم، أي علم الله أنهم متقون، وعليه فتكون اللام من قوله)للتقوى(متعلقة بمحذوف هو حال من قلوب، أي كائنة للتقوى، فاللام للاختصاص.

صفحة : 4091

وجملة)لهم مغفرة(خبر)إن(وهو المقصود من هذه من الجملة المستأنفة وما بينهما اعتراض للتنويه بشأنه. وجعل في الكشاف خبر)إن(هو اسم الإشارة مع خبره وجعل جملة)لهم(مستأنفة ولكل وجه فأنظره.

وقال وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسما ل)إن(المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معا. والمبتدأ اسم الإشارة، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم، وإيراد الجزاء نكرة مبهما أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله وقدر شرف منزلته اه.

وهذا الوعد والثناء يشملان ابتداء أبا بكر وعمر إذ كان كلاهما يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم كأخي السرار.

)إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون[4] ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم[5](هذه الجملة بيان لجملة)ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض(بيانا بالمثال وهو سبب النزول.

فهذا شروع في الغرض والذي نشأ عنه ما أوجب نزول صدر السورة فافتتح به لأن التحذير والوعد اللذين جعلا لأجله صالحان لأن يكونا مقدمة للمقصود فحصل بذلك نسج بديع وإيجاز جليل وإن خالف ترتيب ذكره ترتيب حصوله في الخارج، وقد صادف هذا الترتيب المحز أيضا إذ كان نداؤهم من وراء الحجرات من قبيل الجهر للرسول صلى الله عليه وسلم بالقول كجهر بعضهم لبعض فكان النهي عن الجهر له بالقول تخلصا لذكر ندائه من وراء الحجرات.

والمراد بالذين ينادون النبي صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات جماعة من وفد بني تميم جاءوا المدينة في سنة تسع وهي سنة الوفود وكانوا سبعين رجلا أو أكثر.

وكان سبب وفود هذا الوفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن بني العنبر منهم كانوا قد شهروا السلاح على خزاعة، وقيل كانوا منعوا إخوانهم بني كعب بن العنبر بن عمرو بن تميم من إعطاء الزكاة، وكان بنو كعب قد أسلموا من قبل ولم أقف على وقت إسلامهم. والظاهر أنهم أسلموا في سنة الوفود فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر بن سفيان ساعيا لقبض صدقات بني كعب، فمنعهم بنو العنبر فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن في خمسين من العرب ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري فأسر منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا. فجاء في أثرهم جماعة من رؤسائهم لفدائهم فجاؤوا المدينة.

وكان خطيبهم عطارد بن حاجب بن زراره، وفيهم سادتهم الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، والأقرع بن حابس، ومعهم عيينة بن حصن الفزاري الغطفاني وكان هذان الأخيران أسلما من قبل وشهدا مع النبي صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح، ثم جاء معهم الوفد فلما دخل الوفد المسجد وكان وقت القائلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم نائم في حجرته، نادوا جميعا وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا ثلاثا، فإن مدحنا زين، وإن شين، نحن أكرم العرب سلكوا في عملهم هذا مسلك وفود العرب على الملوك والسادة، كانوا يأتون بيت الملك أو السيد فيطيفون به ينادون ليؤذن لهم كما ورد في قصة ورود النابغة على النعمان بن الحارث الغساني .

وقولهم: إن مدحنا زين، طريقة كانوا يستدرون بها العظماء للعطاء فإضافة: مدحنا وذمنا إلى الضمير من إضافة المصدر إلى فاعله. فلما خرج إليهم رسول الله قالوا: جئناك نفاخرك فإذن لشاعرنا وخطيبنا إلى آخر القصة.

وقولهم: نفاخرك، جروا فيه على عادة الوفود من العرب أن يذكروا مفاخرهم وأيامهم، ويذكر الموفود عليهم مفاخرهم، وذلك معنى صيغة المفاعلة في قولهم: نفاخرك، وكان جمهورهم لم يزالوا كفارا حينئذ وإنما أسلموا بعد أن تفاخروا وتناشدوا الأشعار.

فالمراد ب)الذين ينادونك(رجال هذا الوفد. وإسناد فعل النداء إلى ضمير)الذين(لأن جميعهم نادوه، كما قال ابن عطية. ووقع في

حديث البراء بن عازب أن الذي نادى النداء هو الأقرع بن حابس، وعليه فإسناد فعل)ينادونك(إلى ضمير الجماعة مجاز عقلي عن نسبة فعل المتبوع إلى أتباعه إذ كان الأقرع بن حابس مقدم الوفد، كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا، وإنما قتله واحد منهم، قال تعالى) وإذ قتلتم نفسا(.

ونفي العقل عنهم مراد به عقل التأدب الواجب في معاملة النبي صلى الله عليه وسلم أو عقل التأدب المفعول عنه في عادتهم التي اعتادوها في الجاهلية من الجفاء والغلظة والعنجهية، وليس فيها تحريم ولا ترتب ذنب.

وإنما قال الله تعالى)أكثرهم لا يعقلون(لان منهم من لم يناد النبي صلى الله عليه وسلم مثل ندائهم، ولعل المقصود استثناء اللذين كانا أسلما من قبل.

فهذه الآية تأديب لهم وإخراج لهم من مذام أهل الجاهلية.

والوراء: الخلف، وهو جهة اعتبارية بحسب موقع ما يضاف إليه.

والمعنى: أن الحجرات حاجزة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم فهم لا يرونه فعبر عن جهة من لا يرى بأنها وراء.

و)من(للابتداء، أي ينادونك نداء صادرا من وراء الحجرات فالمنادون بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم كانوا وراء حجراته فالذي يقول: ناداني فلان وراء الدار، لا يريد وراء مفتح الدار ولا وراء ظهرها ولكن أي جهة منها وكان القوم المنادون في المسجد فهم تجاه الحجرات النبوية، ولو قال: ناداني فلان وراء الدار، دون حرف)من(، لكان محتملا لأن يكون المنادي والمنادى كلاهما في جهة وراء الدار، وأن المجرور ظرف مستقر في موضع الحال من الفاعل أو المفعول ولهذا أوثر جلب)من(ليدل بالصراحة على أن المنادى كان داخل الحجرات لأن دلالة)من(على الابتداء تستلزم اختلافا بين المبدأ والمنتهى كذا أشار في الكشاف، ولا شك أنه يعني أن اجتلاب حرف)من(لدفع اللبس فلا ينافي أنه لم يثبت هذا الفرق في قوله تعالى)ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم(في سورة الأعراف وقوله)ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض(في سورة الروم. وفيما ذكرنا ما يدفع الاعتراضات على صاحب الكشاف.

فلفظ)وراء(هنا مجاز في الجهة المحجوبة عن الرؤية.

والحجرات، بضمتين ويجوز فتح الجيم: جمع حجرة بضم الحاء وسكون الجيم وهي البقعة المحجورة، أي التي منعت من أن يستعملها غير حاجرها فهي فعلة بمعنى مفعولة كغرفة، وقبضة. وفي الحديث أيقظوا صواحب الحجر يعني أزواجه، وكانت الحجرات تفتح إلى المسجد.

وقرأ الجمهور)الحجرات(بضمتين. وقرأه أبو جعفر بضم الحاء وفتح الجيم.
وكانت الحجرات تسعا وهي من جريد النخل، أي الحواجز التي بين كل واحدة والأخرى، وعلى أبوابها مسوح من شعر أسود وعرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحو سبعة أذرع، ومساحة البيت الداخل، أي الذي في داخل الحجرة عشرة أذرع، أي فتصير مساحة الحجرة مع البيت سبعة عشر ذراعا. قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي.
وإنما ذكر الحجرات دون البيوت لأن البيت كان بيتا واحدا مقسما إلى حجرات تسع.
وتعريف)الحجرات(باللام تعريف العهد، لأن قوله)ينادونك(مؤذن بأن الحجرات حجراته فلذلك لم تعرف بالإضافة.
وهذا النداء وقع قبل نزول الآية فالتعبير بصيغة المضارع في) ينادونك(لاستحضار حالة ندائهم.
ومعنى قوله)ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم(أنه يكسبهم وقارا بين أهل المدينة ويستدعي لهم الإقبال من الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إياه، ورفع أصواتهم في مسجده فكان فيما فعلوه جلافة.
فقوله)خيرا(يجوز أن يكون اسم تفضيل، ويكون في المعنى: لكان صبرهم أفضل من العجلة. ويجوز أن يكون اسما ضد الشر، أي لكان صبرهم خيرا لما فيه من محاسن الخلق بخلاف ما فعلوه فليس فيه خير، وعلى الوجهين فالآية تأديب لهم وتعليمهم محاسن الأخلاق وإزالة العوائد الجاهلية الذميمة.
وإيثار)حتى(في قوله)حتى تخرج إليهم(دون)إلى(لأجل الإيجاز بحذف حرف)أن(فإنه ملتزم حذفه بعد)حتى(بخلافه بعد)إلى(فلا يجوز حذفه.

صفحة : 4093

وفي تعقيب هذا اللوم بقوله)والله غفور رحيم(إشارة إلى أنه تعالى لم يحص عليهم ذنبا فيما فعلوا ولا عرض لهم بتوبة.
والمعنى: والله شأنه التجاوز عن مثل ذلك رحمة بالناس لأن القوم كانوا جاهلين.
)يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين[6](هذا نداء ثالث ابتدئ به

غرض آخر وهو آداب جماعات المؤمنين بعضهم مع بعض وقد تضافرت الروايات عند المفسرين عن أم سلمة وابن عباس والحارث بن ضرارة الخزاعي أن هذه الآية نزلت عن سبب قضية حدثت. ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق من خزاعة ليأتي بصدقاتهم فلما بلغهم مجيئه، أو لما استبطأوا مجيئه، فإنهم خرجوا لتلقيه أو خرجوا ليبلغوا صدقاتهم بأنفسهم وعليهم السلاح، وأن الوليد بلغه أنهم خرجوا إليه بتلك الحالة وهي حالة غير مألوفة في تلقي المصدقين وحدثته نفسه أنهم يريدون قتله، أو لما رآهم مقبلين كذلك على اختلاف الروايات خاف أن يكونوا أرادوا قتله إذ كانت بينه وبينهم شحناء من زمن الجاهلية فولى راجعا إلى المدينة.

هذا ما جاء في روايات أربع متفقة في صفة خروجهم إليه مع اختلافها في بيان الباعث لهم على ذلك الخروج وفي أن الوليد أعلم بخروجهم إليه أو رآهم أو استشعرت نفسه خوفا وأن الوليد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن بني المصطلق أرادوا قتلي وأنهم منعوا الزكاة فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أن يبعث إليهم خالد بن الوليد لينظر في أمرهم، وفي رواية أنه بعث خالدا وأمره بأن لا يغزوهم حتى يستثبت أمرهم وأن خالدا لما بلغ ديار القوم بعث عينا له ينظر حالهم فأخبره أنهم يقيمون الأذان والصلاة فأخبرهم بما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وقبض زكاتهم وقفل راجعا.

وفي رواية أخرى أنهم ظنوا من رجوع الوليد أن يظن بهم منع الصدقات فجاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرج خالد إليهم متبرئين من منع الزكاة ونية الفتك بالوليد بن عقبة. وفي رواية أنهم لما وصلوا إلى المدينة وجدوا الجيش خارجا إلى غزوهم.

فهذا تلخيص هذه الروايات وهي بأسانيد ليس منها شيء في الصحيح.

وقد روي أن سبب نزول هذه الآية قضيتان أخريان، وهذا أشهر.

ولنشتغل الآن ببيان وجه المناسبة لموقع هذه الآية عقب التي قبلها فإن الانتقال منها إلى هذه يقتضي مناسبة بينهما، فالقصتان متشابهتان إذ كان وفد بني تميم النازلة فيهم الآية السابقة جاؤوا معتذرين عن ردهم ساعي رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبض صدقات بني كعب بن العنبر من تميم كما تقدم، وبنو المصطلق تبرؤوا من أنهم يمنعون الزكاة إلا أن هذا يناكده بعد ما بين الوقتين إلا أن يكون في تعيين سنة وفد بني تميم وهم.

وإعادة الخطاب ب)يا أيها الذين آمنوا(وفصله بدون عاطف لتخصيص هذا الغرض بالاهتمام كما علمت في قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي(.
فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا للمناسبة المتقدم ذكرها.
ولا تعلق لهذه الآية بتشريع في قضية بني المصطلق مع الوليد بن عقبة لأنها قضية انقضت وسويت.
والفاسق: المتصف بالفسوق، وهو فعل ما يحرمه الشرع من الكبائر.
وفسر هنا بالكاذب قاله ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله.
وأوثر في الشرط حرف)إن(الذي الأصل فيه أن يكون للشرط المشكوك في وقوعه للتنبيه على أن شأن فعل الشرط أن يكون نادر الوقوع لا يقدم عليه المسلمون.
واعلم أن ليس الآية ما يقتضي وصف الوليد بالفاسق تصريحا ولا تلويحا.
وقد اتفق المفسرون على أن الوليد ظن ذلك كما في الإصابة عن ابن عبد البر وليس في الروايات ما يقتضي أنه تعمد الكذب. قال الفخر: إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقا.

قلت: ولو كان الوليد فاسقا لما ترك النبي صلى الله عليه وسلم تعنيفه واستتابته فإنه روى أنه لم يزد على قوله له التبيين من الله والعجلة من الشيطان ، إذ كان تعجيل الوليد الرجوع عجلة. وقد كان خروج القوم للتعرض إلى الوليد بتلك الهيئة مثار ظنه حقا إذ لم يكن المعروف خروج القبائل لتلقي السعاة. وأنا أحسب أن عملهم كان حيلة من كبرائهم على انصراف الوليد عن الدخول في حيهم تعيرا منهم في نظر عامتهم من أن يدخل عدو لهم إلى ديارهم ويتولى قبض صدقاتهم فتعيرهم أعداؤهم بذلك يمتعض منهم دهماؤهم ولذلك ذهبوا بصدقاتهم بأنفسهم في رواية أو جاؤوا معتذرين قبل مجيء خالد بن الوليد إليهم في رواية أخرى.
ويؤيد هذا ما جاء في بعض روايات هذا الخبر أن الوليد. أعلم بخروج القوم إليه، وسمع بذلك فلعل ذلك الإعلام موعز به إليه ليخاف فيرجع. وقد اتفق من ترجموا للوليد بن عقبة على أنه كان شجاعا جوادا وكان ذا خلق ومروءة.

واعلم أن جمهور أهل السنة على اعتبار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عدولا وإن كل من رأى النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به فهو من أصحابه. وزاد بعضهم شرط أن يروي عنه أو يلازمه ومال إليه المازري. قال في أماليه في أصول الفقه ولسنا نعني بأصحاب النبي كل من رآه أو زاره لماما إنما يريد أصحابه الذين لازموه وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وأولئك هم المفلحون شهد الله لهم بالفلاح اه.

وإنما تلقف هذه الأخبار الناقمون على عثمان إذ كان من عداد مناقمهم الباطلة أنه أولى الوليد بن عقبة إمارة الكوفة فحملوا الآية على غير وجهها وألصقوا بالوليد وصف الفاسق، وحاشاه منه لتكون ولايته الإمارة باطلا. وعلى تسليم أن تكون الآية إشارة إلى فاسق معين فلماذا لا يحمل على إرادة الذي أعلم الوليد بأن القوم خرجوا له ليصدوه عن الوصول الى ديارهم قصدا لإرجاعه.

وفي بعض الروايات أن خالدا وصل إلى ديار بني المصطلق. وفي بعضها أن بني المصطلق وردوا المدينة معتذرين، واتفقت الروايات على أن بين بني المصطلق وبين الوليد بن عقبة شحناء من عهد الجاهلية.

وفي الرواية أنهم اعتذروا للتسلح بقصد إكرام ضيفهم. وفي السيرة الحلبية، أنهم قالوا: خشينا أن يبادئنا بالذي كان بيننا من شحناء.

وهذه الآية أصل في الشهادة والرواية من وجوب البحث عن دخيلة من جهل حال تقواه. وقد قال عمر ابن الخطاب لا يؤسر أحد في الإسلام بغير العدول، وهي أيضا أصل عظيم في تصرفات ولاة الأمور وفي تعامل الناس بعضهم مع بعض من عدم الإصغاء إلى كل ما يروى ويخبر به.

والخطاب ب)يا أيها الذين آمنوا(مراد به النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه ويشمل الوليد بن عقبة إذ صدق من أخبره بأن بني المصطلق يريد له سوءا ومن يأتي من حكام المؤمنين وأمرائهم لأن المقصود منه تشريع تعديل من لا يعرف بالصدق والعدالة.

ومجيء حرف)إن(في هذا الشرط يومئ إلى أنه مما ينبغي أن لا يقع إلا نادرا.

والتبيين: قوة الإبانة وهو متعد إلى مفعول بمعنى أبان، أي تأملوا وأبينوا. والمفعول محذوف دل عليه قوله بنبإ أي تبينوا ما جاء به وإبانة كل شيء بحسبها.

والأمر بالتبيين أصل عظيم في وجوب التثبت في القضاء وأن لا يتتبع الحاكم القيل والقال ولا ينصاع إلى الجولان في الخواطر من الظنون والأوهام.

ومعنى)فتبينوا(تبينوا الحق، أي من غير جهة ذلك الفاسق. فخبر الفاسق يكون داعيا إلى التتبع والتثبت يصلح لأن يكون مستندا للحكم بحال من الأحوال وقد قال عمر بن الخطاب لا يؤسر أحد في الإسلام بغير العدول .

وإنما كان الفاسق معرضا خبره للريبة والاختلاق لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحظور وبما يخبر به في شهادة أو خبر يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح العام ويقوي جرأته على ذلك دوما إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله.

والإشراك أشد في ذلك الاجتراء لقلة مراعاة الوازع في أصول الإشراك.

وتنكير)فاسق(، و)نبإ(، في سياق الشرط يفيد العموم في الفساق بأي فسق اتصفوا، وفي الأنباء كيف كانت، كأنه قيل: أي فاسق جاءكم بأي نبإ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشافه.

صفحة : 4095

وقرأ الجمهور)فتبينوا(بفوقية فموحدة فتحتية فنون من التبيين، وقرأ حمزة والكسائي وخلف فتثبتوا بفوقية فمثلثة فموحدة ففوقية من التثبت. والتبيين: تطلب البيان وهو ظهور الأمر، والتثبت التحري وتطلب الثبات وهو الصدق.

ومآل القراءتين واحد وإن اختلف معناهما. وعن النبي صلى الله عليه وسلم التثبت من الله والعجلة من الشيطان .

وموقع)أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا(الخ نصبا على نزع الخافض وهو لام التعليل محذوفة. ويجوز كونه منصوبا على المفعول لأجله.

والمعلل باللام المحذوفة أو المقدرة هو التثبت، فمعنى تعليله بإصابة يقع إثرها الندم هو التثبت.

فمعنى تعليله بإصابة يقع آخرها الندم أن الإصابة علة تحمل على التثبت للتفادي منها فلذلك كان معنى الكلام على انتفاء حصول هذه الإضافة لأن العلة إذا صلحت لإثبات الكف عن فعل تصليح للإتيان بضده لتلازم الضد. وتقدم نظير هذا التعليل في قوله)أن تحبط أعمالكم(في هذه السورة.

وهذا التحذير من جراء قبول خبر الكاذب يدل على تحذير من يخطر له اختلاق خبر مما يترتب على خبره الكاذب من إصابة الناس. وهذا بدلالة فحوى الخطاب.

والجهالة: تطلق بمعنى ضد العلم، وتطلق بمعنى ضد الحلم مثل قولهم: جهل كجهل السيف، فإن كان الأول، فالباء للملابسة وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي متلبسين أنتم بعدم العلم بالواقع لتصديقكم الكاذب، ومتعلق)تصيبوا(على هذا الوجه محذوف دل عليه السياق سابقا ولاحقا، أي أن تصيبوهم بضر، وأكثر إطلاق الإصابة على إيصال الضر وعلى الإطلاق الثاني الباء للتعدية، أي أن تصيبوا قوما بفعل من أثر الجهالة، أي بفعل من الشدة والإضرار.

ومعنى)فتصبحوا(فتصيروا لأن بعض أخوات كان تستعمل بمعنى الصيرورة. والندم: الأسف على فعل صدر. والمراد به هنا الندم الديني، أي الندم على التورط في الذنب للتساهل وترك تطلب وجوه الحق.

وهذا الخطاب الذي اشتمل عليه قوله)يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا(موجه ابتداء للمؤمنين المخبرين بفتح الباء كل بحسب أثره بما يبلغ إليه من الأخبار على اختلاف أغراض المخبرين بكسر الباء .

ولكن هذا الخطاب لا يترك المخبرين بكسر الباء بمعزل عن المطالبة بهذا التبين فيما يتحملونه من الأخبار وبتوخي سوء العاقبة فيما يختلفونه من المختلفات ولكن هذا تبين يخالف تبين الآخر وتثبته، فهذا تثبت من المتلقي بالتمحيص لما يتلقاه من حكاية أو يطرق سمعه من الكلام والآخر تمحيص وتمييز لحال المخبر.

واعلم أن هذه الآية تتخرج منها أربع مسائل من الفقه وأصوله: المسألة الأولى: وجوب البحث عن عدالة من كان مجهول الحال في قبول الشهادة أو الرواية عند القاضي وعند الرواة. وهذا صريح الآية وقد أشرنا إليه آنفا.

المسألة الثانية: أنها دالة على قبول الواحد الذي انتفت عنه تهمة الكذب في شهادته أو روايته وهو الموسوم بالعدالة، وهذا من مدلول مفهوم الشرط في قوله)إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا(وهي مسألة أصولية في العمل بخبر الواحد.

المسألة الثالثة: قيل إن الآية تدل على أن الأصل في المجهول عدم العدالة، أي عدم ظن عدالته فيجب الكشف عن مجهول الحال فلا يعمل بشهادته ولا بروايته حتى يبحث عنه وتثبيت عدالته.

وهذا قول جمهور الفقهاء والمحدثين وهو قول مالك. وقال بعضهم: الأصل في الناس العدالة وينسب إلى أبي حنيفة فيقبل عنده مجهول الباطن ويعبر عنه بمستور الحال. أما المجهول باطنه وظاهره معا فحكي الاتفاق على عدم قبول خبره، وكأنهم نظروا إلى معنى كلمة الأصل العقلي دون الشرعي، وقد قيل: إن عمر بن الخطاب

كان قال المسلمون عدول بعضهم عن بعض وأنه لما بلغه ظهور شهادة الزور رجع فقال لا يؤسر أحد في الإسلام بغير العدول . ويستثنى من هذا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإن الأصل أنهم عدول حتى يثبت خلاف ذلك بوجه لا خلاف فيه في الدين ولا يختلف فيه اجتهاد المجتهدين. وإنما تفيد الآية هذا الأصل إذا حمل معنى الفاسق على ما يشمل المتهم بالفسق.

صفحة : 4096

المسألة الرابعة: دل قوله)فتصبحوا على ما فعلتم نادمين(أنه تحذير من الوقوع فيما يوجب الندم شرعا، أي ما يوجب التوبة من تلك الإصابة، فكان هذا كناية عن الإثم في تلك الإصابة فحذر ولاة الأمور من أن يصيبوا أحدا بضر أو عقاب أو حد أو غرم دون تبين وتحقق توجه ما يوجب تسليط تلك الإصابة عليه بوجه يوجب اليقين أو غلبة الظن وما دون ذلك فهو تقصير يؤاخذ عليه، وله مراتب بينها العلماء في حكم خطها القاضي وصفة المخطئ وما ينقض من أحكامه.

وتقديم المجرور على متعلقه في قوله)على ما فعلتم نادمين(للاهتمام بذلك الفعل، وهو الإصابة بدون تثبت والتنبيه على خطر أمره.

)واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم(عطف على جملة)إن جاءكم فاسق بنبإ(عطف تشريع على تشريع وليس مضمونها تكملة لمضمون جملة)إن جاءكم فاسق(الخ بل هي جملة مستقلة.

وابتداء الجملة ب)اعلموا(للاهتمام، وقد تقدم في قوله تعالى) واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه(في سورة البقرة. وقوله)واعلموا أنما غنمتم من شيء(في الأنفال.

وقوله)أن فيكم رسول الله(إن خبر مستعمل في الإيقاظ والتحذير على وجه الكناية. فإن كون رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم أمر معلوم لا يخبر عنه. فالمقصود تعليم المسلمين باتباع ما شرع لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام ولو كانت غير موافقة لرغباتهم.

وجملة)لو يطيعكم في كثير من الأمر(الخ يجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا.

فضميرا الجمع في قوله)يطيعكم(وقوله)لعنتم(عائدان إلى الذين آمنوا على توزيع الفعل على الأفراد فالمطاع بعض الذين آمنوا وهم

الذين يبتغون أن يعمل الرسول صلى الله عليه وسلم بما يطلبون منه، والعانت بعض آخر وهم جمهور المؤمنين الذين يجري عليهم قضاء النبي صلى الله عليه وسلم بحسب رغبة غيرهم.

ويجوز أن تكون جملة)لو يطيعكم(الخ في موضع الحال من ضمير)فيكم(لأن مضمون الجملة يتعلق بأحوال المخاطبين، من جهة أن مضمون جواب)لو(عنت يحصل للمخاطبين.

ومآل الاعتبارين في موقع الجملة واحد وانتظام الكلام على كلا التقديرين غير منثلم.

والطاعة: عمل أحد يؤمر به وما ينهى عنه وما يشار به عليه، أي لو أطاعكم فيما ترغبون.

و)الأمر(هنا بمعنى الحادث والقضية النازلة.

والتعريف في الأمر تعريف الجنس شامل لجميع الأمور ولذلك جيء معه بلفظ)كثير من(أي في أحداث كثيرة مما لكم رغبة في تحصيل شيء منها فيه مخالفة لما شرعه.

وهذا احتراز عن طاعته إياهم في بعض الأمر مما هو من غير شؤون التشريع كما أطاعهم في نزول الجيش يوم بدر على جهة يستأثرون فيها بماء بدر.

والعنت: اختلال الأمر في الحاضر أو في العاقبة.

وصيغة المضارع في قوله)لو يطيعكم(مستعملة في الماضي لأن حرف)لو(يفيد تعليق الشرط في الماضي، وإنما عدل إلى صيغة المضارع لأن المضارع صالح للدلالة على الاستمرار، أي لو أطاعكم في قضية معينة ولو أطاعكم كلما رغبتم منه أو أشرتم عليه لعنتم لأن بعض ما يطلبونه مضر بالغير أو بالراغب نفسه فإنه قد يحب عاجل النفع العائد عليه بالضر.

وتقديم خبر)إن(على اسمها في قوله)إن فيكم رسول الله(للاهتمام بهذا الكون فيهم وتنبيها على أن واجبهم الاغتباط به والإخلاص له لأن كونه فيهم شرف عظيم لجماعتهم وصلاح لهم.

والعنت: المشقة، أي لأصاب الساعين في أن يعمل النبي صلى الله عليه وسلم بما يرغبون العنت. وهو الإثم إذ استغفلوا النبي صلى الله عليه وسلم ولأصاب غيرهم العنت بمعنى المشقة وهي ما يلحقهم من جريان أمر النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلائم الواقع فيضر ببقية الناس وقد يعود بالضر على الكاذب المتشفي برغبته تارة فيلحق عنت من كذب غيره تارة أخرى.

)ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون[7] فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم[8](

الاستدراك المستفاد من)لكن(ناشئ عن قوله)لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم(لأنه اقتضى أن لبعضكم رغبة في أن يطيعهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرغبون أن يفعله مما يبتغون مما يخالونه صالحا بهم في أشياء كثيرة تعرض لهم.

والمعنى: ولكن الله لا يأمر رسوله إلا بما فيه صلاح العاقبة وإن لم يصادف رغباتكم العاجلة وذلك فيما شرعه الله من الأحكام، فالإيمان هنا مراد منه أحكام الإسلام وليس مرادا منه الاعتقاد، فان اسم الإيمان واسم الإسلام يتواردان، أي حبب إليكم الإيمان الذي هو الدين الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا تحريض على التسليم لما يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في معنى قوله تعالى)حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما(، ولذا فكونه حبب إليهم الإيمان إدماج وإيجاز. والتقدير: ولكن الله شرع لكم الإسلام وحببه إليكم أي دعاكم إلى حبه والرضى به فامتثلتم.

وفي قوله)وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان(تعريض بأن الذين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم بقية من الكفر والفسوق، قال تعالى)وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون(إلى قوله)هم الظالمون(.

والمقصود من هذا أن يتركوا ما ليس من أحكام الإيمان فهو من قبيل قوله)بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان(تحذيرا لهم من الحياد عن مهيع الإيمان وتجنيبا لهم ما هو من شأن أهل الكفر.

فالخبر في قوله)حبب إليكم الإيمان(إلى قوله)والعصيان(مستعمل في الإلهاب وتحريك الهمم لمراعاة الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان، أي إن كنتم أحببتم الإيمان وكرهتم الكفر والفسوق والعصيان فلا ترغبوا في حصول ما ترغبونه إذا كان الدين يصد عنه وكان الفسوق والعصيان يدعو إليه. وفي هذا إشارة إلى أن الاندفاع إلى تحصيل المرغوب من الهوى دون تمييز بين ما يرضي الله وما لا يرضيه أثر من آثار الجاهلية من آثار الكفر والفسوق والعصيان.

وذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك دون ضمير المتكلم لما يشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة.

وما يقتضيه من واجب اقتبال ما حبب إليه ونبذ ما كره إليه.

وعدي فعلا)حبب(و)كره(بحرف)إلى(لتضمينها معنى بلغ، أي بلغ إليكم حب الإيمان وكره الكفر.

ولم يعد فعل)وزينه(بحرف)إلى(مثل فعلي)حبب(و)كره(، للإيماء إلى أنه لما رغبهم في الإيمان وكرههم الكفر امتثلوا فأحبوا الإيمان وزان في قلوبهم.
والتزيين: جعل الشيء زينا، أي حسنا قال عمر بن أبي ربيعة:
أجمعت خلتي مع الفجر بينا جلل الله ذلك الوجه زينا وجملة)أولئك هم الراشدون(معترضة للمدح.
والإشارة ب)أولئك(إلى ضمير المخاطبين في قوله)إليكم(مرتين وفي قوله)قلوبكم(أي الذين أحبوا الإيمان وتزينت به قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، أي هم المستقيمون على طريق الحق.
وأفاد ضمير الفصل القصر وهو قصر إفراد إشارة الى أن بينهم فريقا ليسوا براشدين وهم الذين تلبسوا بالفسق حين تلبسهم به فإن أقلعوا عنه التحقوا بالراشدين.
وانتصب)فضلا من الله ونعمة(على المفعول المطلق المبين للنوع من أفعال)حبب، وزين، وكره(لأن ذلك التحبيب والتزيين والتكريه من نوع الفضل والنعمة.
وجملة)والله عليم حكيم(تذييل لجملة)واعلموا أن فيكم رسول الله(إلى آخرها إشارة إلى أن ما ذكر فيها من آثار علم الله وحكمته.. والواو اعتراضية.
)وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين[9] (لما جرى قوله)أن تصيبوا قوما بجهالة(الآية كان مما يصدق عليه إصابة قوم أن تقع الإصابة بين طائفتين من المؤمنين لأن من الأخبار الكاذبة أخبار النميمة بين القبائل وخطرها أكبر مما يجري بين الأفراد والتبيين فيها أعسر، وقد لا يحصل التبيين إلا بعد أن تستعر نار الفتنة ولا تجدي الندامة.

وفي الصحيحين عن أنس ابن مالك أن الآية نزلت في قصة مرور رسول الله صلى الله عليه وسلم على مجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول ورسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وبال الحمار، فقال عبد الله بن أبي: خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه. فقال له عبد الله بن رواحة: والله إن بول حماره لأطيب من مسكك فاستبا وتجالدا وجاء

قوماهما الأوس والخزرج، فتجالدوا بالتعال والسعف فرجع إليهم رسول الله فأصلح بينهم... فنزلت هذه الآية. وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد: وليس فيه أن الآية نزلت في تلك الحادثة.

ويناكد هذا أن تلك الوقعة كانت في أول أيام قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة. وهذه السورة نزلت سنة تسع من الهجرة وأن انس بن مالك لم يجزم بنزولها في ذلك لقوله فبلغنا أن نزلت فيهم وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . اللهم أن تكون هذه الآية ألحقت بهذه السورة بعد نزول الآية بمدة طويلة.

وعن قتادة والسدي: أنها نزلت في فتنة بين الأوس والخزرج بسبب خصومة بين رجل وامرأته أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج انتصر لكل منهما قومه حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال والعصي فنزلت الآية فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهما وهذا أظهر من الرواية الأولى فكانت حكما عاما نزل في سبب خاص.

و)إن(حرف شرط يخلص الماضي للاستقبال فيكون في قوة المضارع. وارتفع)طائفتان(بفعل مقدر يفسره قوله)اقتتلوا(للاهتمام بالفاعل. وإنما عدل عن المضارع بعد كونه الأليق بالشرط لأنه لما أريد تقديم الفاعل على فعله للاهتمام بالمسند إليه جعل الفعل ماضيا على طريقة الكلام الفصيح في مثله مما أوليت فيه) إن(الشرطية الاسم نحو)وإن أحد من المشركين استجارك(،)وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا(. قال الرضي وحق الفعل الذي يكون بعد الاسم الذي يلي)ان(أن يكون ماضيا وقد يكون مضارعا على الشذوذ وإنما ضعف مجيء المضارع لحصول الفصل بين الجازم وبين معموله .

ويعود ضمير)اقتتلوا(على)طائفتان(باعتبار المعنى لأن طائفة ذات جمع، والطائفة الجماعة. وتقدم عند قوله تعالى)فلتقم طائفة منهم معك(في سورة النساء.

والوجه أن يكون فعل)اقتتلوا(مستعملا في إرادة الوقوع مثل)يا أيها الذين آمنوا قمتم إلى الصلاة(ومثل)والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا(، أي يريدون العود لأن الأمر بالإصلاح بينهما واجب قبل الشروع في الاقتتال وذلك عند ظهور بوادره وهو أولى من انتظار وقوع الاقتتال ليمكن تدارك الخطب قبل وقوعه على معنى قوله تعالى)وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا(.

وبذلك يظهر وجه تفريع قوله)فإن بغت إحداهما على الأخرى(على جملة)اقتتلوا(، أي فإن ابتدأت إحدى الطائفتين قتال الأخرى ولم تنصع إلى الإصلاح فقاتلوا الباغية.

والبغي: الظلم والاعتداء على حق الغير، وهو هنا مستعمل في معناه اللغوي وهو غير معناه الفقهي ف)التي تبغي(هي الطائفة الظالمة الخارجة عن الحق وإن لم تقاتل لأن بغيها يحمل الطائفة المبغي عليها أن تدافع عن حقها.

وإنما جعل حكم قتال الباغية أن تكون طائفة لأن الجماعة يعسر الأخذ على أيدي ظلمهم بأفراد من الناس وأعوان الشرطة فتعين أن يكون كفهم عن البغي بالجيش والسلاح.

وهذا في التقاتل بين الجماعات والقبائل، فأما خروج فئة عن جماعة المسلمين فهو أشد وليس هو مورد هذه الآية ولكنها أصل له في التشريع.

وقد بغى أهل الردة على جماعة المسلمين بغيا بغير قتال فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه، وبغى بغاة أهل مصر على عثمان رضي الله عنه فكانوا بغاة على جماعة المؤمنين، فأبى عثمان قتالهم وكره أن يكون سببا في إراقة دماء المسلمين اجتهادا منه فوجب على المسلمين طاعته لأنه ولي الأمر ولم ينفوا عن الثوار حكم البغي.

ويحقق وصف البغي بإخبار أهل العلم أن الفئة بغت على الأخرى أو بحكم الخليفة العالم العدل، وبالخروج عن طاعة الخليفة وعن الجماعة بالسيف إذا أمر بغير ظلم ولا جور ولم تخش من عصيانه فتنة لأن ضر الفتنة أشد من شد الجور في غير إضاعة المصالح العامة من مصالح المسلمين، وذلك لأن الخروج عن طاعة الخليفة بغي على الجماعة الذين مع الخليفة.

وقد كان تحقيق معنى البغي وصوره غير مضبوط في صدر الإسلام وإنما ضبطه العلماء بعد وقعة الجمل ولم تطل ثم بعد وقعة صفين، وقد كان القتال فيها بين فئتين ولم يكن الخارجون عن علي رضي الله عنه من الذين بايعوه بالخلافة، بل كانوا شرطوا لمبايعتهم إياه أخذ القود من قتلة عثمان منهم، فكان اقتناع أصحاب معاوية مجالا للاجتهاد بينهم وقد دارت بينهم كتب فيها حجج الفريقين ولا يعلم الثابت منها والمكذوب إذ كان المؤرخون أصحاب أهواء مختلفة. وقال ابن العربي: كان طلحة والزبير يريان البداءة بقتل قتلة عثمان أولى،

إلا أن العلماء حققوا بعد ذلك أن البغي في جانب أصحاب معاوية لأن البيعة بالخلافة لا تقبل التقييد بشرط.

وقد اعترف الجميع بأن معاوية وأصحابه كانوا مدافعين عن نظر اجتهادي مخطئ، وكان الواجب يقضي على جماعة من المسلمين الدعاء إلى الصلح بين الفريقين حسب أمر القرآن وجوب الكفاية فقد قيل: إن ذلك وقع التداعي إليه ولم يتم لانتقاض الحرورية على أمر التحكيم فقالوا: لا حكم إلا لله ولا نحكم الرجال.

وقيل: كيدت مكيدة بين الحكمين، والإخبار في ذلك مضطربة على اختلاف المتصدين لحكاية القضية من المؤرخين أصحاب الأهواء. والله أعلم بالضمائر.

وسئل الحسن البصري عن القتال بين الصحابة فقال: شهد أصحاب محمد وغبنا وعلموا وجهلنا. وقال المحاسبي: تعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا.

والأمر في قوله)فقاتلوا التي تبغي(للوجوب، لأن هذا حكم بين الخصمين والقضاء بالحق واجب لأنه لحفظ حق المحق، ولان ترك قتال الباغية يجر إلى استرسالها في البغي وإضاعة حقوق المبغي عليها في الأنفس والأحوال والأغراض والله لا يحب الفساد، ولأن ذلك يجرئ غيرها على أن تأتي مثل صنيعها فمقاتلها زجر لغيرها. وهو وجوب كفاية ويتعين بتعيين الإمام جيشا يوجهه لقتالها إذ لا يجوز أن يلي قتال البغاة إلا الأئمة والخلفاء. فإذا اختل أمر الإمامة فليتول قتال البغاة السواد الأعظم من الأمة وعلماؤها. فهذا الوجوب مطلق في الأحوال تقيده الأدلة الدالة على عدم المصير إليه إذا علم أن قتالها يجر إلى فتنة أشد من بغيها.

وقد تلتبس الباغية من الطائفتين المتقاتلتين فإن أسباب التقاتل قد تتولد من أمور لا يؤبه بها في أول الأمر ثم تثور الثائرة ويتجالد الفريقان فلا يضبط أمر الباغي منهما، فالإصلاح بينهما يزيل اللبس فإن امتنعت إحداهما تعين البغي في جانبها لأن للإمام والقاضي أن يجبر على الصلح إذا خشي الفتنة ورأى بوارقها، وذلك بعد أن تبين لكلتا الطائفتين شبهتها إن كانت لها شبهة وتزال بالحجة الواضحة والبراهين القاطعة ومن يأب منهما فهو أعق وأظلم.

وجعل الفيء إلى أمر الله غاية للمقاتلة، أي يستمر قتال الطائفة الباغية إلى غاية رجوعها إلى أمر الله، وأمر الله هو ما في الشريعة من العدل والكف عن الظلم، أي حتى تقلع عن بغيها. وأتبع مفهوم الغاية ببيان ما تعامل به الطائفتان بعد أن تفي الباغية بقوله)فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل(، والباء للملابسة والمجرور حال من ضمير)اصلحوا(.

والعدل: هو ما يقع التصالح عليه بالتراضي والإنصاف وأن لا يضر بإحدى الطائفتين فإن المتالف التي تلحق كلتا الطائفتين قد تتفاوت تفاوتا شديدا فتجب مراعاة التعديل.
وقيد الإصلاح المأمور به ثانيا بقيد أن تفيء الباغية بقيد) بالعدل(ولم يقيد الإصلاح المأمور به، وهذا القيد يقيد به أيضا الإصلاح المأمور به أولا لأن القيد من شأنه أن يعود إليه لاتحاد سبب المطلق والمقيد، أي يجب العدل في صورة الإصلاح فلا يضيعوا بصورة الصلح منافع عن كلا الفريقين إلا بقدر ما تقتضيه حقيقة الصلح من نزول عن بعض الحق بالمعروف.

ثم أمر المسلمين بالعدل بقوله)وأقسطوا(أمرا عاما تذييلا للأمر بالعدل الخاص في الصلح بين الفريقين، فشمل ذلك هذا الأمر العام أن يعدلوا في صورة ما إذا قاتلوا التي تبغي، ثم قال)فإن فاءت فأصلحوا بينهما(. وهذا إصلاح ثان بعد الإصلاح المأمور به ابتداء.
ومعناه: أن الفئة التي خضعت للقوة وألقت السلاح تكون مكسورة الخاطر شاعرة بانتصار الفئة الأخرى عليها فأوجب على المسلمين أن يصلحوا بينهما بترغيبهما في إزالة الإحن والرجوع إلى أخوة الإسلام لئلا يعود التنكر بينهما.
قال أبو بكر بن العربي: ومن العدل في صلحهم أن لا يطالبوا بما جرى بينهم مدة القتال من دم ولا مال فإنه تلف على تأويل وفي طلبهم به تنفير لهم عن الصلح واستشراء في البغي وهذا أصل في المصلحة ا ه.
ثم قال: لا ضمان عليهم في نفس ولا مال عندنا المالكية . وقال أبو حنيفة يضمنون. وللشافعي فيه قولان. فأما ما كان قائما رد بعينه. وانظر هل ينطبق كلام ابن العربي على نوعي الباغية أو هو خاص بالباغية على الخليفة وهو الأظهر.
فأما حكم تصرف الجيش المقاتل للبغاة فكأحوال الجهاد إلا أنه لا يقتل أسيرهم ولا يتبع مدبرهم ولا يذفف على جريحهم ولا تسبى ذراريهم ولا تغنم أموالهم ولا تسترق أسراهم.
وللفقهاء تفاصيل في أحوال جبر الأضرار اللاحقة بالفئة المعتدى عليها والأضرار اللاحقة بالجماعة التي تتولى قتال البغاة فينبغي أن يؤخذ من مجموع أقوالهم ما يرى أولو الأمر المصلحة في الحمل عليها جريا على قوله تعالى)وأقسطوا إن الله يحب المقسطين(.

)إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون[10](تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم، فالجملة موقعها موقع العلة، وقد بني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة.

وجيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين فهو قصر ادعائي أو هو قصر إضافي للرد على أصحاب الحالة المفروضة الذين يبغون على غيرهم من المؤمنين، وأخبر عنهم بأنهم إخوة مجازا على وجه التشبيه البليغ زيادة لتقرير معنى الأخوة بينهم حتى لا يحق أن يقرن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخوة.

وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين لأن شأن)إنما(أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل منزلة ذلك كما قال الشيخ في دلائل الإعجاز في الفصل الثاني عشر وساق عليه شواهد كثيرة من القرآن وكلام العرب فلذلك كان قوله تعالى)إنما المؤمنون إخوة(مفيد أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر. وقد تقرر ذلك في تضاعيف كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم من ذلك قوله تعالى) يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان(في سورة الحشر، وهي سابقة في النزول على هذه السورة فإنها معدودة الثانية والمائة، وسورة الحجرات معدودة الثامنة والمائة من السور. وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار حين وروده المدينة وذلك مبدأ الإخاء بين المسلمين. وفي الحديث لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام أفضل .

وفي باب تزويج الصغار من الكبار من صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب عائشة من أبي بكر. فقال له أبو بكر: إنما أنا أخوك فقال: أنت أخي في دين الله وكتابه وهي لي حلال .

وفي حديث صحيح مسلم المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

وفي الحديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه أي يحب للمسلم ما يحب لنفسه.

فأشارت جملة)إنما المؤمنون إخوة(إلى وجه وجوب الإصلاح بين الطائفتين المتباغيتين منهم ببيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من النسب الموحى ما لا ينقص عن نسب الأخوة الجسدية على نحو قول عمر بن الخطاب للمرأة التي شكت إليه حاجة أولادها وقالت:

أنا بنت خفاف بن أيماء، وقد شهد أبي مع رسول الله الحديبية فقال عمر مرحبا بنسب قريب .

صفحة : 4101

ولما كان المتعارف بين الناس أنه إذا نشبت مشاقة بين الأخوين لزم بقية الإخوة أن يتناهضوا في إزاحتها مشيا بالصلح بينهما فكذلك شأن المسلمين إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم أن ينهض سائرهم بالسعي بالصلح بينهما وبث السفراء إلى أن يرقعوا ما وهي، ويرفعوا ما أصاب ودهى.

وتفريع الأمر بالإصلاح بين الأخوين، على تحقيق كون المؤمنين إخوة تأكيد لما دلت عليه)إنما(من التعليل فصار الأمر بالإصلاح الواقع ابتداء دون تعليل في قوله)فأصلحوا بينهما(، وقوله)فأصلحوا بينهما بالعدل(قد أردف بالتعليل فحصل تقريره، ثم عقب بالتفريع فزاده تقريرا.

وقد حصل من هذا النظم ما يشبه الدعوى وهي كمطلوب القياس، ثم ما يشبه الاستدلال بالقياس، ثم ما يشبه النتيجة.

ولما تقرر معنى الأخوة بين المؤمنين كمال التقرر عدل عن أن يقول: فأصلحوا بين الطائفتين، إلى قوله)بين أخويكم(فهو وصف جديد نشأ عن قوله)إنما المؤمنون إخوة(، فتعين إطلاقه على الطائفتين فليس هذا من وضع الظاهر موضع الضمير فتأمل.

وأوثرت صيغة التثنية في قوله)أخويكم(مراعاة لكون الكلام جار على طائفتين من المؤمنين فجعلت كل طائفة كالأخ للأخرى.

وقرأ الجمهور)بين أخويكم(بلفظ تثنية الأخ، أي بين الطائفة والأخرى مراعاة لجريان الحديث على اقتتال طائفتين.

وقرأ الجمهور)بين أخويكم(بلفظ تثنية الأخ على تشبيه كل طائفة بأخ.

وقرأ يعقوب)فأصلحوا بين إخوتكم(بتاء فوقية بعد الواو على أنه جمع أخ باعتبار كل فرد من الطائفتين كالأخ.

والمخاطب بقوله)واتقوا الله لعلكم ترحمون(جميع المؤمنين فيشمل الطائفتين الباغية والمبغي عليها، ويشمل غيرهما ممن أمروا بالإصلاح بينهما ومقاتلة الباغية، فتقوى كل بالوقوف عند ما أمر الله به كلا مما يخصه، وهذا يشبه التذييل.

ومعنى)لعلكم ترحمون(: ترجى لكم الرحمة من الله فتجري أحوالكم على استقامة وصلاح. وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر

بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها.

)يا أيها الذين أمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن(لما اقتضت الأخوة أن تحسن المعاملة بين الأخوين كان ما تقرر من إيجاب معاملة الإخوة بين المسلمين يقتضي حسن المعاملة بين آحادهم، فجاءت هذه الآيات منبهة على أمور من حسن المعاملة قد تقع الغفلة عن مراعاتها لكثرة تفشيها في الجاهلية لهذه المناسبة، وهذا نداء رابع أريد بما بعده أمر المسلمين بواجب بعض المجاملة بين أفرادهم.

وعن الضحاك: أن المقصود بنو تميم إذ سخروا من بلال وعمار وصهيب، فيكون لنزول الآية سبب متعلق بالسبب الذي نزلت السورة لأجله وهذا من السخرية المنهي عنها.

وروى الواحدي عن ابن عباس أن سبب نزولها: أن ثابت بن قيس بن شماس كان في سمعه وقر وكان إذا أتى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أوسعوا له ليجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول فجاء يوما يتخطى رقاب الناس فقال رجل: قد أصبت مجلسا فاجلس. فقال ثابت: من هذا؟ فقال الرجل: أنا فلان. فقال ثابت: ابن فلانة وذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية، فاستحيا الرجل. فأنزل الله هذه الآية ، فهذا من اللمز.

وروي عن عكرمة: أنها نزلت لما عيرت بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة بالقصر ، وهذا من السخرية.

وقيل: عير بعضهن صفية بأنها يهودية، وهذا من اللمز في عرفهم.

وافتتحت هذه الآيات بإعادة النداء للاهتمام بالغرض فيكون مستقلا غير تابع حسبما تقدم من كلام الفخر. وقد تعرضت الآيات الواقعة عقب هذا النداء لصنف مهم من معاملة المسلمين بعضهم لبعض مما فشا في الناس من عهد الجاهلية التساهل فيها. وهي من إساءة الأقوال ويقتضي النهي عنها الأمر بأضدادها. وتلك المنهيات هي السخرية واللمز والنبز.

والسخر، ويقال السخرية: الاستهزاء، وتقدم في قوله)فيسخرون منهم(في سورة براءة، وتقدم وجه تعديته ب)من(.

والقوم: اسم جمع: جماعة الرجال خاصة دون النساء، قال زهير:

وما أدري وسوف أخال أدري أقوم آل حصن أم نـسـاء؟

وتنكير)قوم(في الموضعين لإفادة الشياع، لئلا يتوهم نهي قوم معينين سخروا من قوم معينين.
وإنما أسند)يسخر(إلى)قوم(دون أن يقول: لا يسخر بعضكم من بعض كما قال)ولا يغتب بعضكم بعضا(للنهي عما كان شائعا بين العرب من سخرية القبائل بعضها من بعض فوجه النهي إلى الأقوام. ولهذا أيضا لم يقل: لا يسخر رجل من رجل ولا امرأة من امرأة.
ويفهم منه النهي عن أن يسخر أحد من أحد بطريق لحن الخطاب. وهذا النهي صريح في التحريم.
وخص النساء بالذكر مع أن القوم يشملهم بطريق التغليب العرفي في الكلام، كما يشمل لفظ)المؤمنين(المؤمنات في اصطلاح القرآن بقرينة مقام التشريع، فأن أصله التساوي في الأحكام إلا ما اقتضى الدليل تخصيص أحد الصنفين به دفعا لتوهم تخصيص النهي بسخرية الرجال إذ كان الاستسخار متأصلا في النساء، فلأجل دفع التوهم الناشئ من هذين السيئين على نحو ما تقدم في قوله من آية القصاص)والأنثى بالأنثى(في سورة البقرة.
وجملة)عسى أن يكونوا خيرا منهم(مستأنفة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين تفيد المبالغة في النهي عن السخرية بذكر حالة يكثر وجودها في المسخورية، فتكون سخرية الساخر أفظع من الساخر، ولأنه يثير انفعال الحياء في نفس الساخرة بينه وبين نفسه. وليست جملة)عسى أن يكونوا خيرا منهم(صفة لقوم من قوله)من قوم(وإلا لصار النهي عن السخرية خاصا بما إذا كان المسخور به مظنة أنه خير من الساخر، وكذلك القول في جملة)عسى أن يكن خيرا منهن(وليست صفة ل)نساء(من قوله)من نساء(.
وتشابه الضميرين في قوله)أن يكونوا خيرا منهم(وفي قوله)أن يكن خيرا منهن(لا لبس فيه لظهور مرجع كل ضمير، فهو كالضمائر في قوله تعالى)وعمروها أكثر مما عمروها(في سورة الروم، وقول عباس بن مرداس:
عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم
بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا)ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب(اللمز: ذكر ما يعده الذاكر عيبا لأحد مواجهة فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلا فهو وقاحة وكذب، وكان شائعا بين العرب في جاهليتهم قال تعالى)ويل لكل همزة لمزة(يعني نفرا من المشركين كان دأبهم لمز رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون بحالة بين الإشارة والكلام بتحريك الشفتين بكلام خفي يعرف منه المواجه به أنه يذم أو يتوعد، أو يتنقص باحتمالات كثيرة، وهو غير النبز وغير الغيبة.

وللمفسرين وكتب اللغة اضطراب في شرح معنى اللمز وهذا الذي ذكرته هو المنخول من ذلك.
ومعنى)لا تلمزوا أنفسكم(لا يلمز بعضكم بعضا فنزل البعض الملموز نفسا للامزه لتقرر معنى الأخوة، وقد تقدم نظيره عند قوله)ولا تخرجون أنفسكم من دياركم(في سورة البقرة.
والتنابز: نبز بعضهم بعضا، والنبز بسكون الباء: ذكر النيز بتحريك الباء وهو اللقب السوء، كقولهم: أنف الناقة، وقرقور، وبطة، وكان غالب الألقاب في الجاهلية نبزا. قال بعض الفزاريين:
أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه
والسوأة اللقب روي برفع السوأة اللقب فيكون جريا على الأغلب عندهم في اللقب وأنه سوأة. ورواه ديوان الحماسة بنصب السوأة على أن الواو واو المعية. وروي بالسوأة اللقبا أي لا ألقبه لقبا ملابسا للسوءة فيكون أراد تجنب بعض اللقب وهو ما يدل على سوء. ورواية الرفع أرجح وهي التي يقتضيها استشهاد سيبويه ببيت بعده في باب ظن. ولعل ما وقع في ديوان الحماسة من تغييرات أبي تمام التي نسب إليه بعضها في بعض أبيات الحماسة لأنه رأى النصب أصح معنى.
فالمراد ب)الألقاب(في الآية الألقاب المكروهة بقرينة)ولا تنابزوا(.
واللقب ما أشعر بخسة أو شرف سواء كان ملقبا به صاحبه أم اخترعه له النابز له.
وقد خصص النهي في الآية ب)الألقاب(التي لم يتقادم عهدها حتى صارت كالأسماء لأصحابها وتنوسي منها قصد الذم والسب خص بما وقع في كثير من الأحاديث كقول النبي صلى الله عليه وسلم أصدق ذو اليدين ، وقوله لأبي هريرة يا أبا هر ، ولقب شاول ملك إسرائيل في القرآن طالوت، وقول المحدثين الأعرج لعبد الرحمان بن هرمز، والأعمش لسليمان من مهران.

صفحة : 4103

وإنما قال)ولا تلمزوا(بصيغة الفعل الواقع من جانب واحد وقال)ولا تنابزوا(بصيغة الفعل الواقع من جانبين، لأن اللمز قليل الحصول فهو كثير في الجاهلية في قبائل كثيرة منهم بنو سلمة بالمدينة قاله ابن عطية.
)بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون[11](تذييل للمنهيات المتقدمة وهو تعريض قوي بأن ما نهوا عنه فسوق وظلم، إذ لا مناسبة بين مدلول هذه الجملة وبين

الجمل التي قبلها لولا معنى التعريض بأن ذلك فسوق وذلك مذموم ومعاقب عليه فدل قوله)بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان(، على أن ما نهوا عنه مذموم لأنه فسوق يعاقب عليه ولا تزيله إلا التوبة فوقع إيجاز بحذف جملتين في الكلام اكتفاء بما دل عليه التذييل، وهذا دال على أن اللمز والتنابز معصيتان لأنهما فسوق. وفي الحديث سباب المسلم فسوق .

ولفظ الاسم هنا مطلق على الذكر، أي التسمية، كما يقال: طار اسمه في الناس بالجود أو باللؤم. والمعنى: بئس الذكر أن يذكر أحد بالفسوق بعد أن وصف بالإيمان.

وإيثار لفظ الاسم هنا من الرشاقة بمكان لأن السياق تحذير من ذكر الناس بالأسماء الذميمة إذ الألقاب أسماء فكان اختيار لفظ الاسم للفسوق مشاكلة معنوية.

ومعنى البعدية في قوله)بعد الإيمان(: بعد الاتصاف بالإيمان، أي أن الإيمان لا يناسبه الفسوق لأن المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعهم عن الفسوق وازع، وهذا كقول جميلة بنت أبي حين شكت للنبي صلى الله عليه وسلم أنها تكره زوجها ثابت بن قيس وجاءت تطلب فراقه: لا أعيب على ثابت في دين ولا في خلق ولكني أكره الكفر بعد الإسلام تريد التعريض بخشية الزنا وإني لا أطيقه بغضا .

وإذ كان كل من السخرية واللمز والتنابز معاصي فقد وجبت التوبة منها فمن لم يتب فهو ظالم: لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأن رضي لها عقاب الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك فكان ظلمه شديدا جدا. فلذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم كأنه لا ظالم غيرهم لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا.

والتوبة واجبة من كل ذنب وهذه الذنوب المذكورة مراتب وإدمان الصغائر كبيرة.

وتوسيط اسم الإشارة لزيادة تمييزهم تفظيعا لحالهم وللتنبيه، بل إنهم استحقوا قصر الظلم عليهم لأجل ما ذكر من الأوصاف قبل اسم الإشارة.

)يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم(أعيد النداء خامس مرة لاختلاف الغرض والاهتمام به. وذلك أن المنهيات المذكورة بعد هذا النداء من جنس المعاملات السيئة الخفية التي لا يتفطن لها من عومل بها فلا يدفعها فما يزيلها من نفس من عامله بها.

ففي قوله تعالى)اجتنبوا كثيرا من الظن(تأديب عظيم يبطل ما كان فاشيا في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة وأن

الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد، والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرا من اعتداء مظنون ظنا باطلا، كما قالوا خذ اللص قبل أن يأخذك .
وما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة قال تعالى)يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية(وقال)وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم فما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون(وقال)سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء(ثم قال)قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أتتم إلا تخرصون(.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم)إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث(.
ولما جاء الأمر في هذه الآية باجتناب كثير من الظن علمنا أن الظنون الآثمة غير قليلة، فوجب التمحيص والفحص لتمييز الظن الباطل من الظن الصادق.
والمراد ب)الظن(هنا: الظن المتعلق بأحوال الناس وحذف المتعلق لتذهب نفس السامع إلى كل ظن ممكن هو إثم.

صفحة : 4104

وجملة)إن بعض الظن إثم(استئناف بياني لأن قوله)اجتنبوا كثيرا من الظن(يستوقف السامع ليتطلب البيان فأعلموا أن بعض الظن جرم، وهذا كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون ليعرضوا ما تفضي اليه الظنون على ما يعلمونه من أحكام الشريعة، أو ليسألوا أهل العلم على أن هذا البيان الاستئنافي يقتصر على التخويف من الوقوع في الإثم. وليس هذا البيان توضيحا لأنواع الكثير من الظن المأمور باجتنابه، لأنها أنواع كثيرة فنبه على عاقبتها وترك التفصيل لأن في إبهامه بعثا على مزيد الاحتياط.
ومعنى كونه إثما أنه: إما أن ينشأ على ذلك الظن عمل أو مجرد اعتقاد، فإن كان قد ينشأ عليه عمل من قول أو فعل كالاغتياب والتجسس وغير ذلك فليقدر الظان أن ظنه كاذب ثم لينظر بعد في عمله الذي بناه عليه فيجده قد عامل به من لا يستحق تلك المعاملة من اتهامه بالباطل فيأثم مما طوى عليه قلبه لأخيه المسلم، وقد قال العلماء: إن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز.
وإن لم ينشأ عليه إلا مجرد اعتقاد دون عمل فليقدر أن ظنه كان مخطئا يجد نفسه قد اعتقد في أحد ما ليس به، فإن كان اعتقادا

في صفات الله فقد افترى على الله وإن كان اعتقادا في أحوال الناس فقد خسر الانتفاع بمن ظنه ضارا، أو الاهتداء بمن ظنه ضالا، أو تحصيل العلم ممن ظنه جاهلا ونحو ذلك.

ووراء ذلك فالظن الباطل إذا تكررت ملاحظته ومعاودة جولانه في النفس قد يصير علما راسخا في النفس فتترتب عليه الآثار بسهولة فتصادف من هو حقيق بضدها كما تقدم في قوله تعالى)أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين(.

والاجتناب: افتعال من جنبه وأجنبه، إذا أبعده، أي جعله جانبا آخر، وفعله يعدى إلى مفعولين، يقال: جنبه الشر، قال تعالى)واجنبني وبني أن نعبد الأصنام(. ومطاوعه اجتنب، أي ابتعد، ولم يسمع له فعل أمر إلا بصيغة الافتعال.

ومعنى الأمر باجتناب كثير من الظن الأمر بتعاطي وسائل اجتنابه فإن الظن يحصل في خاطر الإنسان اضطرارا عن غير اختيار، فلا يعقل التكليف باجتنابه وإنما يراد الأمر بالتثبت فيه وتمحيصه والتشكك في صدقه إلى أن يتبين موجبه بدون تردد أو برجحان أو يتبين كذبه فتكذب نفسك فيما حدثتك.

وهذا التحذير يراد منه مقاومة الظنون السيئة بما هو معيارها من الأمارات الصحيحة. وفي الحديث إذا ظننتم فلا تحققوا .

على أن الظن الحسن الذي لا مستند له غير محمود لأنه قد يوقع فيما لا يجد ضره من اغترار في محل الحذر ومن اقتداء بمن ليس أهلا للتأسي. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم عطية حين مات في بيتها عثمان بن مظعون وقال رحمة الله عليك أبا السايب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله وما يدريك أن الله أكرمه. فقالت: يا رسول الله ومن يكرمه الله؟ فقال: أما هو فقد جاءه اليقين وإني أرجو له الخير وإني والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي. فقالت أم عطية: والله لا أزكي بعده أحدا .

وقد علم من قوله)كثيرا من الظن(وتبيينه بأن بعض الظن إثم أن بعضا من الظن ليس إثما وأنا لم نؤمر باجتناب الظن الذي ليس بإثم لأن)كثيرا(وصف، فمفهوم المخالفة منه يدل على أن كثيرا من الظن لم نؤمر باجتنابه وهو الذي يبينه)إن بعض الظن إثم(أي أن بعض الظن ليس إثما، فعلى المسلم أن يكون معياره في تمييز أحد الظنيين من الآخر أن يعرضه على ما بينته الشريعة في تضاعيف أحكامها من الكتاب والسنة وما أجمعت عليه علماء الأمة وما أفاده الاجتهاد الصحيح وتتبع مقاصد الشريعة، فمنه ظن يجب اتباعه كالحذر من مكائد العدو في الحرب، وكالظن المستند إلى الدليل الحاصل من دلالة الأدلة الشرعية، فإن أكثر التفريعات الشرعية حاصلة من الظن المستند إلى الأدلة. وقد فتح مفهوم هذه

الآية باب العمل بالظن غير الإثم إلا أنها لا تقوم حجة إلا على الذين يرون العمل بمفهوم المخالفة وهو أرجح الأقوال فإن معظم دلالات اللغة العربية على المفاهيم كما تقرر في أصول الفقه.
وأما الظن الذي هو فهم الإنسان وزكانته فذلك خاطر في نفسه وهو أدرى فمعتاده منه من إصابة أو ضدها قال أوس بن حجر:
الألمعي الذي يظن بك الظ   ن كأن قد رأى وقد سمعا)ولا تجسسوا(

صفحة : 4105

التجسس من آثار الظن لأن الظن يبعث عليه حين تدعو الظان نفسه إلى تحقيق ما ظنه سرا فيسلك طريق التجنيس فحذرهم الله من سلوك هذا الطريق للتحقق ليسلكوا غيره إن كان في تحقيق ما ظن فائدة.
والتجسس: البحث بوسيلة خفية وهو مشتق من الجس، ومنه سمي الجاسوس.
والتجسس من المعاملة الخفية عن المتجسس عليه. ووجه النهي عنه أنه ضرب من الكيد والتطلع على العورات. وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسوءه فتنشأ عنه العداوة والحقد. ويدخل صدره الحرج والتخوف بعد أن كانت ضمائره خالصة طيبة وذلك من نكد العيش.
وذلك ثلم للأخوة الإسلامية لأنه يبعث على إظهار التنكر ثم إن اطلع المتجسس عليه على تجسس الآخر ساءه فنشأ في نفسه كره له وانثلمت الأخوة ثلمة أخرى كما وصفنا في حال المتجسس، ثم يبعث ذلك على انتقام كليهما من أخيه.
وإذ قد اعتبر النهي عن التجسس من فروع النهي عن الظن فهو مقيد بالتجسس الذي هو إثم أو يفضي إلى الإثم، وإذا علم أنه يترتب عليه مفسدة عامة صار التجسس كبيرة. ومنه التجسس على المسلمين لمن يبتغي الضر بهم.
فالمنهي عنه هو التجسس الذي لا ينجر منه نفع للمسلمين أو دفع ضر عنهم فلا يشمل التجسس على الأعداء ولا تجسس الشرط على الجناة واللصوص.
)ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه(الاغتياب: افتعال من غابه المتعدي، إذا ذكره في غيبه بما يسوءه.

فالاغتياب ذكر أحد غائب بما لا يحب أن يذكر به، والاسم منه الغيبة بكسر الغين مثل الغيلة. وإنما يكون ذكره بما يكره غيبه إذا لم يكن ما ذكره به مما يثلم العرض وإلا صار قذعا.

وإنما قال)ولا يغتب بعضكم بعضا(دون أن يقول: اجتنبوا الغيبة. لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله)أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا(لأنه لما كان ذلك التمثيل مشتملا على جانب فاعل الاغتياب ومفعوله مهد له بما يدل على ذاتين لأن ذلك يزيد التمثيل وضوحا.

والاستفهام في)أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا(تقريري لتحقق أن كل أحد يقر بأنه لا يحب ذلك، ولذلك أجيب الاستفهام بقوله)فكرهتموه(.

وإنما لم يرد الاستفهام على نفي محبة ذلك بأن يقال: ألا يحب أحدكم، كما هو غالب الاستفهام التقريري، إشارة إلى تحقق الإقرار المقرر عليه بحيث يترك للمقرر مجالا لعدم الإقرار ومع ذلك لا يسعه إلا الإقرار. مثلت الغيبة بأكل لحم الأخ الميت وهو يستلزم تمثيل المولوع بها بمحبة أكل لحم الأخ الميت، والتمثيل مقصود منه استفظاع الممثل وتشويهه لإفادة الإغلاظ على المغتابين لأن الغيبة متفشية في الناس وخاصة في أيام الجاهلية.

فشبهت حالة اغتياب المسلم من هو أخوه في الإسلام وهو غائب بحالة أكل لحم أخيه وهو ميت لا يدافع عن نفسه، وهذا التمثيل للهيئة قابل للتفريق بأن يشبه الذي اغتاب بآكل لحم، ويشبه الذي اغتيب بأخ، وتشبه غيبته بالموت.

والفاء في قوله)فكرهتموه(فاء الفصيحة، وضمير الغائب عائد إلى)أحدكم(، أو يعود إلى)لحم(.

والكراهة هنا: الاشمئزاز والتقذر. والتقدير: إن وقع هذا أو إن عرض لكم هذا فقد كرهتموه.

وفاء الفصيحة تفيد الإلزام بما بعدها كما صرح به الزمخشري في قوله تعالى)فقد كذبوكم بما تقولون(في سورة الفرقان، أي تدل على أن لا مناص للمواجه بها من التزام مدلول جواب شرطها المحذوف.

والمعنى: فتعين إقراركم بما سئلتم عنه من الممثل به إذ لا يستطاع جحده تحققت كراهتكم له وتقذركم منه، فليتحقق أن تكرهوا نظيره الممثل وهو الغيبة فكأنه قيل: فاكرهوا الممثل كما كرهتم الممثل به.

وفي هذا الكلام مبالغات: منها الاستفهام التقريري الذي لا يقع إلا على أمر مسلم عند المخاطب فجعلك للشيء في حيز الاستفهام التقريري يقتضي أنك تدعي أنه لا ينكره المخاطب.

ومنها جعل ما هو شديد الكراهة للنفس مفعولا لفعل المحبة للإشعار بتفظيع حالة ما شبه به وحالة من ارتضاه لنفسه فلذلك لم يقل: أيتحمل أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا، بل قال)أيحب أحدكم(.

ومنها إسناد الفعل إلى)أحد(للإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك.

ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا.

صفحة : 4106

ومنها أنه لم يقتصر على كون المأكول لحم الأخ حتى جعل الأخ ميتا.

وفيه من المحسنات الطباق بين)أيحب(وبين)فكرهتموه(.

والغيبة حرام بدلالة هذه الآية وآثار من السنة بعضها صحيح وبعضها دونه.

وذلك أنها تشتمل على مفسدة ضعف في أخوة الإسلام. وقد تبلغ الذي اغتيب فتقدح في نفسه عداوة لمن اغتابه فينثلم بناء الأخوة، ولأن فيها الاشتغال بأحوال الناس وذلك يلهي الإنسان عن الاشتغال بالمهم النافع له وترك ما لا يعنيه.

وهي عند المالكية من الكبائر وقل من صرح بذلك، لكن الشيخ عليا الصعيدي في حاشية الكفاية صرح بأنها عندنا من الكبائر مطلقا. ووجهه أن الله نهى عنها وشنعها. ومقتضى كلام السجلماسي في كتاب العمل الفاسي أنها كبيرة.

وجعلها الشافعية من الصغائر لأن الكبيرة في اصطلاحهم فعل يؤذن بقلة اكتراث فاعله بالدين ورقة الديانة كذا حدها إمام الحرمين.

فإذا كان ذلك لوجه مصلحة مثل تجريح الشهود ورواة الحديث وما يقال للمستشير في مخالطة أو مصاهرة فإن ذلك ليس بغيبة، بشرط أن لا يتجاوز الحد الذي يحصل به وصف الحالة المسؤول عنها.

وكذلك لا غيبة في فاسق بذكر فسقه دون مجاهرة له به. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما استؤذن عنده لعيينة بن حصن بئس أخو العشيرة ليحذره من سمعه إذ كان عيينة يومئذ منحرفا عن الإسلام.

وعن الطبري صاحب العدة في فروع الشافعية أنها صغيرة، قال المحلي وأقره الرافعي ومن تبعه. قلت: وذكر السجلماسي في نظمه في المسائل التي جرى بها عمل القضاة في فاس فقال:

ولا تجرح شاهدا بالغيبه لأنها عمت بها المصيبه وذكر في شرحه: أن القضاة عملوا بكلام الغزالي.

وأما عموم البلوى فلا يوجب اغتفار ما عمت به إلا عند الضرورة والتعذر كما ذكر ذلك عن أبي محمد بن أبي زيد.

وعندي: أن ضابط ذلك أن يكثر في الناس كثرة بحيث يصير غير دال على استخفاف بالوازع الديني فحينئذ يفارقها معنى ضعف الديانة الذي جعله الشافعية جزءا من ماهية الغيبة.

)واتقوا الله إن الله تواب رحيم[12](عطف على جمل الطلب السابقة ابتداء من قوله)اجتنبوا كثيرا من الظن(وهذا كالتذييل لها إذ أمر بالتقوى وهي جماع الاجتناب والامتثال فمن كان سالما من التلبس بتلك المنهيات فالأمر بالتقوى يجنبه التلبس بشيء منها في المستقبل، ومن كان متلبسا بها أو ببعضها فالأمر بالتقوى يجمع الأمر بالكف عما هو متلبس به منها.

وجملة)إن الله تواب رحيم(تذييل للتذييل لأن التقوى تكون بالتوبة بعد التلبس بالإثم فقيل)إن الله تواب(وتكون التقوى ابتداء فيرحم الله المتقي، فالرحيم شامل للجميع.

)يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقيكم إن الله عليم خبير[13](انتقال من واجبات المعاملات إلى ما يجب أن يراعيه المرء في نفسه، وأعيد النداء للاهتمام بهذا الغرض، إذ كان إعجاب كل قبيلة بفضائلها وتفضيل قومها على غيرهم فاشيا في الجاهلية كما ترى بقيته في شعر الفرزدق وجرير، وكانوا يحقرون بعض القبائل مثل باهلة، وضبيعة، وبني عكل.

سئل أعرابي: أتحب تدخل الجنة وأنت باهلي فأطرق حينا ثم قال: على شرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي. فكان ذلك يجر إلى الإحن والتقاتل وتتفرع عليه السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والاغتياب الواردة فيها الآيات السابقة، فجاءت هذه الآية لتأديب المؤمنين على اجتناب ما كان في الجاهلية لاقتلاع جذوره الباقية في النفوس بسبب اختلاط طبقات المؤمنين بعد سنة الوفود إذ كثر الداخلون في الإسلام.

فعن أبي داود أنه روى في كتابه المراسيل عن الزهري قال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة من الأنصار أن يزوجوا أبا هند مولى بني بياضة قيل اسمه يسار امرأة منهم

فقالوا: تزوج بناتنا موالينا، فأنزل الله تعالى)إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا(الآية. وروي غير ذلك في سبب نزولها.

صفحة : 4107

ونودوا بعنوان)الناس(دون المؤمنين رعيا للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صدر به الغرض من التذكير بأن أصلهم واحد، أي أنهم في الخلقة سواء ليتوسل بذلك إلى أن التفاضل والتفاخر إنما يكون بالفضائل والى أن التفاضل في الإسلام بزيادة التقوى فقيل) يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى(.

فمن أقدم على القول بأن هذه الآية نزلت في مكة دون بقية السورة اغتر بأن غالب الخطاب ب)يا أيها الناس(إنما كان في المكي.

والمراد بالذكر والأنثى: آدم وحواء أبوا البشر، بقرينة قوله) وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا(.

ويؤيد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم أنتم بنو آدم وآدم من تراب كما سيأتي قريبا. فيكون تنوين)ذكر وأنثى(لأنهما وصفان لموصوف فقرر، أي من أب ذكر ومن أم أنثى.

ويجوز أن يراد ب)ذكر وأنثى(صنف الذكر والأنثى، أي كل واحد مكون من صنف الذكر والأنثى.

وحرف)من(على كلا الاحتمالين للابتداء.

والشعوب: جمع شعب بفتح الشين وهو مجمع القبائل التي ترجع إلى جد واحد من أمة مخصوصة وقد يسمى جذما، فالأمة العربية تنقسم إلى شعوب كثيرة فمضر شعب، وربيعة شعب، وأنمار شعب، وإياد شعب، وتجمعها الأمة العربية المستعربة، وهي عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وحمير وسبأ، والأزد شعوب من أمة قحطان. وكنانة وقيس وتميم قبائل من شعب مضر. ومذحج، وكندة قبيلتان من شعب سبأ. والأوس والخزرج قبيلتان من شعب الأزد.

وتحت القبيلة العمارة مثل قريش من كنانة، وتحت العمارة البطن مثل قصي من قريش، وتحت البطن الفخذ مثل هاشم وأمية من قصي، وتحت الفخذ الفصيلة مثل أبي طالب والعباس وأبي سفيان.

واقتصر على ذكر الشعوب والقبائل لأن ما تحتها داخل بطريق لحن الخطاب.

وتجاوز القرآن عن ذكر الأمم جريا على المتداول في كلام العرب في تقسيم طبقات الأنساب إذ لا يدركون إلا أنسابهم.

وجعلت علة جعل الله إياه شعوبا وقبائل. وحكمته من هذا الجعل أن يتعارف الناس، أي يعرف بعضهم بعضا.

والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها.

فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظاما محكما لربط أو اصرهم دون مشقة ولا تعذر فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل ثم ببث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم.

والمقصود: أنكم حرفتم الفطرة وقلبتم الوضع فجعلتم اختلاف الشعوب والقبائل بسبب تناكر وتطاحن وعدوان.

ألا ترى إلى قول الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب:

مهلا بني عمنا مهلا موالينـا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونـا

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا وقول العقيلي وحاربه بنو عمه فقتل منهم:

ونبكي حين نقتلكم عليكم ونقتلكم كأنا لا نبالـي وقول الشميذر الحارثي:

وقد ساءني ما جرت الحرب بيننا بني عمنا لو كان أمرا مـدانـيا وأقوالهم في هذا لا تحصر عدا ما دون ذلك من التفاخر والتطاول والسخرية واللمز والنبز وسوء الظن والغيبة مما سبق ذكره.

وقد جبر الله صدع العرب بالإسلام كما قال تعالى)واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا(فردهم إلى الفطرة التي فطرهم عليها وكذلك تصاريف الدين الإسلامي ترجع بالناس إلى الفطرة السليمة.

صفحة : 4108

ولما أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا إخوة وأن يصلحوا بين الطوائف المتقاتلة ونهاهم عما يثلم الأخوة وما يغين على نورها في نفوسهم من السخرية واللمز والتنابز والظن السوء والتجسس

والغيبة، ذكرهم بأصل الأخوة في الانسياب التي أكدتها أخوة الإسلام ووحدة الاعتقاد ليكون ذلك التذكير عونا على تبصرهم في حالهم، ولما كانت السخرية واللمز والتنابز مما يحمل عليه التنافس بين الأفراد والقبائل جمع الله ذلك كله في هذه الموعظة الحكيمة التي تدل على النداء عليهم بأنهم عمدوا إلى هذا التشعيب الذي وضعته الحكمة الإلهية فاستعملوه في فاسد لوازمه وأهملوا صالح ما جعل له بقوله)لتعارفوا(ثم وأتبعه بقوله)إن أكرمكم عند الله أتقاكم(أي فإن تنافستم فتنافسوا في التقوى كما قال تعالى)وفي ذلك فليتنافس المتنافسون(.

والخبر في قوله)إنا خلقناكم من ذكر وأنثى(مستعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والزايا التي ترفع بعض الناس على بعض كناية بمرتبتين. والمعنى المقصود من ذلك هو مضمون جملة)إن أكرمكم عند الله أتقاكم(فتلك الجملة تتنزل من جملة)إنا خلقانكم من ذكر وأنثى(منزلة المقصد من المقدمة والنتيجة من القياس ولذلك فصلت لأنها بمنزلة البيان.

وأما جملة)وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا(فهي معترضة بين الجملتين الأخريين.

والمقصود من اعتراضها: إدماج تأديب آخر من واجب بث التعارف والتواصل بين القبائل والأمم وأن ذلك مراد الله منهم.

ومن معنى الآية ما خطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع إذ قال يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى .

ومن نمط نظم الآية وتبيينها ما رواه الترمذي في تفسير هذه الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها لا لآباء الناس مؤمن تقي أو فاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب . وفي رواية أن ذلك مما خطب به يوم فتح مكة عبية بضم العين المهملة وبكسرها وبتشديد الموحدة المكسورة ثم تشديد المثناة التحتية: الكبر والفخر. ووزنهما على لغة ضم الفاء فعولة وعلى لغة كسر الفاء فعلية، وهي إما مشتقة من التعبية فتضعيف الباء لمجرد الإلحاق مثل نض الثوب بمعنى نضى أو مشتقة من عباب الماء فالتضعيف في الباء أصلي .

وفي رواية ابن أبي حاتم بسنده إلى ابن عمر طاف رسول الله يوم فتح مكة ثم خطبهم في بطن المسيل فذكر الحديث وزاد فيه أن الله يقول)يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى(إلى)إن الله عليم خبير(.

وجملة)إن أكرمكم عند الله أتقاكم(مستأنفة استئنافا ابتدائيا وإنما أخرت في النظم عن جملة إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، لتكون تلك الجملة السابقة كالتوطئة لهذه وتتنزل منها منزلة المقدمة لأنهم لما تساووا في أصل الخلقة من أب واحد وأم واحدة كان الشأن أن لا يفضل بعضهم بعضا إلا بالكمال النفساني وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم والذي جعل التقوى وسيلته ولذلك ناط التفاضل في الكرم ب)عند الله(إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به.

والمراد بالأكرم: الأنفس والأشرف، كما تقدم بيانه في قوله)إني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل.

والأتقى: الأفضل في التقوى وهو اسم تفضيل صيغ من اتقى على غير قياس.

وجملة)إن الله عليم خبير(تعليل لمضمون)إن أكرمكم عند الله أتقاكم(أي إنما كان أكرمكم أتقاكم لأن الله عليم بالكرامة الحق وأنتم جعلتم المكارم فيما دون ذلك من البطش وإفناء الأموال في غير وجه وغير ذلك الكرامة التي هي التقوى خبير بمقدار حظوظ الناس من التقوى فهي عنده حظوظ الكرامة فلذلك الأكرم هو الأتقى، وهذا كقوله)فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى(أي هو أعلم بمراتبكم في التقوى، أي التي هي التزكية الحق. ومن هذا الباب قوله)الله أعمل حيث يجعل رسالاته(.

علم أن قوله)إن أكرمكم عند الله أتقاكم(لا ينافي ان تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس مثل حسن التربية ونقاء النسب والعرافة في العلم والحضارة وحسن السمعة في الأمم وفي الفصائل، وفي العائلات، وكذلك بحسب ما خلده التاريخ الصادق للأمم والأفراد فما يترك آثارا لأفرادها وخلالا في سلائلها قال النبي صلى الله عليه وسلم الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا   .

فإن في خلق الأنباء آثارا من طباع الآباء الأدنين أو الأعلين تكون مهيئة نفوسهم للكمال أو ضده وأن للتهذيب والتربية آثارا جمة في تكميل النفوس أو تقصيرها وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال والزكاء الحقيقي الذي تخططه التقوى.

وجملة)إن الله عليم خبير(تذييل، وهو كناية عن الأمر بتزكية نواياهم في معاملاتهم وما يريدون من التقوى بأن الله يعلم ما في نفوسهم ويحاسبهم عليه.

)قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم[14](كان من بين الوفود التي وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة تسع المسماة سنة الوفود، وفد بني أسد بن خزيمة وكانوا ينزلون بقرب المدينة، وكان قدومهم المدينة عقب قدوم وفد بني تميم الذي ذكر في أول السورة، ووفد بنو أسد في عدد كثير وفيه ضرار بن الأزور، وطليحة بن عبد الله الذي ادعى النبوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أيام الردة ، وكانت هذه السنة سنة جدب ببلادهم فأسلموا وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالأثقال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك محارب خصفة وهوازن وغطفان. يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروحون بهذه المقالة ويمنون عليه ويريدون أن يصرف إليهم الصدقات، فأنزل الله فيهم هذه الآيات الى آخر السورة لوقوع القصتين قصة وفد بني تميم وقصة وفد بني أسد في أيام متقاربة، والأغراض المسكوة بالجفاء متناسبة. وقال السدي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح في قوله تعالى) سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا(الآية.

قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم فلما استنفروا إلى الحديبية تخلفوا فنزلت هذه الآية.

والأعراب: سكان البادية من العرب. وأحسب أنه لا يطلق على أهل البادية من غير العرب، وهو اسم جمع لا مفرد له فيكون الواحد منه بياء النسبة أعرابي.

وتعريف)الأعراب(تعريف العهد لأعراب معينين وهم بنو أسد فليس هذا الحكم الذي في الآية حاقا على جميع سكان البوادي ولا قال هذا القول غير بني أسد.

وهم قالوا آمنا حين كانوا في شك لم يتمكن الإيمان منهم فأنبأهم الله بما في قلوبهم وأعلمهم أن الإيمان هو التصديق بالقلب لا بمجرد اللسان لقصد أن يخلصوا ويتمكنوا منه كما بينه عقب هذه الآية بقوله)إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله(الآية.

والاستدراك بحرف)لكن(لرفع ما يتوهم من قوله)لم تؤمنوا(أنهم جاؤوا مضمرين الغدر بالنبي صلى الله عليه وسلم. وإنما قال)ولكن قولوا أسلمنا(تعليما لهم بالفرق بين الإيمان والإسلام فإن الإسلام مقره اللسان والأعمال البدنية، وهي قواعد الإسلام الأربعة: الصلاة

والزكاة وصيام رمضان وحج الكعبة الوارد في حديث عمر عن سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا فهؤلاء الأعراب لما جاءوا مظهرين الإسلام وكانت قلوبهم غير مطمئنة لعقائد الإيمان لأنهم حديثوا عهد به كذبهم الله في قولهم)آمنا(ليعلموا أنهم لم يخف باطنهم على الله، وأنه لا يتعد بالإسلام إلا إذا قارنه الإيمان، فلا يغني أحدهما بدون الآخر، فالإيمان بدون إسلام عناد، والإسلام بدون إيمان نفاق، ويجمعهما طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

صفحة : 4110

وكان مقتضى ظاهر نظم الكلام أن يقال: قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم، أو أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، ليتوافق المستدرك عنه والاستدراك بحسب النظم المتعارف في المجادلات، فعدل عن الظاهر إلى هذا النظم لأن فيه صراحة بنفي الإيمان عنهم فلا يحسبوا أنهم غالطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واستغني بقوله)لم تؤمنوا(عن أن يقال لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن الإعلان بالإيمان لأنهم مطالبون بأن يؤمنوا ويقولوا آمنا قولا صادقا لا كاذبا فقيل لهم)لا تؤمنوا(تكذيبا لهم مع عدم التصريح بلفظ التكذيب ولكن وقع التعريض لهم بذلك بعد في قوله)إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله لم يرتابوا(إلى قوله)أولئك هم الصادقون(أي لا أنتم ولذلك جيء بالاستدراك محمولا على المعنى.

وعدل عن أن يقال: ولكن أسلمتم إلى)قولوا أسلمنا(تعريضا بوجوب الصدق في القول ليطابق الواقع، فهم يشعرون بأن كذبهم قد ظهر، وذلك مما يتعير به، أي الشأن أن تقولوا قولا صادقا.

وقوله)ولما يدخل الإيمان في قلوبكم(واقع موقع الحال من ضمير)لم تؤمنوا(وهو مبين لمعنى نفي الإيمان عنهم في قوله)لم تؤمنوا(بأنه ليس انتفاء وجود تصديق باللسان ولكن انتفاء رسوخه وعقد القلب عليه إذ كان فيهم بقية من ارتياب كما أشعر به مقابلته بقوله)إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا(.

واستعير الدخول في قوله)ولما يدخل الإيمان في قلوبكم(للتمكن وعدم التزلزل لأن الداخل إلى المكان يتمكن ويستقر بالخارج عنه يكون سريع المفارقة له مستوفزا للانصراف عنه.

و)لما(هذه أخت)لم(وتدل على أن النفي بها متصل بزمان التكلم وذلك الفارق بينها وبين)لم(أختها. وهذه الدلالة على استمرار النفي إلى زمن المتكلم تؤذن غالبا، بأن المنفي بها متوقع الوقوع. قال في الكشاف وما في)لما(من معنى التوقع دالا على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد.

وهي دلالة من مستتبعات التراكيب. وهذا من دقائق العربية. وخالف فيه أبو حيان، والزمخشري حجة في الذوق لا يدانية أبو حيان، ولهذا لم يكن قوله)ولما يدخل الإيمان في قلوبكم(تكريرا مع قوله)لم تؤمنوا(.

وقوله)وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا(إرشاد إلى دواء مرض الحال في قلوبهم من ضعف الإيمان بأنه إن يطيعوا الله ورسوله حصل إيمانهم فإن مما أمر الله به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بيان عقائد الإيمان بأن يقبلوا على التعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة إقامتهم بالمدينة عوضا عن الاشتغال بالمن والتعريض بطلب الصدقات.

ومعنى)لا يلتكم(لا ينقصكم، يقال: لاته مثل باعه. وهذا في لغة أهل الحجاز وبني أسد، ويقال: ألته ألتا مثل: أمره، وهي لغة غطفان قال تعالى)وما ألتناهم من عملهم من شيء(في سورة الطور.

وقرأ بالأولى جمهور القراء وبالثانية أبو عمرو ويعقوب. ولأبي عمرو في تحقيق الهمزة فيها وتخفيفها ألفا روايتان فالدوري روى عنه تحقيق الهمزة والسوسي روى عنه تخفيفهما.

وضمير الرفع في)يلتكم(عائد إلى اسم الله ولم يقل: لا يلتاكم بضمير التثنية لأن الله هو متولي الجزاء دون الرسول صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: إن أخلصتم الإيمان كما أمركم الله ورسوله تقبل الله أعمالكم التي ذكرتم من أنكم جئتم طائعين للإسلام من غير قتال.

وجملة)إن الله غفور رحيم(استئناف تعليم لهم بأن الله يتجاوز عن كذبهم إذا تابوا، وترغيب في إخلاص الإيمان لأن الغفور كثير المغفرة شديدها، ومن فرط مغفرته أنه يجازي على الأعمال الصالحة الواقعة في حالة الكفر غير معتد بها فإذا آمن عاملها جوزي عليها بمجرد إيمانه وذلك من فرط رحمته بعباده.

وترتيب)رحيم(بعد)غفور(لأن الرحمة أصل للمغفرة وشأن العلة أن تورد بعد المعلل بها.

)إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون[15](

صفحة : 4111

هذا تعليل لقوله)لم تؤمنوا(إلى قوله)في قلوبكم(وهو من جملة ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للأعراب، أي ليس المؤمنون إلا الذين آمنوا ولم يخالط إيمانهم ارتياب أو تشكك.
و)إنما(للحصر، و)إن(التي هي جزء منها أيضا للتعليل وقائمة مقام فاء التفريع، أي إنما لم تكونوا مؤمنين لأن الإيمان ينافيه الارتياب.
والقصر إضافي، أي المؤمنون الذين هذه صفاتهم غير هؤلاء الأعراب.
فأفاد أن هؤلاء الأعراب انتفى عنهم الإيمان لأنهم انتفى عنهم مجموع هذه الصفات.
وإذ قد كان القصر إضافيا لم يكن الغرض منه إلا إثبات الوصف لغير المقصور لإخراج المتحدث عنهم عن أن يكونوا مؤمنين، وليس بمقتض أن حقيقة الإيمان لا تتقوم إلا بمجموع تلك الصفات لأن عد الجهاد في سبيل الله مع صفتي الإيمان وانتفاء الريب فيه يمنع من ذلك لأن الذي يقعد عن الجهاد لا ينتفي عنه وصف الإيمان إذ لا يكفر المسلم بارتكاب الكبائر عند أهل الحق. وما عداه خطأ واضح، وإلا لانتقضت جامعة الإسلام بأسرها إلا فئة قليلة في أوقات غير طويلة.
والمقصود من إدماج ذكر الجهاد التنويه بفضل المؤمنين المجاهدين وتحريض الذين دخلوا في الإيمان على الاستعداد إلى الجهاد كما في قوله تعالى)قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون(الآية.
و)ثم(من قوله)ثم لم يرتابوا(للتراخي الرتبي كشأنها في عطف الجمل. ففي)ثم(إشارة إلى أن انتفاء الارتياب في إيمانهم أهم رتبة من الإيمان إذ به قوام الإيمان، وهذا إيماء إلى بيان قوله)ولما يدخل الإيمان في قلوبكم(، أي من أجل ما يخالجكم ارتياب في بعض ما آمنتم به مما اطلع الله عليه.
وقوله)أولئك هم الصادقون(قصر، وهو قصر إضافي أيضا، أي هم الصادقون لا أنتم في قولكم)آمنا(.
)قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم[16](أعيد فعل)قل(ليدل على أن المقول لهم هذا هم الأعراب الذين أمر أن يقول لهم)لم تؤمنوا(إلى آخره، فأعيد لما طال الفصل بين القولين بالجمل

المتابعة، فهذا متصل بقوله)ولما يدخل الإيمان في قلوبكم(اتصال البيان بالمبين، ولذلك لم تعطف جملة الاستفهام.

وجملة)قل(معترضة بين الجملتين المبينة والمبينة.

قيل: إنهم لما سمعوا قوله تعالى)قل لم تؤمنوا(الآية جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحلفوا أنهم مؤمنون فنزل قوله)قل أتعلمون الله بدينكم(ولم يرو بسند معروف وإنما ذكره البغوي تفسيرا ولو كان كذلك لوبخهم الله على الإيمان الكاذبة كما وبخ المنافقين في سورة براءة)وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم(الآية. ولم أر ذلك بسند مقبول، فهذه الآية مما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم.

والتعليم مبالغة في إيصال العلم إلى المعلم لأن صيغة التفعيل تقتضي قوة في حصول الفعل كالتفريق والتفسير، يقال: أعلمه وعلمه كما يقال: أنباه ونبأه. وهذا يفيد أنهم تكلفوا وتعسفوا في الاستدلال على خلوص إيمانهم ليقنعوا به الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أبلغهم أن الله نفى عنهم رسوخ الإيمان بمحاولة إقناعه تدل إلى محاولة إقناع الله بما يعلم خلافه.

وباء)بدينكم(زائدة لتأكيد لصوق الفعل بمفعوله كقوله تعالى) وامسحوا برؤوسكم(، وقول النابغة:

لك الخيران وارت بك الأرض واحدا والاستفهام في)أتعلمون الله بدينكم(مستعمل في التوبيخ وقد أيد التوبيخ بجملة الحال في قوله)والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض(.

وفي هذا تجهيل إذ حاولوا إخفاء باطنهم عن المطلع على كل شيء.

وجملة)والله بكل شيء عليم(تذييل لأن)كل شيء(أعم من)ما في السماوات وما في الأرض(فإن الله يعلم صفاته ويعلم الموجودات التي هي أعلى من السماوات كالعرش.

)يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين[17](استئناف ابتدائي أريد به إبطال ما أظهره بنو أسد للنبي صلى الله عليه وسلم من مزيتهم إذ أسلموا من دون إكراه بغزو.

والمن: ذكر النعمة والإحسان ليراعيه المحسن إليه للذاكر، وهو يكون صريحا مثل قول سبرة بن عمرو الفقعسي:

أتنسى دفاعي عنك إذ أنت مسلم
وقد سال من ذل عليك قراقر ويكون بالتعريض بأن يذكر المان من معاملته مع المنون عليه ما هو نافعه مع قرينة تدل على أنه لم يرد مجرد الإخبار مثل قول الراعي مخاطبا عبد الملك بن مروان:
فآزرت آل أبي خبيب وافدا يوما أريد لبيعتي تبـديلا أبو خبيب: كنية عبد الله بن الزبير.

وكانت مقالة بني أسد مشتملة على النوعين من المن لأنهم قالوا ولم نقاتلك كما قاتلك محارب وغطفان وهوازن وقالوا وجئناك بالأثقال والعيال .

و)أن أسلموا(منصوب بنزع الخافض وهو باء التعدية، يقال: من عليه بكذا، وكذلك قوله)لا تمنوا علي إسلامكم(إلا أن الأول مطرد مع)أن(و)أن(والثاني سماعي وهو كثير.

وهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم آمنا كما حكاه الله آنفا، وسماه هنا إسلاما لقوله)ولكن قولوا أسلمنا(أي أن منوا به عليك إسلام لا إيمان.

وأثبت بحرف)بل(أن ما منوا به إن كان إسلاما حقا موافقا للإيمان فالمنة لله لأن هداهم إليه فأسلموا عن طواعية.

وسماه الآن إيمانا مجاراة لزعمهم لأن المقام مقام كون المنة لله فمناسبة مسابرة زعمهم أنهم آمنوا، أي لو فرض أنكم آمنتم كما تزعمون فإن إيمانكم نعمة أنعم الله بها عليكم.

ولذلك ذيله بقوله)إن كنتم صادقين(فنفى أولا أن يكون ما يمنون به حقا، ثم أفاد ثانيا أن يكون الفضل فيما ادعوه لهم لو كانوا صادقين بل هو فضل الله.

وقد أضيف إسلام إلى ضميرهم لأنهم أتوا بما يسمى إسلاما لقوله)ولكن قولوا أسلمنا(.

وأتي بالإيمان معرفا بلام الجنس لأنه حقيقة في حد ذاته وأنهم ملابسوها.

وجيء بالمضارع في)يمنون(مع أن منهم بذلك حصل فيما مضى لاستحضار حالة منهم كيف يمنون بما لم يفعلوا مثل المضارع في قوله تعالى)ويسخرون من الذين آمنوا(في سورة البقرة.

وجيء بالمضارع في قوله)بل الله يمن عليكم(لأنه من مفروض لأن الممنون به لما يقع.

وفيه من الإيذان بأنه سيمن عليهم بالإيمان ما في قوله)ولما يدخل الإيمان في قلوبكم(، وهذا من التفنن البديع في الكلام ليضع السامع مع كل فن منه في قراره، ومثلهم من يتفطن لهذه الخصائص.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة التقوية مثل: هو يعطي الجزيل، كما مثل به عبد القاهر.

)إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون[18](

ذيل تقويمهم على الحق بهذا التذييل ليعلموا أن الله لا يكتم، وأنه لا يكذب، لأنه يعلم كل غائبة في السماء والأرض فإنهم كانوا في الجاهلية لا تخطر ببال كثير منهم أصول الصفات الإلهية.

وربما علمها بعضهم مثل زهير في قوله:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم

ليخفى فمهما يكتم الله يعلم ولعل ذلك من آثار تنصره .

وتأكيد الخبر ب)إن(لأنهم بحال من ينكر أن الله يعلم الغيب فكذبوا على النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنه مرسل من الله فكان كذبهم عليه مثل الكذب على الله.

وقد أفادت هذه الجملة تأكيد مضمون جملتي)والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض(،)والله بكل شيء عليم(ولكن هذه زادت بالتصريح بأنه يعلم الأمور الغائبة لئلا يتوهم متوهم أن العمومين في الجملتين قبلها عمومان عرفيان قياسا على علم البشر.

وجملة)والله بصير بما تعملون(معطوف على جملة)إن الله يعلم غيب السماوات والأرض(عطف الأخص على الأعم لأنه لما ذكر أنه يعلم الغيب وكان شأن الغائب أن لا يرى عطف عليه علمه بالمبصرات احتراسا من أن يتوهموا أن الله يعلم خفايا النفوس وما يجول في الخواطر ولا يعلم المشاهدات نظير قول كثير من الفلاسفة: إن الخالق يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، ولهذا أوثر هنا وصف)بصير(.

وقرأ الجمهور)بما تعملون(بتاء الخطاء. وقرأه ابن كثير بياء الغيبة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

سميت في عصر الصحابة)سورة ق(ينطق بحروف: قاف، بقاف، وألف، وفاء .

صفحة : 4113

فقد روى مسلم عن قطبة بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في صلاة الصبح سورة)ق والقرآن المجيد(. وربما قال:)ق(ويعني في الركعة الأولى .

وروى مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان ما أخذت)ق والقرآن المجيد(إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كل يوم على المنبر إذ خطب الناس .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر ب)قاف والقرآن المجيد(، هكذا رسم قاف ثلاث أحرف، وقوله)في الفجر(يعني به صلاة الصبح لأنها التي يصليها في المسجد في الجماعة فأما نافلة الفجر فكان يصليها في بيته.

وفي الموطأ ومسلم أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما ب)قاف(هكذا رسم قاف ثلاثة أحرف مثل ما رسم حديث جابر بن سمرة و)القرآن المجيد(و)اقتربت الساعة وانشق القمر(.

وهي من السور التي سميت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها مثل طه وص. و ق. ويس لانفراد كل سورة منها بعدد الحروف الواقعة في أوائلها بحيث إذا دعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى.

وفي الإتقان أنها تسمى سورة)الباسقات(. هكذا بلام التعريف، ولم يعزه لقائل والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف، أي سورة النخل الباسقات إشارة إلى قوله) النخل باسقات لها طلع نضيد(.

وهذه السورة مكية كلها قال ابن عطية: بإجماع من المتأولين.

وفي تفسير القرطبي والإتقان عن ابن عباس وقتادة والضحاك: استثناء آية)ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب(أنها نزلت في اليهود، يعني في الرد عليهم إذ قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، يعني أم مقالة اليهود سمعت بالمدينة، يعني: وألحقت بهذه السورة لمناسبة موقعها.

وهذا المعنى وان كان معنى دقيقا في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة فإن الله علم ذلك فأوحى به الى رسوله صلى الله عليه وسلم على أن بعض آراء اليهود كان مما يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام يتلقونه تلقي القصص والأخبار. وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوة والأنبياء، على أن إرادة الله إبطال أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخر إبطالها الى سماعها بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوها في الناس كما في قوله تعالى)وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات ومطويات بيمينه(فإنها نزلت بمكة.

وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه بعض أحبار اليهود فقال: إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على إصبع والبحار على

أصبع والجبال على إصبع ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض فتلا النبي صلى الله عليه وسلم الآية. والمقصود من تلاوتها هو قوله)وما قدروا الله حق قدره(. والإيماء إلى سوء فهم اليهود صفات الله.

وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة لا أقسم بهذا البلد.

وقد أجمع العادون على عد آيها خمسا وأربعين.

أغراض هاته السورة

أولها التنويه بشأن القرآن.

ثانيها أنهم كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه من البشر، وثالثها: الاستدلال على إثبات البعث وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء وأن ذلك مثل للإحياء بعد الموت.

الرابع: تنظير المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم، ووعيد هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك.

الخامس: الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد، وذكر هول يوم الحساب.

السادس: وعد المؤمنين بنعيم الآخرة.

السابع: تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على تكذيبهم إياه وأمره بالإقبال على طاعة ربه وإرجاء أمر المكذبين إلى يوم القيامة وأن الله لو شاء لأخذهم من الآن ولكن حكمة الله قضت بإرجائهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكلف بأن يكرههم على الإسلام وإنما أمر بالتذكير بالقرآن.

الثامن: الثناء على المؤمنين بالبعث بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن.

صفحة : 4114

التاسع: إحاطة علم الله تعالى بخفيات الأشياء وخواطر النفوس.

)ق(القول فيه نظير القول في أمثاله من الحروف المقطعة الواقعة في أوائل السور. فهو حرف من حروف التهجي. وقد رسموه في المصحف بصورة حرف القاف التي يتهجى بها في المكتب، وأجمعوا على أن النطق بها باسم الحرف المعروف، أي ينطقون بقاف بعدها ألف، بعده فاء.

وقد أجمع من يتعد به القراء على النطق به ساكن الآخر سكون هجاء في الوصل والوقف.

ووقع في رواية بعض القصاصين المكذوبة عن ابن عباس أن المراد بقوله: ق~ اسم جبل عظيم محيط بالأرض. وفي رواية عنه انه اسم لكل واحد من جبال سبعة محيطة بالأرضين السبع واحدا وراء واحد كما أن الأرضين السبع أرض وراء أرض. أي فهو اسم جنس انحصرت أفراده في سبعة، وأطالوا في وصف ذلك بما أملاه عليهم الخيال المشفوع بقلة التثبت فيما يروونه للإغراب، وذلك من الأوهام المخلوطة ببعض أقوال قدماء المشرقيين، وبسوء فهم البعض في علم جغرافية الأرض وتخيلهم إياها رقاعا مسطحة ذات تقاسيم يحيط بكل قسم منها ما يفصله عن القسم الآخر من بحار وجبال، وهذا مما ينبغي ترفع العلماء عن الاشتغال بذكره لولا أن كثيرا من المفسرين ذكروه.

ومن العجب أن تفرض هذه الأوهام في تفسير هذا الحرف من القرآن ألم، يكفهم أنه مكتوب على صورة حروف التهجي مثل آلم وآلمص وكهيعص ولو أريد الجبل الموهوم لكتب قاف ثلاثة حروف كما تكتب دوال الأشياء مثل عين: اسم الجارحة، وغينش: مصدر غان عليه، فلا يصح أن يدل على هذه الأسماء بحروف التهجي كما لا يخفى.

)والقرآن المجيد[1] بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب[2] أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد[3](قسم بالقرآن، والقسم به كناية عن التنويه بشأنه لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المقسم فكان التعظيم من لوازم القسم.

وأتبع هذا التنويه الكنائي بتنويه صريح بوصف)
القرآن(ب)المجيد(فالمجيد المتصف بقوة المجد. والمجد ويقال المجادة: الشرف الكامل وكرم النوع.

وشرف القرآن من بين أنواع الكلام أنه مشتمل على أعلى المعاني النافعة لصلاح الناس فذلك مجده.

وأما كمال مجده الذي دلت عليه صيغة المبالغة بوصف مجيد فذلك بأنه يفوق أفضل ما أبلغه الله للناس من أنواع الكلام الدال على مراد الله تعالى إذ أوجد ألفاظه وتراكيبه وصورة نظمه بقدرته دون واسطة، فإن أكثر الكلام الدال على مراد الله تعالى أوجده الرسل والأنبياء المتكلمون به يعبرون بكلامهم عما يلقى إليهم من الوحي.

ويدخل في كمال مجده أنه يفوق كل كلام أوجده الله تعالى بقدرته على سبيل خرق العادة مثل الكلام الذي كلم الله به موسى عليه السلام بدون واسطة الملائكة، ومثل ما أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من أقوال الله تعالى المعبر عنه في اصطلاح علمائنا بالحديث القدسي، فإن القرآن يفوق ذلك كله لما جعله الله

بأفصح اللغات وجعله معجزا لبلغاء أهل تلك اللغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.
ويفوق كل كلام من ذلك القبيل بوفرة معانيه وعدم انحصارها، وأيضا بأنه تميز على سائر الكتب الدينية بأنه لا ينسخه كتاب يجيء بعده وما ينسخ منه إلا شيء قليل ينسخه بعضه.
وجواب القسم محذوف لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام فيدل عليه ابتداء السورة بحرف ق~ المشعر بالنداء على عجزهم عن معارضة القرآن بعد تحديهم بذلك، أو يدل عليه الإضراب في قوله)بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم(.
والتقدير: والقرآن المجيد إنك لرسول الله بالحق، كما صرح به في قوله)يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم(. أو يقدر الجواب: إنه لتنزيل من رب العالمين، أو نحو ذلك كما صرح به في نحو)حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون(ونحو ذلك. والإضراب الانتقالي يقتضي كلاما منتقلا منه والقسم بدون جواب لا يعتبر كلاما تاما فتعين أن يقدر السامع جوابا تتم به الفائدة يدل عليه الكلام.
وهذا من إيجاز الحذف وحسنه أن الانتقال مشعر بأهمية المتنقل إليه، أي عد عما تريد تقديره من جواب وانتقل إلى بيان سبب إنكارهم الذي حدا بنا إلى القسم كقول القائل: دع ذا، وقول امرئ القيس:

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة
ذمول إذا صام النهار وهجرا وقول الأعشى:
فدع ذا ولكن رب أرض متـيهة
قطعت بحرجوج إذا الليل أظلما وتقدم بيان نظيره عند قوله تعالى)بل الذين كفروا في عزة وشقاق(في سورة ص~.
وقوله)عجبوا(خبر مستعمل في الإنكار إنكارا لعجبهم البالغ حد الإحالة.
و)عجبوا(حصل لهم العجب بفتح الجيم وهو الأمر غير المألوف للشخص)قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله(فإن الاستفهام في) أتعجبين(إنكار وإنما تنكر إحالة ذلك لا كونه موجب تعجب. فالمعنى هنا: أنهم نفوا جواز أن يرسل الله إليهم بشرا مثلهم، قال تعالى)

وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا(.

وضمير)عجبوا(عائد إلى غيره مذكور، فمعاده معلوم من السياق أعني افتتاح السورة بحرف التهجي الذي قصد منه تعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن لأن عجزهم عن الإتيان بمثله في حال أنه مركب من حروف لغتهم يدلهم على أنه ليس بكلام بشر بل هو كلام أبدعته قدرة الله وأبلغه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان الملك فإن المتحدين بالإعجاز مشهورون يعلمهم المسلمون وهم أيضا يعلمون أنهم المعنيون بالتحدي بالإعجاز. على أنه سيأتي ما يفسر الضمير بقوله)فقال الكافرون(.

وضمير)منهم(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)عجبوا(. والمراد: أنه من نوعهم أي من بني الإنسان.

و)أن جاءهم(مجرور ب)من(المحذوفة مع)أن(، أي عجبوا من مجيء منذر منهم، أو عجبوا من ادعاء أن جاءهم منذر منهم.

وعبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف)منذر(وهو المخبر بشر سيكون، للإيماء إلى أن عجبهم كان ناشئا عن صفتين في الرسول صلى الله عليه وسلم إحداهما أنه مخبر بعذاب يكون بعد الموت، أي مخبر لا يصدقون بوقوعه، وإنما أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعذاب الآخرة بعد البعث كما قال تعالى)إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد(.

والثانية كونه من نوع البشر.

وفرع على التكذيب الحاصل في نفوسهم ذكر مقالتهم التي تفصح عنه وعن شبهتهم الباطلة بقوله)فقال الكافرون هذا شيء عجيب(الآية.

وخص هذا بالعناية بالذكر لأنه أدخل عندهم في الاستبعاد وأحق بالإنكار فهو الذي غرهم فأحالوا أن يرسل الله إليهم أحدا من نوعهم ولذلك وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء بصفة)منذر(قبل وصفه بأنه)منهم(ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه وأن كونه منهم إنما قوي الاستبعاد والتعجب.

ثم إن ذلك يتخلص منه إلى إبطال حجتهم وإثبات البعث وهو المقصود بقوله)قد علمنا ما تنقص الأرض منهم(إلى قوله)كذلك الخروج(.

فقد حصل في ضمن هاتين الفاصلتين خصوصيات كثيرة من البلاغة: منها إيجاز الحذف، ومنها ما أفاده الإضراب من الاهتمام بأمر البعث، ومنها الإيجاز البديع الحاصل من التعبير ب)منذر(، ومنها إقحام وصفه بأنه)منهم(لأن لذلك مدخلا في تعجبهم، ومنها الإظهار

في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر، ومنها الإجمال المعقب بالتفصيل في قوله)هذا شيء عجيب أإذا متنا(الخ.
وعبر عنهم بالاسم الظاهر في)فقال الكافرون(دون: فقالوا، لتوسيمهم فأن هذه المقالة من آثار الكفر، وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين.
والإشارة بقولهم)هذا شيء عجيب(إلى ما هو جار في مقام مقالتهم تلك من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إياهم للإيمان بالرجع، أي البعث وهو الذي بينته جملة)أإذا متنا وكنا ترابا(الخ.
والاستفهام مستعمل في التعجيب والإبطال، يريدون تعجيب السامعين من ذلك تعجيب إحالة لئلا يؤمنوا به.
وجعلوا مناط التعجيب الزمان الذي أفادته)إذا(وما أضيف إليه، أي زمن موتنا وكوننا ترابا.
والمستفهم عنه محذوف دل عليه ظرف)إذا متنا وكنا ترابا(والتقدير: أنرجع إلى الحياة في حين انعدام الحياة منا بالموت وحين تفتت الجسد وصيرورته ترابا، وذلك عندهم أقصى الاستبعاد.
ومتعلق)إذا(هو المستفهم عنه المحذوف المقدر، أي نرجع أو نعود إلى الحياة وهذه الجملة مستقلة بنفسها.

صفحة : 4116

وجملة)ذلك رجع بعيد(مؤكدة لجملة)أإذا متنا وكنا ترابا(بطريق الحقيقة والذكر، بعد أن أفيد بطريق المجاز والحذف، لأن شأن التأكيد أن يكون أجلى دلالة.
والرجع: مصدر رجع، أي الرجوع إلى الحياة.
ومعنى)بعيد(أنه بعيد عن تصور العقل، أي هو أمر مستحيل.
)قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ(رد لقولهم) ذلك رجع بعيد(فإن إحالتهم البعث ناشئة عن عدة شبه: منها: أن تفرق أجزاء الأجساد في مناحي الأرض ومهاب الرياح لا تبقي أملا في إمكان جمعها إذ لا يحيط بها محيط وأنها لو علمت مواقعها لتعذر التقاطها وجمعها، ولو جمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكلة بها، وأنها لو عادت كيف تعود إليها، فاقتصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذراتها.
وفصلت الجملة بدون عطف لأنها ابتداء كلام لرد كلامهم، وهذا هو الأليق بنظم الكلام.
وقيل هي جواب القسم كما علمته آنفا وأيا ما كان فهو رد لقولهم)ذلك رجع بعيد(.

والمعنى: أن جمع أجزاء الأجسام ممكن لا يعزب عن علم الله، وإذا كان عالما بتلك الأجزاء كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي وكان قد أراد إحياء أصحابها كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجساما كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة فقوله) قد علمنا ما تنقص الأرض منهم(إيماء إلى دليل الإمكان لأن مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا.

فأساس مبنى الرد هو عموم علم الله تعالى لأنه يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم فلو قال، نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم، لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادر فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله حتى تتسلط على جمعها قدرته فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم.

واعلم أن هذا الكلام بيان للإمكان رعيا لما تضمنه كلامهم من الإحالة لأن ثبوت الإمكان يقلع اعتقاد الاستحالة من نفوسهم وهو كاف لإبطال تكذيبهم ولاستدعائهم للنظر في الدعوة، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة، وهي أمر لم نكلف بالبحث عنه وقد اختلف فيها أئمة أهل السنة فقال جمهور أهل السنة والمعتزلة تعاد الأجسام بعد عدمها. ومعنى إعادتها، إعادة أمثالها بأن يخلق الله أجسادا مثل الأولى تودع فيها الأرواح التي كانت في الدنيا حالة في الأجساد المعدومة الآن فيصير ذلك الجسم لصاحب الروح في الدنيا وبذلك يحق أن يقال: إن هذا هو فلان الذي عرفناه في الدنيا إذ الإنسان كان إنسانا بالعقل والنطق، وهما مظهر الروح. وأما الجسد فإنه يتغير بتغيرات كثيرة ابتداء من وقت كونه جنينا، ثم من وقت الطفولة ثم ما بعدها من الأطوار فتخلف أجزاؤه المتجددة أجزاءه المتقضية، وبرهان ذلك مبين في علم الطبيعيات، لكن ذلك التغير لم يمنع من اعتبار الذات ذاتا واحدة لأن هوية الذات حاصلة من الحقيقة النوعية والمشخصات المشاهدة التي تتجدد بدون شعور من يشاهدها.

فلذا كانت حقيقة الشخص هي الروح وهي التي تكتسى عند البعث جسد صاحبها في الدنيا، فإن الناس الذين يموتون قبل قيام الساعة بزمن قليل لا تبلى في مثله أجسامهم ترجع أرواحهم إلى أجسادهم الباقية دون تجديد خلقها، ولذلك فتسمية هذا الإيجاد معادا أو رجعا أو بعثا إنما هي تسمية باعتبار حال الأرواح، وبهذا الاعتبار أيضا تشهد على الكفار ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون لأن الشاهد في الحقيقة هو ما به إدراك الأعمال من الروح المبثوثة في الأعضاء.

وأدلة الكتاب أكثرها ظاهر في تأييد هذا الرأي كقوله تعالى)كما بدأنا أول خلق نعيده(، وفي معناه قوله تعالى)كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب(.
وقال شذوذ: تعاد الأجسام بجمع الأجزاء المتفرقة يجمعها الله العليم بها ويركبها كما كانت يوم الوفاة. وهذا بعيد لأن أجزاء الجسم الإنساني إذا تفرقت دخلت في أجزاء من أجسام أخرى من مختلف الموجودات ومنها أجسام أناس آخرين.
وورد في الآثار أن كل ابن آدم يفنى إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب رواه مسلم. وعلى هذا تكون نسبة الأجساد المعادة كنسبة النخلة من النواة. وهذا واسطة بين القول بأن الإعادة عن عدم والقول بأنها عن تفرق.

ولا قائل من العقلاء بأن المعدوم يعاد بعينه وإنما المراد ما ذكرناه وما عداه مجازفة في التعبير.
وذكر الجلال الدواني في شرح العقيدة العضدية أن أبي بن خلف لما سمع ما في القرآن من الإعادة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبيده عظم قد رم ففتته بيده وقال: يا محمد أترى يحييني بعد أن أصير كهذا العظم? فقل له النبي صلى الله عليه وسلم: نعم ويبعثك ويدخلك النار . وفيه نزل قوله تعالى)وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم(.
وعبر ب)تنقص الأرض(دون التعبير بالإعدام لأن للأجساد درجات من الاضمحلال تدخل تحت حقيقة النقص فقد يفنى بعض أجزاء الجسد ويبقى بعضه، وقد يأتي الفناء على جميع أجزائه، على أنه إذا صح أن عجب الذنب لا يفني كان فناء الأجساد نقصا لا انعداما.
وعطف على قوله)قد علمنا ما تنقص الأرض منهم(قوله)وعندنا كتاب حفيظ(عطف الأعم على الأخص، وهو بمعنى تذييل لجملة)قد علمنا ما تنقص الأرض منهم(أي وعندنا علم بكل شيء علما ثابتا فتنكير)كتاب(للتعظيم، وهو تعظيم التعميم، أي عندنا كتاب كل شيء.
و)حفيظ(فعيل: إما بمعنى فاعل، أي حافظ لما جعل لإحصائه من أسماء الذوات ومصائرها. وتعيين جميع الأرواح لذواتها التي كانت مودعة فيها بحيث لا يفوت واحد منها عن الملائكة الموكلين بالبعث وإعادة الأجساد وبث الأرواح فيها.

وإما بمعنى مفعول، أي محفوظ ما فيه مما قد يعتري الكتب المألوفة من المحو والتغيير والزيادة والتشطيب ونحو ذلك.
والكتاب: المكتوب، ويطلق على مجموع الصحائف.
ثم يجوز أن يكون الكتاب حقيقة بأن جعل الله كتبا وأودعها الى ملائكة يسجلون فيها الناس حين وفياتهم ومواضع أجسادهم ومقار أرواحهم وانتساب كل روح إلى جسدها المعين الذي كانت حالة فيه حال الحياة الدنيا صادقا بكتب عديدة لكل إنسان كتابه، وتكون مثل صحائف الأعمال الذي جاء فيه قوله تعالى:)إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد(، وقوله)ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا(.
ويجوز أن يكون مجموع قوله)وعندنا كتاب(تمثيلا لعلم الله تعالى بحال علم من عنده كتاب حفيظ يعلم به جميع أعمال الناس.
والعندية في قوله)وعندنا كتاب(مستعارة للحياطة والحفظ من أن يتطرق إليه ما يغير ما فيه أو من يبطل ما عين له.
)بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج[5](إضراب ثان تابع للإضراب الذي في قوله)بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم(على طريقة تكرير الجملة في مقام التنديد والإبطال، أو بدل من جملة) بل عجبوا أن جاءهم منذر(لأن ذلك العجب مشتمل على التكذيب، وكلا الاعتبارين يقتضيان فصل هذه الجملة بدون عاطف.
والمقصد من هذه الجملة: أنهم أتوا بأفظع من إحالتهم البعث وذلك هو التكذيب بالحق.
والمراد بالحق هنا القرآن لأن فعل التكذيب إذا عدي بالباء عدي إلى الخبر وإذا عدي بنفسه كان لتكذيب المخبر.
و)لما(حرف توقيت فهي دالة على ربط حصول جوابها بوقت حصول شرطها فهي مؤذنة بمبادرة حصول الجواب عند حصول الشرط كقوله تعالى)فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم(، وقوله)فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به(وقد مضيا في سورة البقرة. ومعنى)جاءهم(بلغهم وأعلموا به.
والمعنى: أنهم بادروا بالتكذيب دون تأمل ولا نظر فيما حواه من الحق بل كذبوا به من أول وهلة فكذبوا بتوحيد الله، وهو أول حق جاء به القرآن، ولذلك عقب بقوله)أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها(إلى قوله)وأحيينا به بلدة ميتا(.
فالتكذيب بما جاء به القرآن يعم التكذيب بالبعث وغيره.
وفرع على الخبر المنتقل إليه بالإضراب وصف حالهم الناشئة عن المبادرة بالتكذيب قبل التأمل بأنها أمر مريج أحاط بهم وتجلجلوا فيه كما دل عليه حرف الظرفية.

و)أمر(اسم مبهم مثل شيء، ولما وقع هنا بعد حرف) في(المستعمل في الظرفية المجازية تعين أن يكون المراد بالأمر الحال المتلبسون هم به تلبس المظروف بظرفه وهو تلبس المحوط بما أحاط به فاستعمال)في(استعارة تبعية.

صفحة : 4118

والمريج: المضطرب المختلط، أي لا قرار في أنفسهم في هذا التكذيب، اضطربت فيه أحوالهم كلها من أقوالهم في وصف القرآن فإنهم ابتدروا فنفوا عنه وقالوا)أساطير الأولين(وقالوا)قول شاعر(، وقالوا)قول كاهن(وقالوا: هذيان مجنون. وفي سلوكهم في طرق مقاومة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وما يصفونه به إذا سألهم الواردون من قبائل العرب. ومن بهتهم في إعجاز القرآن ودلالة غيره من المعجزات وما دمغهم به من الحجج على إبطال الإشراك وإثبات الوحدانية لله. وهذا تحميق لهم بأنهم طاشت عقولهم فلم يتقنوا التكذيب ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذبوا به.

)أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج[6](تفريع على قوله)بل عجبوا أن جاءهم منذر(إلى قوله) مريج(لأن أهم ما ذكر من تكذيبهم أنهم كذبوا بالبعث، وخلق السماوات والنجوم والأرض دال على أن إعادة الإنسان بعد العدم في حيز الإمكان فتلك العوالم وجدت عن عدم وهذا أدل عليه قوله تعالى في سورة يس~)أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم(.

والاستفهام يجوز أن يكون إنكاريا. والنظر نظر الفكر على نحو قوله تعالى)قل انظروا ماذا في السماوات والأرض(.

ومحل الإنكار هو الحال التي دل عليها)كيف بنيناها(، أي ألم يتدبروا في شواهد الخليقة فتكون الآية في معنى)أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق(.

ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريا، والنظر المشاهدة، ومحل التقرير هو فعل)ينظروا(، أو يكون)كيف(مراد به الحال المشاهدة.

هذا وأن التقرير على نفي الشيء المراد الإقرار بإثباته طريقة قرآنية ذكرناها غير مرة، وبينا أن الغرض منه إفساح المجال للمقرر إن كان يروم إنكار ما قرر عليه، ثقة من المقرر بكسر الراء بأن المقرر بالفتح لا يقدم على الجحود بما قرر عليه لظهوره، وتقدم عند قوله تعالى)ألم يروا أنه لا يكلمهم(، وقوله)ألست بربكم(كلاهما في سورة الأعراف.

وهذا الوجه أشد في النعي عليهم لاقتضائه أن دلالة المخلوقات المذكورة على إمكان البعث يكفي فيها مجرد النظر بالعين.

و)فوقهم(حال من السماء. والتقييد بالحال تنديد عليهم لإهمالهم التأمل مع المكنة منه إذ السماء قريبة فوقهم لا يكلفهم النظر فيها إلا رفع رؤوسهم.

و)كيف(اسم جامد مبني معناه: حالة، وأكثر ما يرد في الكلام للسؤال عن الحالة فيكون خبرا قبل ما لا يستغني عنه مثل: كيف أنت? وحالا قبل ما يستغنى عنه نحو: كيف جاء? ومفعولا مطلقا نحو)كيف فعل ربك(، ومفعولا به نحو قوله تعالى)انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض(. وهي هنا بدل من)فوقهم(فتكون حالا في المعنى. والتقدير: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم هيئة بنينا إياها، وتكون جملة)بنيناها(مبينة ل)كيف(.

وأطلق البناء على خلق العلويات بجامع الارتفاع.

والمراد ب)السماء(هنا ما تراه العين من كرة الهواء التي تبدو كالقبة وتسمى الجو.

والتزيين جعل الشيء زينا، أي حسنا أي تحسين منظرها للرائي بما يبدو فيها من الشمس نهارا والقمر والنجوم ليلا.

واقتصر على آية تزيين السماء دون تفصيل ما في الكواكب المزينة بها من الآيات لأن التزيين يشترك في إداركه جميع الذين يشاهدونه وللجمع بين الاستدلال والامتنان بنعمة التمكين من مشاهدة المرائي الحسنة كما قال تعالى)ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون(في شأن خلق الأنعام في سورة النحل.

ثم يتفاوت الناس في إدراك ما في خلق الكواكب والشمس والقمر ونظامها من دلائل على مقدار تفاوت علومهم وعقولهم.

والآية صالحة لإفهام جميع الطبقات.

وجملة)وما لها من فروج(عطف على جملتي)كيف بنيناها وزيناها(فهي حال ثالثة في المعنى.

والفروج: جمع فرج، وهو الخرق، أي يشاهدونها كأنها كرة متصلة الأجزاء ليس بين أجزائها تفاوت يبدو كالخرق ولا تباعد يفصل بعضها عن بعض فيكون خرقا في قبتها.

وهذا من عجيب الصنع إذ يكون جسم عظيم كجسم كرة الهواء الجوي مصنوعا كالمفروغ في قالب.

وهذا مشاهد لجميع طبقات الناس على تفاوت مداركهم ثم هم يتفاوتون في إدراك ما في هذا الصنع من عجائب التئام كرة الجو المحيط بالأرض.

ولو كان في أديم ما يسمى بالسماء تخالف من أجزائه لظهرت فيه فروج وانخفاض وارتفاع. ونظير هذه الآية قوله في سورة الملك)الذي خلق سبع سماوات طباقا(إلى قوله)هل ترى من فطور(.
)والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج[7](عطف على جملة)أفلم ينظروا(عطف الخبر على الاستفهام الإنكاري وهو في معنى الإخبار. والتقدير: ومددنا الأرض.
ولما كانت أحوال الأرض نصب أعين الناس وهي أقرب إليهم من أحوال السماء لأنها تلوح للأنظار دون تكلف لم يؤت في لفت أنظارهم إلى دلالتها باستفهام إنكاري تنزيلا لهم منزلة من نظر في أحوال الأرض فلم يكونوا بحاجة إلى إعادة الأخبار بأحوال الأرض تذكيرا لهم.
وانتصب)الأرض(ب)مددناها(على طريقة الاشتغال.
والمد: البسط، أي بسطنا الأرض فلم تكن مجموع نتوءات إذ لو كانت كذلك لكان المشي عليها مرهقا.
والمراد: بسط سطح الأرض وليس المراد وصف حجم الأرض لأن ذلك لا تدركه المشاهدة ولم ينظر فيه المخاطبون نظر التأمل فيستدل عليهم بما لا يعلمونه فلا يعتبر في سياق الاستدلال على القدرة على خلق الأمور العظيمة، ولا في سياق الامتنان بما في ذلك الدليل من نعمة فلا علاقة لهذه الآية بقضية كروية الأرض.
والإبقاء: تمثيل لتكوين أجسام بارزة على الأرض متباعد بعضها عن بعض لأن حقيقة الإلقاء: رمي شيء من اليد إلى الأرض، وهذا استدلال بخلقة الجبال كقوله)وإلى الجبال كيف نصبت(.
و)فيها(ظرف مستقر وصف ل)رواسي(قدم على موصوفه فصار حالا، ويجوز أن يكون ظرفا لغوا متعلقا ب)ألقينا(.
ورواسي: جمع راس على غير قياس مثل: فوارس وعواذل.
والرسو: الثبات والقرار.
وفائدة هذا الوصف زيادة التنبيه إلى بديع خلق الله إذ جعل الجبال متداخلة مع الأرض ولم تكن موضوعة عليها وضعا كما توضع الخيمة لأنها لو كانت كذلك لتزلزلت وسقطت وأهلكت ما حواليها.
وقد قال في سورة الأنبياء)وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم(أي دفع أن تميد هي، أي الجبال بكم، أي ملصقة بكم في ميدها، وهنالك وجه آخر مضى في سورة الأنبياء.
والزوج: النوع من الحيوان والثمار والنبات، وتقدم في قوله تعالى)فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى(في سورة طه.
والمعنى: وأنبتنا في الأرض أصناف النبات وأنواعه.

وقوله)من كل زوج(يظهر أن حرف)من(فيه مزيد للتوكيد. وزيادة)من(في غير النفي نادرة، أي أقل من زيادتها في النفي، ولكن زيادتها في الإثبات واردة في الكلام الفصيح، فأجاز القياس عليه نحاة الكوفة والأخفش وأبو علي الفارسي وابن جني، ومنه قوله تعالى)وينزل من السماء من جبال فيها من برد(إن المعنى: ينزل من السماء جبالا فيها برد، وقد تقدم ذلك في قوله تعالى)ومن النخل من طلعها(في سورة الأنعام.

فالمقصود من التوكيد بحرف)من(تنزيلهم منزلة من ينكر أن الله أنبت ما على الأرض من أنواع حين ادعوا استحالة إخراج الناس من الأرض، ولذلك جيء بالتوكيد في هذه الآية لأن الكلام فيها على المشركين ولم يؤت بالتوكيد في آية سورة طه.

وليست)من(هنا للتبعيض إذ ليس المعنى عليه.

فكلمة)كل(مستعملة في معنى الكثرة كما تقدم في قوله تعالى)وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها(في سورة الأنعام، وقوله فيها)وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها(، وهذا كقوله تعالى)فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى(في سورة طه.

وفائدة التكثير هنا التعريض بهم لقلة تدبيرهم إذ عموا عن دلائل كثيرة واضحة بين أيديهم.

والبهيج يجوز أن يكون صفة مشبهة، يقال: بهج بضم الهاء، إذا حسن في أعين الناظرين، فالبهيج بمعنى الفاعل كما دل عليه قوله تعالى)فأنبتنا به حدائق ذات بهجة(.

ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول، أي منبهج به على الحذف والإيصال، أي يسر به الناظر، يقال: بهجه من باب منع، إذا سره، ومنه الابتهاج المسرة.

وهذا الوصف يفيد ذكره تقوية الاستدلال على دقة صنع الله تعالى. وإدماج الامتنان عليهم بذلك ليشكروا النعمة ولا يكفروها بعبادة غيره كقوله تعالى)والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون(.

)تبصرة وذكرى لكل عبد منيب[8](

صفحة : 4120

مفعول لأجله للأفعال السابقة من قوله)بنيناها وزيناها(وقوله) مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها(الخ، على أنه علة لها على نحو من طريقة التنازع، أي ليكون ما ذكر من الأفعال ومعمولاتها تبصرة وذكرى، أي جعلناه لغرض أن نبصر به ونذكر كل عبد منيب.

وحذف متعلق)تبصرة وذكرى(ليعم كل ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث كما هو السياق تصريحا وتلويحا.
وإنما كانت التبصرة والذكرى علة للأفعال المذكورة لأن التبصرة والذكرى من جملة الحكم التي أوجد الله تلك المخلوقات لأجلها. وليس ذلك بمقتض انحصار حكمة خلقها في التبصرة والذكرى، لأن أفعال الله تعالى لها حكم كثيرة علمنا بعضها وخفي علينا بعض.
والتبصرة: مصدر بصره. وأصل مصدره التبصير، فحذفوا الياء التحتية من أثناء الكلمة وعوضوا عنها التاء الفوقية في أول الكلمة كما قالوا: جرب تجربة وفسر تفسرة، وذلك يقل في المضاعف ويكثر في المهموز نحو جزأ تجزئة، ووطأ توطئة. ويتعين في المعتل نحو: زكى تزكية، وغطاه تغطية.
والتبصير: جعل المرء مبصرا وهو هنا مجاز في إدراك النفس إدراكا ظاهرا للأمر الذي كان خفيا عنها فكأنها لم تبصره ثم أبصرته.
والذكرى اسم مصدر ذكر، إذا جعله يذكر ما نسيه. وأطلقت هنا على مراجعة النفس ما علمته ثم غفلت عنه.
و)عبد(بمعنى عبد الله، أي مخلوق، ولا يطلق إلا على الإنسان. وجمعه: عباد دون عبيد.
والمنيب: الراجع، والمراد هنا الراجع إلى الحق بطاعة الله فإذا انحرف أو شغله شاغل ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال فلا يفارقه حال الطاعة وإذا فارقه قليلا آب إليه وأناب.
وإطلاق المنيب على التائب والإنابة على التوبة من تفاريع هذا المعنى، وتقدم عند قوله تعالى)وخر راكعا وأناب(في سورة ص.
وخص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى وإن كان فيما ذكر من أحوال الأرض إفادة التبصرة والذكرى لكل أحد لأن العبد المنيب هو الذي ينتفع بذلك فكأنه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال. وهذا تشريف للمؤمنين وتعريض بإهمال الكافرين التبصر والتذكر. ويحمل)كل(على حقيقة معناه من الإحاطة والشمول. فالمعنى: أن تلك الأفعال قصد منها التبصرة والذكرى لجميع العباد المتبعين للحق إذ لا يخلون من تبصر وتذكر بتلك الأفعال على تفاوت بينهم في ذلك.
)ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد[9] والنخل باسقات لها طلع نضيد[10](بعد التنظر والتذكير والتبصير في صنع السماوات وصنع الأرض وما فيهما من وقت نشأتهما نقل الكلام إلى التذكير بإيجاد آثار من آثار تلك المصنوعات تتجدد على مرور الدهر حية ثم تموت ثم تحيا دأبا، وقد غير أسلوب الكلام لهذا الانتقال من أسلوب الاستفهام في قوله)أفلم ينظروا إلى السماء(إلى أسلوب الإخبار بقوله)ونزلنا من السماء ماء

مباركا(إيذانا بتبديل المراد ليكون منه تخلص إلى الدلالة على إمكان البعث في قوله)كذلك الخروج(. فجملة)ونزلنا(عطف على جملة)والأرض مددناها(.
وقد ذكرت آثار من آثار السماء وآثار الأرض على طريقة النشر المرتب على وفق اللف.
والمبارك: اسم مفعول للذي جعلت فيه البركة، أي جعل فيه خير كثير. وأفعال هذه المادة كثيرة التصرف ومتنوعة التعليق. والبركة: الخير النافع لما يتسبب عليه من إنبات الحبوب والأعناب والنخيل. وتقدم معنى المبارك عند قوله تعالى)إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا(في سورة آل عمران.
وفي هذا استدلال بتفصيل الإنبات الذي سبق إجماله في قوله)وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج(لما فيه من سوق العقول إلى التأمل في دقيق الصنع لذلك الإنبات وأن حصوله بهذا السبب وعلى ذلك التطور أعظم دلالة على حكمة الله وسعة علمه مما لو كان إنبات الأزواج بالطفرة، إذ تكون حينئذ أسباب تكوينها خفية فإذا كان خلق السماوات وما فيها، ومد الأرض، وإلقاء الجبال فيها، دلائل على عظيم القدرة الربانية لخفاء كيفيات تكوينها فإن ظهور كيفيات التكوين في إنزال الماء وحصول الإنبات والإثمار دلالة على عظيم علم الله تعالى.
والجنات: جمع جنة، وهي ما شجر بالكرم وأشجار الفواكه والنخيل.

صفحة : 4121

والحب: هو ما ينبت في الزرع الذي يخرج سنابل تحوي حبوبا مثل البر والشعير والذرة والسلت والقطاني مما تحصد أصوله ليدق فيخرج ما فيه من الحب.
و)حب الحصيد(مفعول)أنبتا(لأن الحب مما نبت تبعا لنبات سنبله المدلول على إنباته بقوله)الحصيد(إذ لا يحصد إلا بعد أن ينبت.
والحصيد: الزرع المحصود، أي المقطوع من جذوره لأكل حبه، فإضافة)حب(إلى)الحصيد(على أصلها، وليست من إضافة الموصوف إلى الصفة.
وفائدة ذكر هذا الوصف: الإشارة إلى اختلاف أحوال استحصال ما ينفع الناس من أنواع النبات فإن الجنات تستثمر وأصولها باقية والحبوب تستثمر بعد حصد أصولها، على أن في ذلك الحصيد، منافع للأنعام تأكله بعد أخذ حبه كما قال تعالى)متاعا لكم ولأنعامكم(.

وخص النخل بالذكر مع تناول جنات له لأنه أهم الأشجار عندهم وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له ولطلعه مما يثير تذكر بديع قوامه، وأنيق جماله.

والباسقات: الطويلات في ارتفاع، أي عاليات فلا يقال: باسق للطويل الممتد على الأرض. وعن ابن شداد: الباسقات الطويلات مع الاستقامة. ولم أره لأحد من أئمة اللغة. ولعل مراده من الاستقامة الامتداد في الارتفاع. وهو بالسين المهملة في لغة جميع العرب عدا بني العنبر من تميم يبدلون السين صادا في هذه الكلمة. قال ابن جني: الأصل السين وإنما الصاد بدل منها لاستعلاء القاف. وروى الثعلبي عن قطبة بن مالك أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح قرأها بالصاد. ومثله في ابن عطية وهو حديث غير معروف.

والذي في صحيح مسلم وغيره عن قطبة بن مالك مروية بالسين. ومن العجيب أن الزمخشري قال: وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم باصقات.

وانتصب)باسقات(على الحال. والمقصود من ذلك الإيماء إلى بديع خلقته وجمال طلعته استدلالا وامتنانا.

والطلع: أول ما يظهر من ثمر التمر، وهو في الكفرى، أي غلاف العنقود.

والنضيد: المنضود، أي المصفف بعضه فوق بعض ما دام في الكفرى فإذا انشق عنه الكفرى فليس بنضيد. فهو معناه بمعنى مفعول قال تعالى)وطلح منضود(.

وزيادة هذه الحال للازدياد من الصفات الناشئة عن بديع الصنعة ومن المنة بمحاسن منظر ما أوتوه.

)رزقا للعباد(مفعول لأجله لقوله)فأنبتنا به جنات(إلى آخره، فهو مصدر، أي لنرزق العباد، أي نقوتهم.

والقول في التعليل به كالقول في التعليل بقوله)تبصره وذكرى(.

والعباد: الناس وهو جمع عبد بمعنى عبد الله، فأما العبد المملوك فجمعه العبيد. وهذا استدلال وامتنان.

)وأحيينا به بلدة ميتا(عطف على)رزقا للعباد(عطف الفعل على الاسم المشتق من الفعل وهو رزقه المشتق لأنه في معنى: رزقنا العباد وأحيينا به بلدة ميتا، أي لرعي الأنعام والوحش فهو استدلال وفيه امتنان.

والبلدة: القطعة من الأرض.

والميت بالتخفيف: مرادف الميت بالتشديد قال تعالى)وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون(.

وتذكير الميت وهو وصف للبلدة، وهي مؤنث على تأويله بالبلد لأنه مرادفه، وبالمكان لأنه جنسه، شبه الجدب بالموت في انعدام ظهور الآثار، ولذلك سمي ضده وهو إنبات الأرض حياة. ويقال لخدمة الأرض اليابسة وسقيها: إحياء موات.
)كذلك الخروج[11](بعد ظهور الدلائل بصنع الله على إمكان البعث لأن خلق تلك المخلوقات من عدم يدل على أن إعادة بعض الموجودات الضعيفة أمكن وأهون، جيء بما يفيد تقريب البعث بقوله)كذلك الخروج(.
فهذه الجملة فذلكة للاستدلال على إمكان البعث الذي تضمنته الجمل السابقة فوجب انفصال هذه الجملة فتكون استئنافا أو اعتراضا في آخر الكلام على رأي من يجيزه وهو الأصح.
والإشارة)بذلك(إلى ما ذكر آنفا من إحياء الأرض بعد موتها، أي كما أحيينا الأرض بعد موتها كذلك نحيي الناس بعد موتهم وبلاهم، مع إفادتها تعظيم شأن المشار إليه، أي مثل البعث العظيم الإبداع.
والتعريف في)الخروج(للعهد، أي خروج الناس من الأرض كما قال تعالى)يوم يخرجون من الأجداث سراعا(. ف) الخروج(صار كالعلم بالغلبة على البعث، وسيأتي قوله تعالى)ذلك يوم الخروج(.

وتقديم المجرور على المبتدإ للاهتمام بالخبر لما في الخبر من دفع الاستحالة وإظهار التقريب، وفيه تشويق لتلقي المسند إليه.
)كذبت قبلهم قوم نوح وأصحب الرس وثمود[12] وعاد وفرعون وإخوان لوط[13] وأصحب الأيكة وقوم كل كذب الرسل فحق وعيد[14](استئناف ابتدائي ناشئ عن قوله)بل كذبوا بالحق لما جاءهم(فعقب بأنهم ليسوا ببدع في الضلال فقد كذبت قبلهم أمم. وذكر منهم أشهرهم في العالم وأشهرهم بين العرب، فقوم نوح أول قوم كذبوا رسولهم، وفرعون كذب موسى، وقوم لوط كذبوه وهؤلاء معروفون عند أهل الكتاب، وأما أصحاب الرس وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع فهم من العرب.
وذكروا هنا عقب قوم نوح للجامع الخيالي بين القومين وهو جامع التضاد لأن عذابهم كان ضد عذاب قوم نوح إذ كان عذابهم بالخسف وعذاب قوم نوح بالغرق، ثم ذكر ثمود لشبه عذابهم بعذاب أصحاب الرس إذ كان عذابهم برجفة الأرض وصواعق السماء، ولأن أصحاب الرس من بقايا ثمود، ثم ذكرت عاد لأن عذابها كان بحادث في الجو وهو الريح، ثم ذكر فرعون وقومه لأنهم كذبوا أشهر الرسل

قبل الإسلام، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب وهم من خلطاء بني إسرائيل.

وعبر عن قوم لوط ب)إخوان لوط(ولم يكونوا من قبيله، فالمراد ب)إخوان(أنهم ملازمون. وهم أهل سدوم وعمورة وقراهما وكان لوط ساكنا في سدوم ولم يكن من أهل نسبهم لأن أهل سدوم كنعانيون ولوطا عبراني. وقد تقدم قوله تعالى)إذ قال لهم أخوهم لوط(في سورة الشعراء. وذكر قوم تبع وهم أهل اليمن ولم يكن العرب يعدونهم عربا.

وهذه الأمم أصابها عذاب شديد في الدنيا عقابا على تكذيبهم الرسل. والمقصود تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتعريض بالتهديد لقومه المكذبين أن يحل بهم ما حل بأولئك.

والرس: يطلق اسما للبئر غير المطوية ويطلق مصدرا للدفن والدس. واختلف المفسرون في المراد به هنا.

)وأصحاب الرس(قوم عرفوا بالإضافة إلى الرس، فيحتمل أن إضافتهم إلى الرس من إضافة الشيء إلى موطنه مثل)أصحاب الأيكة(، و)أصحاب الحجر(و)أصحاب القرية(.

ويجوز أن تكون إضافة إلى حدث حل بهم مثل)أصحاب الأخدود(. وفي تعيين)أصحاب الرس(أقوال ثمانية أو تسعة وبعضها متداخل.

وتقدم الكلام عليهم في سورة الفرقان. والأظهر أن إضافة) أصحاب(إلى)الرس(من إضافة اسم إلى حدث حدث فيه فقد قيل: إن أصحاب الرس عوقبوا بخسف في الأرض فوقعوا في مثل البئر. وقيل: هو بئر ألقى أصحابه فيه حنظلة بن صفوان رسول الله إليهم حيا فهو إذن علم بالغلبة وقيل هو فلج من أرض اليمامة.

وتقدم الكلام على أصحاب الرس في سورة الفرقان عند قوله تعالى)وعادا وثمودا وأصحاب الرس(.

وأصحاب الأيكة هم من قوم شعيب وتقدم في سورة الشعراء.

وقوم تبع هم حمير من عرب اليمن وتقدم ذكرهم في سورة الدخان.

وجملة)كل كذب الرسل(مؤكدة لجملة)كذبت قبلهم قوم نوح(الى آخرها، فلذلك فصلت ولم تعطف، وليبني عليه قوله)فحق وعيد(فيكون تهديد بأن يحق عليهم الوعيد كما حق على أولئك مرتبا بالفاء على تكذيبهم الرسل فيكون في ذلك تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم وللرسل السابقين.

وتنوين)كل(تنوين عوض عن المضاف إليه، أي كل أولئك.

و)حق(صدق وتحقق.

والوعيد: الإنذار بالعقوبة واقتضى الإخبار عنه ب)حق(أن الله توعدهم به فلم يعبأوا وكذبوا وقوعه فحق وصدق.

وحذفت ياء المتكلم التي أضيف إليها)وعيد(للرعي على الفاصلة وهو كثير.
)أفعيينا بالخلق الأول هم في لبس من خلق جديد[15](تشير فاء التفريع إلى أن هذا الكلام مفرع على ما قبله وهو جملة)أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها(وقوله)تبصرة وذكرى(المعرض بأنهم لم يتبصروا به ولم يتذكروا. وقوله)فأنبتنا به جنات(وقوله)وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج(.
ويجوز أن يجعل تفريعا على قوله)كذلك الخروج(.
والاستفهام المفرع بالفاء استفهام إنكار وتغليط لأنهم لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله لم يعي بالخلق الأول إذ لا ينكر عاقل كمال قدرة الخالق وعدم عجزه.

صفحة : 4123

و)عيينا(معناه عجزنا، وفعل)عي(إذا لم يتصل به ضمير يقال مدغما وهو الأكثر ويقال: عيي بالفك فإذا اتصل به ضمير تعين الفك. ومعناه: عجز عن إتقان فعل ولم يهتد لحيلته. ويعدى بالباء يقال: عيي بالأمر والباء فيه للمجاوزة. وأما أعيا بالهمزة في أوله قاصرا فهو للتعب بمشي أو حمل ثقل وهو فعل قاصر لا يعدى بالباء.
فالمعنى: ما عجزنا عن الخلق الأول للإنسان فكيف تعجز عن إعادة خلقه.
و)بل(في قوله)بل هم في لبس من خلق جديد(للإضراب الإبطالي عن المستفهم عنه، أي بل ما عيينا بالخلق الأول، أي وهم يعلمون ذلك ويعلمون أن الخلق الأول للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات ولكنهم تمكن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه، فالإضراب على أصله من الإبطال.
واللبس: الخلط للأشياء المختلفة الحقائق بحيث يعسر أو يتعذر معه تمييز مختلفاتها بعضها عن بعض.
والمراد منه اشتباه المألوف المعتاد الذي لا يعرفون غيره بالواجب العقلي الذي لا يجوز انتفاؤه، فإنهم اشتبه عليهم إحياء الموتى وهو ممكن عقلا بالأمر المستحيل في العقل فجزموا بنفي إمكانه فنفوه، وتركوا القياس بأنه من قدر على إنشاء ما لم يكن موجودا هو على إعادة ما كان موجودا أقدر.
وجيء بالجملة الاسمية من قوله)هم في لبس من خلق جديد(للدلالة على ثبات هذا الحكم لهم وأنه متمكن من نفوسهم لا

يفارقهم البتة، وليتأتى اجتلاب حرف الظرفية في الخبر فيدل على انغماسهم في هذا اللبس وإحاطته بهم إحاطة الظرف بالمظروف.
و)من(في قوله)من خلق جديد(ابتدائية وهي صفة ل)لبس(، أي لبس واصل إليهم ومنجر عن خلق جديد، أي من لبس من التصديق به.
وتنكير)لبس(للنوعية وتنكير)خلق جديد(كذلك، أي ما هو إلا خلق من جملة ما يقع من خلق الله الأشياء مما وجه إحالته. ولتنكيره أجريت عليه الصفة ب)جديد(.
والجديد: الشيء الذي في أول أزمان وجوده.
وفي هذا الوصف تورك عليهم وتحميق لهم من إحالتهم البعث، أي اجعلوه خلقا جديدا كالخلق الأول، وأي فارق بينهما.
وفي تسمية إعادة الناس للبعث باسم الخلق إيماء الى أنها إعادة بعد عدم الأجزاء لا جمع لمتفرقها، وقد مضى القول فيه في أول السورة.
)ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد[16](هذا تفصيل لبعض الخلق الأول بذكر خلق الإنسان وهو أهم في هذا المقام للتنبيه على أنه المراد من الخلق الأول وليبنى عليه)ونعلم ما توسوس به نفسه(الذي هو تتميم لإحاطة صفة العلم في قوله)قد علمنا ما تنقص الأرض منهم(ولينتقل الإنذار بإحصاء أعمال الناس عليها وهو ما استرسل في وصفه من قوله)إذ يتلقى الملتقيان(الخ.
ووصف البعث وصف الجزاء من قوله)ونفخ في الصور(الى قوله)ولدينا مزيد(.
وتأكيد هذا الخبر باللام و)قد(مراعى فيه المتعاطفات وهي)نعلم ما توسوس به نفسه(لأنهم وإن كانوا يعلمون أن الله خلق الناس فإنهم لا يعلمون أن الله عالم بأحوالهم.
و)الإنسان(يعم جميع الناس ولكن المقصود منهم أولا المشركون لأنهم المسوق إليهم هذا الخبر، وهو تعريض بالإنذار كما يدل عليه قوله بعده)ذلك ما كنت منه تحيد(وقوله)لقد كنت في غفلة من هذا(وقوله)ذلك يوم الوعيد(.
والباء في قوله)به(زائدة لتأكيد اللصوق، والضمير عائد الصلة كأنه قيل: ما تتكلمه نفسه على طريقة)وامسحوا برؤوسكم(.
وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلها فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم.
والإخبار عن فعل الخلق بصيغة المضي ظاهر، وأما الإخبار عن علم ما توسوس به النفس بصيغة المضارع فللدلالة على أن تعلق

علمه تعالى بالوسوسة متجدد غير منقض ولا محدود لإثبات عموم علم الله تعالى، والكناية عن التحذير من إضمار ما لا يرضي الله.
وجملة)ونحن أقرب إليه من حبل الوريد(في موضع الحال من ضمير)ونعلم(.

صفحة : 4124

والمقصود منها تأكيد عاملها وتحقيق استمرار العلم بباطن الإنسان ، ومعنى)توسوس(تتكلم كلاما خفيا همسا. ومصدره الوسواس والوسوسة أطلقت هنا مجازا على ما يجول في النفس من الخواطر والتقديرات والعزائم لأن الوسوسة أقرب شيء تشبه به تلك الخواطر وأحسن ما يستعار لها لأنها تجمع مختلف أحوال ما يجول في العقل من التقادير وما عداها من نحو ألفاظ التوهم والتفكر إنما يدل على بعض أحوال الخواطر دون بعض.
والحبل: هنا واحد حبال الجسم. وهي العروق الغليظة المعروفة في الطب بالشرايين، واحدها: شريان بفتح الشين المهملة وتكسر وبسكون الراء وتعرف بالعروق الضوارب ومنبتها من التجويف الأيسر من تجويفي القلب. وللشرايين عمل كثير في حياة الجسم لأنها التي توصل الدم من القلب إلى أهم الأعضاء الرئيسية مثل الرئة والدماغ والنخاع والكليتين والمعدة والأمعاء. وللشرايين أسماء باعتبار مصابها من الأعضاء الرئيسية.
والوريد: واحد من الشرايين وهو ثاني شريانين يخرجان من التجويف الأيسر من القلب. واسمه في علم الطب أورطي ويتشعب إلى ثلاث شعب ثالثتهما تنقسم إلى قسمين قسم أكبر وقسم أصغر. وهذا الأصغير يخرج منه شريانان يسميان السباتي ويصعدان يمينا ويسارا مع الودجين، وكل هذه الأقسام يسمى الوريد. وفي الجسد وريدان وهما عرقان يكتنفان صفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه.
وقد تختلف أسماء أجزائه باختلاف مواقعها من الجسد فهو في العنق يسمى الوريد، وفي القلب يسمى الوتين، وفي الظهر يسمى الأبهر، وفي الذراع والفخذ يسمونه الأكحل والنسا، وفي الخنصر يدعى الأسلم.
وإضافة)حبل(إلى)الوريد(بيانية، أي الحبل الذي هو الوريد، فإن إضافة الأعم إلى الأخص إذا وقعت في الكلام كانت إضافة بيانية كقولهم: شجر الأراك.

والقرب هنا كناية عن إحاطة العلم بالحال لأن القرب يستلزم الاطلاع، وليس هو قربا بالمكان بقرينة المشاهدة فآل الكلام إلى التشبيه البليغ تشبيه معقول بمحسوس، وهذا من بناء التشبيه على الكناية بمنزلة بناء المجاز على المجاز.

ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد. وبذلك فاق هذا التشبيه لحالة القرب كل تشبيه من نوعه ورد في كلام البلغاء. مثل قولهم: هو منه مقعد القابلة ومعقد الإزار، وقول زهير:

فهن ووادي الرس كاليد للفم وقول حنظلة بن سيار وهو حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي مخضرم :

كل امرئ مصبح في إهلـه والموت أدنى من شراك نعله)إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[18](يتعلق)إذ(بقوله) أقرب(لأن اسم التفضيل يعمل في الظرف وإن كان لا يعمل في الفاعل ولا في المفعول به واللغة تتوسع في الظروف والمجرورات ما لا تتوسع في غيرها، وهذه قاعدة مشهورة ثابتة والكلام تخلص للموعظة والتهديد بالجزاء يوم البعث والجزاء من إحصاء الأعمال خيرها وشرها المعلومة من آيات كثيرة في القرآن. وهذا التخلص بكلمة)إذ(الدالة على الزمان من ألطف التخلص.

وتعريف)المتلقيان(تعريف العهد إذا كانت الآية نزلت بعد آيات ذكر فيها الحفظة، أو تعريف الجنس، والتثنية فيها للإشارة إلى أن هذا الجنس مقسم اثنين اثنين.

والتلقي: أخذ الشيء من يد معطيه. استعير لتسجيل الأقوال والأعمال حين صدورها من الناس.

وحذف مفعول)يتلقى(لدلالة قوله)ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد(. إذ تحصى أقوالهم وأعمالهم.

فيؤخذ من الآية أن لكل إنسان ملكين يحصيان أعماله وأن أحدهما يكون من جهة يمينه والآخر من جهة شماله. وورد في السنة بأسانيد مقبولة: أن الذي يكون على اليمين يكتب الحسنات والذي عن الشمال يكتب السيئات وورد أنهما يلازمان الإنسان من وقت تكليفه إلى أن يموت.

وقوله)عن اليمين وعن الشمال قعيد(يجوز أن يكون)قعيد(بدلا من)الملتقيان(بدل بعض، و)عن اليمين(متعلق ب)قعيد(، وقدم على متعلقه للاهتمام بما دل عليه من الإحاطة بجانبيه وللرعاية على الفاصلة.

ويجوز أن يكون)عن اليمين(خبرا مقدما، و)قعيد(مبتدأ وتكون الجملة بيانا لجملة)يتلقى المتلقيان(.

وعطف قوله)وعن الشمال(على جملة)يتلقى(وليس عطفا على قوله)عن اليمين(لأنه ليس المعنى على أن القعيد قعيد في الجهتين بل كل من الجهتين قعيد مستقل بها. والتقدير: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد آخر.

والتعريف في)اليمين(و)الشمال(تعريف العهد أو اللام عوض عن المضاف إليه، أي عن يمين الإنسان وعن شماله.

والقعيد: المقاعد مثل الجليس للمجالس، والأكيل للمؤاكل، والشريب للمشارب، والخليط للمخالط. والغالب في فعيل أن يكون إما بمعنى فاعل، وإما بمعنى مفعول، فلما كان في المفاعلة معنى الفاعل والمفعول معا، جاز مجيء فعيل منه بأحد الاعتبارين تعويلا على القرينة، ولذلك قالوا لامرأة الرجل قعيدته.

والقعيد مستعار للملازم الذي لا ينفك عنه كما أطلقوا القعيد على الحافظ لأنه يلازم الشيء الموكل بحفظه.

وجملة)ما يلفظ من قول(الخ مبنية لجملة)يتلقى الملتقيان(فلذلك فصلت. و)ما(نافية وضمير)يلفظ(عائد للإنسان.

واللفظ: النطق بكلمة دالة على معنى، ولو جزء معنى، بخلاف القول فهو الكلام المفيد معنى.

و)من(زائدة في مفعول الفعل المنفي للتنصيص على الاستغراق. والاستثناء في قوله)إلا لديه رقيب عتيد(استثناء من أحوال عامة، أي ما يقول قولا في حالة إلا في حالة وجود رقيب عتيد لديه.

والأظهر أن هذا العموم مراد به الخصوص بقرينة قوله)إلا لديه رقيب عتيد(لأن المراقبة هنا تتعلق بما في الأقوال من خير أو شر ليكون عليه الجزاء فلا يكتب الحفظة إلا ما يتعلق به صلاح الإنسان أو فساده إذ لا حكمة في كتابة ذلك وإنما يكتب ما يترتب عليه الجزاء وكذلك قال ابن عباس وعكرمة. وقال الحسن: يكتبان كل ما صدر من العبد، قال مجاهد وأبو الجوزاء: حتى أنينه في مرضه. وروي مثله عن مالك بن أنس.

وإنما خص القول بالذكر لأن المقصود ابتداء من هذا التحذير المشركون وأنما كانوا يؤاخذون بأقوالهم الدالة على الشرك أو على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم أو أذاه ولا يؤاخذون على أعمالهم إذ ليسوا مكلفين بالأعمال في حال إشراكهم.

وأما الأعمال التي هي من أثر الشرك كالتطواف بالصنم، أو من أثر أذى النبي عليه الصلاة والسلام كإلقاء سلا الجذور عليه في صلاته، ونحو ذلك، فهم مؤاخذون به في ضمن أقوالهم على أن تلك الأفعال لا تخلو من مصاحبة أقوال مؤاخذ عليها بمقدار ما صاحبها.

ولأن من الأقوال السيئة ما له أثر شديد في الإضلال كالدعاء إلى عبادة الأصنام، ونهي الناس عن اتباع الحق، وترويج الباطل بإلقاء الشبه، وتغرير الأغرار، ونحو ذلك، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ، على أنه من المعلوم بدلالة الاقتضاء أن المؤاخذة على الأعمال أولى من المؤاخذة على الأقوال وتلك الدلالة كافية في تذكير المؤمنين.

وجملة)إلا لديه رقيب عتيد(في موضع الحال، وضمير)لديه(عائد إلى)الإنسان(، والمعنى: لدى لفظه بقوله.

و)عتيد(فعيل من عتد بمعنى هيأ، والتاء مبدلة من الدال الأول إذ أصله عديد، أي معد كما في قوله تعالى)وأعتدت لهن متكأ(.

وعندي أن)عتيد(هنا صفة مشبهة من قولهم)عتد(بضم التاء إذا جسم وضخم كناية عن كونه شديدا وبهذا يحصل اختلاف بينه وبين قوله الآتي)هذا ما لدي عتيد(ويحصل محسن الجناس التام بين الكلمتين.

وقد تواطأ المفسرون على تفسير التلقي في قوله)المتلقيان(بأنه تلقي الأعمال لأجل كتبها في الصحائف لإحضارها للحساب وكان تفسيرا حائما حول جعل المفعول المحذوف لفعل)يتلقى(ما دل عليه قوله بعده)ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد(بدلالته الظاهرة أو بدلالة الاقتضاء. فالتقدير عندهم: إذ يتلقى المتلقيان عمل الإنسان وقوله، فتكون هذه الجملة على تقديرهم منفصلة عن جملة)وجاءت سكرة الموت بالحق(كما سنبينه.

صفحة : 4126

ولفخر الدين معنى دقيق فبعد أن أجمل تفسير الآية بما يساير تفسير الجمهور قال ويحتمل أن يقال التلقي الاستقبال، يقال: فلان تلقى الركب، وعلى هذا الوجه يكون معناه: وقت ما يتلقاه المتلقيان يكون عن يمينه وعن شماله قعيد، فالمتلقيان على هذا الوجه هما الملكان اللذان يأخذان روحه من ملك الموت أحدهما يأخذ أرواح الصالحين وينقلها إلى السرور. والآخر يأخذ أرواح الطالحين وينقلها إلى الويل والثبور إلى يوم النشور، أي وقت تلقيهما وسؤالهما أنه

من أي القبيلين يكون عند الرجل قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال ملكان ينزلان، وعنده ملكان آخران كاتبان لأعماله، ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى)سائق وشهيد(. فالشهيد هو القعيد والسائق هو المتلقي يتلقى روحه من ملك الموت فيسوقه إلى منزله وقت الإعادة، وهذا أعرف الوجهين وأقربهما إلى الفهم اه.

وكأنه ينحو به منحى قوله تعالى)فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم(. ولا نوقف في سداد هذا التفسير إلا على ثبوت وجود ملكين يتسلمان روح الميت من يد ملك الموت عند قبضها ويجعلانها في المقر المناسب لحالها.

والمظنون بفخر الدين أنه أطلع على ذلك، وقد يؤيده ما ذكره القرطبي في التذكرة عن مسند الطيالسي عن البراء. وعن كتاب النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا حضر الميت المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء يقولون: اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح وريحان ورب راض غير غضبان، فإذا قبضه الملك لم يدعوها في يده طرفة فتخرج كأطيب ريح المسك فتعرج بها الملائكة حتى يأتوا به باب السماء . وساق الحديث إلا إن في الحديث ملائكة جمعا وفي الآية)المتلقيان(تثنية.

وعلى هذا الوجه يكون مفعول)يتلقى(ما دل عليه قوله بعده) وجاءت سكرة الموت(. والتقدير: إذ يتلقى المتلقيان روح الإنسان.

ويكون التعريف في قوله)عن اليمين وعن الشمال(عوضا عن المضاف إليه أي عن يمينها وعن شمالها قعيد، وهو على التوزيع، أي عن يمين أحدهما وعن شمال الآخر. ويكون)قعيد(مستعملا في معنى: قعيدان فإن فعيلا بمعنى فاعل قد يعامل معاملة فعيل بمعنى مفعول، كقول الأزرق بن طرفة:

رماني بأمر كنت منه ووالدي بريئا

ومن أجل الطوي رماني والاقتصار على)ما يلفظ من قول(حينئذ ظاهر لأن الإنسان في تلك الحالة لا تصدر منه أفعال لعجزه فلا يصدر منه في الغالب إلا أقوال من تضجر أو أنين أو شهادة بالتوحيد، أو ضدها، ومن ذلك الوصايا والإقرارات.

)وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد[19](عطف على جملة)ونحن أقرب إليه من حبل الوريد(لاشتراكهما في التنبيه على الجزاء على الأعمال. فهذا تنقل في مراحل الأمور العارضة للإنسان التي تسلمه من حال إلى آخر حتى يقع في الجزاء على أعماله التي قد أحصاها الحفيظان.

وإنما خولف التعبير في المعطوف بصيغة الماضي دون صيغة المضارع التي صيغ بها المعطوف عليه لأنه لقربه صار بمنزلة ما حصل قصدا لإدخال الروع في نفوس المشركين كما استفيد من

قوله)ذلك ما كنت منه تحيد(نظير قوله تعالى)قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم(.
ويأتي على ما اختارها الفخر في تفسير)إذ يتلقى المتلقيان(الآية أن تكون جملة)وجاءت سكرة الموت(الخ في موضع الحال.
والتقدير: وقد جاءت سكرة الموت بالحق حينئذ.
والمجيء مجاز في الحصول والاعتراء وفي هذه الاستعارة تهويل لحالة احتضار الإنسان وشعوره بأنه مفارق الحياة التي ألفها وتعلق بها قلبه.
والسكرة: اسم لما يعتري الإنسان من ألم أو اختلال في المزاج يحجب من إدراك العقل فيختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة. وهي مشتق من السكر بفتح فسكون وهو الغلق لأنه يغلق العقل ومنه جاء وصف السكران.
والباء في قوله)بالحق(للملابسة، وهي إما حال من)سكرة الموت(أي متصفة بأنها حق، والحق: الذي حق وثبت فلا يتخلف، أي السكرة التي لا طمع في امتداد الحياة بعدها، وإما حال من) الموت(، أي ملتبسا بأنه الحق، أي المفروض المكتوب على الناس فهم محقوقون به، أو الذي هو الجد ضد العبث كقوله تعالى)خلق السماوات والأرض بالحق(مع قوله)وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا(.

صفحة : 4127

وقول)ذلك(إشارة إلى الموت بتنزيل قرب حصوله منزلة الحاصل المشاهد.
و)تحيد(تفر وتهرب، وهو مستعار للكراهية أو لتجنب أسباب الموت. والخطاب للمقصود من الإنسان وبالمقصود الأول منه وهم المشركون لأنهم أشد كراهية للموت لأن حياتهم مادية محضة فهم يريدون طول الحياة قال تعالى)ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة(إذ لا أمل لهم في حياة أخرى ولا أمل لهم في تحصيل نعيمها، فأما المؤمنون فإن كراهتهم للموت المرتكزة في الجبلة بمقدار الإلف لا تبلغ بهم إلى حد الجزع منه. وفي الحديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، وتأويله بالمؤمن يحب لقاء الله للطمع في الثواب، وبالكافر يكره لقاء الله. وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن المؤمن إذا حضرته الوفاة رأى ما أعد الله له من خير فأحب

لقاء الله أي والكافر بعكسه، وقد قال الله تعالى خطابا لليهود) قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم(.
وتقديم)منه(على)تحيد(للاهتمام بما منه الحياد، وللرعاية على الفاصلة.
)ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد[21](عطف على)وجاءت سكرة الموت بالحق(على تفسير الجمهور. فأما على تفسير الفخر فالجملة مستأنفة وصيغة المضي في قوله)ونفخ(مستعملة في معنى المضارع، أي ينفخ في الصور فصيغ له المضي لتحقق وقوعه مثل قوله تعالى)أتى أمر الله فلا تستعجلوه(، والمشار إليه بذلك في قوله)ذلك يوم الوعيد(إذ أن ذلك الزمان الذي نفخ في الصور عنده هو يوم الوعيد.
والنفخ في الصور تقدم القول فيه عند قوله تعالى)وله الملك يوم ينفخ في الصور(في سورة الأنعام.
وجملة)ذلك يوم الوعيد(معترضة.
والإشارة في قوله)ذلك يوم الوعيد(راجعة إلى النفع المأخوذ من فعل)ونفخ في الصور(. والإخبار عن النفخ بأنه)يوم الوعيد(بتقدير مضاف، أي ذلك حلول يوم الوعيد.
وإضافة)يوم(إلى)الوعيد(من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، أي يوم حصول الوعيد الذي كانوا توعدوا به، والاقتصار على ذكر الوعيد لما علمت من أن المقصود الأول من هذه الآية هم المشركون. وفي الكلام اكتفاء، تقديره: ويوم الوعد.
وعطفت جملة)جاءت كل نفس(على جملة)نفخ في الصور(.
والمراد ب)كل نفس(كل نفس من المتحدث عنهم وهم المشركون، ويدل عليه أمور: أحدهما: السياق.
والثاني: قوله)معها سائق(لأن السائق يناسب إزجاء أهل الجرائم، وأما المهديون إلى الكرامة فإنما يهديهم قائد يسير أمامهم قال تعالى)كأنما يساقون إلى الموت(.
والثالث: قوله بعده)لقد كنت في غفلة من هذا(.
والرابع: قوله بعده)وقال قرينه هذا ما لدي عتيد(الآية.
وجملة)معها سائق وشهيد(بدل اشتمال من جملة)جاءت كل نفس(. و)سائق(مرفوع بالظرف الذي هو)معها(على رأي من أجازه، أو مبتدأ خبره)معها(. ويجوز أن يكون جملة)معها سائق وشهيد(حالا من)كل نفس(.وعطف)وشهيد(على)سائق(يجوز أن يكون من عطف ذات على ذات فيكون المراد ملكان أحدهما يسوق النفس إلى المحشر والآخر يشهد عليها بما حوته صحائف أعمالها. ويجوز أن يكون من عطف الصفات مثل:
إلى الملك القرم وابن الهمام فهو ملك واحد.

والسائق الذي يجعل غيره أمامه يزجيه في السير ليكون بمرأى منه كيلا ينفلت وذلك من شأن المشي به إلى ما يسوء قال تعالى)كأنما يساقون إلى الموت(وقال)وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا(، وأما قوله)وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا(فمشاكلة. وضد السوق: القود.

)لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد[22](مقول قول محذوف دل على تعينه من الخطاب، أي يقال هذا الكلام لكل نفس من نفوس المشركين فهو خطاب التهكم التوبيخي للنفس الكافرة لأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر والجزاء.

وجملة القول ومقوله في موضع الحال من)كل نفس(أو موقع الصفة، وعلامات الخطاب في كلمات)كنت، وعنك، وغطاءك، وبصرك(مفتوحة لتأويل النفس بالشخص أو بالإنسان ثم غلب فيه التذكير على التأنيث. وهذا الكلام صادر من جانب الله تعالى وهو شروع في ذكر الحساب.

صفحة : 4128

والغفلة: الذهول عما شأنه أن يعلم وأطلقت هنا على الإنكار والجحد على سبيل التهكم، ورشح ذلك قوله)فكشفنا عنك غطاءك(بمعنى: بينا لك الدليل بالحس فهو أيضا تهكم.

وأوثر قوله)في غفلة(على أن يقال غافلا للدلالة على تمكن الغفلة منه ولذلك استتبع تمثيلها بالغطاء.

وكشف الغطاء تمثيل لحصول اليقين بالشيء بعد إنكار وقوعه، أي كشفنا عنك الغطاء الذي كان يحجب عنك وقوع هذا اليوم بما فيه، واسند الكشف إلى الله تعالى لأنه الذي أظهر لها أسباب حصول اليقين بشواهد عين اليقين.

وأضيف)غطاء(إلى ضمير الإنسان المخاطب للدلالة على اختصاصه به وأنه مما يعرف به.

وحدة البصر: قوة نفاذه في المرئي، وحدة كل شيء قوة مفعوله، ومنه حدة الذهن، والكلام يتضمن تشبيه حصول اليقين برؤية المرئي ببصر قوي، وتقييده بقوله)اليوم(تعريض بالتوبيخ، أل ليس حالك اليوم كحالك قبل اليوم إذ كنت في الدنيا منكرا للبعث.

والمعنى: فقد شاهدت البعث والحشر والجزاء، فإنهم كانوا ينكرون ذلك كله،)قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا المدينون(وقالوا)وما نحن بمعذبين(فقد رأى العذاب ببصره.

)وقال قرينه هذا ما لدي عتيد[23](الواو واو الحال والجملة حال من تاء الخطاب في قوله)لقد كنت في غفلة من هذا(أي يوبخ عند مشاهدة العذاب بكلمة)لقد كنت في غفلة من هذا(، في حال قوله قرينه)هذا ما لدي عتيد(.

وهاء الغائب في قوله)قرينه(عائدة إلى كل نفس أو إلى الإنسان.

وقرين فعيل بمعنى مفعول، أي مقرون إلى غيره. وكأن فعل قرن مشتق من القرن بالتحريك وهو الحبل وكانوا يقرنون البعير بمثله لوضع الهودج، فاستعير القرين للملازم. وهذا ليس بالتفات إذ ليس هو تغيير ضمير ولكنه تعيين أسلوب الكلام وأعيد عليه ضمير الغائب المفرد باعتبار معنى)نفس(أي شخص، أو غلب التذكير على التأنيث.

واسم الإشارة في قوله)هذا ما لدي(الخ، يفسره قوله)ما لدي عتيد(.

و)ما(في قوله)ما لدي(موصولة بدل من اسم الإشارة.

و)لدي(صلة ، و)عتيد(خبر عن اسم الإشارة.

واختلف المفسرون في المراد بالقرين في هذه الآية على ثلاثة أقوال: فقال قتادة والحسن والضحاك وابن زيد ومجاهد في أحد قوليه هو الملك الموكل بالإنسان الذي يسوقه إلى المحشر أي هو السائق الشهيد . وهذا يقتضي أن يكون القرين في قوله الآتي) قال قرينه ربنا ما أطغيته(بمعنى غير معنى القرين في قوله)وقال قرينه هذا ما لدي عتيد(.

وعن مجاهد أيضا: أن القرين شيطان الكافر الذي كان يزين له الكفر في الدنيا أي الذي ورد في قوله تعالى)وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم(.

وعن ابن زيد أيضا: أن قرينه صاحبه من الإنس، أي الذي كان قرينه في الدنيا.

وعلى الاختلاف في المراد بالقرين يختلف تفسير قوله)هذا ما لدي عتيد(فإن كان القرين الملك كانت الإشارة بقوله)هذا(إلى العذاب الموكل به ذلك الملك؛ وإن كان القرين شيطانا أو أنسانا كانت الإشارة محتملة لأن تعود إلى العذاب كما في الوجه الأول، أو أن تعود إلى معاد ضمير الغيبة في قوله)قرينه(وهو في نفس الكافر، أي هذا الذي معي، فيكون)لدي(بمعنى: معي، إذ لا يخلو أحد من صاحب يأنس بمحادثته والمراد به قرين الشرك المماثل.

وقد ذكر الله من كان قرينا للمؤمن من المشركين واختلاف حاليهما يوم الجزاء بقوله)قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك لن المصدقين(الآية في سورة الصافات. وقول القرين)هذا ما لدي عتيد(مستعمل في التلهف والتحسر والإشقاق، لأنه لما رأى ما

به العذاب علم أنه قد هيئ له، أولما رأى ما قدم إليه قرينه علم أنه لاحق على أثره كقصة الثورين الأبيض والأحمر اللذين استعان الأسد بالأحمر منهما على أكل الثور الأبيض ثم جاء الأسد بعد يوم ليأكل الثور الأحمر فعلا الأحمر ربوة وصاح ألا إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض .

وتقدم معنى)عتيد(عند قوله تعالى)إلا لديه رقيب عتيد(، وهو هنا متعين للمعنى الذي فسر عليه المفسرون، أي معد ومهيأ.

)ألقيا في جهنم كل كفار عنيد[24] مناع للخير معتد مريب[25](

انتقال من خطاب النفس إلى خطاب الملكين الموكلين السائق والشهيد. والكلام مقول قول محذوف. والجملة استئناف ابتدائي انتقال من خطاب فريق إلى خطاب فريق آخر، وصيغة المثنى في قوله)ألقيا(تجوز أن تكون مستعملة في أصلها فيكون الخطاب للسائق والشهيد. ويجوز أن تكون مستعملة في خطاب الواحد وهو الملك الموكل بجهنم وخوطب بصيغة المثنى جريا على طريقة مستعملة في الخطاب جرت على ألسنتهم لأنهم يكثر فيهم أن يرافق السائر رفيقان، وهي طريقة مشهورة، كما قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل وقولهم: يا خليلي، ويا صاحبي. والمبرد يرى أن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما كأنه قيل: ألق ألق للتأكيد.

وهذا أمر بأن يعم الإلقاء في جهنم كل كفار عنيد، فيعلم منه كل حاضر في الحشر من هؤلاء أنه مدفوع به إلى جهنم.

والكفار: القوي الكفر، أي الشرك.

والعنيد: القوي العناد، أي المكابرة والمدافعة للحق وهو يعلم أنه مبطل.

والمناع: الكثير المنع، أي صد الناس عن الخير، والخير هو الإيمان، كانوا يمنعون أبناءهم وذويهم من اتباع الإيمان ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة كان يقول لبني أخيه من دخل منكم في الإسلام لا أنفعه بشيء ما عشت .

ويحتمل أن يراد به أيضا منع الفقراء من المال لأن الخير يطلق على المال وكان أهل الجاهلية يمنعون الفقراء ويعطون المال لأكابرهم تقربا وتلطفا.

نه والمعتدي: الظالم الذي يعتدي على المسلمين بالأذى وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والقول الباطل.

والمريب الذي أراب غيره، أي جعله مرتابا، أي شاكا، أي بما يلقونه إلى الناس من صنوف المغالطة ليشككوهم في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة الإيمان والتوحيد. وبين لفظي)عتيد وعنيد(الجناس المصحف.

)الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد[26](يجوز أن يكون اسم الموصول بدلا من)كفار عنيد(فإن المعرفة تبدل من النكرة كقوله تعالى)وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله(، على أن الموصول هنا تعريفه لفظي مجرد لأن معنى الصلة غير مخصوص بمعين، وأن قوله)فألقياه(تفريع على)ألقيا في جهنم كل كفار عنيد(ومصب التفريع المتعلق وهو)في العذاب الشديد(، أي في أشد عذاب جهنم تفريعا عللا الأمر بإلقائه في جهنم تفريع بيان، وإعادة فعل)ألقيا(للتأكيد مع تفريع متعلق الفعل المؤكد. وهذا من بديع النظم، ونظيره قوله تعالى)كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر(ففرع على قوله)كذبت(إلخ قوله)فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر(. ومنه قوله تعالى)لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب(، فالمقصود بالتفريع هو قوله)بمفازة من العذاب(وإعادة)تحسبنهم(تفيد التأكيد، وعليه فالذي جعل مع الله إلها آخر: الكفار المضاف إليه)كل(فهو صادق على جماعة الكفارين فضمير النصب في)ألقيناه(بمنزلة ضمير جمع، أي فألقياهم.

ويجوز أن يكون اسم الموصول مبتدأ على استئناف الكلام ويضمن الموصول معنى الشرط فيكون في وجود الفاء في خبره لأجل ما فيه من معنى الشرط وهذا كثير. والمقصود منه هنا تأكيد العموم الذي في قوله)كل كفار عنيد(.

)قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد[27](

حكاية قول القرين بالأسلوب المتبع في حكاية المقاولات في القرآن وهو أسلوب الفصل دون عطف فعل القول على شيء، وهو الأسلوب الذي ذكرناه في قوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(الآية في سورة البقرة، تشعر بأن في المقام كلاما مطويا هو كلام صاحب القرين طوي للإيجاز، ودليله ما تضمنه قول القرين من نفي أن يكون هو أطغى صاحبه إذ قال)ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد(. وقد حكي ذلك في سورة ص صريحا بقوله)هذا فوج مقتحم معكم لا مرحب بهم إنهم صالوا النار وقالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا ربنا من قدم لنا

هذا فزده عذابا ضعفا في النار(. وتقدير المطوي هنا: أن الكافر العنيد لما قدم إلى النار أراد التنصل من كفره وعناده وألقى تبعته على قرينه الذي كان يزين له الكفر فقال: هذا القرين أطغاني، فقال قرينه)ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد(.

فالقرين هذا هو القرين الذي تقدم ذكره في قوله)وقال قرينه هذا ما لدي عتيد(.

والطغيان: تجاوز الحد في التعاظم والظلم والكفر، وفعله يائي وواوي ، يقال:طغي يطغي كرضي، وطغا يطغو كدعا.

فمعنى)ما أطغيته(ما جعلته طاغيا، أي ما أمرته بالطغيان ولا زينته له. والاستدراك ناشئ عن شدة المقارنة بينه وبين قرينه لا سيما إذا كان المراد بالقرين شيطانه المقيض له فإنه قرن به من وقت إدراكه، فالاستدراك لدفع توهم أن المقارنة بينهما تقتضي أن يكون ما به من الطغيان بتلقين القرين فهو ينفي ذلك عن نفسه، ولذلك أتبع الاستدراك بجملة)كان في ضلال بعيد(فأخبر القرين بأن صاحبه ضال من قبل فلم يكن اقترانه معه في التقييض أو في الصحبة بزائد إياه إضلالا، وهذا نظير ما حكاه الله عن الفريقين في قوله)إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا(. وفعل)كان(لإفادة أن الضلال ثابت له بالأصالة ملازم لتكوينه.

والبعيد: مستعار للبالغ في قوة النوع حدا لا يبلغ إليه إدراك العاقل بسهولة كما لا يبلغ سير السائر إلى المكان البعيد إلا بمشقة أو بعيد الزمان، أي قديم أصيل فيكون تأكيدا لمفاد فعل)كان(، وقد تقدم عند قوله تعالى)ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا(في سورة النساء.

والمعنى: أن تمكن الضلال منه يدل على أنه ليس فيه بتابع لما يمليه غيره عليه لأن شأن التابع في شيء أن لا يكون مكينا فيه مثل علم المقلد وعلم النظار.

)قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد[28] ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد[29](هذا حكاية كلام يصدر يومئذ من جانب الله تعالى للفريقين الذي اتبعوا والذين اتبعوا، فالضمير عائد على غير مذكور في الكلام يدل عليه قوله)فكشفنا عنك غطاءك(.

وعدم عطف فعل)قال(على ما قبله لوقوعه في معرض المقاولة، والتعبير بصيغة الماضي لتحقق وقوعه فقد صارت المقاولة بين ثلاث جوانب.

والاختصام: المخاصمة وهو مصدر بصيغة الافتعال التي الأصل فيها أنها لمطاوعة بعض الأفعال فاستعملت للتفاعل مثل: اجتوروا واعتوروا واختصموا.

والنهي عن المخاصمة بينهم يقتضي أن النفوس الكافرة ادعت أن قرناءها أطغوها، وأن القرناء تنصلوا من ذلك وأن النفوس أعادت رمي قرنائها بذلك فصار خصاما فلذلك قال الله تعالى)لا تختصموا لدي(وطوي ذكره لدلالة)لا تختصموا(عليه إيثارا لحق الإيجاز في الكلام.

والنهي عن الاختصام بعد وقوعه بتأويل النهي عن الدوام عليه، أي كفوا عن الخصام.

ومعنى النهي أن الخصام في ذلك لا جدوى له لأن استواء الفريقين في الكفر كاف في مؤاخذة كليهما على السواء كما قال تعالى)قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون(، وذلك كناية عن أن حكم الله عليهم قد تقرر فلا يفيدهم التخاصم لإلقاء التبعة على أحد الفريقين.

ووجه استوائهما في العذاب أن الداعي إلى إضلاله قائم بما اشتهته نفسه من ترويج الباطل دون نظر في الدلائل الوزاعة عنه وأن متلقي الباطل ممن دعاه إليه قائم بما اشتهته نفسه من الطاعة لأئمة الضلال فاستويا في الداعي وترتب أثره.

والواو في)وقد قدمت(واو الحال.

والجملة حال من ضمير)تختصموا(وهي حال معللة للنهي عن الاختصام.

صفحة : 4131

والمعنى: لا تطمعوا في أن تدافعكم في إلقاء التبعة ينجيكم من العقاب بعد حال إنذاركم بالوعيد من وقت حياتكم فما اكترثتم بالوعيد فلا تلوموا إلا أنفسكم لأن من أنذر فقد أعذر.

فقوله)وقد قدمت إليكم بالوعيد(كناية عن عدم الانتفاع بالخصام كون العقاب عدلا من الله.

والباء في)بالوعيد(مزيدة للتأكيد كقوله)وامسحوا برؤوسكم(.

والمعنى: وقد قدمت إليكم الوعيد قبل اليوم.

والتقديم: جعل الشيء قدام غيره.

والمراد به هنا: كونه سابقا على المؤاخذة بالشرك لأن الله توعدهم بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالمعنى الأول المكنى عنه بين بجملة)ما يبدل القول لدي(، أي لست مبطلا ذلك الوعيد، وهو القول، إذ الوعيد من نوع القول،

والتعريف للعهد، أي فما أوعدتكم واقع لا محالة لأن الله تعهد أن لا يغفر لمن يشرك به ويموت على ذلك.
والمعنى الثاني المكنى عنه بين بجملة)وما أنا بظلام للعبيد(، أي فلذلك قدمت إليكم الوعيد.
والمبالغة التي في وصف)ظلام(راجعة إلى تأكيد النفي. والمراد: لا أظلم شيئا من الظلم، وليس المعنى: ما أنا بشديد الظلم كما قد يستفاد من توجه النفي إلى المقيد يفيد أن يتوجه إلى القيد لأن ذلك أغلبي. والأكثر في نفي أمثلة المبالغة أن يقصد بالمبالغة مبالغة النفي، قال طرفة:
ولست بحلال التلاع مخـافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد فإنه لا يريد نفي كثرة حلوله التلاع وإنما أراد كثرة النفي.
وذكر الشيخ في دلائل الإعجاز توجه نفي الشيء المقيد إلى خصوص القيد كتوجه الإثبات سواء، ولكن كلام التفتزاني في كتاب المقاصد في أصول الدين في مبحث رؤية الله تعالى أشار إلى استعمالين في ذلك، فالأكثر أن النفي يتوجه في مبحث رؤية الله تعالى أشار إلى استعمالين في ذلك، فالأكثر أن النفي يتوجه إلى القيد فيكون المنفي القيد، وقد يعتبر القيد قيدا للنفي وهذا هو التحقيق.
علي أني أرى أن عد مثل صيغة المبالغة في عداد القيود محل نظر فإن المعتبر من القيود هو ما كان لفظا زائدا على اللفظ المنفي من صفة أو حال أو نحو ذلك، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال: لست ظلاما، ولكن أظلم، ويحسن أن يقال لا آتيك محاربا ولكن مسالما.
وقد أشار في الكشاف إلى أن إيثار وصف)ظلام(هنا إيماء إلى أن المنفي لو كان غير منفي لكان ظلما شديدا فيفهم منه أنه لو أخذ الجاني قبل أن يعرف أن عمله جناية لكانت مؤاخذته بها ظلما شديدا. ولعل صاحب الكشاف يرمي إلى مذهبه من استواء السيئات، والتعبير بالعبيد دون التعبير بالناس ونحوه لزيادة تقرير معنى الظلم في نفوس الأمة، أي لا أظلم ولو كان المظلوم عبدي فإذا كان الله الذي خلق العباد قد جعل مؤاخذة من لم يسبق له تشريع ظلما فما بالك بمؤاخذة الناس بعضهم بعضا بالتبعات دون تقدم إليهم بالنهي من قبل، ولذلك يقال: لا عقوبة إلا على عمل فيه قانون سابق قبل فعله.
)يوم يقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد[30](ظرف متعلق ب)قال لا تختصموا لدي(. والتقدير: قال لهم في ذلك القول يوم يقول قولا آخر لجهنم)هل امتلأت(. ومناسبته تعليقه به أن هذا

القول لجهنم مقصود به ترويع المدفوعين إلى جهنم أن لا يطمعوا في أن كثرتهم يضيق بها سعة جهنم فيطمع بعضهم أن يكون ممن لا يوجد له مكان فيها، فحكاه الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين وتعليما لأهل القرآن المؤمنين ولذلك استوت قراءة) يقول(بالياء، وهي لنافع وأبي بكر عن عاصم جريا على مقتضى ظاهر ما سبقه من قوله)قال لا تختصموا لدي(. وقراءة الباقين بالنون على الالتفات بل هو التفات تابع لتبديل طريق الإخبار من الحديث عن غائب إلى خطاب حاضر.

والقول الأول حقيقي وهو كلام يصدر من جانب الله بمحض خلقه دون واسطة. فلذلك أسند إلى الله كما يقال القرآن كلام الله.

والاستفهام في)هل امتلأت(مستعمل في تنبيه أهل العذاب إلى هذا السؤال على وجه التعريض.

وأما القول لجهنم فيجوز أن يكون حقيقة بأن يخلق الله في أصوات لهيبها أصواتا ذات حروف يلتئم منها كلام، ويجوز أن يكون مجازا عن دلالة حالها على أنها تسع ما يلقى فيها من أهل العذاب بأن يكشف باطنها للمعروضين عليها حتى يروا سعتها كقول الراجز:

امتلا الحوض وقال: قطني والاستفهام في)هل من مزيد(مستعمل للتشويق والتمني.

وفيه دلالة على أن الموجودات مشوقة إلى الإيفاء بما خلقت له كما قال الشيطان)رب بما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم(. وفيه دلالة على إظهار الامتثال لما خلقها الله لأجله، ولأنها لا تتلكأ ولا تتعلل في أدائه على أكمل حال في بابه.

والمزيد: مصدر ميمي، وهو الزيادة مثل المجيد والحميد. ويجوز أن يكون اسم مفعول من زاد، أي هل من جماعة آخرين يلقون في.

)وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد[31] هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ[32] من خشي الرحمان بالغيب وجاء بقلب منيب[33] ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود[34] لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد[35] (عطف)وأزلفت(على)يقول لجهنم(. فالتقدير: يوم أزلفت الجنة للمتقين وهو رجوع إلى مقابل حالة الضالين يوم ينفخ في الصور، فهذه الجملة متصلة في المعنى بجملة)وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد(ولو اعتبرت معطوفة عليها لصح ذلك إلا أن عطفها على جملة)يوم يقول لجهنم هل امتلات(غنية عن ذلك ولا سيما مع طول الكلام.

والإزلاف: التقريب مشتق من الزلف بالتحريك وهو القربة، وقياس فعله أنه كفرح كما دل عليه المصدر ولم يرو في كلامهم، أي جعلت الجنة قريبا من المتقين، أي ادنوا منها.

والجنة موجودة من قبل ورود المتقين إليها فإزلافها قد يكون بحشرهم للحساب بمقربة منها كرامة لهم عن كلفة المسير إليها، وقد يكون عبارة عن تيسير وصولهم إليها بوسائل غير معروفة في عادة أهل الدنيا.

وقوله)غير بعيد(يرجح الاحتمال الأول، أي غير بعيد منهم وإلا صار تأكيدا لفظيا ل)أزلفت(كما يقال: عاجل غير آجل، وقوله)وأضل فرعون قومه وما هدى(والتأسيس أرجح من احتمال التأكيد.

وانتصب)غير بعيد(على الظرفية باعتبار أنه وصف لظرف مكان محذوف. والتقدير: مكانا غير بعيد، أي عن المتقين. وهذا الظرف حال من)الجنة(.

وتجريد)بعيد(من علامة التأنيث: إما على اعتبار)غير بعيد(وصفا ل)مكان(، وإما جري على الاستعمال الغالب في وصف)بعيد وقريب(إذا أريد البعد والقرب بالجهة دون النسب أن يجردا من علامة التأنيث كما قاله الفراء أو لأن تأنيث اسم الجنة غير حقيقي كما قال الزجاج، وإما لأنه جاء على زنة المصدر مثل الزئير والصليل، كما قال الزمخشري، ومثله قوله تعالى)إن رحمة الله قريب من المحسنين(.

وجملة)هذا ما توعدون(معترضة، فلك أن تجعلها وحدها معترضة وما بعدها متصلا بما قبلها فتكون معترضة بين البدل والمبدل منه وهما)للمتقين(و)لكل أواب(، بدلا من)للمتقين(، وتكرير الحرف الذي جر به المبدل منه لقصد التأكيد كقوله تعالى)قال الذين استكبروا للذين استضعفوا لمن آمن منهم(الآية وقوله)ولأبويه لكل واحد منهما السدس(.

واسم الإشارة المذكر مراعى فيه مجموع ما هو مشاهد عندهم من الخيرات.

والأواب: الكثير الأوب، أي الرجوع إلى الله، أي إلى امتثال أمره ونهيه.

والحفيظ: الكثير الحفظ لوصايا الله وحدوده.

والمعنى: أنه محافظ على الطاعة فإذا صدرت منه فلتة أعقبها بالتوبة.

و)من خشي الرحمان بالغيب(بدل من)كل أواب(.

والخشية: الخوف. وأطلقت الخشية على أثرها وهو الطاعة.

والباء في)بالغيب(بمعنى)في(الظرفية لتنزيل الحال منزلة المكان، أي الحالة الغائبة وهي حالة عدم اطلاع أحد عليه، فإن

الخشية في تلك الحالة تدل على صدق الطاعة لله بحيث لا يرجو ثناء أحد ولا عقاب أحد فيتعلق المجرور بالتاء بفعل)خشي(.
ولك أن تبقي الباء على بعض معانيها الغالبة وهي الملابسة ونحوها ويكون)الغيب(مصدرا والمجرور حالا من ضمير)خشي(.
ومعنى)وجاء بقلب منيب(أنه حضر يوم الحشر مصاحبا قلبه المنيب إلى الله، أي مات موصوفا بالإنابة ولم يبطل عمله الصالح في آخر عمره، وهذا كقوله حكاية عن إبراهيم)يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم(.

وإيثار اسمه)الرحمان(في قوله)من خشي الرحمان(دون اسم الجلالة للإشارة إلى أن هذا المتقي يخشى الله وهو يعلم أنه رحمان، ولقصد التعريض بالمشركين الذين أنكروا اسمه الرحمان) وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمان(.
والمعنى على الذين خشوا: خشي صاحب هذا الاسم، فأنتم لا حظ لكم في الجنة لأنكم تنكرون أن الله رحمان بلة أن تخشوه.
ووصف قلب ب)منيب(على طريقة المجاز العقلي لأن القلب سبب الإنابة لأنه الباعث عليها.
وجملة)ادخلوها بسلام(من تمام مقول القول المحذوف. وهذا الإذن من كمال إكرام الضيف أنه إن دعي إلى الوليمة أو جيء به فإنه إذا بلغ المنزل قيل له: ادخل بسلام.
والباء في)بسلام(للملابسة. والسلام: السلامة من كل أذى من تعب أو نصب، وهو دعاء.
ويجوز أن يراد به أيضا تسليم الملائكة عليهم حين دخولهم الجنة مثل قوله)سلام قولا من رب رحيم(.
ومحل هذه الجملة من التي قبلها الاستئناف البياني لأن ما قبلها يثير ترقب المخاطبين للإذن بإنجاز ما وعدوا به.
وجملة)ذلك يوم الخلود(يجوز أن تكون مما يقال للمتقين على حد قوله)فادخلوها خالدين(، والإشارة إلى اليوم الذي هم فيه. وكان اسم الإشارة للبعيد للتعظيم.

ويجوز أن تكون الإشارة إلى اليوم المذكور في قوله)يوم يقول لجهنم هل امتلأت(فإنه بعد أن ذكر ما يلاقيه أهل جهنم وأهل الجنة أعقبه بقوله)ذلك يوم الخلود(ترهيبا وترغيبا، وعلى هذا الوجه الثاني

تكون هذه الجملة معترضة اعتراضا كوجها إلى المتقين يوم القيامة أو إلى السامعين في الدنيا.
وعلى كلا الوجهين فإضافة)يوم(إلى)الخلود(باعتبار أن أول أيام الخلود هي أيام ذات مقادير غير معتادة، أو باعتبار استعمال)يوم(بمعنى مطلق الزمان.
وبين كلمة)ادخلوها(وكلمة)الخلود(الجناس المقلوب الناقص، ثم إن جملة)لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد(يجوز أن تكون من بقية ما يقال للمتقين ابتداء من قوله)هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ(فيكون ضمير الغيبة التفاتا وأصله: لكم ما تشاؤون. ويجوز أن تكون مما خوطب به الفريقان في الدنيا وعلى الاحتمالين فهي مستأنفة استئنافا بيانيا.
و)ولدينا مزيد(، أي زيادة على ما يشاؤون مما لم يخطر ببالهم، وذلك زيادة في كرامتهم عند الله ووردت آثار متفاوتة القوة أن من المزيد مفاجأتهم بخيرات، وفيها دلالة على أن المفاجأة بالإنعام ضرب من التلطف والإكرام، وأيضا فإن الأنعام يجيئهم في صور معجبة. والقول في)مزيد(هنا كالقول في نظيره السابق آنفا.
وجاء ترتيب الآيات في منتهى الدقة فبدأت بذكر إكرامهم بقوله)وأزلفت الجنة للمتقين(، ثم بذكر أن الجنة جزاؤهم الذي وعدوا به فهي حق لهم، ثم أومأت إلى أن ذلك لأجل أعمالهم بقوله)لكل أواب حفيظ من خشي الرحمان(الخ، ثم ذكرت المبالغة في إكرامهم بعد ذلك كله بقوله)ادخلوها بسلام(، ثم طمأنهم بإن ذلك نعيم خالد، وزيد في إكرامهم بأن لهم ما يشاؤون ما لم يروه حين الدخول، وبأن الله وعدهم بالمزيد من لدنه.
)وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص[36] إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[37](انتقال من الاستدلال إلى التهديد وهو معطوف على ما قبله وهذا العطف انتقال إلى الموعظة بما حل بالأمم المكذبة بعد الاستدلال على إمكان البعث بقوله)قد علمنا ما تنقص الأرض منهم(وما فرع عليه من قوله)أفعيينا بالخلق الأول(. وفي هذا العطف الوعيد الذي أجمل في قوله)كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس(إلى قوله)فحق وعيد(. فالوعيد الذي حق عليهم هو الاستئصال في الدنيا وهو مضمون قوله)وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا(.
والخبر الذي أفاده قوله)وكم أهلكنا قبلهم(تعريض بالتهديد وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم.
وضميرا)قبلهم(و)منهم(عائدان إلى معلوم من المقام غير مذكور في الكلام كما تقدم في قوله أول السورة من قوله)بل عجبوا أن

جاءهم منذر منهم(.ويفسره قوله بعده)فقال الكافرون هذا شيء عجيب(. وجرى على ذلك السنن قوله)كذبت قبلهم قوم نوح(وقوله)بل هم في لبس من خلق جديد(، ونظائره في القرآن كثيرة.

صفحة : 4134

و)كم(خبرية وجر تمييزها ب)من(على الأصل.
والبطش: القوة على الغير.
والتنقيب: مشتق من النقب بسكون القاف بمعنى الثقب، فيكون بمعنى:خرقوا، واستعير لمعنى: ذللوا وأخضعوا، أي تصرفوا في الأرض بالحفر والغرس والبناء وتحت الجبال وإقامة السداد والحصون فيكون في معنى قوله)وأثاروا الأرض وعمروها(في سورة الروم.
وتعريف)البلاد(للجنس، أي في الأرض كقوله تعالى)الذين طغوا في البلاد(.
والفاء في)فنقبوا(للتفريع عن)أشد منهم بطشا(، أي ببطشهم وقوتهم لقبوا في البلاد.
والجملة معترضة بين جملة)وكم أهلكنا قبلهم(إلى آخره.
وجملة)هل من محيص(كما اعترض بالتفريع في قوله تعالى)ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار(.
وجملة)هل من محيص(بدل اشتمال من جملة)أهلكنا(، أي إهلاكا لا منجي منه. ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة.
فالاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ولذلك دخلت)من(على الاسم الذي بعد الاستفهام كما يقال: ما من محيص، وهذا قريب من قوله في سورة ص~)كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص(.
والمحيص: مصدر ميمي من حاص إذا عدل وجاد، أي لم يجدوا محيصا من الإهلاك وهو كقوله تعالى)وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد(في سورة مريم.
وقوله)إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب(إلى آخرها يجوز أن تكون الإشارة بذلك إلى إهلاك القرون الأشد بطشا، ويجوز أن يكون إل جميع ما تقدم من استدلال وتهديد وتحذير من يوم الجزاء.
والذكرى: التذكرة العقلية، أي التفكر في تدبر الأحوال التي قضت عليهم بالإهلاك ليقيسوا عليها أحوالهم فيعلموا أن سينالهم ما نال أولئك، وهذا قياس عقلي يدركه اللبيب من تلقاء نفسه دون احتياج إلى منبه.
والقلب: العقل وإدراك الأشياء على ما هي عليه.

وإلقاء السمع: مستعار لشدة الإصغاء للقرآن ومواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم كأن أسماعهم طرحت في ذلك فلا يشغلها شيء آخر تسمعه.

والشهيد: المشاهد وصيغة المبالغة فيه للدلالة على قوة المشاهدة للمذكر، أي تحديق العين إليه للحرص على فهم مراده مما يقارن كلامه من إشارة أو سحنة فإن النظر يعين على الفهم.

وقد جيء بهذه الجملة الحالية للإشارة إلى اقتران مضمونها بمضمون عاملها بحيث يكون صاحب الحال ملقيا سمعه مشاهدا. وهذه حالة المؤمن ففي الكلام تنويه بشأن المؤمنين وتعريض بالمشركين بأنهم بعداء عن الانتفاع بالذكريات والعبر.

وإلقاء السمع مع المشاهدة يوقظ العقل للذكرى والاعتبار إن كان للعقل غفلة.

وموقع)أو(للتقسيم لأن المتذكر إما أن يتذكر بما دلت عليه الدلائل العقلية من فهم أدلة القرآن ومن الاعتبار بأدلة الآثار على أصحابها كآثار الأمم مثل ديار ثمود، قال تعالى)فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا(فقوله)ألقى السمع(استعارة عزيزة شبه توجيه السمع لتلك الأخبار دون اشتغال بغيرها بإلقاء الشيء لمن أخذه فهو من قسم من له قلب، وإما أن يتذكر بما يبلغه من الأخبار عن الأمم كأحاديث القرون الخالية. وقيل المراد بمن ألقى السمع وهو شهيد خصوص أهل الكتاب الذين ألقوا سمعهم لهذه الذكرى وشهدوا بصحتها لعلمهم بها من التوراة وسائر كتبهم فيكون)شهيد(من الشهادة لا من المشاهدة. وقال الفخر: تنكير)قلب(للتعظيم والكمال. والمعنى: لمن كان له قلب ذكي واع يستخرج بذكائه، أو لمن ألقى السمع إلى المنذر فيتذكر، وإنما قال و)ألقى السمع(ولم يقل: استمع، لأن إلقاء السمع، أي يرسل سمعه ولا يمسكه وإن لم يقصد السماع، أي تحصل الذكرى لمن له سمع.

وهو تعريض بتمثيل المشركين بمن ليس له قلب وبمن لا يلقي سمعه.

)ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب[38](مناسبة اتصال هذه الآية بما قبلها أنه لما نزل قوله تعالى)أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها(إلى قوله)لها طلع نضيد(، وكان ذلك قريبا مما وصف في التوراة من ترتيب المخلوقات إجمالا ثم نزل قوله بعد ذلك)أفعيينا بالخلق الأول(كان بعض اليهود بمكة يقولون إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، وهذا مكتوب في سفر التكوين من التوراة.

والاستراحة تؤذن بالنصب والإعياء فلما فرغت الآية من تكذيب المشركين في أقوالهم عطفت إلى تكذيب الذين كانوا يحدثونهم بحديث الاستراحة، فهذا تأويل موقع هذه الآية في هذا المحل مع ما حكى ابن عطية من الإجماع على أن هذه السورة كلها مكية وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام على طليعة السورة فقول من قال نزلت في يهود المدينة تكلف إذ لم يكن اليهود مقصورين على المدينة من بلاد العرب وكانوا يترددون إلى مكة.

فقوله)ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام(تكملة لما وصف من خلق السماوات في قوله)أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها(إلى قوله)من كل زوج بهيج(ليتوصل به إلى قوله)وما مسنا من لغوب(إبطالا لمقالة اليهود، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها عطف القصة على القصة وقعت معترضة بين الكلام السابق وبين ما فرع عنه من قوله)فاصبر على ما يقولون(.

والواو في)وما مسنا من لغوب(واو الحال لأن لمعنى الحال هنا موقعا عظيما من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدة القصيرة بأنه لا ينصب خالقه لأن الغرض من معظم هذه ا لسورة بيان إمكان البعث إذ أحاله المشركون بما يرجع إلى ضيق القدرة الإلهية عن إيقاعه، فكانت هذه الآيات كلها مشتملة على إبراز معنى سعة القدرة الإلهية.

ومعنى)وما مسنا من لغوب(: ما أصابنا تعب. وحقيقة المس: اللمس، أي وضع اليد على شيء وضعا غير شديد بخلاف الدفع واللطم. فعبر عن نفي أقل الإصابة بنفي المس لنفي أضعف أحوال الإصابة كما في قوله تعالى)من قبل أن يتماسا(فنفي قوة الإصابة وتمكنها أحرى.

واللغوب: الإعياء من الجري والعمل الشديد.

)فاصبر على ما يقولون(تفريع على ما تقدم كله من قوله)بل عجبوا أن جاءهم منذر(الآيات، ومناسبة وقعه هذا الموقع ما تضمنه قوله)وكم أهلكنا قبلهم من قرن(الآية من التعريض بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم، أي فاصبر على ما يقول المشركون من التكذيب بما أخبرتهم من البعث وبالرسالة وقد جمع ذلك كله الموصول وهو)ما يقولون(.

وضمير)يقولون(عائد إلى المشركين الذين هم المقصود من هذه المواعظ والنذر ابتداء من قوله)بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم(.

)وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب[39] ومن الليل فسبحه وإدبار السجود[40](عطف على)فاصبر على ما يقولون(فهو من تمام التفريع، أي اصبر على أقوال أذاهم وسخريتهم. ولعل وجه هذا العطف أن المشركين كانوا يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا قاموا إلى الصلاة مثل قصة إلقاء عقبة بن أبي معيط سلا الجزور على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم حين سجد في المسجد الحرام في حجر الكعبة فأقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله الآية. وقال تعالى)أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى(إلى قوله)كلا لا تطعه واسجد واقترب(.

فالمراد بالتسبيح: الصلاة وهو من أسماء الصلاة. قال ابن عطية: أجمع المتأملون على أن التسبيح هنا الصلاة. قلت: ولذلك صار فعل التسبيح منزلا منزلة اللازم لأنه في معنى: صل.

والباء في)بحمد ربك(يرجح كون المراد بالتسبيح الصلاة لأن الصلاة تقرأ في كل ركعة منها الفاتحة وهي حمد لله تعالى، فالباء للملابسة.

واختلف المفسرون في المراد بالصلاة من قوله)وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وإدبار السجود(ففي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها يعني بذلك العصر والفجر. ثم قرأ جرير وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها كذا . والقراءة)الغروب(.

وعن ابن عباس: قبل الغروب: الظهر والعصر. وعن قتادة: العصر.

وقوله)ومن الليل فسبحه(الجمهور على أن التسبيح فيه هو الصلاة، وعن أبي الأحوض أنه قول)سبحان الله(فعلى أن التسبيح الصلاة قال ابن زيد: صلاة المغرب وصلاة العشاء.

صفحة : 4136

)وقبل الغروب(ظرف واسع يبتدئ من زوال الشمس عن كبد السماء لأنها حين تزول عن كبد السماء قد مالت إلى الغروب وينتهي بغروبها، وشمل ذلك وقت صلاة الظهر والعصر، وذلك معلوم للنبي صلى الله عليه وسلم وتسبيح الليل بصلاتي المغرب والعشاء

لأن غروب الشمس مبدأ الليل، فإنهم كانوا يؤرخون بالليالي ويبتدئون الشهر بالليلة الأولى التي بعد طلوع الهلال الجديد عقب غروب الشمس.

وقيل هذه المذكورات كلها نوافل، فالذي قبل طلوع الشمس ركعتا الفجر، والذي قبل الغروب ركعتان قبل غروب الشمس قاله أبو برزة وأنس بن مالك، والذي من الليل قيام الليل قاله مجاهد.

ويأتي على هذا الوجه الاختلاف في محمل الأمر على الندب إن كانا عاما أو على الوجوب إن كانا خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في سورة المزمل.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى)فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا(في سورة الإنسان.

وقريب منها أيضا قوله تعالى)واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم(في سورة الطور.

وأما قوله)وإدبار السجود(فيجوز أن يكون معطوفا على قوله)قبل طلوع الشمس(، ويجوز أن يكون معطوفا على قوله)ومن الليل فسبحه(.

والإدبار: بكسر الهمزة حقيقته: الانصراف لأن المنصرف يستدير من كان معه، واستعير هنا للانقضاء، أي انقضاء السجود، والسجود: الصلاة، قال تعالى)واسجد واقترب(. وانتصابه على النيابة عن الظرف لأن المراد: وقت إدبار السجود.

وقرأه نافع وابن كثير وأبو جعفر وحمزة وخلف بكسر همزة)إدبار(. وقرأه الباقون بفتح الهمزة على أنه جمع: دبر، بمعنى العقب والآخر، وعلى كلتا القراءتين هو وقت انتهاء السجود.

ففسر السجود بالحمل على الجنس، أي بعد الصلوات قال ابن زيد، فهو أمر بالرواتب التي بعد الصلوات. وهو عام خصصته السنة بأوقات النوافل، ومجمل بينت السنة مقاديره، وبينت أن الأمر فيه أمر ندب وترغيب لا أمر إيجاب.

وعن المهدوي أنه كان فرضا فنسخ بالفرائض.

وحمل على العهد فقال جمع من الصحابة والتابعين هو صلاة المغرب، أي الركعتان بعدها. وعن ابن عباس أنه الوتر.

والفاء في قوله)فسبحه(للتفريع على قوله)وسبح بحمد ربك(على أن يكون الوقت على قوله)ومن الليل(تأكيدا للأمر لإفادة الوجوب فيجعل التفريع اعتراضا بين الظروف المتعاطفة وهو كالتفريع الذي في قوله آنفا)فنقبوا في البلاد(وقوله تعالى)ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار(.

)واستمع يوم يناد المنادي من مكان قريب[41] يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج[42] إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير[43](لا محالة أن جملة)استمع(عطف على جملة)سبح بحمد ربك(، فالأمر بالاستماع مفرع بالفاء التي فرع بها الأمر بالصبر على ما يقولون. فهو لاحق بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم فلا يكون المسموع إلا من نوع ما فيه عناية به وعقوبة لمكذبيه.

وابتداء الكلام ب)استمع(يفيد توشيقا إلى ما يرد بعده على كل احتمال.

والأمر بالاستماع حقيقته: الأمر بالإنصات والإصغاء.

وللمفسرين ثلاث طرق في محمل)استمع(، فالذي نحاه الجمهور حمل الاستماع على حقيقته وإذ كان المذكور عقب فعل السمع لا يصلح لأن يكون مسموعا لأن اليوم ليس مما يسمع تعين تقدير مفعول ل)استمع(يدل عليه الكلام الذي بعده فيقدر: استمع نداء المنادي، أو استمع خبرهم، أو استمع الصيحة يوم ينادي المنادي.

ولك أن تجعل فعل)استمع(منزلا منزلة اللازم، أي كن سامعا ويتوجه على تفسيره هذا أن يكون معنى الأمر بالاستماع تخييلا لصيحة ذلك اليوم في صورة الحاصل بحيث يؤمر المخاطب بالإصغاء إليها في الحال كقول مالك بن الريب:

دعاني الهوى من أهل ودي وجيرتي
بذي الطبسين فـالـتـفـت ورائيا

صفحة : 4137

ونحا ابن عطية حمل)استمع(على المجاز، أي انتظر. قال لأن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن يستمع في يوم النداء لأن كل من فيه يستمع وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم تحسس هذا اليوم وارتقبه فإن فيه تبين صحة ما قلته اه. ولم أر من سبقه إلى هذا المعنى، ومثله في تفسير الفخر وفي تفسير النسفي. ولعلهما اطلعا عليه لأنهما متأخران عن ابن عطية وهما وإن كان مشرقيين فأن الكتب تنقل بين الأقطار.

وللزمخشري طريقة أخرى فقال يعني: واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به، كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل يا معاذ اسمع ما أقول لك ثم حدثه بعد ذلك . ولم أر من سبقه إلى هذا وهو محمل حسن دقيق.

واللائق بالجري على المحامل الثلاثة المتقدمة أن يكون)يوم ينادي المنادي(مبتدأ وفتحته فتحة بناء لأنه اسم زمان أضيف إلى جملة فيجوز فيه الإعراب والبناء على الفتح، ولا يناكده أن فعل الجملة مضارع لأن التحقيق أن ذلك وارد في الكلام الفصيح وهو قول نحاة الكوفة وابن مالك ولا ريبة في أنه الأصوب. ومنه قوله تعالى)قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم(في قراءة نافع بفتح)يوم(.

وقوله)يوم يسمعون الصيحة(بدل مطابق من)يوم ينادي المنادي(وقوله)ذلك يوم الخروج(خبر المبتدأ.

ولك أن تجعل)يوم ينادي المنادي(مفعولا فيه ل)استمع(وإعراب ما بعده ظاهر.

ولك أن تجعل)يوم ينادي المنادي(ظرفا في موقع الخبر المقدم وتجعل المبتدأ قوله)ذلك يوم الخروج(ويكون تقدير النظم: واستمع ذلك يوم الخروج يوم ينادي المنادي الخ، ويكون اسم الإشارة لمجرد التنبيه، أو راجعا إلى يوم ينادي المنادي، فإنه متقدم عليه في اللفظ وإن كان خبرا عنه في المعنى واسم الإشارة يكتفي بالتقديم اللفظي بل يكتفي بمجرد الخطور في الذهن. وفي تفسير النسفي أن يعقوب أي الحضرمي أحد أصحاب القراءات العشر المتواترة وقف على قوله)واستمع(.

وتعريف)المنادي(تعريف الجنس، أي يوم ينادي مناد، أي من الملائكة وهو الملك الذي ينفخ النفخة الثانية فتتكون الأجساد وتحل فيها أرواح الناس للحشر قال تعالى)ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون(.

وتنوين)مكان قريب(للنوعية إذ لا يتعلق الغرض بتعيينه، ووصفه ب)قريب(للإشارة إلى سرعة حضور المنادين، وهو الذي فسرته جملة)يوم يسمعون الصيحة بالحق(لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من كان بعيدا.

و)بالحق(بمعنى: بالصدق وهو هنا الحشر، وصف)بالحق(إبطالا لزعم المشركين أنه اختلاق.

والخروج: مغادرة الدار أو البلد، وأطلق الخروج على التجمع في المحشر لأن الحي إذا نزحوا عن أرضهم قيل: خرجوا، يقال: خرجوا بقضهم وقضيضهم.

واسم الإشارة جيء به لتهويل المشار إليه وهو)يوم يسمعون الصيحة بالحق(فأريد كمال العناية بتمييزه لاختصاصه بهذا الخبر العظيم. ومقتضى الظاهر أن يقال: هو يوم الخروج.

و)يوم الخروج(علم بالغلبة على يوم البعث، أي الخروج من الأرض.

وجملة)إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير(تذييل، أي هذا الإحياء بعد أن أمتناهم هو من شؤوننا بأنا نحييهم ونحيي غيرهم ونميتهم ونميت غيرهم.
والمقصود هو قوله)ونميت(، وأما قوله)نحيي(فإنه لاستيفاء معنى تصرف الله في الخلق.
وتقديم)إلينا(في)إلينا المصير(للاهتمام.
والتعريف في)المصير(إما تعريف الجنس، أي كل شيء صائر إلى ما قدرناه له وأكبر ذلك هو ناموس الفناء المكتوب على جميع الأحياء وإما تعريف العهد، أي المصير المتحدث عنه، وهو الموت لأن المصير بعد الموت إلى حكم الله.

صفحة : 4138

وعندي أن هذه الآيات من قوله)واستمع يوم يناد المنادي(إلى قوله)المصير(مكان قريب هي مع ما تفيده من تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم مبشر بطريقة التوجيه البديعي إلى تهديد المشركين بعذاب يحل بهم في الدنيا عقب نداء يفزعهم فيلقون إثره حتفهم، وهو عذاب يوم بدر فخوطب النبي صلى الله عليه وسلم بترقب يوم يناديهم فيه مناد إلى الخروج وهو نداء الصريخ الذي صرخ بأبي جهل ومن معه بمكة بأن عير قريش وفيها أبو سفيان قد لقيها المسلمون ببدر وكان المنادي ضمضم بن عمرو الغفاري إذ جاء على بعيره فصرخ ببطن الوادي: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه. فتجهز الناس سراعا وخرجوا إلى بدر.
فالمكان القريب هو بطن الوادي فإنه قريب من مكة.
والخروج: خروجهم لبدر، وتعريف اليوم بالإضافة إلى الخروج لتهويل أمر ذلك الخروج الذي كان استئصال سادتهم عقبه. وتكون جملة)إنا نحن نحيي ونميت(وعيدا بأن الله يميت سادتهم وأنه يبقي من قدر إسلامه فيما بعد فهو يحييه إلى يوم أجله.
وكتب في المصحف)المناد(بدون ياء. وقرأها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بياء في الوصل وبدونها في الوقف، وذلك جار على اعتبار أن العرب يعاملون المنقوص المعرف باللام معاملة المنكر وخاصة في الأسجاع والفواصل فاعتبروا عدم رسم الياء في آخر الكلمة مراعاة لحال الوقف كما هو غالب أحوال الرسم لأن الأسجاع مبنية على سكون الأعجاز. وقرأها عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف بحذف الياء وصلا ووقفا لأن العرب قد تعامل المنقوص المعرف

معاملة المنكر. وقرأها ابن كثير ويعقوب بالياء وصلا ووقفا اعتبارا بأن رسم المصحف قد يخالف قياس الرسم فلا يخالف قياس اللفظ لأجله.

)يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير[44](إن جريت على أقوال المفسرين في تفسير الآية السابقة أفادت هذه الآية بيانا لجملة)ذلك يوم الخروج(أو بدل اشتمال منها مع ما في المعاد منها من تأكيد لمرادفه.

وإن جريت على ما ارتأيته في محمل الآية السابقة أفادت هذه الجملة استئنافا استدلالا على إمكان الحشر ووصف حال من أحواله وهو تشقق الأرض عنهم، أي عن أجساد مثيلة لأجسادهم وعن الأجساد التي لم يلحقها الفناء.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب)تشقق(بفتح التاء وتشديد الشين. وأصله تتشقق بتاءين فأدغمت التاء الثانية في الشين بعد قلبها شينا لتقارب مخرجيها. وقرأه أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي)تشقق(بتخفيف الشين على حذف تاء التفعل لاستثقال الجمع بين تاءين.

و)سراعا(حال من ضمير)عنهم(وهو جمع سريع، أي سراعا في الخروج أو في المشي الذي يعقبه إلى محل الحساب.

والقول في إعراب)تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر(كالقول في إعراب قوله)يوم ينادي المنادي من مكان قريب(إلى)ذلك يوم الخروج(وكذلك القول في اختلاف اسم الإشارة مثله.

وتقدم المجرور في)علينا(للاختصاص، أي هو يسير في جانب قدرتنا لا كما زعمه نفاة الحشر.

)نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد[45](استئناف بياني ناشئ عن قوله)فاصبر على ما يقولون(فهو إيغال في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، وتعريض بوعيدهم، فالخبر مستعمل مجازا في وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله سيعاقب أعداءه.

وقوله)وما أنت عليهم بجبار(تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه غير مسؤول عن عدم اهتدائهم لأنه إنما بعث داعيا وهاديا، وليس مبعوثا لإرغامهم على الإيمان، والجبار مشتق من جبره على الأمر بمعنى أكرهه.

وفرع عليه أمره بالتذكير لأنه ناشئ عن نفي كونه جبارا عليهم وهذا كقوله تعالى)فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر(، ولكن خص التذكير هنا بالمؤمنين لأنه أراد التذكير الذي ينفع المذكر. فالمعنى: فذكر بالقرآن فيتذكر من يخاف وعيد. وهذا كقوله)إنما أنت منذر من يخشاها(.

وكتب في المصحف)وعيد(بدون ياء المتكلم فقرأه الجمهور بدون ياء في الوصل والوقف على أنه من حذف التخفيف. وقرأه ورش عن نافع بإثبات الياء في الوصل. وقرأه يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف.

بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة : 4139

سورة الذاريات

تسمى هذه السورة)والذاريات(بإثبات الواو تسمية لها بحكاية الكلمتين الواقعتين في أولها. وبهذا عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه وابن عطية في تفسيره والكواشي في تلخيص التفسير والقرطبي.

وتسمى أيضا)سورة الذاريات(بدون الواو اقتصارا على الكلمة التي لم تقع في غيرها من سور القرآن. وكذلك عنونها الترمذي في جامعه وجمهور المفسرين.

وكذلك هي في المصاحف التي وقفنا عليها من مشرقية ومغربية قديمة.

ووجه التسمية أن هذه الكلمة لم تقع بهذه الصيغة في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية بالاتفاق.

وقد عدت السورة السادسة والستين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

واتفق أهل عد الآيات على أن آيها ستون آية.

?أغراض هذه السورة

احتوت على تحقيق وقوع البعث والجزاء.

وإبطال مزاعم المكذبين به وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ورميهم بأنهم يقولون بغير تثبت.

ووعيدهم بعذاب يفتنهم.

ووعد المؤمنين بنعيم الخلد وذكر ما استحقوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان.

ثم الاستدلال على وحدانية الله والاستدلال على إمكان البعث وعلى أنه واقع لا محالة بما في بعض المخلوقات التي يشاهدونها ويحسون بها دالة على سعة قدرة الله تعالى وحكمته على ما هو

أعظم من إعادة خلق الإنسان بعد فنائه وعلى أنه لم يخلق إلا لجزائه.
والتعريض بالإنذار بما حاق بالأمم التي كذبت رسل الله، وبيان الشبه التام بينهم وبين أولئك.
وتلقين هؤلاء المكذبين الرجوع إلى الله وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم ونبذ الشرك. ومعذرة الرسول صلى الله عليه وسلم من تبعة إعراضهم والتسجيل عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق.
ووعيدهم على ذلك بمثل ما حل بأمثالهم.
)والذاريات ذروا[1] فالحاملات وقرا[2] فالجاريات يسرا[3] فالمقسمات أمرا[4] إنما توعدون لصادق[5] وإن الدين لواقع[6] (القسم المفتتح به مراد منه تحقيق المقسم عليه وتأكيد وقوعه وقد أقسم الله بعظيم من مخلوقاته وهو في المعنى قسم بقدرته وحكمته ومتضمن تشريف تلك المخلوقات بما في أحوالها من نعم ودلالة على الهدى والصلاح، وفي ضمن ذلك تذكير بنعمة الله فيما أوجد فيها.
والمقسم بها الصفات تقتضي موصفاتها، فآل إلى القسم بالموصوفات لأجل تلك الصفات العظيمة. وفي ذلك إيجاز دقيق، على أن في طي ذكر الموصوفات توفيرا لما تؤذن به الصفات من موصوفات صالحة بها لتذهب أفهام السامعين في تقديرها كل مذهب ممكن.
وعطف تلك الصفات بالفاء يقتضي تناسبها وتجانسها، فيجوز أن تكون صفات لجنس واحد وهو الغالب في عطف الصفات بالفاء، كقول ابن زيابة:
يا لهف زيابة للحارث الص ابح فالـغـانـم فـالآيب ويجوز أن تكون مختلفة الموصوفات إلا أن موصوفاتها متقاربة متجانسة كقول امرئ القيس:
بسقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقـراة........... وقول لبيد:
بمشارق الجبلين أو بمحجر فتضمنتها فردة فرخامها فصوائق إن أيمنت........... ....البيت ويكثر ذلك في عطف البقاع المتجاورة، وقد تقدم ذلك في سورة الصافات.
واختلف أئمة السلف في محمل هذه الأوصاف وموصوفاتها. وأشهر ما روي عنهم في ذلك ما روي عن علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد أن)الذاريات(الرياح لأنها تذرو التراب، و)الحاملات وقرا(: السحاب، و)الجاريات(: السفن، و)المقسمات أمرا(الملائكة، وهو يقتضي اختلاف الأجناس المقسم بها.

وتأويله أن كل معطوف عليه يسبب ذكر المعطوف لالتقائهما في الجامع الخيالي، فالرياح تذكر بالسحاب، وحمل السحاب وقر الماء يذكر بحمل السفن، والكل يذكر بالملائكة.
ومن المفسرين من جعل هذه الصفات الأربع وصفا للرياح قاله في الكشاف ونقل بعضه عن الحسن واستحسنه الفخر، وهو الأنسب لعطف الصفات بالفاء.

صفحة : 4140

فالأحسن أن يحمل الذرو على نشر قطع السحاب نشرا يشبه الذرو. وحقيقة الذرو رمى أشياء مجتمعة ترمى في الهواء لتقع على الأرض مثل الحب عند الزرع ومثل الصوف وأصله ذرو الرياح التراب فشبه به دفع الريح قطع السحاب حتى تجتمع فتصير سحابا كاملا فالذاريات تنشر السحاب ابتداء كما قال تعالى)الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء(. والذرو وإن كان من صفة الرياح فإن كون المذرو سحابا يؤول إلى أنه من أحوال السحاب وقيل ذروها التراب وذلك قبل نشرها السحب وهو مقدمة لنشر السحاب.
ونصب)ذروا(على المفعول المطلق لإرادة تفخيمه بالتنوين، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى المفعول، أي المذرو، ويكون نصبه على المفعول به.
و)الحاملات وقرا(هي الرياح حين تجمع السحاب وقد ثقل بالماء، شبه جمعها إياه بالحمل لأن شأن الشيء الثقيل أن يحمله الحامل، وهذا في معنى قوله تعالى)ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله(الآية. وقوله)وينشئ السحاب الثقال(وقوله)ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله(.
والوقر بكسر الواو: الشيء الثقيل.
ويجوز أن تكون الحاملات الأسحبة التي ملئت ببخار الماء الذي يصير مطرا، عطفت بالفاء على الذاريات بمعنى الرياح لأنها ناشئة عنها فكأنها هي.
و)الجاريات يسرا(: الرياح تجري بالسحاب بعد تراكمه وقد صار ثقيلا بماء المطر، فالتقدير: فالجاري بذلك الوقر يسرا.
ومعنى اليسر: اللين والهون، أي الجاريات جريا لينا هينا شأن السير بالثقل، كما قال الأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتـهـا مشي
السحابة لا ريث ولا عجل ف) يسرا(وصف لمصدر محذوف نصب على النيابة عن المفعول المطلق.

و)المقسمات أمرا(الرياح التي تنتهي بالسحاب إلى الموضع الذي يبلغ عنده نزول ما في السحاب من الماء أو هي السحب التي تنزل ما فيها من المطر على مواضع مختلفة.

وإسناد التقسيم إليها على المعنيين مجاز بالمشابهة. وروي عن الحسن المقسمات: السحب بقسم الله بها أرزاق العباد اه. يريد قوله تعالى)وأنزلنا من السماء ماء مباركا(إلى قوله)رزقا للعباد(في سورة ق~.

ومن رشاقة هذا التفسير أن فيه مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وهو قوله)إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع(فإن أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها: نفخ، فتكوين، فإحياء، وكذلك البعث مبدؤه: نفخ في الصور، فالتئام أجساد الناس التي كانت معدومة أو متفرقة، فبث الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون. وقد يكون قوله تعالى)أمرا(إشارة إلى ما يقابله في المثال من أسباب الحياة وهو الروح لقوله)قل الروح من أمر ربي(.

و)ما(من قوله)إنما توعدون(موصولة، أي إن الذي توعدونه لصادق.

والخطاب في)توعدون(للمشركين كما هو مقتضى التأكيد بالقسم وكما يقتضيه تعقيبه بقوله)إنكم لفي قول مختلف(.

فيتعين أن يكون)توعدون(مشتقا من الوعيد الذي ماضيه أوعد ، وهو بمنى للمجهول فأصل)توعدون(تؤوعدون بهمزة مفتوحة بعد تاء المضارعة وواو بعد الهمزة هي عين فعل أوعد وبفتح العين لأجل البناء المجهول فحذفت الهمزة على ما هو المطرد من حذف همزة أفعل في المضارع مثل تكرمون، وسكنت الواو سكونا ميتا لأجل وقوع الضمة قبلها بعد أن كان سكونها حيا فصار) توعدون(ووزنه تافعلون.

والذي أوعدوه عذاب الآخرة وعذاب الدنيا مثل الجوع في سني القحط السبع الذي هو دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بقوله)اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف(وهو الذي أشار إليه قوله تعالى)فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم(الآية في سورة الدخان. ومثل عذاب السيف والأسر يوم بدر الذي توعدهم الله به في قوله)يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون(. ويجوز أن يكون توعدون من الوعد، أي الإخبار بشيء يقع في المستقبل مثل قوله)إن وعد الله حق(فوزنه تفعلون. والمراد بالوعد الوعد بالبعث.

ووصف)لصادق(مجاز عقلي إذ الصادق هو الموعد به على نحو)فهو في عيشة راضية(.
والدين: الجزاء. والمراد إثبات البعث الذي أنكروه.

صفحة : 4141

ومعنى)لواقع(واقع في المستقبل بقرينة جعله مرتبا في الذكر على ما يوعدون وإنما يكون حصول الموعود به في الزمن المستقبل وفي ذكر الجزاء زيادة على الكناية به عن إثبات البعث تعريض بالوعيد على إنكار البعث.
وكتب في المصاحف)إنما(متصلة وهو على غير قياس الرسم المصطلح عليه من بعد لأنهما كلمتان لم تصيرا كلمة واحدة، بخلاف)إنما(التي هي للقصر. ولم يكن الرسم في زمن كتابة المصاحف في أيام الخليفة عثمان قد بلغ تمام ضبطه.
)والسماء ذات الحبك[7] إنكم لفي قول مختلف[8] يؤفك عنه من أفك[9](هذا قسم أيضا لتحقيق اضطراب أقوالهم في الطعن في الدين وهو كالتذييل للذي قبله، لأن ما قبله خاص بإثبات الجزاء. وهذا يعم إبطال أقوالهم الضالة فالقسم لتأكيد المقسم عليه لأنهم غير شاعرين بحالهم المقسم على وقوعه، ومتهالكون على الاستزادة منه، فهم منكرون لما في أقوالهم من اختلاف واضطراب جاهلون به جهلا مركبا والجهل المركب إنكار للعلم الصحيح.
والقول في القسم ب)السماء(كالقول في القسم ب)الذاريات(.
ومناسبة هذا القسم للمقسم عليه في وصف السماء بأنها ذات حبك، أي طرائق لأن المقسم عليه: إن قولهم مختلف طرائق قددا ولذلك وصف المقسم به ليكون إيماء إلى نوع جواب القسم.
والحبك: بضمتين جمع حباك ككتاب وكتب ومثال ومثل، أو جمع حبيكة مثل طريقة وطرق، وهي مشتقة من الحبك بفتح فسكون وهو إجادة النسج وإتقان الصنع. فيجوز أن يكون المراد بحبك السماء نجومها لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك المتقن. وروي عن الحسن وسعيد بن جبير وقيل الحبك: طرائق المجرة التي تبدو ليلا في قبة الجو.
وقيل: طرائق السحاب. وفسر الحبك بإتقان الخلق. روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة.
وهذا يقتضي أنهم جعلوا الحبك مصدرا أو اسم مصدر، ولعله من النادر: وإجراء هذا الوصف على السماء إدماج أدمج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى.

واعلم أن رواية رويت عن الحسن البصري أنه قرأ)الحبك(بكسر الحاء وضم الباء وهي غير جارية على لغة من لغات العرب. وجعل بعض أئمة اللغة الحبك شاذا فالظن أن راويها أخطأ لأن وزن فعل بكسر الفاء وضم العين وزن مهمل في لغة العرب كلهم لشدة ثقل الانتقال من الكسر إلى الضم مما سلمت منه اللغة العربية. ووجهت هذه القراءة بأنها من تداخل اللغات وهو توجيه ضعيف لأن إعمال تداخل اللغتين إنما يقبل إذا لم يفض الى زنة مهجورة لأنها إذا هجرت بالأصالة فهجرها في التداخل أجدر ووجهها أبو حيان باتباع حركة الحاء لحركة تاء)ذات(وهو أضعف من توجيه تداخل اللغتين فلا جدوى في التكلف.

والقول المختلف: المتناقض الذي يخالف بعضه بعضا فيقتضي بعضه إبطال بعض الذي هم فيه هو جميع أقوالهم والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك أقوالهم في دين الإشراك فإنها مختلفة مضطربة متناقضة فقالوا القرآن: سحر وشعر، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، وقالوا)إن هذا إلا اختلاق(، وقالوا)لو نشاء لقلنا مثل هذا(وقالوا: مرة)في آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب(وغير ذلك، وقالوا: وحي الشياطين.

وقالوا في الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالا: شاعر، ساحر، مجنون، كاهن، يعلمه بشر، بعد أن كانوا يلقبونه الأمين.

وقالوا في أصول شركهم بتعدد الآلهة مع اعترافهم بأن الله خالق كل شيء وقالوا)ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله(،)وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها(.

و)في(للظرفية المجازية وهي شدة الملابسة الشبيهة بملابسة الظرف للمظروف مثل)ويمدهم في طغيانهم يعمهون(.

والمقصود بقوله)إنكم لفي قول مختلف(الكناية عن لازم الاختلاف وهو التردد في الاعتقاد، ويلزمه بطلان قولهم وذلك مصب التأكيد بالقسم وحرف)إن(واللام.

و)يؤفك(: يصرف. والأفك بفتح الهمزة وسكون الفاء: الصرف. وأكثر ما يستعمل في الصرف عن أمر حسن، قاله مجاهد كما في اللسان، وهو ظاهر كلام أئمة اللغة والفراء وشمر وذلك مدلوله في مواقعه من القرآن.

وجملة)يؤفك عنه من أفك(يجوز أن تكون في محل صفة ثانية ل)قول مختلف(، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن

قوله)وإن الدين لواقع(، فتكون جملة)والسماء ذات الحبك إنكم لفي قول مختلف(معترضة بين الجملة البيانية والجملة المبين عنها.
ثم إن لفظ)قول(يقتضي شيئا مقولا في شأنه فإذ لم يذكر بعد)قول(ما يدل على مقول صلح لجميع أقوالهم التي اختلقوها في شأنه للقرآن ودعوة الإسلام كما تقدم.
فلما جاء ضمير غيبة بعد لفظ)قول(احتمل أن يعود الضمير إلى)قول(لأنه مذكور، وأن يعود إلى أحوال المقول في شأنه فقيل ضمير)عنه(عائد إلى)قول مختلف(وأن معنى)يؤفك عنه(يصرف بسببه، أي يصرف المصروفون عن الإيمان فتكون)عن(للتعليل كقوله تعالى)وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك(وقوله تعالى)وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه(، وقيل ضمير)عنه(عائد إلى)ما توعدون(أو عائد إلى)الدين(، أي الجزاء أن يؤفك عن الإيمان بالبعث والجزاء من أفك. وعن الحسن وقتادة: أنه عائد إلى القرآن أو إلى الدين أي لأنهما مما جرى القول في شأنهما، وحرف)عن(للمجاوزة.
وعلى كل فالمراد بقوله من)أفك(المشركون المصروفون عن التصديق. والمراد بالذي فعل الإفك المجهول المشركون الصارفون لقومهم عن الإيمان، وهما الفريقان اللذان تضمنهما قوله تعالى)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(.
وإنما حذف فاعل)يؤفك(وأبهم مفعوله بالموصولية للاستيعاب مع الإيجاز.
وقد حملهم الله بهاتين الجملتين تبعة أنفسهم وتبعة المغرورين بأقوالهم كما قال تعالى)وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم(.
)قتل الخراصون[10] الذين هم في غمرة ساهون[11](دعاء بالهلاك على أصحاب ذلك القول المختلف لأن المقصود بقتلهم أن الله يهلكهم، ولذلك يكثر أن يقال: قاتله الله، ثم أجري مجرى اللعن والتحقير والتعجيب من سوء أحوال المدعو عليه بمثل هذا.
وجملة الدعاء لا تعطف لأنها شديدة الاتصال بما قبلها ما أوجب ذلك الوصف لدخولهم في هذا الدعاء، كما كان تعقيب الجمل التي قبلها بها إيماء إلى أن ما قبلها سبب للدعاء عليهم، وهذا من بديع الإيجاز.
والخرص: الظن الذي لا حجة لصاحبه على ظنه، فهو معرض للخطأ في ظنه، وذلك كناية عن الضلال عمدا أو تساهلا، فالخراصون هم أصحاب القول المختلف، فأفاد أن قولهم المختلف ناشئ عن خواطر لا دليل عليها. وقد تقدم في الأنعام)إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون(فالمراد هنا الخرص بالقول في ذات الله وصفاته.

واعلم أن الخرص في أصول الاعتقاد مذموم لأنها لا تبنى إلا على اليقين الخطر أمرها وهو أصل محل الذم في هذه الآية.

وأما الخرص في المعاملات بين الناس فلا يذم هذا الذم وبعضه مذموم إذا أدى إلى المخاطرة والمقامرة. وقد أذن في بعض الخرص للحاجة. ففي الموطأ عن زيد بن ثابت وأبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم رخص في بيع العرايا بخرصها يعني في بيع ثمرة النخلات المعطاة على وجهة العرية وهي هبة مالك النخل ثمر بعض نخله لشخص لسنة معينة فإن الأصل أن يقبض ثمرتها عند جذاذ النخل فإذا بدا لصاحب الحائط شراء تلك الثمرة قبل طيبها رخص أن يبيعها المعري بالفتح للمعري بالكسر إذا أراد المعري ذلك فيخرص ما تحمله النخلات من الثمر على أن يعطيه عند الجذاذ ما يساوي ذلك المخروص إذا لم يكن كثيرا وحدد بخمسة أوسق فأقل ليدفع صاحب النخل عن نفسه تطرق غيره لحائطه، وذلك لأن أصلها عطية فلم يدخل إضرار على المعري من ذلك.

والغمرة: المرة من الغمر، وهو الإحاة ويفسرها ما تضاف إليه كقوله تعالى: ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت فإذا لم تقيد بإضافة فإن تعيينها بحسب المقام كقوله تعالى)فذرهم في غمرتهم حتى حين(في سورة المؤمنين. والمراد: في شغل، أي ما يشغلهم من معاداة الإسلام شغلا لا يستطيعون معه أن يتدبروا في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

والسهو: الغفلة. والمراد أنهم معرضون إعراضا كإعراض الغافل وما هم بغافلين فإن دعوة القرآن تقرع أسماعهم كل حين واستعمال مادة السهو في هذا المعنى نظير استعمالها في قوله تعالى)الذين هم عن صلاتهم ساهون(.

)يسألون أيان يوم الدين[12] يوم هم على النار يفتنون[13] ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون[14](هذه الجملة يجوز أن تكون حالا من ضمير)الخراصون(وأن تكون استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة)قتل الخراصون(لأن جملة)قتل الخراصون(أفادت تعجيبا من سوء عقولهم وأحوالهم فهو مثار سؤال في نفس السامع يتطلب البيان، فأجيب بأنهم يسألون عن يوم الدين سؤال متهكمين، يعنون أنه لا وقوع ليوم الدين كقوله تعالى)عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون(.

و)أيان يوم الدين(مقول قول محذوف دل عليه)يسألون(لأن في فعل السؤال معنى القول. فتقدير الكلام: يقولون: أيان يوم الدين. ولك أن تجعل جملة)أيان يوم الدين(بدلا من جملة) يسألون(لتفصيل إجماله وهو من نوع البدل المطابق.

و)أيان(اسم استفهام عن زمان فعل وهو في محل نصب مبني على الفتح، أي متى يوم الدين، ويوم الدين زمان فالسؤال عن زمانه آيل إلى السؤال باعتبار وقوعه، فالتقدير: أيان وقوع يوم الدين، أو حلوله، كما تقول: متى يوم رمضان أي متى ثبوته لأن أسماء الزمان حقها أن تقع ظروفا للأحداث لا للأزمنة.

وجملة)يوم هم على النار يفتنون(جواب لسؤالهم جرى على الأسلوب الحكيم من تلقي السائل بغير ما يتطلب إذ هم حين قالوا: أيان يوم الدين، أرادوا التهكم والإحالة فتلقى كلامهم بغير مرادهم لأن في الجواب ما يشفي وقع تهكمهم على طريقة قوله تعالى) يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج(.

والمعنى: يوم الدين يقع يوم تصلون النار ويقال لكم: ذوقوا فتنتكم.

وانتصب)يوم هم على النار يفتنون(على الظرفية وهو خبر عن مبتدأ محذوف دل عليه السؤال عنه بقوله: أيان يوم الدين.

والتقدير: يوم الدين يوم هم على النار يفتنون.

والفتن: التعذيب والتحريق، أي يوم هم يعذبون على نار جهنم وأصل الفتن الاختيار. وشاع إطلاقه على معان منها إذابة الذهب على النار في البوتقة لاختيار ما فيه من معدن غير ذهب، ولا يذاب إلا بحرارة نار شديدة فهو هنا كناية عن الإحراق الشديد.

وجملة)ذوقوا فتنتكم(مقول قول محذوف دل عليه الخطاب، أي يقال لهم حينئذ، أو مقولا لهم ذوقوا فتنتكم، أي عذابكم. والأمر في قوله)ذوقوا(مستعمل في التنكيل.

والذوق: مستعار للإحساس القوي لأن اللسان أشد الأعضاء إحساسا.

وإضافة فتنة إلى ضمير المخاطبين يومئذ من إضافة المصدر إلى مفعوله. وفي الإضافة دلالة على اختصاصها لهم لأنهم استحقوها بكفرهم، ويجوز أن تكون الإضافة من إضافة المصدر إلى فاعله. والمعنى: ذوقوا جزاء فتنتكم. قال ابن عباس: أي تكذيبكم.

ويقوم من هذا الوجه أن يجعل الكلام موجها بتذكير المخاطبين في ذلك اليوم ما كانوا يفتنون به المؤمنين من التعذيب مثل ما فتنوا بلالا وخبابا وعمارا وشميسة وغيرهم، أي هذا جزاء فتنتكم. وجعل المذوق فتنتهم إظهارا لكونه جزاء عن فتنتهم المؤمنين ليزدادوا ندامة قال تعالى موعدا إياهم)إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق(.

وإطلاق اسم العمل على جزائه وارد في القرآن كثيرا كقوله تعالى)وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(أي تجعلون جزاء رزق الله إياكم أنكم تكذبون وحدانيته.
والإشارة في قوله)هذا الذي كنتم به تستعجلون(إلى الشيء الحاضر نصب أعينهم، وهكذا الشأن في مثله تذكير اسم الإشارة كما تقدم في قوله تعالى)إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك(في سورة البقرة.
ومعنى)كنتم به تستعجلون(كنتم تطلبون تعجيله فالسين والتاء للطلب، أي كنتم في الدنيا تسألون تعجيله وهو طلب يريدون به أن ذلك محال غير واقع.
وأقوالهم في هذا كثيرة حكاها القرآن كقوله)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(.
والجملة استئناف في مقام التوبيخ وتعديد المجارم، كما يقال للمجرم: فعلت كذا، وهي من مقول القول.
)إن المتقين في جنات وعيون[15] آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين[16] كانوا قليلا من الليل ما يهجعون[17] وبالأسحار هم يستغفرون[18] وفي أموالهم حق للسائل والمحروم[19](

صفحة : 4144

اعتراض قابل به حال المؤمنين في يوم الدين جرى على عادة القرآن في اتباع النذارة بالبشارة، والترهيب بالترغيب.
وقوله)إن المتقين في جنات وعيون(نظير قوله في سورة الدخان)إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون(.
وجمع)جنات(باعتبار جمع المتقين وهي جنات كثيرة مختلفة وفي الحديث إنها لجنان كثيرة، وإنه لفي الفردوس ، وتنكير) جنات(للتعظيم.
ومعنى)آخذين ما آتاهم ربهم(: أنهم قابلون ما أعطاهم، أي راضون به فالأخذ مستعمل في صريحه وكنايته كناية رمزية عن كون ما يؤتونه أكمل في جنسه لأن مدارك الجماعات تختلف في الاستجادة حتى تبلغ نهاية الجودة فيستوي الناس في استجادته، وهي كناية تلويحية.
وأيضا فالأخذ مستعمل في حقيقته ومجازه لأن ما يؤتيهم الله بعضهم مما يتناول باليد كالفواكه والشراب والرياحين، وبعضه لا يتناول باليد كالمناظر الجميلة والأصوات الرقيقة والكرامة والرضوان وذلك أكثر من الأول.

فإطلاق الأخذ على ذلك استعارة بتشبيه المعقول بالمحسوس كقوله تعالى)خذوا ما آتيناكم بقوة(في سورة البقرة، وقوله)وأمر قومك يأخذوا بأحسنها(في سورة الأعراف.
فاجتمع في لفظ)آخذين(كنايتان ومجاز. روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم? فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك? فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا. .
وفي إيثار التعبير عن الجلالة بوصف)رب(مضاف إلى ضمير المتقين معنى من اختصاصهم بالكرامة والإيماء إلى أن سبب ما آتاهم هو إيمانهم بربوبيته المختصة بهم وهي المطابقة لصفات الله تعالى في نفس الأمر.
وجملة)إنهم كانوا قبل ذلك محسنين(تعليل لجملة)إن المتقين في جنات وعيون(، أي كان ذلك جزاء لهم عن إحسانهم كما قيل للمشركين)ذوقوا فتنتكم(. والمحسنون: فاعلوا الحسنات وهي الطاعات.
وفائدة الظرف في قوله)قبل ذلك(أن يؤتى بالإشارة إلى ما ذكر من الجنات والعيون وما آتاهم ربهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيحصل بسبب تلك الإشارة تعظيم شأن المشار إليه، ثم يفاد بقوله)قبل ذلك(، أي قبل التنعم به أنهم كانوا محسنين، أي عاملين الحسنات كما فسره قوله)كانوا قليلا من الليل ما يهجعون(الآية. فالمعنى: أنهم كانوا في الدنيا مطيعين لله تعالى واثقين بوعده ولم يروه.
وجملة)كانوا قليلا من الليل ما يهجعون(بدل من جملة)كانوا قبل ذلك محسنين(بدل بعض من كل لأن هذه الخصال الثلاث هي بعض من الإحسان في العمل. وهذا كالمثال لأعظم إحسانهم فإن ما ذكر من أعمالهم دال على شدة طاعتهم لله ابتغاء مرضاته ببذل أشد ما يبذل على النفس وهو شيئان.
أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتهما إلى الراحة وهو الليل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم الليل قد تعب واشتد طلبه للراحة.
وثانيهما: المال الذي تشح به النفوس غالبا، وقد تضمنت هذه الأعمال الأربعة أصلي إصلاح النفس وإصلاح الناس. وذلك جماع ما يرمي إليه التكليف من الأعمال فإن صلاح النفس تزكية الباطن والظاهر ففي قيام الليل إشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضى

الله تعالى. وفي الاستغفار تزكية الظاهر بالأقوال الطيبة الجالبة لمرضاة الله عز وجل.

وفي جعلهم الحق في أموالهم للسائلين نفع ظاهر للمحتاج المظهر لحاجته. وفي جعلهم الحق للمحروم نفع المحتاج المتعفف عن إظهار حاجته الصابر على شدة الاحتياج.

وحرف)ما(في قوله)قليلا من الليل ما يهجعون(مزيد للتأكيد. وشاعت زيادة)ما(بعد اسم)قليل(و)كثير(وبعد فعل)قل(و)كثر( ) طال(.

والمعنى: كانوا يهجعون قليلا من الليل. وليست)ما(نافية.

والهجوع: النوم الخفيف وهو الغرار.

صفحة : 4145

ودلت الآية على أنهم كانوا يهجعون قليلا من الليل وذلك اقتداء بأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله)قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه(وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمرهم بذلك كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله قال له: لم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار قال: نعم. قال: لا تفعل إنك إن فعلت ذلك نفهت النفس وهجمت العين. وقال له: قم ونم، فإن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا .

وقد اشتملت هذه الجملة على خصائص من البلاغة.

أولاها: فعل الكون في قوله)كانوا(الدال على أن خبرها سنة متقررة.

الثاني: العدول عن أن يقال: كانوا يقيمون الليل، أو كانوا يصلون في جوف الليل، إلى قوله)قليلا من الليل ما يهجعون(لأن في ذكر الهجوع تذكيرا بالحالة التي تميل إليها النفوس فتغلبها وتصرفها عن ذكر الله تعالى وهو من قبيل قوله تعالى)تتجافى جنوبهم عن المضاجع(، فكان في الآية إطناب اقتضاه تصوير تلك الحالة، والبليغ قد يورد في كلامه ما لا تتوقف عليه استفادة المعنى إذا كان يرمي بذلك إلى تحصيل صور الألفاظ المزيدة.

الثالث: التصريح بقوله)من الليل(للتذكير بأنهم تركوا النوم في الوقت الذي من شأنه استدعاء النفوس للنوم فيه زيادة في تصوير جلال قيامهم الليل وإلا فإن قوله)كانوا قليلا ما يهجعون(يفيد أنه من الليل.

الرابع: تقييد الهجوع بالقليل للإشارة إلى أنهم لا يستكملون منتهى حقيقة الهجوع بل يأخذون منه قليلا. وهذه الخصوصية فاتت أبا قيس بن الأسلت في قوله:

قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوما غير تهـجـاع الخامس: المبالغة في تقليل هجوعهم لإفادة أنه أقل ما يهجعه الهاجع.

وانتصب)قليلا(على الظرف لأنه وصف بالزمان بقوله)من الليل(. والتقدير: زمنا قليلا من الليل، والعامل في الظرف)يهجعون(. و)من الليل(تبعيض.

ثم أتبع ذلك بأنهم يستغفرون في السحر، أي فإذا آذن الليل بالانصرام سألوا الله أن يغفر لهم بعد أن قدموا من التهجد ما يرجون أن يزلفهم إلى رضى الله تعالى.

وهذا دل على أن هجوعهم الذي يكون في خلال الليل قبل السحر. فأما في السحر فهم يتهجدون، ولذلك فسر ابن عمر ومجاهد الاستغفار بالصلاة في السحر. وهذا نظير قوله تعالى) والمستغفرين بالأسحار(، وليس المقصود طلب الغفران بمجرد اللسان ولو كان المستغفر في مضجعه إذ لا تظهر حينئذ مزية لتقييد الاستغفار بالكون في الأسحار.

والأسحار: جمع سحر وهو آخر الليل. وخص هذا الوقت لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان فيه فصلاتهم واستغفارهم فيه أعجب من صلاتهم في أجزاء الليل الأخرى.

وجمع الأسحار باعتبار تكرر قيامهم في كل سحر.

وتقديم ب)الأسحار(على)يستغفرون(للاهتمام به كما علمت.

وصيغ استغفارهم بأسلوب إظهار المسند إليه دون ضميره لقصد إظهار الاعتناء بهم وليقع الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلي فيفيد تقوي الخبر لأنه من الندرة بحيث يقتضي التقوية لأن الاستغفار في السحر يشق على من يقوم الليل لأن ذلك وقت إعيائه.

فهذا الإسناد على طريقة قولهم هو: يعطي الجزيل.

وحق السائل والمحروم: هو النصيب الذي يعطونه إياهما، أطلق عليه لفظ الحق؛ إما لأن الله أوجب على المسلمين الصدقة بما تيسر قبل أن يفرض عليهم الزكاة فإن الزكاة فرضت بعد الهجرة فصارت الصدقة حقا للسائل والمحروم، أو لأنهم ألزموا ذلك أنفسهم حتى صار كالحق للسائل والمحروم.

وبذلك يتأول قول من قال: إن هذا الحق هو الزكاة.

والسائل: الفقير المظهر فقره فهو يسأل الناس، والمحروم: الفقير الذي لا يعطى الصدقة لظن الناس أنه غير محتاج من تعففه عن

إظهار الفقر، وهو الصنف الذي قال الله تعالى في شأنهم)يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف(وقال النبي صلى الله عليه وسلم ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذي ليس له غنى ويستحيي ولا يسأل الناس إلحافا .
وإطلاق اسم المحروم ليس حقيقة لأنه لم يسأل الناس ويحرموه ولكن لما كان مآل أمره إلى ما يؤول إليه أمر المحروم أطلق عليه لفظ المحروم تشبيها به في أنه لا تصل إليه ممكنات الرزق بعد قربها منه فكأنه ناله حرمان.

والمقصود من هذه الاستعارة ترقيق النفوس عليه وحث الناس على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم في موضع يحب الله وضعها فيه ونظيرها في سورة المعارج. قال ابن عطية: واختلف الناس في)المحروم(اختلافا هو عندي تخليط من المتأخرين إذ المعنى واحد عبر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات فجعلها المتأخرون أقوالا. قلت ذكر القرطبي أحد عشر قولا كلها أمثلة لمعنى الحرمان، وهي متفاوتة في القرب من سياق الآية فما صلح منها لأن يكون مثالا للغرض قبل وما لم يصلح فهو مردود، مثل تفسير من فسر المحروم بالكلب. وفي تفسير ابن عطية عن الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم. وزاد القرطبي في رواية عن الشعبي قال: لي اليوم سبعون سنة منذ احتملت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ.
)وفي الأرض آيات للموقنين[20](هذا متصل بالقسم وجوابه من قوله)والذاريات(وقوله)والسماء ذات الحبك(إلى قوله)وإن الدين لواقع(فبعد أن حقق وقوع البعث بتأكيده بالقسم انتقل إلى تقريبه بالدليل لإبطال إحالتهم إياه، فيكون هذا الاستدلال كقوله)ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى(.
وما بين هاتين الجملتين اعتراض، فجملة)وفي الأرض آيات للموقنين(يجوز أن تكون معطوفة على جملة جواب القسم وهي)إن ما توعدون لصادق(. والمعنى: وفي ما يشاهد من أحوال الأرض آيات للموقنين وهي الأحوال الدالة على إيجاد موجودات بعد إعدام أمثالها وأصولها مثل إنبات الزرع الجديد بعد أن باد الذي قبله وصار هشيما.

وهذه دلائل واضحة متكررة لا تحتاج إلى غوص الفكر فلذلك لم تقرن هذه الآيات بما يدعو إلى التفكر كما قرن قوله)وفي أنفسكم أفلا تبصرون(.

وأعلم أن الآيات المرموقة من أحوال الأرض صالحة للدلالة أيضا على تفرده تعالى بالإلهية في كيفية خلقها ودحوها للحيوان والإنسان، وكيف قسمت إلى سهل وجبال وبحر، ونظام إنباتها الزرع والشجر، وما يخرج من ذلك من منافع للناس، ولهذا حذف تقييد آيات بمتعلق ليعم كل ما تصلح الآيات التي في الأرض أن تدل عليه.

وتقديم الخبر في قوله)وفي الأرض(للاهتمام والتشويق إلى ذكر المبتدأ.

واللام في)للموقنين(معلق ب)آيات(. وخصت الآيات ب)الموقنين(لأنهم الذين انتفعوا بدلالتها فأكسبتهم الإيقان بوقوع البعث. وأوثر وصف الموقنين هنا دون الذين أيقنوا لإفادة أنهم عرفوا بالإيقان. وهذا الوصف يقتضي مدحهم بثقوب الفهم لأن الإيقان لا يكون إلا عن دليل ودلائل هذا الأمر نظرية. ومدحهم أيضا بالإنصاف وترك المكابرة لأن أكثر المنكرين للحق تحملهم المكابرة أو الحسد على إنكار حق من يتوجسون منه أن يقضي على منافعهم. وتقديم) في الأرض(على المبتدأ للاهتمام بالأرض باعتبارها آيات كثيرة.

)وفي أنفسكم أفلا تبصرون[21](عطف على)في الأرض(. فالتقدير: وفي أنفسكم آيات أفلا تبصرون. تفريعا على هذه الجملة المعطوفة فيقدر الوقف على)أنفسكم(. وليس المجرور متعلقا ب)تبصرون(متقدما عليه لأن وجود الفاء مانع من ذلك إذ يصير الكلام معطوفا بحرفين. والخطاب موجه إلى المشركين.

والاستفهام إنكاري، أنكر عليهم عدم الإبصار للآيات.

والإبصار مستعار للتدبر والتفكر، أي كيف تتركون النظر في آيات كائنة في أنفسكم.

وتقديم)في أنفسكم(على متعلقه للاهتمام بالنظر في خلق أنفسهم وللرعاية على الفاصلة.

والمعنى: ألا تتفكرون في خلق أنفسكم: كيف أنشأكم الله من ماء وكيف خلقكم أطوارا، أليس كل طور هو إيجاد خلق لم يكن موجودا قبل.

فالموجود في الصبي لم يكن موجودا فيه حين كان جنينا.

والموجود في الكهل لم يكن فيه حين كان غلاما. وما هي عند التأمل إلا مخلوقات مستجدة كانت معدومة فكذلك إنهاء الخلق بعد الموت.

وهذا التكوين العجيب كما يدل على إمكان الإيجاد بعد الموت يدل على تفرد مكونة تعالى بالإلهية إذ لا يقدر على إيجاد مثل الإنسان غير الله تعالى فإن بواطن أحوال الإنسان وظواهرها عجائب من الانتظام والتناسب، وأعجبها خلق العقل وحركاته واستخراج المعاني، وخلق النطق والإهام إلى اللغة، وخلق الحواس، وحركة الدورة الدموية وانتساق الأعضاء الرئيسة، وتفاعلها، وتسوية المفاصل، والعضلات، والأعصاب، والشرايين وحالها بين الارتخاء واليبس فإنه إذا غلب عليها التيبس جاء العجز وإذا غلب الارتخاء جاء الموت.

والخطاب للذين خوطبوا بقوله أول السورة)إن ما توعدون لصادق(.

)وفي السماء رزقكم وما توعدون[22](بعد أن ذكر دلائل الأرض ودلائل الأنفس التي هم من علائق الأرض عطف ذكر السماء للمناسبة، وتمهيدا للقسم الذي بعده بقوله)فورب السماء والأرض إنه لحق(. ولما في السماء من آية المطر الذي به تنبت الأرض بعد الجفاف، فالمعنى: وفي السماء آية المطر، فعدل عن ذكر المطر إلى الرزق إدماجا للامتنان في الاستدلال فإن الدليل في كونه مطرا يحيي الأرض بعد موتها. وهذا قياس تمثيل للنبت، أي في السماء المطر الذي ترزقون بسببه.

فالرزق: هو المطر الذي تحمله السحب والسماء هنا: طبقات الجو.

وتقديم المجرور على متعلقه للتشويق وللاهتمام بالمكان وللرد على الفاصلة.

وعطف)وما توعدون(إدماج بين أدلة إثبات البعث لقصد الموعظة الشاملة للوعيد على الإشراك والوعد على الإيمان إن آمنوا تعجيلا بالموعظة عند سنوح فرصتها.

وفي إيثار صيغة)توعدون(خصوصية من خصائص إعجاز القرآن، فإن هذه الصيغة صالحة لأن تكون مصوغة من الوعد فيكون وزن) توعدون(تفعلون مضارع وعد مبنيا للنائب. وأصله قبل البناء للنائب تعدون وأصله توعدون، فلما بني للنائب ضم حرف المضارعة فصارت الواو الساكنة مدة مجانسة للضمة فصار: توعدون.

وصالحة لأن تكون من الإيعاد ووزنه تأفعلون مثل تصريف أكرم يكرم وبذلك صار)توعدون(مثل تكرمون، فاحتملت للبشارة والإنذار.

وكون ذلك في السماء يجوز أن يكون معناه أنه محقق في علم أهل السماء، أي الملائكة الموكلين بتصريفه.

ويجوز أن يكون المعنى: أن مكان حصوله في السماء، من جنة أو جهنم بناء على أن الجنة وجهنم موجودتان من قبل يوم القيامة، وفي ذلك اختلاف لا حاجة إلى ذكره.

وفيه إيماء إلى أن ما أوعدوه يأتيهم من قبل السماء كما قال تعالى)فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم(. فإن ذلك الدخان كان في طبقات الجو كما تقدم في سورة الدخان.

)فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون[23](بعد أن أكد الكلام بالقسم ب)الذاريات(وما عطف عليها فرع على ذلك زيادة تأكيد بالقسم بخالق السماء والأرض على أن ما يوعدون حق فهو عطف على الكلام السابق ومناسبته قوله)وما توعدون(.

وإظهار اسم السماء والأرض دون ذكر ضميرهما لإدخال المهابة في نفوس السامعين بعظمة الرب سبحانه.

وضمير)إنه لحق(عائد إلى)ما توعدون(. وهذا من رد العجز على المصدر لأنه رد على قوله أول السورة)إن ما توعدون لصادق(وانتهى الغرض.

وقوله)مثل ما أنكم تنطقون(زيادة تقرير لوقوع ما أوعدوه بأن شبه بشيء معلوم كالضرورة لا امتراء في وقوعه وهو كون المخاطبين ينطقون. وهذا نظير قولهم: كما أن قبل اليوم أمس، أو كما أن بعد اليوم غدا. وهو من التمثيل بالأمور المحسوسة، ومنه تمثيل سرعة الوصول لقرب المكان في قول زهير:

فهن ووادي الرس كاليد للفم وقوله: مثل ما أنك هاهنا، وقولهم: كما أنك ترى وتسمع.

وقرأ الجمهور)مثل(بالنصب على أنه صفة حال محذوف قصد منه التأكيد. والتقدير: إنه لحق حقا ما أنكم تنطقون.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف مرفوعا على الصفة)لحق(صفة أريد بها التشبيه.

و)ما(الواقعة بعد)مثل(زائدة للتوكيد. وأردفت ب)أن(المفيدة للتأكيد تقوية لتحقيق حقية ما يوعدون.

واجتلب المضارع في)تنطقون(دون أن يقال: نطقكم، يفيد التشبيه بنطقهم المتجدد وهو أقوى في الوقوع لأنه محسوس.

)هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين[24] إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون[25] فراغ إلى أهله فجاء بعجل

سمين[26] فقربه إليهم قال ألا تأكلون[27] فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم[28] فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم[29] قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم[30](انتقال من الإنذار والموعظة والاستدلال إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين المشركين في الكفر وتكذيب الرسل. والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا وغير أسلوب الكلام من خطاب المنذرين مواجهة إلى أسلوب التعريض تفننا بذكر قصة إبراهيم لتكون توطئة للمقصود من ذكر ما حل بقوم لوط حين كذبوا رسولهم، فالمقصود هو ما بعد قوله)قال فما خطبكم أيها المرسلون(.

وكان في الابتداء بذكر قوم لوط في هذه الآية على خلاف الترتيب الذي جرى عليه اصطلاح القرآن في ترتيب قصص الأمم المكذبة بابتدائها بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود ثم قوم لوط أن المناسبة للانتقال من وعيد المشركين إلى العبرة بالأمم الماضية أن المشركين وصفوا آنفا بأنهم في غمرة ساهون فكانوا في تلك الغمرة أشبه بقوم لوط إذ قال الله فيهم)لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون(، ولأن العذاب الذي عذب به قوم لوط كان حجارة أنزلت عليهم من السماء مشبهة بالمطر. وقد سميت مطرا في قوله تعالى)ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء(وقوله) وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل(ولأن في قصة حضور الملائكة عند إبراهيم وزوجه عبرة بإمكان البعث فقد تضمنت بشارتها بمولود يولد لها بعد اليأس من الولادة. وذلك مثل البعث بالحياة بعد الممات.

ولما وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله)هل أتاك(عرف أن المقصود الأصلي تسليته على ما لقيه من تكذيب قومه. ويتبع ذلك تعريض بالسامعين حين يقرأ عليهم القرآن أو يبلغهم بأنهم صائرون الى مثل ذلك العذاب لاتحاد الأسباب.

وتقدم القول في نظير)هل أتاك حديث(عند قوله تعالى)وهل أتاك نبأ الخصم(في سورة ص~، وأنه يفتتح به الأخبار الفخمة المهمة.

والضيف: اسم يقال للواحد وللجمع لأن أصله مصدر ضاف، إذا مال فأطلق على الذي يميل إلى بيت أحد لينزل عنده. ثم صار اسما فإذا لوحظ أصله أطلق على الواحد وغيره ولم يؤنثوه ولا يجمعونه وإذا لوحظ الاسم جمعوه للجماعة وأنثوه للأنثى فقالوا أضياف وضيوف وامرأة ضيفة وهو هنا اسم جمع ولذلك وصف ب)المكرمين(، وتقدم في سورة الحجر)قال إن هؤلاء ضيفي(.

والمعني به الملائكة الذي أظهرهم الله لإبراهيم عليه السلام فأخبروه بأنهم مرسلون من الله لتنفيذ العذاب لقوم لوط وسماهم الله ضيفا نظرا لصورة مجيئهم في هيئة الضيف كما سمي الملكين الذين جاءا داود خصما في قوله تعالى)وهل أتاك نبأ الخصم(، وذلك من الاستعارة الصورية.

وفي سفر التكوين من التوراة: أنهم كانوا ثلاثة. وعن ابن عباس: أنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل. وعن عطاء: جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر.

ولعل سبب إرسال ثلاثة ليقع تشكلهم في شكل الرجال لما تعارفه الناس في أسفارهم أن لا يقل ركب المسافرين عن ثلاثة رفاق.

وذلك أصل جريان المخاطبة بصيغة المثنى في نحو قفا نبك .

وفي الحديث الواحد شيطان والاثنان شيطانان والثلاثة ركب . رواه الحاكم في المستدرك وذكر أن سنده صحيح.

وقد يكون سبب إرسالهم ثلاثة أن عذاب قوم لو كان بأصناف مختلفة لكل صنف منها ملكه الموكل به.

ووصفهم بالمكرمين كلام موجه لأنه يوهم أن ذلك لإكرام إبراهيم إياهم كما جرت عادته مع الضيف وهو الذي سن القرى، والمقصود: أن الله أكرمهم برفع الدرجة لأن الملائكة مقربون عند الله تعالى كما قال)بل عباد مكرمون(وقال)كراما كاتبين(.

وظرف)إذ دخلوا عليه(يتعلق ب)حديث(لما فيه من معنى الفعل، أي خبرهم حين دخلوا عليه.

وقوله)فقالوا سلاما قال سلام(تقدم نظيره في سورة هود. وقرأ الجمهور)قال سلام(. وقرأه حمزة والكسائي)قال سلم(بكسر السين وسكون اللام.

صفحة : 4149

وقوله)قوم منكرون(من كلام إبراهيم. والظاهر أنه قاله خفتا إذ ليس من الإكرام أن يجاهر الزائر بذلك، فالتقدير: هم قوم منكرون.

والمنكر: الذي ينكره غيره، أي لا يعرفه. وأطلق هنا على من ينكر حاله ويظن أنه حال غير معتاد، أي يخشى أنه مضمر سوء، كما قال في سورة هود)فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة(ومنه قول الأعشى:

وأنكرتني وما كان الذي نكـرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا أي ضيف إبراهيم تقدمت في سورة هود.

و)راغ(مال في المشي إلى جانب، ومنه: روغان الثعلب. والمعنى: أن إبراهيم حاد عن المكان الذي نزل فيه الضيوف إلى أهله، أي إلى بيته الذي فيه أهله.

وفي التوراة: أنه كان جالسا أمام باب خيمته تحت شجرة وأنه أنزل الضيوف تحت الشجرة.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: إن الروغان ميل في المشي عن الاستواء إلى الجانب مع إخفاء إرادته ذلك وتبعه على هذا التقييد الراغب والزمخشري وابن عطية فانتزع منه الزمخشري أن إخفاء إبراهيم ميله إلى أهله من حسن الضيافة كيلا يوهم الضيف أنه يريد ان يحضر لهم شيئا فلعل الضيف أن يكفه عن ذلك ويعذره وهذا منزع لطيف.

وكان منزل إبراهيم الذي جرت عنده هذه القصة بموضع يسمى بلوطات ممرا من أرض جبرون.

ووصف العجل هنا ب سمين ، ووصف في سورة هود بحنيذ، أي مشوي فهو عجل سمين شواه وقربه إليهم، وكان الشوا أسرع طبخ أهل البادية وقام امرؤ القيس يذكر الصيد:

فظل طهاة اللحم ما بين منضج

صفيف شواء أو قدير معجل فقيد قدير ب معجل ولم يقيد صفيف شواء لأنه معلوم.

ومعنى)قربه(وضعه قريبا منهم، أي لم ينقلهم من مجلسهم إلى موضع آخر بل جعل الطعام بين أيديهم. وهذا من تمام الإكرام للضيف بخلاف ما يطعمه العافي والسائل فإنه يدعى الى مكان الطعام كما قال الفرزدق:

فقلت إلى الطعام فقال منهم فريق

يحسد الأنس الطعاما ومجيء الفاء لعطف أفعال)فراغ، فجاء، فقربه(للدلالة على أن هذه الأفعال وقعت في سرعة، والإسراع بالقرى من تمام الكرم، وقد قيل: خير البر عاجله.

وجملة)قال ألا تأكلون(بدل اشتمال من جملة)قربه إليهم(.

و)ألا(كلمة واحدة، وهي حرف عرض، أي رغبة في حصول الفعل الذي تدخل عليه. وهي هنا متعينة للعرض لوقوع فعل القول بدلا من فعل)قربه إليهم(، ولا يحسن جعلها كلمتين من همزة استفهام للإنكار مع)لا(النافية.

والعرض على الضيف عقب وضع الطعام بين يديه زيادة في الإكرام بإظهار الحرص على ما ينفع الضيف وإن كان وضع الطعام بين يديه كافيا في تمكينه منه. وقد اعتبر ذلك إذنا عند الفقهاء في الدعوة الى الولائم بخلاف مجرد وجود مائدة طعام أو سفرة، إذ يجوز أن تكون قد أعدت لغير المدعو.

والفاء في)فأوجس منهم خيفة(فصيحة لإفصاحها عن جملة مقدرة يقتضيها ربط المعنى، أي فلم يأكلوا فأوجس منهم خيفة، كقوله)أن اضرب بعصاك البحر فانفلق(، وقد صرح بذلك في سورة هود)فلما رأى أيديهم لا تصل إليه(أي إلى العجل)نكرهم وأوجس منهم خيفة(.

و)أوجس(أحس في نفسه ولم يظهر، وتقدم نظيره في سورة هود.

وقولهم له)لا تخف(لأنهم علموا ما في نفسه مما ظهر على ملامحه من الخوف، وتقدم نظيره في سورة هود.

والغلام الذي بشروه به هو إسحاق لأنه هو ابن سارة، وهو الذي وقعت البشارة به في هذه القصة في التوراة، ووصف هنا ب)عليم(، وأما الذي ذكرت البشارة به في سورة الصافات فهو إسماعيل ووصف ب)حليم(ولذلك فامرأة إبراهيم الحادث عنها هنا هي سارة، وهي التي ولدت بعد أن أيست، أما هاجر فقد كانت فتاة ولدت في مقتبل عمرها. وأقبلت امرأته حين سمعت البشارة لها بغلام، أي أقبلت على مجلس إبراهيم مع ضيفه، قال تعالى في سورة هود) وامرأته قائمة(.

وكان النساء يحضرن مجالس الرجال في بيوتهن مع أزواجهن ويواكلنهم. وفي الموطأ قال مالك: لا باس أن تحضر المرأة مع زوجها وضيفه وتأكل معهم .

والصرة: الصياح، ومنه اشتق الصرير.

و)في(للظرفية المجازية وهي الملابسة.

والصك: اللطم، وصك الوجه عند التعجب عادة النساء أيامئذ. ونظيره وضع اليد على الفم في قوله تعالى)فردوا أيديهم في أفواههم(.

صفحة : 4150

وقوله)عجوز عقيم(خبر محذوف، أي أنا عجوز عقيم.

والعجوز: فعول بمعنى فاعل وهو يستوي في المذكر والمؤنث مشتق من العجز ويطلق على كبر السن لملازمة العجز له غالبا.

والعقيم: فعيل بمعنى مفعول، وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث إذا جرى على موصوف مؤنث، مشتق من عقمها الله، إذا خلقها لا تحمل بجنين، وكانت سارة لم تحمل قط.

وقول الملائكة)كذلك قال ربك(الإشارة إلى الحادث وهو التبشير بغلام.

والكاف للتشبيه، أي مثل قولنا: قال ربك فنحن بلغنا ما أمرنا بتبليغه.

وجملة)إنه هو الحكيم العليم(تعليل لجملة)كذلك قال ربك(المتقضية أن الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلا تبليغا من الله وأن الله صادق وعده وأنه لا موقع لتعجب امرأة إبراهيم لأن الله حكيم يدبر تكوين ما يريده، وعليم لا يخفى عليه حالها من العجز والعقم.

وهذه المحاورة بين الملائكة وسارة امرأة إبراهيم وقع مثلها بينهم وبين إبراهيم كما قص في سورة الحجر، فحكي هنا ما دار بينهم وبين سارة، وحكي هناك ما دار بينهم وبين إبراهيم والمقام واحد، والحالة واحدة كما بين في سورة هود قالت)يا ويلتا آلد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب(.

)قال فما خطبكم أيها المرسلون[31] قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين[32] لنرسل عليهم حجارة من طين[33] مسومة عند ربك للمسرفين[34](علم إبراهيم من محاورتهم فيما ذكر في هذه الآية وما ورد ذكره في آيات أخرى أنهم ملائكة مرسلون من عند الله فسألهم عن الشأن الذي أرسلوا لأجله. وإنما سألهم بعد أن قراهم جريا على سنة الضيافة أن لا يسأل الضيف عن الغرض الذي أورده ذلك المنزل إلا بعد استعداده للرحيل كيلا يتوهم سآمة مضيفه من نزوله به، وليعينه على أمره إن كان مستطيعا، وهم وإن كانوا قد بشروه بأمر عظيم إلا أنه لم يعلم هل ذلك هو قصارى ما جاءوا لأجله.

وحكي فعل القول بدون عاطف لأنه في مقاولة محاورة بينه وبين ضيفه.

والفاء فيما حكي من كلام إبراهيم فصيحة مؤذنة بكلام محذوف ناشىء عن المحاورة الواقعة بينه وبين ضيفه وهو من عطف كلام على كلام متكلم آخر ويقع كثيرا في العطف بالواو نحو قوله تعالى حكاية عن إبراهيم)قال ومن ذريتي(بعد قوله تعالى)قال إني جاعلك للناس إماما(وقوله حكاية على نوح)قال وما علمي بما كانوا يعملون(. فإبراهيم خاطب الملائكة بلغته ما يؤدي مثل بفصيح الكلام العربي بعبارة)فما خطبكم أيها المرسلون(.

وتقدير المحذوف: إذ كنتم مرسلين من جانب الله تعالى فما خطبكم الذي أرسلتم من أجله.

وقد علم إبراهيم أن نزول الملائكة بتلك الصورة لا تكون بمجرد بشارته بابن يولد له ولزوجه إذ كانت البشارة تحصل له بالوحي، فكان من علم النبوءة أن إرسال الملائكة إلى الأرض بتلك الصورة لا يكون إلا لخطب قال تعالى)ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين(.

والخطب: الحدث العظيم والشأن المهم، وإضافته إلى ضميرهم لأدنى ملابسة.
والمعنى: ما الخطب الذي أرسلتم لأجله إذ لا تنزل الملائكة إلا بالحق. وخاطبهم بقوله)أيها المرسلون(لأنه لا يعرف ما يسميهم به إلا وصف أنهم المرسلون، والمرسلون من صفات الملائكة كما في قوله تعالى)والمرسلات عرفا(على أحد تفسيرين.
والمراد بالقوم المجرمين أهل سدوم وعمورية، وهم قوم لوط، وقد تقدمت قصتهم في سورة الأعراف وسورة هود.
والإرسال الذي في قوله)لنرسل عليهم حجارة من طين(مستعمل في الرمي مجازا كما يقال: أرسل سهمه على الصيد، وهذا الإرسال يكون بعد أن أصعدوا الحجارة إلى الجو وأرسلتها عليهم، ولذلك سميت مطرا في بعض الآيات.
وحصل بين)أرسلنا(وبين)لنرسل(جناس لاختلاف معنى اللفظين.
والحجارة: اسم جمع للحجر، ومعنى كون الحجارة من طين: أن أصلها طين تحجر بصهر النار، وهي حجارة بركانية من كبريت قذفتها الأرض من الجهة التي صارت بحيرة تدعى اليوم بحيرة لوط
وأصعدها ناموس إلهي بضغط جعله الله يرفع الخارج من البركان إلى الجو فنزلت على قرى قوم لوط فأهلكتهم، وذلك بأمر التكوين بواسطة القوى الملكية.
والمسومة: التي عليها المسومة أي العلامة، أي عليها علامات من ألوان تدل على أنها ليست من الحجارة المتعارفة.

ومعنى)عند ربك(أن علاماتها بخلق الله وتكوينه.
والمسرفون: المفرطون في العصيان، وذلك بكفرهم وشيوع الفاحشة فيهم، فالمسرفون: القوم المجرمون، عدل عن ضميرهم إلى الوصف الظاهر، لتسجيل إفراطهم في الإجرام.
)فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين[35] فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين[36] وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم[37] (هذه الجملة ليست من حكاية كلام الملائكة بل هي تذييل لقصة محاورة الملائكة مع إبراهيم، والفاء في)فأخرجنا(فصيحة لأنها تفصح عن كلام مقدر هو ما ذكر في سورة هود من مجيء الملائكة إلى لوط وما حدث بينه وبين قومه، فالتقدير: فحلوا بقرية لوط فأمرناهم بإخراج من كان فيها من المؤمنين فأخرجوهم. وضمير أخرجنا ضمير عظمة الجلالة.

وإسناد الإخراج إلى الله لأنه أمر به الملائكة أن يبلغوه لوطا، ولأن الله يسر إخراج المؤمنين ونجاتهم إذ أخر نزول الحجارة إلى أن خرج المؤمنون وهم لوط وأهله إلا امرأته.
وعبر عنهم ب)المؤمنين(للإشارة إلى أن إيمانهم هو سبب نجاتهم، أي إيمانهم بلوط. والتعبير عنه ب)المسلمين(لأنهم آل نبي وإيمان الأنبياء إسلام قال تعالى)وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون(.
وضمير)فيها(عائد إلى القرية ولم يتقدم لها ذكر لكونها معلومة من آيات أخرى كقوله)ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء(.
وتفريع)فما وجدنا(تفريع خبر على خبر، وفعل)وجدنا(معنى علمنا لأن)وجد(من أخوات)ظن(فمفعوله الأول قوله)من المسلمين(و)من(مزيدة لتأكيد النفي وقوله)فيها(في محل المفعول الثاني.
وإنما قال)فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين(دون أن يقول: فأخرجنا لوطا وأهل بيته قصدا للتنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي أن الله نجاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنهم أهل لوط، وأن كونهم أهل بيت لوط لأنهم انحصر فيهم وصف)المؤمنين(في تلك القرية، فكان كالكلي الذي انحصر في فرد معين.
والمؤمن: هو المصدق بما يجب التصديق به.
والمسلم المنقاد إلى مقتضى الإيمان ولا نجاة إلا بمجموع الأمرين، فحصل في الكلام مع التفنن في الألفاظ الإشارة إلى التنويه بكليهما وإلى أن النجاة باجتماعهما.
والآية تشير إلى أن امرأة لوط كانت تظهر الانقياد إلى زوجها وتضمر الكفر وممالاة أهل القرية على فسادهم، قال تعالى)ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما(الآية، فبيت لوط كان كله من المسلمين ولم يكن كله من المؤمنين فلذلك لم ينج منهم فبيت لوط كان كله من المسلمين ولم يكن كله من المؤمنين فلذلك لم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معا.
والوجدان في قوله)فما وجدنا(مراد به تعلق علم الله بالمعلوم بعد وقوعه وهو تعلق تنجيزي، ووجدان الشيء: إدراكه وتحصيله.
ومعنى)وتركنا فيها آية(أن القرية بقيت خرابا لم تعمر، فكان ما فيها من آثار الخراب آية للذين يخافون عذاب الله، قال تعالى في سورة هود)وإنها لسبيل مقيم(، أو يعود الضمير إلى ما يؤخذ من

مجموع قوله)قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين(على تأويل الكلام بالقصة، أي تركنا في قصتهم.
والترك حقيقته: مفارقة شخص شيئا حصل معه في مكان ففارق ذلك المكان وأبقى منه ما كان معه، كقول عنترة:
فتركته جزر السباع ينشنه ويطلق على التسبب في إيجاد حالة تطول، كقول النابغة:
فلا تتركني بالوعـيد كـأنـنـي إلى الناس مطلي به القار أجرب بتشبيه إبقاء تلك الحالة فيه بالشيء المتروك في مكان. ووجه الشبه عدم التغير.
والترك في الآية: كناية عن إبقاء الشيء في موضع دون مفارقة التارك، أو هو مجاز مرسل في ذلك فيكون نظير ما في بيت النابغة.
والذين يخافون العذاب: هم المؤمنون بالبعث والجزاء من أهل الإسلام وأهل الكتاب دون المشركين فإنهم لما لم ينتفعوا بدلالة مواقع الاستئصال على أسباب ذلك الاستئصال نزلت دلالة آيته بالنسبة إليهم منزلة ما ليس بآية كما قال تعالى)فذكر بالقرآن من يخاف وعيد(.

صفحة : 4152

والمعنى: أن الذين يخافون اتعظوا بآية قوم لوط فاجتنبوا مثل أسباب هلاكهم، وأن الذين أشركوا لا يتعظون فيوشك أن ينزل عليهم عذاب أليم.
)وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين[38] فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون[39] فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم[40](قوله)وفي موسى(عطف على قوله)فيها آية(والتقدير: وتركنا في موسى آية، فهذا العطف من عطف جملة على جملة لتقدير فعل: تركنا، بعد واو العطف، والكلم على حذف مضاف أي في قصة موسى حين أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى الخ، فيكون الترك المقدر في حرف العطف مرادا به جعل الدلالة باقية فكأنها متروكة في الموضع لا تنقل منه كما تقدم آنفا في بيت عنترة.
وأعقب قصة قوم لوط بقصة موسى وفرعون لشهرة أمر موسى وشريعته، فالترك المقدر مستعمل في مجازيه المرسل والاستعارة. وفي الواو استخدام مثل استخدام الضمير في قول معاوية بن مالك الملقب معود الحكماء لقبوه به لقوله في ذكر قصيدته :

أعود مثلها الحكماء بعـدي إذا ما ألحق في الحدثان نابا
إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابـا والمعنى: أن قصة موسى آية دائمة. وعقبت قصة قوم لوط بقصة موسى وفرعون لما بينهما من تناسب في أن العذاب الذي عذب به الأمتان عذاب أرضي إذ عذب قوم لوط بالحجارة التي هي من طين، وعذب قوم فرعون بالغرق في البحر. ثم ذكر عاد وثمود وكان عذابهما سماويا إذ عذبت عاد بالريح وثمود بالصاعقة.

والسلطان المبين: الحجة الواضحة وهي المعجزات التي أظهرها لفرعون من انقلاب العصا حية، وما تلاها من الآيات الثمان.

والتولي حقيقته: الانصراف عن المكان.

والركن حقيقته: ما يعتمد عليه من بناء ونحوه، ويسمى الجسد ركنا لأنه عماد عمل الإنسان.

وقوله)فتولى بركنه(تمثيل لهيئة رفضه دعوة موسى بهيئة المنصرف عن شخص وبإيراد قوله)بركنه(تم التمثيل ولولاه لكان قوله)تولى(مجرد استعارة.

والباء للملابسة، أي ملابسا ركنه كما في قوله)أعرض ونأى بجانبه(.

والمليم: الذي يجعل غيره لائما عليه، أي وهو مذنب ذنبا يلومه الله عليه، أي يؤاخذه به. والمعنى: أنه مستوجب العقاب كما قال)فلا تلوموني ولوموا أنفسكم(.

والمعنى أن قصة موسى وفرعون آية للذين يخافون العذاب الأليم فيجتنبون مثل أسباب ما حل بفرعون وقومه من العذاب وهي الأسباب التي ظهرت في مكابرة فرعون عن تصديق الرسول الذي أرسل إليه، وأن الذين لا يخافون العذاب لا يؤمنون بالبعث والجزاء لا يتعظون بذلك لأنهم لا يصدقون بالنواميس الإلهية ولا يتدبرون في دعوة أهل الحق فهم لا يزالون معرضين ساخرين عن دعوة رسولهم متكبرين عليه، مكابرين في دلائل صدقه، فيوشك أن يحل بهم من مثل ما حل بفرعون وقومه، لأن ما جاز على المثل يجوز على المماثل، وقد كان المسلمون يقولون: إن أب جهل فرعون هذه الأمة.

)وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم[41] ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم[42](نظم هذه الآية مثل نظم قوله)وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون(انتقل إلى العبرة بأمة من الأمم العربية وهم عاد وهم أشهر العرب البائدة.

والريح العقيم هي: الخلية من المنافع التي ترجى لها الرياح من إثارة السحاب وسوقه، ومن إلقاح الأشجار بنقل غبرة الذكر من ثمار إلى الإناث من أشجارها، أي الريح التي لا نفع فيها، أي هي ضارة. وهذا الوصف لما كان مشتقا مما هو من خصائص الإناث كان مستغنيا عن لحاق هاء التأنيث لأنها يؤتى بها للفرق بين الصنفين والعرب يكرهون العقم في مواشيهم، أي ريح كالناقة العقيم لا تثمر نسلا ولا درا، فوصف الريح بالعقيم تشبيه بليغ في الشؤم، قال تعالى)أو يأتيهم عذاب يوم عقيم(.

وجملة)ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم(صفة ثانية، أوحال، فهو ارتقاء في مضرة هذا الريح فإنه لا ينفع وأنه يضر أضرارا عظيمة.

وصيغ)تذر(: بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة.

و)شيء(في معنى المفعول ل)تذر(فإن)من(لتأكيد النفي والنكرة المجرورة ب)من(هذه نصف في نفي الجنس ولذلك كانت عامة، إلا أن هذا العموم مخصص بدليل العقل لأن الريح إنما تبلي الأشياء التي تمر عليها إذا كان شأنها أن يتطرق إليها البلى، فإن الريح لا تبلي الجبال ولا البحار ولا الأودية وهي تمر عليها وإنما تبلي الديار والأشجار والناس والبهائم، ومثل قوله تعالى)تدمر كل شيء بأمر ربها(.

وجملة)جعلته كالرميم(في موضع الحال من ضمير)الريح(مستثناة من عموم أحوال)شيء(يبين المعرف، أي ما تذر من شيء أتت عليه في حال من أحوال تدميرها إلا في حال قد جعلته كالرميم.

والرميم: العظم الذي بلي. يقال: رم العظم، إذا بلى، أي جعلته مفتتا.

والمعنى: وفي عاد آية للذين يخافون العذاب الأليم إذ أرسل الله عليهم الريح. والمراد: أن الآية كائنة في أسباب إرسال الريح عليهم وهي أسباب تكذيبهم هودا وإشراكهم بالله وقالوا)من أشد منا قوة(، فيحذر من مثل ما حل بهم أهل الإيمان. وأما الذين لا يخافون العذاب الأليم من أهل الشرك فهم مصرون على كفرهم كما أصرت عاد فيوشك أن يحل بهم من جنس ما حل بعاد.

)وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين[43] فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون[44] فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين[45](أتبعت قصة عاد بقصة ثمود لتقارنهما غالبا في

القرآن من أجل أن ثمود عاصرت عادا وخلفتها في عظمة الأمم، قال تعالى)واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد(ولاشتهارهما بين العرب.

)وفي ثمود(عطف على)في عاد(أو على)تركنا فيها آية(.

والمعنى: وتركنا آية للمؤمنين في ثمود في حال قد أخذتهم الصاعقة، أي في دلالة أخذ الصاعقة إياهم، على أن سببه هو إشراكهم وتكذيبهم وعتوهم عن أمر ربهم، فالمؤمنون اعتبروا بتلك فسلكوا مسلك النجاة من عواقبها، وأما المشركون فإصرارهم على كفرهم سيوقعهم في عذاب من جنس ما وقعت فيه ثمود.

وهذا القول الذي ذكر هنا هو كلام جامع لما أنذرهم به صالح رسولهم وذكرهم يه من نحو قوله)وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا(وقوله)أتتركون فيما هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم(وقوله)هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها(. ونحو ذلك مما يدل على أنهم أعطوا ما هو متاع، أي نفع في الدنيا فإن منافع الدنيا زائلة، فكانت الأقوال التي قالها رسولهم تذكيرا بنعمة الله عليهم يجمعها)تمتعوا حتى حين(، على أنه يجوز أن يكون رسولهم قال لهم هذه الكلمة الجامعة ولم تحك في القرآن إلا في هذا الموضع، فقد علمت من المقدمة السابعة من مقدمات هذا التفسير أن أخبار الأمم تأتي موزعة على قصصهم في القرآن.

فقوله)تمتعوا(أمر مستعمل في إباحة المتاع. وقد جعل المتاع بمعنى النعمة في مواضع كثيرة كقوله تعالى)وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع(قوله)وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين(.

والمراد ب)حين(زمن مبهم، جعل نهاية لما متعوا به من النعم فإن نعم الدنيا زائلة، وذلك الأجل: إما أن يراد به أجل كل واحد منهم الذي ينتهي إليه حياته، وإما أن يراد به أجل الأمة الذي ينتهي إليه بقاؤها.

وهذا نحو قوله)يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى(فكما قال الله للناس على لسان محمد صلى الله عليه وسلم لعله قاله لثمود على لسان صالح عليه السلام.

وليس قوله)إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين(بمشير إلى قوله في الآية الأخرى)فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام(ونحوه لأن ذلك الأمر مستعمل في الإنذار والتأييس من النجاة بعد ثلاثة أيام فلا يكون لقوله بعده)فعتوا عن أمر ربهم(مناسبة لتعقيبه به بالفاء لأن الذي تفيده الفاء يقتضي أن ما بعدها مرتب في الوجود على ما قبلها.

والعتو: الكبر والشدة. وضمن)عتوا(: معنى أعرضوا، فعدي ب)عن(، أي فأعرضوا عما أمرهم الله على لسان رسوله صالح عليه السلام. وأخذ الصاعقة إياهم إصابتهم إياهم إصابة تشبه أخذ العدو عدوه.

صفحة : 4154

وجملة)وهم ينظرون(حال من ضمير النصب في)أخذتهم(، أي أخذتهم في حال نظرهم إلى نزولها، لأنهم لما رأوا بوارقها الشديدة علموا أنها غير معتادة فاستشرفوا ينظرون إلى السحاب فنزلت عليهم الصاعقة وهم ينظرون. وذلك هول عظيم زيادة في العذاب فإن النظر إلى النقمة يزيد صاحبها ألما كما أن النظر إلى النعمة يزيد المنعم مسرة، قال تعالى)وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون(.
وقرأ الكسائي)الصعقة(بدون ألف.
وقوله)فما استطاعوا من قيام(تفريع على)وهم ينظرون(، أي فما استطاعوا أن يدفعوا ذلك حين رؤيتهم بوادره. فالقيام مجاز للدفاع كما يقال: هذا أمر لا يقوم له أحد، أي لا يدفعه أحد. وفي الحديث غضب غضبا لا يقوم له أحد ، أي فما استطاعوا أي دفاع لذلك.
وقوله)وما كانوا منتصرين(أي لم ينصرهم حتى يكونوا منتصرين لأن انتصر مطاوع نصر، أي ما نصرهم أحد فانتصروا.
)وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فسقين[46](قرأ الجمهور) وقوم(بالنصب بتقدير)اذكر(، أو بفعل محذوف يدل عليه ما ذكر من القصص قبله، تقديره: وأهلكنا قوم نوح، وهذا من عطف الجمل وليس من عطف المفردات.
وقرأ أبو عمروا وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالجر عطفا على)ثمود(على تقدير:وفي قوم نوح.
ومعنى)من قبل(أنهم أهلكوا قبل أولئك فهم أول الأمم المكذبين رسولهم أهلكم.
وجملة)إنهم كانوا قوما فاسقين(تعليل لما تضمنه قوله)قوم نوح من قبل(. وتقدير كونهم آيه للذين يخافون العذاب: من كونهم عوقبوا وأن عقابهم لأنهم كانوا قوما فاسقين.
وأخر الكلام على قوم نوح لما عرض من تجاذب المناسبات فيما أورد من آيات العذاب للأمم المذكورة آنفا بما علمته سابقا. ولذلك كان قوله من قبل تنبيها على وجه مخالفة عادة القرآن في ترتيب حكاية أحوال الأمم على حسب ترتيبهم في الوجود.

وقد أومأ قوله)من قبل(إلى هذا ومثله قوله تعالى)وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى(.
)والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون[47](لما كانت شبهة نفاة البعث قائمة على توهم استحالة إعادة الأجسام بعد فنائها أعقبت تهديدهم بما يقوض توهمهم فوجه إليه الخطاب يذكرهم بأن الله خلق أعظم المخلوقات ولم تكن شيئا فلا تعد إعادة الأشياء الفانية بالنسبة إليها إلا شيئا يسيرا كما قال تعالى)لخلق السماوات الأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون(.
وهذه الجملة والجمل المعطوفة عليها إلى قوله)إني لكم منه نذير مبين(معترضة بين جملة)وقوم نوح من قبل(الخ وجملة)كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول(الآية.
وابتدئ بخلق السماء لأن السماء أعظم مخلوق يشاهده الناس، وعطف عليه خلق الأرض عطف الشيء على مخالفه لاقتران المتخالفين في الجامع الخيالي. وعطف عليها خلق أجناس الحيوان لأنها قريبة للأنظار لا يكلف النظر فيها والتدبر في أحوالها ما يرهق الأذهان.
واستعير لخلق السماء فعل البناء لأنه منظر السماء فيما يبدوا للأنظار شبيه بالقبة ونصب القبة يدعى بناء.
وهذا استدلال بأثر الخلق الذي عاينوا أثره ولم يشهدوا كيفيته، لأن أثره ينبئ عن عظيم كيفيته، وأنها أعظم مما يتصور في كيفية إعادة الأجسام البالية.
والأيد: القوة. وأصله جمع يد، ثم كثر إطلاقه حتى صار اسما للقوة، وتقدم عند قوله تعالى)واذكر عبدنا داود ذا الأيد(في سورة ص~.
والمعنى: بنيناها بقدرة لا يقدر أحد مثلها.
وتقديم)السماء(على عامله للاهتمام به، ثم بسلوك طريقة الاشتغال زاده تقوية ليتعلق المفعول بفعله مرتين: مرة بنفسه، ومرة بضميره، فإن الاشتغال في قوة تكرر الجملة. وزيد تأكيده بالتذييل بقوله)وإنا لموسعون(. والواو اعتراضية.

صفحة : 4155

والموسع:اسم فاعل من أوسع، إذا كان ذا وسع، أي قدرة. وتصاريف جائية من السعة، وهي امتداد مساحة المكان ضد الضيق، واستعير معناها للوفرة في أشياء مثل الأفراد مثل عمومها في) ورحمتي وسعت كل شيء(، ووفرة المال مثل)لينفق ذو سعة من

سعته(، وقوله)وعلى الموسع قدره(، وجاء في أسمائه تعالى الواسع)إن الله واسع عليم(. وهو عند إجرائه على الذات يفيد كمال صفاته الذاتية: الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة، قال تعالى)إن الله واسع عليم(ومنه قوله هنا)وإنا لموسعون(.

وأكد الخبر بحرف)إن(لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر سعة قدرة الله تعالى إذ أحالوا إعادة المخلوقات بعد بلاها.

)والأرض فرشناها فنعم الماهدون[48](القول في تقديم الأرض على عامله وفي مجيء طريقة الاشتغال كالقول في)والسماء بنيناها(. وكذلك القول في الاستدلال بذلك على إمكان البعث.

من دقائق فخر الدين: أن ذكر الأمم الأربع للإشارة إلى أن الله عذبهم بما هو من أسباب وجودهم، وهو التراب والماء والهواء والنار، وهي عناصر الوجود، فأهلك قوم لوط بالحجارة وهي من طين، وأهلك قوم فرعون بالماء، وأهلك عادا بالريح وهو هواء، وأهلك ثمودا بالنار.

واستغنى هنا عن إعادة)بأيد(لدلالة ما قبله عليه.

والفرش: بسط الثوب ونحوه للجلوس والاضطجاع، وفي) فرشناها(استعارة تبعية، شبه تكوين الله الأرض على حالة البسط بفرش البساط ونحوه.

وفي هذا الفرش دلالة على قدرة الله وحكمته إذ جعل الأرض مبسوطة لما أراد أن يجعل على سطحها أنواع الحيوان يمشي عليها ويتوسدها ويضطجع عليها ولو لم تكن كذلك لكانت محدودبة تؤلم الماشي بلة المتوسد والمضطجع.

ولما كان في فرشها إرادة جعلها مهدا لمن عليها من الإنسان اتبع)فرشناها(بتفريع ثناء الله على نفسه على إجادة تمهيدها تذكيرا بعظمته ونعمته، أي فنعم الماهدون نحن.

وصيغة الجمع في قوله)الماهدون(للتعظيم مثل ضمير الجمع في لله، وروعي في وصف خلق الأرض ما يبدو للناس من سطحها لأنه الذي يهم الناس في الاستدلال على قدرة الله وفي الامتنان عليه بما في لطفهم والرفق بهم. دون تعرض إلى تكويرها إذ لا يبلغون إلى إدراكه، كما روعي في ذكر السماء ما يبدو من قبة أجواءها دون بحث عن ترامي أطرافها وتعدد عوالمها لمثل ذلك. ولذلك اتبع الاعتراض بالتذييل بقوله)فنعم الماهدون(المراد منه تلقين الناس الثناء على الله فيما صنع لهم فيها من منة ليشكروه بذلك الثناء كما في قوله)الحمد لله رب العالمين(.

)ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون[49](لما أشعر قوله) فرشناها فنعم الماهدون(بأن في ذلك نعمة على الموجودات التي على الأرض اتبع ذلك بصفة خلق تلك الموجودات لما فيه من دلالة

على تفرد الله تعالى بالخلق المستلزم بتفرده بالإلهية فقال)ومن كل شيء خلقنا زوجين(والزوج: الذكر والأنثى. والمراد بالشيء: النوع من جنس الحيوان. وتثنية زوج هنا لأنه أريد به ما يزوج من ذكر وأنثى.
وهذا الاستدلال عليه بخلق يشاهدون كيفياته وأطواره كلما لفتوا أبصارهم، وقدحوا أفكارهم، وهو خلق الذكر والأنثى ليكون منهما إنشاء خلق جديد يخلف ما سلفه وذلك أقرب تمثيل لإنشاء الخلق بعد الفناء. وهو البعث الذي أنكروه لأن الأشياء تقرب بما هو واضح من أحوال أمثالها.
ولذلك أتبعه بقوله)لعلكم تذكرون(، أي تتفكرون في الفروق بين الممكنات والمستحيلات، وتتفكرون في مراتب الإمكان فلا يختلط عليكم الاستبعاد وقلة الاعتياد بالاستحالة فتتوهموا غريب محالا.
فالتذكر مستعمل في عادة التفكر للأشياء ومراجعة أنفسهم فيما أحالوه ليعلموا بعد إعادة النظر أن ما أحالوه ممكن ولكنهم لم يألفوا فاشتبه عليهم الغريب بالمحال فأحالوا فلما كان تجديد التفكر المغفول عنه شبيها بتذكر الشيء المنسي أطلق عليه)لعلكم تذكرون(. وهذا في معنى قوله تعالى)وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون(فقد ذيل هنالك بالحث على التذكر، كما ذيل هنا برجاء التذكر، فأفاد أن خلق الذكر والأنثى من نطفة هو النشأة الأولى وهي الدالة على النشأة الآخرة.

صفحة : 4156

وجملة)لعلكم تذكرون(تعليل لجملة)خلقنا زوجين(أي رجاء أن يكون في الزوجين تذكر لكم، أي دلالة مغفول عنها.
والقول في صدور الرجاء من الله مبين عنه قوله تعالى)ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون(في سورة البقرة.
)ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين[50] ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين[51](بعد أن بين ضلال هؤلاء في تكذيبهم بالبعث بيانا بالبرهان الساطع، ومثل حالهم بحال الأمم الذين سلفوهم في التكذيب بالرسل وما جاءوا به جميعا بين الموعظة للضالين وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكانت فيما مضى من الاستدلال دلالة على أن الله متفرد بخلق العالم وفي ذلك إبطال إشراكهم مع الله آلهة أخرى أقبل على تلقين

الرسول صلى الله عليه وسلم ما يستخلصه لهم عقب بأن يدعوهم إلى الرجوع إلى الحق بقوله)ففروا إلى الله(.
فالجملة المفرعة بالفاء مقول قول محذوف والتقدير: فقل فروا، دل عليه قوله)إني لكم منه نذير مبين(فإنه كلام لا يصدر إلا من قائل ولا يستقيم أن يكون كلام مبلغ.
وحذف قول كثير الورود في القرآن وهو من ضرب إيجازه، فالفاء من الكلام الذي يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم، ومفادها التفريع على ما تقرر مما تقدم. وليست مفرعة فعل الأمر المحذوف لأن المفرع بالفاء هو ما يذكر بعدها.
وقد غير أسلوب النوع إلى توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم هذه الموعظة لأن لتعدد الواعظين تأثير على نفوس المخاطبين بالموعظة.
والأنسب بالسياق إن الفرار إلى الله مستعار للإقلاع عن ما هم فيه من الإشراك وجحود البعث استعارة تمثيلية بتشبيه حال تورطهم في الضلالة بحال من هو في مكان مخوف يدعو حاله أن يفر منه إلى من يجيره، وتشبيه حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال نذير قوم بأن ديارهم عرضة لغزو العدو فاستعمل المركب وهو) فروا إلى الله(في هذا التمثيل.
فالمواجه ب)فروا إلى الله(المشركون لأن المؤمنين قد فروا إلى الله من الشرك.
والفرار: الهروب، أي سرعة مفارقة المكان تجنبا لأذى يلحقه فيه فيعدى ب)من(الابتدائية للمكان الذي به الأذى يقال: فر من بلد الوباء ومن الموت، والشيء الذي يؤذي، يقال: فر من الأسد وفر من العدو.
وجملة)إني لكم منه نذير مبين(تعليل للأمر ب)فروا إلى الله(باعتبار أن الغاية من الإنذار قصد السلامة من العقاب فصار الإنذار بهذا الاعتبار تعليلا للأمر بالفرار إلى الله، أي التوجه إليه وحده.
وقوله)منه(صفة ل)نذير(قدمت على الموصوف فصارت حالا.
وحرف)من(للابتداء المجازي، المأمور له بأن أبلغكم.
وعطف)ولا تجعلوا مع الله إلها آخر(على)ففروا إلى الله(نهي عن نسبة الإلهية إلى أحد غير الله.
فجمع بين الأمر والنهي مبالغة في التأكيد بنفي الضد لإثبات ضده كقوله)وأضل فرعون قومه وما هدى(.
ومن لطائف فخر الدين أن قوله تعالى)إني لكم منه نذير(جمع الرسول والمرسل إليهم والمرسل.

)كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون[52](كلمة)كذلك(فصل خطاب تدل على إنهاء حديث والشروع في غيره، أو الرجوع إلى حديث قبله أتى عليه الحديث الأخير. والتقدير: الأمر كذلك والإشارة إلى ما مضى من الحديث، ثم يورد بعده حديث آخر والسامع يرد كلا إلى ما يناسبه، فيكون ما بعد اسم الإشارة متصلا بأخبار المم التي تقدم ذكرها من قوم لوط ومن عطف عليهم.

أعقب تهديد المشركين بأن يحل بهم ما حل بأمم المكذبين برسل الله من قبلهم بتنظيرهم بهم في مقالهم، وقد تقدم ورود) كذلك(فصلا للخطاب عند قوله تعالى)كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا(في سورة الكهف، فقوله)كذلك(فصل وجملة)ما أتى الذين من قبلهم من رسول(الآية مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

ولك أن تجعل قوله)كذلك ما أتى الذين من قبلهم(إلى آخره مبدأ استئناف أو عودا إلى الإنحاء على المشركين في قوله المختلف بأنواع التكذيب في التوحيد والبعث وما يتفرع على ذلك.

صفحة : 4157

واسم الإشارة راجع إلى قوله)إنكم لفي قول مختلف(الآية كما علمت هنالك، أي مثل قولهم المختلف قال الذين من قبلهم لما جاءتهم الرسل فيكون قوله)كذلك(في محل حال وصاحب الحال) الذين من قبلهم(.

وعلى كلا الوجهين فالمعنى: أن حال هؤلاء كحال الذين سبقوهم ممن كانوا مشركين أن يصفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر، أو مجنون فكذلك سيجيب هؤلاء عن قولك)فروا إلى الله ولا تجعلوا مع الله إلها آخر(بمثل جواب قبلهم فلا مطمع في ارعوائهم عن عنادهم.

والمراد ب)الذين من قبلهم(الأمم المذكورة في الآيات السابقة وغيرهم، وضمير)قبلهم(عائد إلى مشركي العرب الحاضرين.

وزيادة)من(في قوله)من رسول(للتنصيص على إرادة العموم، أي أن كل رسول قال فيه فريق من قومه: هو ساحر، أو مجنون، أي قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون، مثل قوم نوح دون السحر إذ لم يكن السحر معروفا في زمانهم قالوا)إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين(. وقد يجمعون القولين مثل قول فرعون في موسى.

وهذا العموم يفيد أنه لم يخل قوم من الأقوام المذكورين إلا قالوا لرسولهم أحد القولين، وما حكي ذلك عن بعضهم في آيات أخرى بلفظه أو بمرادفه كقول قوم هود)إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء(.

وأول الرسل هو نوح كما هو صريح الحديث الصحيح في الشفاعة. فلا يرد أن آدم لم يكذبه أهله، وأن أنبياء بني إسرائيل يوشع، وأشعيا لم يكذبهم قومهم، لأن الله قال)من رسول(والرسول أخص من النبي.

والاستثناء في)إلا قالوا ساحر(استثناء من أحوال محذوفة.

والمعنى: ما أتى الذين من قبلهم من رسول في حال من أحوال أقوالهم إلا في حال قولهم ساحر أو مجنون.

والقصر المستفاد من الاستثناء قصر ادعائي لأن للأمم أقوالا غير ذلك وأحوالا أخرى، وإنما قصروا على هذا اهتماما بذكر هذه الحالة العجيبة من البهتان، إذ يرمون أعقل الناس بالجنون وأقومهم بالسحر.

وإسناد القول إلى ضمير الذين من قبل مشركي العرب الحاضرين إسناد باعتبار أنه قول أكثرهم فإن الأمور التي تنسب إلى الأقوام والقبائل تجري على اعتبار الغالب.

)أتواصوا به بل هم قوم طاغون[53](الاستفهام مستعمل في التعجب من تواطئهم على هذا القول على طريقة التشبيه البليغ، أي كأنهم أوصى بعضهم بعضا بأن يقولوه.

فالاستفهام هنا كناية عن لازمه وهو التعجب لأن شأن الأمر العجيب أن يسأل عنه والجملة استئناف بياني لأن تماثل هؤلاء الأمم في مقالة التكذيب يثير سؤال سائل عن منشأ هذا التشابه.

وضمير)تواصوا(عائد إلى ما سبق من الموصول ومن الضمير الذي أضيف إليه قبلهم، أي أوصى بعضهم بعضا حتى بلغت الوصية إلى القوم الحاضرين.

وضمير)به(عائد على المصدر المأخوذ من فعل)إلا قالوا ساحر أو مجنون(، أي أتواصوا بهذا القول.

وفعل الوصية يتعدى إلى الموصى عليه بالباء كقوله تعالى)وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر(.

و)بل(إضراب عن مفاد الاستفهام من التشبيه أو عن التواصي به، ببيان سبب التواطؤ على هذا القول فإنه إذا ظهر السبب بطل العجب. أي ما هو بتواص ولكنه تماثل في منشأ ذلك القول، أي سبب تماثل المقالة تماثل التفكير والدواعي للمقالة، إذ جميعهم قوم طاغون، وإن طغيانهم وكبرياءهم يصدهم عن اتباع رسول يحسبون أنفسهم أعظم منه، وإذ لا يجدون وصمة يصمونه به اختلقوا لتنقيصه

عللا لا تدخل تحت الضغط وهي ادعاء أنه مجنون أو أنه ساحر، فاستووا في ذلك بعلة استواءهم في أسبابه ومعانيه.
فضمير)هم قوم طاغون(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)أتواصوا(.
وفي إقحام كلمة)قوم(إيذان بأن الطغيان راسخ في نفوسهم بحيث يكون من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله تعالى)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة.
)فتول عنهم فما أنت بملوم[54] وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين[55](

صفحة : 4158

تفريع على قوله)كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول(إلى قوله)بل هم قوم طاغون(لمشعر بأنهم بعداء عن أن تقنعهم الآيات والنذر فتول عنهم، أي اعرض عن الإلحاح في جدالهم، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمانهم ويغتم من أجل عنادهم في كفرهم فكان الله يعاود تسليته الفينة بعد الفينة كما قال)لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين( )فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا( )ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون(، فالتولي مراد به هذا المعنى، وإلا فإن القرآن جاء بعد أمثال هذه الآية بدعوتهم وجدالهم غير مرة قال تعالى)فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون(في سورة الصافات.
وفرع على أمره بالتولي عنهم إخباره بأنه لا لوم عليه في إعراضهم عنه وصيغ الكلام في صيغة الجملة الاسمية دون: لا نلومك، للدلالة على ثبات مضمون الجملة في النفي.
وجيء بضمير المخاطب مسندا إليه فقال)فما أنت بملوم(دون أن يقول: فلا ملام عليك، أو نحوه للاهتمام للتنويه بشأن المخاطب وتعظيمه.
وزيدت الباء في الخبر المنفي لتوكيد نفي أن يكون ملوما.
وعطف)وذكر(على)فتول عنهم(احتراس كي لا يتوهم أحد أن الإعراض إبطال للتذكير بل التذكير باق فإن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الناس بعد أمثال هذه الآيات فآمن بعض من لم يكن آمن من قبل، وليكون الاستمرار على التذكير زيادة في إقامة الحجة على المعرضين، ولئلا يزدادوا طغيانا فيقولوا: ها نحن أولاء قد أفحمناه فكف عما يقوله.
والأمر في)وذكر(مراد به الدوام على التذكير وتجديده.

واقتصر في تعليل الأمر بالتذكير على علة واحدة وهي انتفاع المؤمنين بالتذكير لأن فائدة ذلك محققة، ولإظهار العناية بالمؤمنين في المقام الذي أظهرت فيه لقلة الاكتراث بالكافرين قال تعالى) فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى(.

ولذلك فوصف المؤمنين يراد به المتصفون بالإيمان في الحال كما هو شأن اسم الفاعل، وأما من سيؤمن فعلته مطوية كما علمت آنفا.

والنفع الحاصل من الذكرى هو رسوخ العلم بإعادة التذكير لما سمعوه واستفادة علم جديد فيما لم يسمعوه أو غفلوا عنه. ولظهور حجة المؤمنين على الكافرين يوما فيوما ويتكرر عجز المشركين عن المعارضة ووفرة الكلام المعجز.

)وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[56] ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون[57](الأظهر أن هذا معطوف على جملة) كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول(الآية التي هي ناشئة عن قوله)ففروا إلى الله(إلى)ولا تجعلوا مع الله إلها آخر(عطف الغرض على الغرض لوجود المناسبة.

فبعد أن نظر حالهم بحال الأمم التي صممت على التكذيب من قبلهم أعقبه بذكر شنيع حالهم من الانحراف عما خلقوا لأجله وغرز فيهم.

فقوله)وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون(خبر مستعمل في التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن الفطرة التي خلقوا عليها فخالفوا سنتها اتباعا لتضليل المضلين.

والجن: جنس من المخلوقات مستتر عن أعين الناس وهو جنس شامل للشياطين قال تعالى عن إبليس)كان من الجن(.

والإنس: اسم جمع واحدة إنسي بياء النسبة إلى جمعه.

والمقصود في هذا الإخبار هو الإنس وإنما ذكر الجن إدماجا وستعرف وجه ذلك.

والاستثناء مفرغ من علل محذوفة عامة على طريقة الاستثناء المفرغ.

واللام في)ليعبدون(لام العلة، أي ما خلقتهم لعلة إلا علة عبادتهم إياي. والتقدير: لإرادتي أن يعبدون، ويدل على هذا التقدير قوله في جملة البيان)ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون(.

وهذا التقدير يلاحظ في كل لام ترد في القرآن تعليلا لفعل الله تعالى، أي ما أرضى لوجودهم إلا أن يعترفوا لي بالتفرد بالإلهية.

فمعنى الإرادة هنا: الرضى والمحبة، وليس معناها الصفة الإلهية التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه على وفق العلم، التي اشتق منه اسمه تعالى)المريد(لأن إطلاق الإرادة على ذلك إطلاق آخر، فليس المراد هنا تعليل تصرفات الخلق الناشئة عن اكتسابهم على اصطلاح الأشاعرة، أو عن قدرتهم على اصطلاح المعتزلة على تقارب ما بين الاصطلاحين لظهور أن تصرفات الخلق قد تكون مناقضة لإرادة الله منهم بمعنى الإرادة الصفة، فالله تعالى خلق الناس على تركيب يقتضي النظر في وجود الإله ويسوق إلى توحيده ولكن كسب الناس يجرف أعمالهم عن المهيع الذي خلقوا لأجله، وأسباب تمكنهم من الانحراف كثيرة راجعة إلى تشابك الدواعي والتصرفات والآلات والموانع.

وهذا يغني عن احتمالات في تأويل التعليل من قوله)ليعبدون(من جعل عموم الجن والإنس مخصوصا بالمؤمنين منهم، أو تقدير محذوف في الكلام، أي إلا لآمرهم بعبادتي، أو حمل العبادة بمعنى التذلل والتضرع الذي لا يخلوا منه الجميع في أحوال الحاجة إلى التذلل والتضرع كالمرض والقحط وقد ذكرها ابن عطية.

ويرد على جميع تلك الاحتمالات أن كثيرا من الإنس غير عابدين بدليل المشاهدة، وأن الله حكى عن بعض الجن أنهم غير عابدين.

ونقول: أن الله خلق مخلوقات كثيرا وجعل فيها نظاما ونواميس فاندفع كل مخلوق يعمل بما تدفعه إليه نواميس جبلته، فقد تعود بعض المخلوقات على بعض بنقص ما هيء هو له ويعود بعضها على غيره بنقص ما يسعى إليه، فتشابكت أحوال المخلوقات ونواميسها، فربما تعاضدت وتظاهرت وربما تناقصت وتنافرت فحدثت من ذلك أحوال لا تحصى ولا يحاط بها ولا بطرائقها ولا بعواقبها، فكثيرا ما تسفر عن خلاف ما أعد له المخلوق في أصل الفطرة فلذلك حاطها الله بالشرائع، أي فحصل تناقض بين الأمر التكويني والأمر التشريعي.

ومعنى العبادة في اللغة العربية قبل حدوث المصطلحات الشرعية دقيق الدلالة، وكلمات أيمة اللغة فيه خفيه والذي يستخلص منها أنها إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضر ملكا ذاتيا مستمرا، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قول فرعون)وقومهما لنا عابدون(.

فالحصر المستفاد من قوله)وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون(قصر علة خلق الله الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، والظاهر أنه قصر إضافي وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنه قصر قلب باعتبار مفعول)يعبدون(، أي إلا ليعبدوني

وحدي، أي لا ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرا حقيقيا فإنا وإن لم نطلع على مقادير حكم الله تعالى من خلق الخلائق، لكنا نعلم أن الحكمة من خلقهم ليست مجرد أن يعبدوه، لأن حكم الله تعالى من أفعاله كثيرة لا يحيط بها، وذكر بعضها كما هنا مما يقتضي عدم وجود حكمة أخرى، ألا ترى أن الله ذكر حكما للخلق غير هذه كقوله)ولا يزالون مختلفين لا من رحم ربك ولذلك خلقهم(بله ما ذكره من حكمة خلق بعض الإنس والجن كقوله في خلق عيسى)ولنجعله آية للناس ورحمة منا(.

ثم إن اعتراف الخلق بوحدانية الله يقشع تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم ما كذبوه إلا لأنه دعاهم إلى نبذ الشرك الذي يزعمون أنه لا يسع أحدا نبذه، فإذا انقشع تكذيبهم استتبع انقشاعه امتثال الشرائع التي يأتي بها الرسول صلى الله عليه وسلم إذا آمنوا بالله وحده أطاعوا ما بلغهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنه، فهذا معنى تقتضيه عبادة الله بدلالة الالتزام، وذلك هو ما سمي بالعبادة بالإطلاق المصطلح عليه في السنة في نحو قوله أن تعبد الله كأنك تراه ؛ وليس يليق أن يكون مرادا في هذه الآية لأنه لا يطرد أن يكون علة لخلق الإنسان فإن التكاليف الشرعية تظهر في بعض الأمم وفي بعض العصور وتتخلف في عصور الفترات بين الرسل إلى أن جاء الإسلام، واحسب أن إطلاق العبادة على هذا المعنى اصطلاح شرعي وإن لم يرد به القرآن لكنه ورد في السنة كثيرا وأصبح متعارفا بين الأمة من عهد ظهور الإسلام.

صفحة : 4160

وأن تكاليف الله للعباد على ألسنة الرسل ما أراد بها إلا صلاحهم العاجل والآجل وحصول الكمال النفساني لذلك الصلاح، فلا جرم أن الله أراد من الشرائع كمال الإنسان وضبط نظامه الاجتماعي في مختلف عصوره. وتلك حكمة إنشائه، فاستتبع قوله)إلا ليعبدون(أنه ما خلقهم إلا لينتظم أمرهم بوقوفهم عند حدود التكاليف التشريعية من الأوامر والنواهي فعبادة الإنسان ربه لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من خلقه وعلة لحصوله عادة.

وعن مجاهد وزيد بن أسلم تفسير قوله)إلا ليعبدون(بمعنى: إلا لآمرهم وأنهاهم. وتبع أبو إسحاق الشاطبي هذا التأويل في النوع الرابع نت كتاب المقاصد من كتابة أنواع التعريف الموافقات وفي محمل الآية عليه نظر قد علمته فحققه.

وما ذكر الله الجن هنا إلا لتنبيه المشركين بأن الجن غير خارجين عن العبودية لله تعالى.
وقد حكى الله عن الجن في سورة الجن فقال قائلهم)وإنه كان يقول سفيهنا على الله شططا(.
وتقديم الجن في الذكر في قوله)وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون(للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن، ليعلموا أن الجن عباد الله تعالى، فهو نظير قوله) وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون(.
وجملة)ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون(تقرير لمعنى)إلا ليعبدون(بإبطال بعض العلل والغايات التي يقصدها الصانعون شيئا يصنعونه أو يتخذونه، فإنه المعروف في العرف أن من يتخذ شيئا إنما يتخذه لنفسه، وليست الجملة لإفادة الجانب المقصور دونه بصيغة القصر لأن صيغة القصر لا تحتاج لذكر الضد. ولا يحسن ذكر الضد ولا يحسن ذكر الضد في الكلام البليغ.
فقوله)ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون(، كناية عن عدم الاحتياج إليهم لأن أشد الحاجات في العرف حاجة الناس إلى الطعام واللباس والسكن وإنما تحصل بالرزق وهو المال، فلذلك ابتدئ به ثم عطف عليه، أي إعطاء الطعام لأنه أشد ما يحتاج إليه البشر، وقد لا يجده صاحب المال إذا قحط الناس فيحتاج إلى من يسلفه الطعام أو يطعمه إياه، وفي هذا تعريض بأهل الشرك إذ يهدون إلى الأصنام الأموال والطعام تتلقاه منه سدنة الأصنام.
والرزق هنا: المال كقوله تعالى)فابتغوا عند الله الرزق(قوله)الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر(وقوله)ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله(، ويطلق الرزق على الطعام كقوله تعالى)وله فيها رزقهم بكرة وعشيا(ويمنع من إرادته هنا عطف)وما أريد أن يطعمون(.
)إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين[58](تعليل لجملتي)ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون(و)الرزاق(هنا بمعنى ما يهم المال والإطعام.
والرزاق: الكثير الإرزاق، والقوة: القدرة.
وذو القوة: صاحب القدرة. ومن خصائص)ذو(أن تضاف إلى أمر مهم، فعلم أن القوة هنا قوة خلية من النقائص.
والمتين: الشديد، وهو هنا وصف لذي القوة، أي الشديد القوة، وقد عد)المتين(في أسمائه تعالى. قال العزالي: وذلك يرجع إلى معاني القدرة. وفي معارج النور شرح الأسماء المتين: كما في قوته بحيث لا يعارض ولا يداني .

فالمعنى أنه المستغني غنى مطلقا فلا يحتاج إلى شيء فلا يكون خلقه الخلق لتحصيل نفع له ولكن لعمران الكون وإجراء نظام العمران باتباع الشريعة التي يجمعها معنى العبادة في قوله)إلا ليعبدون(.

وإظهار اسم الجلالة في)إن الله هو الرزاق(إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضاه: إني أنا الرزاق، فعدل عن الإضمار إلى الاسم الظاهر لتكون هذه الجملة مستقلة بالدلالة لأنها سيرت مسير الكلام الجامع والأمثال: وحذفت ياء المتكلم من)يعبدون(و)يطعمون(للتخفيف، ونظائره كثيرة في القرآن.

وفي قوله)إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين(طريق قصر لوجود ضمير الفصل، أي: لا رزاق، ولا ذا قوة، ولا متين إلا الله، وهو قصر إضافي، أي دون الأصنام التي يعبدونها.

فالقصر قصر إفراد بتنزيل المشركين في إشراكهم أصنامهم بالله منزلة من يدعي أن الأصنام شركاء لله في صفاته التي منها: الإرزاق، والقوة، والشدة، فأبطل ذلك بهذا القصر، قال تعالى)إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه(، وقال)إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب(.

)فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنب أصحابهم فلا يستعجلون[59] (تفريع على جملة)وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون(باعتبار أن المقصود من سياقه إبطال عبادتهم غير الله، أي فإذا لم يفردني المشركون بالعبادة فإن لهم ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم، وهو يلمح إلى ما تقدم من ذكر ما عوقبت به الأمم السالفة من قوله)قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين(إلى قولهم)إنهم كانوا قوما فاسقين(.

والمعنى: فإذا ماثلهم الذين ظلموا فإن لهم نصيبا عظيما من العذاب مثل نصيب أولئك.

والذين ظلموا: الذين أشركوا من العرب، والظلم: الشرك بالله.

والذنوب بفتح الذال: الدلو العظيمة يستسقي بها السقاة على القليب كما ورد في حديث الرؤيا ثم أخذها أبو بكر ففزع ذنوبا أو ذنوبين ولا تسمى ذنوبا إلا إذا كانت ملأى.

والكلام تمثيل لهيئة تساوي حظ الذين ظلموا من العرب بحظوظ الذين ظلموا من الأمم السالفة بهيئة الذين يستقون من قليب واحد

إذ يتساوون في أنصبائهم من الماء، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، وأطلق على الأمم الماضية اسم وصف أصحاب الذين ظلموا باعتبار الهيئة المشبه بها إذ هي هيئة جماعات الورد يكونون متصاحبين.

وهذا التمثيل القابل للتوزيع بأن يشبه المشركون بجماعة وردت على الماء، وتشبه الأمم الماضية بجماعة سبقتهم للماء، ويشبه نصيب كل جماعة بالدلو التي يأخذونها من الماء.

قال علقمة بن عبدة يمدح الملك الحارث بن أبي شمر ويشفع عنده لأخيه شأس بن عبدة وكان قد وقع في أسره مع بني تميم يوم عين أباغ:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنـوب فلما سمعه الملك قال نعم وأذنبة

وأطلق له أخاه شأس بن عبدة ومن معه من أسرى تميم، وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم. والمقصود: أن يسمعه المشركون فهو تعريض، وبهذا الاعتبار أكد الخبر ب)أن(لأنهم كانوا مكذبين بالوعيد، ولذلك فرع على التأكيد قوله)فلا يستعجلون(لأنهم كانوا يستعجلون بالعذاب استهزاء وإشعارا بأنه وعد مكذوب فهم في الواقع يستعجلون الله تعالى بوعيده.

وعدي الاستعجال إلى ضمير الجلالة وهم إنما استعجلوه النبي صلى الله عليه وسلم لإظهار أن النبي صلى الله عليه وسلم مخبر عن الله تعالى توبيخا لهم وإنذارا بالوعيد. وحذفت ياء المتكلم للتخفيف.

والنهي مستعمل في التهكم إظهارا لغضب الله عليهم.

)فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون[60](فرع على وعيدهم إنذار آخر بالويل، أو إنشاء زجر.

والويل: الشر وسوء الحال، وتقدم في قوله)فويل لهم مما كتبت أيديهم(في سورة البقرة، وتنكيره للتعظيم.

والكلام يحتمل الإخبار بحصول ويل، أي عذاب وسوء حال لهم يوم أوعدوا به، ويحتمل إنشاء الزجر والتعجيب من سوء حالهم في يوم أوعدوه.

و)من(للابتداء المجازي، أي سوء حال بترقبهم عذابا آتيا من اليوم الذي أوعدوه.

والذين كفروا: هم الذين ظلموا، عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر لما فيه من تأكيد الاسم السابق تأكيدا بالمرادف، مع ما في صفة الكفر من الإيماء إلى أنهم لم يشكروا نعمة خالقهم.

واليوم الذي أوعدوه هو زمن حلول العذاب فيحتما أنه يراد يوم القيامة ويحتمل حلول العذاب في الدنيا، وأيا ما كان فمضمون هذه الجملة مغاير لمضمون التي قبلها.

وإضافة)يوم(إلى ضميرهم للدلالة على اختصاصه بهم، أي هو معين الجزائف كما أضيف يوم إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى)وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون(.
واليوم: يصدق بيوم القيامة، ويصدق بيوم بدر الذي استأصل الله فيه شوكتهم.

صفحة : 4162

ولما كان المضاف إليه ضمير الكفار المعينين وهم كفار مكة ترجح أن يكون المراد من هذا اليوم يوما خاصا بهم وإنما هو يوم بدر لأن يوم القيامة لا يختص بهم بل هو عام لكفار الأمم كلهم بخلاف اليوم الذي في قوله في سورة الأنبياء)وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون(لأن ضمير الخطاب فيه عائدا إلى) الذين سبقت لهم منا الحسنى(كلهم.
وفي الآية من اللطائف تمثيل ما سيصيب الذين كفروا بالذنوب، والذنوب يناسب القليب وقد كان مثواهم يوم بدر قليب بدر الذي رميت فيه أشلاء سادتهم وهو اليوم القائل فيه شدلاد بن أوس الليثي المكنى أبا بكر يرثي قتلاهم:
وماذا بالقليب قـلـيب بـدر من الشيزى تزين بالسـنـام
تحيي بالـسـلامة أم بـكـر وهل لي بعد قومي من سلام ولعل هذا مما يشمل قول النبي صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب يوم بدر)قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا(.
وفي قوله)من يومهم الذي يوعدون(مع قوله في أول السورة) إن ما توعدون لصادق(رد العجز على الصدر، ففيه إيذان بانتهاء السورة وذلك من براعة المقطع.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الطور
سميت هذه السورة عند السلف)سورة الطور(دون واو قبل الطور. ففي جامع الطواف من الموطإ حديث مالك عن أم سلمة قالت فطفت ورسول الله إلى جنب البيت يقرأ ب)والطور وكتاب مسطور(، أي يقرأ بسورة الطور ولم ترد يقرأ بالآية لأن الآية فيها)والطور(بالواو وهي لم تذكر الواو.

وفي باب القراءة في المغرب من الموطإ حديث مالك عن جبير بن مطعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بالطور في المغرب .

وفي تفسير سورة الطور من صحيح البخاري عن جبير بن مطعم قال سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية)أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون(كاد قلبي أن يطير . وكان جبير بن مطعم مشركا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في فداء أسرى بدر وأسلم يومئذ.

وكذلك وقعت تسميتها في ترجمتها من جامع الترمذي وفي المصاحف التي رأيناها، وكثير من التفاسير. وهذا على التسمية بالإضافة، أي سورة ذكر الطور كما يقال: سورة البقرة، وسورة الهدهد، وسورة المؤمنين.

وفي ترجمة هذه السورة من تفسير صحيح البخاري)سورة والطور(بالواو على حكاية اللفظ الواقع في أولها كما يقال)سورة قل هو الله أحد(. وهي مكية جميعها بالاتفاق.

وهي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب نزول السور. نزلت بعد سورة نوح وقبل سورة المؤمنين.

وعد أهل المدينة ومكة آيها سبعا وأربعين، وعدها أهل الشام وأهل الكوفة تسعا وأربعين، وعدها أهل البصرة ثمانيا وأربعين.

أغراض هذه السورة

أول أغراض هذه السورة التهديد بوقوع العذاب يوم القيامة للمشركين المكذبين بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من إثبات البعث وبالقرآن المتضمن ذلك فقالوا: هو سحر.

ومقابلة وعيدهم بوعد المتقين المؤمنين وصفة نعيمهم ووصف تذكرهم خشية، وثنائهم على الله بما من عليهم فانتقل إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وإبطال أقوالهم فيه وانتظارهم موته.

وتحديهم بأنهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن.

وإبطال خليط من تكاذيبهم بإعادة الخلق وببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ليس من كبرائهم وبكون الملائكة بنات الله وإبطال تعدد الآلهة وذكر استهزائهم بالوعيد.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتركهم وأن لا يحزن لذلك، فإن الوعيد حال بهم في الدنيا ثم في الآخرة وأمره بالصبر، ووعده بالتأييد، وأمر بشكر ربه في جميع الأوقات.

)والطور[1] وكتاب مسطور[2] في رق منشور[3] والبيت المعمور[4] والسقف المرفوع[5] والبحر المسجور[6] إن عذاب ربك لواقع[7] ما

له من دافع[8](القسم للتأكيد وتحقيق الوعيد، ومناسبة الأمور المقسم بها للمقسم عليه أن هذه الأشياء المقسم بها من شؤونه بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وكان هلاك فرعون ومن معه من جراء تكذيبهم موسى عليه السلام.

والطور: الجبل باللغة السريانية قاله مجاهد. وأدخل من العربية وهو من الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن.

وغلب علما على طور سيناء الذي ناجى فيه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة.

فالقسم به باعتبار شرفه بنزول كلام الله فيه ونزول الألواح على موسى وفي ذكر الطور إشارة إلى تلك الألواح لأنها اشتهرت بذلك الجبل فسميت طور المعرب بتوراة.

وأما الجبل الذي خوطب فيه موسى من جانب الله فهو جبل حوريب واسمه في العربية)الزبير(ولعله بجانب الطور كما في قوله تعالى)آنس في جانب الطور نارا(، وتقدم بيانه في سورة القصص، وتقدم عند قوله تعالى)ورفعنا فوقكم الطور(في سورة البقرة.

والقسم بالطور توطئة للقسم بالتوراة التي أنزل أولها على موسى في جبل الطور.

والمراد ب)كتاب مسطور في رق منشور(التوراة كلها التي كتبها موسى عليه السلام بعد نزول الألواح، وضمنها كل ما أوحى الله إليه مما أمر بتبليغه في مدة حياته إلى ساعات قليلة قبل وفاته. وهي الإسفار الأربعة المعروفة عند اليهود: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر العدد، وسفر التثنية، وهي التي قال الله تعالى في شأنها)ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون(في سورة الأعراف. وتنكير)كتاب(للتعظيم. وإجراء الوصفين عليه لتميزه بأنه كتاب مشرف مراد بقاؤه مأمور بقراءته إذ المسطور هو المكتوب.

والسطر: كتابة طويلة لأنها تجعل سطورا، أي صفوفا من الكتابة قال تعالى)وما يسطرون(، أي يكتبون.

والرق بفتح الراء بعدها قاف مشددة الصحيفة تتخذ من جلد مرق أبيض ليكتب عليه. وقد جمعها المتلمس في قوله:

فكأنما هي من تقادم عهدها رق أتيح كتابها مسطـور والمنشور: المبسوط غير المطوي قال يزيد بن الطثرية:

صحائف عندي للعتاب طويتها ستنشر
يوما ما والعتاب يطول أي: أقسم بحال نشره لقراءته وهي أشرف أحواله لأنها حالة حصول الاهتداء به للقارىء والسامع.
وكان اليهود يكتبون القرآن في ورق ملصق بعضها بعض أو محيط بعضها ببعض، فتصير قطعة واحدة ويطوونها طيا أسطوانيا لتحفظ فإذا أرادوا قراءتها نشروا مطويها، ومنه ما في حديث الرجم فنشروا التوراة .
وليس مراد بكتاب مسطور القرآن لأن القرآن لم يكن يومئذ مكتوبا سطورا ولا هو مكتوبا في رق.
ومناسبة القسم بالتوراة أنها الكتاب الموجود الذي فيه ذكر الجزاء وإبطال الشرك وللإشارة إلى القرآن الذي أنكروا أنه من عند الله ليس بدعا فنزلت قبله التوراة وذلك لأن المقسم عليه وقوع العذاب بهم وإنما هو جزاء على تكذيبهم القرآن ومن جاء به بدليل قوله بعد ذكر العذاب)فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون(.
والقسم بالتوراة يقتضي أن التوراة يومئذ لم يكن فيها تبديل لما كتبه موسى: فأما أن يكون تأويل ذلك على قول ابن عباس في تفسير معنى قوله تعالى)يحرفون الكلم عن مواضعه(أنه تحريف بسوء فهم وليس تبديلا لألفاظ التوراة، وأما أن يكون تأويله أن التحريف وقع بعد نزول هذه السورة حين ظهرت الدعوة المحمدية وجبهت اليهود دلالة مواضع من التوراة على صفات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، أو يكون تأويله بأن القسم بما فيه من الوحي الصحيح.
والبيت المعمور: عن الحسن أنه الكعبة وهذا الأنسب بعطفه على الطور، ووصفه ب)المعمور(لأنه لا يخلو من طائف به، وعمران الكعبة هو عمرانها بالطائفين قال تعالى)إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر(الآية.
ومناسبة القسم سبق القسم بكتاب التوراة فعقب ذلك بقسم بمواطن نزول القرآن فإن من نزل به من القرآن أنزل بمكة وما حولها مثل جبل حراء. وكان نزوله شريعة ناسخة لشريعة التوراة، على أن الوحي كان ينزل حول الكعبة. وفي حديث الإسراء بينا أنا نائم عند المسجد الحرام إذ جاءني الملكان الخ، فيكون توسيط القسم بالكعبة في أثناء ما قسم به من شؤون شريعة موسى عليه السلام إدماجا.

وفي الطبري: أن عليا سئل: ما البيت المعمور؟ فقال: بيت في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا، يقال له: الضراح . بضم الضاد المعجمة وتخفيف الراء وحاء مهملة ، وأن مجاهدا والضحاك وابن زيد قالوا مثل ذلك. وعن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: هل تدرون ما البيت المعمور؟ قال: فإنه مسجد في السماء تحته الكعبة إلى آخر الخبر. وثمة أخبار كثيرة متفاوتة في أن في السماء موضعا يقال له : البيت المعمور، لكن الروايات في كونه المراد من هذه الآية ليست صريحة.

وأما السقف المرفوع: ففسروه بالسماء لقوله تعالى)وجعلنا السماء سقفا محفوظا(وقوله)والسماء رفعها(فالرفع حقيقي ومناسبة القسم بها أنها مصدر الوحي كله التوراة والقرآن. وتسمية السماء على طريقة التشبيه البليغ.

والبحر: يجوز أن يراد به البحر المحيط بالكرة الأرضية. وعندي: أن المراد بحر القلزم، وهو البحر الأحمر ومناسبة القسم به أنه أهلك به فرعون وقومه حين دخله موسى وبنو إسرائيل فلحق بهم فرعون.

والمسجور: قيل المملوء، مشتقا من السجر وهو الملء والإمداد. فهو صفة كاشفة قصد منها التذكير بحال خلق الله إياه مملوءا ماء دون أن تملأه أودية أو سيول، أو هي للاحتراز عن إرادة الوادي إذ الوادي ينقص فلا يبقى على ملئه وذلك دال على عظم القدرة. والظاهر عندي: أن وصفه بالمسجور للإيماء إلى الحالة التي كان بها هلاك فرعون بعد أن فرق الله البحر لموسى وبني إسرائيل ثم أسجره، أي أفاضه على فرعون وملئه.

وعذاب الله المقسم على وقوعه وهو عذاب الآخرة لقوله)يوم تمور السماء مورا(إلى قوله)تكذبون(. وأما عذاب المكذبين في الدنيا فسيجيء في قوله تعالى)وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك(. وتحقيق وقوع عذاب الله يوم القيامة إثبات للبعث بطريقة الكناية القريبة، وتهديد للمشركين بطريقة الكناية التعريضية.

والواوات التي في هذه الآية واوات قسم لأن شأن القسم أن يعاد ويكرر، ولذلك كثيرا ما يعيدون المقسم به نحو قول النابغة:

والله والله لنعم الفتى وإنما يعطفون بالفاء إذا أرادوا صفات المقسم به.

ويجوز صرف الواو الأولى للقسم واللاتي بعدها عاطفات على القسم، والمعطوف على القسم قسم.

والوقوع: أصله النزول من علو واستعمل مجازا للتحقق وشاع ذلك، فالمعنى: أن عذاب ربك لمتحقق.

وحذف متعلق)لواقع(، وتقديره: على المكذبين، أو بالمكذبين، كما دل عليه قوله بعد)فويل يومئذ للمكذبين(، أي المكذبين بك بقرينة إضافة رب إلى ضمير المخاطب المشعر بأنه معذبهم لأنه ربك وهم كذبوك فقد كذبوا رسالة الرب. وتضمن قوله)إن عذاب ربك لواقع(إثبات البعث بعد كون الكلام وعيدا لهم على إنكارهم أن يكونوا معذبين.

وأتبع قوله)لواقع(بقوله)ما له من دافع(، وهو خبر ثان عن)عذاب(أو حال منه، أي: ما للعذاب دافع يدفعهم عنهم.

والدفع: إبعاد الشيء عن شيء باليد وأطلق هنا على الوقاية مجازا بعلاقة الإطلاق ألا يقيهم من عذاب الله أحد بشفاعة أو معارضة.

وزيدت)من(في النفي لتحقيق عموم النفي وشموله، أي نفي جنس الدافع.

روى أحمد بن حنبل عن جبير بن مطعم قال قدمت المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكلمه في أسارى بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ)والطور(إلى)إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع(فكأنما صدع قلبي ، وفي رواية فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب .

)يوم تمور السماء مورا[9] وتسير الجبال سيرا[10] فويل يومئذ للمكذبين[11] الذين هم في خوض يلعبون[12](يجوز أن يتعلق)يوم تمور السماء(بقوله)لواقع(على أنه ظرف له فيكون قوله)فويل يومئذ للمكذبين(تفريعا على الجملة كلها ويكون العذاب عذاب الآخرة.

ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله)أن عذاب ربك لواقع(فيكون)يوم(متعلقا بالكون الذي بين المبتدأ والخبر في قوله)فويل يومئذ للمكذبين(وقدم الظرف على عامله للاهتمام، فلما قدم الظرف أكتسب معنى الشرطية وهو استعمال متبع في الظروف والمجرورات التي تقدم على عواملها فلذلك قرنت الجملة بعده بالفاء على تقدير: إن حل ذلك اليوم فويل للمكذبين.

صفحة : 4165

وقوله)يومئذ(على هذا الوجه أريد به التأكيد للظرف فحصل تحقيق الخبر بطريقين طريق المجازاة، وطريق التأكيد في قوله)يوم تمور السماء مورا(الآية، تصريح بيوم البعث بعد أن أشير إليه تضمنا بقوله)إن عذاب ربك لواقع(فحصل بذلك تأكيده أيضا.

والمور بفتح الميم وسكون الواو: التحرك باضطراب، ومور السماء هو اضطراب أجسامها من الكواكب واختلال نظامها وذلك عند انقراض عالم الحياة الدنيا.

وسير الجبال: انتقالها من مواضعها بالزلازل التي تحدث عند انقراض عالم الدنيا، قال تعالى)إذا زلزلت الأرض زلزالها(إلى قوله)يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم(.

وتأكيد فعلي)تمور(و)تسير(بمصدرين)مورا(و)سيرا(لرفع احتمال المجاز، أي هو مور حقيقي وتنقل حقيقي.

والويل: سوء الحال البالغ منتهى السوء، وتقدم عند قوله تعالى)فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم(في سورة البقرة وتقدم قريبا في آخر الذاريات. والمعنى: فويل يومئذ للذين يكذبون الآن. وحذف متعلق للمكذبين لعلمه من المقام، أي الذين يكذبون بما جاءهم به الرسول من توحيد الله والبعث والجزاء والقرآن فأسم الفاعل في زمن الحال.

والخوض: الاندفاع في الكلام الباطل والكذب. والمراد خوضهم في تكذيبهم بالقرآن مثل ما حكى الله عنهم)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(وهو المراد بقوله تعالى)وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره(.

و)في(للظرفية المجازية وهي الملابسة الشديدة كملابسة الظرف للمظروف، أي الذين تمكن منهم الخوض حتى كأنهم أحاط بهم.

و)يلعبون(حالية. واللعب: الاستهزاء، قال تعالى)ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسله كنتم تستهزئون(.

)يوم يدعون إلى نار جهنم دعا[13] هذه النار التي كنتم بها تكذبون[14] أفسحر هذا أم لا تبصرون[15] اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون[16]( )يوم يدعون(بدل من)يوم تمور السماء مورا(وهو بدل اشتمال.

والدع: الدفع العنيف، وذلك إهانة لهم وغلظة عليهم، أي يوم يساقون إلى نار جهنم سوقا بدفع، وفيه تمثيل حالهم بأنهم خائفون متقهقرون فتدفعهم الملائكة الموكلون بإزجائهم إلى النار.

وتأكيد)يدعون(ب)دعا(لتوصل إلى إفادة تعظيمه بتنكيره.

وجملة)هذه النار(إلى آخرها مقول قول محذوف دل عليه السياق. والقول المحذوف يقدر بما هو حال من ضمير)يدعون(. وتقديره: يقال لهم، أو مقولا لهم، والقائل هم الملائكة الموكلون بإيصالهم إلى جهنم.

والإشارة بكلمة)هذه(الذي هو للمشار إليه التقريب المؤنث تومىء إلى أنهم بلغوها وهم على شفاها، والمقصود بالإشارة التوطئة لما سيرد بعدها من قوله)التي كنتم بها تكذبون(إلى)لا تبصرون(.
والموصول وصلته في قوله)التي كنتم بها تكذبون(لتنبيه المخاطبين على فساد رأيهم إذ كذبوا بالحشر والعقاب فرأوا ذلك عيانا.
وفرع على هذا التنبيه تنبيه آخر على ضلالتهم في الدنيا بقوله) أفسحر هذا(إذ كانوا حين يسمعون الإنذار يوم البعث والجزاء يقولون: هذا سحر، وإذا عرض عليهم القرآن قالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذانهم وقر ومن بيننا وبينك حجاب، فللمناسبة بين ما في صلة الموصول من معنى التوقيف على خطئهم وبين التهكم عليكم بما كانوا يقولونه دخلت فاء التفريع وهو من جملة ما يقال لهم المحكي بالقول المقدر.
و)أم(منقطعة، والاستفهام الذي تقتضيه)أم(بعدها مستعمل في التوبيخ والتهكم. والتقدير: بل أنتم لا تبصرون.
ومعنى لا تبصرون: لا تبصرون المرئيات كما هي في الواقع فلعلكم تزعمون أنكم لا ترون نارا كما كنتم في الدنيا تقولون:)بيننا وبينك حجاب(أي فلا نراك، وتقولون)إنما سكرت أبصارنا(.
وجيء بالمسند إليه مخبرا عنه بخبر فعلي لإفادة تقوي الحكم، فلذلك لم يقل: أم لا تبصرون، لأنه لا يفيد تقويا، ولا: أم لا تبصرون أنتم، لأن مجيء الضمير المنفصل بعد الضمير المتصل يفيد تقرير المسند إليه المحكوم عليه بخلاف تقديم المسند إليه فإنه يفيد تأكيد الحكم وتقويته وهو أشد توكيدا، وكل ذلك في طريقة التهكم.

وجملة)اصلوها(مستأنفة هي بمنزلة النتيجة المترقبة من التوبيخ والتغليظ السابقين، أي ادخلوها فاصطلوا بنارها يقال: صلي النار يصلاها، إذ قاس حرها.
والأمر في)اصلوها(إما مكني به عن الدخول لأن الدخول لها يستلزم الاحتراق بنارها، وإما مستعمل مجازا في التنكيل. وفرع على)اصلوها(أمر للتسوية بين صبرهم على حرها وبين عدم الصبر وهو الجزع لأن كليهما لا يخففان عنهم شيئا من العذاب، ألا ترى أنهم يقولون:)سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص(لأن جرمهم عظيم لا مطمع في تخفيف جزائه.

و)سواء عليكم(مؤكدة لجملة)فاصبروا أو لا تصبروا(فلذلك فصلت عنها ولم تعطف.
وجملة)إنما تجزون ما كنتم تعملون(تعليل لجملة)اصلوها(إذ كلمة)إنما(مركبة من)إن(و)ما(الكافة، فكما يصح التعليل ب)أن(وحدها كذلك يصح التعليل بها مع)ما(الكافة، وعليه فجملتا)فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم(معترضتان بين جملة)اصلوها(والجملة الواقعة تعليلا لها.
والحصر المستفاد من كلمة)إنما(قصر قلب بتنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد أن ما لقوه من العذاب ظلم لم يستوجبوا مثل ذلك من شدة ما ظهر عليهم من الفزع.
وعدي)تجزون(إلى)ما كنتم تعملون(بدون الباء خلافا لقوله بعده)كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون(ليشمل القصر مفعول الفعل المقصور، أي تجزون مثل عملكم لا أكثر منه فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء كما انتفى الظلم عن أصله، ولهذه الخصوصية لم يعلق معمول الفعل بالباء إذ جعل الجزاء بمنزلة نفس الفعل.
)إن المتقين في جنات ونعيم[17] فاكهين بما أتيهم ربهم ووقيهم ربهم عذاب الجحيم[18] كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون[19](استئناف بياني بعد أن ذكر حال المكذبين وما يقال لهم، فمن شأن السامع أن يتساءل عن حال أضدادهم وهم الفريق الذين صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم فما جاء به القرآن وخاصة إذ كانوا السامعون المؤمنين وعادة القرآن تعقيب الإنذار بالتبشير وعكسه، والجملة معترضة بين ما قبلها وجملة)أم يقولون شاعر(.
وتأكيد الخبر ب)إن(للاهتمام به. وتنكير)جنات ونعيم(لتعظيم، أي في أية جنات وأي نعيم.
وجمع)جنات(تقدم في سورة الذاريات.
والفاكه: وصف من فكه كفرح، إذا طابت نفسه وسر.
وقرأ الجمهور)فاكهين(على صيغة اسم الفاعل، وقرأه أبو جعفر)فكهين(بدون ألف.
والباء في)بما آتاهم ربهم(للسببية والمعنى:أن ربهم أرضاهم بما يحبون.
واستحضار الجلالة بوصف)ربهم(للإشارة إلى عظيم ما آتاهم إذ العطاء يناسب حال المعطي، وفي إضافة)رب(إلى ضميرهم تقريب لهم وتعظيم وجملة)ووقاهم ربهم عذاب الجحيم(ي موضع الحال، والواو حالية، أو عاطفة على)متكئين(الذي هو حال، والتقدير: وقد وقاهم ربهم عذاب الجحيم، وهو حال من المتقين. والمقصود من ذكر هذه الحالة: إ ظهار التباين بين حال المتقين وحال المكذبين

زيادة في الامتنان فإن النعمة تزداد حسن وقع في النفس عند ملاحظة ضدها.
وفيه أيضا أن وقايتهم عذاب الجحيم عدل، لأنهم لم يقترفوا ما يوجب العقاب. وأما ما أعطوه من النعيم فذلك فضل من الله وإكرام منه لهم.
وفي قوله)ربهم(ما تقدم قبيله.
وجملة)كلوا واشربوا(إلى آخرها مقول قول محذوف في موضع الحال أيضا،تقديره: يقال: لهم، أو مقولا لهم. وهذا القول مقابل ما يقال للمكذبين)اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون(.
وحذف مفعول)كلوا واشربوا(لإفادة النعيم، أي كلوا ما يؤكل واشربوا كل ما يشرب، وهو عموم عرفي، أي مما تشتهون.
و)هنيئا(اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول وقع وصفا لمصدرين لفعلي)كلوا واشربوا(، أكلا وشربا، فلذلك لم يؤنث الوصف لأن فعيلا إذا كان بمعنى مفعول يلزم الإفراد والتذكير. وتقدم في سورة النساء لأنه سالم مما يكدر الطعام والشراب.
و)ما(موصولة، والباء سببية، أي بسبب العمل الصالح الذي يومي إليه قوله)المتقين(وفي هذا القول زيادة كرامة لهم بإظهار أن ما أتوه من الكرامة عوض عن أعمالهم كما آذنت به باء السببية وهو نحو قول من يسدي نعمة إلى المنعم عليه: لا فضل لي عليك وإنما هو مالك، أو نحو ذلك.

صفحة : 4167

)متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين[20](حال من ضمير)كلوا واشربوا(، أي يقال لهم كلوا وأشربوا حال كونهم متكئين، أي وهم في حال إكلة أهل الترف المعهود في الدنيا، فقد كان أهل الرفاهية يأكلون متكئين وقد وصف القرآن ذلك في سورة يوسف بقوله)أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وءاتت كل واحدة منهن سكينا(وكان الأكاسرة ومرازبة الفرس يأكلون متكئين وكذلك كان أباطرة الرومان وكذلك شأنهم في شرب الخمر، قال الأعشى:
نازعتهم قضب الريحان متكئا وخمرة مزة راووقها خضل السرر: جمع سرير، وهو ما يضطجع عليه.
والمصفوفة: المتقابلة، والمعنى: أنهم يأكلون متكئين مجتمعين للتأنس كقوله تعالى)على سرر متقابلين(.
وجملة)وزوجناهم(عطف على)متكئين(فهي في موضع الحال.

ومعنى)زوجناهم(: جعلنا كل فرد منهم زوجا، أي غير مفرد، أي قرناهم بنساء حور عين. والباء للمصاحبة، أي جعلنا حورا عينا معهم، ولم يعد فعل)زوجناهم(إلى)حور(بنفسه على المفعولية كما في قوله تعالى)زوجناكم(، لأن)زوجنا(في هذه الآية ليس بمعنى، أنكحناهم، إذ ليس المراد عقد النكاح لنبو المراد عن هذا المعنى، فالتزويج هنا وارد بمعناه الحقيقي في اللغة وهو جعل الشيء المفرد زوجا وليس واردا بمعناه المقول عنه في العرف والشرع، وليس الباء لتعدية فعل)زوجناهم(بتضمينه معنى: قرنا، ولا هو على لغة أزد شنؤة فإنه لم يسمع في فصيح الكلام : تزوج بامرأة.

وحور: صفة لنساء المؤمنين في الجنة، وهن النساء اللاتي كن أزواجا لهم في الدنيا إن كن مؤمنات ومن يخلقهن الله في الجنة لنعمة الجنة وحكم نساء المؤمنين اللاتي هن مؤمنات ولم يكن في العمل الصالح مثل أزواجهن في لحاقهن بأزواجهن في الدرجات في الجنة تقدم عند قوله تعالى)ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون(في سورة الزخرف وما يقال فيهن يقال في الرجال من أزواج النساء الصالحات.

و)عين(صفة ثانية، وحقها أن تعطف ولكن كثر ترك العطف.

)والذين أمنوا وأتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء(اعتراض بين ذكر كرامات المؤمنين، والواو اعتراضية.

والتعبير بالموصول إظهار في مقام الإضمار لتكون الصلة إيماء إلى أن وجه بناء الخبر الوارد بعدها، أي أن سبب إلحاق ذرياتهم بهم في نعيم الجنة هو إيمانهم وكون الذريات آمنوا بسبب إيمان آبائهم لأن الآباء المؤمنين يلقنون أبنائهم الإيمان.

والمعنى: والمؤمنون الذين لهم ذريات مؤمنون ألحقنا بهم ذرياتهم.

وقد قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارا(، وهل يستطيع أحدكم أن يقي النار غيره إلا بالإرشاد. ولعل ما في الآية من إلحاق ذرياتهم من شفاعة المؤمن الصالح لأهله وذريته.

والتنكير في قوله)بإيمان(يحتمل أن يكون للتعظيم، أي بإيمان عظيم، وعظمته بكثرة الأعمال الصالحة، فيكون ذلك شرطا في إلحاقهم بآبائهم وتكون عن النعمة في جعلهم في مكان واحد.

ويتحمل أن يكون للنوعية، أي ما يصدق عليه حقيقة الإيمان.

وقرأ الجمهور)واتبعتهم(بهمزة وصل وبتشديد التاء الأولى وبتاء بعد العين هي تاء تأنيث ضمير الفعل. وقرأه أبو عمرو وحده) واتبعناهم(بهمزة قطع وسكون التاء.

وقوله)ذريتهم(الأول قرأه الجمهور بصيغة الإفراد. وقرأه أبو عمرو)ذرياتهم(بصيغة جمع ذرية فهو مفعول)اتبعناهم(. وقرأه ابن عامر

ويعقوب بصيغة الجمع أيضا لكن مرفوعة على أنه فاعل)اتبعتهم(، فيكون الإنعام على آبائهم بإلحاق ذرياتهم بهم وإن لم يعلموا مثل عملهم.
وقد روى جماعة منهم الطبري والبزار وابن عدي وأبو نعيم وابن مردويه حديثا مسندا إلى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:)إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه أي في العمل كما صرح به في رواية القرطبي لتقر بهم عينيه ثم قرأ)والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان(إلى قوله)من شيء(.
وعلى الاحتمالين هو نعمة جمع الله بها للمؤمنين أنواع المسرة بسعادتهم بمزاوجة الحور وبمؤانسة الإخوان المؤمنين وباجتماع أولادهم ونسل بهم، وذلك أن في طبع الإنسان التأنس بأولاده وحبه اتصالهم به.

صفحة : 4168

وقد وصف ذلك محمد بن عبد الرفيع الجعفري المرسي الأندلسي تزيل تونس سنة 1013 ثلاث عشر وألف في كتاب له سماه الأنوار النبوية في آبار خير البرية قال في خاتمة الكتاب قد أطلعني الله تعالى على دين الإسلام بواسطة والدي وأنا ابن ستة أعوام مع أني كنت إذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ثم أرجع إلى بيتي فيعلمني والدي دين الإسلام فكنت أتعلم فيهما) كذا(معا وسني حين حملت إلى مكتبهم أربعة أعوام فأخذ والدي لوحا من عود الجوز كأني أنظر لها الآن إليه مملسا من غير طفل اسم لطين يابس وهو طين لزج وليست بعربية وعربيته طفال كغراب ، فكتب لي في حروف الهجاء وهو يسألني عن حروف النصارى حرفا حرفا تدريبا وتقريبا فإذا سميت له حرفا أعجميا يكتب لي حرفا عربيا حتى استوفى جميع حروف الهجاء وأوصاني أن أكتم ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي مع أنه رحمه الله قد ألقى نفسه للهلاك لإمكان أن أخبر ذلك عنه فيحرق لا محالة وقد كان يلقنني ما أقول عند رؤيتي الأصنام، فلما تحقق والدي أني أكتم أمور دين الإسلام أمرني أن أتكلم بإفشائه لوالدتي وبعض الأصدقاء من أصحابه وسافرت الأسفار من جيان لأجتمع بالمسلمين الأخيار إلى غرناطة وأشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء، فتخلص لي معرفتهم أني ميزت منهم سبعة رجال كانوا يحدثونني بأحوال غرناطة وما كان بها في الإسلام وقد مروا كلهم على شيخ من مشائخ غرناطة يقال له الفقيه الأوطوري... الخ.

وإيثار فعل)ألحقنا(دون أن يقال: أدخلنا معهم، أو جعلنا معهم لعلمه لما في معنى الإلحاق من الصلاحية للفوز والتأخير، فقد يكون ذلك الإلحاق بعد إجراء عقاب على بعض الذرية استحقوه بسيئاتهم على ما في الأعمال من تفاوت في استحقاق العقاب والله أعلم بمراده من عباده. وفعل الإلحاق يقتضي أن الذريات صاروا في درجات آبائهم.

وفي المخالفة بين الصيغتين تفنن لدفع إعادة اللفظ.

و)ألتناهم(نقصناهم، يقال: آلته حقه، إذا نقصه إياه، وهو من باب ضرب ومن باب علم.

فقرأه الجمهور بفتح لام)التناهم(. وقرأه ابن كثير بكسر لام)التناهم(، وتقدم عند قوله تعالى)لا يلتكم من أعمالكم شيئا(في سورة الحجرات.

والواو للحال وضمير الغيبة عائد إلى)الذين آمنوا(.

والمعنى: أن الله ألحق بهم ذرياتهم في الدرجة في الجنة فضلا منه على الذين آمنوا دون عوض احتراسا من أن يحسبوا أن إلحاق ذرياتهم بهم بعد عطاء نصيب من حسناتهم لذرياتهم ليدخلوا به الجنة على ما هو متعارف عندهم في فك الأسير، وحمالة الديات، وخلاص الغارمين، وعلى ما هو معروف في الانتصاف من المظلوم للظالم بالأخذ من حسناته وإعطائها للمظلوم، وهو كناية عن عدم انتقاص حظوظهم من الجزاء على الأعمال الصالحة.

و)من عملهم(متعلق ب)ما ألتناهم(و)من(للتبعيض و)من(التي في قوله)من شيء(لتوكيد النفي وإفادة الإحاطة والشمول للنكرة.

)كل امرئ بما كسب رهين[21](جملة معترضة بين جملة)وما ألتناهم من عملهم(وبين جملة)وأمددناهم بفاكهة(قصد منها تعليل الجملة التي قبلها وهي بما فيها من العموم صالحة للتذييل مع التعليل، و)كل امرئ(يعم أهل الآخرة كلهم.

وليس المراد كل امرئ من المتقين خاصة.

والمعنى: انتفى إنقاصنا إياهم شيئا من عملهم لأن كل أحد مقرون بما كسب ومرتهن عنده والمتقون لما كسبوا العمل الصالح كان لزاما لهم مقترنا بهم لا يسلبون منه شيئا، والمراد بما كسبوا: جزاء ما كسبوا لأنه الذي يقترن بصاحب العمل وأما نفس العمل نفسه فقد انقضى في أبانه.

وفي هذا التعليل كنايتان: إحداهما أن أهل الكفر مقرونون بجزاء أعمالهم، وثانيتهما أن ذريات المؤمنين الذين ألحقوا بآبائهم في النعيم ألحقوا بالجنة كرامة لآبائهم ولولا تلك الكرامة لكانت معاملتهم على حسب أعمالهم. وبهذا كان لهذه الجملة وقع أشد حسنا عما سواه مع أنها صارت من حسن التتميم.

والكسب: يطلق على ما يحصله المرء بعمله لإرادة نفع نفسه.
ورهين: فعيل بمعنى مفعول من الرهن وهو الحبس.
)وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون[22] يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم[23](عطف على)في جنات ونعيم(الخ.

صفحة : 4169

والإمداد: إعطاء المدد وهو الزيادة من نوع نافع فيما زيد فيه، أي زدناهم على ما ذكر من النعيم والأكل والشرب والمنادمة على شربها لأنها من أحسن اللذات فيما ألفته نفوسهم، وكان أهل الترف في الدنيا إذا شربوا الخمر في الدنيا كسروا سورة حدتها في البطن بالشواء من اللحم قال النابغة يصف قرن الثور:
سفود شرب نسوه عند مفتأد ويدفعون لذغ الخمر عن أفواههم بأكل الفواكه ويسمونها النقل بضم النون وفتحها ويكون من ثمار ومقاث.
ولذلك جيء بقوله)يتنازعون(حالا من ضمير الغائب في)أمددناهم بفاكهة(الخ. والتنازع أطلق على التداول والتعاطي. وأصله تفاعل من نزع الدلو من البئر عند الاستقاء فإن الناس كانوا إذا وردوا للاستقاء نزع أحدهم دلوه من الماء ثم ناول الدلو لمن حوله وربما كان الرجل القوي الشديد ينزع من البئر للمستقين كلهم يكفيهم تعب النزع، ويسمى الماتح بمثناة فوقية.
وقد ذكر الله تعالى نزع موسى عليه السلام لابنة شعيب لما رأى انقباضهما على الاندماج في الرعاء. وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في رؤيا نزعه على القليب ثم نزع أبي بكر رضي الله عنه ثم نزع عمر رضي الله عنه. ثم استعين أو جعل مجازا عن المداولة والمعاورة في مناولة أكؤس الشراب، قال الأعشى:
نازعتهم قضب الريحان متكئا وخمرة مزة رووواقها خضل والمعنى: أن بعضهم يصب لبعض الخمر ويناوله إيثارا وكرامة.
وقيل: تنازعهم الكأس مجاذبة بعضهم كأس بعض إلى نفسه للمداعبة كما قال امرؤ القيس في المداعبة على الطعام:
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل والكأس: إناء تشرب فيه الخمر لا عروة له ولا خرطوم، وهو مؤنث، فيجوز أن يكون هنا مرادا به الإناء المعروف ومراد به الجنس، وتقدم قوله في سورة الصافات)يطاف

عليهم بكأس من معين(، وليس المراد أنهم يشربون في كأس واحدة بأخذ أحدهم من آخر كأسه.

ويجوز أن يراد بالكأس الخمر، وهو من إطلاق اسم المحل على الحال مثل قولهم: سأل الوادي وكما قال الأعشى:

نازعتهم قضب الريحان)البيت السابق آنفا(. وجملة)لا لغو فيها ولا تأثين(يجوز أن تكون صفة ل)كأس(وضمير)لا لغو فيها(عائد إلى)كأس(ووصف الكأس ب)لا لغو فيها ولا تأثيم(.

إن فهم الكأس بمعنى الإناء المعروف فهو على تقدير: لا لغو ولا تأثيم لصاحبها، فإن)في(للظرفية المجازية التي تؤول بالملابسة، كقوله تعالى)وجاهدوا في الله حق جهاده(وقول النبي صلى الله عليه وسلم ففيهما أي والديك فجاهد ، أي جاهد ببرهما، أو تأول)في(بمعنى التعليم كقول النبي صلى الله عليه وسلم دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعا .

وأن فهم الكأس مرادا به الخمر كانت)في(مستعارة للسببية، أي لا لغو يقع بسبب شربها. والمعنى على كلا الوجهين أنها لا يخالط شاربيها اللغو والإثم بالسباب ولضرب ونحوه، أي أن الخمر التي استعملت الكأس لها ليست كخمور الدنيا، ويجوز أن تكون جملة)لا لغو فيها ولا تأثيم(مستأنفة ناشئة عن جملة)يتنازعون فيها كأسا(، ويكون ضمير)فيها(عائد إلى)جنات(من قوله)إن المتقين في جنات(مثل ضمير)فيها كأسا(، فتكون في الجملة معنى التذييل لأنه إذا انتفى اللغو والتأثيم عن أن يكونا في الجنة انتفى أن يكونا في كأس شرب أهل الجنة.

ومثل هذين الوجهين يأتي في قوله تعالى)إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا(إلى قوله)لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا(في سورة النبأ.

واللغو: سقط الكلام والهذيان الذي يصدر عن خلل العقل.

والتأثيم: ما يؤثم به فاعله شرعا أو عادة من فعل أو قول مثل الضرب والشتم وتمزيق الثياب وما يشبه أفعال المجانين من آثار العربدة مما لا يخلو عنه الندامى غالبا، فأهل الجنة منزهون عن ذلك كله لأنهم من عالم الحقائق والكمالات فهم حكماء علماء، وقد تمدح أصحاب الأحلام من أهل الجاهلية بالتنزه عن مثل ذلك، ومنهم من اتقى ما يعرض من الفلتات فحرم على نفسه الخمر مثل قيس بن عاصم.

وقرأ الجمهور)لا لغو فيها ولا تأثيم(برفعهما على أن)لا(مشبهة ب)ليس(. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بفتحهما على أن)لا(مشبهة ب)إن(وهما وجهان في نفي النكرة إذا كانت إرادة الواحد غير محتملة ومثله قولها في حديث أم زرع: زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة روبت النكرات الأربع بالرفع وبالنصب.

)ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون[24](عطف على جملة)يتنازعون فيها كأسا(فهو من تمامه وواقع موقع الحال مثله، وجيء به في صيغة المضارع للدلالة على التجدد والتكرر، أي ذلك لا ينقطع بخلاف لذات الدنيا فإنها لا بد لها من الانقطاع بنهايات تنتهي إليها فتكره لأصحابها الزيادة منها مثل الغول، والإطباق، ووجع الأمعاء في شرب الخمر ومثل الشبع في تناول الطعام وغير ذلك من كل ما يورث العجز عن الازدياد من اللذة ويجعل الازدياد ألما.

ولم يستثن من ذلك إلا لذات المعارف ولذات المناظر الحسنة والجمال.

ولما أشعر فعل)يطوف(بأن الغلمان يناولونهم ما فيه لذاتهم كان مشعرا بتجدد المناولة وتجدد الطواف وقد صار كل ذلك لذة لا سآمة منها.

والطواف: مشي متكرر ذهابا ورجوعا وأكثر ما يكون على استدارة، ومنه طواف الكعبة، وأهل الجاهلية بالأصنام ولأجله سمي الصنم دورا لأنهم يدورون به. وسمي مشي الغلمان بينهم طوافا لأن شأن مجالس الأحبة والأصدقاء أن تكون حلقة ودوائر ليستوي في مرآهم كما أشار إليه في قوله تعالى في سورة الصافات)على سرر متقابلين(. ومنه جعلت مجالس الدروس حلقا وكانت مجالس النبي ص(حلقا. وقد أطلق على مناولة الخمر إدارة فقيل: أدارت الحارثة الخمر، وهذا الذي يناول الخمر المدير.

وترك ذكر متعلق)يطوف(لظهوره من قوله)يتنازعون فيها كأسا(وقوله)وأمددناهم بفاكهة(ودل عليه قوله تعالى)يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب(وقوله)يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين(فلما تقدم ذكر ما شأنه أن يطاف به ترك ذكره بعد فعل)يطاف(بخلاف ما في الآيتين الأخريين.

والغلمان: جمع غلام، وحقيقته من كان في سن يقارب البلوغ أو يبلغه، ويطلق على الخادم لأنهم كانوا أكثر ما يتخذون خدمهم من الصغار لعدم الكلفة في حركاتهم وعدم استثقال تكليفهم، وأكثر ما يكونون من العبيد ومثله إطلاق الوليدة على الأمة الفتية كأنها قريبة عهد بولادة أمها.

فمعنى قوله)غلمان لهم(: خدمة لهم.

وعبر عنهم بالتنكير وتعليق لام الملك بضمير)الذين آمنوا(دون الإضافة التي هي على تقدير اللام لما في الإضافة من معنى تعريف المضاف بالانتساب إلى المضاف إليه عند السامع من قبل. وليس هؤلاء الغلمان بمملوكين للمؤمنين ولكنهم مخلوقون لخدمتهم خلقهم الله لأجلهم في الجنة قال تعالى)ويطوف عليهم ولدان مخلدون(وهذا على نحو قوله تعالى)بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بئس شديد(أي صنف من عبادنا غير معروفين للناس.

وشبهوا باللؤلؤ المكنون لحسن المرأى.

واللؤلؤ: الدر. والمكنون: المخزون لنفاسته على أربابه فلا يتحلى به إلا في المحافل والمواكب فلذلك يبقى على لمعانه وبياضه.

)وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[25] قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين[26] فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم[27] إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم[28](عطف على جملة)يتنازعون فيها كأسا(. والتقدير: وقد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي هم في تلك الأحوال قد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

ولما كان إلحاق ذرياتهم بهم مقتضيا مشاركتهم إياهم في النعيم كما تقدم آنفا عند قوله)ألحقنا بهم ذريتهم(كان هذا التساؤل جاريا بين الجميع من الأصول والذريات سائلين ومسؤولين.

وضمير)بعضهم(عائد إلى)المتقين(وعلى)ذرياتهم(.

وجملة)قالوا(بيان لجملة يتساءلون على حد قوله تعالى)فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى(ضمير)قالوا(عائد إلى البعضين، أي يقول كل فريق من المتسائلين للفريق الآخر هذه المقالة.

وإشفاق: توقع المكروه وهو ضد الرجاء، وهذا التوقع متفاوت عند المتسائلين بحسب تفاوت ما يوجبه من التقصير في أداء حق التكليف، أو من العصيان. ولذلك فهو أقوى في جانب ذريات المؤمنين الذين ألحقوا بأصولهم بدون استحقاق.

ولعله في جانب الذريات أظهر في معنى الشكر وأن أصولهم من أهلهم فهم يعلمون أن ذرياتهم كانوا مشفقين من عقاب الله تعالى أو بمنزلة من يعلم ذلك من مشاهدة سيرهم في الفاء بحقوق التكليف، وكذلك أصولهم بالنسبة إلى من يعلم حالهم من أصحابهم أو يسمع منهم إشفاقهم واستغفارهم. وحذف متعلق)مشفقين(لأنه دل عليه)ووقانا عذاب السموم(.

وعلى هذا الوجه يكون معنى)في(الظرفية.
ويتعلق)في أهلينا(ب)كنا(، أي حين كنا في ناسنا في الدنيا. ف)أهلنا(هنا في معنى آلنا.
ويجوز أن تكون المقالة صادرة من الذين آمنوا يخاطبون ذرياتهم الذين ألحقوا بهم ولم يكونوا يحسبون أنهم سيلحقون بهم: فالمعنى: إنا كنا قبل مشفقين عليكم، فتكون)في(للظرفية المجازية المفيدة للتعليل، أي مشفقين لأجلكم ومعنى)فمن الله علينا(من علينا بالعفوا عنكم فأذهب عنا الحزن ووقانا أن يعذبكم بالنار. فلما كان عذاب الذريات يحزن آباءهم جعلت وقاية الذريات منه بمنزلة وقاية آبائهم فقالوا:)ووقانا عذاب السموم(إغراقا في الشكر عنهم وعن ذرياتهم، أي فمن علينا جميعا ووقانا جميعا عذاب السموم.
والسموم بفتح السين، أصله اسم الريح التي تهب من جهة حارة جدا فتكون جافة شديدة الحرارة وهي معروفة في بلاد العرب تهلك من يتنشقها. وأطلق هنا على ريح جهنم على سبيل التقريب بالأمر المعروف، كما أطلقت على العنصر الناري في قوله تعالى)والجان خلقناه من قبل من نار السموم(في سورة الحجر وكل ذلك تقريب بالمألوف.
وجملة)إنا كنا من قبل ندعوه(تعليل لمنة الله عليهم وثناء على الله بأنه استجاب لهم، أي كنا من قبل اليوم ندعوه، أي في الدنيا.

وحذف متعلق)ندعوه(للتعميم، أي كنا نبتهل إليه في أمورنا، وسبب العموم داخل ابتداء وهو الدعاء لأنفسهم ولذرياتهم بالنجاة من النار وبنوال نعيم الجنة.
ولما كان هذا الكلام في دار الحقيقة لا يصدر إلا عن إلهام ومعرفة كان دليلا على أن دعاء الصالحين لأبنائهم وذرياتهم مرجو الإجابة، كما دل على إجابة دعاء الصالحين من الأبناء لآبائهم على ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث فذكر وولد صالح يدعوا له بخير .
وقوله)أنه هو البر الرحيم(قرأه نافع والكسائي وأبو جعفر بفتح همزة)أنه(على تقدير حرف الجر محذوفا حذفا مطردا مع)أن(وهو هنا اللام تعليلا ل)ندعوه(، وقرأه الجمهور بكسر همزة)إن(وموقع جملتها التعليل.
والبر: المحسن في رفق.
والرحيم: الشديد الرحمة وتقدم في تفسير سورة الفاتحة.
وضمير الفصل لإفادة الحصر وهو لقصر صفتي)البر(و) الرحيم(على الله تعالى وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد ببرور غيره ورحمة غيره بالنسبة إلى برور الله ورحمته باعتبار القوة

فإن غير الله لا يبلغ بالمبرة والرحمة مبلغ ما لله وباعتبار عموم المتعلق، وباعتبار الدوام لأن الله بر في الدنيا والآخرة، وغير الله بر في بعض أوقات الدنيا ولا يملك في الآخرة شيئا.
)فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن و لا مجنون[29](تفريع على ما تقدم كله من قوله)إن عذاب ربك لواقع(لأنه تضمن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على تكذيب المكذبين والافتراء عليه، وعقب بهذا لأن من الناس مؤمنين به متيقنين أن الله أرسله مع ما أعد لكلا الفريقين فكان ما تضمنه ذلك يقتضي أن في استمرار التذكير حكمة أرادها الله، وهي ارعواء بعض المكذبين عن تكذيبهم وازدياد المصدقين توغلا في إيمانهم، ففرع على ذلك أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدوام على التذكير.

فالأمر مستعمل في طلب الدوام مثل)يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله(. ولما كان أثر التذكير أهم بالنسبة إلى فريق المكذبين ليهتدي من شرح قلبه للإيمان روعي ما يزيد النبي صلى الله عليه وسلم ثباتا على التذكير من تبرئته مما يواجهونه من قولهم لهو: هو كاهن أو هو مجنون، فربط الله جأش رسوله صلى الله عليه وسلم وأعلمه بأن براءته من ذلك نعمة أنعم بها عليه ربه تعالى ففرع هذا الخبر على الأمر بالتذكير بقوله)فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون(والباء في)بنعمة ربك(للملابسة وهي في موضع الحال من ضمير)أنت(.
ونفي هذين الوصفين عنه في خطاب أمثاله ممن يستحق الوصف بصفات الكمال يدل على أن المراد من النفي غرض آخر وهو هنا إبطال نسبة من نسبه إلى ذلك كما في قوله تعالى)وما صاحبكم بمجنون(، ولذلك حسن تعقيبه بقوله)أم يقولون شاعر(مصرحا فيه ببعض أقوالهم، فعلم أن المنفي عنه فيما قبله مقالة من مقالهم.
وقد اشتملت هاته الكلمة الطيبة على خصائص تناسب تعظيم من وجهت إليه وهي أنها صيغت في نظم الجملة الاسمية فقيل فيها)ما أنت بكاهن(دون : فلست بكاهن، لتدل على ثبات مضمون هذا الخبر.
وقدم فيها المسند إليه مع أن مقتضى الظاهر أن يقدم المسند وهو)كاهن(أو)مجنون(لأن المقام يقتضي الاهتمام بالمسند ولكن الاهتمام بالضمير المسند إليه كان أرجح هنا لما فيه من استحضار معاده المشعر بأنه شيء عظيم وأفاد مع ذلك أن المقصود أنه

متصف بالخبر لا نفس الإخبار عنه بالخبر كقولنا: الرسول يأكل الطعام ويتزوج النساء. وأفاد أيضا قصرا إضافيا بقرينه المقام لقلب ما يقولونه أو يعتقدونه من قولهم: هو كاهن أو مجنون، على طريقة قوله تعالى)وما أنت علينا بعزيز(.

وقرن الخبر المنفي بالباء الزائدة لتحقيق النفي فحصل في الكلام تقويتان، وجيء بالحال قبل الخبر، أو بالجملة المعترضة بين المبتدأ والخبر، لتعجيل المسرة وإظهار أن الله أنعم عليه بالبراءة من هذين الوصفين.

وعدل عن استحضار الجلالة بالاسم العلم إلى تعريفة بالإضافة وبوصفه الرب لإفادة لطفه تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم لأنه ربه فهو يربه ويدبر نفعه، ولتفيد الإضافة تشريف المضاف إليه.

وقوله تعالى)فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون(رد على مقالة شيبة بن ربيعة قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كاهن، وعلى عقبة بن أبي معيط إذ قال: هو مجنون، ويدل لكونه ردا على مقالة سبقت أنه أتبعه بقوله)أم يقولون شاعر(ما سيكون وما خفي مما هو كائن.

والكاهن: الذي ينتحل معرفة ما سيحدث من الأمور وما خفي مما هو كائن ويخبر به بكلام ذي أسجاع قصيرة. وكان أصل الكلمة موضوعة لهذا المعنى غير مشتقة، ونظيرها في العبرية الكوهين وهو حافظ الشريعة والمفتي بها، وهو من بني لاوي ، وتقدم ذكر الكهانة عند قوله تعالى)وما تنزلت به الشياطين(في سورة الشعراء.

وقد اكتفي في إبطال كونه كاهنا أو مجنونا بمجرد النفي دون استدلال عليه، لأن مجرد التأمل في حال النبي صلى الله عليه وسلم كاف في تحقق انتفاء ذينك الوصفين عنه فلا يحتاج في إبطال اتصافه بهما إلى أكثر من الإخبار بنفيهما لأن دليله المشاهدة.

)أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون[30](إن كانت) أم(مجردة عن عمل العطف فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، وإلا فهي عطف على جملة)فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون(.

وعن الخليل كل ما في سورة الطور من)أم(فاستفهام وليس بعطف، يعني أن المعنى على الاستفهام لا على عطف المفردات. وهذا ضابط ظاهر. ومراده: أن الاستفهام مقدر بعد)أم(وهي منقطعة وهي للإضراب عن مقالتهم المردودة بقوله)فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون(للانتقال إلى مقالة أخرى وهي قولهم)هو شاعر نتربص به ريب المنون(. وعدل عن الإتيان بحرف)بل(مع أنه أشهر في الإضراب الانتقالي، لقصد تضمن)أم(للاستفهام. والمعنى: بل أيقولون شاعر الخ. والاستفهام المقرر إنكاري.

ومناسبة هذا الانتقال عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالدوام على التذكير يشير إلى مقالاتهم التي يردون بها دعوته فلما أشير إلى بعضها بقوله تعالى)فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون(انتقل إلى إبطال صفة أخرى يثلثون بها الصفتين المذكورتين قبلها وهي صفة شاعر.

روى الطبري عن قتادة قال قائلون من الناس: تربصوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الموت يكفيكموه كما كفاكم شاعر بني فلان وشاعر بني فلان، ولم يعينوا اسم الشاعر ولا أنه كان يهجو كفار قريش.

وعن الضحاك ومجاهد: أن قريشا اجتمعوا في دار الندوة فكثرت آرائهم في محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا بنو عبد الدار: هو شاعر تربصوا به ريب المنون، فسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت هذه الآية فحكت مقالتهم كما قالوها، أي فليس في الكلام خصوص ارتباط بين دعوى أنه شاعر، وبين تربص الموت به لأن ريب المنون يصيب الشاعر والكاهن والمجنون وجاء)يقولون(مضارعا للدلالة على تجدد ذلك القول منهم. والتربص مبالغة في: الربص، وهو الانتظار.

والريب هنا: الحدثان، وفسر بصرف الدهر وعن ابن عباس: ريب في القرآن شك إلا مكانا واحدا في الطور)ريب المنون(.

والباء في)به(يجوز أن تكون للسبب، أي بسببه، أي نتربص لأجله فتكون الباء متعلقة ب)نتربص(ويجوز أن تكون للملابسة وتتعلق ب)ريب المنون(حالا منه مقدما على صاحبها، أي حلول ريب المنون به.

والمنون: من أسماء الموت ومن أسماء الدهر، ويذكر. وقد فسر بكل المعنيين، فإذا فسر بالموت فإضافة)ريب(إليه بيانية؛ أي الحدثان الذي هو الموت وإذ فسر النون بالدهر فالإضافة على أصلها، أي أحداث الدهر مثل موت أو خروج من البلد أو الرجوع إلى دعوته، فريب المنون جنس وقد ذكروا في مقالتهم قولهم: فسيهلك، فاحتملت أن يكونوا أرادوه بيان ريب الموت أو إن أرادوه مثالا لريب الدهر، وكلا الاحتمالين جار في الآية لأنها حكت مقالتهم.

وقد ورد)ريب المنون(في كلام العرب بالمعنيين؛ فمن وروده في معنى الموت قول أبي ذؤيب:

أمن المنون وريبها تتـوجـع والدهر ليس بمتعب من يجزع ومن وروده بمعنى حدثان الدهر قول الأشعى:

أإن رأت رجلا أعشى أضربه ريب المنون ودهر متبل خبل أراد أضر بذاته حدثان الدهر، ولم يرد إصابة الموت كما أراد أبو ذؤيب.

ولما كان انتفاء كونه شاعرا أمرا واضحا يكفي فيه مجرد التأمل لم يتصد القرآن للاستدلال على إبطاله وإنما اشتملت مقالتهم على أنهم يتربصون أن يحل به ما حل بالشعراء الذين هم من جملة الناس.

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم عن مقالتهم هذه بأن يقول:)تربصوا فإني معكم من المتربصين(، وهو جواب منتصف لأن تربص حلول حوادث الدهر بأحد الجانبين أو حلول المنية مشترك الإلزام لا يدري أحدنا ماذا يحل بالآخرة.

)قل تربصوا فإني معكم من المتربصين[31](وردت جملة)قل تربصوا(مفصولة بدون عطف لأنها وقعت في مقام المحاورة لسبقها بجملة)يقولون شاعر(الخ، فإن أمر أحد بأن يقول بمنزلة قوله فأمر بقوله، ومثله قوله تعالى)فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة(.

والأمر في)تربصوا(مستعمل في التسوية، أي سواء عندي تربصهم بي وعدمه. وفرع عليه)فإني معكم من المتربصين(أي فإني متربص بكم مثل ما تتربصون بي إذا لا ندري أينا يصيبه ريب المنون قبل.

وتأكيد الخبر ب)أن(في قوله)فإني معكم من المتربصين(لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر أنه يتربص بهم كما يتربصون به لأنهم لغرورهم اقتصروا على أنهم يتربصون به ليروا هلاكه، فهذا من تنزيل غير المنكر منزلة المنكر.

والمعية في قوله)معكم(ظاهرها أنها للمشاركة في وصف التربص.

ولما كان قوله)من المتربصين(مقدرا معه)بكم(لمقابلة قولهم)نتربص به ريب المنون(كان في الكلام توجيه بأنه يبقى معهم يتربص هلاكهم حين تبدو بوادره، إشارة إلى أن وقعة بدر إذ أصابهم من الحدثان القتل والأسر، فتكون الآية مشيرة إلى صريح قوله

تعالى في سورة براءة)قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون(. وإنما قال هنا)من المتربصين(ليشير إلى أن النبي يتربص بهم ريب المنون في جملة المتربصين من المؤمنين، وذلك ما في آية سورة براءة على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

وقد صيغ نظم الكلام في هذه الآية على ما يناسب الانتقال من غرض إلى غرض وذلك بما نهي به من شبه التذييل بقوله)قل تربصوا فإني معكم من المتربصين(إذ تمت به المفاصلة.

)أما تأمرهم أحلامهم بهذا(إضراب انتقال دعا إليه ما في الاستفهام الإنكاري المقدر بعد)أم(من معنى التعجب من حالهم كيف يقولون مثل ذلك القول السابق ويستقر ذلك في إدراكهم وهم يدعون أنهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس فهم لا يجهلون أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بحال الكهان ولا المجانين ولا الشعراء وقد أبى عليهم الوليد بن المغيرة أن يقول مثل ذلك في قصة معروفة.

قال الزمخشري. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى والمعنى:أم تأمرهم أحلامهم المزعومة بهذا القول.

والإشارة في قوله)بهذا(إلى المذكور من القول المعرض به في قوله)فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون(، والمصرح به في قوله)أم يقولون شاعر نتربص به المنون(، وهذا كما يقول من يلوم عاقلا على فعل فعله ليس من شأنه أن يجهل ما فيه من فساد: أعاقل أنت ؟ أو: هذا لا يفعله عاقل بنفسه، ومنه ما حكى الله عن قوم شعيب من قولهم له)إنك لأنت الحليم الرشيد(.

والحلم:العقل، قال الراغب: المانع من هيجان الغضب. وفي القاموس هو الأناة. وفي معارج النور:والحلم ملكة غريزية تورث لصاحبها المعاملة بلطف ولين لمن أساء أو أزعج اعتدال الطبيعة.

ومعنى إنكار أن تأمرهم أحلامهم بهذا أن الأحلام الراجحة لا تأمر بمثله، وفيه تعريض بأنهم أضاعوا أحلامهم حين قالوا ذلك لأن الأحلام لا تأمر بمثله فهم كمن لا أحلام لهم وهذا تأويل ما روي أن الكافر لا عقل له. قالوا وإنما للكافر الذهن والذهن يقبل العلم جملة، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهي.

والأمر في)تأمرهم(مستعار للباعث أي تبعثهم أحلامهم على هذا القول.

)أم هم قوم طاغون[32](إضراب انتقالي أيضا متصل بالذي قبله انتقل به إلى استفهام عن اتصافهم بالطغيان. والاستفهام المقدر

مستعمل: إما في التشكيك باعثا على التأمل في حالهم فيؤمن بأنهم طاغون، وإما مستعمل في التقرير لكل سامع إذ يجدهم طاغين.
وإقحام كلمة)قوم(يمهد لكون الطغيان من مقومات حقيقة القومية فيهم، كما قدمناه في قوله تعالى)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة، أي تأصل فيهم الطغيان وخالط نفوسهم فدفعهم إلى أمثال تلك الأقوال.
)أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون[33] فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين[34](انتقال متصل بقوله) أم يقولون شاعر(الخ. وهذا حكاية لإنكارهم أن يكون القرآن وحيا من الله، فزعموا أنه تقوله النبي صلى الله عليه وسلم على الله، فالاستفهام إنكار لقولهم وهم قد أكثروا من الطعن وتمالؤوا عليه ولذلك جيء في حكايته عنهم بصيغة)يقولون(المفيدة للتجدد.
والتقول: نسبة كلام إلى أحد لم يقله، ويتعدى إلى الكلام بنفسه ويتعدى إلى من ينسب إليه بحرف)على(، قال تعالى)ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين(الآية. وضمير النصب في) تقوله(عائد إلى القرآن المفهوم من المقام.
وابتدىء الرد عليهم بقوله)بل لا يؤمنون(لتعجيل تكذيبهم قبل الإدلاء بالحجة عليهم وليكون ورود الاستدلال مفرعا على قوله)لا يؤمنون(بمنزلة دليل ثان. ومعنى)لا يؤمنون(: أن دلائل تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن تقول القرآن بينة لديهم ولكن الزاعمين ذلك يأبون الإيمان فهم يبادرون إلى الطعن دون نظر ويلقون المعاذير سترا لمكابرتهم.

ولما كانت مقالتهم هذه طعنا في القرآن وهو المعجزة القائمة على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وكانت دعواهم أنه تقول على الله من تلقاء نفسه قد تروج على الدهماء تصدى القرآن لبيان إبطالها بأن تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن بقوله) فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين(أي صادقين في أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقوله من تلقاء نفسه، أي فعجزهم عن أن يأتوا بمثله دليل على أنهم كاذبون.
ووجه الملازمة أن محمدا صلى الله عليه وسلم أحد العرب وهو ينطق بلسانهم. فالمساواة بينه وبينهم في المقدرة على نظم الكلام ثابتة، فلو كان القرآن قد قاله محمد صلى الله عليه وسلم لكان بعض خاصة العرب البلغاء قادرا على تأليف مثله، فلما تحداهم الله

بأن يأتوا بمثل القرآن وفيهم بلغائهم وشعراؤهم وكلمتهم وكلهم واحد في الكفر كان عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن دالا على عجز البشر عن الإتيان بالقرآن ولذلك قال تعالى في سورة هود)أم يقولون أفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أنزل بعلم الله(.

كما قال تعالى) فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون(.

والإتيان بالشي: إحضاره من مكان آخر. واختير هذا الفعل دون نحو: فليقولوا مثله ونحوه، لقصد الأعذار لهم بأن يقتنع منهم بجلب كلام مثله ولو من أحد غيرهم، وقد تقدم عند قوله تعالى في سورة البقرة) فأتوا بسورة من مثله(أنه يحتمل معنيين، هما: فأتوا بسورة من مثل القرآن، أو فأتوا من مثل الرسول صلى الله عليه وسلم، أي من أحد من الناس.

والحديث: الإخبار بالحوادث وأصل الحوادث أنها الواقعات الحديثة، ثم توسع فأطلقت على الواقعات، ولو كانت قديمة كقولهم: حوادث سنة كذا، وتبع ذلك إطلاق الحديث على الخبر مطلقا، وتوسع فيه فأطلق على الكلام ولو لم يكن إخبارا، ومنه إطلاق الحديث على كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

فيجوز أن يكون الحديث هنا قد أطلق على الكلم مجازا بعلاقة الإطلاق، أي فليأتوا بكلام مثله، أي في غرض من الأغراض التي تشتمل عليها القرآن لا خصوص الأخبار. ويجوز أن يكون الحديث هنا أطلق على الأخبار، أي فليأتوا بأخبار مثل قصص القرآن فيكون استنزالا لهم فإن التكلم بالأخبار أسهل على المتكلم من ابتكار الأغراض التي يتكلم فيها، فإنهم كانوا يقولون أن القرآن)أساطير الأولين(، أي أخبار عن الأمم الماضين فقيل لهم: فليأتوا بأخبار مثل أخباره لأن الإتيان بمثل ما في القرآن من المعارف والشرائع والدلائل لا قبل لعقولهم به، وقصاراهم أن يفهموا ذلك إذا سمعوه.

ومعنى المثلية في قوله)مثله(المثلية في فصاحته وبلاغته، وهي خصوصيات يدركونها إذا سمعوها ولا تحيط قرائحهم بإيداعها في كلامهم. وقد بينا أصول الإعجاز في المقدمة العاشرة من العاشرة من مقدمات هذا التفسير.

ولام الأمر في)فليأتوا(مستعملة في أمر التعجيز كقوله حكاية عن قول إبراهيم إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.

وقوله)إن كانوا صادقين(أي في زعمهم أنه تقوله، أي فإن لم يأتوا بكلام مثله فهم كاذبون. وهذا إلهاب لعزيمتهم ليأتوا بكلام مثل

القرآن ليكون عدم إتيانهم بمثله حجة على كذبهم وقد أشعر نظم الكلام في قوله)فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين(الواقع موقعا شبيها بالتذليل والمختوم بكلمة الفاصلة، أنه نهاية غرض وأن ما بعده شروع في غرض آخر كما تقدم في نظم قوله)قل تربصوا فإني معكم من المتربصين(.

)أم خلقوا من غير شيء(إضراب انتقالي إلى إبطال ضرب آخر من شبهتهم في إنكارهم البعث، وقد عملت في أول السورة أن من أغراضها إثبات البعث والجزاء على أن ما جاء بعده من وصف يوم الجزاء وحال أهله قد اقتضته مناسبات نشأت عنها تلك التفاصيل، فإذ وفي حق ما اقتضته تلك المنسبات ثني عنان الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث وإبطال شبهتهم التي تعللوا بها من نحو قولهم)أإذا كنا عظام ورفاتنا إنا لمبعوثون خلقا جديدا(.

صفحة : 4176

فكان قوله تعالى)أم خلقوا من غير شيء(الآيات أدلة على أن ما خلقه الله من بدء الخلق أعظم من إعادة خلق الإنسان. وهذا متصل بقوله آنفا)إن عذاب ربك لواقع(لأن شبهتهم المقصود ردها بقوله)إن عذاب ربك لواقع(هي قولهم)أإذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون(، ونحو ذلك.

فحرف)من(في قوله)من غير شيء(يجوز أن يكون للابتداء، فيكون معنى الاستفهام المقدر بعد)أم(تقريريا. والمعنى: أيقرون أنهم خلقوا بعد أن كانوا عدما فكلما خلقوا من عدم في نشأتهم الأولى ينشأون من عدم في النشأة الآخرة، وذلك إثبات لإمكان البعث فيكون في معنى قوله تعالى)فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر(وقوله)كما بدأنا أول خلق نعيده(ونحو ذلك من الآيات.

ومعنى)شيء(على هذا الوجه: الموجود فغير شيء: المعدوم، والمعنى: اخلقوا من عدم. ويجوز أن تكون)من(للتعليل فيكون الاستفهام المقدر بعد)أم(إنكاريا، ويكون اسم)شيء(صادقا على ما يصلح لمعنى التعليل المستفاد من حرف)من(التعليلية، والمعنى: إنكار أن يكون خلقهم بغير حكمة، وهذا إثبات أن البعث واقع لأجل الجزاء على الأعمال، بأن الجزاء مقتضى الحكمة التي لا يخلوا عنها فعل أحكم الحكماء، فيكون في معنى قوله تعالى)أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(وقوله)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأن الساعة لآتية(.

ولحرف)من(في هذا الكلام الوقع البديع إذ كانت على احتمال معنييها دليلا على إمكان البعث وعلى وقوعه وعلى وجوب وقوعه وجوبا تقتضيه الحكمة الإلهية العليا. ولعل العدول عن صوغ الكلام بالصيغة الغالبة في الاستفهام التقريري، أعني صيغة النفي بأن يقال: أما خلقوا من غير شيء؛ والعدول عن تعيين ما أضيف إليه) غير(إلى الإتيان بلفظ مبهم وهو لفظ شيء، روعي فيه الصلاحية لاحتمال المعنيين وذلك من منتهى البلاغة.

وإذا كان فرض أنهم خلقوا من غير شيء واضح البطلان لم يحتج إلى استدلال على إبطاله بقوله:)أم هم الخالقون[35] أم خلقوا السماوات والأرض(وهو إضراب انتقال أيضا، والاستفهام المقدر بعد)أم(إنكاري، أي ما هم الخالقون وإذ كانوا لم يدعوا ذلك فالإنكار مرتب على تنزيلهم منزلة من يزعمون أنهم خالقون.

وصيغت الجملة في صيغة الحصر الذي طريقه تعريف الجزأين قصرا إضافيا للرد عليهم بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم الخالقون لا الله، لأنهم عدوا من المحال ما هو خارج عن قدرتهم، فجعلوه خارجا عن قدرة اله، فالتقدير: أم هم الخالقون لا نحن. والمعنى: نحن الخالقون لا هم.

وحذف مفعول)الخالقون(لقصد العموم، أي الخالقون للمخلوقات وعلى هذا جرى الطبري وقدره المفسرون عدا الطبري: أم هم الخالقون أنفسهم كأنهم جعلوا ضمير)أم خلقوا من غير شيء(دليل على أن المحذوف اسم معاد ذلك الضمير ولا افتراء في انتفاء أن يكونوا خالقين، فلذلك لم يتصد إلى الاستدلال على هذا الانتفاء.

وجملة)أم خلقوا السماوات والأرض(يظهر لي أنها بدل من جملة)أم هم الخالقون(بدل مفصل من مجمل إن كان مفعول)الخالقون(المحذوف مرادا به العموم وكان المراد بالسماء والأرض ذاتيهما مع من فيهما أو بدل بعض من كل أن المراد ذاتي السماء والأرض، فيكون تخصيص السماوات والأرض بالذكر لعظم خلقهما.

وإعادة حرف)أم(للتأكيد كما يعاد عامل المبدل منه في البدل، والمعنى: أم هم الخالقون للسماوات والأرض.

والاستفهام إنكاري والكلام كناية عن إثبات أن الله خالق السماوات والأرض.

والمعنى: أن الذي خلق السماوات والأرض لا يعجزه إعادة الأجساد بعد الموت والفناء. وهذا معنى قوله تعالى)أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم(أي أن يخلق أمثال أجسادهم بعد انعدامهم.

)بل لا يوقنون[36](إضراب إبطال على مضمون الجملتين اللتين قبله، أي لم يخلقوا من غير شيء ولا خلقوا السماوات والأرض،

فإن ذلك بين لهم فما إنكارهم البعث إلا ناشئ عن عدم إيقانهم في مظان الإيقان وهي الدلائل الدالة على إمكان البعث وأنه ليس أغرب من إيجاد المخلوقات العظيمة، فما كان إنكارهم إياه إلا عن مكابرة وتصميم على كفر.

والمعنى: أن الأمر لا هذا ولا ذاك ولكنهم لا يوقنون بالبعث فهم ينكرونه بدون حجة ولا شبهة بل رانت المكابرة على قلوبهم.
)أم عندهم خزائن ربك(انتقال بالعودة إلى رد جحودهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك غير أسلوب الأخبار فيه إلى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم وكان الأصل الذي ركزوا عليه جحودهم توهم أن الله لو أرسل رسولا من البشر لكان الأحق بالرسالة رجلا عظيما من عظماء قومهم كما حكى الله عنهم)أأنزل عليه الذكر من بيننا(وقال تعالى)وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم(يعنون قرية مكة وقرية الطائف.
والمعنى: إبطال أن يكون لهم تصرف في شؤون الربوبية فيجعلوا الأمر على مشيئتهم كالمالك في ملكه والمدبر فيما وكل عليه، فالاستفهام إنكاري بتنزيلهم في إبطال النبوة عمن لا يرضونه منزلة من عندهم خزائن الله يخلعون الخلع منها على من يشاءون ويمنعون من يشاءون.
والخزائن: جمع خزينة وهي البيت، أو الصندوق الذي تخزن فيه الأقوات، أو المال وما هو نفيس عند خازنه، وتقدم عند قوله تعالى)قال اجعلني على خزائن الأرض(. وهي هنا مستعارة لما في علم الله وإرادته من إعطاء الغير للمخلوقات، ومنها اصطفاء من هيأه من الناس لتبليغ الرسالة عنه إلى البشر، وقد تقدم في سورة الأنعام قوله)قل لا أقول لكم عندي خزائن الله(قال تعالى)وإذا جاءتك آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته(. وقال)وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون(.
وقد سلك معهم هنا مسلك الإيجاز في الاستدلال بإحالتهم على مجمل أجمله قوله)أم عندهم خزائن ربك(، لأن المقام مقام غضب عليهم لجرأتهم على الرسول صلى الله عليه وسلم في نفي الرسالة عنه بوقاحة من قولهم: كاهن، ومجنون، وشاعر. الخ بخلاف آية الأنعام فإنها ردت عليهم تعريضهم أنفسهم لنوال الرسالة عن الله.

فقوله تعالى هنا)أم عندهم خزائن ربك(هو كقوله في سورة ص~)أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب(وقوله في سورة الزخرف)أهم يقسمون رحمة ربك(.

وكلمة)عند(تستعمل كثيرا في معنى الملك والاختصاص كقوله تعالى)وعنده مفاتح الغيب(، فالمعنى: أيملكون خزائن ربك، أي الخزائن التي يملكها ربك كما اقتضته إضافة)خزائن(إلى)ربك(على نحو)أعنده علم الغيب فهو يرى(. وقد عبر عن هذا باللفظ الحقيقي في قوله تعالى)قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذن لأمسكتم خشية الإنفاق(.

)أم هم المصيطرون[37](إنكار لأن يكون لهم تصرف في عطاء الله تعالى ولو دون تصرف المالك مثل تصرف الوكيل والخازن وهو ما عبر عنه بالمصيطرون.

والمصيطر: يقال بالصاد والسين في أوله: اسم فاعل من صيطر بالصاد والسين، إذا حفظ وتسلط، وهو فعل مشتق من سيطر إذا قطع، ومنه الساطور، وهو حديد يقطع به اللحم والعظم. وصيغ منه وزن فعيل للإلحاق بالرباعي كقولهم: بيقر، بمعنى هلك أو تحضر، وبيطر بمعنى شق، وهيمن، ولا خامس لها في الأفعال. وإبدال السين صادا لغة فيه مثل الصراط والسراط.

وقرأ الجمهور)المصيطرون(بصاد. وقرأه قنبل عن ابن كثير وهشام عن ابن عامر، وحفص في روايته بالسين في أوله.

وفي معنى الآية قوله تعالى)أهم يقسمون رحمة ربك(، وليس في الآية الاستدلال لهذا النفي في قوله)أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون(لأن وضوحه كنار على علم. وقد تقدم في صدر تفسير هذه السورة حديث جبير بن مطعم لما سمع هذه الآية وكانت سبب إسلامه.

)أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين[38] (لما نفي أن يكون لهم تصرف قوي أو ضعيف في مواهب الله تعالى على عباده أعقبه بنفي أن يكون لهم اطلاع على ما قدره الله لعباده اطلاعا يخولهم إنكار أن يرسل الله بشرا أو يوحي إليه وذلك لإبطال قولهم)تقوله(. ومثل ذلك قولهم)نتربص به ريب المنون(المقتضي أنهم واثقون بأنهم يشهدون هلاكه. وحذف مفعول)يستمعون(ليعم كلاما من شأنه أن يسمع من الأخبار المغيبة بالمستقبل وغيره الواقع وغيره.

وسلك في نفي علمهم بالغيب طريق التهكم بهم بإنكار أن يكون لهم سلم يرتقون به إلى السماء ليستمعوا ما يجري في العالم العلوي من أمر تتلقاه الملائكة أو أهل الملأ الأعلى بعضهم مع بعض فيسترقوا بعض العلم مما هو محجوب عن الناس إذ من المعلوم أنه لا سلم يصل أهل الأرض بالسماء وهم يعلمون ذلك ويعلمه كل أحد.

وعلم من اسم السلم أنه آلة الصعود، وعلم من ذكر السماوات في الآية قبلها أن المراد سلم يصعدون به إلى السماء، فلذلك وصف ب)يستمعون فيه(أي يرتقون به إلى السماء فيستمعون وهم فيه، أي في درجاته الكلام الذي يجري في السماء. و)فيه(ظرف مستقر حال من ضمير)يستمعون(، أي وهم كائنون فيه لا يفارقونه إذ لا يفرض أنهم ينزلون منه إلى ساحات السماء.

وإسناد الاستماع إلى ضمير جماعتهم على اعتبار أن المستمع سفير عنهم على عادة استعمال الكلام العربي من إسناد فعل بعض القبيلة إلى جميعها إذا لم تصله عن عمله في قولهم: قتلت بنو أسد حجرا، ألا ترى أنه قال بعد هذا)فليأت مستمعهم(، أي من استمع منهم لأجلهم، أي أرسلوه للسمع. ومثل هذا الإسناد شائع في القرآن وتقدم عند قوله تعالى)وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب(وما بعده من الآيات في سورة البقرة.

و)في(للظرفية وهي ظرفية مجازية اشتهرت حتى ساوت الحقيقة لأن الراقي في السلم يكون كله عليه، فالسلم له كالظرف للمظروف، وإذ كان في الحقيقة استعلاء ثم شاع في الكلام فقالوا: صعد في السلم، ولم يقولوا: صعد على السلم ولذاك اعتبرت ظرفية حقيقية، أي حقيقة عرفية بخلاف الظرفية في قوله تعالى) ولأصلبنكم في جذوع النخل(لأنه لم يشتهر أن يقال: صلبه في جذع، بل يقال: صلبه على جذع، فلذلك كانت استعارة، فلا منافاة بين قول من زعم أن الظرفية مجازية وقول من زعمها حقيقة.

والفاء في)فليأت مستمعهم بسلطان مبين(لتفريع هذا الأمر التعجيزي على النفي المستفاد من استفهام الإنكار. فالمعنى: فما يأتي مستمع منهم بحجة تدل على صدق دعواهم. فلام الأمر مستعمل في إرادة التعجيز بقرينة انتفاء أصل الاستماع بطريق استفهام الإنكار.

والسلطان: الحجة، أي حجة على صدقهم في نفي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أو في كونه على وشك الهلاك.

والمراد بالسلطان ما يدل على إطلاعهم على الغيب من أمارات كأن يقولوا: آية صدقنا فيما ندعيه وسمعناه من حديث الملأ الأعلى،

أننا سمعنا أنه يقع غدا حادث كذا وكذا مثلا، مما لا قبل للناس بعلمه، فيقع كما قالوا ويتوسم منه صدقهم فيما عداه. وهذا معنى وصف السلطان المبين، أي المظهر لصحة الدعوى.

وهذا تحد لهم بكذبهم فلذلك اكتفى بأن يأتي بعضهم بحجة دون تكليف جميعهم بذلك على نحو قوله)فأتوا بسورة مثله(أي فليأت من يتعهد منهم بالاستماع بحجة. وهذا بمنزلة التذييل للكلام على نحو ما تقدم في قوله)قل تربصوا فإني معكم من المتربصين(وقوله) فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين(.

)أم له البنات ولكم البنون[39](لما جرى نفي أن تكون لهم مطالعة الغيب من الملأ الأعلى إبطالا لمقالاتهم في شؤون الربوبية أعقب ذلك بإبطال نسبتهم لله بنات استقصاء لإبطال أوهامهم في المغيبات من العالم العلوي، فهذه الجملة معترضة بين جملة)أم لهم سلم(وجملة)أم تسألهم أجرا(، ويقدر الاستفهام إنكارا لأن يكون لله البنات.

ودليل الإنكار لنفس الأمر استحالة الولد على الله تعالى ولكن لما كانت عقول أكثر المخاطبين بهذا الرد غير مستعدة لإدراك دليل الاستحالة، وكان اعتقادهم البنات لله منكرا، تصدي لدليل الإبطال وسلك في إبطاله دليل إقناعي يتفطنون به إلى خطل رأيهم وهو قوله)ولكم البنون(.

فجملة)ولكم البنون(في موضع الحال من ضمير الغائب، أي كيف يكون لله البنات في حال أن لكم بنين وهم يعلمون أن صنف الذكور أشرف من صنف الإناث على الجملة كما أشار إليه قوله تعالى)ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى(.

فهذا مبالغة في تشنيع قولهم فليس المراد أنهم لو نسبوا لله البنين لكان قولهم مقبولة لأنهم لم يقولوا ذلك فلا طائل تحت إبطاله.

وتغير أسلوب الغيبة المتبع ابتداء من قوله)أم يقولون شاعر(إلى أسلوب الخطاب التفات مكافحة لهم بالرد بجملة الحال.

صفحة : 4179

وتقديم)لكم(على)البنون(لإفادة الاختصاص، أي لكم البنون دونه فهم لهم بنون وبنات، وزعموا أن الله ليس له إلا البنات.

وأما تقديم المجرور على المبتدأ في قوله)أم له البنات(فللاهتمام باسم الجلالة وقد أنهي الكلام بالفاصلة لأنه غرض مستقل.

)أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون[40](هذا مرتبط بقوله) أم يقولون تقوله(وقوله)أم عندهم خزائن ربك(إذ كل ذلك إبطالا للأسباب التي تحملهم على زعم انتفاء النبوة عن محمد صلى الله عليه وسلم فبعد أن أبطل وسائل اكتساب العلم بما زعموه عاد إلى إبطال الدواعي التي تحملهم على الإعراض عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك جاء هذا الكلام على أسلوب الكلام الذي اتصل هو به، وهو أسلوب خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال هنا)أم تسألهم أجرا(وقال هنالك)أم عندهم خزائن ربك(.

والاستفهام المقدر بعد)أم(مستعمل في التهكم بهم بتنزيلهم منزلة من يتوجس خيفة من أن يسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم أجرا على إرشادهم.

والتهكم استعارة مبنية على التشبيه، والمقصود ما في التهكم من معنى أن ما نشأ عنه التهكم أمر لا ينبغي أن يخطر بالبال.

وجيء بالمضارع في قوله)تسألهم(لإفادة التجدد، أي تسألهم سؤالا متكررا لأن الدعوة متكررة، وقد شبهت بسؤال سائل.

وتفريع)فهم من مغرم مثقلون(لما فيه من بيان الملازمة بين سؤال الأجر وبين تجهم من يسأل والتحرج منه.

وقد فرع قوله)فهم من مغرم مثقلون(على الفعل المستفهم عنه لا على الاستفهام، أي ما سألتهم أجرا فيثقل غرمه عليهم، لأن الاستفهام في معنى النفي، والإثقال يتفرع على سؤال الأجر المفروض لأن مجرد السؤال محرج للمسؤول لأنه بين الإعطاء فهو ثقيل وبين الرد وهو صعب.

والمغرم بفتح الميم مصدر ميمي، وهو الغرم. وهو ما يفرض على أحد من عوض يدفعه.

والمثقل: أصله المحمل بشيء ثقيل، وهو هنا مستعار لمن يطالب بما يعسر عليه أداؤه، شبه طلبه أداء ما يعسر عليه بحمل الشيء الثقيل على من لا يسهل عليه حمله.

و)من(للتعليل، أي مثقلون من أجل مغرم حمد عليهم.

والمعنى: أنك ما كلفتهم شيئا يعطونه إياك فيكون ذلك سببا لإعراضهم عنك تخلصا من أداء ما يطلب منهم، أي انتفى عذر إعراضهم عن دعوتك.

)أم عندهم الغيب فهم يكتبون[41] هذا نظير الإضراب والاستفهام في قوله)أم عندهم خزائن ربك(، أي بل أعندهم الغيب فهم يكتبون ما يجيدونه فيه ويروونه للناس، أما عندهم الغيب حتى يكتبوه، فبعد أن رد عليهم إنكارهم الإسلام بأنهم كالذين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم أجرا على تبليغها أعقبه برد آخر بأنهم

كالذين أطلعوا على أن عند الله ما يخالف ما أدعى الرسول صلى الله عليه وسلم إبلاغه عن الله فهم يكتبون ما اطلعوا عليه فيجدونه مخالفا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.
قال قتادة: لما قالوا)نتربص به ريب المنون(قال الله تعالى)أم عندهم الغيب(أي حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يؤول إليه أمره فجعله راجعا إلى قوله)أم يقولون شاعر نتربص ريب المنون(. والوجه ما سمعته آنفا.
والغيب هنا مصدر بمعنى الفاعل، أي ما غاب عن علم الناس.
والتعريف في)الغيب(تعريف الجنس وكلمة)عند(تؤذن بمعنى الاختصاص والاستئثار، أي استأثروا بمعرفة الغيب فعلموا ما لعلم به غيرهم.
والكتابة في قوله)فهم يكتبون(يجوز أنها مستعارة للجزم الذي لا يقبل التخلف كقوله)كتب ربكم على نفسه الرحمة(لأن شأن الشيء الذي يراد تحقيقه والدوام عليه أن يكتب ويسجل، كما قال الحارث بن حلزة:
وهل ينقض ما في المهارق الأهواء فيكون الخبر في قوله)فهم يكتبون(مستعملا في معناه من إفادة النسبة الخبرية.
ويجوز أن تكون الكتابة على حقيقتها، أي فهم يسجلون ما اطلعوا عليه من الغيب ليبقى معلوما لمن يطلع عليه ويكون الخبر من قوله)فهم يكتبون(مستعملا في معنى الفرض والتقدير تبعا لفرض قوله)عندهم الغيب(، ويكون من باب قوله تعالى)أعنده علم الغيب فهو يرى(وقوله)وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب(.
وحاصل المعنى: أنهم لا قبل لهم بإنكار ما جحدوه ولا بإثبات ما أثبتوه.

)أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون[42](انتقال من نقض أقوالهم وإبطال مزاعمهم إلى إبطال نواياهم وعزائمهم من التبييت للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدعوة الإسلام من الإضرار والإخفاق وفي هذا كشف لسرائرهم وتنبيه للمؤمنين للحذر من كيدهم.
وحذف متعلق)كيدا(ليعم كل ما يستطيعون أن يكيدوه فكانت هذه الجملة بمنزلة التتميم لنقض غزلهم والتذييل بما يعم كل عزم يجري في الأغراض التي جرت فيها مقالاتهم.

والكيد والمكر متقاربان وكلاهما إظهار إخفاء الضر بوجه الإخفاء تغريرا بالمقصود له الضر.
وعدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله)فالذين كفروا هم المكيدون(وكان مقتضى الظاهر أن يقال فهم المكيدون لما تؤذن به الصلة من وجه حلول الكيد بهم لأنهم كفروا بالله، فالله يدافع عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين وعن دينه كيدهم ويوقعهم فيما نووا إيقاعهم فيه.
وضمير الفصل أفاد القصر، أي الذين كفروا المكيدون دون من أرادوا الكيد بهم.
وإطلاق اسم الكيد على ما يجازيهم الله به عن كيدهم من نقض غزلهم إطلاق على وجه المشاكلة بتشبيه إمعان الله إياهم في نعمة إلى أن يقع بهم العذاب بفعل الكائد لغيره، وهذا تهديد صريح لهم، وقد تقدم قوله)ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين(في سورة الأنفال.
ومن مظاهر هذا التهديد ما حل بهم يوم بدر على غير ترقب منهم.
والقول في تفريع)فالذين كفروا هم المكيدون(كالقول في تفريع قوله)فهم من مغرم مثقلون(.
)أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون[43](هذا آخر سهم في كنانة الرد عليهم وأشد رمي لشبح كفرهم، وهو شبح الإشراك وهو أجمع ضلال تنضوي تحته الضلالات وهو إشراكهم مع الله آلهة أخرى.
فلما كان ما نعي عليهم من أول السورة ناقضا لأقوالهم ونواياهم، وكان ما هم فيه من الشرك أعظم لم يترك عد ذلك عليهم من اشتهاره بعد استيفاء الغرض المسوق له الكلام لهذه المناسبة، ولذلك كان هذا المنتقل إليه بمنزلة التذييل لما قبله لأنه ارتقاء إلى الأهم في نوعه والأهم يشبه الأعم فكان كالتذييل، ونظيره في الارتقاء في كمال النوع قوله تعالى)فك رقبة أو إطعام(إلى قوله)ثم كان من الذين آمنوا(الآية.
وقد وقع قوله)سبحان الله عما يشركون(إتماما للتذييل وتنهية المقصود من فضح حالهم.
وظاهر أن الاستفهام المقدر بعد)أم(استفهام إنكاري. واعلم أن الآلوسي نقل عن الكشف على الكشاف كلاما في انتظام الآيات من قوله تعالى)يقولون شاعر(إلى قوله)أم لهم إله غير الله(فيه نكت وتدقيق فانظر.
)وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم[44] فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون[45] يوم لا يغني عنهم

كيدهم شيئا ولا هم ينصرون[46](عطف على جملة)أم يقولون شاعر(وما بعدها من الجمل الحالية لأقوالهم بمناسبة اشتراك معانيها مع ما في هذه الجملة في تصوير بهتانهم ومكابرتهم الدالة على أنهم أهل البهتان فلو أروا كسفا ساقطا من السماء وقيل لهم: هذا كسف نازل كابروا وقالوا هو سحاب مركوم.

ويجوز أن يكون)كسفا(تلويحا إلى ما حكاه الله عنهم في سورة الإسراء)وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا(إلى قوله)أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا(. وظاهر ما حكاه الطبري عن ابن زيد أن هذه الآية نزلت بسبب قولهم ذلك، وإذ قد كان الكلام على سبيل الغرض فلا توقف على ذلك.

والمعنى: أن يروا كسفا من السماء مما سألوا أن يكون آية على صدقك لا يذعنوا ولا يؤمنوا ولا يتركوا البهتان بل يقولوا: هذا سحاب، وهذا المعنى مروي عن قتادة.

وهو من قبيل قوله تعالى)ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون(.

والكسف بكسر الفاء: القطعة، ويقال: كسفه. وقد تقدم في سورة الإسراء.

و)من السماء(صفة ل)كسفا(، و)من(تبعيضية، أي قطعة من أجزاء السماء مثل القطع التي تسقط من الشهب.

والمركوم: المجموع بعضه فوق بعض يقال: ركمه ركما، وهو السحاب الممطر قال تعالى)ثم يجعله ركاما(.

والمعنى: أن يقع ذلك في المستقبل يقول سحاب، وهذا لا يقتضي أنه يقع لأن أداة الشرط إنما تقتضي تعليق وقوع جوابها على وقوع فعلها لو وقع. وقع)سحاب مركوم(خبر عن مبتدأ محذوف، وتقديره: هو سحاب وهذا سحاب.

والمقصود: أنهم يقولون ذلك عنادا مع تحققهم أنه ليس سحابا.

ولكون المقصود أن العناد شيمتهم فرع عليه أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يتركهم، أي يترك عرض الآيات عليهم، أي أن لا يسأل الله إظهار ما اقترحوه من الآيات لأنهم لا يقترحون ذلك طلبا للحجة ولكنهم يكابرون، قال تعالى)إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم(.

وليس المراد ترك دعوتهم وعرض القرآن عليهم.

ويجوز أن يكون الأمر في قوله)فذرهم(مستعملا في تهديديهم لأنهم يسمعونه حتى يقرأ عليهم القرآن كما يقال للذي لا يرعوي عن غيه: دعه فإنه لا يقلع.
وأفادت الغاية أنه يتركهم إلى الأبد لأنهم بعد أن يصعقوا لا تعاد محاجتهم بالأدلة والآيات.
وقرأ الجمهور)يلاقوا(. وقرأه أبو جعفر)يلقوا(بدون ألف بعد اللام.
واليوم الذي فيه يصعقون: هو يوم البعث الذي يصعق عنده من في السماوات ومن في الأرض(.
وإضافة اليوم إلى ضميرهم لأنهم اشتهروا بإنكاره وعرفوا بالذين لا يؤمنون بالآخرة. وذا نظير النسب في قول أهل أصول الدين: فلان قدري، يريدون أنه لا يؤمن بالقدر. فالمعنى بنسبته إلى القدر أنه يخوض في شأنه أو لأنه اليوم الذي أوعدوه، فالإضافة لأدنى ملابسة.
ونظيره قوله تعالى)وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون(.
والصعق: الإغماء من خوف أو هلع قال تعلى)وخر موسى صعقا(، وأصله مشتق من الصاعقة لأن المصاب بها يغمى عليه أو يموت، يقال: صعق، بفتح فكسر، وصعق بضم وكسر.
وقرأه الجمهور)يصعقون(بفتح المثناة التحتية، وقرأه ابن عامر وعاصم بضم المثناة.
وذلك هو يوم الحشر قال تعالى)ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله(، وملاقاتهم لليوم مستعارة لوقوعه، شبه اليوم وهو الزمان بشخص غائب على طريقة المكنية وإثبات الملاقاة إليه تخييل. والملاقاة مستعارة أيضا للحلول فيه، والإتيان بالموصول للتنبيه على خطئهم في إنكاره.
و)يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا(بدل من)يومهم(وفتحته فتحة إعراب لأنه أضيف إلى معرب.
والإغناء: جعل الغير غنيا، أي غير محتاج إلى ما تقوم به حاجياته، وإذا قيل: أغنى عنه كان معناه: أنه قام مقامه في دفع حاجة كان حقه أن يقوم بها، ويتوسع فيه بحذف مفعوله لظهوره من المقام.
والمراد هنا لا يغني عنهم شيئا من العذاب المفهوم من إضافة) يوم(إلى ضميرهم ومن الصلة في قوله)الذي فيه يصعقون(.
و)كيدهم(من إضافة المصدر إلى فاعله، أي ما يكيدون به وهو المشار إليه بقوله)أم يريدون كيدا(، أي لا يستطيعون كيدا يومئذ كما كانوا في الدنيا.
فالمعنى: لا كيد لهم فيغني عنهم على طريقة قول امرئ القيس:
على لا حب لا يهتدى بمناره أي لا منارة له فيهتدى به.

وهذا ينفي عنهم التخلص بوسائل من فعلهم، وعطف عليه)ولا هم ينصرون(لنفي أن يتخلصوا من العذاب بفعل من يخلصهم وينصرهم فانتفى نوعا الوسائل المنجية.
)وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون[47] (جملة معترضة والواو اعتراضية، أي وإن لهم عذابا في الدنيا قبل عذاب الآخرة، وهو عذاب الجوع في سني القحط، وعذاب السيف يوم بدر.
وفي قوله)للذين ظلموا(إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: وإن له عذابا جريا على أسلوب قوله)فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون(فخولف مقتضى الظاهر لإفادة علة استحقاقهم العذاب في الدنيا بأنها الإشراك بالله.
وكلمة)دون(أصلها المكان المنفصل عن شيء انفصالا قريبا، وكثر إطلاقه على الأقل، يقال: هو في الشرف دون فلان، وعلى السابق لأنه قرب أقرب حلولا من المسبوق، وعلى معنى)غير(، و)دون(في هذه الآية صالحة للثلاثة الأخيرة، إذ المراد عذاب في الدنيا وهو قل من عذاب الآخرة قال تعالى)ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر(، وهو مغاير له كما هو بين.

صفحة : 4182

ولكون هذا العذاب مستبعدا عندهم وهم يرون أنفسهم في نعمة مستمرة كما قال تعالى)ليقولن هذا لي(أكد الخبر ب)أن(فالتأكيد مراعى فيه شكهم حين يسمعون القرآن، كما دل عليه تعقيبه بقوله)ولكن أكثرهم لا يعلمون(.
والاستدراك الذي أفادته)لكن(راجع إلى مفاد التأكيد, أي هو واقع لا محالة ولكن أكثرهم لا يعلمون وقوعه، أي لا يخطر ببالهم وقوعه، وذلك من بطرهم وزهوهم ومفعول)لا يعلمون(محذوف اختصارا للعلم به وأسند عدم العلم إلى أكثرهم دون جميعهم لأن فيهم أهل رأي ونظر يتوقعون حلول الشر إذا كانوا في خير.
والظلم: الشرك قال تعالى)إن الشرك لظلم عظيم(وهو الغالب في إطلاقه في القرآن.
)واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا(عطف على جملة)فذرهم حتى يلاقوا يومهم(الخ، وما بينهما اعتراض وكان مفتتح السورة خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى)إن عذاب ربك لواقع(المسوق مساق التسلية له، وكان في معظم ما في السورة من الأخبار ما يخالطه في نفسه صلى الله عليه وسلم من الكدر

والأسف على ضلال قومه وبعدهم عما جاءهم به من الهدى ختمت بالسورة بأمره بالصبر تسلية له وبأمره بالتسبيح وحمد الله شكرا له على تفضيله بالرسالة.
والمراد ب)حكم ربك(ما حكم به وقدره من انتفاء إجابة بعضهم ومن إبطاء إجابة أكثرهم.
فاللام في قوله)لحكم ربك(يجوز أن تكون بمعنى)على(فيكون لتعدية فعل)اصبر(كقوله تعالى)واصبر على ما يقولون(.
ويجوز فيها معنى)إلى(أي اصبر إلى أن يحكم الله بينك وبينهم فيكون في معنى قوله)واصبر حتى يحكم الله(.
ويجوز أن تكون للتعليل فيكون)لحكم ربك(ما حكم به من إرساله إلى الناس، أي اصبر لأنك تقوم بما وجب عليك.
فللام في هذا الموقع جامع لا يفيد غير اللام مثله.
والتفريع في قوله)فإنك بأعيننا(تفريع العلة على المعول) اصبر(لأنك بأعيننا، أي بمحل العناية والكلاءة منا، نحن نعلم ما تلاقيه وما يريدونه بك فنحن نجازيك على ما تلقاه ونحرسك من شرهم وننتقم لك منهم، وقد وفى بهذا كله التمثيل في قوله)فإنك بأعيننا(، فإن الباء للإلصاق المجازي، أي لا نغفل عنك، يقال: هو بمرأى مني ومسمع، أي لا يخفى علي شأنه. وذكر العين تمثيل لشدة الملاحظة وهذا التمثيل كناية عن لازم الملاحظة من نصر والجزاء والحفظ.
وقد آذن بذلك قوله)لحكم ربك(دون أن يقول: واصبر لحكمنا، أو لحكم الله، فإن المربوبية تؤذن بالعناية بالمربوب.
وجمع الأعين: أما مبالغة في التمثيل كأن الملاحظة بأعين عديدة كقوله)واصنع الفلك بأعيننا(وهو من قبيل)والسماء بنيناها بأيد(.
ولك أن تجعل الجمع باعتبار تعدد متعلقات الملاحظة فملاحظة للذب عنه، وملاحظة لتوجيه الثواب ورفع الدرجة, وملاحظة لجزاء إعداده بما يستحقونه، وملاحظة لنصره عليهم بعموم الإيمان به، وهذا الجمع على نحو قوله تعالى في قصة نوح)وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا(لأن عناية الله بأهل السفينة تتعلق بإجرائها وتجنيب الغرق عنها وسلامة ركابها واختيار الوقت لإرسائها وسلامة الركاب في هبوطهم، وذلك خلاف قوله في قصة موسى) ولتصنع على عيني(فإنه تعلق واحد بمشي أخته إلى آل فرعون وقولها هل أدلكم على من يكفل.
)وسبح بحمد ربك حين تقوم[48] ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم[49](التسبيح: التنزيه، والمراد ما يدل عليه من قول، وأشهر ذلك هو قول سبحان الله وما يرادفه من الألفاظ، ولذاك كثر إطلاق التسبيح وما يشتق منه على الصلوات في آيات كثيرة وآثار.

والباء في قوله)بحمد ربك(للمصاحبة جمعا بين تعظيم الله بالتنزيه عن النقائص وبين الثناء عليه بأوصاف الكمال.
و)حين تقوم(وقت الهبوب من النوم، وهو وقت استقبال أعمال اليوم وعنده تتجدد الأسباب التي من أجلها أمر بالصبر والتسبيح والحمد.
فالتسبيح مراد به: الصلاة، والقيام: جعل وقت للصلوات: إما للنوافل، وإما للصلاة الفريضة وهي الصبح.
وقيل: التسبيح في قوله)سبحان الله(، والقيام: الاستعداد للصلاة و الهبوب من النوم وروى ذلك عن عوف بن مالك وابن زيد والضحاك على تقارب بين أقوالهم، أي يقول القائم: سبحان الله وبحمده أو سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ولا إله غيرك .

صفحة : 4183

وعن عوف بن مالك وابن مسعود وجماعة: أن المراد بالقيام القيام من المجلس لما روى الترمذي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من جلس مجلسا فكثر فيه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك ولم يذكر أنه قرأ هذه الآية.
و)من الليل(أي زمنا هو بعض الليل، فيشمل وقت النهي للنوم وفيه تتوارد على الإنسان ذكريات مهماته، ويشمل وقت التهجد في الليل.
وقوله)فسبحه(اكتفاء، أي واحمده.
وانتصب)وإدبار النجوم(على الظرفية لأنه على تقدير: ووقت إدبار النجوم.
والإدبار: رجوع الشيء من حيث جاء لأنه ينقلب إلى جهة الدبر، أي الظهر.
وإدبار النجوم: سقوط طوالعها، فإطلاق الإدبار هنا مجاز في المفارقة والمزايلة، أي عند احتجاب النجوم. وفي الحديث إذا أقبل الليل من ههنا الإشارة إلى المشرق وأدبر النهار من ههنا الإشارة إلى جهة الغرب فقد أفطر الصائم .
وسقوط طوالعها التي تطلع: أنها تسقط في جهة المغرب عند الفجر إذا أضاء عليها ابتداء ظهور شعاع الشمس، فإدبار النجوم: وقت السحر، وهو وقت يستوفي فيه الإنسان حظه من النوم ويبقى فيه ميل إلى استصحاب الدعة، فأمر بالتسبيح فيه ليفصل بين النوم

المحتاج إليه وبين التناوم الناشىء عن التكاسل، ثم إن وجد في نفسه بعد التسبيح حاجة إلى غفوة من النوم اضطجع قليلا إلى أن يحين وقت صلاة الصبح، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضطجع بعد صلاة الفجر حتى يأتيه المؤذن بصلاة الصبح.

والنجوم: جمع نجم وهو الكوكب الذي يضيء في الليل غير القمر، وتقدم قوله تعالى)وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم(في سورة النحل.

والآية تشير إلى أوقات الرغائب من النوافل وهي صلاة الفجر والأشفاع بعد العشاء وقيام آخر الليل. وقيل: أشارت إلى الصلوات الخمس بوجه الإجمال وبينته السنة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النجم

سميت)سورة النجم(بغير واو في عهد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيح عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد بها فما بقي أحد من القوم إلا سجد فأخذ رجل كفا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه. وقال: يكفني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بعد قتل كافرا. وهذا الرجل أمية بن خلف. وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون. فهذه تسمية لأنها ذكر فيها النجم .

وسموها)سورة والنجم(بواو بحكاية لفظ القرآن الواقع في أوله وكذلك ترجمها البخاري في التفسير والترمذي في جامعه.

ووقعت في المصاحف بالوجه وهو من تسمية السورة بلفظ وقع في أولها وهو لفظ)النجم(أو حكاية لفظ)والنجم(.

وسموها)والنجم إذا هوى(كما في حديث زيد بن ثابت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: والنجم إذا هوى فلم يسجد(، أي في زمن آخر غير الوقت الذي ذكره ابن مسعود وابن عباس. وهذا كله اسم واحد متوسع فيه فلا تعد هذه السورة بين السور ذوات أكثر من اسم.

وهي مكية، قال ابن عطية: بإجماع المتأولين. وعن ابن عباس وقتادة: استثناء قوله تعالى)الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم(الآية قالا: هي آية مدنية . وسنده ضعيف. وقيل: ونسب إلى الحسن البصري: أن السورة كلها مدنية، وهو شذوذ.

وعن ابن مسعود هي أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة.

وهي السورة الثالثة والعشرون في عد ترتيب السور. نزلت بعد سورة الإخلاص وقبل سورة عبس.

وعد الجمهور العادين آيها إحدى وستين، وعدها أهل الكوفة أثنتين وستين.
قال ابن عطية: سبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمدا يتقول القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك.

أغراض هذه السورة
أول أغراضها تحقيق أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما نبلغه عن الله تعالى وإنه منزه عما ادعوه.
وإثبات أن القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل.
وتقريب صفة نزول جبريل بالوحي في حالين زيادة في تقرير أنه وحي من الله واقع لا محالة.
وإبطال إلهية أصنام المشركين.

وإبطال قولهم في اللات والعزى ومناة بنات الله وأنها أوهام لا حقائق لها وتنظير قولهم فيها بقولهم في الملائكة أنهم إناث.
وذكر جزاء المعرضين والمهتدين وتحذيرهم من القول في هذه الأمور بالظن دون حجة.
وإبطال قياسهم عالم الغيب على عالم الشهادة وأن ذلك ضلال في الرأي قد جاءهم بضده الهدى من الله. وذكر لذلك مثال من قصة الوليدين المغيرة، أو قصة ابن أبي سرح.
وإثبات البعث والجزاء.
وتذكيرهم بما حل بالأمم ذات الشرك من قبلهم وبمن جاء قبل محمد صلى الله عليه وسلم من الرسل أهل الشرائع.
وإنذارهم بحادثة تحل بهم قريبا.
وما تخلل ذلك من معترضات ومستطردات لمناسبات ذكرهم عن أن يتركوا أنفسهم.
وأن القرآن حوى كتب الأنبياء السابقين.
)والنجم إذا هوى[1] ما ضل صاحبكم وما غوى[2] وما ينطق عن الهوى[3](كلام موجه من الله تعالى إلى المشركين الطاعنين في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.
والنجم: الكوكب أي الجرم الذي يبدو للناظرين لامعا في جو السماء ليلا.
أقسم الله تعالى بعظيم من مخلوقاته دال على عظيم صفات الله تعالى.

وتعريف)النجم(باللام، يجوز أن يكون للجنس كقوله)وبالنجم هم يهتدون(وقوله)والنجم والشجر يسجدان(، ويتمل تعريف العهد. وأشهر النجوم بإطلاق اسم النجم عليه الثريا لأنهم كانوا يوقتون بأزمان طلوعها مواقيت الفصول ونضج الثمار، ومن أقوالهم: طلع النجم عشاء فابتغى الراعي كمساء طلع النجم غدية وابتغى الراعي شكية)تصغير شكوة وعاء من جلد يوضع فيه الماء واللبن(يعنون ابتداء زمن البرد وابتداء زمن الحر.

وقيل النجم: الشعرى اليمانية وهي العبور وكانت معظمة عند العرب وعبدها خزاعة.

ويجوز أن يكون المراد بالنجم: الشهاب، وبهوية:سقوطه من مكانه إلى مكان آخر، قال تعالى)إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد(وقال)ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلنا رجوما للشياطين(.

والقسم ب)النجم(لما في خلقه من الدلالة على عظيم قدرة الله تعالى، ألا ترى إلى قول الله حكاية عن إبراهيم)فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي(.

وتقييد القسم بالنجم بوقت غروبه لإشعار غروب ذلك المخلوق العظيم بعد أوجه في شرف الارتفاع في الأفق على أنه تسخير لقدرة الله تعالى، ولذلك قال إبراهيم)لا أحب الآفلين(.

والوجه أن يكون)إذا هوى(بدل اشتمال من النجم، لأن المراد من النجم أحواله الدالة على قدرة خالقه ومصرفه ومن أعظم أحواله حال هويه، ويكون)إذا(اسم زمان مجردا عن معنى الظرفية في محل جر بحرف القسم، وبذلك نتفادى من إشكال طلب متعلق) إذا(وهو إشكال أورده العلامة الجنزي على الزمخشري، قال الطيبي وفي المقتبس قال الجنزي: فاوضت جار الله في قوله تعالى) والنجم إذا هوى(ما العامل في)إذا(? فقال: العامل فيه ما تعلق به الواو, فقلت: كيف يعمل فعل الحال في المستقبل وهذا لأم معناه قسم الآن, وليس معناه أقسم بعد هذا فرجع وقال: العامل فيه مصدر محذوف تقديره: وهوي النجم إذا هوى, فعرضته على زين المشائخ فلم يستحسن قوله الثاني. والوجه أن)إذا(قد انسلخ عنه معنى الاستقبال وصار للوقت المجرد, ونحوه: آتيك إذا احمر البسر, أي وقت احمراره فقد عري عن معنى الاستقبال لأنه وقعت الغنية عنه بقوله: آتيك اه كلام الطيبي, فقوله: فالوجه يحتمل أن يكون من كلام زين المشائخ أو من كلام صاحب المقتبس أو من كلام الطيبي, وهو وجيه وهو أصل ما بنينا عليه موقع)إذا(هنا, وليس تردد الزمخشري في الجواب إلا لأنه يلتزم أن يكون)إذا(ظرفا للمستقبل

كما هو مقتضي كلامه في المفصل مع أن خروجها عن ذلك كما تواطأت عليه أقوال المحققين.

والهوي: السقوط, أطلق هنا على غروب الكوكب, استعير الهوي إلى اقتراب اختفائه ويجوز أن يراد بالهوي: سقوط الشهاب حين يلوح للناظر أنه يجري في أديم السماء, فهو هوي حقيقي فيكون قد استعمل في حقيقته ومجازه.

صفحة : 4185

وفي ذكر)إذا هوى(احتراس من أن يتوهم المشركون أن في القسم بالنجم إقرارا لعبادة نجم الشعرى, وأن القسم به اعتراف بأنه إله إذ كان بعض قبائل العرب يعبدونها فإن حالة الغروب المعبر عنها بالهوي حالة انخفاض ومغيب في تخيل الرائي لأنهم يعدون طلوع النجم أوجا لشرفه ويعدون غروبه حضيضا, ولذلك قال الله تعالى)فلما أفل قال لا أحب الآفلين(.

ومن مناسبات هذا يجيء قوله)وأنه هو رب الشعرى(في هذه السورة, وتلك اعتبارات لهم تخيلية شائعة بينهم فمن النافع موعظة الناس بذلك لأنه كاف في إقناعهم وصولا إلى الحق.

فيكون قوله)إذا هوى(إشعارا بأن النجوم كلها مسخرة لقدرة الله في مسيرة في نظام أوجدها عليه ولا اختيار لها فليست أهلا لأن تعبد فحصل المقصود من القسم بما فيها من الدلالة على القدرة الإلهية مع الاحتراس عن اعتقاد عبادتها.

وقال الراغب قيل أراد بذلك أي النجم القرآن المنزل المنجم قدرا فقدرا, ويعني بقوله)هوى(نزوله اه.

ومناسبة القسم بالنجم إذا هوى, أن الكلام مسوق لإثبات أن القرآن وحي من الله منزل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هويه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية, شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسفله وهو تمثيل المعقول بالمحسوس, أو الإشارة إلى مشابهة حالة نزول جبريل من السماوات بحالة نزول النجم من أعلى مكانه إلى أسفله, أو بانقضاض الشهاب تشبيه محسوس بمحسوس, وقد يشبهون سرعة الجري بانقضاض الشهاب, قال أوس بن حجر يصف فرسا:

فانقض كالدري يتبعه   نقع يثور تخاله طنبا

والضلال: عدم الاهتداء إلى الكريق الموصول إلى المقصود, وهو مجاز في سلوك ما ينافي الحق.

والغواية: فساد الرأي وتعلقه بالباطل.
والصاحب: الملازم للذي يضاف إليه وصف صاحب, والمراد بالصاحب هنا: الذي له ملابسات وأحوال مع المضاف إليه, والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا كقول أبي معبد الخزاعي الوارد في أثناء قصة الهجرة لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم بيته وفيها أم معبد وذكرت له معجزة مسحه على ضرع شاتها هذا صاحب قريش , أي صاحب الحوادث الحادثة بينه وبينهم.
وإيثار التعبير عنه بوصف)صاحبكم(تعريض بأنهم أهل بهتان إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدة اطلاعهم على أحواله وشؤونه إذ هو بينهم في بلد لا تتعذر فيه إحاطة علم أهله بحال واحد معين مقصود من بينهم. ووقع في خطبة الحجاج بعد دير الجماجم قوله للخوارج ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم الغدر واستبطنتم الكفر يريد أنه لا تخفى عنه أحوالهم فلا يحاولون التنصل من ذنوبهم بالمغالطة والتشكيك.
وهذا رد من الله على المشركين وإبطال في قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم لأنهم قالوا: مجنون, وقالوا: شاعر, وقالوا في القرآن: إن هذا إلا اختلاق.
فالجنون من الضلال لأن المجنون لا يهتدي إلى وسائل الصواب, والكذب والسحر ضلال وغواية, والشعر المتعارف بينهم غواية كما قال تعالى)والشعراء يتبعهم الغاوون(أي يحبذون أقوالهم لأنها غواية.
وعطف على جواب القسم)ما ينطق عن الهوى(وهذا وصف كمال لذاته. والكلام الذي ينطق به هو القرآن لأنهم قالوا فيه)إن هو إلا إفك افتراه(وقالوا)أساطير الأولين اكتتبها(وذلك ونحوه لا يعدو أن يكون اختراعه أو اختياره عن محبة لما يجترع وما يختار بقطع النظر عن كونه حقا أو باطلا، فإن من الشعر حكمة، ومنه حكاية واقعات، ومنه تخيلات ومفتريات. وكله ناشئ عن محبة الشاعر أن يقول ذلك، فأراهم الله أن القرآن داع إلى الخير.
و)ما(نافية نفت أن ينطق عن الهوى.
والهوى: ميل النفس إلى ما تحبه أو تحب أن تفعله دون أن يقتضيه العقل السليم الحكيم، ولذلك يختلف الناس في الهوى ولا يختلفون في الحق، وقد يحب المرء الحق والصواب فالمراد بالهوى إذا أطلق أنه الهوى المجرد عن الدليل.
ونفي النطق عن هوى يقتضي نفي جنس ما ينطق به عن الاتصاف بالصدور عن هوى سواء كان القرآن أو غيره من الإرشاد النبوي بالتعليم والخطابة والموعظة والحكمة، ولكن القرآن هو المقصود لأنه سبب هذا الرد عليهم.

واعلم أن تنزيهه صلى الله عليه وسلم عن النطق عن هوى يقتضي التنزيه عن أن يفعل أو يحكم عن هوى لأن التنزه عن النطق عن هوى أعظم مراتب الحكمة. ولذلك ورد في صفة النبي صلى الله عليه وسلم أنه يمزح ولا يقول إلا حقا . وهنا تم إبطال قولهم فحسن الوقف على قوله)وما ينطق عن الهوى(.

وبين)هوى(و)الهوى(جناس شبه التام.

)إن هو إلا وحي يوحى[4] علمه شديد القوى[5] ذو مرة فاستوى[6] وهو بالأفق الأعلى[7] ثم دنا فتدلى[8] فكان قاب قوسين أو أدنى[9] فأوحى إلى عبده ما أوحى[10](استئناف بياني لجملة)وما ينطق عن الهوى(.

وضمير)هو(عائد إلى المنطوق به المأخوذ من فعل)ينطق(كما في قوله تعالى)اعدلوا هو أقرب للتقوى(أي العدل المأخوذ من فعل)اعدلوا(.

ويجوز أن يعود الضمير إلى معلوم من سياق الرد عليهم لأنهم زعموا في أقوالهم المردودة بقوله)ما ضل صاحبكم وما غوى(زعموا القرآن سحرا، أو شعرا، أو كهانة، أو أساطير الأولين، أو إفكا افتراه.

وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ينطق بغير القرآن عن وحي كما في حديث الحديبية في جوابه للذي سأله: وما يفعل المعتمر? وكقوله إن روح القدس نفث في روعي إن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ومثل جميع الأحاديث القدسية التي فيها قال الله تعالى ونحوه.

وفي سنن أبي داود والترمذي من حديث المقدام بن معد يكرب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه .

وقد ينطق عن اجتهاد كأمره بكسر القدور التي طبخت فيها الحمر الأهلية فقيل له: أونهريقها ونغسلها? فقال: أو ذاك.

فهذه الآية بمعزل عن إيرادها في الاحتجاج لجواز الاجتهاد للنبي صلى الله عليه وسلم لأنها كان نزولها في أول أمر الإسلام وإن كان الأصح أن يجوز له الاجتهاد وأنه وقع منه وهي من مسائل أصول الفقه.

والوحي تقدم عند قوله تعالى)إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح(في سورة النساء. وجملة)يوحى(مؤكدة لجملة)إن هو إلا وحي(مع دلالة المضارع على أن ما ينطق به متجدد وحيه غير منقطع.
ومتعلق)يوحى(محذوف تقديره: إليه، أي إلى صاحبكم.
وترك فاعل الوحي لضرب من الإجمال الذي يعقبه التفصيل لأنه سيرد بعده ما يبينه من قوله)فأوحى إلى عبده ما أوحى(.
وجملة)علمه شديد القوى(الخ، مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان كيفية الوحي.
وضمير الغائب في)علمه(عائد إلى الوحي، أو إلى ما عاد إليه ضمير)هو(من قوله)إن هو إلا وحي(. وضمير)هو(يعود إلى القرآن، وهو ضمير في محل أحد مفعولي)علم(وهو المفعول الأول، والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: علمه إياه، يعود إلى) صاحبكم(، ويجوز جعل هاء)علمه(عائدا إلى)صاحبكم(والمحذوف عائد إلى)وحي(إبطالا لقول المشركين)إنما يعلمه بشر(.
و)علم(هنا متعد إلى مفعولين لأنه مضاعف)علم(المتعدي إلى مفعول واحد.
و)شديد القوى(: صفة لمحذوف يدل عليه ما يذكر بعد مما هو من شؤون الملائكة، أي ملك شديد القوى. واتفق المفسرون على أن المراد به جبريل عليه السلام.
والمراد ب)القوى(استطاعة تنفيذ ما يأمر الله به من الأعمال العظيمة العقلية والجسمانية، فهو الملك الذي ينزل على الرسل بالتبليغ.
والمرة، بكسر الميم وتشديد الراء المفتوحة، تطلق على قوة الذات وتطلق على متانة العقل وأصالته، وهو المراد هنا لأنه قد تقدم قبله ووصف بشديد القوى، وتخصيص جبريل بهذا الوصف يشعر بأنه الملك الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل والأنبياء، ولذلك لما ناول الملك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء كأس لبن وكأس خمر، فاختار اللبن قال له جبريل: اخترت الفطرة ولو أخذت الخمر غوت أمتك.
وقوله)فاستوى(مفرع على ما تقدم من قوله)علمه شديد القوى(.

صفحة : 4187

والفاء لتفصيل)علمه(، والمستوي هو جبريل. ومعنى استوائه: قيامه بعزيمة لتلقي رسالة الله، كما يقال: استقل قائما، ومثل: بين

يدي فلان، فاستواء جبريل هو مبدأ التهيؤ لقبول الرسالة من عند الله، ولذلك قيد هذا الاستواء بجملة الحال في قوله)وهو بالأفق الأعلى(.والضمير لجبريل لا محالة، أي قبل أن ينزل إلى العالم الأرضي.

والأفق: اسم للجو الذي يبدو للناظر ملتقى بين طرف منتهى النظر من الأرض وبين منتهى ما يلوح كالقبة الزرقاء، وغلب إطلاقه على ناحية بعيدة عن موطن القوم ومنه أفق المشرق وأفق المغرب.

ووصفه ب)الأعلى(في هذه الآية يفيد أنه ناحية من جو السماء. وذكر هذا ليرتب عليه قوله)ثم دنا فتدلى(.

و)ثم(عاطفة على جملة)فاستوى(، والتراخي الذي تقيده)ثم(تراخ رتبي لأن الدنو يبلغ الوحي هو الأهم في هذا المقام.

والدنو: القرب، وإذ قد كان فعل الدنو قد عطف ب)ثم(على) استوى بالأفق الأعلى(علم أنه دنا إلى العالم الأرضي أي أخذ في الدنو بعد أن تلقى ما يبلغه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وتدلى: انخفض من علو قليلا، أي ينزل من طبقات إلى ما تحتها كما يتدلى الشيء المعلق في الهواء بحيث لو رآه الرائي يحسبه متدليا، وهو ينزل من السماء غير منقض.

وقاب، وقيل معناه: قدر. وهو واوي العين، ويقال: قاب وقيب بكسر القاف، وهذا ما درج عليه أكثر المفسرين. وقيل يطلق القاب على ما بين مقبض القوس أي وسط عوده المقوس وما بين سيتيها أي طرفيها المنعطف الذي يشد به الوتر فللقوس قابان وسيتان، ولعل هذا الإطلاق هو الأصل للآخر، وعلى هذا المعنى حمل الفراء والزمخشري وابن عطية وعن سعيد بن المسيب: القاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه ولكل قوس قاب واحد.

وعلى كلا التفسيرين فقوله)قاب قوسين(أصله قابي قوس أو قابي قوسين بتثنية أحد اللفظين المضاف والمضاف إليه، أو كليهما فوقع إفراد أحد اللفظين أو كليهما تجنبا لثقل المثنى كما في قوله تعالى)إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما(أي قلباكما.

وقيل يطلق القوس في لغة أهل الحجاز على ذراع يذرع به ولعله ذا مصدر قاس فسمي به ما يقاس به .

والقوس: آلة من عود نبع، مقوسة يشد بها وتر من جلد ويرمي عنها السهام. والنشاب وهي في مقدار الذراع عند العرب.

وحاصل المعنى أن جبريل كان على مسافة قوسين من النبي صلى الله عليه وسلم الدال عليه التفريع بقوله)فأوحى إلى عبده ما أوحى(، ولعل الحكمة في هذا البعد أن هذه الصفة حكاية لصورة الوحي الذي كان في أوائل عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالنبوة

فكانت قواه البشرية يومئذ غير معتادة لتمل اتصال القوة الملكية بها مباشرة رفقا بالنبي صلى الله عليه وسلم أن لا يتجشم شيئا يشق عليه، ألا ترى أنه لما اتصل به في غار حراء ولا اتصال وهو الذي عبر عنه في حديثه بالغط قال النبي صلى الله عليه وسلم فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم كانت تعتريه الحالة الموصوفة في حديث نزول أول الوحي المشار إليها في سورة المدثر وسورة المزمل قال تعالى)إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا(، ثم اعتاد اتصال جبريل به مباشرة فقد جاء في حديث عمر بن الخطاب في سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة أنه جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم أيامئذ بالمدينة وق اعتاد الوحي وفارقته شدته، ولمراعاة هذه الحكمة كان جبريل يتمثل للنبي صلى الله عليه وسلم في صورة إنسان وقد وصفه عمر في حديث بيان الإيمان والإسلام بقوله إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد الحديث، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم بعد مفارقته يا عمر أتدري من السائل? قال عمر: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

وقوله)أو أدنى( )أو(فيه للتخيير للتقدير، وهو مستعمل في التقريب، أي إن أراد أحد تقريب هذه المسافة فهو مخير بين أن يجعلها قاب قوسين أو أدنى، أي لا أزيد إشارة إلى أن التقرير لا مبالغة فيه.

وتفريع)فأوحى إلا عبده ما أوحى(على قوله)فتدلى فكان قاب قوسين(المفرع على المفرع على قوله)علمه شديد القوى(، وهذا التفريع هو المقصود من البيان وما قبله تمهيد له، وتمثيل لأحوال عجيبة بأقرب ما يفهمه الناس لقصد بيان إمكان تلقي الوحي عن الله تعالى إذ كان المشركون يحيلونه فبين لهم إمكان الوحي بوصف طريق الوحي إجمالا، وهذه كيفية من صور الوحي.

وضمير)أوحى(عائد إلى الله تعالى المعلوم من قوله)إن هو إلا وحي يوحى(كما تقدم، والمعنى: فأوحى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا كاف في هذا المقام لأن المقصود إثبات الإيحاء لإبطال إنكارهم إياه.

وإيثار التعبير عن النبي صلى الله عليه وسلم بعنوان)عبده(إظهار في مقام الإضمار في اختصاص الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف.
وفي قوله)ما أوحى(إيهام لتفخيم ما أوحى إليه.
)ما كذب الفؤاد ما رأى[11] أفتمارونه على ما يرى[12](الأظهر أن هذا رد لتكذيب من المشركين فيما بلغهم من الخبر عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم الملك جبريل وهو الذي يؤذن به قوله بعد)أفتمارونه على ما يرى(.
واللام في قوله)الفؤاد(عوض عن المضاف إليه، أي فؤاده وعليه فيكون تفريغ الاستفهام في قوله)أفتمارونه على ما يرى(استفهاما إنكاريا لأنهم ماروه.
ويجوز أن يكون قوله)ما كذب الفؤاد ما رأى(تأكيدا لمضمون قوله)فكان قاب قوسين(فإنه يؤذن بأنه بمرأى من النبي صلى الله عليه وسلم برفع احتمال المجاز في تشبيه القرب، أي هو قرب حسي وليس مجرد اتصال روحاني فيكون الاستفهام في قوله) أفتمارونه على ما يرى(مستعملا في الفرض والتقدير، أي أفستكذبونه فيما يرى بعينيه كما كذبتموه فيما بلغكم عن الله، كما يقول قائل أتحسبني غافلا وقول عمر بن الخطاب للعباس وعلي في قضيتهما أتحاولان مني قضاء غير ذلك .
وقرأ الجمهور)ما كذب(بتخفيف الذال، وقرأه هشام عن ابن عامر وأبو جعفر بتشديد الذال، والفاعل والمفعول على حالهما كما في قراءة الجمهور.
والفؤاد: العقل في كلام العرب قال تعالى)وأصبح فؤاد أم موسى فارغا(.
والكذب: أطلق على التخييل والتلبيس من الحواس كما يقال: كذبته عينه.
و)ما(موصولة، والرابط محذوف وهو ضمير عائد إلى)عبده(في قوله)فأوحى إلى عبده(أي ما رآه عبده ببصره.
وتفريع)أفتمارونه(على جملة)ما كذب الفؤاد ما رأى(.
وقرأ الجمهور)أفتمارونه(من المماراة وهي الملاحات والمجادلة في الإبطال. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف)أفتمرونه(بفتح الفوقية وسكون الميم مضارع مراه إذا جحده، أي أتجحدونه أيضا فيما رأى، ومعنى القراءتين متقارب.
وتعدية الفعل فيهما بحرف الاستعلاء لتضمنه معنى الغلبة، أي هبكم غالبتموه على عبادتكم الآلهة، وعلى الإعراض عن سماع القرآن ونحو ذلك أتغلبونه على ما رأى ببصره.

)ولقد رآه نزلة أخرى[13] عند سدرة المنتهى[14] عندها جنة المأوى[15] إذ يغشى السدرة ما يغشى[16] ما زاغ البصر وما طغى[17] لقد رأى من آيات ربه الكبرى[18](أي إن كنتم تجحدون رؤيته في الأرض فلقد رآه رؤية أعظم منها إذ رآه في العالم العلوي مصاحبا، فهذا من الترقي في بيان مراتب الوحي، والعطف عطف قصة على قصة أبتدئ بالأضعف وعقب بالأقوى.

فتأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق لأجل ما في هذا الخبر من الغرابة من حيث هو قد رأى جبريل ومن حيث أنه عرج به إلى السماء ومن الأهمية من حيث هو دال على عظيم منزلة محمد صلى الله عليه وسلم، فضمير الرفع في)رآه(عائد إلى)صاحبكم(، وضمير النصب عائد إلى جبريل.

و)نزلة(فعل من النزول فهو مصدر دال على المرة: أي في مكان آخر من النزول الذي هو الحلول في المكان، ووصفها ب)أخرى بالنسبة إلى ما في قوله)ثم دنى فتدلى(فإن التدلى نزول بالمكان الذي بلغ إليه.

وانتصاب)نزلة(على نزع الخافض، أو على النيابة عن ظرف المكان، أو على حذف مضاف بتقدير: وقت نزلة أخرى: فتكون نائبا عن ظرف المكان.

وقوله)عند سدرة المنتهى(متعلق ب)رآه(. وخصت بالذكر رؤيته عند سدرة المنتهى لعظيم شرف المكان بما حصل عنده من آيات ربه الكبرى ولأنها منتهى العروج في مراتب الكرامة.

وسدرة المنتهى اسم أطلقه القرآن على مكان علوي فوق السماء السابعة، وقد ورد التصريح بها في حديث المعراج من الصحاح عن جمع من الصحابة.

ولعله شبه ذلك المكان بالسدرة التي هي واحدة شجر السدر إما في صفة تفرعه، وإما في كونه حدا انتهى إليه قرب النبي صلى الله عليه وسلم إلى موضع لم يبلغه قبله ملك. ولعله مبني على إصلاح عندهم بأن يجعلوا في حدود البقاع سدرا.

إضافة)سدرة(إلى)المنتهى(يجوز أن تكون إضافية بيانية. ويجوز كونها تعريف السدرة بمكان ينتهي إليه لا يتجاوزه أحد لأن ما وراءه لا تطيقه المخلوقات.

والسدرة: واحدة السدر وهو شجر النبق قالوا: ويختص بثلاث أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية، فجعلت السدرة مثلا المكان ما جعلت النخلة مثلا للمؤمن.
وفي قوله)ما يغشى(إبهام للتفخيم الإجمالي وأنه تضيق عنه عبارات الوصف في اللغة.
وجنة المأوى: الجنة المعروفة بأنها مأوى المتقين فإن الجنة منتهى مراتب ارتقاء الأرواح الزكية. وفي حديث الإسراء بعد ذكر سدرة المنتهى)ثم أدخلت الجنة(.
وقوله)إذ يغشى السدرة ما يغشى(ظرف مستقر في موضع الحال من)سدرة المنتهى(أريد به التنويه بما حف بهذا المكان المسمى سدرة المنتهى من الجلال والجمال. وفي حديث الإسراء حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي وفي رواية)غشيها نور من الله ما يستطيع أحد أن ينظر إليها(، وما حصل فيه للنبي صلى الله عليه وسلم من التشريف بتلقي الوحي مباشرة من الله دون واسطة الملك ففي حديث الإسراء حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ففرض الله على أمتي خمسين صلاة الحديث.
وجملة)ما زاغ البصر وما طغى(معترضة وهي في معنى جملة) ولقد رآه نزلة أخرى(إلى آخرها، أي رأى جبريل رؤية لا خطأ فيها ولا زيادة على ما وصف، أي لا مبالغة.
والزيغ: الميل عن القصد، أي ما مال بصره إلى مرئي آخر غير ما ذكر، والطغيان: تجاوز الحد.
وجملة)لقد رأى من آيات ربه الكبرى(تذييل، أي رأى آيات غير سدرة المنتهى، وجنة المأوى، وما غشي السدرة من البهجة والجلال، رأى من آيات الله الكبرى.
والآيات: دلائل عظمة الله تعالى التي تزيد الرسول ارتفاعا.
)أفرأيتم اللات والعزى[19] ومنوة الثالثة الأخرى[20] ألكم الذكر وله الأنثى [21] تلك إذا قسمة ضيزى[22] إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان(لما جرى في صفة الوحي ومشاهدة رسول صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام وما دل على شؤون جليلة من عظمة الله تعالى وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم وشرف جبريل عليه السلام إذ وصف بصفات الكمال ومنازل العزة كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالعروج في المنازل العليا، كان ذلك مما يثير موازنة هذه الأحوال الرفيعة بحال أعظم آلهتهم الثلاث في زعمهم وهي: اللات، والعزى، ومناة التي هي أحجار مقرها الأرض لا تملك تصرفا ولا يعرج بها

إلى رفعة. فكان هذا التضاد جامعا خياليا يقتضي تعقيب ذكر تلك الأحوال بذكر أحوال هاته.
فانتقل الكلام من غرض إثبات النبي صلى الله عليه وسلم موحى إليه بالقرآن، إلى إبطال عبادة الأصنام، ومناط الإبطال قوله)إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان(.
فالفاء لتفريع الاستفهام وما بعده على جملة)أفتمارونه على ما يرى(المفرعة على جملة)ما كذب الفؤاد ما رأى(.
والروية في)أفرأيتم(يجوز أن تكون بصرية تتعدى إلى مفعول واحد فلا تطلب مفعولا ثانيا ويكون الاستفهام تقريريا تهكميا، أي كيف ترون اللات والعزى ومناة بالنسبة لما وصف في عظمة الله تعالى وشرف ملائكته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا تهكم بهم وإبطال لإلهية تلك الأصنام بطريق الفحوى، ودليله العيان. وأكثر استعمال)أرأيت(أن تكون للرؤية البصرية على ما اختاره رضي الدين.

صفحة : 4190

وتكون جملة)ألكم الذكر(الخ استئنافا وارتقاء في الرد أو بدل اشتمال من جملة)أفرأيت اللات والعزى(لأن مضمونا مما تشتمل عليه مزاعمهم، كانوا يزعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله كما حكى عنهم ابن عطية وصاحب الكشاف وسياق الآيات يقتضيه.
ويجوز أن تكون الرؤيا علمية، أي أزعمتم اللات والعزى ومناة، فحذف المفعول الثاني اختصارا لدلالة قوله)ألكم الذكر وله الأنثى(عليه، والتقدير: أزعمتموهن بنات الله، أتجعلون له الأنثى وأنتم تبتغون الأبناء الذكور، وتكون جملة)ألكم الذكر(الخ بيانا للإنكار وارتقاء في إبطال مزاعمهم، أي أتجعلون لله البنات خاصة وتغتبطون لأنفسكم بالبنين الذكور.
وجعل صاحب الكشف قوله)ألكم الذكر وله الأنثى(سادا ومسد المفعول الثاني)أرأيتم(.
وأيضا لما كان فيما جرى من صفة الوحي ومنازل الزلفى التي حضي بها النبي صلى الله عليه وسلم وعظمة جبريل إشعار بسعد قدرة الله تعالى وعظيم ملوكته مما يسجل على المشركين في زعمهم شركاء لله أصناما مثل اللات والعزى ومناة. فساد زعمهم وسفاهة رأيهم أعقب ذكر دلائل العظمة الإلهية بإبطال إلهية أصنامهم بأنها أقل من مرتبة الإلهية إذ تلك أوهام لا حقائق لها ولكن اخترعتها مخيلات أهل الشرك ووضعوا لها أسماء ما لها

حقائق ففرع)أفرأيت اللات والعزى(الخ فيكون الاستفهام تقريريا إنكاريا، والرؤيا علمية والمفعول الثاني هو قوله)إن هي إلا أسماء سميتموها(.

وتكون جملة)ألكم الذكر وله الأنثى(الخ معترضة بين المفعولين للارتقاء في الإنكار، أي وزعتموهن بنات لله أو وزعتموهم الملائكة بنات لله.

وهذه الوجوه غير متنافية فنحملها على أن جميعا مقصود في هذا المقام.

ولك أن تجعل فعل)أرأيتم(على اعتبار الرؤية علمية معلقا عن العمل لوقوع)إن(النافية بعده في قوله)إن هي إلا أسماء سميتموها(وتجعل جملة)ألكم الذكر وله الأنثى(إلى قوله) ضيزى(اعتراضا.

واللات: صنم كان لثقيف بالطائف، وكانت قريش وجمهور العرب يعبدونه، وله شهرة عند قريش، وهو صخرة مربعة بنوا عليها بناء. وقال الفخر: كان على صورة إنسان،وكان في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى كذا قال القرطبي فلعل المسجد كانت له منارتان.

والألف واللام في أول)اللات(زائدتان. و)أل(الداخلة عليه زائدة ولعل ذلك لأن أصله: لات، بمعنى معبود، فلما أرادوا جعله علما على معبود خاص أدخلوا عليه لام تعريف العهد كما في)الله(فإن أصله إله. ويوفق عليه بسكون تاءه في الفصحى.

وقرأ الجمهور:)اللات(بتخفيف المثناة الفوقية. وقرأ رويس عن يعقوب بتشديد التاء وذلك لغة في هذا الاسم لأن كثيرا من العرب يقولون: أصل صخرته موضع كان يجلس عليه رجل في الجاهلية يلت السويق للحاج فلما مات اتخذوا مكانه معبدا.

والعزى: فعل من العز: اسم صنم حجر أبيض عليه بناء وقال الفخر: كان على صورة نبات ولعله يعني: أن الصخرة فيها صورة شجر، وكان ببطن نخلة فوق ذات عرق وكان الجمهور العرب يعبدونها وخاصة قريش وقد قال أبو سفيان يوم أحد يخاطب المسلمين لنا العزى ولا عزى لكم .

وذكر الزمخشري في تفسير سورة الفاتحة أن العرب كانوا إذ شرعوا في عمل قالوا: باسم اللات باسم العزى.

وأما)مناة(فعلم مرتجل، وهو مؤنث فحقه أن يكتب بها تأنيث في آخره ويوقف عليه بالهاء، ويكون ممنوعا من الصرف، وفيه لغة بالتاء الأصلية في آخره فيوقف عليه بالتاء ويكون مصروفا لأن تاء لات مثل باء باب، وأصله: منوة بالتحريك وقد يمد فيقال: منآءة وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. وقياس الوقف عليه أن يوقف عليه بالهاء، وبعضهم يقف عليه بالتاء تبعا لخط المصحف، وكان

صخرة وقد عبده جمهور العرب وكان موضعه في المشلل حذو قديد بين مكة والمدينة، وكان الأوس والخزرج يطوفون حوله في الحج عوضا عن الصفا والمروة فلما حج المسلمون وسعوا بين الصفا والمروة فنزل فيهم قوله تعالى)أن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما(كما تقدم عن حديث عائشة في الموطا في سورة البقرة.

صفحة : 4191

وقرأ الجمهور)ومناة(بتاء بعد الألف وقرأه ابن كثير بهمزة بعد الألف على إحدى اللغتين. والجمهور يقفون عليه بالتاء تبعا لرسم المصحف فتكون التاء حرفا من الكلمة غير علامة تأنيث فهي مثل تاء)اللات(ويجعلون رسمها في المصحف على غير قياس.

ووصفها بالثالثة لأن ثالثة في الذكر وهو صفة كاشفة، ووصفها بالأخرى أيضا صفة كاشفة لأن كونها ثالث في الذكر غير المذكورتين قبلها معلوم للسامع، فالحاصل من الصفتين تأكيد ذكرها لأن اللات والعزى عند قريش وعند جمهور العرب أشهر من مناة لبعد مكان مناة عن بلادهم ولأن ترتيب مواقع بيوت هذه الأصنام كذلك، فاللات في أعلى تهامة بالطائف، والعزى في وسطها بنخلة بين مكة والطائف، ومناة بالمشلل بين مكة والمدينة فهي ثالثة البقاع.

وقال ابن عطية: كانت مناة أعظم هذه الأوثان قدرا وأكثرها عبادة ولذلك قال تعالى)الثالثة الأخرى(فأكدها بهاتين الصفتين.

والأحسن أن قوله)الثالثة الأخرى(جرى على أسلوب العرب إذا أخبروا عن متعدد وكان فيه من يظن أنه غير داخل في الخبر لعظمة أو تباعد عن التلبس بمثل ما تلبس به نظراؤه أن يختموا الخبر فيقولوا)وفلان هو الآخر(ووجهه هنا أن عباد مناة كثيرون في قبائل العرب فنبه على أن كثرة عبدتها لا يزيدها قوة على بقية الأصنام في مقام إبطال إلهيتها وكل ذلك جار مجرى التهكم والتسفيه.

وجملة)ألكم الذكر وله الأنثى(ارتقاء في الإبطال والتهكم والتسفيه كما تقدم، وهي مجاراة لاعتقادهم أن تلك الأصنام الثلاثة بنات الله وأن الملائكة بنات الله، أي اجعلتم لله بنات خاصة وانتم تعلمون أن لكم أولادا ذكورا وإناثا وأنكم تفضلون الذكور وتكرهون الإناث وقد خصصتم الله بالإناث دون الذكور والله أولى بالفضل والكمال لو كنتم تعلمون فكان في هذا زيادة تشنيع لكفرهم إذ كان كفرا وسخافة عقل.

وكون العزى ومناة عندهم انثتين ظاهر من صيغة أسميهما، وأما اللات فبقطع النظر عن اعتبار التاء في الاسم علامة تأثيث أو أصلا من الكلمة فهم كانوا يتوهمون اللات أنثى، ولذلك قال أبو بكر رضي الله عنه لعروة بن مسعود الثقفي يوم الحديبية أمصص أو أعضض بظر اللات .

وتقديم المجرورين في)الكم الذكر وله الأنثى(للاهتمام بالاختصاص الذي أفاده اللام اهتماما في مقام التهكم والتسفيه على أن في تقديم وله الأنثى إفادة الاختصاص أي دون الذكر.

وجملة)تلك إذ قسمة ضيزى(تعليل للإنكار والتهكم المفاد من الاستفهام في)ألكم الذكر وله الأنثى(، أي قد جرتم في القسمة وما عدلتم فأنتم أحقاء بالإنكار.

والإشارة ب)تلك(إلى المذكور باعتبار عنه بلفظ)قسمة(فإنه مؤنث اللفظ.

و)إذا(حرف جواب أريد به جواب الاستفهام الإنكاري، أي يترتب على ما زعمتم أن ذلك قسمة ضيزى، أي قسمتم قسمة جائزة.

وضيزى: وزنه فعلى بضم الفاء من ضازه حقه، إذا نقصه، وأصل عين ضاز همزة، يقال: ضازه حقه كمنعه ثم كثر في كلامهم تخفيف الهمزة فقالوا: ضازه بالألف. ويجوز في مضارعه أن يكون يائي العين أو واويها قال الكسائي: يجوز ضاز يضيز، وضازة يضوز. وكأنه يريد أن لك الخيار في المهموز العين إذا خفف أن تلحقه بالواو أو الياء، لكن الأكثر في كلامهم اعتبار العين ياء فقالوا: ضازه حقه ضيزا ولم يقولوا ضوزا لأن الضوز لوك التمر في الفم، فأرادوا التفرقة بين المصدرين، وهذا من محاسن الاستعمال. وعن المورج السدوسي كرهوا ضم الضاد في ضوزى فقالوا: ضيزى. كأنه يريد استثقلوا ضم الضاد، أي في أول الكلمة مع أن لهم مندوحة عنه بالزنة الأخرى.

ووزن ضيزى: فعلى اسم تفصيل مثل كبرى وطوبى شديدة الضيز فلما وقعت الياء الساكنة بعد الضمة حركوه بالكسر محافظة على الياء لئلا يقلبوها واوا فتصير ضوزى وهو ما كرهوه كما قال المؤرج. وهذا كما فعلوا في بيض جمع ابيض ولو اعتبروه تفضيلا من ضاز يضوز لقالوا: ضوزى ولكنهم أهملوه.

وقيل: وزن ضيزي فعلى بكسر الفاء على أنه أسم مثل دفلى وشعرى، ويبعد هذا أنه مشتق فهو بالوصفية أجدر. قال سيبويه: لا يوجد فعلى بكسر الفاء في الصفات، أو على أنه مصدر مثل ذكرى وعلى الوجهين كسرته أصلية.

وقرأ الجمهور)ضيزي(بياء ساكنة بعد الضاد، وقرأه ابن كثير بهمزة ساكنة بعد الضاد مراعاة لأصل الفعل كما تقدم آنفا. وهذا وسم لهم بالجور زيادة على الكفر لأن التفكير في الجور كفعله فإن تخيلات الإنسان ومعتقداته عنوان على أفكاره وتصرفاته.

وجملة)إن هي إلا أسماء سميتموها(استئناف يكر بالإبطال على معتقدهم من أصله بعد إبطاله بما هو من لوازمه على مجاراتهم فيه لإظهار اختلال معتقدهم وفي هذه الجملة احتراس لئلا يتوهم متوهم إنكار نسبتهم البنات لله انه إنكار لتخصيصهم الله بالبنات وأن له أولادا ذكورا وإناثا أو أن مصب الإنكار على زعمهم أنها بنات وليست ببنات فيكون كالإنكار عليهم في زعمهم الملائكة بنات. والضمير)هي(عائد إلى اللات والعزى ومناة. وما صدق الضمير الذات والحقيقة، أي ليست هذه الأصنام إلا أسماء لا مسميات لها ولا حقائق ثابتة وهذا كقوله تعالى)ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها(.

والقصر إضافي، أي هي أسماء لا حقائق عاقلة متصرفة كما تزعمون، وليس القصر حقيقيا لأن لهاته الأصنام مسميات وهي الحجارة أو البيوت التي يقصدونها بالعبادة ويجعلون لها سدنة.

وجملة)ما أنزل الله بها من سلطان(تعليل لمعنى القصر بطريقة الاكتفاء لأن كونها لا حقائق لها في عالم الشهادة أمر محسوس إذ ليست إلا حجارة.

وأما كونها لا حقائق لها من عالم الغيب فلأن عالم الغيب لا طريق إلى إثبات ما يحتويه إلا بإعلام من عالم الغيب سبحانه، أو بدليل العقل كدلالة العالم على وجود الصانع وبعض صفاته والله لم يخبر أحدا من رسله بأن للأصنام أرواحا أو ملائكة، مثل ما أخبر عن حقائق الملائكة والجن والشياطين.

والسلطان: الحجة، وإنزالها من الله: الإخبار بها، وهذا كناية عن انتفاء أن تكون عليها حجة لأن وجود الحجة يستلزم ظهورها، فنفي إنزال الحجة بها من باب:

على لا حب لا يهتدي بمناره أي لا منار له فيهتدي به.

وعبر عن الإخبار الموحى به بفعل)أنزل(لأنه إخبار يرد من العالم العلوي فشبه بالدلاء جسم من أعلى إلى أسفل.

وكذلك عبر عن إقامة دلائل الوجود بالإنزال لأن النظر الفكري من خلق الله وشبه بالإنزال كقوله)هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين(، فاستعمال)ما أنزل الله بها من سلطان(من استعمال اللفظ في معنييه المجازيين. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى) ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس به علم(في

سورة الحج، وتقدم في سورة يوسف قوله)ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان(.
وأكد نفي إنزال السلطان بحرف)من(الزائدة لتوكيد نفي الجنس.
)إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى[23](هذا تحويل عن خطاب المشركين الذي كان ابتداؤه من أول السورة وهو من ضروب الالتفات، وهو استئناف بياني فضمير) يتبعون(عائد إلى الذين كان الخطاب موجها إليهم.
أعقب نفي أن تكون لهم حجة على الخصائص التي يزعمونها لأصنافهم أو على أن الله سماهم بتلك الأسماء بإثبات أنهم استندوا فيها يزعمونه إلى الأوهام وما تحبه نفوسهم من عبادة الأصنام ومحبة سدنتها ومواكب زيارتها، وغرورهم بأنها تسعى في الوساطة لهم عند الله تعالى بما يرغبونه في حياتهم فتلك أوهام وأماني محبوبة لهم يعيشون في غرورها.
وجيء بالمضارع في)يتبعون(للدلالة على أنهم سيسمرون على اتباع الظن وما تهواه نفوسهم وذلك يدل على انهم اتبعوا ذلك من قبل بدلاله لحن الخطاب أو فحواه.
وأصل الظن الاعتقاد غير الجازم، ويطلق على العلم الجازم إذا كان متعلقا بالمغيبات كما في قوله تعالى)الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم(في سورة البقرة، وكثر إطلاقه في القرآن على الاعتقاد الباطل كقوله تعالى)إن يتبعون إلى الظن وإن هم إلا يخرصون(في سورة الأنعام، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث وهو المراد هنا بقرينة عطف)وما تهوى الأنفس(عليه كما عطف)وإن هم إلا يخرصون(على نظيره في سورة الأنعام، وهو كناية عن الخطأ باعتبار لزومه له غالبا كما قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم(.

صفحة : 4193

وهذا التفنن في معاني الظن في القرآن يشير إلى وجوب النظر في الأمر المظنون حتى يلحقه المسلم بما يناسبه من حسن أو ذم على حسب الأدلة، ولذلك استنبط علماؤنا إن الظن لا يغني في إثبات أصول الاعتقاد وأن الظن الصائب تناط به تفاريع الشريعة.
والمراد بما تهوى الأنفس: ما لا باعث عليه إلا الميل الشهواني، دون الأدلة فإن كل الشيء المحبوب قد دلت الأدلة على حقيقته فلا يزيده حبه إلا قبولا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان

تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمساجد وقال وجعلت قرة عيني في الصلاة .
فمناط الذم في هذه الآية هو قصر اتباعهم على ما تهواه أنفسهم.
ثم أن للظن في المعاملات بين الناس والأخلاق النفسانية أحكاما ومراتب غير ما له في الديانات أصولها وفروعها، فمنه محمود ومنه مذموم، كما قال تعالى)إن بعض الظن إثم(وقيل: الحزن سوء الظن بالناس.
والتعريف في)الأنفس(عوض عن المضاف إليه، أي وما تهواه أنفسهم و)ما(موصولة.
وعطف)وما تهوى الأنفس(على الظن عطف العلة على المعلول،أي الظن الذي يبعثهم على اتباعهم انه موافق لهداهم وإلفهم.
وجملة)ولقد جاءهم من ربهم الهدى(حالية مقررة للتعجيب من حالهم، أي يستمرون على اتباع الظن والهوى في حال أن الله أريل إليهم رسولا بالهدى.
ولام القسم لتأكيد الخبر للمبالغة فيما يتضمنه من التعجيب من حالهم كأن المخاطب يشك في أنه جاءهم ما فيه هدى مقنع لهم من جهة استمرارهم على ضلالهم استمرارا لا يظن مثله بعاقل.
والتعبير عن الجلالة بعنوان)ربهم(لزيادة التعجيب من تصاممهم عن سماع الهدى مع أنه ممن تجب طاعته فكان ضلالهم مخلوطا بالعصيان والتمرد على خالقهم.
والتعريف في)الهدى(للدلالة على معنى الكمال، أي الهدى الواضح.
)أم للإنسان ما تمنى[24] فلله الآخرة والأولى[25](إضراب انتقالي ناشئ عن قوله)وما تهوى الأنفس(.
والاستفهام المقدر بعد)أم(إنكاري قصد به إبطال نوال الإنسان ما يتمناه وأن يجعل ما يتمناه باعثا عن أعماله ومعتقداته بل عليه أن يتطلب الحق من دلائله وعلاماته وإن خالف ما يتمناه. وهذا متصل بقوله)إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى(.
وهذا تأديب وترويض للنفوس على تحمل ما يخالف أهواءها إذا كان الحق مخالفا للهوى وليحمل نفسه عليه حتى تتخلق به.
وتعريف)الإنسان(تعريف الجنس ووقوعه في حيز الإنكار المساوي للنفي جعله عاما في كل إنسان.
والموصول في)ما تمنى(بمنزلة المعرف بلام الجنس ووقوعه في حيز الاستفهام الإنكاري الذي بمنزلة النفي يقتضي العموم، أي ما للإنسان شيء مما تمنى، أي ليس الشيء جاريا على إرادته بل

على إرادة الله وقد شمل ذلك كل هوى دعاهم إلى الإعراض عن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فشمل تمنيهم شفاعة الأصنام وهو الأهم من أحوال الأصنام عندهم وذلك ما يؤفن به قوله بعد هذا)وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا(الآية. وتمنيهم أن يكون الرسول ملكا وغير ذلك نحو قوله)لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم(، وقولهم)ائت بقرآن غير هذا أو بدله(.

وفرع على الإنكار أن الله مالك الآخرة والأولى، أي فهو يتصرف في أحوال أهلهما بحسب إرادته لا بحسب تمني الإنسان. وهذا إبطال لمعتقدات المشركين التي منها يقينهم بشفاعة أصنامهم.

وتقديم المجرور في)للإنسان ما تمنى(، لأن محط الإنكار هو أمنيتهم أن تجري الأمور على حسب أهوائهم فلذلك كانوا يعرضون عن كل ما يخالف أهوائهم، فتقديم المعمول هنا لإفادة القصر وهو قصر قلب، أي ليس ذلك مقصورا عليهم كما هو مقتضى حالهم فنزلوا منزلة من يرون الأمور تجري على ما يتمنون، أي بل أماني الإنسان بيد الله يعطي بعضها ويمنع بعضها كما دل عليه التفريع عقبه بقوله)فلله الآخرة والأولى(.

وهذا من معاني الحكمة لأن رغبة الإنسان في أن يكون ويتمناه حاصلا رغبة لو تبصر فيها صاحبها لوجد تحقيقها متعذرا لأن ما يتمناه أحد يتمناه غيره فتتعارض الأماني فإذا أعطي لأحد ما يتمناه حرم من يتمنى ذلك معه فيفضي ذلك إلى تعطيل الأمنيتين بالأخارة، والقانون الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون أن الحظوظ مقسمة، ولكل أحد نصيب، ومن حق العاقل أن يتخلق على الرضا بذلك وإلا كان الناس في عيشة مريرة. وفي الحديث لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها ولتقعد فإن لها ما كتب لها .

وتفريع)فلله الآخرة والأولى(تصريح بمفهوم القصر الإضافي كما علمت آنفا. وتقديم المجرور لإفادة الحصر، أي لله لا للإنسان.

والآخرة: العالم الأخروي، والأولى: العالم الدنيوي. والمراد بهما ما يحتويان عليه من الأمور، أي أمور الآخرة وأمور الأولى، والمقصود من ذكرهما تعميم الأشياء مثل قوله)رب المشرقين ورب المغربين(.

وإنما قدمت الآخرة للاهتمام بها والتثنية إلا أنها التي يجب أن يكون اعتناء المؤمنين بها لأن الخطاب في هذه الآية للنبي صلى

الله عليه وسلم والمسلمين، مع ما في هذا التقديم من الرعاية للفاصلة.

)وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى[26](لما بين الله أن أمور الدارين بيد الله تعالى وأن ليس للإنسان ما تمنى، ضرب لذلك مثالا من الأماني التي هي أعظم أماني المشركين وهي قولهم في الأصنام) ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى(وقولهم)هؤلاء شفعاؤناعند الله(، فبين إبطال قولهم بطريق فحوى الخطاب وهو أن الملائكة الذين لهم شرف المنزلة لأن الملائكة من سكان السماوات)فهم لا يستطيعون إنكار أنهم أشرف من الأصنام(لا يملكون الشفاعة إلا إذا أذن الله أن يشفع اذا شاء أن يقبل الشفاعة في المشفوع له، فكيف يكون للمشركين ما تمنوا من شفاعة الأصنام للمشركين اللذين يقولون)هؤلاء شفعاؤنا عند الله(وهي حجارة في الأرض وليست ملائكة في السماوات، فثبت أن لا شفاعة إلا لمن شاء الله، وقد نفى الله شفاعة الأصنام فبطل اعتقاد المشركين أنهم شفعاؤهم، فهذه مناسبة عطف هذه الجملة على جملة)أم للإنسان ما تمنى(. وليس هذا الانتقال اقتضابا لبين عظم أمر الشفاعة.

و)كم(اسم يدل على كثرة العدد وهو مبتدأ والخبر)لا تغني شفاعتهم(.

وقد تقدم الكلام على)كم(في قوله تعالى)سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة(في سورة البقرة، وقوله)وكم من قرية أهلكناها(في الأعراف.

و)في السماوات(صفة)لملك(. والمقصود منها بيان شرفهم بشرف العالم الذي هم أهله، وهو عالم الفضائل ومنازل الأسرار.

وجملة)لا تغني شفاعتهم(الخ، خبر عن)كم(، أي لا تغني شفاعة أحدهم فهو عام بوقوع الفعل في سياق النفي، ولإضافة شفاعة إلى ضميرهم، أي جميع الملائكة على كثرتهم وعلو مقدارهم لا تغني شفاعة واحد منهم.

و)شيئا(مفعول مطلق للتعميم، أي شيئا من الإغناء لزيادة التنصيص على عموم نفي إغناء شفاعتهم.

ولما كان ظاهر قوله)لا تغني شفاعتهم(يوهم أنهم قد يشفعون فلا تقبل شفاعتهم وليس ذلك مرادا لأن المراد أنهم لا يجرأون على الشفاعة عند الله فلذلك عقب بالاستثناء بقوله)إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى(، وذلك ما اقتضاه قوله)ولا يشفعون إلا لمن ارتضى(وقوله)من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه(أي إلا من بعد أن يأذن الله لأحدهم في الشفاعة ويرضى بقبولها في المشفوع له.

فالمراد ب)من يشاء(من يشاؤه الله منهم، أي فإذا أذن لأحدهم قبلت شفاعته. واللام في قوله)لمن يشاء(هي اللام التي تدخل بعد مادة الشفاعة على المشفوع له فهي متعلقة بشفاعتهم عن حد قوله تعالى)ولا يشفعون إلا لمن ارتضى(، وليست اللام متعلقة ب)يأذن الله(. ومفعول)يأذن(محذوف دل علي قوله)لا تغني شفاعتهم(. وتقديره: أن يأذنهم الله.

صفحة : 4195

ويجوز أن تكون اللام لتعدية)يأذن(إذ أريد به معنى يستمع، أي أن يظهر لمن يشاء منهم أنه يقبل منه. ومعنى ذلك أن الملائكة لا يزالون يتقربون بطلب إلحاق المؤمنين بالمراتب العليا كما دل عليه قوله تعالى)ويستغفرون للذين آمنوا(وقوله)ويستغفرون لمن في الأرض(فإن الاستغفار دعاء والشفاعة توجه أعلى، فالملائكة يعلمون إذ أراد الله استجابة دعوتهم في بعض المؤمنين أذن لأحدهم أن يشفع له عند الله فيشفع فتقبل شفاعته، فهذا تقريب كيفية الشفاعة. ونظيره ما ورد في حديث شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في موقف الحشر.
وعطف)ويرضى(على)لمن يشاء(للإشارة إلى أن إذن الله بالشفاعة يجري على حسب إرادته إذا كان المشفوع له أهلا لن يشفع له. وفي هذا الإبهام تحريض للمؤمنين أن يجتهدوا في التعرض لرضى الله عنهم ليكونوا أهلا للعفو عما فرطوا فيه من الأعمال.
)إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى[27] وما لهم به من علم(اعتراض واستطراد لمناسبة ذكر الملائكة وتبعا لما ذكر آنفا من جعل المشركين اللات والعزى ومناة بنات لله بقوله)أفرأيتم اللات والعزى(إلى قوله)ألكم الذكر وله الأنثى(ثني إليهم عنان الرد والإبطال لزعمهم أن الملائكة بنات الله جمعا بين رد باطلين متشابهين، وكان مقتضى الظاهر أن يعبر عن المردود عليهم بضمير الغيبة تبعا لقوله)إن يتبعون إلا الظن(، فعدل عن الإضمار إلى الإظهار بالموصولية لما تؤذن به الصلة من التوبيخ لهم والتحقير لعقائدهم إذ كفروا بالآخرة وقد تواتر على ألسنة الرسل وعند أهل الأديان المجاورين لهم من اليهود والنصارى والصابئة، فالموصولية هنا مستعملة في التحقير والتهكم نظير حكاية الله عنهم)وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون(إلا أن التهكم المحكي هنالك تهكم المبطل بالمحق لأنهم لا يعتقدون وقوع الصلة،

وأما التهكم هنا فهو تهكم المحق بالمبطل لأن مضمون الصلة ثابت لهم.

والتسمية مطلقة هنا على التوصيف لأن الاسم قد يطلق على اللفظ الدال على المعنى وقد يطلق على المدلول المسمى ذاتا كان أو معنى كقول لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما أي السلام عليكما، وقوله تعالى)سبح اسم ربك الأعلى(وقوله تعالى)عينا فيها تسمى سلسبيلا(أي توصف بهذا الوصف في حسن مآبها، وقوله تعالى)هل تعلم له سميا(، أي ليس لله مثيل وقد مر بيانه مستوفي عند تفسير)بسم الله الرحمن الرحيم(في أول الفاتحة.

والمعنى: أنهم يزعمون الملائكة إناثا وذلك توصيف قال تعالى) وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا(، وكانوا يقولون الملائكة بنات الله من سروات الجن قال تعالى)وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون(وقال)وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا(.

والتعريف في)الأنثى(تعريف الجنس الذي هو في معنى المتعدد والذي دعا إلى هذا النظم مراعاة الفواصل ليقع لفظ)الأنثى(فاصلة كما وقع لفظ)الأولى(ولفظ)يرضى(ولفظ)شيئا(.

وجملة)وما لهم به من علم(حال من ضمير)يسمون(، أي يثبتون للملائكة صفات الأنثى في حال انتفاء علم منهم بذلك وإنما هو تخيل وتوهم إذ العلم لا يكون إلا عن دليل لهم فنفي العلم مراد به نفيه ونفي الدليل على طريقة الكناية.

)إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا[28] (موقع هذه الجملة ذو شعب: فإن فيها بيانا لجملة)وما لهم به من علم(وعودا إلى جملة)إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس(، وتأكيدا لمضمونها وتوطئة لتفريع)فأعرض عمن تولى عن ذكرنا(.

واستعير الاتباع للأخذ بالشيء واعتقاد مقتضاه أي ما يأخذون في ذلك إلا بدليل الظن المخطئ.

وأطلق الضن على الاعتقاد المخطئ كما هو غالب إطلاقه مع قرينة قوله عقبه)وإن الضن لا يغني من الحق شيئا(وتقدم نظيره آنفا.

وأظهر لفظ)الظن(دون ضميره لتكون الجلة مستقلة بنفسها فتسير مسير الأمثال.

ونفي الإغناء معناه نفي الإفادة، أي لا يفيد شيئا من الحق فحرف)من(بيان وهو مقدم على المبين أعني شيئا.

و)شيئا(منصوب على المفعول به ل)يغني(.

والمعنى: أن الحق حقائق الأشياء على ما هي عليه وإدراكها هو العلم)المعرف بأنه تصور المعلوم على ما هو عليه(والظن لا يفيد ذلك الإدراك بذاته فلو صادف الحق فذلك على وجه الصدفة والاتفاق، وخاصة الظن المخطئ كما هنا.

)فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا[29] ذلك مبلغهم من العلم(بعد أن وصف مداركهم الباطلة وضلالهم فرع عليه أمر نبيه)ص 9 بالإعراض عنهم ذلك لأن ما تقدم من وصف ضلالهم كان نتيجة إعراضهم عن ذكر الله وهو التولي عن الذكر فحق أن يكون جزاؤهم عن ذلك الإعراض إعراضا عنهم فإن الإعراض والتولي مترادفان أو متقاربان فالمراد ب)من تولى(الفريق الذين أعرضوا عن القرآن وهم المخاطبون آنفا بقوله)ما ضل صاحبكم وما غوى(وقوله)أفرأيتم اللات والعزى(والمخبر عنهم بقوله)إن يتبعون إلا الظن(الخ وقوله)إن الذين لا يؤمنون بالآخرة(الخ.

والإعراض والتولي كلاهما مستعمل هنا في مجازه؛ فأما الإعراض فهو مستعار لترك المجادلة أو لترك الاهتمام بسلامتهم من العذاب وغضب الله، وأما التولي فهو مستعار لعدم الاستماع أو لعدم الامتثال.

وحقيقة الإعراض: لفت الوجه عن الشيء لأنه مشتق من العارض وهو صفحة الخد لأن الكاره لشيء يصرف عنه وجهه.

وحقيقة التولي: الإدبار والإنصراف، وإعراض النبي صلى الله عليه وسلم عنهم المأمور به مراد به عدم الاهتمام بنجاتهم لأنهم لم يقبلوا الإرشاد وإلا فإن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور بإدامة دعوتهم للإيمان فكما كان يدعوهم قبل نزول هذه الآية فقد دعاهم غير مرة بعد نزولها، على أن الدعوة لا تختص بهم فإنها ينتفع بها المؤمنون، ومن لم يسبق منه إعراض من المشركين فإنهم يسمعون ما أنذر به المعرضون ويتأملون فيما تصفهم به آيات القرآن، وبهذا تعلم أن لا علاقة لهذه الآية وأمثالها بالمتاركة ولا هي منسوخة بآيات القتال.

وقد تقدم الكلام على ذلك في قوله)فأعرض عنهم وعظهم(في سورة النساء وقوله)وأعرض عن المشركين(في سورة الأنعام، فضم إليه ما هنا.

وما صدق)من تولى(القوم الذين تولوا وإنما جرى الفعل على صيغة المفرد مراعاة للفظ)من(ألا ترى قوله)ذلك مبلغهم(بضمير الجمع.

وجيء بالاسم الظاهر في مقام الإضمار فقيل)فأعرض عن من تولى عن ذكرنا(دون: فأعرض عنهم لما تؤذن به صلة الموصول من علة الأمر بالإعراض عنهم ومن ترتب توليهم عن ذكر الله على ما سبق وصفه من ضلالهم إذ لم يتقدم وصفهم بالتولي عن الذكر وإنما تقدم وصف أسبابه.

والذكر المضاف إلى ضمير الجلالة هو القرآن.

ومعنى)ومن لم يرد إلا الحياة الدنيا(كناية عن عدم الإيمان بالحياة الآخرة كما دل عليه قوله)ذلك مبلغهم من العلم(لأنهم لو آمنوا بها على حقيقتها لأرادوها ولو ببعض أعمالهم.

وجملة)ذلك مبلغهم من العلم(اعتراض وهو استئناف بياني بين به سبب جهلهم بوجود الحياة الآخرة لأنه لغرابته مما يسأل عنه السائل وفيه تحقير لهم وازدراء بهم بقصور معلوماتهم.

وهذا الاستئناف وقع معترضا بين الجمل وعلتها في قوله)أن ربك هو أعلم بمن ضل عنه سبليه(الآية.

وأعني حاصل قوله)ولم يرد إلا الحياة الدنيا(.

وقوله)ذلك(:إشارة إلى المذكور في الكلام السابق من قوله)ولم يرد إلا الحياة الدنيا(استعير للشيء الذي لم يعلموه اسم الحد الذي يبلغ إليه السائر فلا يعلم ما بعده من البلاد.

)إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى[30](تعليل لجملة)فاعرض عن من تولى(وهو تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والخبر مستعمل في معنى أنه متولي حسابهم وجزائهم على طريقة الكناية، وفيه وعيد للضالين. والتوكيد المفاد ب)إن(وبضمير الفعل راجع إلى المعنى الكنائي، وأما كونه تعالى أعلم بذلك فلا مقتضى لتأكيدها لما كان المخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: هو أعلم منك بحالهم.

وضمير الفصل مفيد القصر وهو قصر حقيقي. والمعنى: أنت لا تعلم دخائلهم فلا تتحسر عليهم.

وجملة)وهو أعلم بمن اهتدى(تتميم، وفيه وعد للمؤمنين وبشارة للنبي صلى الله عليه وسلم. والباء في ب)من ضل(في ب)من اهتدى(لتعدية صفتي)أعلم(وهي للملابسة، أي هو أشهد علما ملابسا لمن ضل عن سبيله، أي ملابسا لحال هذا المقام، وأما ذكر المهتدين فتتميم.

)ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى[31] الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة(عطف على قوله)إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله(الخ فبعد أن ذكر أن لله أمور الدارين بقوله)فلله الآخرة والأولى(انتقل إلى أهم ما يجزي في الدارين من أحوال الناس الذين هم أشرف ما على الأرض بمناسبة قوله)أن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله(المراد به الإشارة إلى الجزاء وهو إثبات لوقوع البعث والجزاء.

فالمقصود الأصلي من هذا الكلام هو قوله)ما في الأرض(لأن المهم ما في الأرض إذ هم متعلق الجزاء، وإنما ذكر معه ما في السماوات على وجه التتميم للإعلام بإحاطة ملك الله لما احتوت عليه العوالم كلها ونكتة الابتداء بالتتميم دون تأخيره الذي هو مقتضى ظاهر في التتميمات هي الاهتمام بالعالم العلوي لأنه أوسع وأشرف وليكون المقصود وهو قوله)ليجزي الذين أساءوا بما عملوا(الآية مقترنا بما يناسبه من ذكر ما في الأرض لأن المجزيين هم أهل الأرض، فهذه نكتة مخالفة مقتضى الظاهر.

فيجوز أن يتعلق قوله)ليجزي(بما في الخبر من معنى الكون المقدر في الجار والمجرور المخبر به عن)ما في السماوات وما في الأرض(أي كائن ملكا لله كونا علته أن يجزي الذين أساءوا والذين أحسنوا من أهل الأرض، وهم الذين يصدر منهم الإساءة والإحسان فاللام في قوله)ليجزي(لام التعليل، جعل الجزاء علة لثبوت ملك الله لما في السماوات والأرض.

ومعنى هذا التعليل أن من الحقائق المرتبطة بثبوت ذلك الملك ارتباطا أوليا في التعقل والاعتبار لا في إيجاد، فأن ملك الله لما في السماوات وما في الأرض ناشىء عن إيجاد الله تلك المخلوقات والله حين أوجدها عالم إن لها حياتين وإن لها أفعالا حسنة وسيئة في الحياة الدنيا وعالم أنه مجزيها على أعمالها بما يناسبها جزاء خالدا في الحياة الآخرة فلا جرم كان الجزاء غاية لإيجاد على الأرض فاعتبر هو العلة في إيجادهم وهي علة باعثة يحتمل أن يكون معها غيرها لأن العلة الباعثة يكمن تعددها في الحكمة.

ويجوز أن يتعلق بقوله)أعلم(من قوله)هو أعلم بمن ضل عن سبيله(، أي من خصائص علمه الذي لا يعزب عنه شيء أن يكون علمه مرتبا عليه الجزاء.

والباء في قوله)بما عملوا(وقوله)بالحسنى(لتعديد فعلي) ليجزي(و)يجزي(فما بعد الباءين في معنى مفعول الفعلين، فهما داخلتان على الجزاء وقوله)بما عملوا(حين إذ تقديره: بمثل ما

عملوا، أي جزاء عاملا مماثلا لما عملوا، فلذلك جعل بمنزلة عين ما عملوه على طريقة التشبيه البليغ.
وقوله)بالحسنى(أي بالمثوبة الحسنى، أي بأفضل مما عملوا، وفيه إشارة مضاعفة الحسنات كقوله)من جاء بالحسنة فله خيرا منها(.
والحسنى: صفة لموصوف محذوف يدل عليه)يجزي(وهي المثوبة بمعنى الثواب.
وجاء ترتيب التفصيل لجزاء المسيئين والمحسنين على وفق ترتيب إجماله الذي في قوله)إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى(على طريقة اللف والنشر المرتب.
وقوله)الذين يجتنبون كبائر الإثم(الخ صفة للذين أحسنوا، أي الذين أحسنوا واجتنبوا كبائر الإثم والفواحش، أي فعلوا الحسنات واجتنبوا المنهيات، وذلك جامع التقوى. وهذا تنبيه على أن اجتناب ما ذكر يعد من الإحسان لأن الفعل السيئات ينافي وصفهم بالذين احسنوا فانهم إذا آتوا بالحسنات كلها ولم يتركوا السيئات كان فعلهم السيئات غير إحسان ولو تركوا السيئات وتركوا الحسنات كان تركهم الحسنات السيئات.
وقرأ الجمهور)كبائر الإثم(بصيغة جمع)كبيرة(. وقرأه حمزة والكسائي)كبير الإثم(بصيغة الإفراد والتذكير لأن اسم الجنس يستوي فيه المفرد والجمع.
والمراد بكبائر الإثم: الآثام الكبيرة فيما شرع الله وهي ما شدد دين التحذير منه أو ذكر وعيدا بالعذاب أو وصف على فاعله حدا.

صفحة : 4198

قال إمام الحرمين: الكبائر كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين وبرقة ديانته .
وعطف الفواحش يقتضي أن المعطوف بها مغاير للكبائر ولكنها مغايرة بالعموم والخصوص الوجهي، فالفواحش أخص من الكبائر وهي أقوى إثما.
والفواحش: الفعلات التي يعد الذي فعلها متجاوزا الكبائر مثل الزنى والسرقة وقتل الغيلة، وقد تقدم في تفسير ذلك في سورة الأنعام عند قوله تعالى)قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن(الآية وفي سورة النساء في قوله)يا وفي إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه(.
واستثناء اللمم استثناء منقطع لأن اللمم ليس من كبائر الإثم ولا من الفواحش.

فالاستثناء بمعنى الاستدراك. ووجهه أن ما سمي باللمم ضرب من المعاصي المحذر منها في الدين، فقد يظن الناس أن النهي عنها يلحقها بكبائر الإثم فلذلك حق الاستدراك، وفائدة هذا الاستدراك عامة وخاصة: أما العمة فلكي لا يعامل المسلمون مرتكب شيء منها معاملة من يرتكب الكبائر، وأما الخاصة فرحمة بالمسلمين الذين قد يرتكبونها فلا يفل ارتكابها من نشاط طاعة المسلم ولينصرف اهتمام إلى تجنب الكبائر. فهذا الاستدراك بشارة لهم، وليس المعنى أن الله رخص في إتيان اللمم. وقد أخطأ وضاح اليمن في قوله الناشىء عن سوء فهمه في كتاب الله وتطفله في غير صناعته:

فما نولت حتى تضرعت عندها

وأنبأتها ما رخص الله في اللمم واللمم: الفعل الحرام الذي هو دون الكبائر والفواحش في تشديد التحريم، وهو ما يندر ترك الناس له فيكتفي منهم بعدم الإكثار من ارتكابه. وهذا النوع يسميه علماء الشريعة الصغائر في مقابلة تسمية النوع الآخر.

فمثلوا اللمم في الشهوات المحرمة بالقبلة والغمزة. سمي: اللمم، وهو اسم مصدر ألم بالمكان إلماما إذا حل به ولم يطل المكث، ومن أبيات الكتاب:

قريشي منكم وهواي معكم وإن كانت زيارتكم لماما وقد قيل إن هذه الآية نزلت في رجل يسمى نبهان التمار كان له دكان يبيع فيه تمرا أي بالمدينة فجاءته امرأة تشتري تمرا فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها على نفسها فأبت فندم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته أي غصبا عليها إلا الجماع ، فنزلت هذه الآية، أي فتكون هذه الآية مدنية ألحقت بسورة النجم المكية كما تقدم في أول السورة.

والمعنى: أن الله تجاوز له لأجل توبته. ومن المفسرين من فسر اللمم بالهم بالسيئة ولا يفعل فهو إلمام مجازي.

وقوله)إن ربك واسع المغفرة(تعليل لاستثناء اللمم من اجتنابهم كبائر الإثم والفواحش شرطا في ثبوت وصف)الذين أحسنوا(لهم.

وفي بناء الخبر على جعل المسند إليه)ربك(دون الاسم العلم إشعار بأن سعة المغفرة رفق بعباده الصالحين شأن الرب مع مربوبه الحق.

وفي إضافة)رب(إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم دون ضمير الجماعة إيماء إلى أن هذه العناية بالمحسنين من أمته قد حصلت لهم ببركته.

والواسع: الكثير المغفرة، استعيرت السعة لكثرة الشمول لأن المكان الواسع يمكن أن يحتوي على العدد الكثير ممن يحل فيه قال تعالى)ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما(، وتقدم في سورة غافر.
هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى[32](

صفحة : 4198

قال إمام الحرمين: الكبائر كل جريمة تؤذن بقلة اكترات مرتكبها بالدين وبرقة ديانته .
وعطف الفواحش يقتضي أن المعطوف بها مغاير للكبائر ولكنها مغايرة بالعموم والخصوص الوجهي، فالفواحش أخص من الكبائر وهي أقوى إثما.
والفواحش: الفعلات التي يعد الذي فعلها متجاوزا الكبائر مثل الزنى والسرقة وقتل الغيلة، وقد تقدم في تفسير ذلك في سورة الأنعام عند قوله تعالى)قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن(الآية وفي سورة النساء في قوله)يا وفي إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه(.
واستثناء اللمم استثناء منقطع لأن اللمم ليس من كبائر الإثم ولا من الفواحش.
فالاستثناء بمعنى الاستدراك. ووجهه أن ما سمي باللمم ضرب من المعاصي المحذر منها في الدين، فقد يظن الناس أن النهي عنها يلحقها بكبائر الإثم فلذلك حق الاستدراك، وفائدة هذا الاستدراك عامة وخاصة: أما العمة فلكي لا يعامل المسلمون مرتكب شيء منها معاملة من يرتكب الكبائر، وأما الخاصة فرحمة بالمسلمين الذين قد يرتكبونها فلا يفل ارتكابها من نشاط طاعة المسلم ولينصرف اهتمام إلى تجنب الكبائر. فهذا الاستدراك بشارة لهم، وليس المعنى أن الله رخص في إتيان اللمم. وقد أخطأ وضاح اليمن في قوله الناشىء عن سوء فهمه في كتاب الله وتطفله في غير صناعته:
فما نولت حتى تضرعت عندها
وأنبأتها ما رخص الله في اللمم واللمم: الفعل الحرام الذي هو دون الكبائر والفواحش في تشديد التحريم، وهو ما يندر ترك الناس له فيكتفي منهم بعدم الإكثار من ارتكابه. وهذا النوع يسميه علماء الشريعة الصغائر في مقابلة تسمية النوع الآخر.

فمثلوا اللمم في الشهوات المحرمة بالقبلة والغمزة. سمي: اللمم، وهو اسم مصدر ألم بالمكان إلماما إذا حل به ولم يطل المكث، ومن أبيات الكتاب:

قريشي منكم وهواي معكم وإن كانت زيارتكم لماما وقد قيل إن هذه الآية نزلت في رجل يسمى نبهان التمار كان له دكان يبيع فيه تمرا أي بالمدينة فجاءته امرأة تشتري تمرا فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها على نفسها فأبت فندم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته أي غصبا عليها إلا الجماع ، فنزلت هذه الآية، أي فتكون هذه الآية مدنية ألحقت بسورة النجم المكية كما تقدم في أول السورة.

والمعنى: أن الله تجاوز له لأجل توبته. ومن المفسرين من فسر اللمم بالهم بالسيئة ولا يفعل فهو إلمام مجازي.

وقوله)إن ربك واسع المغفرة(تعليل لاستثناء اللمم من اجتنابهم كبائر الإثم والفواحش شرطا في ثبوت وصف)الذين أحسنوا(لهم.

وفي بناء الخبر على جعل المسند إليه)ربك(دون الاسم العلم إشعار بأن سعة المغفرة رفق بعباده الصالحين شأن الرب مع مربوبه الحق.

وفي إضافة)رب(إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم دون ضمير الجماعة إيماء إلى أن هذه العناية بالمحسنين من أمته قد حصلت لهم ببركته.

والواسع: الكثير المغفرة، استعيرت السعة لكثرة الشمول لأن المكان الواسع يمكن أن يحتوي على العدد الكثير ممن يحل فيه قال تعالى)ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما(، وتقدم في سورة غافر.

هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى[32](

الخطاب للمؤمنين، ووقوعه عقب قوله)ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى(ينبئ عن اتصال معناه بمعنى ذلك فهو غير موجه لليهود كما في أسباب النزول للواحدي وغيره. وأصله لعبد الله بن لهيعة عن ثابت بن حارث الأنصاري. قال: كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير يقولون: هو صديق، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد ، فأنزل الله هذه الآية. وعبد

الله بن لهيعة ضعفه ابن معين وتركه وكيع ويحيى القطان وابن مهدي. وقال الذهبي: العمل على تضعيفه، قلت: لعل أحد رواة هذا الحديث لم يضبط فقال: فانزل الله هذه الآية، وإنما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذا بعموم قوله)هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض(الخ، حجة عليهم، وإلا فإن السورة مكية والخوض مع اليهود إنما كان بالمدينة.

وقال ابن عطية: حكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم. وكأن الباعث على تطلب سبب لنزولها قصد إبداء وجه اتصال قوله)فلا تزكوا أنفسكم(بما قبله وما بعده وأنه استيفاء لمعنى سعة المغفرة ببيان سعة الرحمة واللطف بعباده إذ سلك بهم مسلك اليسر والتخفيف فعفا عما لو أخذهم به لأحرجهم فقوله)هو أعلم بكم(نظير قوله)الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا(الآية ثم يجيء الكلام في التفريع بقوله)فلا تزكوا أنفسكم(.

فينبغي أن تحل جملة)هو أعلم بكم(إلى آخرها استئنافا بيانيا لجملة)إن ربك واسع المغفرة(لما تضمنته جملة)إن ربك واسع المغفرة(من الامتنان، فكأن السامعين لما يسمعوا ذلك الامتنان شكروا الله وهجس في نفوسهم خاطر البحث عن سبب هذه الرحمة بهم فأجيبوا بأن ربهم أعلم بحالهم من أنفسهم فهو يدبر لهم ما لا يخطر ببالهم، ونظيره ما في الحديث القدسي قال الله تعالى)أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر خيرا من بله ما اطلعتم عليه.

وقوله)إذ أنشأكم(ظرف متعلق ب)أعلم(، أي هو أعلم بالناس من وقت إنشائه إياهم من الأرض وهو وقت خلق أصلهم آدم.

والمعنى: أن إنشاءهم من الأرض يستلزم ضعف قدرهم عن تحمل المشاق مع تفاوت أطوار نشأة بني آدم، فالله علم ذلك وعلم أن آخر الأمم وهي أمة النبي صلى الله عليه وسلم أضعف الأمم. وهذا المعنى هو الذي جاء في حديث الإسراء من قول موسى لمحمد عليهما السلام حين فرض الله على أمته خمسين صلاة إن أمتك لا تطيق ذلك وأني جربت بني إسرائيل أي وهم أشد من أمتك قوة، فالمعنى أن الضعف المقتضي لسعة التجاوز بالمغفرة مقررفي علم الله من حين إنشاء آدم من الأرض بالضعف الملازم لجنس البشر على تفاوت فيه قال تعالى)وخلق الإنسان ضعيفا(، فإن إنشاء أصل الإنسان من الأرض وهي عنصر ضعيف يقتضي ملازمة الضعف لجميع الأفراد المنحدرة من ذلك الأصل. ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم إن المرأة خلقت من ضلع أعوج .

وقوله)وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم(يختص بسعة المغفرة والرفق بهذه الأمة وهو مقتضى قوله تعالى)يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر(.

والأجنة: جمع جنين، وهو نسل الحيوان ما دام في الرحم، وهو فعيل بمعنى مفعول لأنه مستور في ظلمات ثلاث.

و)في بطون أمهاتكم(صفة كاشفة إذ الجنين لا يقال إلا على ما في بطن أمه.

وفائدة هذا الكشف أن فيه تذكيرا باختلاف أطوار الأجنة من وقت العلوق إلى الولادة، وإشارة إلى إحاطة علم الله تعالى بتلك الأطوار.

وجملة)فلا تزكوا أنفسكم(اعتراض بين جملة)هو أعلم بكم(وجملة)أفرأيت الذي تولى(الخ، والفاء لتفريع الاعتراض، وهو تحذير للمؤمنين من العجب بأعمالهم الحسنة عجبا يحدثه المرء في نفسه أو يدخله أحد على غيره بالثناء عليه بعمله.

و)تزكوا(مضارع زكى الذي هو من التضعيف المراد منه نسبة المفعول إلى أصل الفعل نحو جهله، أي لا تنسبوا لأنفسكم الزكاة.

فقوله)أنفسكم(صادق بتزكية المرء نفسه في سره أو علانيته فرجع الجمع في قوله)فلا تزكوا(إلى مقابلة الجمع بالجمع التي تقتضي التوزيع على الآحاد مثل: ركب القوم دوابهم.

والمعنى: لا تحسبوا أنفسكم أزكياء وابتغوا زيادة التقرب إلى الله أولا تثقوا بأنكم أزكياء فيدخلكم العجب بأعمالكم ويشمل ذلك ذكر المرء أعماله الصالحة للتفاخر بها، أو إظهارها للناس، ولا يجوز ذلك إلا إذا كان فيه جلب مصلحة عامة كما قال يوسف)اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم(. وعن الكلبي ومقاتل: كان الناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا وجهادنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ويشمل تزكية المرء غيره فيرجع)أنفسكم(إلى معنى قومكم أو جماعتكم مثل قوله تعالى)فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم(أي ليسلم بعضكم على بعض. والمعنى: فلا يثني بعضكم على بعض بالصلاح والطاعة لئلا يغيره ذلك.

وقد ورد النهي في أحاديث عن تزكية الناس بأعمالهم. ومنه حديث أم عطية حين مات عثمان بن مظعون في بيتها ودخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أم عطية رحمة الله عليك أبا

السائب كنية عثمان بن مظعون فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما يدريك أن الله أكرمه، فقالت: إذا لم يكرمه الله فمن يكرمه الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير وإني والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي. قالت أم عطية: فلا أزكي أحدا بعد ما سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد شاع من آداب عصر النبوة بين الصحابة التحرز من التزكية وكانوا يقولون: إذ أثنوا على أحد لا أعلم عليه إلا خيرا ولا أزكي على الله أحدا.

وروى مسلم عن محمد بن عمرو وبن عطاء قال: سميت ابنتي برة فقالت لي زينب بنت بن سلمة إن رسول الله نهى عن هذا الاسم. وسميت برة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم، قالوا: بم نسميها؟ قال: سموها زينب .

وقد ظهر أن النهي متوجه إلى أن يقول أحد ما يفيد زكاء النفس، أي طهارتها وصلاحها، تفويضا بذلك إلى الله لأن للناس بواطن مختلفة الموافقة لظواهرهم وبين أنواعها بون. وهذا من التأديب على التحرز في الحكم والحيطة في الخبرة واتهام القرائن والبوارق.

فلا يدخل في هذا النهي الإخبار عن أحوال الناس بما يعلم منهم وجربوا فيه من ثقة وعدالة في الشهادة والرواية وقد يعبر عن التعديل بالتزكية وهو لفظ لا يراد به مثلما أريد من قوله تعالى)فلا تزكوا أنفسكم(بل هو لفظ اصطلح عليه الناس بعد نزول القرآن ومرادهم منه واضح.

ووقعت جملة)هو ألم بمن اتقى(موقع البيان لسبب النهي أو لأهم أسبابه، أي فوضوا ذلك إلى الله إذ هو أعلم بمن اتقى، أي بحال من اتقى من كمال تقوى أو نقصها أو تزييفها. وهذا معنى ما ورد في الحديث أن يقول من يخبر عن أحد بخير لا أزكي على الله أحدا أي لا أزكي أحدا معتليا حق الله، أي متجاوزا قدري.

)أفرأيت الذي تولى[33] وأعطى قليلا وأكدى[34] أعنده علم الغيب فهو يرى[35](الفاء لتفريع الاستفهام التعجيبي على قوله)ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى(إذ كان حال هذا الذي تولى وأعطى قليلا وأكدا جهلا بأن للإنسان ما سعى، وقد حصل في وقت نزول الآية المتقدمة أو قبلها حادث أنبأ عن سوء الفهم لمراد الله من عباده مع أنه واضح لمن صرف حق فهمه. ففرع على ذلك كله تعجيب من انحراف أفهامهم.

فالذي تولى وأعطى قليلا هو هنا ليس فريقا مثل الذي عناه قوله)فأعرض عمن تولى عن ذكرنا(بل هو شخص بعينه. واتفق المفسرون والرواة على أن المراد به هنا معين، ولعل ذلك وجه التعبير عنه بلفظ)الذي(دون كلمة)من(لأن)الذي(أظهر في الإطلاق على الواحد المعين دون لفظ)من(. واختلفوا في تعيين هذا)الذي تولى وأعطى قليلا(، فروى الطبري والقرطبي عن مجاهد وابن زيد أن المراد به الوليد بن المغيرة قالوا: كان يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويستمع إلى قراءته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظه فقارب أن يسلم فعاتبه رجل من المشركين)لم يسموه(وقال: لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار كان ينبغي أن تنصرهم فكيف يفعل بآبائك فقال :)إني خشيت عذاب الله(فقال:)اعطني شيئا وأنا أحمل عنك كل عذاب كان عليك(فأعطاه)ولعل ذلك كان عندهم التزاما يلزم ملتزمه وهم لا يؤمنون بجزاء الآخرة فلعله تفادى من غضب الله في الدنيا ورجع إلى الشرك(ولما سأله الزيادة بخل عنه وتعاسر وأكدى.

وروى القرطبي عن السدي: أنها نزلت في العاصي بن وائل السهمي، وعن محمد بن كعب: نزلت في أبي جهل، وعن الضحاك: نزلت في النضر بن الحارث.

ووقع في أسباب النزول للواحدي والكشاف أنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي السرح حين صد عثمان بن عفان عن نفقة في الخير كان ينفقها أي قبل أن يسلم عبد الله بن سعد رواه الثعلبي عن قوم.قال ابن عطية: وذلك باطل وعثمان منزه عن مثله, أي عن أن يصغي إلى أنه تولى عن النظر في الإسلام بعد أن قاربه.

وأشار قوله)وأعطى قليلا وأكدى(إلى ما أعطاه للذي يحمله عنه العذاب.

وليس وصفه ب)تولى(داخلا في التعجيب ولكنه سيق مساق الذم، ووصف عطاؤه بأنه قليل توطئة لذمه بأنه مع قلة ما أعطاه قد شح به فقطعه. وأشار قوله)وأكدى(إلى بخله وقطعه العطاء يقال: أكدى الذي يحفر، إذا اعترضته كدية أي حجر لا يستطيع إزالته. وهذه مذمة ثانية بالبخل زيادة على بعد الثبات على الكفر فحصل التعجيب من حال الوليد كله تحقيرا لعقله وأفن رأيه. وقيل المراد بقوله)وأعطى قليلا(أنه أعطى من قبله وميله للإسلام قليلا وأكدى، أي انقطع بعد أن اقترب كما يكدى حافر البئر إذا اعترضته كدية.

والاستفهام في)أعنده علم الغيب(إنكاري على توهمه أن استئجار أحد ليتحمل عنه عذاب الله ينجيه من العذاب، أي ما عنده علم الغيب. وهذا الخبر كناية عن خطئه فيما توهمه.
والجملة استئناف بياني للاستفهام التعجيبي من قوله)أفرأيت الذي تولى(الخ.
وتقديم)عنده(وهو مسند على)علم الغيب(وهو مسند إليه للاهتمام بهذه العندية العجيب ادعاؤها، والإشارة إلى بعده عن هذه المنزلة.
وعلم الغيب: معرفة العوالم المغيبة، أي العلم لاصل من أدلة فكأنه شاهد الغيب بقرينة قوله)فهو يرى(.
وفرع على هذا التعجيب قوله)فهو يرى(أي فهو يشاهد أمور الغيب، بحيث عاقد على التعارض في حقوقها. والرؤية في قوله) فهو يرى(بصرية ومفعولها محذوف، والتقدير: فهو يرى الغيب.
والمعنى: أنه آمن نفسه من تبعة التولي عن الإسلام ببذل شيء لمن تحمل عنه تبعة توليه كأنه يعلم الغيب ويشاهد أن ذلك يدفع عنه العقاب، فقد كان فعله ضغثا على إبالة لأنه ظن أن التولي جريمة، وما بذل المال إلا لأنه توهم أن الجرائم تقبل الحمالة في الآخرة.
وتقديم الضمير المسند إليه على فعله المسند دون أن يقول: فيرى، لإفادة تقوي الحكم، نحو: هو يعطي الجزيل. وهذا التقوي بناء على ما أظهر من اليقين بالصفقة التي عاقد عليها وهو أدخل في التعجيب من حاله.
)أم لم ينبأ بما في صحف موسى[36] وإبراهيم الذي وفى[37] ألا تزر وازرة وزر أخرى[38](

صفحة : 4202

)أم(لإضراب الانتقال إلى متعجب منه وإنكار عليه آخر وهو جهله بما عليه أن يعلمه الذين يخشون الله تعالى من علم ما جاء على ألسنة الرسل الأولين فإن كان هو لا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهلا تطلب ما أخبرت به رسل من قبل، طالما ذكر هو وقومه أسمائهم وشرائعهم في الجملة، وطالما سأل هو وقومه أهل الكتاب عن أخبار موسى، فهلا سأل عما جاء عنهم في هذا الغرض الذي يسعى إليه وهو طلب النجاة من عذاب الله فينبئه العاملون، فإن مآثر شريعة إبراهيم مأثور بعضها عند العرب، وشريعة موسى معلومة عند اليهود. فالاستفهام المقدر بعد)أم(إنكار مثل الاستفهام

المذكور قبلها في قوله)أعنده علم الغيب(والتقدير: بل ألم ينبأ بما في صحف موسى(الخ.
وصحف موسى: هي التوراة، وصحف إبراهيم: صحف سجل فيها ما أوحى الله إليه، وهي المذكورة في سورة الأعلى)إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى(. وروى ابن حيان والحاكم عن أبي ذر أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكتب التي أنزلت على الأنبياء فذكر له منها عشرة صحائف أنزلت على إبراهيم، أي أنزل عليه ما هو مكتوب فيها.
وإنما خص هذه الصحف بالذكر لأن العرب يعرفون إبراهيم وشريعته ويسمونها الحنيفية وربما ادعى بعضهم أنه على إثارة منها مثل: زيد بن عمرو بن نفيل.
وأما صحف موسى فهي مشتهرة عند أهل الكتاب، والعرب يخالطون اليهود في خيبر وقريظة والنضير وتيما، ويخالطون نصارى نجران، وقد قال الله تعالى)فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أتي موسى(.
وتقديم)صحف موسى(لأنها اشتهرت بسعة ما فيها من الهدى والشريعة، وأما صحف إبراهيم فكان المأثور منها أشياء قليلة. وقدرت بعشر صحف، أي مقدار عشر ورقات بالخط القديم، تسع الورقة قرابة أربع آيات من آي القرآن بحيث يكون مجموع ملفي صحف إبراهيم مقدار أربعين آية.
وإنما قدم في سورة الأعلى صحف إبراهيم على صحف موسى مراعاة لوقوعهما بدلا من الصحف الأولى فقدم في الذكر أقدمها.
وعندي أن تأخير صحف إبراهيم ليقع ما بعدها هنا جامعا لما احتوت عليه صحف إبراهيم فتكون صحف إبراهيم هي الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم الذكورة في قوله في سورة البقرة)وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن(أي بلغهن إلى قومه ومن آمن به، ويكون قوله هنا)الذي وفى(وفي معنى قوله)فأتمهن(في سورة البقرة.
ووصف إبراهيم بذلك تسجيل على لمشركين بأن إبراهيم بلغ ما أوحي إليه إلى قومه وذريته ولكن العرب أهملوا ذلك واعتاضوا عن الحنفية بالإشراك.
وحذف متعلق)وفى(ليشمل توفيات كثيرة منها ما في قوله تعالى)وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن(وما في قوله تعالى)قد صدقت الرؤيا(.
وقوله)ألا تزر وازرة وزر أخرى(يجوز أن يكون بدلا من ما في صحف موسى وإبراهيم بدل مفصل من مجمل، فتكون)أن(مخففة من الثقيلة. والتقدير: أم لم ينبأ بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

ويجوز أن تكون)أن(تفسيرية فسرت ما في صحف موسى وإبراهيم لأن ما من الصحف شيء مكتوب والكتابة فيها معنى القول دون حروفه فصلح)ما في صحف موسى(لأن تفسره) أن(التفسيرية. وقد ذكر القرطبي عند تفسير قوله تعالى)هذا نذير من النذر الأولى(في هذه السورة عن السدي عن أبي صالح قال هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قوله)أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم(إلى قوله)هذا نذير من النذر الأولى(كل هذه في صحف إبراهيم وموسى . و)تزر(مضارع وزر، إذا فعل وزرا.

وتأنيث)وازرة(بتأويل: نفس، وكذلك تأنيث)أخرى(، ووقوع) نفس(و)أخرى(في سياق النفي يفيد العموم فيشم نفي ما زعمه الوليد ابن المغيرة من تحمل الرجل عنه عذاب الله.

وهذا مما كان في صحف إبراهيم، ومنه ما حكى الله في قوله) ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم(.

وحكي في التوراة عن إبراهيم أنه قال في شأن قوم لوط أفتهلك البار مع الآثم .

وأما نظيره في صحف موسى ففي التوراة لا يقتل الآباء عن الأولاد لا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل . وحكى الله عن موسى قوله)أتهلكنا بما فعل السفهاء منا(. وعموم لفظ) وزر(يقتضي إطراد الحكم في أمور الدنيا وأمور الآخرة.

وأما قوله في التوراة أن الله قال أفتقد الأبناء بذنوب الآباء إلى الجيل الثالث فذلك في ترتيب المسببات على الأسباب الدنيوية وهو تحذير.

وليس حمل المتسبب في وزر غيره حملا زائدا على وزره من قبيل تحمل وزر الغير، ولكنه من قبيل زيادة العقاب لأجل تضليل الغير، قال تعالى)ليحملوا أوزارهم يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم(. وفي الحديث ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، ذلك أنه أول من سن القتل) وأن ليس للإنسان إلا ما سعى[39](عطف على جملة)أن لاتزر وازرة وزر أخرى(فيصح أن تكون عطفا على المجرور بالباء فتكون)أن(مخففة من الثقيلة، ويصح أن تكون عطفا على)أن لاتزر وازرة

وزر أخرى فتكون)أن(تفسيرية، وعلى كلا الاحتمالين تكون) أن(تأكيدا لنظيرتها في المعطوف عليها.
وتعريف)الإنسان(تعريف الجنس، ووقوعه في سياق النفي يفيد العموم، والمعنى: لا يختص به إلا ما سعاه.
والسعي: العمل والاكتساب، وأصل السعي: المشي، فأطلق على العمل مجازا مرسلا أو كناية. والمراد هنا عمل الخير بقرينة ذكر لام الاختصاص وبأن جعل مقابلا لقوله)أن لا تزر وازرة وزر أخرى(.
والمعنى: لا تحصل لأحد فائدة عمل إلا ما عمله بنفسه، فلا يكون عمل غيره، ولام الاختصاص يرجع أن المراد ما سعاه من الأعمال الصالحة، وبذلك يكون ذكر هذا تتميما لمعنى)أن لا تزر وازرة وزر أخرى(، احتراسا من أن يخطر بالبال أن المدفوع عن غير فاعله هو الوزر، وإن الخير ينال غير فاعله.
ومعنى الآية محكي في القرآن عن إبراهيم في قوله عنه)إلا من أتى الله بقلب سليم(.
وهذه الآية حكاية عن شرعي إبراهيم وموسى، وإذ قد تقرر أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، تدل هذه الآية على أن عمل أحد لا يجزئ عن أحد فرضا أو نفلا على العين، وأما تحمل أحد حمالة لفعل فعله غيره مثل ديات القتل الخطأ فذلك من المؤاساة المفروضة.
واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ومحملها: فعن عكرمة أن قوله تعالى)وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(حكاية عن شريعة سابقة فلا تلزم في شريعتنا يريد أن شريعة الإسلام نسخت ذلك فيكون قبول عمل أحد عن غيره من خصائص هذه الأمة.
وعن الربيع بن أنس أنه تأول الإنسان في قوله تعالى)وإن ليس للإنسان إلا ما سعى(بالإنسان الكافر، وأما المؤمن فله سعيه وما يسعى له غيره.
ومن العلماء من تأول الآية على أنها نفت أن تكون للإنسان فائدة ما عمله غيره، إذا لم يجعل الساعي عمله لغيره. وكأن هذا ينحو إلى أن استعمال)سعى(في الآية من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه العقليين. ونقل ابن الفرس: أن من العلماء من حمل الآية على ظاهرها وأنه لا ينتفع أحد بعمل غيره، ويؤخذ من كلام ابن الفرس أن ممن قال بذلك الشافعي في أحد قوليه بصحة الإجارة على الحج.
واعلم أن أدلة لحاق ثواب بعض العمال إلى غير من عملها ثابتة على الجملة وإنما تتردد الأنظار في التفصيل أو التعميم، وقد قال اله تعالى)والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء(، وقد بيناه في تفسير سورة

الطور. وقال تعالى)ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون(، فجعل أزواج الصالحين المؤمنات وأزواج الصالحات المؤمنين يتمتعون في الجنة مع أن التفاوت بين الأزواج في الأعمال ضروري وقد بيناه في تفسير سورة الزخرف.

وفي حديث مسلم إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له وهو عام في كل ما يعمله الإنسان، ومعيار عمومه الاستثناء فالاستثناء دليل عن أن المستثنيات الثلاثة هي من عمل الإنسان. وقال عياض في الإكمال هذه الأشياء لما كان هو سببها فهي من اكتسابه. قلت: وذلك في الصدقة الجارية وفي العلم الذي بثه ظاهر، وأما في دعاء الولد الصالح لأحد أبويه فقال النووي لأن الولد من كسبه. قال الأبي: الحديث ولد الرجل من كسبه فاستثناء هذه الثلاثة متصل.

صفحة : 4204

وثبتت أخبار صحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم تدل على أن عمل أحد عن آخر يجزى عن المنوب عنه، ففي الموطأ حديث الفضل بن عباس أن امرأة من خثعم سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفيجزئ أن أحج عنه? قال: نعم حجي عنه . وفي قولها: لا يثبت على الرحلة دلالة على أن حجها عنه كان نافلة.

وفي كتاب أبي داود حديث بريدة أن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفيجزئ أو يقضي عنها أن أصوم عنها? قال: نعم. قالت: وإنها لم تحج أفيجزئ أو يقضي أن أحج عنها? قال: نعم .

وفيه أيضا حديث ابن عباس أن رجلا قال: يا رسول الله إن أمي توفيت أفينفعها إن تصدقت عنها? قال: نعم .

وفي حديث عمرو ابن العاص وقد اعتق أخوه هشام عن أبيهم العاص بن وائل عبيدا فسأل عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يفعل مثل فعل أخيه فقال له لو كان أبوك مسلما فأعتقتم عنه أو تصدقتم عنه أو حججتم عنه بلغه ذلك .

وروي أن عائشة أعتقت عن أخيها عبد الرحمن بعد موته رقابا واعتكفت عنه.

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر وابن عباس أنهما أفتيا امرأة جعلت أمها على نفسها صلاة بمسجد قباء ولم تف بنذرها أن تصلي عنها بمسجد قباء .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم سعد ابن عبادة أن يقضي نذرا نذرته أمه، قيل كان عتقا، وقيل صدقة، وقيل نذرا مطلقا.

وقد كانت هذه الآية وما ثبت من الأخبار مجالا لأنظار الفقهاء في الجمع بينهما والأخذ بظاهر الآية وفي الاقتصار على نوع ما ورد فيه الإذن من النبي صلى الله عليه وسلم أو القياس عليه.

ومما يجب تقديمه أن تعلم أن التكاليف الواجبة على العين فرضا أو سنة مرتبة المقصد من مطالبة المكلف بها ما يحصل بسببها من تزكية نفسه ليكون جزءا صالحا فإذا قام بها غيره عنه فات المقصود من مخاطبة أعيان المسلمين بها، وكذا اجتناب المنهيات لا تتصور فيها النيابة لأن الكف لا يقبل التكرر فهذا النوع ليس للإنسان فيه إلا ما سعى ولا تجزىء فيه نيابة غيره عنه في أدائها فأما الإيمان فأمره بين لأن ماهية الإيمان لا يتصور فيها التعدد بحيث يؤمن أحد عن نفسه ولا يؤمن من غيره لأنه إذا اعتقد اعتقادا جازما فقد صار ذلك إيمانه. قال ابن الفرس في أحكام القرآن: أجمعوا على أنه لا يؤمن أحد عن أحد .

وأما ما عدا الإيمان من شرائع الإسلام الواجبة فأما ما هو منها من عمل الأبدان فليس للإنسان إلا ما سعى منه ولا يجزئ عنه سعي غيره لأن المقصود من الأمور العينية المطالب بها المرء بنفسه هو ما فيها من تزكية النفس وارتياضها على الخير كما تقدم آنفا.

ومثل ذلك الرواتب من النوافل والقربات حتى يصلح الإنسان ويرتاض على مراقبة ربه بقلبه وعمله والخضوع له تعالى ليصلح بصلاح الأفراد صلاح مجموع الأمة والنيابة تفيت هذا المعنى.

فما كان من أفعال الخير غير معين بالطلب كالقرب النافلة فإن فيه مقصدين مقصد ملحق بالمقصد الذي في الأعمال المعينة بالطلب، ومقصد تكثير الخير في جماعة المسلمين بالأعمال والأقوال الصالحة وهذا الاعتبار الثاني لا تفيته النيابة.

والتفرقة بين ما كان من عمل الإنسان ببدنه وما كان من عمله بماله لا أراه فرقا مؤثرا في هذا الباب، فالوجه اطراد القول في كلا النوعين بقبول النيابة أو بعدم قبولها: من صدقات وصيام ونوافل الصلوات وتجهيز الغزاة للجهاد غير المتعين على المسلم المجهز بكسر الهاء ولا على المجهز بفتح الهاء ، والكلمات الصالحة في قراءة القرآن وتسبيح وتحميد ونحوهما وصلاة على النبي صلى الله

عليه وسلم وبهذا يكون تحرير محل ما ذكره ابن الفرس من الخلاف في نقل عمل أحد إلى غيره.
قال النووي الدعاء يصل ثوابه إلى الميت وكذلك الصدقة وهما مجمع عليهما. وكذلك قضاء الدين اه. وحكى ابن الفرس مثل ذلك، والخلاف بين علماء الإسلام فيما عدا ذلك.

صفحة : 4205

وقال مالك: يتطوع عن الميت فيتصدق عنه أو يعتق عنه أو يهدي عنه، وأما من كان من القرب الواجبة مركبا من عمل البدن وإنفاق المال مثل الحج والعمرة والجهاد فقال الباجي: حكى القاضي عبد الوهاب عن المذهب أنها تصح النيابة فيها وقال ابن القصار: لا تصح النيابة فيها . وهو المشتهر من قول مالك ومبنى اختلافهما أن مالكا كره أن يحج أحد عن أحد إلا أنه إن أوصى بذلك نفذت وصيته ولا تسقط الفرض.
ورجح الباجي القول بصحة النيابة في ذلك بأن مالكا أمضى الوصية بذلك، وقال: لا يستأجر له إلا من حج عن نفسه فلا يحج عنه صرورة، فلوا أن حج الأجير على وجه النيابة عن الموصي لما اعتبرت صفة المباشر بالحج. قال ابن الفرس: أجاز مالك الوصية بالحج الفرض، ورأى أنه إذا أوصى بذلك فهو من سعيه. والمحرر من مذهب الحنفية صحة النيابة في الحج لغير القادر بشرط دوام عجزه إلى الموت فإن زال عجزه وجب عليه الحج بنفسه، وقد ينقل عن أبي حنيفة غير ذلك في كتب المالكية.
وجوز الشافعي الحج عن الميت ووصية الميت بالحج عنه. قال أبن الفرس: وللشافعي في أحد قوليه أنه لا يجوز واحتج بقوله تعالى) وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(اه.
ومذهب احمد بن حنبل جوازه ولا تجب عليه إعادة الحج إن زال عذره.
وأما القرب غير الواجبة وغير الرواتب من جميع أفعال البر والنواف؛ فأما الحج عن غير المستطيع فقال الباجي: قال ابن الجلاب في التفريع يكره أن يستأجر من يحج عنه فإن فعل ذلك لم يفسخ وقال ابن القصاب: يجوز ذلك في الميت دون المعضوب وهو العاجز عن النهوض . وقال ابن حبيب قد جاءت الرخصة في ذلك عن الكبير الذي لا ينهض وعن الميت أنه يحج عنه ابنه وإن لم يوص به .

وقال الأبي في شرح مسلم: ذكر أن الشيخ ابن عرفة عام حج اشترى حجة للسلطان أبي العباس الحفصي على مذهب المخالف ، أي خلافا لمذهب مالك.

وأما الصلاة والصيام فسئل مالك عن الحج عنة الميت فقال: أما الصلاة والصيام والحج عنه فلا نرى ذلك . وقال في المدونة: يتطوع عنه بغير هذا أحب إلي: يهدى عنه، أو يعتق عنه . قال الباجي: ففصل بينها وبين النفقات .

وقال الشافعي في أحد قوله: لا يصله ثواب الصلوات التطوع وسائر التطوعات. قال صاحب التوضيح من الشافعية: وعندنا يجوز الاستنابة في حجة التطوع على أصح القولين ، وقال أحمد: يصله ثواب الصلوات وسائر التطوعات .

والمشهور من مذهب الشافعي: أن قراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت لا يصله ثوابها، وقال أحمد بن حنبل وكثير من أصحاب الشافعي يصله ثوابها.

وحكى ابن الفرس عن مذهب مالك: أن من قرأ ووهب ثوان قراءته لميت جاز ذلك ووصل للميت أجره ونفعه فما ينسب إلى مالك من عدم جواز إهداء ثواب القراءة في كتب المخالفين غير محرر.

وقد ورد في حديث عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ نفسه بالمعوذات فلما ثقل به المرض كنت أنا أعوذ بهما وأضع يده على جسده رجاء بركتها فهل قراءة المعوذتين إلا نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يفعله بنفسه، فإذا صحت النيابة في التعوذ والتبرك بالقرآن فلماذا لا تصح في ثواب القراءة.

وأعلم أن هذا كله في تطوع أحد عن أحد بقربة، وأما الاستئجار على النيابة في القرب: فأما الحج فقد ذكروا فيه جواز الاستئجار بوصية، أو بغيرها، لأن الإنفاق من مقومات الحج، ويظهر أن كل عبادة لا يجوز أخذ فاعلها أجرة على فعلها كالصلاة والصوم لا يصح الاستئجار على الاستنابة فيها، وأن القرب التي يصح أخذ الأخذ عليها يصح الاستئجار على النيابة فيها مثل قراءة القرآن، فقد أقر النبي صلى الله عليه وسلم فعل الذين أخذوا أجرا على رقية الملدوغ بفاتحة الكتاب.

وإذا علمت هذا كله فقوله تعالى)وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(وهو حكم كان في شريعة سالفة، فالقائلون بأنه لا ينسحب علينا لم يكن فيما ورد من الأخبار بصحة النيابة في الأعمال في ديننا معارض لمقتضى الآية، والقائلون بأن شرع غيرنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، منهم من أعمل عموم الآية وتأول الأخبار المعارضة لها بالخصوصية، ونهم من جعلها مخصصة للعموم، أو ناسخة، ومنهم من تأول ظاهر الآية بأن المراد ليس له ذلك حقيقة بحيث يعتمد على عمله، أو تأول السعي بالنية. وتأول اللام في قوله) للإنسان(بمعنى على ، أو ليس عليه سيئات غيره.

وفي تفسير سورة الرحمان من الكشاف: أن عبد الله بن طاهر قال للحسين بن الفضل: أشكلت علي ثلاث آيات. فذكر له منها قوله تعالى)وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(فما بال الأضعاف، أي قوله تعالى)فيضاعفه له أضعافا كثيرة(، فقال الحسين: معناه أنه ليس له إلا ما سعى عدلا، ولي أن أجزيه بواحدة ألفا فضلا.

)وأن سعيه سوف يرى[40] ثم يجزاه الجزاء الأوفى[41](يجوز أن تكون عطفا على جملة)أن لا تزروا وازرة وزر أخرى(فهي من تمام تفسير)ما في صحف موسى وإبراهيم(فيكون تغيير الأسلوب إذ جيء في هذه الآية بحرف)أن(المشددة لاقتضاء المقام عن يقع الإخبار عن سعي الإنسان بأنه يعلن به يوم القيامة) وذلك من توابع أن ليس له إلا ما سعى ، فلما كان لفظ)سعيه(صالحا للوقوع اسما لحرف)أن(زال مقتضاجتلاب ضمير الشأن فزال مقتضي)أن(المخففة. وقد يكون مضمون هذه الجملة في شريعة إبراهيم ما حكاه الله عنه من قوله)ولا تخزني يوم يبعثون(.

ويجوز أن لا يكون في قوله مضمون قوله)وأن سعيه(مشمولا لما في صحف موسى وإبراهيم فعطفه على)ما(الموصولة من قوله) بما في صحف موسى وإبراهيم(، عطف المفرد على المفرد فيكون معمولا لباء الجر في قوله)في صحف موسى(الخ, والتقدير: لم ينبأ بأن سعي الإنسان سوف يرى، أي لا بد أن يرى، أي يجازى عليه، أي لم ينبأ بهذه الحقيقة الدينية وعليه فلا نتطلب ثبوت مضمون هذه الجملة في شريعة إبراهيم عليه السلام.

و)سوف(حرف استقبال والأكثر أن يراد به المستقبل البعيد.

ومعنى)يرى(: يشاهد عند الحساب كما في قوله تعالى)ووجدوا ما عملوا حاضرا(، فيجوز أن تجسم الأعمال فتصير مشاهدة وأمور الآخرة مخالفة لمعتاد أمور الدنيا. ويجوز أن تجعل علامات على الأعمال يعلن بها عنها كما في قوله تعالى)نورهم يسعى بين أيديهم وبإيمانهم(. وما في الحديث ينصب لكل غادر لواء يوم

القيامة فيقال: هذه غدرة فلان فيقدر مضاف تقديره: وأن عنوان سعيه سوف يرى.
ويجوز أن يكون ذلك بإشهار العمل والسعي كما في قوله تعالى)أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ادخلوا الجنة(الآية، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم من سمع بأخيه فيما يكره سمع الله به سامع خلقه يوم القيامة ، فتكون الرؤية مستعارة للعلم لقصد تحقق العلم وإشهاره.
وحكمة ذلك تشريف المحسنين بحسن السمعة وانكسار المسيئين بسوء الأحدوثة.
وقوله)ثم يجزاه الجزاء الأوفى(وهو المقصود من الجملة.
و)ثم(للتراخي الرتبي لأن حصول الجزاء أهم من إظهاره أو إظهار المجزي عنه.
وضمير النصب في قوله)يجزاه(عائد إلى السعي، أي يجزى عليه، أو يجزى به فحذف حرف الجر ونصب على نزع الخافض فقد كثر أن يقال: جزاه عمله، وأصله: جزاه على عمله أو جزاه بعمله.
والأوفى: اسم تفضيل من الوفاء وهو التمام والكمال, والتفضيل مستعمل هنا في القوة، وليس المراد تفضيله على غيره. والمعنى: أن الجزاء على الفعل من حسن أو سيء موافق للمجزي عليه, قال تعالى)فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله(وقال)وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص(وقال)ووجد الله عنده فوفاه حسابه(وقال)فإن جهنم جزاؤكم جزاءا موفورا(.
وانتصب)الجزاء الأوفى(على المفعول المطلق المبين للنوع.
وقد حكى الله عن إبراهيم)ولا تخزني يوم تبعثون(.
))وأن إلى ربك المنتهى[42](

صفحة : 4207

القول في موقعها كالقول في موقع جملة)وأن سعيه سوف يرى(سواء، فيجوز أن تكون هذه الجملة معطوفة على جملة)وأن سعيه سوف يرى(فتكون تتمة لما في صحف موسى وإبراهيم، ويكون الخطاب في قوله)إلى ربك(التفاتا من الغيبة إلى الخطاب والمخاطب غير معين فكأنه قيل: وأن إلى ربه المنتهى، وقد يكون نظيرها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله)وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين(.
ويجوز أنها ليست مما اشتملت عليه صحف موسى وإبراهيم ويكون عطفها عطف مفرد على مفرد، فيكون المصدر المنسبك من)

أن(ومعمولها مدخولا للباء، أي لم ينبأ بأن إلى ربك المنتهى، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.

وعليه فلا نتطلب لها نظيرا من كلام إبراهيم عليه السلام.

ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى حكمه المحض الذي لا تلابسه أحكام هي في الظاهر من تصرفات المخلوقات مما هو شأن أمور الدنيا، فالكلام على حذف مضاف دل عليه السياق.

والتعبير عن الله بلفظ)ربك(تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم والتعريض بالتهديد لمكذبيه لأن شأن الرب الدفاع عن مربوبه.

وفي الآية معنى آخر وهو أن يكون المنتهى مجازا عن انتهاء السير، بمعنى الوقوف، لأن الوقوف انتهاء سير السائر، ويكون الوقوف تمثيلا لحال المطيع لأمر الله تشبيها لأمر الله الذي تحدد به الحوائط على نحو قول أبي الشيص:

وقف الهوي بي حيث أنت فليس لي
متـأخـر عـنـه ولا مـتـقـدم كما عبر عن هذا المعنى بالوقوف عند الحد في قوله تعالى)تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون(. والمعنى: التحذير من المخالفة لما أمر الله ونهى.

وفي الآية معنى ثالث وهو انتهاء دلالة الموجودات على وجود الله ووحدانيته لأن الناظر إلى الكائنات يعلم أن وجودها ممكن غبر واجب فلا بد لها من موجود، فإذا خليت الوسوسة للناظر أن يفرض للكائنات موجدا مما يبدو له من نحو الشمس أو القمر أو النار لما يرى فيها من عظم الفاعلية، لم يلبث أن يظهر له أن ذلك المفروض لا يخلو من تغير يدل على حدوثه فلا بد له من محدث أوجد فإذا ذهب الخيال يسلسل مفروضات الإلهية كما في قصة إبراهيم)فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي(الآيات لم يجد العقل بدا من الانتهاء إلى وجوب وجود صانع لممكنات كلها، وجوده غير ممكن بل واجب، وأن يكون متصفا بصفات الكمال وهو الإله الحق, فالله هو المنتهى الذي ينتهي إليه استدلال العقل، ثم إذا لا ح له دليل وجود الخالق وأفضى به إلى إثبات أنه واحد لأنه لو كان متعددا لكان كل من المتعدد غير كامل الإلهية إذ لا يتصرف أحد المتعدد فيما قد تصرف فيه الآخر، فكان كل واحد محتاجا إلى الآخر ليرضى بإقراره على إيجاد ما أوجده، وإلا لقدر على نقض ما فعله، فيلزم أن يكون كل واحد من المتعدد محتاجا إلى من يسمح له بالتصرف، قال تعالى)وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض(وقال)قل لو كان معه آلهة كما تقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا(وقال)لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا(فانتهى العقل لا محالة إلى منتهى.

)وأنه هو أضحك وأبكى[43](انتقال من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الدنيا وضمير)هو(عائد إلى)ربك(من قوله)وأن إلى ربك المنتهى(.

والضحك: أثر سرور النفس، والبكاء: أثر الحزن، وكل من اضحك والبكاء من خواص الإنسان وكلاهما خلق عجيب دال على انفعال عظيم في النفس.

وليس لبقية الحيوان ضحك ولا بكاء وما ورد من إطلاق ذلك على الحيوان فهو كالتخيل أو التشبيه كقول النابغة:

بكاء حماقة تدعو هديلا مطوقة على فنن تغني

صفحة : 4208

ولا يخلو الإنسان من حالي حزن وسرور لأنه إذا لم يكن حزينا مغموما كان مسرورا لأن الله خلق السرور والانشراح ملازما للإنسان بسبب سلامة مزاجه وإدراكه لأنه إذا كان سالما كان نشيط الأعصاب وذلك النشاط تنشأ عنه المسرة في الجملة وإن كانت متفاوتة في الضعف والقوة، فذكر الضحك والبكاء يفيد الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن ويذكر بالصانع الحكيم، ويبشر إلى أن الله هو المتصرف في الإنسان لأنه خلق أسباب فرحه ونكده وألهمه إلى اجتلاب ذلك بما في مقدوره وجعل حدا عظيما من ذلك خارجا على مقدور الإنسان وذلك لا يمتري فيه أحد إذا تأمل وفيه ما يرشد إلى الإقبال على طاعة الله والتضرع إليه ليقدر للناس أسباب الفرح، ويدفع عنهم أسباب الحزن وإنما جرى ذكر هذا في هذا المقام لمناسبة أن الجزاء الأوفى لسعي الناس: بعضه سار لفريق وبعضه محزن لفريق آخر.

وأفاد ضمير الفصل قصرا لصفة خلق أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى لإبطال الشريك في التصرف فتبطل الشركة في الإلهية، وهو قصر إفراد لأن المقصود نفي تصرف غير الله تعالى وإن كان هذا القصر بالنظر إلى نفس الأمر قصرا حقيقيا لإبطال اعتقاد أن الدهر متصرف.

وإسناد الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى لأنه خالق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان، وذلك خلق عجيب ولأنه خالق طبائع الموجودات التي تجلب أسباب الضحك والبكاء من سرور وحزن.

ولم يذكر مفعول)أضحك وأبكى(لأن القصد إلى الفعلين لا إلى مفعوليهما فالفعلان منزلان منزلة اللازم، أي أوجد الضحك والبكاء.

ولما كان هذا الغرض من إثبات انفراد الله تعالى بالتصرف في الإنسان بما يجده الناس في أحوال أنفسهم من خروج أسباب الضحك والبكاء على قدرتهم تعين أن المراد: أضحك وأبكى في الدنيا, ولا علاقة لهذا بالمسرة والحزن الحاصلين في الآخرة.

وفي الاعتبار بخلق الشيء وضده إشارة دقائق حكمة الله تعالى.

وفي هذه الآية محسن الطباق بين الضحك والبكاء وهما ضدان.

وتقديم الضحك على البكاء لأن فيه امتنانا بزيادة التنبيه على القدرة وحصل بذلك مراعاة الفاصلة.

وموقع هذه الجملة في عطفها مثل موقع جملة)وأن سعيه سوف يرى(في الاحتمالين، فإن كانت مما شملته صحف إبراهيم كانت حكاية لقوله)وإذا مرضت فهو يشفين(.

)وأنه هو أمات وأحيا[44](انتقل من الاعتبار بانفراد الله بالقدرة على إيجاد أسباب المسرة والحزن وهما حالتان لا تخلو عن إحداهما نفس الإنسان إلى العبرة بانفراده تعالى بالقدرة على الإحياء والإماتة, وهما حالتان لا يخلو الإنسان عن إحداهما فإن الإنسان أول وجوده نطفة ميتة ثم علقة ثم مضغة قطعة ميتة وإن كانت فيها مادة الحياة إلا أنها لم تبرز مظاهر الحياة فيها ثم ينفخ فيه الروح ثم يصير إلى حياة وذلك بتدبير الله تعالى وقدرته.

ولعل المقصود هو العبرة بالإماتة لأنها وضح عبرة وللرد عليهم قولهم)وما يهلكنا إلا الدهر(, وأن عطف)وأحيا(تتميم واحتراس كما في قوله)الذي خلق الموت والحياة(. ولذلك قدم)أمات(على)أحيا(مع الرعاية على الفاصلة كما تقدم في)أضحك وأبكى(.

وموقع الجملة كموقع جملة)وأن سعيه سوف يرى(. فإن كان مضمونها مما شملته صحف إبراهيم كان المحكي بها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله)والذي يميتني ثن يحيين(.

وفعلا)أمات وأحيا(منزلان منزلة اللازم كما تقدم في قوله)وأنه هو أضحك وأبكى(إظهارا لبديع القدرة على هذا الصنع الحكيم مع التعريض بالاستدلال على كيفية البعث وإمكانه حيث إحالة المشركون, وشاهده في خلق أنفسهم.

وضمير الفصل للقصر على نحو قوله)وأنه هو أضحك وأبكى(ردا على أهل الجاهلية الذين يسندون الإحياء والإماتة إلى الدهر فقالوا)وما يهلكنا إلا الدهر(. فليس المراد الحياة الآخرة لأن المتحدث عنهم لا يؤمنون بها, ولأنها مستقبلة والمتحدث عنه ماض.

وفي هذه الآية محسن الطباق أيضا لما بين الحياة والموت من التضاد.

)وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى[45] من نطفة إذا تمنى[46](

هذه الآية وإن كانت مستقلة بإفادة أ، الله خالق الأزواج من الإنسان خلقا بديعا من نطفة فيصير إلى خصائص نوعه وحسبك بنوع الإنسان تفكيرا أو مقدرة وعملا، وذلك ما لا يجهله المخاطبون فما كان ذكره إلا تمهيدا وتوطئة لقوله)وأن عليه النشأة الأخرى(على نحو قوله تعالى)كما بدأنا أول خلق نعيده(وباعتبار استقلالها بالدلالة على عجيب تكوين نسل الإنسان, وعطفت عليها جملة)وأن عليه النشأة الأخرى(وإلا لكان مقتضى الظاهر أن يقال: إن عليه النشأة الأخرى بدون عطف وبكسر همزة)إن(.

ومناسبة الانتقال إلى هذه الجملة أن فيها كيفية ابتداء الحياة.

والمراد بالزوجين: الذكر والأنثى من خصوص الإنسان لأن سياق الكلام للاعتبار ببديع صنع الله وذلك أشد اتفاقا في خلقة الإنسان, ولأن اعتبار الناس بما في أحوال أنفسهم أقرب وأمكن ولأن بعض الأزواج من الذكور والإناث لا يتخلق من نطفة بل من بيض وغيره.

ولعل وجه ذكر الزوجين والبدل منه)الذكر والأنثى(دون أن يقول: وأنه خلقه, أي الإنسان من نطفة, كما قال)فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق(الآية أمران: أحدهما: إدماج الامتنان في أثناء ذكر الانفراد بالخلق بنعمة أن خلق لكل إنسان زوجة كما قال تعالى) ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها(الآية.

الثاني: الإشارة إلى أن لكلا الزوجين حظا من النطفة التي منها يخلق الإنسان فكانت لذكر نطفة وللمرأة نطفة كما ورد في الحديث الصحيح أنه إذا سبق ماء الرجل أشبه المولود أباه وإن سبق ماء المرأة أشبه المولود أمه , وبهذا يظهر أن لكل من الذكر والأنثى نطفة وإن كان المتعارف عند الناس قبل القرآن أن النطفة هي ماء الرجل إلا أن القرآن يخاطب الناس بما يفهمون ويشير إلى ما لا يعلمون إلى أن يفهمه المتدبرون.

وحسبك ما وقع بيانه بالحديث المذكور آنفا.

والنطفة: فعلة مشتقة من: نطف الماء, إذا قطر, فالنطفة ماء قليل وسمي ما منه النسل نطفة بمعنى منطوف, أي مصبوب فماء الرجل مصبوب, وماء المرأة أيضا مصبوب فإن ماء المرأة يخرج مع بويضة دقيقة تتسرب مع دم الحيض وتستقر في كيس دقيق فإذا باشر الذكر الأنثى انحدرت تلك البيضة من الأنثى واختلطت مع ماء الكر في قرارة الرحم.

و)من(في قوله)من نطفة(ابتدائية فإن خلق الإنسان آت وناشئ بواسطة النطفة, فإذا تكونت النطفة وأمنيت ابتدأ خلق الإنسان.

و)تمنى(تدفق وفسروه بمعنى تقذف أيضا.
وقيل أن)تمنى(بمعنى تراق، وعلوا تسمية الوادي الذي بقرب مكة منى لأنه تراق به دماء البدن من الهدايا. ولم يذكر أهل اللغة في معاني مني أو أمنى أن منها الإراقة. وهذا من مشكلات اللغة.
ثم إن)تمنى(يحتمل أنه مضارع أمنى بهمزة التعدية وسقطت في المضارع فوزنه تأفعل، ويحتمل أنه مضارع منى مثل رمى فوزنه: تفعل.
وبني فعل)تمنى(إلى المجهول لأن النطفة تدفعها قوة طبيعية في الجسم خفية فكان فاعل الإمناء مجهولا لعدم ظهوره.
وعن الأخفش)تمنى(تقدر، يقال: منى الماني، أي قدر المقدر. والمعنى: إذا قدر لها، أي قدر لها أن تكون مخلقة كقوله تعالى) مخلقة وغير مخلقة(.
والتقييد ب)إذ تمنى(لما في اسم الزمان من الإيذان بسرعة الخلق عند دفق النطفة في رحم المرأة فإنه عند التقاء النطفتين يبتدىء تخلق النسل فهذه إشارة خفيفة إلى أن البويضة التي هي نطفة المرأة حاصلة في الرحم فإذا أمنيت علها نطفة الذكر أخذت في التخلق إذ لم يعقها عائق.
ثم لما في فعل)تمنى(من الإشارة إلى أن النطفة تقطر وتصب على شيء آخر لأن الصب يقتضي مصبوبا عليه فيشير إلى التخلق إنما يحصل من انصباب النطفة على أخرى, فعند اختلاط المائين يحصل تخلق النسل فهذا سر التقييد بقوله)إذا تمنى(.
وفي الجمع بين الذكر والأنثى محسن الطباق لما بين الذكر والأنثى من شبه التضاد.
ولم يؤت في هذه الجملة بضمير الفصل كما في اللتين قبلها لعدم الداعي إلى القصر إذ لا ينازع أحد في أن الله خالق الخلق وموقع جملة)وأنه خلق الزوجين(إلى آخرها كموقع جملة)وأن سعيه سوف يرى(.
)وأن عليه النشأة الأخرى[47](

صفحة : 4210

كان مقتضى الظاهر من التنظير أن يقدم قوله)وأنه هو أغنى وأقنى(على قوله)وأن عليه النشأة الأخرى(لما في قوله)وأنه هو أغنى وأقنى(من الامتنان وإظهار الاقتدار المناسبين لقوله)وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى وأنه خلق الزوجين(الخ. إذ ينتقل من نعمة الخلق إلى نعمة الرزق كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم)الذي خلقني فهو يهدين وهو والذي يطعمني ويسقين وقوله

تعالى)الله الذي خلقكم ثم رزقكم(ولكن عدل عن ذلك على طريقة تشبه الاعتراض ليقرن بين البيانين ذكر قدرته على النشأتين.
ومما يشابه هذا ما قاله الواحدي في شرح قول المتنبي في سيف الدولة:

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نـائم
تمر بك الأبطال كلمى هـزيمة
ووجهك وضاء وثغرك بـاسـم أنه لما أنشد هذين البيتين أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجزي البيتين على صدريهما وقال: ينبغي أن تطبق عجز الأول على الثاني وعجز الثاني على الأول ثم قال له: وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله:

كأني لم أركب جوادا لـلـذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم اسبإ الزق الروي ولم أقل
لخيلي كري كرة بعد إجفال ووجه الكلام في البيتين على ما قاله أهل العلم بالشعر أن يكون عجز الأول على الثاني والثاني على الأول أي مع نقله كلمة للذة من صدر الأول إلى الثاني, وكلمة ولم أقل من صدر الثاني إلى الأول ليستقيم الكلام فيكون ركوب الخيل مع المر للخيل بالكر وسبأ الخمر مع تبطن الكاعب فقال أبو الطيب أطال الله عز مولانا إن صح أن الذي استدرك هذا على امرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا, ومولانا يعرف أن البزاز لا يعرف الثوب معرفة الحائك لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفصيله, وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة في شراء الخمر الأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء, وإنما لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه, ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا وعينه من أن تكون باكية قلت: ووجهك وضاء, لأجمع بين الضدين في المعنى اه.
ولو أن أبا الطيب شعر بهذه الآية لذكرها لسيف الدولة فكانت له أقوى حجة من تأويله شعر امرئ القيس.
وجملة)وأن عليه النشأة(تحقيق لفعله إياها شبها بالحق الواجب على المحقوق به بحيث لا يتخلف فكأنه حق واجب لأن الله وعد بحصول بما اقتضته الحكمة الإلهية لظهور أن الله لا يكرهه شيء, فالمعنى: أن الله أراد النشأة الأخرى كقوله تعالى)كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة(.
والنشأة: المرة من الإنشاء, أي الإيجاد والخلق.

والأخرى: مؤنث الأخير, أي النشأة التي لا نشأة بعدها, وهي مقابل النشأة الأولى التي يتضمنها قوله تعالى)وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى(. وهذه المقابلة هي مناسبة ذكر هذه النشأة الأخرى.
وقرأ الجمهور)النشأة(بوزن الفعلة وهو اسم مصدر أنشأ, وليس مصدرا, إذ ليس نشأ المجرد بمعتد وإنما يقال: أنشأ.
وقرأها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب)النشاءة(بألف بعد الشين المفتوحة بوزن الفعالة وهو من أوزان المصادر لكنه مقيس في مصدر الفعل المضموم العين في الماضي نحو الجزالة والفصاحة. ولذلك فالنشاءة بالمد مصدر سماعي مثل الكآبة. ولعل مدتها من قبيل الإشباع مثل قول عنترة:
ينباع من ذفرى غضوب جسرة أي نبع.
وتقديم الخبر على اسم)أن(للاهتمام بالتحقيق الذي أفادته) على(تنبيها على زيادة تحقيقه بعد أن حقق بما في)أن(من التوكيد.
)وأنه هو أغنى وأقنى[48](ومعنى)أغنى(جعل غنيا, أي أعطى ما به الغنى, والغنى التمكن من الانتفاع بما يحب الانتفاع به.
ويظهر أن معنى)أقنى(ضد معنى)أغنى(رعيا لنظائره التي زاوجت بين الضدين من قوله)أضحك وأبكى(و)أمات وأحيا(, و)الذكر والأنثى(, ولذلك فسره ابن زيد والأخفش وسليمان التميمي بمعنى أرضى.

صفحة : 4211

وعن مجاهد وقتادة والحسن: أقنى: أخدم, فيكون مشتقا من القن وهو العبد أو المولود في الرق فيكون زيادة على الإغناء. وقيل: أقنى: أعطى القنية. وهذا زيادة في الغنى. وعن ابن عباس: أقنى: أرضى, أي أرضى الذي أغناه بما أعطاه, أي أغناه حتى أرضاه فيكون زيادة في الامتنان.
والإتيان بضمير الفصل لقصر صفة الإغناء والإقناء عليه تعالى دون غيره وهو قصر ادعائي لمقابلة ذهول الناس عن شكر نعمة الله تعالى بإسنادهم الأرزاق لوسائله العادية, مع عدم التنبه إلى أن الله أوجد مواد الإرزاق وأسبابها وصرف موانعها, وهذا نظير ما تقدم من القصر في قوله تعالى)الحمد لله رب العالمين(ز وموقع جملة)وأنه هو أغنى وأقنى(كموقع جملة)وأن سعيه سوف يرى(.
)وأنه هو رب الشعرى[49](فهذه الجملة لا يجوز اعتبارها معطوفة على جملة)أن لا تزروا وازرة وزر أخرى(إذ لا تصح لأن تكون مما

في صحف موسى وإبراهيم لأن الشعرى لم تعبد في زمن إبراهيم ولا في زمن موسى عليهما السلام فيتعين أ تكون معطوفة على) ما(الموصولة من قوله)بما في صحف موسى وإبراهيم(الخ.

الشعرى: اسم نجم من نجوم برج الجوزاء شديد الضياء ويسمى: كلب الجبار, لأن برج الجوزاء يسمى الجبار عند العرب أيضا, وهو من البروج الربيعية, أي التي تكون مدة حلول الشمس فيها في فصل الربيع.

وسميت الجوزاء لشدة بياضها في سواد الليل تشبيها له بالشاة الجوزاء وهي الشاة السوداء التي وسطها أبيض.

وبرج الجوزاء ذو كواكب كثيرة ولكثير منها أسماء خاصة والعرب يتخيلون مجموع نجومها في صورة رجل واقف بيده عصا وعلى وسطه سيف, فلذلك سموه الجبار. وربما تخيلوها صورة امرأة فيطلقون على وسطها اسم المنطقة.

ولم أقف على وجه تسميتها الشعرى, وسميت كلب الجبار تخيلوا الجبار صائدا والشعرى يتبعه كالكلب وربما سموا الشعرى يد الجوزاء, وهو أبهر نجم برج الجوزاء, وتوصف الشعرى باليمانية لأنها إلى جهة اليمن. وتوصف بالعبور بفتح العين لأنهم يزعمون أنها زوج كوكب سهيل وأنهما كانتا متصلين وأن سهيلا انحدر نحو اليمن فتبعته الشعرى وعبرت نهر المجرة, فلذلك وصفت بالعبور فعول بمعنى فاعلة, وهو احتراز عن كوكب آخر ليس من كوكب الجوزاء يسمونه الشعرى الغميضاء بالغين المعجمة والصاد المهملة بصيغة تصغير وذكروا لتسميته قصة.

والشعرى تسمى المرزم كمنبر ويقال: مرزم الجوزاء لأن نؤه يأتي بمطر بارد في فصل الشتاء فاشتق له اسم آلة الرزم وهو شدة البرد فإنهم كنوا ريح الشمال أم رزم .

وكان كوكب الشعرى عبدته خزاعة والذي سن رجل من سادة خزاعة يكنى أبا كبشة. واختلف في اسمه ففي تاج العروس عن الكلبي أن اسمه جزء بجيم وزاي وهمزة . وعن الدارقطني أنه وجز بواو وجيم وزاي بن غالب بن عامر بن الحاررث بن غبشان كذا في التاج, والذي في جمهرة ابن حزم أن الحارث هو غبشان الخزاعي. ومنهم من يقال: أن اسم أبي كبشه عبد الشعرى. ولا أحسب إلا أن هذا وصف غلب عليه بعد أن اتخذ الشعرى معبودا له ولقومه, ولم يعرج ابن حزم في الجمهرة على ذكر أبي كبشة.

والذي عليه الجمهور أن الشعرى لم يعبدها من العرب الا خزاعة. وفي تفسير القرطبي عن السدي أن حمير عبدوا الشعرى.

وكانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا كبشة خيل لمخالفته إياهم في عبادة الأصنام. وكانوا يصفونه بابن أبي

كبشة. وقيل لأن أبا كبشة كان من أجداد النبي صلى الله عليه وسلم من قبل أمه يعرضون أو يموهون على دهمائهم بأنه يدعو إلى عبادة الشعرى يريدون التغطية على الدعوة إلى توحيد الله تعالى فمن ذلك قولهم لما أراهم انشقاق القمر سحركم ابن أبي كبشة وقول أبي سفيان للنفر الذين كانوا معه في حضرة هرقل لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أنه يخاف ملك بني الأصفر .

قال ابن أبي الأصبع في هذه الآية من البديع محسن التنكيت وهو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه فقوله تعالى)وأنه هو رب الشعرى(خص الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم لأن العرب كان ظهر فيهم رجل يعرف بأبي كبشة عبد الشعرى ودعا خلقا إلى عبادتها .

صفحة : 4212

وتخصيص الشعرى بالذكر في هاته السورة أنه تقدم ذكر اللات والعزى ومناة وهي معبودات وهمية لا مسميات لها كما قال تعالى)إن هي إلا أسماء سميتموها(وأعقبها بإبطال إلهية الملائكة وهي من الموجودات المجردات الخفية, أعقب ذلك بإبطال عبادة الكواكب وخزاعة أجوار لأهل مكة فلما عبدوا الشعرى ظهرت عبادة الكواكب في الحجاز, وإثبات أنها مخلوقة لله تعالى دليل على إبطال إلهيتها لأن المخلوق لا يكون إلها, وذلك مثل قوله تعالى)لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن(مع ما في لفظ الشعرى من مناسبة فواصل هذه السورة.

والإتيان بضمير الفصل يفيد قصر مربوبية الشعرى على الله تعالى وذلك كناية عن كونه رب ما يعتقدون أنه من تصرفات الشعرى, أي هو رب تلك الآثار ومقدرها وليست الشعرى ربة تلك الآثار المسندة إليها في مزاعمهم, وليس لقصر كون رب الشعرى على الله تعالى دون غيره لأنهم لم يعتقدوا أن للشعرى ربا غير الله ضرورة أن منهم من يزعم أن الشعرى ربة معبودة ومنهم من يعتقد أنها تتصرف بقطع النظر عن صفتها.

)وأنه أهلك عادا الأولى[50] وثمود فما أبقى[51] وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى[52](لما استوفي ما يستحقه مقام النداء على باطل أهل الشرك من تكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم وطعنهم في القرآن, ومن عبادة الأصنام, وقولهم في الملائكة, وفاسد معتقدهم في أمور الآخرة, وفي المتصرف في الدنيا,

وكان معظم شأنهم في هذه الضلالات شبيها بشأن أمم الشرك البائدة نقل الكلام إلى تهديدهم بخوف أن يحل بهم ما حل بتلك الأمم البائدة فذكر من تلك الأمم أشهرها عند العرب وهم: عاد, وثمود, وقوم نوح, وقوم لوط.

فموقع هذه الجملة كموقع الجمل التي قبلها في احتمال كونها زائدة على ما في صحف موسى وإبراهيم ويحتمل كونها مما شملته الصحف المذكورة فإن إبراهيم كان بعد عاد وثمود وقوم نوح, وكان معاصرا للمؤتفكة عالما بهلاكها.

ولكون هلاك هؤلاء معلوما لم تقرن الجملة بضمير الفصل.

ووصف عاد ب)الأولى(على اعتبار عاد اسما للقبيلة كما هو ظاهر. ومعنى كونها أولى لأنها أول العرب ذكروا وهم أول العرب البائدة وهم أول أمة أهلكت بعد قوم نوح.

وأما القول بأن عادا هذه لما هلكت خلفتها أمة أخرى ترف بعاد إرم أو عاد الثانية كانت في زمن العماليق فليس بصحيح.

ويجوز أن يكون)الأولى(وصفا كاشفا, أي عادا السابقة. وقيل)الأولى(صفة عظمة, أي الأولى في مراتب الأمم قوة وسعة, وتقدم التعريف بعاد في سورة الأعراف.

وتقدم ذكر ثمود في سورة الأعراف أيضا.

وتقدم ذكر نوح وقومه في سورة آل عمران وفي سورة الأعراف.

وإنما قدم في الآية ذكر عاد وثمود على ذكر قوم نوح مع أن هؤلاء أسبق لأن عادا وثمودا أشهر في العرب وأكثر ذكرا بينهم وديارهم في بلاد العرب.

وقرأ الجمهور)عادا الأولى(بإظهار تنوين)عادا(وتحقيق همزة)الأولى(. وقرأ ورش عن نافع وأبو عمرو)عاد لولى(بحذف همزة)الأولى(بعد نقل حركتها إلى اللام المعرفة وإدغام نون التنوين من)عادا(في لام)لولى(. وقرأه قالون عن نافع بإسكان همزة)الأولى(بعد نقل حركتها إلى اللام المعرفة)عاد لولى(على لغة من يبدل الواو الناشئة عن إشباع الضمة همزا, كما قرئ)فاستوى على سؤقه(.

وقرأ الجمهور)وثمودا(بالتنوين على إطلاق اسم جد القبيلة عليها. وقرأه عاصم وحمزة بدون تنوين على إرادة اسم القبيلة.

وجملة)إنهم هم كانوا أظلم وأطغى(تعليل لجملة)أهلك عادا(إلى آخرها, وضمير الجمع في)إنهم كانوا(يجوز أن يعود إلى قوم نوح, أي كانوا أظلم وأطغى من عاد وثمود. ويجوز أن يكون عائد إلى عاد وثمود وقوم نوح والمعنى: أنهم أظلم وأطغى من قومك الذين كذبوك فتكون تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الرسل من قبله لقوا من أممهم أشد مما لقيه محمد صلى الله عليه وسلم,

وفيه إيماء إلى أن الله مبق على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يهلكها لأنه قدر دخول بقيتها في الإسلام ثم أبنائها.
وضمير الفصل في قوله)كانوا هم أظلم(لتقوية الخبر.
)والمؤتفكة أهوى[53] فغشاها ما غشى[54](

صفحة : 4213

والمؤتفكة صفة لموصوف محذوف يدل عليه اشتقاق الوصف كما سيأتي, والتقدير: القرى المؤتفكة, وهي قرى قوم لوط الأربع وهي سدوم و عمورة و آدمة و صبوييم . ووصفت في سورة براءة بالمؤتفكات لأن وصف جمع المؤنث يجوز أن يجمع وأن يكون بصيغة المفرد المؤنث. وقد صار هذا الوصف غالبا عليها بالغلبة.
وذكرت القرى باعتبار ما فيها من السكان تفننا ومراعاة للفواصل.
ويجوز أن تكون المؤتفكة هنا وصفا للأمة, أي لأمة لوط ليكون نظيرا لذكر عاد وثمود وقوم نوح كما في قوله تعالى)وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة(فس يورة الحاقة. والائتفاك: الانقلاب, يقال: أفكها فاتفكت. والمعنى: التي خسف بها فجعل عاليها سافلها, وقد تقدم ذكرها في سورة براءة.
وانتصب)المؤتفكة(مفعول)أهوى(أي أسقط أي جعلها هاوية.
والإهواء: الإسقاط, يقال: أهواه فهوى, ومعنى ذلك: أنه رفعها في الجو ثم سقطت أو أسقطها في باطن الأرض وذلك من أثر زلازل وانفجارات أرضية بركانية.
ولكون المؤتفكة علما انتفى أن يكون بين)المؤتفكة(و)أهوى(تكرير. وتقديم المفعول للاهتمام بعبرة انقلابها.
وغشاها: غطاها وأصابها من أعلى.
و)ما غشى(فاعل)غشاها(, و)ما(موصولة, وجيء بصلاتها من مادة وصيغة الفعل الذي أسند إليها, وذلك لا يفيد خبرا جديدا زائدا على مفاد الفعل.
والمقصود منه التهويل كأن المتكلم أراد أن يبين بالموصول والصلة وصف فاعل الفعل فلم يجد لبيانه أكثر من إعادة الفعل إذ لا يستطاع وصفه. والذي غشاها هو مطر من الحجارة المحماة, وهي حجارة بركانية قذفت من فوهات كالآبار كانت في بلادهم ولم تكن ملتهبة من قبل قال تعالى)ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء(وقال)وأمطرنا عليها حجارة من سجيل(. وفاضت عليها مياه غمرت بلادهم فأصبحت بحرا ميتا.
وأفاد العطف بفاء التعقيب في قوله)فغشاها(إن ذلك كان بعقب أهوائها.

)فبأي آلاء ربك تتمارى[55](تفريع فذلكة لما ذكر من أول السورة: مما يختص بالنبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كقوله)ما ضل صاحبكم وما غوى(إلى قوله)لقد رأى من آيات ربه الكبرى(. ومما يشمله ويشمل غيره من قوله)وأنه هو أضحك وأبكى(إلى قوله) هو رب الشعرى(فإن ذلك خليط من نعم وضدها على نوع الإنسان وفي مجموعها نعمة تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته بمنافع الاعتبار بصنع الله. ثم من قوله)وأنه أهلك عادا(إلى هنا. فتلك نقم من الضالين والظالمين لنصر رسل الله, وذلك نعمة على جميع الرسل ونعمة خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم وهي بشارته بأن الله سينصره, فجميع ما عدد من النعم على أقوام والنقم عن آخرين هو نعم محضة للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

و)أي(اسم استفهام يطلب به تمييز متشارك في أمر يعم بما يميز البعض عم البقية من حال يختص به مستعمل هنا في التسوية كناية عم تساوي ما عدد من الأمور في أنها نعم على الرسول صلى الله عليه وسلم إذ ليس لواحد من هذه المعدودات نقص عن نظائره في النعمة كقول فاطمة بنت الخرشب وقد سئلت: أي بنيك أفضل ثكلتهم إن كنت أدري أيهما أفضل , أي إن كنت أدري جواب السؤال, وكقول الأعشى:

باشجع أخاذ على الدهر حكمـه فمن أي ما تأتي الحوادث أفرق والمقصود من هذا الاستفهام تذكير النبي صلى الله عليه وسلم بهذه النعم.

فالمعنى أنك لا تحصل لك مرية في واحدة من آلاء ربك فإنها سواء في الإنعام, والخطاب بقوله)ربك(الأظهر أنه للنبي صلى الله عليه وسلم وهو مناسب لذكر الآلاء والموافق لإضافة)رب(إلى ضمير المفرد المخاطب في عرف القرآن.

وجوزوا أن يكون الخطاب في قوله)فبأي آلاء ربك(لغير معين من الناس, أي المكذبين أي باعتبار أنه لا يخلو شيء مما عدد سابقا عن نعمة لبعض الناس أو باعتبار عدم تخصيص الآلاء بما سبق ذكره بل المراد جنس الآلاء كما في قوله تعالى)فبأي آلاء ربكما تكذبان(.

والآلاء: النعم, وهو جمع مفرده: إلى, بكسر الهمزة وبفتحها مع فتح اللام مقصورا, ويقال: إلى, وألي, بسكون اللام فيهما وآخره ياء متحركة, ويقال: ألو, بهمز مفتوحة بعدها لام ساكنة وآخره واو متحركة مثل: دلو.

والتماري: التشكك وهو تفاعل من المرية فإن كان الخطاب بقوله)ربك(للنبي صلى الله عليه وسلم كان)تتمارى(مطاوع ماراه مثل التدافع مطاوع دفع في قول المنخل:

فدفعتها فـتـدافـعـت مشي القطاة إلى الغدير والمعنى: فبأي آلاء ربك يشككونك, وهذا ينظر إلى قوله تعالى)أفتمارونه على ما يرى(, أي لا يستطيعون أن يشككوك في حصول آلاء ربك التي هي نعم النبوة والتي منها رؤية جبريل عند سدرة المنتهى. فالكلام مسوق لتأييس المشركين من الطمع في الكف عنهم.

وإن كان الخطاب لغير معين كان)تتمارى(تفاعلا مستعملا في المبالغة في حصول الفعل, ولا يعرف فعل مجرد للمراء, وإنما يقال:امترى, إذا شك.

)هذا نذير من النذر الأولى[56](استئناف ابتدائي أو فذلكة لما تقدم على اختلاف الاعتبارين في مرجع اسم الإشارة فإن جعلت اسم الإشارة راجعا إلى القرآن فإنه لحضوره في الأذهان ينزل منزلة شيء محسوس حاضر بحيث يشار إليه, فالكلام انتقال اقتضابي تنهية لما قبله وابتداء لما بعد اسم الإشارة على أسلوب قوله تعالى)هذا بلاغ للناس(.

والكلام موجه إلأى المخاطبين بمعظم ما في هذه السورة فلذلك اقتصر على وصف الكلام بأنه نذير, دون أن يقول: نذير وبشير, كما قال في الآية الأخرى)إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون(.

والإنذار بعضه صريح مثل قوله)ليجزي الذين أساءوا بما عملوا(الخ, وبعضه تعريض كقوله)وأنه أهلك عادا الأولى(وقوله)وأن إلى ربك المنتهى(.

وإن جعلت اسم الإشارة عائدا إلى ما تقدم من أول السورة بتأويله بالمذكور, أو إلى ما لم ينبأ به الذي تولى وأعطى قليلا, ابتداء من قوله)أم لم ينبأ بما في صحف موسى(إلى هنا على كلام التأويلين المتقدمين, فتكون الإشارة إلى الكلام المتقدم تنزيلا لحضوره في السمع منزلة حضوره في المشاهدة بحيث يشار إليه.

و)النذير(حقيقته المخبر عن حدوث حدث مضر بالمخبر بالفتح , وجمعه: نذر, هذا هو الأشهر فيه. ولذلك جعل ابن جريج وجمع من المفسرين الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد.

ويطلق النذير على الإنذار وهو خبر المخبر على طريقة المجاز العقلي. قال أبو القاسم الزجاجي: يطلق النذير على الإنذار يريد أنه اسم مصدر ومنه قوله تعالى)فستعلمون كيف نذير(أي إنذاري

وجمعه نذر أيضا, ومنه قوله تعالى)كذبت ثمود بالنذر(, أي بالمنذرين. وإطلاق نذير على ما هو كلام وهو القرآن أو بعض آياته مجاز عقلي, أو استعارة على رأي جمهور أهل اللغة وهو حقيقة على رأي الزجاجي.

والمراد بالنذر الأولى: السالفة, أي أن معنى هذا الكلام من معاني الشرائع الأولى كقول النبي إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت أي من كلام الأنبياء قبل الإسلام.

)أزفت الآزفة[57] ليس لها من دون الله كاشفة[58](تتنزل هذه الجملة من التي قبلها منزلة البيان للإنذار الذي تضمنه قوله)هذا نذير(.

فالمعنى: هذا نذير بآزفة قربت, وفي ذكر فعل القرب فائدة أخرى زائدة على البيان وهي أن المنذر به دنا وقته, فإن: أزفت معناه: قرب وحقيقته القرب المكان, واستعير لقرب الزمان لكثرة ما يعاملون الزمان معاملة المكان.

والتنبيه على قرب المنذر به من كمال الإنذار للبدار بتجنب الوقوع فيما ينذر به.

وجيء لفعل)أزفت(بفاعل من مادة الفعل للتهويل على السامع لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه المحادثة التي أزفت, ومعلوم أنها من الأمور المكروهة لورود ذكرها عقب ذكر الإنذار.

وتأنيث)الآزفة(بتأويل الوقعة, أو الحادثة كما يقال: نزلت به نازلة, أو وقعت الواقعة, وغشيته غاشية, والعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع, ولعلهم راعوا أن الأنثى مصدر كثرة النوع.

والتعريف في)الآزفة(تعريف الجنس, ومنه زيادة تهويل بتمييز هذا الجنس من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبر في المخلص منه نظير التعريف في)الحمد لله(, وقولهم: أرسلها العراك.

والتماري: التشكك وهو تفاعل من المرية فإن كان الخطاب بقوله)ربك(للنبي صلى الله عليه وسلم كان)تتمارى(مطاوع ماراه مثل التدافع مطاوع دفع في قول المنخل:

فدفعتها فـتـدافـعـت مشي القطاة

إلى الغدير والمعنى: فبأي آلاء ربك يشككونك, وهذا ينظر إلى قوله

تعالى)أفتمارونه على ما يرى(, أي لا يستطيعون أن يشككوك في حصول آلاء ربك التي هي نعم النبوة والتي منها رؤية جبريل عند سدرة المنتهى. فالكلام مسوق لتأييس المشركين من الطمع في الكف عنهم.
وإن كان الخطاب لغير معين كان)تتمارى(تفاعلا مستعملا في المبالغة في حصول الفعل, ولا يعرف فعل مجرد للمراء, وإنما يقال:امترى, إذا شك.
)هذا نذير من النذر الأولى[56](استئناف ابتدائي أو فذلكة لما تقدم على اختلاف الاعتبارين في مرجع اسم الإشارة فإن جعلت اسم الإشارة راجعا إلى القرآن فإنه لحضوره في الأذهان ينزل منزلة شيء محسوس حاضر بحيث يشار إليه, فالكلام انتقال اقتضابي تنهية لما قبله وابتداء لما بعد اسم الإشارة على أسلوب قوله تعالى)هذا بلاغ للناس(.
والكلام موجه إلأى المخاطبين بمعظم ما في هذه السورة فلذلك اقتصر على وصف الكلام بأنه نذير, دون أن يقول: نذير وبشير, كما قال في الآية الأخرى)إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون(.
والإنذار بعضه صريح مثل قوله)ليجزي الذين أساءوا بما عملوا(الخ, وبعضه تعريض كقوله)وأنه أهلك عادا الأولى(وقوله)وأن إلى ربك المنتهى(.
وإن جعلت اسم الإشارة عائدا إلى ما تقدم من أول السورة بتأويله بالمذكور, أو إلى ما لم ينبأ به الذي تولى وأعطى قليلا, ابتداء من قوله)أم لم ينبأ بما في صحف موسى(إلى هنا على كلام التأويلين المتقدمين, فتكون الإشارة إلى الكلام المتقدم تنزيلا لحضوره في السمع منزلة حضوره في المشاهدة بحيث يشار إليه.
و)النذير(حقيقته المخبر عن حدوث حدث مضر بالمخبر بالفتح , وجمعه: نذر, هذا هو الأشهر فيه. ولذلك جعل ابن جريج وجمع من المفسرين الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد.
ويطلق النذير على الإنذار وهو خبر المخبر على طريقة المجاز العقلي. قال أبو القاسم الزجاجي: يطلق النذير على الإنذار يريد أنه اسم مصدر ومنه قوله تعالى)فستعلمون كيف نذير(أي إنذاري وجمعه نذر أيضا, ومنه قوله تعالى)كذبت ثمود بالنذر(, أي بالمنذرين. وإطلاق نذير على ما هو كلام وهو القرآن أو بعض آياته مجاز عقلي, أو استعارة على رأي جمهور أهل اللغة وهو حقيقة على رأي الزجاجي.
والمراد بالنذر الأولى: السالفة, أي أن معنى هذا الكلام من معاني الشرائع الأولى كقول النبي إن مما أدرك الناس من كلام النبوة

الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت أي من كلام الأنبياء قبل الإسلام.
)أزفت الآزفة[57] ليس لها من دون الله كاشفة[58](تتنزل هذه الجملة من التي قبلها منزلة البيان للإنذار الذي تضمنه قوله)هذا نذير(.
فالمعنى: هذا نذير بآزفة قربت, وفي ذكر فعل القرب فائدة أخرى زائدة على البيان وهي أن المنذر به دنا وقته, فإن: أزفت معناه: قرب وحقيقته القرب المكان, واستعير لقرب الزمان لكثرة ما يعاملون الزمان معاملة المكان.
والتنبيه على قرب المنذر به من كمال الإنذار للبدار بتجنب الوقوع فيما ينذر به.
وجيء لفعل)أزفت(بفاعل من مادة الفعل للتهويل على السامع لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه المحادثة التي أزفت, ومعلوم أنها من الأمور المكروهة لورود ذكرها عقب ذكر الإنذار.
وتأنيث)الآزفة(بتأويل الوقعة, أو الحادثة كما يقال: نزلت به نازلة, أو وقعت الواقعة, وغشيته غاشية, والعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع, ولعلهم راعوا أن الأنثى مصدر كثرة النوع.
والتعريف في)الآزفة(تعريف الجنس, ومنه زيادة تهويل بتمييز هذا الجنس من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبر في المخلص منه نظير التعريف في)الحمد لله(, وقولهم: أرسلها العراك.

صفحة : 4215

والكلام يحتمل آزفة في الدنيا من جنس ما أهلك به عاد وثمود وقوم نوح فهي استئصالهم يوم بدر, ويحتمل آزفة وهي القيامة. وعلى التقديرين فالقرب مراد به التحقق وعدم الانقلاب منها كقوله تعالى)اقتربت الساعة(وقوله)إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا(.
وجملة)ليس لها من دون الله كاشفة(مستأنفة بيانية أو صفة ل)الآزفة(. و)كاشفة(يجوز أن يكون مصدر بوزن فاعلة كالعافية, وخائنة الأعين وليس لوقعتها كاذبة. والمعنى ليس لها كشف.
ويجوز أن يكون اسم فاعل قرن بهاء التأنيث للمبالغة مثل راوية, وباقعةو وداهية, أي ليس لها كاشف قوي الكشف فضلا عمن دونه.
والكشف يجوز أن يكون بمعنى التعرية مراد به الإزالة مثل ويكشف الضر, وذلك ضد ما يقال: غشية الضر.

فالمعنى: لا يستطيع أحد إزالة وعيدها غير الله, وقد أخبر بأنها واقعة بقوله)ليس لها من دون الله كاشفة(كناية عن تحقيق وقوعها.

ويجوز أن يكون الكشف بمعنى إزالة الخفاء, أي لا يبين وقت الآزفة أحد له قدرة على البيان على نحو قوله تعالى)لا يجليها لوقتها إلا هو(. فالمعنى: أن الله هو العالم بوقتها لا يعلمه أحد إلا إذا شاء أن يطلع عليه أحدا من رسله أو ملائكته.

و)من دون الله(أي غير الله, و)من(مزيدة للتوكيد, وهو متعلق بالكون الذي ينوى في خبر ليس في قوله)لها(.

)أفمن هذا الحديث تعجبون[59] وتضحكون ولا تبكون[60] وأنتم سامدون[61](تفريع على)هذا نذير من النذر الأولى(وما عطف عليه وبين به من بيان أو صفة, فرع عليه استفهام إنكار وتوبيخ.

والحديث: الكلام والخبر.

والإشارة إلى ما ذكر من الإنذار بأخبار الذين كذبوا الرسل, فالمراد بالحديث بعض القرآن بما في قوله)أفبهذا الحديث أنتم مدهنون(.

ومعنى العجب هنا الاستبعاد والإحالة كقوله)أتعجبين من أمر الله(, أو كناية عن الإنكار.

والضحك: ضحك الاستهزاء.

والبكاء مستعمل في لازمه من خشية الله كقوله تعالى)ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا(.

ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين حيث حلوا بحجر ثمود في غزوة تبوك لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم , أي ضارعين لله أن لا يصيبكم مثل ما أصابهم أو خاشعين أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

والمعنى: ولا تخشون سوء عذاب الإشراك فتقلعوا عنه.

وسامدون: من السمود وهو ما في المرء من الإعجاب بالنفس, يقال: سمد البعير, إذا رفع رأسه في سيره, مثل به حال المتكبر المعرض عن النصح المعجب بما هو فيه بحال البعير في نشاطه.

وقيل السمود: الغناء بلغة حمير, والمعنى: فرحون بأنفسكم تتغنون بالأغاني لقلة الاكتراث بما تسمعون من القرآن كقوله)وما كانت صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية(على أحد تفسيرين.

وتقديم المجرور للقصر, أي هذا الحديث ليس أهلا لأن تقابلوه بالضحك والاستهزاء والتكذيب ولا لأن لا يتوب سامعه, أي لو قابلتم بفعلكم كلاما غيره لكان لكم شبهة في فعلكم, فأما مقابلتكم هذا الحديث بما فعلتم فلا عذر لكم فيها.

)فاسجدوا لله واعبدوا[62](تفريع على الإنكار والتوبيخ المفرعين على الإنذار بالوعيد, فرع عليه أمرهم بالسجود لله لأن ذلك التوبيخ

من شأنه أن يعمق في قلوبهم فيكفهم عما هم فيه من البطر والاستخفاف بالداعي إلى الله. ومقتضى تناسق الضمائر أن الخطاب في قوله)فاسجدوا لله واعبدوا(موجه إلى المشركين.
والسجود يجوز أن يراد به الخشية كقوله تعالى)والنجم والشجر يسجدان(. والمعنى: أمرهم بالخضوع إلى الله والكف عن تكذيب رسوله وعن إعراضهم عن القرآن لأن ذلك كله استخفاف بحق الله وكان عليهم لما دعوا إلى الله أن يتدبروا وينظروا في دلائل صدق الرسول والقرآن.
ويجوز أن يكون المراد سجود الصلاة والأمر به كناية عن المر بأن يسلموا فإن الصلاة شعار الإسلام, ألا ترى إلى قوله تعالى)ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين(, أي من الذين شأنهم الصلاة. وقد جاء نظيره الأمر بالركوع في قوله تعالى)وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون(في سورة المرسلات فيجوز فيه المحملان.

صفحة : 4216

وعطف على ذلك أمرهم بعبادة الله لأنهم إذا خضعوا له حق الخضوع عبدوه وتركوا عبادة الأصنام وقد كان المشركون يعبدون الأصنام بالطواف حولها ومعرضين عن عبادة الله, ألا ترى أنهم عمدوا إلى الكعبة فوضعوا فيها الأصنام ليكون طوافهم بالكعبة طوافا بما فيها من الأصنام.
أو المراد: واعبدوا العبادة الكاملة وهي التي يفرد بها لأن إشراك غيره في العبادة التي يستحقها إلا هو كعدم العبادة إذ الإشراك إخلال كبير بعبادة الله قال تعالى)واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا(.
وقد ثبت في ا?بار الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ النجم فسجد فيها أي عند قوله)فاسجدوا لله واعبدوا(وسجد من كان معه من المسلمين والمشركين إلا شيخا مشركا هو أمية بن خلف أخذ كفا من تراب أو حصى فرفعه إلى جهته. قال: يكفيني هذا. وروي أن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود كانا يسجدان عند هذه الآية في القراءة في الصلاة.
وفي أحكام ابن العربي أن ابن عمر سجد فيها, وفي الصحيحين والسنن عن زيد بن ثابت قال قرأت: النجم عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسجد فيها. وفي سنن ابن ماجه عن أبي الدرداء سجدت مع النبي صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء . وعن أبي بن كعب: كان آخر فعل النبي

صلى الله عليه وسلم ترك السجود في المفصل. وعن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسجد في المفصل منذ تحول إلى المدينة, وسورة النجم من المفصل.

واختلف العلماء في السجود عند هذه الآية فقال مالك: سجدة النجم ليست من عزائم القرآن أي ليست مما يسن السجود عندها. هذا مراده بالعزائم وليس المراد أن من سجود القرآن عزائم ومنه غيره عزائم ف)عزائم(وصف كاشف ولم ير سجود القرآن في شيء من المفصل، ووافقه أصحابه عدا ابن وهب قرآها من عزائم السجود، هي وسجدة سورة الانشقاق وسجدة سورة العلق مثل قول أبي حنيفة. وفي المنتقى: أنه قول ابن وهب وابن نافع.

وقال أبو حنيفة: هي من عزائم السجود. ونسب ابن العربي في أحكام القرآن مثله إلى الشافعي، وهو المعروف في كتب الشافعية والحنابلة.

وإنما سجد النبي صلى الله عليه وسلم فيها وإن كان الأمر في قوله)فاسجدوا(مفرعا على خطاب المشركين بالتوبيخ، لأن المسلمين أولى بالسجود لله وليعضد الأمر القوي بالفعل ليبادر به المشركون. وقد كان ذلك مذكرا للمشركين بالسجود لله فسجدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم نسخ السجود فيها بعد ذلك فلم يروا عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، ولخبر زيد بن ثابت وأبي بن كعب وعمل معظم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القمر

اسمها بين السلف)سورة اقتربت الساعة(. ففي حديث أبي واقد الليثي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الفطر والأضحى، وبهذا الاسم عنون لها البخاري في كتاب التفسير.

وتسمى)سورة القمر(وبذلك ترجمها الترمذي. وتسمى)سورة اقتربت(حكاية لأول كلمة فيها.

وهي مكية كلها عند الجمهور، وعن مقاتل: أنه استثنى منها قوله تعالى)أم يقولون نحن جميع منتصر(إلى قوله)وأمر(قال: نزل يوم بدر ولعل ذلك من أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية يوم بدر .

وهي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص.

وعدد آيها خمس وخمسون باتفاق أهل العدد.

وسبب نزولها ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك قال سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر بمكة فنزلت) اقتربت الساعة وانشق القمر(إلى قوله)سحر مستمر(.
وفي أسباب النزول للواحدي بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد محمد صلى الله عليه وسلم فقالت قريش هذا سحر ابن أبي كبشة سحركم، فسألوا السفار، فقالوا نعم قد رأينا، فأنزل الله عز وجل)اقتربت الساعة وانشق القمر(الآيات.
وكان نزولها في حدود سنة خمس قبل الهجرة ففي الصحيح أن عائشة قالت: أنزل على محمد بمكة وإني لجارية ألعب)بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر(.

صفحة : 4217

وكانت عقد عليها في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي في أواخر سنة أربع قبل الهجرة بمكة، وعائشة يومئذ بنت ست سنين، وذكر بعض المفسرين أن انشقاق القمر كان سنة خمس قبل الهجرة وعن ابن عباس كان بين نزول آية)سيهزم الجمع ويلون الدبر(وبين بدر سبع سنين.

أغراض هذه السورة
تسجيل مكابرة المشركين في الآيات المبينة، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مكابرتهم.
وإنذارهم باقتراب القيامة وبما يلقونه حين البعث من الشدائد.
وتذكيرهم بما لقيته الأمم أمثالهم من عذاب الدنيا لتكذيبهم رسل الله وأنهم سيلقون مثل ما لقي أولئك إذ ليسوا خيرا من كفار الأمم الماضية.
وإنذارهم بقتال يهزمون به، ثم لهم عذاب الآخرة وهو أشد.
وإعلامهم بإحاطة الله علما بأفعالهم وأنه مجازيهم شر الجزاء ومجاز المتقين خير الجزاء. وإثبات البعث، ووصف بعض أحواله.
وفي خلال ذلك تكرير التنويه بهدي القرآن وحكمته.
)اقتربت الساعة وانشق القمر[1](من عادة القرآن أن ينتهز الفرصة لإعادة الموعظة والتفكير حين يتضاءل تعلق النفوس بالدنيا، وتفكر فيما بعد الموت وتعير آذانها لداعي الهدى. فتتهيأ لقبول الحق في مضان ذلك على تفاوت في استعدادها وكم كان مثل هذا الانتهاز سببا في إيمان قلوب قاسي، فإذا أظهر الله الآيات على يد

رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأييد صدقه شفع ذلك بإعادة التذكير كما قال تعالى)وما نرسل بالآيات إلا تخويفا(.
وجمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت شاهدة على المشركين بظهور آية كبرى ومعجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وهي معجزة انشقاق القمر. ففي صحيح البخاري وجامع الترمذي عن أنس بن مالك قال سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر . زاد الترمذي عنه فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت)اقتربت الساعة وانشق القمر(إلى قوله)سحر مستمر(.
وفي رواية الترمذي عن ابن مسعود قال بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى فانشق القمر .
وظاهره أن ذلك في موسم الحج. وفي سيرة الحلبي كان ذلك ليلة أربع عشرة أي في أواخر ليالي منى ليلة النفر . وفيها اجتمع المشركون بمنى وفيهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاصي بن وائل، والعاصي بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم إن كنت صادقا فشق القمر فرقتين فانشق القمر .
والعمدة في هذا التأويل على حديث عبد الله بن مسعود في الصحيح قال: انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فانشق القمر فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا واشهدوا(. زاد في رواية الترمذي عنه يعني واقتربت الساعة وانشق القمر . قلت: وعن ابن عباس نصف على أبي قبيس ونصف على قعيقعان.
وروي ثله عن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن عمر وحذيفة بن اليمان وأنس بن مالك وجبير بن مطعم، وهؤلاء لم يشهدوا انشقاق القمر لأن من عدا عليا وابن عباس وابن عمر لم يكونوا بمكة ولم يسلموا إلا بعد الهجرة ولكنهم ما تكلموا إلا عن يقين.
وكثرة رواة هذا الخبر تدل على أنه كان خبرا مستفيضا. وقال في شرح المواقف: هو متواتر. وفي عبارته تسامح لعدم توفر شرط التواتر. ومراده: أنه مستفيض.
وظاهر بعض الروايات لحديث ابن مسعود عند الترمذي أن الآية نزلت قبل حصول انشقاق القمر الواقع بمكة لما سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم آية أو سألوه انشقاق القمر فأراهم انشقاق القمر وإنما يحصل عند اقتراب الساعة. وروي هذا عن الحسن وعطاء وهو المعبر عنه بالخسوف في سورة القيامة) فإذا برق البصر وخسف القمر(الآية.

وهذا لا ينافي وقوع انشقاق القمر الذي سأله المشركون ولكنه غير المراد في هذه الآية لكنه مؤول بما في روايته عند غير الترمذي.
ولحديث انس بن مالك أن الآية نزلت بعد انشقاق القمر.

صفحة : 4218

وعلى جميع تلك الروايات فانشقاق القمر الذي هو معجزة حصل في الدنيا. وفي البخاري عن ابن مسعود أنه قال خمس قد مضين اللزام والروم والبطشة والقمر والدخان . وعن الحسن وعطاء أن انشقاق القمر يكون عند القيامة واختاره القشيري، وروي عن البلخي. وقال الماوردي: هو قول الجمهور، ولا يعرف ذلك للجمهور.
وخبر انشقاق القمر معدود في مباحث المعجزات من كتب السيرة ودلائل النبوة.
وليس لفظ هذه الآية صريحا في وقوعه ولكنه ظاهر الآية يقتضيه كما في الشفاء.
فإن كان نزول هذه الآية واقعا بعد حصول الانشقاق كما اقتضاه حديث ابن مسعود في جامع الترمذي فتصدير السورة ب)اقتربت الساعة(للاهتمام بالموعظة كما قدمناه آنفا إذ قد تقرر المقصود من تصديق المعجزة.
فجعلت تلك المعجزة وسيلة للتذكير باقتراب الساعة على طريقة الإدماج بمناسبة أن القمر كائن من الكائنات السماوية ذات النظام المساير لنظام الجو الأرضي فلما حدث تغير في نظامه لم يكن مألوفا ناسب تنبيه الناس للاعتبار بإمكان اضمحلال هذا العالم، وكان فعل الماضي مستعملا في حقيقته. وروي أن حذيفة بن اليمان قرأ وقد انشق القمر .
وإن كان نزولها قبل حصول الانشقاق كما اقتضاه حديث أنس بن مالك فهو إنذار باقتراب الساعة وانشقاق القمر الذي هو من أشراط الساعة ومع الإيماء إلى أن الانشقاق سيكون معجزة لما يسألوه المشركون. ويرجح هذا المحمل قوله تعالى عقبه)وأن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر(كما سيأتي هنالك.
وإذ قد حمل معظم السلف من المفسرين ومن خلفهم هذه الآية على أن انشقاق القمر حصل قبل نزولها أو بقرب نزولها فبنا أن نبين إمكان حصول هذا الانشقاق مسايرين للاحتمالات الناشئة عن روايات الخبر عن الانشقاق إبطالا لجحد الملحدين، وتقريبا لفهم المصدقين.

فيجوز أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدثت في وجهه هوة لاحت للناظرين في صورة شقه إلى نصفين بينهما سواد حتى يخيل أنه منشق إلى قمرين، فالتعبير عنه بالانشقاق مطابق للواقع لأن الهوة انشقاق وموافق لمرأى الناس لأنهم رأوه كأنه مشقوق.

ويجوز أن يكون قد حصل في الأفق بين سمت القمر وسمت الشمس مرور جسم سماوي من نحو بعض المذنبات حجب ضوء الشمس عن وجه القمر بمقدار ضل ذلك الجسم على نحو ما يسمى بالخسوف الجزئي، وليس في لفظ أحاديث أنس بن مالك عند مسلم والترمذي، وابن مسعود وابن عباس عند البخاري ما يناكد ذلك.

ومن الممكن أن يكون الانشقاق حدثا مركبا من خسوف نصفي في القمر على عادة الخسوف فحجب نصف القمر، والقمر على سمت أحد الجبلين قد حصل في الجو ساعة إذ سحاب مائي أنعكس في بريق مائه صورة القمر مخسوفا بحيث يخالطه الناظر نصفا آخر من القمر دون كسوف طالعا على جهة ذلك الجبل، وهذا من غرائب حوادث الجو. وقد عرفت حوادث من هذا القبيل بالنسبة لأشعة الشمس ويجوز أن يحدث مثلها بالنسبة لضوء القمر على أنه نادر جدا وقد ذكرنا ذلك عند قوله تعالى)وإذ نتقنا الجبل فوقهم(في سورة الأعراف.

ويؤيد هذا ما أخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: سحر القمر فنزلت)اقتربت الساعة(الآية فسماه ابن عباس كسوفا تقريبا لنوعه.

وهذا الوجه لا ينافي كون الانشقاق معجزة لأن حصوله في وقت سألهم من النبي صلى الله عليه وسلم آية وإلهام الله إياهم أن يسألوا ذلك في حين تقدير الله كاف في كونه آية صدق. أو لأن الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يتحداهم به قبل حصوله دليل على أنه مرسل من الله إذ لا قبل للرسول صلى الله عليه وسلم بمعرفة أوقات ظواهر التغيرات للكواكب. وبهذا الوجه يظهر اختصاص ظهور ذلك بمكة دون غيرها من العالم، وإما على الوجه الأول فإنما لم يشعر به غير أهل مكة من الأرض لأنهم لم يكونوا متأهبين إليه إذ كان ذلك ليلا وهو وقت غفلة أو نوم ولأن القمر ليس ظهوره في حد واحد لأهل الأرض فإن مواقيت طلوعه تختلف باختلاف البلدان في ساعات الليل والنهار وفي مسامته السماء.

قال ابن كيسان: هو على التقديم والتأخير. وتقديره: انشق القمر واقتربت الساعة، أي لأن الأصل في ترتيب الأخبار أن يجري على

ترتيبها في الوقوع وأن كان العطف بالواو لا يقتضي ترتيبا في الوقوع.

صفحة : 4219

وانشق مطاوع شقه، والشق: فرج وتفرق بين أديم جسم ما بحيث لا تنفصل قطعة مجموع ذلك الجسم عن البقية، ويسمى أيضا تصدعا كما يقع في عود أو جدار.
فإطلاق الانشقاق على حدوث هوة في سطح القمر إطلاق حقيقي وإطلاقه على انطماس بعض ضوئه استعارة، وإطلاقه على تفرقة نصفين مجاز مرسل.
والاقتراب أصله صيغة مطاوعة، أي قبول فعل الفاعل، وهو هنا للمبالغة في القرب فإن حمل على حقيقة القرب فهو قرب اعتباري، أي قرب حلول الساعة فيما يأتي من الزمان قربا نسبيا بالنسبة لما مضى من الزمان ابتداء من خلق السماء والأرض على نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بسباته والوسطى فإن تحديد المدة من وقت خلق العالم أو من وقت خلق الإنسان أمر لا قبل للناس به وما يوجد في كتب اليهود مبني على الحسد والتوهمات، قال ابن عطية: وكل ما يروى من التحديد في عمر الدنيا فضعيف واهن اه.
وفائدة هذا الاعتبار أن يقبل الناس على نبذ الشرك وعلى الاستكثار من الأعمال الصالحات واجتناب الآثام لقرب يوم الجزاء.
والساعة: علم بالغلبة على وقت فناء هذا العالم. ويجوز أن يراد بالساعة ساعة معهودة أنذروا بها في آيات كثيرة وهي ساعة استئصال المشركين بسيوف المسلمين.
وأن حمل القرب على المجاز، أي الدلالة على الإمكان، فالمعنى: اتضح للناس ما كانوا يجدونه محالا من فناء العالم فإن لحصول المثل والنظائر إقناعا بإمكان أمثالها التي هي أقوى منها.
وعطف)وانشق القمر(عطف جملة على جملة.
والخبر مستعمل في لازم معناه وهو الموعظة إن كانت الآية نزلت بعد انشقاق القمر كما تقدم لأن علمهم بذلك حاصل فليسوا بحاجة إلى لإفادتهم حكم هذا الخبر وإنما هم بحاجة إلى التذكير بأن من أمارات حلول الساعة أن يقع خسف في القمر بما تكررت موعظتهم به كقوله تعالى)فإذا برق البصر وخسف القمر(الآية إذ ما يأمنهم أن يكون ما وقع من انشقاق القمر أمارة على اقتراب

الساعة فما الانشقاق إلا نوع من الخسف فإن أشراط الساعة وعلاماتها غير محدودة الأزمنة في القرب والبعد من مشروطها.

)وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر[2](يجوز أن يكون تذييلا للإخبار بانشقاق القمر فيكون المراد ب)آية(في قوله)وإن يروا آية(القمر. فقد جاء في بعض الآثار: أن المشركين لما رأوا انشقاق القمر قالوا: هذا سحر محمد بن أبي كبشة وفي رواية قالوا: قد سحر محمد القمر، ويجوز أن يكون كلاما مستأنفا من ذكر أحوال تكذيبهم ومكابرتهم وعلى كلا الوجهين فإن وقوع آية، وهو نكرة في سياق الشرط يفيد العموم.

وجيء بهذا الخبر في صورة الشرط للدلالة على أن هذا ديدنهم ودأبهم.

وضمير)يروا(عائد إلى ضمير غير مذكور في الكلام دال عليه المقام وهو المشركون، كما جاء في مواضع كثيرة من القرآن، مع أن قصة انشقاق القمر وطعنهم فيها مشهور يومئذ معروفة أصحابه، فهم مستمرون عليه كلما رأوا آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

ووصف)مستمر(يجوز أن يكون مشتقا من فعل مر الذي هو مجاز في الزوال والسين والتاء للتقوية في الفعل، أي لا يبقى القمر منشقا. ويجوز أن يكون مشتقا من المرة بكسر الميم، أي القوة، والسين والتاء للطلب، أي طلب لفعله مرة، أي قوة، أي تمكننا. والمعنى: هذا سحر معروف متكرر، أي معهودا منه مثله.

)وكذبوا واتبعوا أهواءهم(هذا إخبار عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل بالشرط الذي في قوله)وإن يروا آية يعرضوا(. ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه احتباك كأنه قيل: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا: سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وسيكذبون ويتبعون أهواءهم.

وعطف)واتبعوا أهواءهم(عطف العلة على المعلول لأن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه.

وجمع الأهواء دون أن يقول واتبعوا الهوى كما قال)إن يتبعون إلا الظن(، حيث إن الهوى اسم جنس يصدق بالواحد والمتعدد، فعدل عن الإفراد إلى الجمع لمزاوجة ضمير الجمع المضاف إليه، وللإشارة إلى أن لهم أصنافا متعددة من الهواء: من حب الرئاسة،

ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله، ومن حب اتباع ملة آبائهم، ومن محبة أصنامهم، وإلف لعوائدهم، وحفاظ على أنفتهم.

)وكل أمر مستقر[3](هذا تذييل للكلام السابق من قوله)وإن يروا آية يعرضوا(إلى قوله)أهواءهم(، فهو اعتراض بين جملة) وكذبوا(وجملة)ولقد جاءهم من الأنباء(، والواو اعتراضية وهو جار مجرى المثل.

و)كل(من أسماء العموم. وأمر: اسم يدل على جنس عال ومثله شيء، وموجود، وكائن، ويتخصص بالوصف كقوله تعالى)إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به(وقد يتخصص بالعقل أو العادة كما تخصص شيء في قوله تعالى عن ريح عاد)تدمر كل شيء(أي من الأشياء القابلة للتدمير. وهو هنا يعم الأمور ذوات التأثير، أي تتحقق آثار مواهيها وتظهر خصائصها ولو اعترضتها عوارض تعطل حصول آثارها حينا كعوارض مانعة من ظهور خصائصها، أو مدافعات يراد منها إزالة نتائجها فإن المؤثرات لا تلبث أن تتغلب على تلك الموانع والمدافعات في فرص تمكنها من ظهور الآثار والخصائص.

والكلام تمثيل شبهت حال التردد آثار الماهية بين ظهور وخفاء إلى إبان التمكن من ظهور آثارها، بحالة سير السائر إلى المكان المطلوب في مختلف الطرق بين بعد وقرب إلى أن يستقر في المكان المطلوب. وهي تمثيلية مكنية لأن التركيب الذي يدل على الحال المشبهة بها حذف ورمز إليه بذكر شيء من روادف معناه وهو وصف مستقر.

ومن هذا المعنى قوله تعالى)لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون(وقد أخذه الكميت بن زيد في قوله:

فالآن صرت إلى أمي ة والأمور إلى مصائر فالمراد بالاستقرار الذي في قوله)مستقر(الاستقرار في الدنيا.

وفي هذا تعريض بالإيماء إيماء إلى أن أمر دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سيرسخ ويستقر بعد تقلقله.

ومستقر: بكسر القاف اسم فاعل من استقر، أي قر، والسين والتاء للمبالغة مثل السين والتاء في استجاب.

وقرأ الجمهور برفع الراء من)مستقر(. وقرأه أبو جعفر بخفض الراء على جعل)كل أمر(عطفا على الساعة. والتقدير: واقترب كل أمر. وجعل)مستقر(صفة أمر.

والمعنى: أن إعراضهم عن الآيات وافتراءهم عليها بأنها سحر ونحوه وتكذيبهم الصادق وتمالؤهم على ذلك لا يوهن وقعها في النفوس ولا يعوق إنتاجها. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم صائر إلى مصير أمثاله الحق من الانتصار والتمام واقتناع الناس به وتزايد

أتباعه، وأن اتباعهم أهواءهم واختلاق معاذيرهم صائر إلى مصير أمثاله الباطلة من الانخذال والافتضاح وانتقاص الأتباع.
وقد تضمن هذا التذييل بإجماله تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتهديدا للمشركين واستدعاء لنظر المترددين.
)ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر[4] حكمة بالغة فما تغن النذر[5](عطف على جملة)وكذبوا واتبعوا أهواءهم(أي جاءهم في القرآن من أنباء الأمم ما فيه مزدجر لهؤلاء، أو أريد بالأنباء الحجج الواردة في القرآن، أي جاءهم ما هو أشد في الحجة من انشقاق القمر. و)من الأنباء(بيان ما فيه مزدجر قدم على المبين و)من(بيانية.
والمزدجر: مصدر ميمي، وهو مصاغ بصيغة اسم المفعول الذي فعله زائد على ثلاثة أحرف. وازدجره بمعنى زجره، ومادة الافتعال فيه للمبالغة. والدال بدل من تاء الافتعال التي تبدل بعد الزاي إلا مثل ازداد، أي ما فيه مانع لهم من ارتكاب ما ارتكبوه. والمعنى: ما هو زاجر لهم فجعل الازدجار مظروفا فيه مجازا للمبالغة في ملازمته له على طريقة التجريد كقوله تعالى)لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة(أي هو أسوة.
و)حكمة بالغة(بدل من)ما(، أي جاءهم حكمة بالغة.
والحكمة: إتقان الفهم وإصابة العقل. والمراد هنا الكلام الذي يتضمن الحكمة ويفيد سامعه حكمة، فوصف الكلام بالحكمة مجاز عقلي كثير الاستعمال، وتقدم في سورة البقرة،)ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا(.
والبالغة: الواصلة، أي واصلة إلى المقصود مفيدة لصاحبها.

وفرع عليه قوله)فما تغني النذر(، أي جاءهم ما فيه مزدجر فلم يغن ذلك، أي لم يحصل فيه الإقلاع عن ضلالهم.
و)ما(تحتمل النفي، أي لا تغني عنهم النذر بعد ذلك. وهذا تمهيد لقوله)فتول عنهم(، فالمضارع للحال والاستقبال، أي ما هي مغنية، ويفيد بالفحوى أن تلك الأنباء لم تغن عنهم فيما مضى بطريق الأحرى، لأنه إذا كان ما جاءهم من الأنباء لا يغني عنهم من الانزجار شيئا في الحال والاستقبال فهو لم يغن عنهم فيما مضى إذ لو أغنى عنهم لارتفع اللوم عليهم.
ويحتمل أن تكون)ما(استفهامية للإنكار، أي ماذا فيد النذر من أمثالهم المكابرين المصرين، أي لا غناء لهم في تلك الأنباء،

ف)ما(على هذا في محل نصب على المفعول المطلق ل)تغن(، وحذف ما أضيف إليه)ما(. والتقدير: فأي غناء تغني النذر وهو المخبر بما يسوء، فإن الأنباء تتضمن إرسال الرسل من الله منذرين لقومهم فما أغنوهم ولم ينتفعوا بهم ولأن الأنباء فيها الموعظة والتحذير من مثل صنيعهم فيكون.

فالمراد ب)النذر(آيات القرآن، جعلت كل آية كالنذير: وجمعت على نذر، ويجوز أن يكون جمع نذير بمعنى الإنذار اسم مصدر، وتقدم عنه قوله تعالى)هذا نذير من النذر الأولى(في آخر سورة النجم.

)فتول عنهم(تفريع على)فما تغني النذر(، أي أعرض عن مجادلتهم فإنهم لا تفديهم النذر كقوله)فأعرض عمن تولى عن ذكرنا(، أي أنك قد بلغت فما أنت بمسؤول عن استجابتهم كما قال تعالى)فتول عنهم فما أنت بملوم(. وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتطمين له بأنه ما قصر في أداء الرسالة. ولا تعلق لهذه الآية بأحكام قتالهم إذ لم يكن السياق له ولا حدثت دواعيه يومئذ فلا وجه للقول بأنها منسوخة.

)يوم يدع الداع إلى شيء نكر[6] خشعا أبصارهم يخرجون من الجداث كأنهم جراد منتشر[7] مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر[8](استئناف بياني لأن المر بالتولي مؤذن بغضب ووعيد فمن شأنه أن يثير في نفس السامع تساؤلا عن مجمل هذا الوعيد. وهذا الاستئناف وقع معترضا بين جملة)ولقد جاءهم من الأنباء(وجملة)كذبت قبلهم قوم نوح(.

وإذ قد كان المتوعد به شيئا يحصل يوم القيامة قدم الظرف على عامله وهو)يقول الكافرون هذا يوم عسر(ليحصل بتقديمه إجمال يفصله بعض التفصيل ما يذكر بعده، فإذا سمع السامع هذا الظرف علم أنه ظرف لأهوال تذكر بعده هي تفصيل ما أجمله قوله)فتول عنهم(من الوعيد بحيث لا يحسن وقع شيء مما في هذه الجملة هذا الموقع غير هذا الظرف، ولولا تقديمه لجاء الكلام غير موثوق العرى، وانظر كيف جمع فيما بعد قوله)يوم يدعو الداعي(كثيرا من الأهوال آخذ بعضها بحجز بعض بحسن اتصال ينقل كل منها ذهن السامع إلى الذي بعده من غير شعور بأنه يعدد له أشياء.

وقد عد سبعة من مظاهر الأهوال.

أولها: دعاء الداعي فإنه مؤذن بأنهم محضرون إلى الحساب، لأن مفعول)يدعو(محذوف بتقدير: يدعوهم الداعي بدلالة ضمير) عنهم(على تقدير المحذوف.

الثاني: أنه يدعو إلى شيء عظيم لأن ما في لفظ)شيء(من الإبهام يشعر بأنه مهول، وما في تنكيره من التعظيم يجسم ذلك الهول.
وثالثها: وصف شيء بأنه)نكر(، أي موصوف بأنه تنكره النفوس وتكرهه.
والنكر بضمتين: صفة، وهذا الوزن قليل في الصفات، ومنه قولهم: روضة أنف، أي جديدة لم ترعها الماشية، ورجل شلل، أي خفيف سريع في الحاجات، ورجل سجح بجيم قبل الحاء، أي سمح، وناقة أجد: قوية موثقة فقار الظهر، ويجوز إسكان عين الكلمة فيها للتخفيف وبه قرأ ابن كثير هنا.
ورابعها:)خشعا أبصارهم(أي ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح وهو كناية لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما.
وخامسها: تشبيههم بالجراد المنتشر في الاكتظاظ واستتار بعضهم ببعض من شدة الخوف زيادة على ما يفيده التشبيه من الكثرة والتحرك.
وسادسها: وصفهم بمهطعين، والمهطع: الماشي سريعا مادا عنقه، وهي مشية مذعور غير ملتف إلى شيء، يقال: هطع وأهطع.

صفحة : 4222

وسابعها: قولهم)هذا يوم عسر(وهو قول من أثر ما في نفوسهم من خوف. و)عسر(: صفة مشبهة من العسر وهو الشدة والصعوبة. ووصف اليوم ب)عسر(وصف مجازي عقلي باعتبار كونه زمانا لأمور عسر شديدة من شدة الحساب وانتظار العذاب.
وأبهم)شيء نكر(للتهويل، وذلك هو أهوال الحساب وإهانة الدفع ومشاهدة ما أعد لهم من العذاب.
وانتصب)خشعا أبصارهم(على الحال من الضمير المقدر في)يدع الداع(وإما من ضمير)يخرجون(مقدما على صاحبه.
وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر)خشعا(بصيغة جمع خاشع. وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف)خاشعا(بصيغة اسم الفاعل. قال الزجاج: لك في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والتذكير نحو خاشعا أبصارهم. ولك التوحيد والتأنيث نحو قراءة ابن مسعود)خاشعة أبصارهم(ولك الجمع نحو)خشعا أبصارهم(اه.

و)أبصارهم(فاعل)خشعا(ولا ضير في كون الوصف الرافع للفاعل على صيغة الجمع لأن المحضور هو لحاق علامة الجمع والتثنية للفعل إذا كان فاعله الظاهر جمعا أو مثنى، وليس الوصف كذلك، كما نبه عليه الرضي على إنه إذا كان الوصف جمعا مكسرا، وكان جاريا على موصوف هو جمع، فرفع الاسم الظاهر الوصف المجموع أولى من رفعه بالوصف المجموع المفرد على ما اختاره المبرد وابن مالك كقول امرئ القيس:

وقوفا بها صبحي على مطيهم وشاهد هذا القراء.

وقوله)يقول الكافرون(إظهار في مقام الإضمار لوصفهم بهذا الوصف الذميم وفيه تفسير الضمائر السابقة.

والأجداث: جمع جدث وهو القبر، وقد جعل الله خروج الناس إلى الحشر من مواضع دفنهم في الأرض، كما قال)منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى(فيعاد خلق كل ذات من التراب الذي فيه بقية من أجزاء الجسم وهي ذرات يعلمها الله تعالى.

والجراد: اسم جمع واحدة جرادة وهي حشرة ذات أجنحة أربعة مطوية على جنبيها وأرجل أربعة، أصفر اللون.

والمنتشر: المنبث على وجه الأرض. والمراد هنا الدبي وهو فراخ الجراد قبل أن تظهر له الأجنحة لأنه يخرج من ثقب في الأرض هي مبيضات أصوله فإذا تم خلقه خرج من الأرض يزحف بعضه فوق بعض قال تعالى)يو يكون الناس كالفراش المبثوث(وهذا التشبيه تمثيلي لأنه تشبيه هيئة خروج الناس من القبور متراكمين بهيئة خروج الجراد متعاظلا يسير غير ساكن.

)كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر[8] (استئناف بياني ناشئ عن قوله)ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر(فإن من أشهرها تكذيب قوم نوح رسولهم، وسبق الإنباء به في القرآن في السور النازلة قبل هذه السورة. والخبر مستعمل في التذكير وليفرع عليه ما بعده. فالمقصود النعي عليهم عدم ازدجارهم بما جاءهم من الأنباء بتعداد بعض المهم من تلك الأنباء.

وفائدة ذكر الظرف)قبلهم(تقرير تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، أي أن هذه شنشنة أهل الضلال كقوله تعالى)وأن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك(ألا ترى أنه ذكر في تلك الآية قوله)من قبلك(نظير ما هنا مع ما في ذلك من التعريض بأن هؤلاء معرضون.

واعلم أنه يقال: كذب، إذا قال قولا يدل على التكذيب، ويقال كذب أيضا، إذا اعتقد أن غيره كاذب قال تعالى)فإنهم لا يكذبونك(في قراءة الجمهور بتشديد الذال، والمعنيان محتملان هنا، فإن كان فعل)كذبت(هنا مستعملا في معنى القول بالتكذيب، فإن قوم نوح

شافهوا نوحا بأنه كاذب، وإن كان مستعملا في اعتقادهم كذبه، فقد دل على اعتقادهم إعراضهم عن إنذاره وإهمالهم الانضواء إليه عندما أنذرهم بالطوفان.
وعرف)قوم نوح(بالإضافة إلى اسمه إذ لم تكن للأمة في زمن نوح اسم يعرفون به.
وأسند التكذيب إلى جميع القوم لأن الذين صدقوه عدد قليل فإنه ما آمن به إلا قليل كما تقدم في سورة هود.

صفحة : 4223

والفاء في قوله)فكذبوا عبدنا(لتفريع الإخبار بتفصيل تكذيبهم إياه بأنهم قالوا)مجنون وازدجر(، على الإخبار بأنهم كذبوه على الإجمال، وإنما جيء بهذا الأسلوب لأنه لما كان المقصود من الخبر الأول تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم فرع عليه الإخبار بحصول المشابهة بين تكذيب قوم نوح رسولهم وتكذيب المشركين محمدا صلى الله عليه وسلم في أنه تكذيب لمن أرسله الله واصطفاه بالعبودية الخاصة، وفي أنه تكذيب مشوب ببهتان إذ قال كلا الفريقين لرسوله: مجنون، ومشوب ببذاءة إذ آذى كلا الفريقين رسولهم وازدجروه. فمحل التفريع هو وصف نوح بعبودية الله تكريما له، والإخبار عن قومه بأنهم افتروا عليه وصفه بالجنون، واعتدوا عليه بالأذى والازدجار. فأصل تركيب الكلام: كذبت قبلهم قوم نوح فقالوا: مجنون وازدجر. ولما أريد الإيماء إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداء جعل ما بعد التسلية مفرعا بفاء التفريع ليظهر قصد استقلال ما قبله ولولا ذلك لكان الكلام غنيا عن الفاء إذ كان يقول: كذبت قوم نوح عبدنا.
وأعيد فعل)كذبوا(لإفادة توكيد التكذيب، أي هو تكذيب قوي كقوله تعالى)وإذا بطشتم بطشتم جبارين(وقوله)ربنا هؤلاء الذين أغويناهم كما غوينا(، وقول الأحوص:
فإذا تزول تزول عن متخمط   تخشى بوادره على الأقران وقد نبه على ذلك ابن جني في إعراب هذا البيت من ديوان الحماسة، وذكر أن أبا علي الفارسي نحا غير هذا الوجه ولم يبينه.
وحاصل نظم الكلام يرجع إلى معنى: أنه حصل فعل فكان حصوله على صفة خاصة أو طريقة خاصة.
ويجوز أن يمون فعل)كذبت(مستعملا في معنى: إنهم اعتقدوا كذبه، فتفريع)كذبوا عبدنا(عليه تفريع تصريحهم بتكذيبه على

اعتقادهم كذبه. فيكون فعل)كذبوا(مستعملا في معنى غير الذي استعمل فيه فعل)كذبت(، والتفريع ظاهر على هذا الوجه.
وهذا الوجه يتأتي في قوله تعالى)وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي(في سورة سبأ.
ويجوز أن يكون قوله)كذبت قبلهم قوم نوح(إخبارا عن تكذيبهم بتفرد الله بالإلهية حين تلقوه من الأنبياء الذين كانوا قبل نوح ولم يكن قبله رسول وعلى هذا الوجه يكون التفريع ظاهرا.
و)ازدجر(معطوف على)قالوا(وهو افتعل من الزجر. وصيغة الافتعال هنا للمبالغة مثلها: افتقر واضطر.
ونكتة بناء الفعل للمجهول هنا التوصل إلى حذف ما يسند إليه فعل الازدجار المبني للفاعل وهو ضمير)قوم نوح(، فعدل عن أن يقال: وازدجروه، إلى قوله)وازدجر(محاشاة للدال على ذات نوح وهو ضمير من أن يقع مفعولا لضميرهم. ومرادهم أنهم ازدجروه، أي نهوه عن ادعاء الرسالة بغلظة قال تعالى)قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في ضلالة وإنا لنظنك من الكاذبين(وقالوا)لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين(وقال)كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه(.
)فدعا ربه أني مغلوب فانتصر[10] ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر[11] وفجرنا الأرض عيون فالتقى الماء على أمر قد قدر[12] وحملناه على ذات ألواح ودسر[13] تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر[14](تفريع على)كذبت قبلهم قوم نوح(وما تفرع عليه.
والمغلوب مجاز، شبه يأسه من أجابتهم لدعوته بحال الذي قاتل أو صارع فغلبه مقاتله، وقد حكى الله تعالى في سورة نوح كيف سلك مع قومه وسائل الإقناع بقبول دعوته فأعيته الحيل.
و)أني(بفتح الهمزة على تقدير باء الجر محذوفة، أي دعا بأني مغلوب، أي بمضمون هذا الكلام في لغته.
وحذف متعلق)فانتصر(للإيجاز وللرعي على الفاصلة والتقدير: فانتصر لي، أي انصرني.
وجملة)ففتحنا أبواب السماء(إلى آخرها مفرعة على جملة)فدعا ربه(، ففهم من التفريع أن الله استجاب دعوته وأن إرسال هذه المياه عقاب لقوم نوح. وحاصل المعنى: فأرسلنا عليهم الطوفان بهذه الكيفية المحكمة السريعة.
وقرأ الجمهور)ففتحنا(بتخفيف التاء. وقرأه ابن عامر بتشديدها على المبالغة. والفتح بمعنى شدة هطول المطر.
وجملة)ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر(مركب تمثيلي لهيئة اندفاق الأمطار من الجو بهيئة خروج الجماعات من أبواب الدار على طريقة:

وسالت بأعناق المطي الأباطح والمنهمر: المنصب، أي المصبوب يقال: همر الماء إذا صبه، أي نازل بقوة.

والتفجير: إسالة الماء، يقال: تفجر الماء، إذا سال، قال تعالى)حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا(.

وتعدية)فجرنا(إلى اسم الأرض تعدية مجازية إذ جعلت الأرض من كثرة عيونها كأنها عين تتفجر. وفي هذا إجمال جيء من أجله بالتمييز له بقوله)عيونا(لبيان هذه النسبة، وقد جعل هذا ملحقا بتمييز النسبة لأنه محول عن المفعول إذ المعنى: وفجرنا عيون الأرض، وهو مثل المحول عن الفاعل في قوله تعالى)واشتعل الرأس شيبا(، أي شيب الرأس إذ لا فرق بينهما، ونكتة ذلك واحدة. قال في المفتاح: إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادة شمول الاشتعال للرأس إذ وازن اشتعل شيب الرأس، واشتعل الرأس شيبا وازن اشتعلت النار في بيتي واشتعل في بيتي نارا اه.

والتقاء الماء: تجمع ماء الأمطار مع ماء عيون الأرض فالالتقاء مستعار للاجتماع، شبه الماء النازل من السماء والماء الخارج من الأرض بطائفتين جاءت كل واحدة من مكان فالتقتا في مكان واحد كما يلتقي الجيشان.

والتعريف في)الماء(للجنس. وعلم من إسناد الالتقاء أنهما نوعان من الماء ماء المطر وماء العيون.

و)على(من قوله)على أمر(يجوز أن تكون بمعنى في كقوله تعالى)ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها(، وقول الفرزدق:

على حالة لو أن في البحر حاتما

على جوده لظن بالماء حـاتـم والظرفية مجازية. ويجوز أن تكون)على(للاستعلاء المجازي، أي ملابسا لأمر قد قدر ومتمكنا منه.

ومعنى التمكن: شدة المطابقة لما قدر، وأنه لم يحد عنه قيد شعرة.

والأمر: الحال والشأن وتنوينه للتعظيم.

ووصف الأمر بأنه)قد قدر(، أي أتقن وأحكم بمقدار، يقال: قدره بالتخفيف إذا ضبطه وعينه كما قال تعالى)إنا كل شيء خلقناه بقدر(ومحل)على أمر(النصب على الحال من الماء.

وأكتفي بهذا الخبر عن بقية المعنى. وهو طغيان الطوفان عليهم اكتفاء بما أفاده تفريع)ففتحنا أبواب السماء(كما تقدم انتقالا إلى

وصف إنجاء نوح من ذلك الكرب العظيم، فجملة)وحملناه(معطوفة على التفريع عطف احتراس.
والمعنى: فأغرقناهم ونجيناه.
و)ذات ألواح ودسر(صفة السفينة، أقيمت مقام الموصوف هنا معوضا عن أن يقال: وحملناه على الفلك لأن في هذه الصفة بيان متانة هذه السفينة وإحكام صنعها. وفي ذلك إظهار لعناية الله بنجاة نوح ومن معه فإن الله أمره بصنع السفينة وأوحى إليه كيفية صنعها ولم تكن تعرف سفينة قبلها، قال تعالى)وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك بأعيننا ووحينا(، وعادة البلغاء إذا احتاجوا لذكر صفة بشيء وكان ذكرها دالا على موصوفها أن يستغنوا عن ذكر الموصوف إيجازا كما قال تعالى)أن اعمل سابغات(، أي دروعا سابغات.
والحمل: رفع الشيء على الظهر أو الرأس لنقله)وتحمل أثقالكم(وله مجازات كثيرة.
والألواح: جمع لوح وهو القطعة المسواة من الخشب.
والدسر: جمع دسار، وهو المسمار.
وعدي فعل)حملنا(إلى ضمير نوح دون من معه من قومه لأن هذا الحمل كان إجابة لدعوته ولنصره فهو المقصود الأول من هذا الحمل، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى)فأنجيناه والذين معه برحمة منا(وقوله)فإذا استويت أنت والذين معك على الفلك(ونحوه من الآيات الدالة على أنه المقصود بالانجاء وأن نجاة قومه بمعيته، وحسبك قوله تعالى في تذييل هذه الآية)جزاء لمن كان كفر(فإن الذي كان كفر هو نوح كفر به قومه.
و)على(للاستعلاء المجازي وهو التمكن كقوله تعالى)فإذا استويت أنت ومن معك في الفلك(، وإلا فإن استقراره في السفينة كائن في جوفها كما قال تعالى)إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية( )قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين(.
والباء في)بأعيننا(للملابسة.
وأعين: جمع عين بإطلاقه المجازي، وهو الاهتمام والعناية، كقول النابغة:
علمتك ترعاني بعين بصيرة وقال تعالى)فإنك بأعيننا(.

وجمع العين لتقوية المعنى لأن الجمع أقوى من المفرد، أي بحراسات منا وعنايات. ويجوز أن يكون الجمع باعتبار أنواع العنايات

بتنوع آثارها. وأصل استعمال لفظ العين في مثله تمثيل بحال الناظر إلى الشيء المحروس مثل الراعين كما يقال للمسافر عين الله عليك ثم شاع ذلك حتى ساوى الحقيقة فجمع بذلك الاعتبار. وتقدم في سورة هود.

و)جزاء(مفعول لأجله ل)فتحنا(وما عطف عليه، أي: فعلنا ذلك كله جزاء لنوح. و)من كان كفر(هو نوح فإن قومه كفروا به، أي لم يؤمنوا بأنه رسول وكان كفرهم به منذ جاءهم بالرسالة فلذلك أقحم هنا فعل)كان(، أي لمن كفر منذ زمان مضى وذلك ما حكي في سورة نوح بقوله)قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا(إلى قوله) ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا(.

وحذف متعلق)كفر(لدلالة الكلام عليه. وتقديره: كفر به، أو لأنه نصح لهم ولقي في ذلك أشد العناء فلم يشكروا له بل كفروه فهو مكفور فيكون من باب قوله تعالى)ولا تكفرون(.

)ولقد تركناها آية فهل من مدكر[15](ضمير المؤنث عائد إلى) ذات ألواح ودسر(، أي السفينة. والترك كناية عن الإبقاء وعدم الإزالة، قال تعالى)وتركنا فيها آية(في سورة الذاريات، وقال) وتركهم في ظلمات لا يبصرون(في سورة البقرة، أي أبقينا سفينة نوح محفوظة من البلى لتكون آية يشهدها الأمم الذين أرسلت إليهم الرسل متى أراد واحد من الناس رؤيتها ممن هو بجوار مكانها تأييدا للرسل وتخويفا بأول عذاب عذبت به الأمم أمة كذبت رسولها فكانت حجة دائمة مثل ديار ثمود.

ثم أخذت تتناقص حتى بقي منها أخشاب شهدها صدر الأمة الإسلامية فلم تضمحل حتى رآها ناس من جميع الأمم بعد نوح فتواتر خبرها بالمشاهدة تأييدا لتواتر الطوفان بالأخبار المتواترة. وقد ذكر القرآن أنها استقرت على جبل الجودي فمنه نزل نوح ومن معه وبقيت السفينة هنالك لا ينالها أحد، وذلك من أسباب حفظها عن الاضمحلال. واستفاض الخبر بأن الجودي جبيل قرب قرية تسمى باقردى بكسر القاف وسكون الراء ودال مفتوحة مقصورا من جزيرة ابن عمر قرب الموصل شرقي دجلة.

وفي صحيح البخاري قال قتادة: لقد شهدها صدر هذه الأمة قال تعالى في سورة العنكبوت)وجعلناها آية للعالمين(، وقد تقدم ذلك مفصلا هنالك.

والآية: الحجة. وأصل الآية الأمارة التي يصطلح عليها شخصان فأكثر)قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام(.

وإن ما قال هنا)ولقد تركناها(وقال في سورة العنكبوت)وجعلناها آية للعالمين(لأن ذكرها في سورة القمر ورد بعد ذكر كيفية صنعها وحدوث الطوفان وحمل نوح في السفينة. فأخبرت بأنها أبقيت بعد

تلك الأحوال، فالآية في بقاءها، وفي سورة العنكبوت ورد ذكر السفينة ابتداء فأخبر بأن الله جعلها آية إذ أوحى إلى نوح بصنعها، فالآية في إيجادها وهو المعبر عنه ب)جعلناها(.

وفرع على إبقاء السفينة آية استفهام عمن يتذكر بتلك الآية وهو استفهام مستعمل في معنى التحضيض على التذكر بهذه الآية واستقصاء خبرها مثل الاستفهام في قول طرفة:

إذ القوم قالوا من فتى... البيت والتحضيض موجه إلى جميع من تبلغه هذه الآيات. و)من(زائدة للدلالة على عموم الجنس في الإثبات على الأصح من القولين.

ومدكر أصله: مذتكر مفتعل من الذكر بضم الذال، وهو التفكر في الدليل فقلبت تاء الافتعال دالا لتقارب مخرجيهما، وأدغم الذال في الدال لذلك، وقراءة هذه الآية مروية بخصوصها عن النبي صلى الله عليه وسلم. وتقدم في سورة يوسف)وأدكر بعد أمة(.

)فكيف كان عذابي ونذر[16](تفريع على القصة بما تضمنته من قوله)ففتحنا أبواب السماء(إلى آخره. و)كيف(للاستفهام عن حالة العذاب. وهو عذاب قوم نوح بالطوفان. والاستفهام مستعمل في التعجيب من شدة هذا العذاب الموصوف. والجملة في معنى التذييل وهو تعريض بتهديد المشركين أن يصيبهم عذاب جزاء تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وإعراضهم وأذاهم كما أصاب قوم نوح.

وحذف ياء المتكلم من)نذر(وأصله: نذري. وحذفها في الكلام في الوقف فصيح وكثر في القرآن عند الفواصل.

والنذر: جمع نذير الذي هو اسم مصدر أنذر كالنذارة وتقدم آنفا في هذه السورة وإنما جمعت لتكرر النذارة من الرسول لقومه طلبا لإيمانهم.

)ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[17](لما كانت هذه النذارة بلغت القرآن والمشركون معرضون عن استماعه حارمين أنفسهم من فوائده ذيل خبرها بتنويه شأن القرآن بأنه من عند الله وأن الله يسره وسهله لتذكر الخلق بما يحتاجونه من التذكير مما هو هدى وإرشاد. وهذا التيسير ينبئ بعناية الله به مثل قوله)إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(تبصرة للمسلمين ليزدادوا إقبالا على مدارسته وتعريضا بالمشركين عسى أن يرعووا عن صدودهم عنه كما أنبأ عنه قوله)فهل من مدكر(.

وتأكيد الخبر باللام وحرف التحقيق مراعى فيه حال المشركين الشاكين في أنه من عند الله.

والتيسير: إيجاد اليسر في شيء، من فعل كقوله)يريد الله بكم اليسر(أو قول كقوله تعالى)فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون(.

واليسر: السهولة، وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من شيء. وإذ كان القرآن كلاما فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يراد من الكلام وهو فهم السامع المعاني التي عناها المتكلم به دون كلفة على السامع ولا إغلاق كما يقولون: يدخل للإذن بلا إذن. وهذا اليسر يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني؛ فأما من جانب الألفاظ فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات وفصاحة التراكيب، أي فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخف حفظها على الألسنة.

وأما من جانب المعاني فبوضوح انتزاعها من التراكيب ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له. وبتولد معان من معان أخر كلما كرر المتدبر تدبره في فهمها.

ووسائل ذلك لا يحيط بها الوصف وقد تقدم بسطها في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير ومن أهمها إيجاز اللفظ ليسرع تعلقه بالحفظ، وإجمال المدلولات لتذهب نفوس السامعين في انتزاع المعاني منها كل مذهب يسمح به اللفظ والغرض والمقام، ومنها الإطناب بالبيان إذا كان في المعاني بعض الدقة والخفاء.

ويتأتى ذلك بتأليف نظم القرآن بلغة هي أفصح لغات البشر وأسمح ألفاظا وتراكيب بوفرة المعاني وبكون تراكيبه أقصى ما تسمح به تلك اللغة، فهو خيار من خيار من خيار. قال تعالى)بلسان عربي مبين(.

ثم يكون المتلقين له أمة هي أذكى الأمم عقولا وأسرعها أفهاما وأشدها وعيا لما تسمعه، وأطولها تذكرا له. دون نسيان، وهي على تفاوتهم في هذه الخلال تفاوت اقتضته سنة الكون لا ينكاد حالهم في هذا التفاوت ما أراده الله من تيسيره للذكر، لأن الذكر جنس من الأجناس المقول عليها بالتشكيك إلا أنه إذا اجتمع أصحاب الأفهام على مدارسته وتدبره بدت لمجموعهم معان لا يحصيها والواحد منهم وحده.

وقد فرض الله على علماء القرآن تبيينه تصريحا كقوله)لتبين للناس ما نزل إليهم(، وتعريضا كقوله)وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس(فإن هذه الأمة أجدر بهذا الميثاق.

وفي الحديث ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده .

واللام في قوله)للذكر(متعلقة ب)يسرنا(وهي ظرف لغو غير مستقر، وهي لام تدل على أن الفعل تعلقت به فعل لانتفاع مدخول هذه اللام به فمدخولها لا يراد منه مجرد تعليل فعل الفاعل كما هو معنى التعليل المجرد ومعنى المفعول لأجله المنتصب بإضمار لام التعليل البسيطة، ولكن يراد أن مدخول هذه اللام علة خاصة مراعاة في تحصيل فعل الفاعل لفائدته، فلا يصح أن يقع مدخول هذه اللام مفعولا لأن المفعول لأجله علة بالمعنى الأعم ومدخول هذه اللام علة خاصة فالمفعول لأجله بمنزلة سبب الفعل وهو كمدخول باء السببية في نحو)فكلا أخذنا بذنبه(، ومجرور هذه اللام بمنزلة مجرور باء الملابسة في نحو)تنبت بالدهن(، وهو أيضا شديد الشبه بالمفعول الأول في باب كسا وأعطى، فهذه اللام من القسم الذي سماه ابن هشام في مغني اللبيب: شبه التمليك. وتبع في ذلك ابن مالك في شرح التسهيل.

صفحة : 4227

وأحسن من ذلك تسمية ابن مالك إياه في شرح كافيته وفي الخلاصة معنى التعدية. ولقد أجاد في ذلك لأن مدخول هذا اللام قد تعدى إليه الفعل الذي تعلقت به اللام تعدية مثل تعدية الفعل المتعدي إلى المفعول، وغفل ابن هاشم عن هذا التدقيق، وهو المعنى الخامس من معاني اللام الجارة في مغنى اللبيب وقد مثله بقوله تعالى)جعل لكم من أنفسكم أزواجا(، ومثل له ابن مالك في شرح التسهيل بقوله تعالى)فهب لي من لدنك وليا(، ومن الأمثلة التي تصلح له قوله تعالى)وذللناهم لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون(وقوله تعالى)ونيسرك لليسرى(وقوله)فسنيسره لليسرى(وقوله)فسنيسره للعسرى(،ألا ترى أن مدخول اللام في هذه الأمثلة دال على المتنفعين بمفاعيل أفعالها فهم مثل أول المفعولين من باب كسا.

وإنما بسطنا القول في هذه اللام لدقة معناها وليتضح معنى قوله تعالى)ولقد يسرنا القرآن للذكر(.

وأصل معاني لام الجر هو التعليل وتنشأ من استعمال اللام في التعليل المجازي معان شاعت فساوت الحقيقة فجعلها النحويون معاني مستقلة لقصد الإيضاح.

والذكر: مصدر ذكر الذي هو التذكر العقلي لا اللساني، والذي يرادفه الذكر بضم الذال اسما للمصدر، فالذكر هو تذكر ما في تذكره نفع ودفع ضر، وهو الاتعاظ والاعتبار.

فصار معنى)يسرنا القرآن للذكر(أن القرآن سهلت دلالته لأجل انتفاع الذكر بذلك التيسير، فجعلت سرعة ترتيب التذكر على سماع القرآن بمنزلة منفعة للذكر لأنه يشيع ويروج بها كما ينتفع طالب شيء إذا يسرت له وسائل تحصيلية، وقربت له أباعدها. ففي قوله) يسرنا القرآن للذكر(استعارة مكنية ولفظ)يسرنا(تخييل. ويؤول المعنى إلى: يسرنا القرآن للمتذكرين.

وفرع على هذا المعنى قوله)فهل من مدكر(. والقول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفا، إلا أن بين الادكارين فرقا دقيقا، فالادكار السالف ادكار اعتبار عن مشاهدة آثار الأمة البائدة، والادكار هنا ادكار عن سماع مواعظ القرآن البالغة وفهم معانيه والاهتداء به.

)كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر[18] إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر[19] تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر[20](موقع هذه الجملة كموقع جملة)كذبت قبلهم قوم نوح(فكان مقتضى الظاهر أن تعطف عليها، وإنما فصلت عنها ليكون في الكلام تكرير التوبيخ والتهديد والنعي عليهم عقب قوله) ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغني النذر(. ومقام التوبيخ والنعي يقتضي التكرير.

والحكم على عاد بالتكذيب عموم عرفي بناء على أن معظمهم كذبوه وما آمن به إلا نفر قليل قال تعالى)ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا(.

وفرع على التذكير بتكذيب عاد قوله)فكيف كان عذابي ونذر(قبل أن يذكر في الكلام ما يشعر بأن الله عذبهم فضلا عن وصف عذابهم.

فالاستفهام مستعمل في التشويق للخبر الوارد بعده وهو مجاز مرسل لأن الاستفهام يستلزم طلب الجواب والجواب يتوقف على صفة العذاب وهي لما تذكر فيحصل الشوق إلى معرفتها وهو أيضا مكنى به عن تهويل ذلك العذاب.

وفي هذا الاستفهام إجمال لحال العذاب وهو إجمال يزيد التشويق إلى ما يبينه بعده من قوله)إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا(الآية، ونظيره قوله تعالى)عم يتساءلون(ثم قوله)عن النبأ العظيم(الآية.

وعطف)ونذر(على)عذابي(بتقدير مضاف دل عليه المقام، والتقدير: وعاقبة نذري، أي إنذاراتي لهم، أي كيف كان تحقيق الوعيد الذي أنذرهم.

ونذر: جمع نذير بالمعنى المصدري كما تقدم في أوائل السورة وقد علمت بما ذكرنا أن جملة)فكيف كان عذابي ونذري(هذه ليست تكرير لنظيرها السابق في خبر قوم نوح، ولا اللاحق في آخر قصة

عاد للاختلاف الذي علمته بين مفادها ومفاد مماثلها وأن اتحدت ألفاظهما.
والبليغ يتفطن للتغاير بينهما فيصرفه عن توهم أن تكون هذه تكريرا فإنه لما لم يسبق وصف عذاب عاد لم يستقم أن يكون قوله)فكيف كان عذابي(تعجيبا من حالة عذابهم.

صفحة : 4228

وقوله)ونذر(موعظة من تحقق وعيد الله إياهم، وقد أشار الفخر إلى هذا وقفينا عليه ببسط وتوجيه. وأصل السؤال عن تكرير هذه الجملة أثناء قصة عاد هنا أورده في كتاب درة التنزيل وغرة التأويل المنسوب إلى الفخر وإلى الراغب إلا أن كلام الفخر بالتفسير أجدر بالتعويل مما في درة التنزيل.
وجملة)إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا(الخ بيان للإجمال الذي في قوله)فكيف كان عذابي ونذر(. وهو في صورة جواب الاستفهام الصوري. وكلتا الجملتين يفيد تعريضا بتهديد المشركين بعذاب على تكذيبهم.
وجملة البيان إنما اتصف حال العذاب دون حال الإنذار، أو حال رسولهم وهو اكتفاء لأن التكذيب يتضمن مجيء نذير إليهم وفي مفعول)كذبت(المحذوف إشعار برسولهم الذي كذبوه وبعث الرسول وتكذيبهم إياه بتضمن الإنذار لأنهم لما كذبوه حق عليهم إنذارهم.
وتعدية إرسال الريح إلى ضميرهم هي كإسناد التكذيب إليهم بناء على الغالب وقد أنجى الله هودا والذين معه كما علمت آنفا أو هو عائد إلى المكذبين بقرينة قوله)كذبت عاد(.
والصرصر: الشديدة القوية يكون لها صوت، وتقدم في سورة فصلت.
وأريد ب)يوم نحس(أول أيام الريح التي أرسلت على عاد إذ كانت سبعة أيام إلا يوما كما في قوله تعالى)فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات(في سورة فصلت وقوله)سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما(في سورة الحاقة.
والنحس: سوء الحال.
وإضافة)يوم(إلى)نحس(من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه كقولهم يوم تحلاق اللمم، ويوم فتح مكة. وإنما يضاف اليوم إلى النحس باعتبار المنحوس، فهو يوم نحس للمعذبين ويوم نصر للمؤمنين ومصائب قوم عند قوم فوائد.. وليس في الأيام يوم يوصف بنحس أو بسعد لأن كل يوم تحدث فيه نحوس لقوم وسعود

لآخرين، وما يروى من أخبار في تعيين بعض أيام السنة للنحس هو من أغلاط القصاصين فلا يلقي المسلم الحق إليها سمعه.

واشتهر بين كثير من المسلمين التشاؤم يوم الأربعاء. وأصل ذلك أنجز لهم من عقائد مجوس الفرس، ويسمون الأربعاء التي في آخر الشهر الأربعاء التي لا تدور ، أي لا تعود، أرادوا بهذا الوصف ضبط معنى كونها آخر الشهر لئلا يظن أنه جميع النصف الأخير منه وإلا فأية مناسبة بين عدم الدوران وبين الشؤم، وما من يوم من الأيام إلا وهو يقع في الأسبوع الأخير من الشهر ولا يدور في ذلك الشهر.

ومن شعر بعض المولدين من الخراسانيين:

لقاؤك للمبكر فأل سوء ووجهك أربعاء لا تدور وانظر ما تقدم في سورة فصلت.

و)مستمر(: صفة)نحس(، أي نحس دائم عليهم فعلم من الاستمرار أنه أبادهم إذ لو نجوا لما كان النحس مستمرا. وليس)مستمر(صفة ل)يوم(إذ لا معنى لوصفه بالاستمرار.

والكلام في اشتقاق)مستمر(تقدم آنفا عند قوله تعالى)ويقولوا سحر مستمر(.

ويجوز أن يكون مشتقا من مر الشيء قاصرا، إذا كان مرا، والمرارة مستعارة للكراهية والنفرة فهو وصف كاشف لأن النحس مكروه.

والنزع: الإزالة بعنف لئلا يبقى اتصال بين المزال وبين ما كان متصلا به، ومنه نزع الثياب.

والأعجاز: جمع عجز: وهو أسفل الشيء، وشاع إطلاق العجز على آخر الشيء لأنهم يعتبرون الأجسام منتصبة على الأرض فأولاها ما كان إلى السماء وآخرها ما يلي الأرض.

وأطلق الأعجاز هنا على أصول النخل لأن أصل الشجرة هو في آخرها مما يلي الأرض.

وشبه الناس المطروحون على الأرض بأصول النخيل المقطوعة التي تقلع من منابتها لموتها إذ تزول فروعها ويتحات ورقها فلا يبقى إلا الجذوع الأصلية فلذلك سميت أعجازا.

و)منقعر(: اسم فاعل انقعر مطاوع قعره، أي بلغ قعره بالحفر يقال: قعر البئر إذا انتهى إلى عمقها، أي كأنهم أعجاز نخل قعرت دواخله وذلك يحصل لعود النخل إذا طال مكثه مطروحا.

ومنقعر: وصف النخل روعي في إفراده وتذكيره صورة لفظ نخل دون عدد مدلوله خلافا لما في قوله تعالى)كأنهم أعجاز نخل خاوية(وقوله)والنخل ذات الأكمام(.

صفحة : 4229

قال القرطبي: قال أبو بكر ابن الأنباري سأل المبرد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة من جملتها، قيل له: ما الفرق بين قوله تعالى)ولسليمان الريح عاصفة(و)جاءتها ريح عاصف(وقوله)أعجاز نخل خاوية(و)أعجاز نخل منقعر(? فقال كل ما ورد عليك من هذا الباب فإن شأت رددته إلى اللفظ تذكيرا أو إلى المعنى تأنيثا اه.

وكلمة)كأنهم أعجاز نخل منقعر(في موضع الحال من) الناس(ووجه الوصف ب)منقعر(الإشارة إلى أن الريح صرعتهم صرعا تفلقت منه بطونهم وتطايرت أمعاؤهم وأفئدتهم فصاروا جثثا فرغى. وهذا تفضيع لحالهم ومثلة لهم لتخويف من يراهم.

)فكيف كان عذابي ونذر[21](تكرير لنظيره السابق عقب قصة قوم نوح لأن مقام التهويل والتهديد يقتضي تكرير ما يفيدهما. و)كيف(هنا استفهام على حالة العذاب، وهي الحالة الموصوفة في قوله)إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا(إلى)منقعر(، والاستفهام مستعمل في التعجيب.

)ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[22](تكرير لنظيره السابق في خبر قوم نوح.

)كذبت ثمود بالنذر[23] فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذن لفي ضلال وسعر[24] أألقي الذكر عليه من بيننا بلهو كذاب أشر[25] (القول في موقع جملة)كذبت ثمود بالنذر(كالقول في موقع جملة)كذبت عاد(. وكذلك القول في إسناد حكم التكذيب إلى ثمود وهو اسم القبيلة معتبر في الغالب الكثير. فإن صالحا قد آمن به نفر قليل كما حكاه الله عنهم في سورة الأعراف.

وثمود: ممنوع من الصرف باعتبار العلمية والتأنيث المعنوي، أي على تأويل الاسم بالقبيلة.

والنذر: جمع نذير الذي هو اسم مصدر أنذر، أي كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم الله بها على لسان رسوله. وليس النذر هنا بصالح لحمله على جمع النذير بمعنى المنذر لأن فعل التكذيب إذا تعدى إلى الشخص المنسوب إلى الكذب تعدى إلى اسمه بدون حرف قال تعالى)فكذبوا رسلي(وقال)لما كذبوا الرسل(وقال)وإن يكذبوك(، وإذا تعدى إلى الكلام المكذب تعدى إليه بالباء قال) وكذبتم به(وقال)وكذب به قومك(وقال)إن الذين كذبوا بآياتنا(وقال)كذبوا بآياتنا(. وهذا بخلاف قوله)كذبت ثمود المرسلين(في سورة الشعراء.

والمعنى: أنهم كذبوا إنذارات رسولهم، أي جحدوها ثم كذبوا رسولهم، فلذلك فرع على جملة)كذبت ثمود بالنذر(قوله)فقالوا أبشرا منا واحد نتبعه(إلى قوله)بل هو كذاب أشر(ولو كان المراد بالنذر جمع النذير وأطلق على نذيرهم لكان وجه النظم أن تقع جملة)فقالوا أبشرا(إلى آخرها غير معطوفة بالفاء لأنها تكون حينئذ بيانا لجملة)كذبت ثمود بالنذر(.

والمعنى: أن صالحا جاءهم بالإنذارات فجحدوا بها وكانت شبهتهم في التكذيب ما أعرب عنه قولهم)أبشرا منا واحدا نتبعه(إلى آخره، فهذا القول يقتضي كونه جوابا عن دعوة وإنذار، وإنما فصل تكذيب ثمود وأجمل تكذيب عاد لقصد بيان المشابهة بين تكذيبهم ثمود وتكذيب قريش إذ تشابهت أقوالهم.

والقول في انتظام الجملة)فقالوا أبشرا(الخ بعد جملة)كذبت قبلهم قوم نوح(.

به صالحا وهذا قول قالوه لرسولهم لما أنذرهم بالنذر لأن قوله) كذبت(يومئذ بمخبر إذ التكذيب يقتضي وجود مخبر. وهو كلام شافهوا وهو الذي عنوه بقولهم)أبشرا منا(الخ. وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة.

وانتصب)أبشرا(على المفعولية ل)نتبعه(على طريقة الاشتغال، وقد لاتصاله بهمزة الاستفهام لأن حقها التصدير واتصلت به دون أن تدخل على نتبع، لأن محل الاستفهام الإنكاري هو كون البشر متبوعا لا اتباعه له ومثله)أبشر يهدوننا(وهذا من دقائق مواقع أدوات الاستفهام كما بين في علم المعاني.

والاستفهام هنا الإنكاري، أنكروا أن يرسل الله إلى الناس بشرا مثلهم، أي لو شاء الله لأرسل ملائكة.

ووصف)بشرا(ب)واحدة(: إما بمعنى أنه منفرد في دعوته لا أتباع له ولا نصراء، أي ليس ممن يخشى، أي بعكس قول أهل مدين) ولو رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز(.

وأما بمعنى أنه أن من جملة آحاد الناس، أي ليس من أفضلنا.

وإما بمعنى أنه منفرد في ادعاء الرسالة لا سلف له فيها كقول أبي محجن الثقفي:

قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا
سكن المدينة من مـزارع فـوم يريد لا يناظرني في ذلك أحد.

وجملة)إنا إذا لفي ضلال سعير(تعليل لإنكار أن يتبعوا بشرا منهم تقديره: أنتبعك وأنت بشر واحد منا.

و)إذن(حرف جواب هي رابطة الجملة بالتي قبلها. والضلال: عدم الاهتداء إلى الطريق، أرادوا: إنا إذن مخطئون في أمرنا.

والسعر: الجنون، يقال بضم العين وسكونها.

وفسر ابن عباس السعر بالعذاب على أنه جمع سعير. وجملة)أألقي الذكر عليه من بيننا(تعليل للاستفهام الإنكاري.

و)ألقي(حقيقته: رمي من اليد إلى الأرض وهو هنا مستعار لإنزال الذكر من السماء قال تعالى)إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا(.

و)في(للظرفية المجازية، جعلوا تلبسهم بالضلال والجنون كتلبس المظروف بالظرف.

و)من بيننا(حال من ضمير)عليه(، أي كيف يلقي عليه الذكر دونا، يريدون أن فيهم من هو أحق منه بأن يوحي إليه حسب مدارك عقول الجهلة الذين يقيسون الأمر بمقاييس قصور أفهامهم ويحسبون أن أسباب الأثرة في العادات هي أسبابها في الحقائق.

وحرف)من(في قوله)من بيننا(بمعنى الفصل كما سماه ابن مالك وإن أباه ابن هشام أي مفصولا من بيننا كقوله تعالى)والله يعلم المفسد من المصلح(.

و)بل هو كذاب أشر(إضراب عن ما أنكروه بقولهم)أألقي عليه الذكر من بيننا(أي لم ينزل الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب فيما ادعاه، بطر متكبر.

و)الأشر(بكسر الشين وتخفيف الراء: أسم فاعل أشر، إذ فرح وبطر، والمعنى: هو معجب بنفسه مدع ما ليس فيه.

)سيعلمون غدا من الكذاب الأشر[26](مقول قول محذوف دل عليه السياق تقديره: قلنا لنذيرهم الذي دل عليه قوله)كذبت ثمود بالنذر(فإن النذر تقتضي نذيرا بها وهو المناسب لقوله بعده) وارتقبهم واصطبر(وذلك مبني على أن قوله آنفا)فقالوا أبشر منا واحد نتبعه(كلام أجابوا به نذارة صالح إياهم المقدرة من قوله تعالى)كذبت ثمود بالنذر(، وبذلك أنتظم الكلام أتم انتظام.

وقرأ الجمهور)سيعلمون(بياء الغيبة. وقرأ ابن عامر وحمزة) ستعلمون(بتاء الخطاب وهي تحتمل أن يكون هذا حكاية كلام من الله لصالح على تقدير: قلنا له: قل لهم، ففيه حذف قول. ويحتمل أن يكون خطابا من الله لهم بتقدير: قلنا لهم ستعلمون. ويحتمل أن يكون خطابا للمشركين على جعل الجملة معترضة.

والمراد من قوله)غدا(الزمن المستقبل القريب كقولهم في المثل: إن مع اليوم غدا، أي إن مع الزمن الحاضر زمنا مستقبلا. يقال في تسلية النفس من ظلم ظالم ونحوه، وقال الطرماح:

وقـبـل غـد يا ويح قـلـبـي مـن غـــد
إذ راح أصحابي ولست برائح يريد يوم موته. والمراد به في الآية يوم نزول عذابهم المستقرب.
وتبيينه في قوله)إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم(الخ، أي حين يرون المعجزة وتلوح لهم بوارق العذاب يعلمون أنهم الكذابون الأشرون لا صالح. وعلى الوجه الثاني في ضمير)سيعلمون(يكون الغد مرادا به: يوم انتصار المسلمين في بدر ويوم فت مكة، أي سيعلمون من الكذاب المماثل للكذاب في قصة ثمود.
)إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر[27] ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر[28] فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر[29](هذه الجملة بيان لجملة)سيعلمون غدا من الكذاب الأشر(باعتبار ما تضمنه الجملة المبينة)بفتح الياء(من الوعيد وتقريب زمانه وإن فيه تصديق الرسول الذي كذبوه.
وضمير)لهم(جار على مقتضى الظاهر على قراءة الجمهور)سيعلمون(بياء الغائبة، وإما على قراءة ابن عامر وحمزة)ستعلمون(بتاء الخطاب فضمير)لهم(التفات.
وإرسال الناقة إشارة إلى قصة معجزة صالح أنه أخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تلك المعجزة مقدمة الأسباب التي عجل لهم العذاب لأجلها، فذكر هذه القصة في جملة البيان توطئة وتمهيد.

صفحة : 4231

والإرسال مستعار لجعلها آيه لصالح. وقد عرف خلق خوارق العادات لتأييد الرسل باسم الإرسال في القرآن كما قال تعالى)وما نرسل بالآيات إلا تخويفا(فشبهت الناقة بشاهد أرسله الله لتأييد رسوله. وهذا مؤذن بأن في هذه الناقة معجزة وقد سماها الله آية في قوله حكاية عنهم وعن صالح)فأتنا بآية إذ كنت من الصادقين قال هذه ناقة(الخ.
و)فتنة لهم(حال مقدر، أي تفتنهم فتنة هي مكابرتهم في دلالتها على صدق رسولهم، وتقدير معنى الكلام: إنا مرسلوا الناقة آية لك وفتنة لهم.
وضمير)لهم(عائد إلى المكذبين منهم بقرينه إسناد التكذيب كما تقدم. واسم الفاعل من قوله)مرسلوا الناقة(مستعمل في الاستقبال مجازا بقرينه قوله)فارتقبهم واصطبر(، فعدل على أن يقال: سنرسل، إلى صيغة اسم الفاعل الحقيقية في الحال لتقريب زمن الاستقبال من زمن الحال.

والارتقاب: الانتظار، ارتقب مثل: رقب، وهو أبلغ دلالة من رقب، لزيادة المبني فيه.
وعدي الارتقاب إلى ضميرهم على تقدير مضاف يقتضيه الكلام لأنه لا يرتقب ذواتهم وإنما يرتقب أحوالا تحصل لهم. وهذه طريقة إسناد أو تعليق المشتقات التي معانيها لا تسند إلى الذوات فتكون على تقدير مضاف اختصارا في الكلام اعتمادا على ظهور المعنى. وذلك مثل إضافة التحريم والتحليل إلى الذوات إلى الذوات في قوله تعالى)حرمت عليكم الميتة(. والمعنى: فأرتقب ما يحصل لهم من الفتنة عند ظهور الناقة.
والاصطبار: الصبر القوي، وهو كالارتقاب أيضا أقوى دلالة من الصبر، أي أصبر صبرا لا يعتريه ملل ولا ضجر، أي أصبر على تكذيبهم ولا تأيس من النصر عليهم، وحذف متعلق)أصطبر(ليعم كل حال تستدعي الضجر. والتقدير: وأصطبر على أذاهم وعلى ما تجده في نفسك من أنتظار النصر.
وجملة)ونبئهم أن الماء قسمة بينهم(معطوفة على جملة)إنا مرسلوا الناقة(باعتبار إن الوعد بخلق آية الناقة يقتضي كلاما محذوفا، تقديره: فأرسلنا لهم الناقة وقلنا نبئهم إن الماء قسمة بينهم على طريقة العطف والحذف في قوله)فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق(، وإن كان حرف العطف مختلفا، ومثل هذا الحذف كثير في إيجاز القرآن.
والتعريف في)الماء(للعهد، أي ماء القرية الذي يستقون منه، فإن لكل محلة ينزلها قوم ماءا لسقياهم وقال تعالى)ولما ورد ماء مدين(.
وأخبر عن الماء بأنه)قسمة(. والمراد مقسوم فهو من الإخبار للمصدر للتأكيد والمبالغة.
وضمير)بينهم(عائد إلى المعلوم من المقام بعد ذكر الماء إذ من المتعارف أن الماء يستقي من أهل القرية لأنفسهم وماشيتهم، ولما ذكرت الناقة علم أنها لا تستغني عن الشرب فغلب ضمير العقلاء على ضمير الناقة الواحدة وإن لم يكن للناقة مالك خاص أمر الله لها بنوبة في الماء. وقد جاء في آية سورة الشعراء)قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم(، وهذا مبدأ الفتنة، فقد روي أن الناقة كانت في يوم شربها تشرب ماء البئر كله فشحوا بذلك وأضمروا حلدها عن الماء فأبلغهم صالح أن الله ينهاهم عن أن يمسوها بسوء.
والمحتضر بفتح الضاد اسم مفعول من الحضور وهو ضد الغيبة. والمعنى: محتضر عنده فحذف المتعلق لحضوره. وهذا من جملة ما أمر رسولهم بأن ينبئهم به، أي لا يحضر القوم في يوم شرب

الناقة، وهي بإلهام الله لا تحضر في أيام شرب القوم. والشرب بكسر الشين: نوبة الاستقاء من الماء. فنادوا صاحبهم الذي أغروه بقتلها وهو قدار بضم القاف وتخفيف الدال بن سالف. ويعرف عند العرب بأحمر، قال زهير:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهـم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم يريد أحمر ثمود لأن ثمودا إخوة عاد ولم أقف على سبب وصفه بأحمر وأحسب أنه لبياض وجهه . وفي الحديث بعثت إلى الأحمر والأسود ، وكان قدار من سادتهم وأهل العزة منهم، وشبه النبي صلى الله عليه وسلم بأبي زمعة يعني الأسود بن المطلب بن أسد في قوله فانتداب لها رجل ذو منعة في قومه كأبي زمعة أي فأجاب نداءهم فرماها بنبل فقتلها .

وعبر بصاحبهم للإشارة إلى أنهم راضون بفعله إذ هم مصاحبون له وممالئون.

ونداؤهم إياه نداء الإغراء بالناقة وإنما نادوه لأنه مشتهر بالإقدام وقلة المبالاة بعزته.

صفحة : 4232

و)تعاطى(مطاوع عاطاه وهو مشتق من: عطا يعطو، إذا تناول. وصيغة تفاعل تقتضي تعداد الفاعل، شبه تخوف القوم من قتلتها لما أنذرهم به رسولهم من الوعيد وترددهم في الإقدام على قتلها بالمعاطاة فكل واحد حين يحجم عن مباشرة ذلك ويشير بغيره كأنه يعطي ما بيده إلى يد غيره حتى أخذه قدار.

وعطف)فعقر(بالفاء للدلالة على سرعة إتيانه ما دعوه لأجله.

والعقل: أصله ضرب البعير بالسيف على عراقيبه ليسقط إلى الأرض جاثيا فيتمكن الناحر من نحره، قال أبو طالب:

ضروب بنصل السيف سوق سمائها

إذا عدموا زادا فـإنـك عـاقـر)فكيف كان عذابي ونذر[30](القول فيه كالقول في نظيره الواقع في قصة قوم نوح فليس هو تكريرا ولكنه خاص بهذه القصة.

)إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر[31](جواب قوله)فكيف كان عذابي ونذر(فهو مثل موقع قوله)إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا(في قصة عاد كما تقدم.

والصيحة: الصاعقة وهي المعبر عنها بالطاغية في سورة الحاقة، وفي سورة الأعراف بالرجفة، وهي صاعقة عظيمة خارقة للعادة

أهلكتهم، ولذلك وصفت ب)واحدة(للدلالة على أنها خارقة للعادة إذ أتت على قبيلة كاملة وهم أصحاب الحجر.
و)كانوا(بمعنى: صاروا، وتجيء)كان(بمعنى)صار(حين يراد بها كون متحدد لم يكن من قبل.
والهشيم : ما يبس وجف من الكلأ ومن الشجر، وهو مشتق من الهشم وهو الكسر لأن اليابس من ذلك يصير سريع الانكسار.
والمراد هنا شي خاص منه وهو ما جف من أغصان العضاة والشوك وعظيم الكلأ كانوا يتخذون منه حظائر لحفظ أغنامهم من الريح والعادية ولذلك أضيف الهشيم إلى المحتضر. وهو بكسر الظاء المعجمة: الذي يعمل الحظيرة ويبنيها، وذلك أضيف الهشيم ويلقيه على الأرض ليرصفه بعد ذلك سياجا لحظيرته فالمشبه به هو الهشيم المجموع في الأرض قبل أن يسيج ولذلك قال كهشيم المحتظر ولم يقل: كهشيم الحظيرة، لأن المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصف ويصفف وقبل أن تتخذ منه الحظيرة.
والمحتظر: مفتعل من الحظيرة، أي متكلف عمل الحظيرة.
والقول في تعدية)أرسلنا(إلى ضمير)ثمود(كالقول في)أرسلنا عليهم ريحا صرصرا(.
)ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[32](تكرير ثان بعد نظيرته السافلين في قصة قوم نوح وقصة عاد تذييلا لهذه القصة كما ذيلت بنظيريه القصتان السالفتان اقتضى التكرير مقام الامتنان والحث على التدبر بالقرآن لأن التدبر فيه يأتي بتجنب الضلال ويرشد إلى مسالك الاهتداء. فهذا أهم من تكرير)فكيف كان عذاب ربي ونذر(فلذلك أوثر.
)كذبت قوم لوط بالنذر[33] إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر[34] نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر[35](القول في مفرداته كالقول في نظائره، وقصة قوم لوط تقدمت في سورة الأعراف وغيرها.
وعرف قوم لوط بالإضافة إليه إذ لم يكن لتلك الأمة اسم يعرفون به عند العرب.
ولم يحك هنا ما تلقى به قوم لوط كما حكي في القصص الثلاث قبل هذه، وقد حكي ذلك في سورة الأعراف وفي سورة هود وفي سورة الحجر لأن سورة القمر بنيت على تهديد المشركين عن إعراضهم عن الاتعاظ بآيات الله التي شاهدوها وآثار آياته على الأمم الماضية التي علموا أخبارها وشهدوا آثارها ، فلم يكن ثمة مقتض لتفصيل أقوال تلك الأمم إلا ما كان منها مشابها لأقوال المشركين في تفضيله ولم تكن أقوال قوم لوط بتلك المثابة، فلذلك أقتصر

فيها على حكاية ما هو مشترك بينهم وبين المشركين وهو تكذيب رسولهم وإعراضهم عن نذره. والنذر تقدم.
وجملة)إنا أرسلنا عليهم حاصبا(استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عن قوم لوط بأنهم كذبوا بالنذر.
وكذلك جملة)نجيناهم بسحر(. وجملة)كذلك نجزي من شكر(.
والحاصب: الريح التي تحصب، أي ترمي بالحصباء ترفعها من الأرض لقوتها، وتقدم في قوله تعالى)فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا(في سورة العنكبوت.
والاستثناء حقيقي لأن آل لوط من جملة قومه.

وآل لوط: قرابته وهم بناته، ولوط داخل بدلالة الفحوى. وقد ذكر في آيات أخرى أن زوجة لوط لم ينجها الله ولم يذكر ذلك هنا اكتفاء بمواقع ذكره وتنبيها على أن من لا يؤمن بالرسول لا يعد من آله، كما قال)يا نوح انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح(.
وذكر)بسحر(، أي في وقت السحر للإشارة إلى إنجائهم قبيل حلول العذاب بقومهم لقوله بعده)ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر(.
وانتصب)نعمة(على الحال من ضمير المتكلم، أي إنعاما منا.
وجملة)كذلك نجزي من شكر(معترضة، وهي استئناف بياني عن جملة)نجيناهم بسحر(باعتبار ما معها من الحال، أي إنعاما لأجل أنه شكر، ففيه إيماء بأن إهلاك غيرهم لأنهم كفروا، وهذا تعريض بإنذار المشركين وبشارة للمؤمنين.
وفي قوله)من عندنا(تنويه بشأن هذه النعمة لأن ظرف)عند(يدل على الادخار والاستئثار مثل)لدن(في قوله)من لدنا(. فذلك أبلغ من أن يقال: نعمة منا أو أنعمنا.
)ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر[36](عطف على جملة)إنا أرسلنا عليهم حاصبا(.
وتأكيد الكلام بلام القسم وحرف التحقيق يقصد منه تأكيد الغرض الذي سيقت القصة جله وهو موعظة قريش الذين أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتماروا بالنذر.
والبطشة: المرة من البطش، وهو أخذ بعنف لعقاب ونحوه، وتقدم في قوله)أم لهم أيد يبطشون بها(في آخر الأعراف، وهي هنا تمثيل للإهلاك السريع مثل قوله)يوم نبطش البطشة الكبرى(في سورة الدخان.

والتماري: تفاعل من المراء وهو الشك. وصيغة المفاعلة للمبالغة. وضمن)تماروا(معنى: كذبوا فعدي بالباء، وتقدم عند قوله تعالى) فبأي آلاء ربكما تتمارى(في سورة النجم.
)ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر[37] (إجمال لما ذكر في غير هذه السورة في قصة قوم لوط أنه نزل به ضيف فرام قومه الفاحشة بهم وعجز لوط عن دفع قومه إذ اقتحموا بيته وأن الله أعمى أعينهم فلم يروا كيف يدخلون.
والمراودة: محاولة رضى الكاره شيئا بقبول ما كرهه، وهي مفاعلة من راد يرود رودا، إذا ذهب ورجع في أمر، مثلت هيئة من يكرر المراجعة والمحاولة بهيئة المنصرف ثم الراجع. وضمن)راودوه(معنى دفعوه وصرفوه فعدي ب)عن(.
وأسند المراودة إلى ضمير قوم لوط وإن كان المراودون نفرا منهم لأن ما راودوا عليه هو راد جميع القوم بقطع النظر عن تعيين من يفعله.
ويتعلق قوله)عن ضيفه(بفعل)راودوه(بتقدير مضاف، أي عن تمكينهم من ضيوفه.
وقوله)فذوقوا عذابي ونذر(مقول قول محذوف دل عليه سياق الكلام للنفر الذين طمسنا أعينهم)ذوقوا عذابي(وهو العمى، أي ألقى الله في نفوسهم أن ذلك عقاب لهم.
واستعمل الذوق في الإحساس بالعذاب مجازا مرسلا بعلاقة التقييد في الإحساس.
وعطف النذر على العذاب باعتبار أن العذاب تصديق للنذر، أي ذوقوا مصداق نذري، وتعدية فعل)ذوقوا(إلى)نذري(بتقدير مضاف، أي وآثار نذري.
والقول في تأكيده بلام القسم تقدم، وحذفت ياء المتكلم من قوله)ونذر(تخفيفا.
)ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر[38](القول في تأكيده بلام القسم تقدم آنفا في نظيره.
والبكرة: أول النهار وهو وقت الصبح، وقد جاء في الآية الأخرى قوله)إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب(، فذكر)بكرة(للدلالة على تعجيل العذاب لهم.
والتصبيح: الكون في زمن الصباح وهو أول النهار.
والمستقر: الثابت الدائم الذي يجري على قوة واحدة لا يقلع حتى استأصلهم.
والعذاب: هو الخسف ومطر الحجارة وهو مذكور في سورة الأعراف وسورة هود.

)فذوقوا عذابي ونذر[39](تفريع قول محذوف خوطبوا به مراد به التوبيخ؛ إما بأن ألقي في روعهم عند حلول العذاب، بأن ألقى الله في أسماعهم صوتا.

والخطاب لجميع الذين أصابهم العذاب المستقر، وبذلك لم تكن هذه الجملة تكريرا. وحذفت ياء المتكلم من قوله)ونذر(تخفيفا.

والقول في استعمال الذوق هنا كالذوق في سابقه.

وفائدة الإعلام بما قيل لهم من قوله)فذوقوا عذابي ونذر(في الموضعين أن يتجدد عند استماع كل نبإ من ذلك إدكار لهم واتعاظ وإيقاظ استيفاء لحق التذكير القرآني.

)ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[40](تكرير ثالث تنويها بشأن القرآن للخصوصية التي تقدمت في المواضع التي كرر فيها نظيره وما يقاربه وخاصة في نظيره الموالي هو له. ولم يذكر هنا)فكيف كان عذابي ونذر(اكتفاء بحكاية التنكيل لقوم لوط في التعريض بتهديد المشركين.

)ولقد جاء آل فرعون النذر[41] كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر[42](لما كانت عدوة موسى عليه السلام غير موجهة إلى أمة القبط، وغير مراد منها التشريع لهم. ولكنها موجهة إلى فرعون وأهل دولته الذين بأيديهم تسير أمور المملكة الفرعونية، ليسمحوا بإطلاق بني إسرائيل من الاستعباد، ويمكنوهم من الخروج مع موسى خص بالنذر هنا آل فرعون، أي فرعون وآله لأنه يصدر عن رأيهم، ألا ترى أن فرعون لم يستأثر برد دعوة موسى بل قال لمن حوله:)ألا تستمعون(وقال)فماذا تأمرون(وقالوا)أرجه وأخاه(الآية، ولذلك لم يكن أسلوب الإخبار عن فرعون ومن معه مماثلا لأسلوب الإخبار عن قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط إذ صدر الإخبار عن أولئك بجملة)كذبت(، وخولف في الإخبار عن فرعون فصدر بجملة)ولقد جاء آل فرعون النذر(وإن كان مآل هذه الأخبار الخمسة متماثلا.

والآل: القرابة، ويطلق مجازا على من له شدة اتصال بالشخص كما في قوله تعالى)أدخلوا آل فرعون أشد العذاب(. وكان الملوك الأقدمون ينوطون وزارتهم ومشاورتهم بقرابتهم لأنهم يأمنون كيدهم.

والنذر: جمع نذير: اسم مصدر بمعنى الإنذار. ووجه جمعه أن موسى كرر إنذارهم.

والقول في تأكيد الخبر بالقسم كالقول في نظائره المتقدمة.

وإسناد التكذيب إليهم بناء على ظاهر حالهم وإلا فقد آمن منهم رجل واحد كما في سورة غافر.

وجملة)كذبوا بآياتنا كلها(بدل اشتمال من جملة)جاء آل فرعون النذر(لأن مجيء النذر إليهم ملابس للآيات، وظهور الآيات مقارن لتكذيبهم بها فمجيء النذر مشتمل على التكذيب لأنه مقارن مقارنه.

وقوله)بآياتنا(إشارة إلى آيات موسى المذكورة في قوله تعالى) فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد(وهي تسع آيات منها الخمس المذكورة في آية الأعراف والأربع الأخر، هي: انقلاب العصا حية، وظهور يده بيضاء، وسنو القحط، وانفلاق البحر بمرأى من فرعون وآله، ولم ينجع ذلك في تصميمهم على اللحاق ببني إسرائيل.

وتأكيد)آياتنا(ب)كلها(إشارة إلى كثرتها وأنهم لم يؤمنوا بشيء منها. وتكذيبهم بآية انفلاق البحر تكذيب فعلي لأن موسى لم يتحدهم بتلك الآية وقوم فرعون لما رأوا تلك الآية عدوها سحرا وتوهموا البحر أرضا فلم يهتدوا بتلك الآية.

والأخذ: مستعار للانتقام، وقد تقدم عند قوله تعالى)أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف(في سورة النحل.

وهذا الأخذ: هو إغراق فرعون ورجال دولته وجنده الذين خرجوا لنصرته كما تقدم في الأعراف.

وانتصب)أخذ عزيز مقتدر(على المفعولية المطلقة مبينا لنوع الأخذ بأفضع ما هو معروف للمخاطبين من أخذ الملوك والجبابرة.

والعزيز: الذي لا يغلب. والمقتدر: الذي لا يعجز.

وأريد بذلك أنه أخذ لم يبق على العدو أي إبقاء بحيث قطع دابر فرعون وآله.

)أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر[43](هذه الجملة كالنتيجة لحاصل القصص عن الأمم التي كذبت الرسل من قوم نوح فمن ذكر بعدهم ولذلك فصلت ولم تعطف.

وقد غير أسلوب الكلام من كونه موجها للرسول صلى الله عليه وسلم إلى توجيهه للمشركين لينتقل عن التعريض إلى التصريح اعتناء بمقام الإنذار والإبلاغ.

والاستفهام في قوله)أكفاركم خير من أولئكم(يجوز أن يكون على حقيقته، ويكون من المحسن البديعي الذي سماه السكاكي سوق المعلوم مساق غيره وسماه أهل الأدب من قبله ب تجاهل العارف . وعدل السكاكي عن تلك التسمية وقال لوقوعه في كلام الله تعالى نحو قوله)وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين(وهو هنا للتوبيخ كما في قول ليلى ابنة طريف الخارجية ترثي أخاها الوليد بن طريف الشيباني:

أيا شجر الخابور مالك مورقـا كأنك لم تجزع على ابن طريف الشاهد في قولها: كأنك لم تجزع الخ.

صفحة : 4235

والتوبيخ على تخطئتهم في عدم العذاب الذي حل بأمثالهم حتى كأنهم يحسبون كفارهم خيرا من الكفار الماضين المتحدث عن قصصهم، أي ليس لهم خاصية تربأ بهم عن أن يلحقهم ما لحق الكفار الماضين. والمعنى: أنكم في عدم اكتراثكم بالموعظة بأحوال المكذبين السابقين لا تخلون عن أن أحد الأمرين الذي طمأنكم من أن يصيبكم مثلما أصابهم.

و)أم(للإضراب الانتقالي. وما يقدر بعدها من استفهام مستعمل في الإنكار. والتقدير: بل ما لكم براءة في الزبر حتى تكونوا آمنين من العقاب.

وضمير)كفاركم(لأهل مكة وهم أنفسهم الكفار، فإضافة لفظ) كفار(إلى ضميرهم إضافة بيانية لأن المضاف صنف من جنس من أضيف هو إليه فهو على تقدير)من(البيانية. والمعنى: الكفار منكم خير من الكفار السالفين. أي أأنتم الكفار خير من أولئك الكفار.

والمراد بالأخيرية انتفاء الكفر، أي خير عند الله الانتقام الإلهي وادعاء فارق بينهم وبين أولئك.

والبراءة: الخلاص والسلامة مما يضر أو يشق أو يكلف كلفة. والمراد هنا: الخلاص من المؤاخذة والمعاقبة.

والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب، وزبور بمعنى مزبور، أي براءة كتبت في كتب الله السالفة.

والمعنى: ألكم براءة في الزبر أن كفاركم لا ينالهم العقاب الذي نال أمثالهم من الأمم السابقة.

و)في الزبر(صفة)براءة(، أي كائنة في الزبر، أي مكتوبة في صحائف الكتب.

وأفاد هذا الكتاب ترديد النجاة من العذاب بين الأمرين: إما الاتصاف بالخير الإلهي المشار إليه بقوله تعالى)إن أكرمكم عند الله أتقاكم(، وإما المسامحة والعفو عما يقترفه المرء من السيئات المشار إليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

والمعنى انتفاء كلا الأمرين عن المخاطبين فلا مأمن لهم من حلول العذاب بهم كما حل بأمثالهم.

والآية تؤذن بارتقاب عذاب ينال المشركين في الدنيا دون العذاب الأكبر، وذلك عذاب الجوع الذي في قوله تعالى)فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين(كما تقدم، وعذاب السيف يوم بدر الذي في قوله تعالى)يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون(.

)أم يقولون نحن جميع منتصر[44] سيهزم الجمع ويولون الدبر[45]( )أم(منقطعة لإضراب انتقالي. والاستفهام المقدر بعد)أم(مستعمل في التوبيخ، فإن كانوا قد صرحوا بذلك فظاهر، وإن كانوا لم يصرحوا به فهو إنباء بأنهم سيقولونه.

وعن ابن عباس: أنهم قالوا ذلك يوم بدر. ومعناه: أن هذا نزل قبل يوم بدر لأن قوله)سيهزم الجمع(إنذار بهزيمتهم، يوم بدر هو مستقبل بالنسبة لوقت نزول الآية لوجود علامة الاستقبال.

وغير أسلوب الكلام من الخطاب الموجه إلى المشركين بقوله) أكفاركم خير(الخ إلى أسلوب الغيبة رجوعا إلى الأسلوب الجاري من أول السورة في قوله)وإن يروا آية يعرضوا(بعد أن قضي حق الإنذار بتوجيه الخطاب إلى المشركين في قوله)أكفاركم خير من أولئك أم لكم براءة في الزبر(.

والكلام بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وتعريض بالنذارة للمشركين مبني على أنهم تحدثهم نفوسهم بذلك وأنهم لا يحسبون حالهم وحال الأمم التي سيقت إليهم قصصها متساوية، أي نحن منتصرون على محمد صلى الله عليه وسلم لأنه ليس رسول الله فلا يؤيده الله.

و)جميع(اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، وليس هو بمعنى الإحاطة، ونظيره ما وقع في خير عمر وعلي وعباس رضي الله عنهم في قضية ما تركه النبي صلى الله عليه وسلم من أرض فدك. قال لهما ثم جئتماني وأمركما جميع وكلمتكما واحدة ، وقول لبيد:

عريت وكان بها الجميع فأكبروا منها وغودر نؤيها وثمامـهـا

والمعنى: بل أيدعون أنهم يغالبون محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنهم غالبون لأنهم جميع لا يغلبون.

ومنتصر: وصف)جميع(. جاء بالإفراد مراعاة للفظ)جميع(وإن كان معناه متعددا.

وتغيير أسلوب الكلام من الخطاب إلى الغيبة مشعر بأن هذا هو ظنهم واغترارهم، وقد روي أن أبا جهل قال يوم بدر: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه . فإذا صح ذلك كانت الآية من الإعجاز المتعلق بالإخبار بالغيب.

ولعل الله تعالى ألقى في نفوس المشركين هذا الغرور بأنفسهم وهذا الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه ليشغلهم عن مقاومته باليد ويقصرهم على تطاولهم عليه بالألسنة حتى تكثر أتباعه وحتى يتمكن من الهجرة والانتصار بأنصار الله.

فقوله)سيهزم الجمع ويولون الدبر(جواب عن قولهم)نحن جميع منتصر(فلذلك لم تعطف الجملة على التي قبلها. وهذا بشارة لرسوله صلى الله عليه وسلم بذلك وهو يعلم أن الله منجز وعده ولا يزيد ذلك الكافرين إلا غرورا فلا يعيروه جانب اهتمامهم وأخذ العدة لمقاومته كما قال تعالى في نحو ذلك)ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا(.

والتعريف في)الجمع(أي الجمع المعهود من قوله)نحن جميع منتصر(والمعنى: سيهزم جمعهم. وهذا معنى قول النحاة: اللام عوض عن المضاف إليه.

والهزم: الغلب، والسين لتقريب المستقبل، كقوله)قل للذين كفروا ستغلبون(. وبني الفعل للمجهول لظهور أن الهازم المسلمون.

ويولون: يجعلون غيرهم يلي، فهو يتعدى بالتضعيف إلى مفعولين، وقد حذف مفعوله الأول هنا للاستغناء عنه إذ الغرض الإخبار عنهم بأنهم إذا جاء الوغى يفرون ويولونكم الأدبار.

والدبر: الظهر، وهو ما أدبر، أي كان وراء، وعكسه القبل.

والآية إخبار بالغيب، فإن المشركين هزموا يوم بدر، وولوا الأدبار يومئذ، وولوا الأدبار في جمع آخر وهو جمع الأحزاب في غزوة الخندق ففر بليل كما مضى في سورة الأحزاب وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج لصف القتال يوم بدر تلا هذه الآية قبل القتال، إيماء إلى تحقيق وعد الله بعذابهم في الدنيا.

وأفرد الدبر، والمراد الجمع لأنه جنس يصدق بالمتعدد، أي يولي كل أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة ومزاوجة القرائن، على أن انهزام الجمع انهزامة واحدة ولذلك الجيش جهة تول واحدة، وهذا الهزم وقع يوم بدر.

روي عن عكرمة أن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت)سيهزم الجمع ويولون الدبر(جعلت أقول: أي جمع يهزم? فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع، ويقول)سيهزم الجمع ويولون الدبر(اه، أي لم يتبين له المراد بالجمع الذي سيهزم ويولي الدبر فإنه لم يكن يومئذ قتال ولا كان يخطر لهم ببال.

)بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر[46]( )بل(للإضراب الانتقالي، وهو انتقال من الوعيد بعذاب الدنيا كما حل بالأمم قبلهم إلى الوعيد بعذاب الآخرة. قال تعالى)ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون(، وعذاب الآخرة أعظم فلذلك قال)والساعة أدهى وأمر(وقال في الآية الأخرى)ولعذاب الآخرة أشد وأبقى(وفي الآية الأخرى)ولعذاب الآخرة أخزى(.

والساعة: علم بالغلبة في القرآن على يوم الجزاء.

والموعد: يوم الوعد، وهو هنا وعد سوء، أي وعيد. والإضافة على معنى اللام أي موعد لهم. وهذا إجمال بالوعيد، ثم عطف عليه ما يفصله وهو)والساعة أدهى وأمر(. ووجه العطف أنه أريد جعله خبرا مستقلا.

وأدهى: اسم تفضيل من دهاه إذا أصابه بداهية، أي الساعة أشد إصابة بداهية الخلود في النار من داهية عذاب الدنيا بالقتل والأسر.

وأمر: أي أشد مرارة. واستعيرت المرارة للإحساس بالمكروه على طريقة تشبيه المعقول الغائب بالمحسوس المعروف.

وأعيد اسم)الساعة(في قوله)والساعة أدهى(دون أن يؤتى بضميرها لقصد التهويل، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها فتسير مسير المثل.

)إن المجرمين في ضلال وسعر[47] يوم يسحبون في النار على وجههم ذوقوا مس سقر[48](هذا الكلام بيان لقوله)والساعة أدهى وأمر(. واقتران الكلام بحرف)إن(لفائدتين: إحداهما الاهتمام بصريحه الإخباري، وثانيهما تأكيد ما تضمنه من التعريض بالمشركين، لأن الكلام وإن كان موجها للنبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يشك في ذلك فإن المشركين يبلغهم ويشيع بينهم وهم لا يؤمنون بعذاب الآخرة فكانوا جديرين بتأكيد الخبر في جانب التعريض فتكون) إن(مستعملة في غرضيها من التوكيد والاهتمام.

والتعبير عنهم ب)المجرمين(إظهار في مقام الإظمار لإلصاق وصف الإجرام بهم.

والضلال: يطلق على ضد الهدى ويطلق على الخسران، وأكثر المفسرين على أن المراد به هنا المعنى الثاني. فعن ابن عباس: المراد الخسران في الآخرة، لأن الظاهر أن)يوم يسحبون في النار(طرف للكون في ضلال وسعر على نحو قوله تعالى)يوم ترجف

الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة(، وقوله)ويوم القيامة هم من المقبوحين(فلا يناسب أن يكون الضلال ضد الهدى.
ويجوز أن يكون)يوم يسحبون(ظرفا للكون الذي في خبر)إن(، أي كائنون في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار، فالمعنى: أنهم في ضلال وسعر يوم القيامة و)سعر(جمع سعير، وهو النار، وجمع السعير لأنه قوي شديد.
والسحب: الجر، وهو في النار أشد من ملازمة المكان لأن به يتجدد مماسة نار أخرى فهو أشد تعذيبا.
وجعل السحب على الوجوه إهانة لهم.
و)ذوقوا مس سقر(مقول قول محذوف، والجملة مستأنفة. والذوق مستعار للإحساس.
وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة والمجازاة.
والمس مستعمل في الإصابة على طريقة المجال المرسل.
وسقر: علم على جهنم، وهو مشتق من السقر بسكون القاف وهو التهاب في النار، ف)سقر(وضع علما لجهنم، ولذلك فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، لأن جهنم اسم مؤنث معنى اعتبروا فيه أن مسماه نار والنار مؤنثة.
والآية تتحمل معنى آخر، وهو أن يراد بالضلال ضد الهدى وأن الإخبار عن المجرمين بأنهم ليسوا على هدى، وأن ما هم فيه باطل وضلال، وذلك في الدنيا، وأن يراد بالسعر نيران جهنم وذلك في الآخرة فيكون الكلام على التقسيم.
أو يكون السعر بمعنى الجنون، يقال: سعر بضمتين وسعر بسكون العين، أي جنون، من قول العرب ناقة مسعورة، أي شديدة السرعة كأن بها جنونا كما تقدم عند قوله تعالى)إنا إذن لفي ضلال وسعر(في هذه السورة.
وروي عن ابن عباس وفسر به أبو على الفارسي قائلا: لأنهم أن كانوا في السعير لم يكونوا في ضلال لأن الأمر قد كشف لهم وإنما وصف حالهم في الدنيا، وعليه فالضلال والسعر حاصلان لهم في الدنيا.
)إنا كل شيء خلقناه بقدر[49](استئناف وقع تذييلا لما قبله من الوعيد والإنذار والاعتبار بما حل بالمكذبين، وهو أيضا توطئة لقوله) وما أمرنا إلا واحدة(الخ.
والمعنى: إنا خلقنا وفعلنا كل ما ذكر من الأفعال وأسبابها وآلاتها وسلطناهم على مستحقيه لأنا خلقنا كل شيء بقدر، أي فإذا علمتم هذا فانتبهوا إلى أن ما أنتم عليه من التكذيب والإصرار مماثل لما كانت عليه الأمم السالفة.

واقتران الخبر بحرف)إن(يقال فيه ما قلناه في قوله)إن المجرمين في ضلال وسعر(?.
والخلق أصله: إيجاد ذات بشكل مقصود فهو حقيقة في إيجاد الذوات، ويطلق مجازا على إيجاد المعاني التي تشبه الذوات في التميز والوضوح كقوله تعالى)وتخلقون إفكا(.
فإطلاقه في قوله)إنا كل شيء خلقناه بقدر(من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.
و)شيء(معناه موجود من الجواهر والأعراض، أي خلقنا كل الموجودات جوارها وأعراضها بقدر.
والقدر: بتحريك الدال مرادف القدر بسكونها وهو تحديد الأمور وضبطها.
والمراد: أن خلق الله الأشياء مصاحب لقوانين جارية على الحكمة، وهذا المعنى قد تكرر في القرآن كقوله في سورة الرعد)وكل شيء عنده بمقدار(ومما يشمله عموم بكل شيء خلق جهنم للعذاب.
وقد أشار إلى أن الجزاء من مقتضى الحكمة قوله تعالى) أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(وقوله)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم(وقوله)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين(فترى هذه الآيات وأشباهها تعقب ذكر كون الخلق كله لحكمة بذكر الساعة ويوم الجزاء. فهذا وجه تعقيب آيات الإنذار والعقاب المذكورة في هذه السورة بالتذييل بقوله)إنا كل شيء خلقناه بقدر(بعد قوله)أكفاركم خير من أولئكم(وسيقول)ولقد أهلكنا أشياعكم(.

صفحة : 4238

فالباء في)بقدر(للملابسة، والمجرور ظرف مستقر، فهو في حكم المفعول الثاني لفعل)خلقناه(لأنه مقصود بذاته، إذ ليس المقصود الإعلام بأن كل شيء مخلوق لله، فإن ذلك لا يحتاج إلى الإعلام به بله تأكيده بل المقصود إظهار معنى العلم والحكمة في الجزاء كما في قوله تعالى في سورة الرعد)وكل شيء عنده بمقدار(.
ومما يستلزمه معنى القدر أن كل شيء مخلوق هو جار على وفق علم الله وإرادته لأنه خالق أصول الأشياء وجاعل القوى فيها لتنبعث

عنها آثارها ومتولداتها، فهو عالم بذلك ومريد لوقوعه. وهذا قد سمي بالقدر في اصطلاح الشريعة كما جاء في حديث جبريل الصحيح في ذكر ما يقع به الإيمان وتؤمن بالقدر خيره وشره .

وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت)يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر(. ولم يذكر راوي الحديث معنى القدر الذي خاصم فيه كفار قريش فبقي مجملا ويظهر أنهم خاصموا جدلا ليدفعوا عن أنفسهم التعنيف بعبادة الأصنام كما قالوا)ولو شاء الرحمن ما عبدناهم(، أي جدلا للنبي صلى الله عليه وسلم بموجب ما يقوله من أن كل كائن بقدر الله جهلا منهم بمعاني القدر.

قال عياض في الإكمال ظاهره أن المراد بالقدر هنا مراد الله ومشيئته وما سيق به قدره من ذلك، وهو دليل مساق القصة التي نزلت بسببها الآية اه. وقال الباجي في المنتقى: يحتمل من جهة اللغة معاني: أحدها: أن يكون القدر ههنا بمعنى مقدر لا يزاد عليه ولا ينقص كما قال تعالى)قد جعل الله لكل شيء قدرا(.

والثاني: أن المراد أنه بقدرته، كما قال)بلى قادرين على أن نسوي بنانه(.

والثالث: بقدر، أي نخلقه في وقته، أي نقدر له وقتا نخلقه فيه اه.

قلت: وإذا كان لفظ)قدر(جنسا، ووقع معلقا بفعل متعلق بضمير) كل شيء(الدال على العموم كان ذلك اللفظ عاما للمعاني كلها فكل ما خلقه الله فخلقه بقدر، وسبب النزول لا يخصص العموم، ولا يناكد موقع هذا التذييل، على أن السلف كانوا يطلقون سبب النزول على كل ما نزلت الآية للدلالة عليه ولو كانت الآية سابقة على ما عدوه من السبب.

واعلم أن الآية صريحة في أن كل ما خلقه الله كان بضبط جاريا على حكمته، وأما تعيين ما خلقه الله مما ليس مخلوقا له من أفعال العبادة مثلا عند القائلين بخلق العباد أفعالهم كالمعتزلة والقائلين بكسب العبد كالأشعرية، فلا حجة بالآية عليهم لاحتمال أن يكون مصب الإخبار هو مضمون)خلقناه(أو مضمون)بقدر(، ولاحتمال عموم)كل شيء(للتخصيص، ولاحتمال المراد بالشيء ما هو، وليس نفي حجية هذه الآية على إثبات القدر الذي هو محل النزاع بين الناس بمبطل ثبوت القدر من أدلة أخرى.

وحقيقة القدر الاصطلاحي خفية فإن مقدار تأثر الكائنات بتصرفات الله تعالى وبتسبب أسبابها ونهوض موانعها لم يبلغ علم الإنسان إلى كشف غوامضة ومعرفة ما مكن الله الإنسان من تنفيذ لما قدره الله، والأدلة الشرعية والعقلية تقتضي أن العمال الصالحة والأعمال

السيئة سواء في التأثر لإرادة الله تعالى وتعلق قدرته إذا تعلقت بشيء، فليست نسبة آثار الخير إلى الله دون نسبة أثر الشر إليه إلا أدبا مع الخالق لقنه الله عبيده، ولولا أنها منسوبة في التأثر لإرادة الله تعالى لكانت التفرقة بين أفعال الخير وأفعال الشر في النسبة إلى الله ملحقة باعتقاد المجوس بأن للخير إلها وللشر إلها، وذلك باطل لقول النبي صلى الله عليه وسلم وتؤمنوا بالقدر خيره وشره ، وقوله القدرية مجوس هذه الأمة رواه أبو داود بسنده إلى ابن عمر مرفوعا.

وانتصب)كل شيء(على المفعولية ل)خلقناه(على طريقة الاشتغال، وتقديمه على)خلقناه(ليتأكد مدلوله بذكر اسمه الظاهر ابتداء، وذكر ضميره ثانيا، وذلك هو الذي يقتضي العدول إلى الاشتغال في فصيح الكلام العربي فيحصل توكيد للمفعول بعد أن حصل تحقيق نسبة الفعل إلى فاعله بتحقيق حرف)إن(المفيد لتوكيد الخبر وليتصل قوله)بقدر(بالعامل فيه وهو)خلقناه(، لئلا يلتبس بالنعت لشيء لو قيل: إنا خلقنا كل شيء بقدر، فيظن أن المراد: أنا خلقنا كل شيء مقدر فيبقى السامع منتظرا لخبر)إن(.

)وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر[50](

عطف على قوله)إنا كل شيء خلقناه بقدر(فهو داخل في التذييل، أي خلقناه كل شيء بعلم، فالمقصود منه وما يصلح له معلوم لنا فإذا جاء وقته الذي أعددناه حصل دفعة واحدة لا يسبقه اختبار ولا نظر ولا بداء. وسياتي تحقيقه في آخر تفسير هذه الآية.

والغرض من هذا تحذيرهم من أن يأخذهم العذاب بغتة في الدنيا عند وجود ميقاته وسبق إيجاد أسبابه ومقوماته التي لا يتفطنون لوجودها، وفي الآخرة بحلول الموت ثم بقيام الساعة.

وعطف هذا عقب)إنا كل شيء خلقناه بقدر(مشعر بترتيب مضمونه على مضمون المعطوف عليه في التنبيه والاستدلال حسب ما هو جار في كلام البلغاء من مراعاة ترتب معاني الكلام بعضها على بعض حتى قال جماعة من أئمة اللغة: الفراء وثعلب والربعي وقطرب وهشام وأبو عمرو الزاهد: إن العطف بالواو يفيد الترتيب، وقال ابن مالك: الأكثر إفادته الترتيب.

والأمر في قوله)وما أمرنا(يجوز أن يكون بمعنى الشأن، فيكون المراد به الشأن المناسب لسياق الكلام، وهو شأن الخلق والتكوين، أي وما شأن خلقنا الأشياء.

ويجوز أن يكون بمعنى الإذن فيراد به أمر التكوين وهو المعبر عنه بكلمة)كن(والمآل واحد.
وعلى الاحتمالين فصفة)واحدة(وصف لموصوف محذوف دل عليه الكلام وهو خبر عن أمرنا. والتقدير: إلا كلمة واحدة، وهي كلمة)كن(كما قال تعالى)إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون(.
والمقصود الكناية عن أسرع ما يمكن من السرعة، أي وما أمرنا إلا كلمة واحدة. وذلك في تكوين العناصر والبسائط وكذلك في تكوين المركبات لأن أمر التكوين يتوجه إليها بعد أن تسبقه أوامر تكوينية بإيجاد أجزائها، فلكل مكون منها أمر تكوين يخصه هو كلمة واحدة فتبين أن أمر الله التكويني كلمة واحدة ولا ينافي هذا قوله)ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام(ونحوه، فخلق ذلك قد انطوى على مخلوقات كثيرة لا يحصر عددها كما قال تعالى)يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق(فكل خلق منها يحصل بكلمة واحدة كلمح البصر على أن بعض المخلوقات تتولد منه أشياء وآثار فيعتبر تكوينه عند إيجاد أوله.
وصح الإخبار عن)أمر(وهو مذكر ب)واحدة(وهو مؤنث باعتبار أن ما صدق الأمر هنا هو أمر التسخير وهو الكلمة، أي كلمة)كن(.
وقوله)كلمح بالبصر(في موضع الحال من)أمرنا(باعتبار الإخبار عنه بأنه كلمة واحدة، أي حصول مرادنا بأمرنا كلمح بالبصر، وهو تشبيه في سرعة الحصول، أي ما أمرنا إلا كلمة واحدة سريعة التأثير في المتعلقة هي به كسرعة لمح البصر.
وهذا التشبيه في تقريب الزمان أبلغ ما جاء في الكلام العربي وهو أبلغ من قول زهير:
فهن ووادي الرس كاليد للفم وقد جاء في سورة النحل)وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب(فزيد هنالك)أو هو أقرب(لأن المقام للتحذير من مفاجأة الناس بها قبل أن يستعدوا لها فهو حقيق بالمبالغة في التقريب، بخلاف ما في هذه الآية فإنه لتمثيل أمر الله وذلك يكفي فيه مجرد التنبيه إذ لا يترددالسامع في التصديق به.
وقد أفادت هذه الآية إحاطة علم الله بكل موجود وإيجاد الموجودات بحكمة، وصدورها عن إرادة وقدرة.
واللمح: النظر السريع واخلاس النظر، يقال: لمح البصر، ويقال: لمح البرق كما يقال: لمع البرق. ولما كان لمح البصر أسرع من لمح البرق قال تعالى)كلمح بالبصر(كما قال في سورة النحل)إلا كلمح البصر(.
)ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر[51](التفت من طريق الغيبة إلى الخطاب ومرجع الخطاب هم المشركون لظهور أنهم المقصود

بالتهديد، وهو تصريح بما تضمنه قوله)أكفاركم خير من أولئكم(فهو بمنزلة النتيجة لقوله)إنا كل شيء خلقناه بقدر(إلى كلمة)كلمح بالبصر(.
وهذا الخبر مستعمل في التعريض بالمخاطبين بأنهم إذا تعرضوا لما يوقع عليهم الهلاك في الدنيا فليس ذلك قصارى عذابهم فإن بعده حسابا عليه في الآخرة يعذبون به وهذا كقوله تعالى)وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك(.

صفحة : 4240

ويجوز عندي أن يكون الضمير عائدا إلى الجمع من قوله)سيهزم الجمع(إلى)المجرمين(في قوله)إن المجرمين في ضلال وسعر(الخ، والمعنى كل شيء فعله المشركون من شرك وأذى للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معدود عليهم مهيأ عقابهم عليه لأن الإخبار عن إحصاء أعمال الأمم الماضية قد أغنى عنه الإخبار عن إهلاكهم، فالأجدر تحذير الحاضرين من سوء أعمالهم.
والزبر: جمع زبور وهو الكتاب مشتق من الزبر، وهو الكتابة، وجمعت الزبر لأن لكل واحد كتاب أعماله، قال تعالى)وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك(الآية.
وعموم)كل شيء فعلوه(مراد به خصوص ما كان من الأفعال عليه مؤاخذة في الآخرة.
)وكل صغير وكبير مستطر[53](هذا كالتذييل لقوله)وكل شيء فعلوه في الزبر(فكل صغير وكبير أعم من كل شيء فعلوه، والمعنى: كل شيء حقير أو عظيم مستطر، أي مكتوب مسطور، أي في علم الله تعالى، أي كل ذلك يعلمه الله ويحاسب عليه، فمستطر: اسم مفعول من سطر إذا كتب سطورا قال تعالى) وكتاب مسطور(.
وهذا كقوله تعالى)وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين(وقوله)لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين(.
فالصغير: مستعار للشيء الذي لا شأن له ولا يهتم به الناس ولا يؤاخذ عليه فاعله، أو لا يؤاخذ عليه مؤاخذة عظيمة. والكبير: مستعار لضده ويدخل في ذلك ما له شأن من الصلاح وما له شأن من الفساد وما هو دون ذلك، وذلك أفضل الأعمال الصالحة وما دونه

من الأعمال الصالحة، وكذلك كبائر الإثم والفواحش وما دونها من اللمم والصغائر.

والمستطر: كناية عن علم الله به وذلك كناية عن الجزاء عليه مكان ذلك جامعا للتبشير والإنذار.

)إن المتقين في جنات ونهر[54] في مقعد صدق عند مليك مقتدر[55](استئناف بياني لأنه لما ذكر أن كل صغير وكبير مستطر على إرادة أنه معلوم ومجازا عليه وقد علم جزاء المجرمين من قوله) إن المجرمين في ضلال وسعر(كانت نفس السامع بحيث تتشوف إلى مقابل ذلك من جزاء المتقين وجريا على عادة القرآن من تعقيب النذارة بالبشارة والعكس.

وافتتاح هذا الخبر بحرف)إن(للاهتمام به.

و)في(من قوله)في جنات (للظرفية المجازية التي هي بمعنى التلبس القوي كتلبس المظروف بالظرف، والمراد في نعيم جنات ونهر فإن للجنات والأنهار لذات متعارفة من اللهو والأنس والمحادثة، واجتناء الفواكه، ورؤية الجداول وخرير الماء، وأصوات الطيور، وألوان السوابح.

وبهذا الاعتبار عطف نهر على)جنات(إذ ليس المراد الإخبار بأنهم ساكنون جنات فإن ذلك يغني عن قوله بعد)في مقعد صدق عند مليك مقتدر(، ولا أنهم منغمسون في أنهار إذ لم يكن ذلك مما يقصده السامعون.

ونهر: بفتحتين لغة في نهر بفتح فسكون. والمراد به اسم الجنس الصادق المتعدد لقوله تعالى)من تحتهم الأنهار(، وقوله)في مقعد صدق(إما في محل الحال من المتقين وإما في محل الخبر الثاني)إن(.

والمقعد: مكان القعود. والقعود هنا بمعنى الإقامة المطمئنة كما في قوله تعالى)فاقعدوا مع القاعدين(.

والصدق: أصله مطابقة الخبر للواقع ثم شاعت له استعمالات نشأت عن مجاز أو استعارة ترجع إلى معنى مصادفة أحد الشيء على ما يناسب كمال أحوال جنسه، فيقال: هو رجل صدق، أي تمام رجلة، وقال تأبط شرا:

إني لمهد من ثنائي فقاصد به

لابن عم الصدق شمس بن مالك أي ابن العم حقا، أي موف بحق القرابة.

وقال تعالى)ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق(وقال في دعاء لإبراهيم عليه السلام)واجعل لي لسان صدق في الآخرين(ويسمى الحبيب الثابت المحبة صديقا وصديقا.

فمقعد صدق، أي مقعد كامل في جنسه مرضي للمستقر فيه فلا يكون فيه استفزاز ولا زوال، وإضافة)مقعد(إلى)صدق(من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة في تمكن الصفة منه.
والمعنى: هم في مقعد يشمل كل ما يحمده القاعد فيه.
والمليك: فعيل بمعنى المالك مبالغة وهو أبلغ من ملك، ومقتدر: أبلغ من قادر، وتنكيره وتنكير مقتدر للتعظيم.

صفحة : 4241

والعندية عندية تشريف وكرامة، والظرف خبر بعد خبر.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الرحمن
وردت تسميتها بسورة الرحمن بأحاديث منها ما رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ سورة الرحمن الحديث.
وفي تفسير القرطبي أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبي صلى الله عليه وسلم اتل علي ما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أعدها، فأعادها ثلاثا، فقال: إن له لحلاوة الخ.
وكذلك سميت في كتب السنة وفي المصاحف.
وذكر في الإتقان: أنها تسمى عروس القرآن لما رواه البيهقي في شعب الإيمان عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن . وهذا لا يعدوا أن يكون ثناء على هذه السورة وليس هو من التسمية في شيء كما روي أن سورة البقرة فسطاطا القرآن.
ووجه تسميه هذه السورة بسورة الرحمن أنها ابتدئت باسمه تعالى)الرحمن(.
وقد قيل: إن سبب نزولها قول المشركين المحكي في قوله تعالى)وإذا قيل لهم أسجدوا للرحمن وقالوا وما الرحمن(في سورة الفرقان، فتكون تسميتها باعتبار إضافة)سورة(إلى)الرحمن(على معنى إثبات وصف الرحمن.
وهي مكية في قول جمهور الصحابة والتابعين، وروى جماعة عن ابن عباس أنها مدنية نزلت في صلح القضية عندما أبى سهيل بن عمرو أن يكتب في رسم الصلح)بسم الله الرحمن الرحيم(.
ونسب إلى ابن مسعود أيضا أنها مدنية. وعن ابن عباس: أنها مكية سوى آية منها هي قوله)يسأله من في السماوات والأرض كل هو في شأن(. والأصح أنها مكية كلها وهي في مصحف ابن مسعود أول

المفصل. وإذا صح أن سبب نزولها قول المشركين)وما الرحمن(تكون نزلت بعد سورة الفرقان.

وقيل سبب نزولها قول المشركين)إنما يعلمه بشر(المحكي في سورة النحل. فرد الله عليهم بأن الرحمن هو الذي علم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن.

وهي من أول السور نزولا فقد أخرج أحمد في مسنده بسند جيد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون يقرأ)فبأي آلاء ربكما تكذبان(. وهذا يقتضي أنها نزلت قبل سورة الحجر. وللاختلاف فيها لم تحقق رتبتها في عداد نزول سور القرآن. وعدها الجعبري ثامنة وتسعين بناء على قول بأنها مدنية وجعلها بعد سورة الرعد وقبل سورة الإنسان.

وإذ كان الأصح إنها مكية وأنها نزلت قبل سورة الحج وقبل سورة النحل وبعد سورة الفرقان، فالوجه أن تعد ثالثة وأربعين بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر.

وعد أهل المدينة ومكة آيها سبعا وسبعين، وأهل الشام والكوفة ثمانا وسبعين لأنهم عدوا الرحمن آية، وأهل البصرة ستا وسبعين.

أغراض هذه السورة

ابتدئت بالتنويه بالقرآن قال في الكشاف: أراد الله أن يقدم في عدد آلائه أول شيء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين فقدم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها وأقصى مراقبها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه إياه ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان اه.

وتبع ذلك من التنويه بالنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله هو الذي علمه القرآن ردا على مزاعم المشركين الذين ويقولون)إنما يعلمه بشر(، وردا على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين أو أنه سحر أو كلام كاهن أو شعر.

ثم التذكير بدلائل قدرة الله تعالى في ما أتقن صنعه مدمجا في ذلك التذكير بما في ذلك كله من نعم الله على الناس.

وخلق الجن وإثبات جزائهم.

والموعظة بالفناء وتخلص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء. وختمت بتعظيم الله والثناء عليه.

وتخلل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل، والأمر بتوفية أصحاب الحقوق حقوقهم، وحاجة الناس إلى رحمة الله فيما خلق لهم، ومن

أهمها نعمة العلم ونعمة البيان، وما أعد من الجزاء للمجرمين ومن الثواب والكرامة للمتقين ووصف نعيم المتقين.
ومن بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه)الرحمن(وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدمه غيره.
ومنه التعداد في مقام الامتنان والتعظيم بقوله)فبأي آلاء ربكما تكذبان(إذ تكرر فيها إحدى وثلاثين مرة وذلك أسلوب عربي جليل كما سنبينه.

صفحة : 4242

)الرحمن[1] علم القرآن[2](هذه آية واحدة عند جمهور العادين. ووقع في المصاحف التي برواية حفص عن عاصم علامة آية عقب كلمة)الرحمن(، إذ عدها قراء الكوفة آية فلذلك عد أهل الكوفة آي هذه السورة ثمانا وسبعين. فإذا جعل اسم)الرحمن(آية تعين أن يكون اسم)الرحمن(: إما خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الرحمن، أو مبتدأ خبره محذوف يقدر بما يناسب المقام.
ويجوز أن يكون واقعا موقع الكلمات التي يراد لفظها للتنبيه على غلط المشركين إذ أنكروا هذا الاسم قال تعالى)قالوا وما الرحمن(كما تقدم في سورة الفرقان، فيكون موقعه شبيها بموقع الحروف المقطعة التي يتهجى بها في أوائل بعض السور على أظهر الوجوه في تأويلها وهو التعريض بالمخاطبين بأنهم أخطأوا في إنكارهم الحقائق.
وافتتح باسم)الرحمن(فكان فيه تشويق جميع السامعين إلى الخبر الذي يخبر به عنه إذ كان المشركون لا يألفون هذا الاسم قال تعالى)قالوا وما الرحمن(، فهم إذا سمعوا هذه الفاتحة ترقبوا ما سيرد من الخبر عنه، والمؤمنون إذا طرق أسماعهم هذا الاسم استشرفوا لما سيرد من الخبر المناسب لوصفه هذا مما هم متشوقون إليه من آثار رحمته.
على أنه قد قيل: إن هذه السورة نزلت بسبب قول المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم)إنما يعلمه بشر(، أي يعلمه القرآن فكان الاهتمام بذكر الذي يعلم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن أقوى من الاهتمام في التعليم.
وأوثر استحضار الجلالة باسم)الرحمن(دون غيره من الأسماء لأن المشركين يأبون ذكره فجمع في هذه الجملة بين ردين عليهم مع ما للجملة الاسمية من الدلالة على ثبات الخبر، ولأن معظم هذه السورة تعداد للنعم والآلاء فافتتاحها باسم)الرحمن(براعة استهلال.

وقد أخبر عن هذا الاسم بأربعة أخبار متتالية غير متعاطفة رابعها هو جملة)الشمس والقمر بحسبان(كما سيأتي، ففضل جملتي)خلق الإنسان علمه البيان(عن جملة)علم القرآن(خلاف مقتضى الظاهر. لنكتة التعديد للتبكيت.

وعطف عليها أربعة أخر بحرف عطف من قوله)والنجم والشجر يسجدان(إلى قوله)والأرض وضعها للأنام(وكلها دالة على تصرفات الله ليعلمهم أن الاسم الذي استنكروه هو اسم الله وأن المسمى واحد.

وجيء بالمسند فعلا مؤخرا عن المسند إليه لإفادة التخصيص، أي علم القرآن لا بشر علمه وحذف المفعول الأول لفعل)علم القرآن(لظهوره، والتقدير: علم محمدا صلى الله عليه وسلم لأنهم ادعوا أنه معلم وإنما أنكروا أن يكون معلمه القرآن هو الله تعالى وهذا تبكيت أول.

وانتصب)القرآن(على أنه مفعول ثان لفعل)علم(، وهذا الفعل هنا معدى إلى مفعولين فقط لأنه ورد على أصل ما يفيده التضعيف من زيادة مفعول آخر مع فاعل فعله المجرد، وهذا المفعول هنا يصلح أن يتعلق به التعليم إذ هو اسم لشيء متعلق به التعليم وهو القرآن، فهو كقول معن بن أوس:

أعلمه الرماية كل يوم وقوله تعالى)وإذ علمتك الكتاب(في سورة العقود وقوله)وما علمناه الشعر(في سورة يس، ولا يقال: علمته زيدا صديقا، وإنما يقال: أعلمته زيدا صديقا، ففعل علم إذا ضعف كان بمعنى تحصيل التعليم بخلافه إذ عدي بالهمزة فإنه يكون لتحصيل الإخبار والأنباء.

وقد عدد الله في هذه السورة نعما عظيمة على الناس كلهم في الدنيا، وعلى المؤمنين خاصة في الآخرة وقدم أعظمها وهو نعمة الدين لأن به صلاح الناس في الدنيا، وباتباعهم إياه يحصل لهم الفوز في الآخرة. ولما كان دين الإسلام أفضل الأديان، وكان هو المنزل للناس في هذا الإبان، وكان متلقى من أفضل الوحي والكتب الإلهية وهو القرآن، قدمه في الأعلام وجعله مؤذنا بما يتضمنه من الدين ومشيرا إلى النعم الحاصلة بما بين يديه من الأديان كما قال)هذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه(.

ومناسبة اسم)الرحمن(لهذه الاعتبارات منتزعة من قوله)وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين(.

والقرآن: اسم غلب على الوحي اللفظي الذي أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه وتعبد ألفاظه.

)خلق الإنسان[3](خبر ثان، والمراد بالإنسان جنس الإنسان وهذا تمهيد للخبر الآتي وهو)علمه البيان(.

وهذه قضية لا ينازعون فيها ولكنهم لما أعرضوا عن موجبها وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، سيق لهم الخبر بها على أسلوب التعديد بدون عطف كالذي يعد للمخاطب مواقع أخطائه وغفلته، وهذا تبكيت ثان.

ففي خلق الإنسان دلالتان: أولاهما: الدلالة على تفرد الله تعالى بالإلهية، وثانيتهما الدلالة على نعمة الله على الإنسان.

والخلق: نعمة عظيمة لأن فيها تشريفا للمخلوق بإخراجه من غياهب ألعدم إلى مبرز الوجود في الأعيان، وقدم خلق الإنسان على خلق السماوات والأرض لما علمت آنفا من مناسبة إردافه بتعليم القرآن.

ومجيء المسند فعلا بعد المسند إليه يفيد تقوي الحكم. ولك أن تجعله للتخصيص بتنزيلهم منزلة من ينكر أن الله خلق الإنسان لأنهم عبدوا غيره.

)علمه البيان[4](خبر ثالث تضمن الاعتبار بنعمة الإبانة عن المراد والامتنان بها بعد الامتنان بنعمة الإيجاد، أي علم جنس الإنسان أن يبين عما في نفسه ليفيده غيره ويستفيد هو.

والبيان: الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض وهو النطق وبه تميز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان فهو من أعظم النعم.

وأما البيان من غير النطق من إشارة وإيماء ولمح النظر فهو أيضا من مميزات الإنسان وإن كان دون بيان النطق.

ومعنى تعليم الله الإنسان البيان: أنه خلق فيه الاستعداد لعم ذلك وأهمله وضع اللغة للتعارف، وقد تقدم عند قوله تعالى)وعلم آدم الأسماء كلها(في سورة البقرة.

وفي الإشارة إلى أن نعمة البيان أجل النعم على الإنسان، فعد نعمة التكاليف الدينية وفيه تنويه بالعلوم الزائدة في بيان الإنسان وهي خصائص اللغة وآدابها.

ومجيء المسند فعلا بعد المسند إليه لإفادة تقوي الحكم.

وفيه من التبكيت ما علمته آنفا، ووجه أنهم لم يشكروه على نعمة البيان إذ صرفوا جزءا كبيرا من بيانهم فيما يلهيهم عن إفراد الله بالعبادة وفيما ينازعون الله به من يدعوهم إلى الهدى.

)الشمس والقمر بحسبان[5](جملة هي خبر رابع عن الرحمن وإلا كان ذكره هنا بدونه مناسبة فينقلب اعتراضا. ورابط الجملة بالمبتدأ تقديره: بحسبانه، أي حسبان الرحمان وضبطه.

وهذا استدلال على التفرد بخلق كوكب الشمس وكرة القمر وامتنان بما أودع فيهما من منافع للناس، ونظام سيرهما الذي به تدقيق نظام معاملات الناس واستعدادهم لما يحتاجون إليه عند تغيرات أجوائهم وأرزاقهم. ويتضمن الامتنان بما في ذلك من منافعهم، وفي كون هذا الخبر جاريا على أسلوب التعديد ما قد علمت آنفا من التبكيت، ووجهه أنهم غفلوا عما في نظام الشمس والقمر من الحكمة وما يدل عليه ذلك النظام من تفرد الله بتقديره، فاشتغل بعضهم بعبادة الشمس وبعضهم بعبادة القمر كما قال تعالى)ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون(.

وجيء بهذه الجملة اسمية للتهويل بالابتداء باسم الشمس والقمر، وللدلالة على أن حسبانهما ثابت لا يتغير منذ بدء الخلق مؤذن بحكمة الخالق. واستغني بجعل اسم الشمس والقمر مسندا إليهما عن تفكيك المسند إلى مسندين: أحدهما يدل على الاستدلال، والآخر يدل على الامتنان، كما وقع في قوله)خلق الإنسان علمه البيان(.

والحسبان: مصدر حسب بمعنى عد مثل الغفران.

والباء للملابسة وهي ظرف مستقر هو خبر عن الشمس والقمر، والتقدير: كائنان بحسبان، أي بملابسة حسبان أي لحساب الناس مواقع سيرهما.

وإسناد هذه الملابسة إلى الشمس والقمر مجازي عقلي لأن الشمس والقمر سبب لتلبس الناس بحسابهما كما تقول: أنت بعناية مني، جعلت عنايتك ملابسة للمخاطب ملابسة اعتبارية، وقوله تعالى)فإنك بأعيننا(، وقد تقدم في قوله تعالى)والشمس والقمر حسبانا(في سورة الأنعام. والحسبان كناية عن انتظام سيرهما انتظاما مطردا لا يختل حساب الناس له والتوقيت به.

واقتصر على ذكر الشمس والقمر دون بقية الكواكب وإن كان فيها حسبان الأنواع، والحر والبرد، مثل الجوزاء، والشعرى، ومنزلة الأسد، والثريا، لأن هذين الكوكبين هما الباديان لجميع الناس لا يحتاج تعقل أحوالهما إلى تعليم توقيت مثل الكواكب الأخرى.

صفحة : 4244

ولأن السورة هذه بنيت على ذكر الأمور المزدوجة والشمس والقمر مزدوجان في معارف عموم لناس فالشمس: كوكب سماوي لأنه أعلى من الأرض والأرض تدور حوله وداخله في النظام الشمسي. والقمر: كوكب أرضي لأنه دون الأرض وتابع لها كبقية

أقمار الكواكب فذكر الشمس والقمر كذكر السماء والأرض، والمشرق، والمغرب، والبحرين.

)والنجم والشجر يسجدان[6](عطف على جملة)الشمس والقمر بحسبان(عطف الخبر على الخبر للوجه الذي تقدم لأن سجود الشمس والقمر لله تعالى وهو انتقال من الامتنان بما في السماء من المنافع إلى الامتنان بما في الأرض، وجعل لفظ)النجم(واسطة الانتقال لصلاحيته لأنه يراد منه نجوم السماء وما يسمى نجما من نبات الأرض كما يأتي.

وعطفت جملة)والنجم والشجر يسجدان(ولم تفصل فخرجت من أسلوب تعداد الأخبار إلى أسلوب عطف بعض الأخبار على بعض لأن الأخبار الواردة بعد حروف العطف لم يقصد بها التعداد إذ ليس فيها تعريض بتوبيخ المشركين، فالإخبار بسجود النجم والشجر أريد به الإيقاظ إلى ما في هذا من الدلالة على عظيم القدرة دلالة رمزية، ولأنه لما اقتضى المقام جمع النظائر من المزاوجات بعد ذكر الشمس والقمر كان ذلك مقتضيا سلوك طريقة لوصل بالعطف بجامع التضاد.

وجعلت الجملة مفتتحة بالمسند إليه لتكون على صورة فاتحة الجملة التي عطفت عليها. وأتي بالمسند فعلا مضارعا للدلالة على تجدد هذا السجود وتكرره على معنى قوله تعالى)ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال(.

والنجم يطلق: اسم جمع على نجوم السماء قال تعالى)والنجم إذا هوى(ويطلق مفردا فيجمع على نجوم، قال تعالى)وإدبار النجوم(. وعن مجاهد تفسيره هنا بنجوم السماء.

ويطلق النجم على النبات والحشيش الذي لا سوق له فهو متصل بالتراب. وعن ابن عباس تفسير النجم في هذه الآية بالنبات الذي لا ساق له. والشجر: النبات الذي له ساق وارتفاع عن وجه الأرض. وهذان ينتفع بهما الإنسان والحيوان.

فحصل من قوله)والنجم والشجر يسجدان(بعد قوله)الشمس والقمر بحسبان(قرينتان متوازيتان في الحركة والسكون وهذا من المحسنات البديعية الكاملة.

والسجود: يطلق على وضع الوجه على الأرض بقصد التعظيم، ويطلق الوقوع على الأرض مجازا مرسلا بعلاقة الإطلاق، أو استعارة ومنه قولهم نخلة ساجدة إذا أمالها حملها، فسجود نجوم السماء نزولها إلى جهات غروبها، وسجود نجم الأرض التصاقه بالتراب كالساجد، وسجود الشجر تطأطؤه بهبوب الرياح ودنو أغصانه للجانين لثماره والخابطين لورقه، ففعل)يسجدان(مستعمل في معنيين مجازيين وهما الدنو للمتناول والدلالة على عظمة الله تعالى بان

شبه ارتسام ظلالهما على الأرض بالسجود كما قال تعالى)ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال في سورة الرعد، وكما قال امرؤ القيس:

يكب علـى الأذ   قان وح الكنهبل

فقال: على الأذقان، ليكون الانكباب مشبها بسقوط الإنسان على الأرض بوجهه ففيه استعارة مكنية، وذكر الأذقان تخيل، وعليه يكون فعل)يسجدان(هنا مستعملا في مجازه، وذلك يفيد أن الله خلق في الموجودات دلالات عدة على أن الله موجدها ومسخرها، ففي جميعها دلالات عقلية، وفي بعضها أو معظمها دلالات أخرى رمزية وخيالية لتفيد منها العقول المتفاوتة في الاستدلال.

)والسماء رفعها ووضع الميزان[7] ألا تطغوا في الميزان[8] وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان[9](اطرد في هذه الآية أسلوب المقابلة بين ما يشبه الضدين بعد مقابلة ذكر الشمس والقمر بذكر النجم والشجر، فجيء بذكر خلق السماء وخلق الأرض.

وعاد الكلام إلى طريقة الإخبار عن المسند إليه بالمسند الفعلي كما في قوله)الرحمن علم القرآن(، وهذا معطوف على الخبر فهو في معناه.

ورفع السماء يقتضي خلقها.وذكر رفعها لأنه محل العبرة بالخلق العجيب. ومعنى رفعها: خلقها مرفوعة بغير أعمدة كما يقال للخياط: وسع جيب القميص، أي خطه واسعا على أن في مجرد الرفع إيذانا بسمو المنزلة وشرفها لأن فيها منشأ أحكام الله ومصدر قضائه، ولأنها مكان الملائمة، وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

وتقديم السماء على الفعل الناصب له زيادة في الاهتمام بالاعتبار بخلقها.

والميزان: أصله اسم آلة وزن، والوزن تقدير تعادل الأشياء وضبط مقادير ثقلها وهو مفعال من الوزن، وقد تقدم في قوله تعالى)والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه(في سورة الأعراف، وشاع إطلاق الميزان على العدل باستعارة لفظ الميزان للعدل علة وجه تشبيه المعقول بالمحسوس.

والميزان هنا مراد به العدل، مثل الذي في قوله تعالى)وأنزلنا معهم الكتاب والميزان(لأنه الذي وضعه الله، أي عينه لإقامة نظام الخلق، فالوضع هنا مستعار بالجعل فهو كالإنزال في قوله)وأنزلنا معهم الكتاب والميزان(. ومنه قول أبي طلحة الأنصاري   وإن أحب

أموالي إلي بئر حاء وأنها صدقة لله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله أي أجعلها وعينها لما يدلك الله عليه فإطلاق الوضع في الآية بعد ذكر رفع السماء مشاكلة ضدية، وإيهام طباق مع قوله)رفعها(ففيه محسنان بديعيان.

وقرن ذلك مع رفع السماء تنويها بشأن العدل بأن نسب إلى العالم العلوي وهو عالم الحق والفضائل، وأنه نزل إلى الأرض من السماء أي هو مما أمر الله به، ولذلك تكرر ذكر العدل مع ذكر خلق السماء كما في قوله تعالى)هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق(في سورة يونس، وقوله)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق(في سورة الحجر، وقوله)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق(في سورة الدخان. وهذا يصدق القول المأثور: بالعدل قامت السماوات والأرض . وإذ قد كان الأمر بإقامة العدل من أهم ما أوصى الله به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم قرن ذكر جعله بذكر خلق السماء فكأنه قيل ووضع فيها الميزان.

و)أن(في قوله)أن لا تطغوا(يجوز أن تكون تفسيرية لأن فعل وضع الميزان فيه معنى أمر الناس بالعدل. وفي الأمر معنى القول دون حروفه فهو حقيق بأن يأتي تفسيره بحرف)أن(التفسيرية. فكان النهي عن إضاعة العدل في أكثر المعاملات تفسيرا لذلك. فتكو)لا(ناهية.

ويجوز أن تكون)أن(مصدرية بتقدير لام الجر محذوفة قبلها. والتقدير: لئلا تطغوا في الميزان، وعلى كلا الاحتمالين يراد بالميزان ما يشمل العدل ويشمل ما به تقدير الأشياء الموزونة ونحوها في البيع والشراء، أي من فوائد تنزيل الأمر بالعدل أن تجتنبوا الطغيان في إقامة الوزن في المعاملة. وتكون)لا(نافية، وفعل)تطغوا(منصوبا ب)أن(المصدرية ولفظ)الميزان(يسمح بإرادة المعنيين على طريقة استعمال المشترك في معنييه. وفي لفظ الميزان وما قارنه من فعل)وضع(وفعلي)لا تطغوا(و)أقيموا(وحرف الباء في قوله)بالقسط(وحرف)في(من قوله)في الميزان(ولفظ)القسط(، كل هذه تظاهرت على إفادة هذه المعاني وهذا من إعجاز القرآن.

والطغيان: دحض الحق عمدا وأحتقارا لأصحابه، فمعنى الطغيان في العدل الاستخفاف بإضاعته وضعف الوازع عن الظلم. ومعنى الطغيان في وزن المقدرات تطفيفه.

و)في(من قوله)في الميزان(ظرفية مجازية تفيد النهي عن أقل طغيان على الميزان، أي ليس النهي عن إضاعة الميزان كله بل

النهي عن كل طغيان يتعلق به على نحو الظرفية قوله تعالى)وارزقوهم فيها واكسوهم(، أي ارزقوهم من بعضها وقول سبرة بن عمرو الفقعسي:
سبرة بن عمرو الفقعسي ونشرب في أثمانها ونقامر إذ أراد أنهم يشربون الخمر ببعض أثمان إبلهم ويقامرون، أي أن لهم فيها منافع أخرى وهي العطاء والأكل منها لقوله في صدر البيت:
نحابي بها أكفاءنا ونهينها وقوله تعالى)وأقيموا الوزن بالقسط(عطف على جملة)أن لا تطغوا في الميزان(على احتمال قول المعطوف عليها تفسيرية.
وعلى جملة)ووضع الميزان(على احتمال قول المعطوف عليها تعليلا.
والإقامة: جعل الشيء قائما، وهو تمثيل للإتيان به على أكمل ما يريد له وقد تقدم عند قوله)ويقيمون الصلاة(في سورة البقرة.
والوزن حقيقته: تحقيق تعادل الأجسام في الثقل، وهو هنا مراد به ما يشمل تقدير الكميات وهو الكيل والمقياس.

صفحة : 4246

والقسط: العدل وهو معرب من الرومية وأصله قسطاس ثم اختصر في العربية فقالوا مرة: قسطاس، ومرة: وتقدم في قوله تعالى)ونضع موازين القسط ليوم القيامة(في سورة الأنبياء.
والباء للمصاحبة.
والمعنى: اجعلوا العدل ملازما لما تقومونه من أموركم كما قال تعالى)وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى(وكما قال)ولا يجرمنكم شنئآن قوم على أن لا تعدلوا(، فيكون قوله)بالقسط(ظرفا مستقرا في موضع الحال أو الباء للسببية، أي رعوا في إقامة التمحيص ما يقتضيه العدل فيكون قوله)بالقسط(ظرفا لغوا متعلقا، وقد كان المشركون يعهدون إلى التطفيف في الوزن كما جاء في قوله تعالى)ويل للمطففين الذين إلا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون(. فلما كان التطفيف سنة من سنن المشركين تصدت للآية للتنبيه عليه، ويجيء على الاعتبارين تفسير قوله)ولا تخسروا الميزان(فإن حمل الميزان فيه على معنى العدل كان المعنى النهي عن التهاون بالعدل لغفلة أو تسامح بعد أن نهى عن الطغيان فيه، ويكون إظهار لفظ الميزان في مقام ضميره تنبيها على شدة عناية الله بالعدل، وإن حمل فيه على آلة الوزن كان

المعنى النهي عن غبن الناس في الوزن لهم كما قال تعالى في سورة المطففين)وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون(.

والإخسار: جعل الغير خاسرا والخسارة النقص.

فعلى حمل الميزان على معنى العدل يكون الإخسار جعل صاحب الحق خاسرا مغبونا؛ ويكون)الميزان(منصوبا على نزع الخافض، وعلى حمل الميزان على معنى آلة الوزن يكون الإخسار بمعنى النقص، أي لا تجعلوا الميزان ناقصا كما قال تعالى)ولا تنقصوا المكيال والميزان(، وقد علمت هذا النظم البديع في الآية الصالح لهذه المحامل.

)والأرض وضعها للأنام[10] فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام[11] والحب ذو العصف والريحان[12](عطف على)والسماء رفعها(وهو مقابله في المزاوجة والوضع يقابل الرفع، فحصل محسن الطباق مرتين، ومعنى)وضعها(خفضها لهم، أي جعلها تحت أقدامهم وجنوبهم لتمكينهم من الانتفاع بها بجميع ما لهم فيها من منافع ومعالجات.

واللام في)للأنام(للأجل. والأنام: اختلفت أقوال أهل اللغة والتفسير فيه، فلم يذكره الجوهري ولا الراغب في مفردات القرآن ولا ابن الأثير في النهاية ولا أبو البقاء الكفوي في الكليات. وفسره الزمخشري بقوله الخلق وهو كل ما ظهر على وجه الأرض من دابة فيها روح . وهذا مروي عن ابن عباس وجمع من التابعين. وعن ابن عباس أيضا: أنه الإنسان فقط. وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وسياق الآية يرجح أن المراد به الإنسان، لأنه في مقام الامتنان والاعتناء بالبشر كقوله)هو الذي خلقكم وخلق لكم ما في الأرض جميعا(.

والظاهر أنه اسم غير مشتق وفيه لغات: أنام كسحاب، وأنام كساباط، وأنيم كأمير.

وجملة)فيها فاكهة(إلى آخرها مبنية لجملة)والأرض وضعها للأنام(وتقديم)فيها(على المبتدأ للاهتمام بما تحتوي عليه الأرض.

ولما كان قوله)وضعها للأنام(يتضمن وضعا وعلة لذلك الوضع كانت الجملة المبينة له مشتملة على ما فيه العبرة والامتنان.

والفاكهة: اسم لما يؤكل تفكها لا قوت مشتقة من فكه كفرح، إذا طابت نفسه بالحديث والضحك، قال تعالى)فضلتم تفكهون(لأن أكل ما يلذ للأكل وليس بضروري له إنما يكون في حال الانبساط.

والفاكهة: مثل الثمار والنقول من لوز وجوز وفستق.

وعطف على الفاكهة النخل وهو شجر التمر وهو أهم شجر الفاكهة عند العرب الذين نزل القرآن فيهم، وهو يثمر أصنافا من الفاكهة من رطب وبسر ومن تمر وهو فاكهة وقوت.
ووصف النخل)ذات الأكمام(وصف للتحسين فهو اعتبار بأطوار ثمر النخل، وامتنان بجماله وحسنه كقوله تعالى)ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون(فامتن بمنافعها وبحسن منظرها.
والأكمام: جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء ثمر النخلة ويقال له: الكفرى، فليست الأكمام مما ينتفع به فتعين ن ذكرها مع النخل للتحسين.
و)الحب ذو العصف(: هو الحب الذي لنباته سنابل ولها ورق وقصب فيصير تبنا، وذلك الورق والقصب هو العصف، أي الذي تعصفه الرياح وهذا وصف لحب الشعير والحنطة وبهما قوام حياة معظم الناس وكذلك ما أشبههما من نحو السلت والأرز.

وسمي العصف عصفا لأن الرياح تعصفه, أي تحركه ووصف الحب بأنه)ذو العصف(للتحسين وللتذكير بمنة جمال الزرع حين ظهوره في سنبله في حقوله نظير وصف النخل بذات الأكمام ولأن الموصوف ووصفه أقوات البشر وحيوانهم.
وقرأ الجمهور)والحب ذات العصف والريحان(برفع)الحب(ورفع) الريحان(ورفع)ذو(, وقرأه حمزة والكسائي وخلف برفع) الحب(و)ذو(وبجر)الريحان(عطفا على)العصف(. وقرأه ابن عامر بنصب الأسماء الثلاثة وعلامة نصب)ذا العصف(الألف. وكذلك كتب في مصحف الشام عطفا على)الأرض(أو هو على الاختصاص.
والريحان: ما له رائحة ذكية من الأزهار والحشائش وهو فعلان من الرائحة, وإنما سمي به ما له رائحة طيبة. وهذا اعتبار وامتنان بالنبات المودعة فيه الأطياب مثل الورد والياسمين وما يسمى بالريحان الأخضر.
)فبأي آلاء ربكما تكذبان[13](الفاء للتفريع على ما تقدم من المنن المدمجة من دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحقية وحي القرآن, ودلائل عظمة الله تعالى وحكمته باستفهام عن تعيين نعمة من نعم الله يأتي لهم إنكارها, وهو تذييل لما قبله.
و)أي(استفهام عن تعيين واحد من الجنس الذي تضاف إليه وهي هنا مستعملة في التقرير بذكر ضد ما يقربه مثل قوله)ألم نشرح لك صدرك(. وقد بينته عند قوله تعالى)يا معشر الجن والإنس ألم

يأتكم رسل منكم(في سورة الأنعام, أي لا يستطيع أحد منكم أن يجحد نعم الله.
والآلاء: النعم جمع: إلي بكسر الهمزة وسكون اللام, وألي بفتح الهمزة وسكون اللام وياء في آخره ويقال ألو بواو عوض الياء وهو النعمة.
وضمير المثنى في)ربكما تكذبان(خطاب لفريقين من المخاطبين بالقرآن. والوجه عندي أنه خطاب للمؤمنين والكافرين الذين ينقسم إليهما جنس الإنسان المذكور في قوله)خلق الإنسان(وهم المخاطبون بقوله)أن لا تطغوا في الميزان(الآية والمنقسم إليهما الأنام المتقدم ذكره, أي أن نعم الله على الناس لا يجحدها كافر بله المؤمن, وكل فريق يتوجه إليه الاستفهام بالمعنى الذي يناسب حاله.
والمقصود الأصلي: التعريض بالمشركين وتوبيخهم على أن أشركوا في العبادة مع المنعم غير المنعم, والشهادة عليهم بتوحيد المؤمنين, والتكذيب مستعمل في الجحود والإنكار.
وقيل التثنية جرت على طريقة في الكلام العربي أن يخاطبوا الواحد بصيغة المثنى كقوله تعالى)ألقيا في جهنم كل كفار عنيد(ذكر ذلك الطبري والنسفي.
ويجوز أن تكون التثنية قائمة مقام تكرير اللفظ لتأكيد المعنى مثل: لبيك وسعديك, ومعنى هذا أن الخطاب لواحد وهو الإنسان.
وقال جمهور المفسرين: هو خطاب للإنس والجن, وهذا بعيد لأن القرآن نزل لخطاب الناس ووعظهم ولم يأت لخطاب الجن, فلا يتعرض القرآن لخطابهم, وما ورد في القرآن من وقوع اهتداء نفر من الجن بالقرآن في سورة الأحقاف وفي سورة الجن يحمل على أن الله كلف الجن باتباع ما يتبين لهم في إدراكهم, وقد يكلف الله أصنافا بما هم أهل له دون غيرهم, كما كلف أهل العلم بالنظر في العقائد وكما كلفهم بالاجتهاد في الفروع ولم يكلف العامة بذلك, فما جاء في القرآن من ذكر الجن فهو في سياق الحكاية عن تصرفات الله فيهم وليس لتوجيه العمل بالشريعة.
وأما ما رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمان وهم ساكتون فقال لهم لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم, كنت كلما أتيت على قوله)فبأي آلاء ربكما تكذبان(قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد . قال الترمذي: هو حديث الغريب. وفي سنده زهير بن محمد وقد ضعفه البخاري وأحمد بن حنبل.

وهذا الحديث لو صح فليس تفسيرا لضمير التثنية لأن الجن سمعوا ذلك بعد نزوله فلا يقتضي أنهم المخاطبون به وإنما كانوا مقتدين بالذين خاطبهم الله, وقلي الخطاب للذكور والإناث وهو بعيد.
والتكذيب مستعمل في معنى الجحد والإنكار مجازا لتشنيع هذا الجحد.
وتكذيب الآلاء كناية عن الإشراك بالله في الإلهية. والمعنى: فبأي نعمة من نعم الله عليكم تنكرون إنها نعمة عليكم فأشركتم فيها غيره بله إنكار جميع نعمه إذ تعبدون غيره دواما.

صفحة : 4248

)خلق الإنسان من صلصال كالفخار[14] وخلق الجآن من مارج من نار[15](هذا انتقال إلى الاعتبار بخلق الله الإنسان وخلقه الجن.
والقول في مجيء المسند كالقول في قوله)علم القرآن(.
والمراد بالإنسان آدم وهو أصل الجنس وقوله)من صلصال(تقدم نضيره في سورة الحجر.
والصلصال: الطين اليابس.
والفخار: الطين المطبوخ بالنار ويسمى الخزف. وظاهر كلام المفسرين أن قوله)كالفخار(صفة ل)صلصال(. وصرح بذلك الكواشي في تلخيص التبصرة ولم يعرجوا على فائدة هذا الوصف. والذي يظهر لي أن يكون كالفخار حالا من)الإنسان(, أي خلقه من صلصال فصار الإنسان كالفخار في صورة خاصة وصلابة.
ومعنى أنه صلصال يابس يشبه يبس الطين المطبوخ والمشبه غير المشبه به, وقد عبر عنه بالحمأ المسنون, والطين اللازب, والتراب.
والجان: الجن والمراد به إبليس وما خرج عنه من الشياطين, وقد حكى الله عنه قوله)خلقتني من نار وخلقته من طين(.
والمارج: هو المختلط وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول مثل دافق, وعيشة راضية, أي خلق الجان من خليط من نار, أي مختلط بعناصر أخرى إلا أن النار أغلب عليه كما كان التراب أغلب على تكوين الإنسان مع ما فيه من عنصر النار وهو الحرارة الغريزية والمقصود هنا هو خلق الإنسان بقرينة تذييله بقوله)فبأي آلاء ربكما تكذبان(وإنما قرن بخلق الجان إظهارا لكمال النعمة في خلق الإنسان من مادة لينة قابلة للتهذيب والكمال وصدور الرفق بالموجودات التي معه على وجه الأرض.
وهو أيضا تذكير وموعظة بمظهر من مظاهر قدرة الله وحكمته في خلق نوع الإنسان وجنس الجان.

وفيه إيماء إلى ما سبق في القرآن النازل قبل هذه السورة من تفضيل الإنسان على الجان إذ أمر الله الجان بالسجود للإنسان, وما ينطوي من ذلك من وفرة مصالح الإنسان على مصالح الجان, ومن تأهله لعمران العالم لكونه مخلوقا من طينته إذ الفضيلة تحصل من مجموع أوصاف لا من خصوصيات مفردة.

)فبأي آلاء ربكما تكذبان[16](هذا توبيخ على عدم الاعتراف بنعم الله تعالى, جيء فيه بمثل ما جيء به في نظيره الذي سبقه ليكون التوبيخ بكلام مثل سابقه, وذلك تكرير من أسلوب التوبيخ ونحوه أن يكون بمثل الكلام السابق, فحق هذا أن يسمى بالتعداد لا بالتكرار, لأنه ليس تكرارا لمجرد التأكيد, فالفاء في قوله)فبأي آلاء ربكما تكذبان(هنا تفريع على قوله)رب المشرقين ورب المغربين(لأن ربوبيته تقتضي الاعتراف له بنعمة الإيجاد والإمداد وتحصل من تماثل الجمل المكررة فائدة التأكيد والتقرير أيضا فيكون للتكرير غرضان كما قدمناه في الكلام على أول السورة.

وفائدة التكرير توكيد التقرير بما لله تعالى من نعم على المخاطبين وتعريض توبيخهم على الإشراك بالله أصناما لا نعمة لها على حد, وكلها دلائل على تفرد الإلهية. وعن ابن قتيبة أن الله عدد في هذه السورة نعماء, وذكر خلقه آلاءه ثم أتبع كل خلة وصفها, ونعمة وضعها بهذه, وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها اه. وقال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة.

وقال الشريف المرتضى في مجالسه وآماله المسمى الدرر والغرر: وهذا كثير في كلام العرب وأشعارهم, قال مهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليبا:

على أن ليس عدلا من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور وذكر المصراع الأول ثمان مرات في أوائل أبيات متتابعة. وقال الحارث بن عياد:

قربا مربط النعامة مـنـي لحقت حرب وائل عن حبال ثم كرر قوله: قربا مربط النعامة مني, في أبيات كثيرة من القصيد.

وهكذا القول في نظائر قوله)فبأي آلاء ربكما تكذبان(المذكور هنا إلى ما في آخر السورة.

)رب المشرقين ورب المغربين[17](استئناف ابتدائي فيه بيان لجملة)الشمس والقمر بحسبان(وعطف)ورب المغربين(لأجل ما ذكرته آنفا من مراعاة المزاوجة.

وحذف المسند إليه على الطريقة التي سماها السكاكي بإتباع الاستعمال الوارد على تركه أو ترك نظائره وتقدم غير مرة.

والمشرق: جهة شروق الشمس، والمغرب: جهة غروبها وتثنية المشرقين والمغربين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت وفي فصلي الصيف والخريف من سمت آخر وبمراعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربين ينتقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال: المشارق والمغارب كما في قوله تعالى)فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون(في سورة المعارج.

ومن زعم أن تثنية المشرقين لمراعاة مشرق الشمس والقمر وكذلك تثنية المغربين لم يغص على معنى كبير.

وعلى ما فسر به الجمهور)المشرقين(و)المغربين(بمشرقي الشمس ومغربيها فالمراد ب)المشرقين(النصف الشرقي من الأرض، وب)المغربين(النصف الغربي منها.

وربوبية الله تعالى بالمشرقين والمغربين بمعنى الخلق والتصرف.

)فبأي آلآء ربكما تكذبان[18](تكرير كما علمت آنفا.

)مرج البحرين يلتقيان[19] بينهما برزخ لا يبغيان[20](خبر آخر عن)الرحمن(قصد منه العبرة بخلق البحار والأنهار، وذلك خلق عجيب دال على عظمة قدرة الله وعلمه وحكمته.

ومناسبة ذكره عقب ما قبله أنه لما ذكر أنه سبحانه رب المشرقين ورب المغربين وكانت الأبحر والأنهار في جهات الأرض ناسب الانتقال إلى الاعتبار بخلقهما وبالامتنان بما أودعها من منافع الناس.

والمرج: له معان كثيرة، وأولها في هذا الكلام أنه الإرسال من قولهم مرج الدابة إذ أرسلها ترعى في المرج، وهو الأرض الواسعة ذات الكلأ الذي لا مال له، أي: تركها تكذب حيث تشاء.

والمعنى: أرسل البحرين لا يحبس ماءهما عن الجري حاجز. وهذا تهيئة لقوله بعد)يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان(.

والمراد: أنه خلقهما ومرجهما، لأنه ما مرجهما إلا عقب أن خلقها.

ويلتقيان: يتصلان بحيث يصب أحدهما في الآخر.

والبحر: الماء الغامر جزءا عظيما من الأرض يطلق على الماء المالح والعذب.

والمراد تثنية نوعي البحر وهما البحر الملح والبحر العذب. كما في قوله تعالى)وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج(. والتعريف تعريف العهد الجنسي.
فالمقصود ما يعرفه العرب من هذين النوعين وهما نهر الفرات وبحر العجم المسمى اليوم بالخليج الفارسي. والتقاؤهما انصباب ماء الفرات في الخليج الفارسي. في شاطىء البصرة، والبلاد التي على الشاطىء العربي من الخليج الفارسي تعرف عند العرب ببلاد البحرين لذلك.
والمراد بالبرزخ الذي بينهما: الفاصل بين الماءين الحلو والملح بحيث لا يتغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره. وذلك بما في كل ماء منهما من خصائص تدفع عنه اختلاط الآخر به. وهذا من مسائل الثقل النوعي.وذكر البرزخ تشبيه بليغ، أي بينهما مثل البرزخ وهو معنى لا يبغيان، أي لا يبغي أحدهما على الآخر، أي لا يغلب عليه فيفسد طعمه فاستعير لهذه الغلبة لفظ البغي الذي حقيقته الاعتداء والتظلم.
ويجوز أن تكون التثنية تثنية بحرين ملحين معينين، والتعريف حينئذ تعريف العهد الحضوري، فالمراد: بحران معروفان للعرب. فالأظهر أن المراد:البحر الأحمر الذي عليه شطوط تهامة مثل: جدة وينبع النخل، وبحر عمان وهو بحر العرب الذي عليه حضرموت وعدن من بلاد اليمن: والبرزخ: الحاجز الفاصل، والبرزخ الذي بين هذين البحرين هو مضيق باب المندب حيث يقع مرسى عدن ومرسى زيلع.
ولما كان في خلق البحرين نعم على الناس عظيمة منها معروفة عند جميعهم فإنهم يسيرون فيهما كما قال تعالى)وترى الفلك مواخر فيه(وقال)هو الذي يسيركم في البر والبحر(واستخراج سمكه والتطهر بمائه. ومنها معروفة عند العلماء وهي ما لأملاح البحر من تأثير في تنقية هواء الأرض واستجلاب الأمطار وتلقي الأجرام التي تنزل من الشهب وغير ذلك.
وجملة)يلتقيان(وجملة)بينهما برزخ(حالان من)البحرين(.
وجملة)لا يبغيان(مبينة لجملة)بينهما برزخ(.
)فبأي آلاء ربكما تكذبان[21](تكرير كما علمته مما تقدم، ووقع هنا اعتراضا بين أحوال البحرين.
)يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان[22](